
ونستون تشرشل والخداع البريطانى
(1914 - 1945)
تأليف
نيكولاس رانكين
ترجمة
على أمين على
المركز القومى للترجمة
2165

بحلول يونيو عام 1940، خضعت معظم القارة الأوروبية للسيطرة النازية وظلت بريطانيا تناضل تحت قيادة ونستون تشرشل وتحاول الخروج من هذا المأزق من خلال ابتكار أساليب تمويه وخداع معقدة ومتطورة لمواجهة ألمانيا النازية، إلى جانب بث الأكاذيب واختراق الشفرات السرية للجيش الألمانى وبناء مطارات مزيفة ونماذج لطائرات وهمية وتسريب معلومات مغلوطة إلى الاستخبارات الألمانية، وكان لهذا التضليل المذهل أثر واضح فى عام 1944.

"ونستون تشرشل والخداع البريطانى" يعتبر عملاً تاريخيًا عظيمًا، يضم بين طياته قصصًا رائعة للشجاعة والإقدام وسبل التمويه المتنوعة، ويتناول الخداع العسكرى البريطانى خلال القرن العشرين من أربعة جوانب: الخداع والدعاية والاستخبارات وحرب العصابات، التى كان تشرشل متحمسًا لها لأنها تعتمد على الخداع والمفاجأة أكثر من الهجوم المباشر.

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز : أنور مغيث

- العدد: 2165
- ونستون تشرشل والخداع البريطانى (١٩١٤-١٩٤٥)
- نيكولاس رانكين
- على أمين على
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

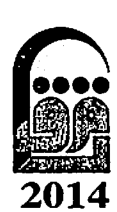
هذه ترجمة كتاب:
CHURCHILL'S WIZARDS:
The British Genius for Deception 1914-1945
By: Nicholas Rankin

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
E.mail:nctegypt@nctegypt.org Tel.: 27354524 Fax: 27354554

ونستون تشرشل
والخداع البريطاني

(١٩١٤-١٩٤٥)

تـأليـف : نيكولاس رانكين
ترجمـة : على أمين على



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رانكين: نيكولاس
ونستون تشرشل والخداع البريطانى (١٩١٤-١٩٤٥)؛
تأليف: نيكولاس رانكين؛ ترجمة: على أمين على
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤
ص: ٢٤ سم
١- الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) بريطانيا
٢- الحرب العالمية الثانى (١٩٣٩-١٩٤٥) بريطانيا
٣- تشرشل، ونستون (١٨٧١-١٩٤٧)
(أ) على، على أمين (مترجم)
(ب) العنوان ٩٤٠,٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٥٤٥٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-216-007-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقــدمة

يستمتع البريطانيون كثيراً بخداع أعدائهم، وعندما وضع كارل فون كلاوسفيتز الخبير الاستراتيجى تعريفًا للحرب عام ١٨٣٢ على أنها "القوة التى ترغم أعداءنا على تنفيذ ما نريد منهم"، افتقر تعريفه إلى الأبعاد التى حددها الفيلسوف السياسى البريطانى توماس هوبز منذ قرنين تقريباً؛ وهى أن "القوة والخداع عنصران أساسيان فى الحرب".

أطلق السير آلان لاسلى على ونستون تشرشل لقب "المشعوذ العجوز"، حيث كان لديه ولع بالاستعراض، ولم يتم التقاط صور لأى سياسى بريطانى آخر فى القرن العشرين وهو يرتدى أنواعًا مختلفة من القبعات؛ مثل: تشرشل وهو يرتدى القبعة المصنوعة من الخوص والمستديرة السوداء والقبعة ذات القرنين وخوذة الطيارين والقبعة التى تشبه القلنسوة والقبعة المكسيكية العريضة، والقبعة المصنوعة من لب نبات السولا الهندى والقبعة الواقية ضد الماء والقبعة الواسعة والقبعة الرسمية وقبعة الجندى، فدائمًا ما كان يلبس تشرشل ما يناسبه من تلك القبعات.

ويعتبر التظاهر والتصنع من المواهب الراسخة لدى الشعب البريطانى، حيث أشار ريموند سايتز السفير الأمريكى السابق إلى أن البريطانيين يحبون التصنع. وأشار المخرج المسرحى ريتشارد أير إلى أن حبهم لوطنهم يتجلى فى تقاليدهم الداخلية وارتداء الملابس الوطنية. ومع أنه يبدو أنهم منفتحون فى الظاهر، كما ذكر الروائى جوفرى هاوسهولد، فإنهم يتصرفون بالسليقة دون تحفظ تجاه الأمور التى تبدو مهمة بالنسبة إليهم، وأن إنكار الذات وسرعة البديهة والتعبيرات الساخرة هى أيضًا من أشكال التمويه لدى البريطانيين، فلا يصرح البريطانيون بما يقصدونه ولا يقصدون

ما يصرحون به، وغالبًا ما يظهرون الجدية فى ثوب من المرح يوارى خجلهم أو ارتباكهم، حيث يقول الكاتب والشاعر الأرجنتينى جورج لويس بورخيس عن هربرت آش فى رواياته: "إنه عانى من التطلع إلى الوهم شأنه شأن العديد من البريطانيين".

وفى ١٠ فبراير ١٩١٠؛ شقت مجموعة تتألف من ستة شُبَّان الطريق المؤدية إلى بارجة الأدميرال فى الأسطول الرئيسى بالبحرية الملكية، إتش إم إس دريدنوت، بانتحال شخصية إمبراطور الحبشة وحاشيته، وقابل حرس الشرف القطار فى ويماوث واستقبلهم الأدميرال والقائد على السفينة، كان من بين هؤلاء المنتحلين "الأمير ميندكس" الذى صبغ بشرته باللون الأسود واستخدم لحية مستعارة من ويلى كلاركسون، أشهر مصممى الأزياء لممثلى المسرح الذى كان يمارس عمله فى شارع واردور ستريت، وارتدى الأمير ملابس كاملة إضافة إلى عمامة وقفطان وسلسلة ذهبية ثقيلة، وكان الأمير ميندكس فى حقيقة الأمر روائيا معاصراً والشخصية أساسية فى عمل فيرجينيا وولف. علاوة على ذلك فإن الخداع الذى كانت تمارسه الطبقة الأرستقراطية يعد من المهارات الفائقة التى ساعدت سكان جزيرة صغيرة فى تكوين إمبراطورية عالمية مترامية الأطراف.

واستخدم الخداع العسكرى الذى عرفته **هيئة الأركان الأمريكية** على أنه "عمل يقصد به تضليل أصحاب القرار فى صفوف الأعداء فيما يتعلق بالقدرات والنوايا والعمليات العسكرية". وجاء فى كتاب صن تزو "فنون القتال" – (The Art of War) أن جميع الحروب قائمة على الخداع، ويقال بأن "الحرب خدعة" كما جاء على لسان النبى محمد (ﷺ). ولعل أشهر خدعة هى تلك التى أسقطت **"تروى"** وهى فكرة يونانية لحصان خشبى تصاحبه قوات خاصة، ويختبئ بينها الداهية أوديس.

للخداع جذور متأصلة فى علم الأحياء، حيث لاحظ فلاديمير نابوكوف أن "كل شىء يختلف جوهره عن شكله الظاهرى... بداية من الحشرة التى تقلد ورق الشجر وصولاً إلى أوسع وسائل الإغراء انتشاراً"، كما يظهر الخداع أيضًا فى العلاقات بين الحيوانات المفترسة وفرائسها، حيث تلجأ الحيوانات الأضعف إلى التنكر والتخفى

لحماية نفسها من الحيوانات الأقوى، إلا أن البشر يضيقون ذرعًا بفكرة الخداع لأنها تورث الظلم وتقضى على التعاون، كما يذكر أفلاطون فى كتابه المسمى "الجمهورية" (The Republic) أن الحكام فقط هم الذين يحق لهم الأكاذيب بما يصب فى مصلحة دولهم؛ وحتى يتسنى لهم الرد المباشر على الإجراءات التى يتخذها الأعداء أو المواطنون المثيرون للشغب.

طور البريطانيون أساليب الخداع فى الحربين العالميتين لمواجهة المخاطر الناجمة عن التقنيات العسكرية الجديدة برًا وبحرًا وجوًا، وتزايد ذلك إلى حد بعيد فى الحرب العالمية الثانية، فعندما وقعت الدولة الضعيفة فى الفخ بعد أن سقطت بقية دول أوروبا فيما سماه تشرشل "قبضة البوليس السرى وأجهزة الحكم النازى البغيضة"، طورت بريطانيا بعضًا من أهم أساليب الخداع التاريخية الرائعة المعقدة لمواجهة ألمانيا النازية؛ لكن اهتمام ونستون تشرشل بالسرية والخداع يعود إلى بداية الحرب العالمية الأولى.

ففى يوليو عام ١٩١١ وفى أثناء أزمة أغادير، كان تشرشل يشغل منصب وزير الداخلية، وكان يتحدث إلى رئيس مفوض الشرطة فى أثناء احتفال أقيم فى حديقة داوننج ستريت، وكانت ألمانيا تقوم بعملية استعراض للقوة فى المغرب، وذكر رئيس مفوض الشرطة أن وزارة الداخلية هى المسئولة عن حراسة اثنين من مخازن الذخيرة والمتفجرات الخاصة بالبحرية الملكية، وأن هناك عددًا قليلاً من رجال الشرطة يقومون بحراسة تلك المخازن؛ فتساءل تشرشل عما يمكن أن يحدث إذا وصل إلى تلك المخازن ليلاً "عشرون ألمانيًا مدججين بالسلاح يستقلون سيارتين أو ثلاثًا" فأجيب بأنه سيتعذر صد تلك القوات، وهنا غادر تشرشل الاحتفال الذى أقيم فى الحديقة ومعه سلاحه الخاص وتعزيزات من شرطة العاصمة وطلب المساعدة من الجيش البريطانى فى تأمين تلك المخازن.

وهنا فكر تشرشل فى التجسس والتجسس المضاد؛ وقام بالتوقيع على ضمانات جديدة تسمح بالاطلاع على رسائل البريد التى يشتبه فى أنها لعملاء ألمان،

ويصدر قائد الأميرالية الأول عام ١٩١٤ - كما جاء فى إحدى مذكراته التى هى تحت عنوان "سرية للغاية" (Most Secret) - تعليمات ببناء أسطول وهمى يتكون من عشرة مراكب تجارية يتم تصميمها بالحجم الطبيعى من الخشب والخيش لتشبه إلى حد بعيد السفن الحربية لتستخدم فى إرباك طائرات وغواصات العدو، وفى فبراير عام ١٩١٥، أرسلت ثلاث من هذه السفن الحربية إلى مضيق الدردنيل لإغراء الأسطول الألمانى بالتوجه إلى بحر الشمال.

وكان تشرشل وهو شاب يسخر من خيانة الأمانة حيث يقول: "لم تكن لدىّ أدنى فكرة خلال تلك الأيام عن ذلك الجانب العظيم الذى سيقدم المساعدة على نحو لا يرقى إليه شك والذى يلعب دوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية للعظماء الذين يقطنون الدولة الحرة الديمقراطية"؛ لكن تشرشل حصل على موافقة رسمية لممارسة أعمال الخداع فى أثناء الحرب، ومن ثم يناقش هذا الكتاب الخداع العسكرى البريطانى خلال القرن العشرين من أربعة جوانب هى: الخداع والدعاية والاستخبارات وحرب العصابات، وكان تشرشل متحمساً لفكرة تى إى لورنس بشأن حرب العصابات التى تعتمد على الخداع والمفاجأة أكثر من الهجوم المباشر، وكان من بين ما أنجزه تشرشل عندما تولى رئاسة الوزارة تأسيس القوات الخاصة (الكوماندوز) وقوات الخدمة الجوية الخاصة، كما غدا أيضاً مسئولاً عن الدعاية، فوفق ما يقوله المذيع إدوارد آر مورو عنه: "كان تشرشل يحشد اللغة الإنجليزية بما يخدم ميدان المعركة".

فعباقرة تشرشل هم أعوانه من الوطنيين البارعين الذين استخدموا كل مهاراتهم لمساعدة بلدهم فى صراعه من أجل البقاء، حيث كانت الحربان العالميتان عاملين من عوامل اكتشاف مواهب هذه الأمة جمعاء، وليس فقط تلك الطبقة المحدودة من العسكريين النظاميين. كما يتناول هذا الكتاب الفنانين والعلماء والمسرحيين والروائيين وعلماء الطبيعة إضافة إلى الفدائيين وأفراد الحرس الوطنى الذين قاموا بتنكير المنصات التى تطلق منها نيران المدافع الرشاشة لتبدو فى صورة مراحيض أو مقاه.

ويتناول النصف الأول من الكتاب الحرب العالمية الأولى التى أصقلت من خلالها الإبداعات البريطانية الأولى فى مجال الخداع؛ مهارات صائد الحيوانات الكبيرة هيسكث بريتشارد والمسرحى أوليفر برنارد ورسام المجتمع سولومون جوزيف سولومون، حيث تنكر عالم آثار أكسفورد تى إى لورنس فى ثوب أبيض ليصبح "لورنس العرب"، بينما أرسل جورج برنارد شو (الذى يرتدى زيًا كاكيًا وخوذة فولاذية) برقيات افتراضية من الخنادق، كما أصبح المؤلف الشهير جون بوشان رئيسًا للدعاية البريطانية. أما النصف الثانى من هذا الكتاب فيتناول الحرب العالمية الثانية مقدمًا لنا عباقرة أقل شهرة، (الصحفى بصحيفة ديلى إكسبرس الذى يتحدث الألمانية بطلاقة سيفتون ديملر والعسكرى النظامى المحب للسينما دودلى كليرك)، حيث قام كل من ديلمر وكليرك ومجموعتيهما بوضع مراوغات تكتيكية وخداع استراتيجى ودعاية سوداء لم يسبق لها مثيل لمساعدة الحلفاء فى الفوز بتلك الحرب. وتبدأ قصتنا من صيف عام ١٩١٤...

على أمين على

(١)

حـــرب الأعـصـــاب

عندما كان ونستون تشرشل يقرأ الصحف فى بورتسماوث اعتراه شعور مفاجئ بأن "شرا مستطيراً" قد وقع، ذلك بأنه فى يوم ٢٨ من شهر يونيو لعام ١٩١٤ انعطف ابن أخى الإمبراطور فرانز جوزيف الأول ووريث العرش الأرشيدوق فرانز فيريدناند وزوجته الحبلى صوفى منعطفًا خطأً فى مدينة سراييفو، وعندئذٍ خيّمت غمامة من الشر، لم تعد فى حجمها حجم يد رجل، على المكان لتتحول إلى عاصفة هوجاء تورط فيها ملايين من البشر من عشرات الدول.

كان الأرشيدوق فرديناند الرمز الكريه للإمبراطورية النمساوية - المجرية التى استحوذت على أراضى البوسنة والهرسك فى شهر أكتوبر من عام ١٩٠٨، لتسلخها بذلك مما كان يعرف بمنطقة صربيا الكبرى. هنالك ضربت اليد السوداء... حيث عزمت خلية إرهابية مؤلفة من الوطنيين الصربيين على اغتيال الأرشيدوق لدى مسيرة فى موكبه فى شوارع سراييفو. ألقى أحد المتآمرين قنبلة من بين الحشود المجتمعة، لكن السائق ارتكز بقدمه على بدّال التسارع حتى آخره، فانطلقت السيارة السوداء عابرة القنبلة فانفجرت خلفها مصيبةً عددًا من أشراف القوم الذين أقلّتهم السيارة التالية إضافة إلى بعض الأفراد من الحشود المجتمعة. وبعد ساعات، وفى أثناء القيادة عائدًا من زيارة المصابين فى المستشفى، اتخذ السائق منعطفًا خطأً كلّفه حياته.

عندما كانت السيارة فى وضعية الرجوع البطىء فى شارع غيبيت ستريت، مرّت السيارة بشاب مسلول شديد النحول يدعى غافريلو برينسيب وبيده شطيرة يقضمها فى مقهى يحمل اسم مورتيز تشيلرز. ما كاد البوسنى الصربى ذو ١٩ ربيعًا يصدّق ما آل إليه حظه، ذلك لأنه كان من سبعة تتألف منهم العصابة القوية التى منيت بالفشل فى تحقيق المراد من إلقاء القنبلة سالفة الذكر. كان برينسيب يحمل فى أحد جيبيه كبسولة مصنوعة من مادة السيانيد، وفى الآخر مسدسًا نصف أوتوماتيكى طراز برونينغ ٩مم بلجيكى الصنع. ولمّا كانت السيارة النمساوية مكشوفة السقف، حظى الشاب بفرصة ثانية لإتمام هدفه وتسجيل بصمته على صفحات التاريخ، فما كان منه إلا أن أطلق النار على الأرشيدوق وزوجته من مدى قريب.

وعلى امتداد شهر يوليو من العام ١٩١٤، دفعت التبعات المتعاظمة للحادث الذى اقترفه الشاب فى منطقة البلقان بلدانًا أخرى صوب أتون الحرب. وفى شارع فليت ستريت بالعاصمة لندن، حيث تُحرر وتُطبع كل الصحف الوطنية البريطانية، كان وجه فيليب غيبز وجهًا مألوفًا، وهو الرجل كريم الأصول المفعم بالعاطفة. غير أن أصابعه اصفرت وتأثر جسده بفعل شراهته فى التدخين وهو فى سن ٣٧، لكنه كان نجمًا فى عالم الصحافة كثير الانفرادات عظيم السبق، وكتب أول رواية حظيت بأفضل المبيعات عن مراسلى الصحف تحت عنوان "The Street of Adventure". وعندما بدأت الأحداث تتكشّف، كتب غيبز عن "اللا مصداقية المحيّرة" فى وسط إنجلترا، والتخبّط فى أروقة السلطة فى وايتهول، و"الجهل الطام" الذى يدفع باتجاه كل الأنشطة المحمومة فى مكاتب الصحف بشارع فليت ستريت. وليست باريس عن ذلك ببعيد، فإليها وفد غيبز بتكليف مهنى على مدار الأيام الأخيرة من شهر يوليو، وكانت الوصف عندئذٍ "مستحيل"!

وفى إنجلترا كانت مسرحية "Much Ado About Nothing" باكورة الأعمال فى افتتاح المهرجان الصيفى فى "ستراتفورد أبون أفون"؛ وكان العمل الأدبى "Wimbledon" قيد الإعداد؛ كما كانت المنافسة على أشدها فى "غودوود" والتدريبات تجرى على قدم وساق للعمل الأدبى "Henley" بدت الحرب مستبعدة على نحو صادم

شأن الحرارة التى عمت الأجواء فى عطلة نهاية الأسبوع واستراحة البنوك فى أغسطس إبّان تلك الفترة. من جانب آخر، كان الكاتب الاسكتلندى جون بوكان يتحرك فى أروقة نجوم الحكومة الليبرالية، ويتناول إفطاره مع وزير الخارجية السير إدوارد غرى يوم السبت الموافق الأول من شهر أغسطس حين وجده "شاحبًا مضنى القوى ولكن غير مفتقر للثبات كما الصخر". كما يذكر بوكان نفسه عن ذلك اليوم "الروح المعنوية العالية للسيد تشرشل التى انتابتها الصحوة حينئذٍ وحين تذكر القضايا الملحّة المثبّطة".

قارب تشرشل حينها عامه الأربعين من العمر، وبات أول قائد للأدميرالية منذ العام ١٩١١. وما كانت بريطانيا متروكة برأيه لأهوال الحرب دون استعداد، فقد شرع فى حراسة مواطن تفريغ الذخائر ومستودعات النفط وتحميلها، كما استحدث الدوريات الساحلية للحراسة، وتم إرسال الأسطول الأول فى هدوء وسرية من بورتلاند إلى بحر الشمال تحسّبًا لهجوم ألمانى مباغت. وفى يوم السبت المذكور كان تشرشل مجالسًا أف إى سميث وماكس أيتكن فى مقر الأدميرالية يلعبون الورق. وما أن دقت أجراس العاشرة مساءً حتى وافاهم صندوق أحمر كبير مرسل من وزارة الخارجية وبداخله ورقة صغيرة حملت سطرًا واحدًا من الأخبار: أعلنت ألمانيا القيصرية الحرب على روسيا القيصرية. عندئذٍ دق تشرشل جرسًا مستدعيًا خادمًا، وبدّل سترة العشاء التى كان يلبسها ثم ترك الغرفة قاصدًا زيارة رئيس الوزراء. يتذكر أيتكن (المغامر الكندى الذى أصبح لاحقًا اللورد بيفربروك، ومالك صحيفتى "ديلى" و"صنداى إكسبرس") أن تشرشل كان فى تلك اللحظة هادئًا هدوءًا غريبًا وما اعتراه إلا طبيعة العمل المعتادة. دخل تشرشل مقر رئيس الوزراء فى ١٠ داوننج ستريت "من بوابة الحديقة" ووجد أسكويث بصحبة غرى وهالدين واللورد كرو، وأخبرهم من فوره بعزمه على إعلان التعبئة الشاملة للأسطول الكبير فى البحرية الملكية. ومن مقره فى الأدميرالية كتب تشرشل إلى زوجته فى تمام الواحدة صباحًا:

"حبيبتى كات، بلغ السيل الزُّبَى، فقد أطاحت ألمانيا بآخر أمل فى السلام بإعلانها الحرب على روسيا، كما أن إطلاق إعلان مماثل ضد فرنسا متوقع فى أى لحظة... لقد أصيب هذا العالم بالجنون...".

وصف جون بوكان اللورد هالدين، الذى كان نائبًا فى وزارة الحرب عن رئيس الوزراء، على أنه يظهر "هدوءًا غريبًا"؛ كيف لا وذلك ما كان يستعد له على وجه التحديد. لقد شغل هالدين منصب وزير الدولة لشئون الحرب من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٢، فاستحدث مناصب الأركان العامة والقوة البرية والقوات الاحتياطية الخاصة وفيالق تدريب الضباط فى الكليات والجامعات، كما استحدث عام ١٩٠٧ القوة الاستكشافية البريطانية (المعروفة اختصاراً باسم BEF)؛ كانت بريطانيا حينها الدولة الأوروبية الوحيدة التى لا تأخذ بنظام التجنيد الإجبارى، غير أن جيشها الصغير، والمحترف فى الوقت ذاته، كان فى وضع "التدابير الاحترازية" فعلاً لعدد من الأيام، كما جرى استدعاء كل الجنود النظاميين من الإجازات.

شهد يوم الأحد الثانى من أغسطس؛ تبادل الأعيرة النارية الأولى بين فرنسا وألمانيا عند منطقة بيتى - كروى بالقرب من بيلفورت، وأعلنت ألمانيا القيصرية حربها على فرنسا فى اليوم التالى، وكان ذلك يعنى شروع الألمان فى حملات عسكرية على جبهتين: جهة الشرق ضد روسيا، وجهة الغرب ضد فرنسا. ولما كان الألمان على يقين من أن روسيا المتخلفة ستحشد قواتها بوتيرة أبطأ من فرنسا، فقد جرى توجيه سبعة جيوش من أصل ثمانية جيوش ألمانية إلى مهاجمة الجبهة الفرنسية. استعان الجنرال فون مولتكى بخطة الكونت فون شليفين لشن هجومه الأساسى الذى تمثلت أهدافه فى ضرب قلب فرنسا من خلال محاصرة العاصمة باريس والاستيلاء عليها. كان السبيل الأمثل إلى ذلك هو التحرك عبر مملكة بلجيكا المحايدة ثم توجيه جُل قواته المسلحة من اليسار إلى غرب باريس. وفى الثالث من أغسطس؛ طالب الألمان بمرور حر عبر الأراضى البلجيكية، غير أن الملك ألبرت الأول وحكومته رفضوا "التضحية بشرف أمتهم وخيانة واجبهم تجاه أوروبا"، فما كان من ألمانيا إلا أن أعلنت الحرب على بلجيكا أيضًا.

بدت الطلقات النارية فى العاصمة بروكسل كما لو كانت أول مسدس صوّب نحو المملكة المتحدة، فسارعت الحكومة البريطانية حينئذٍ إلى طلب تطمينات من الحكومة

الألمانية باحترام رغبات المملكة البلجيكية. تجدر الإشارة إلى أن بريطانيا كانت من الدول الموقعة على معاهدة لندن لسنة ١٨٣٩ التى ضمنت استقلال وحيادية بلجيكا، ولا شك أن وجود قوة معادية أعلى القنال فى بلجيكا إنما يشكل تهديدًا مباشرًا للمصالح البريطانية وطرق الشحن البريطانية. تلك كانت نظرة بريطانيا، أما بيثمان - هولويغ، الذى كان يشغل منصب المستشار فى ألمانيا القيصرية خلال تلك الفترة، فكانت المعاهدة المذكورة مجرد "قصاصة ورق"؛ لكن بريطانيا قالت إن كلمتها ملزمة ومحل احترام.

"سبق السيف العذل"؛ كانت تلك كلمات القائد الأول فى نهر "التايمز" يوم الاثنين الموافق للثالث من أغسطس، مضيفًا: "ستكون أوروبا مسرحًا لأفظع حرب تشهدها منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية". أما جون بوكان فرأى أن إجازة الاثنين للبنوك التى شهدت تلك التحركات "هى الأغرب فى ذاكرة الإنسان":

ثمة لوثة من قتامة وأحداث فظيعة تلوح فى الأفق طغت على أبرأ الزائرين، فهناك حشود تغص بها مكاتب البرق (التلغراف) ومحطات السكة الحديد؛ والرجال موزعون على مجموعات صغيرة تجوب الشوارع؛ ولم يكن كثير كلام يدور بينهم، بل حلّ وجومٌ من الصمت الرهيب. وعمّ القلق البلاد.

أما السير إدوارد غرى، وزير الخارجية، فطرح القضية برمتها على البرلمان فلم يعارض الحرب دفاعًا عن بلجيكا سوى خمسة أصوات كان من بينهم الأرستقراطى المنشق ونصير السلام آرثر بونسونبى، وجاء الفصل الأول من كتابه الذى حقق أفضل المبيعات عام ١٩٢٨ تحت عنوان "Falsehood in War-Time"؛ معنيًا بالمسكوت عنه فى أروقة البرلمان ونقاشاته: الترتيبات العسكرية السرية التى اتخذتها بريطانيا مع فرنسا عام ١٩١١ بخصوص سبع فرق من قوات القوة الاستكشافية البريطانية (BEF) لدعم ميسرة القوات الفرنسية، ولتشرع البحرية الملكية فى حماية الساحل الفرنسى الشمالى فى حال التعرض لهجوم ألمانى. "هذا الالتزام لم يكن معروفًا للناس؛ ولا للبرلمان الموقر نفسه؛ بل ولا لأى فرد من أعضاء مجلس الوزراء". وأضاف بونسونبى: إن تصريح

السير إدوارد غرى كان مشوبًا بالمكر والخداع، فلو كانت خطط الطوارئ تلك معروفة للعامة لكان من المحتمل أن تردد ألمانيا بدلاً من أن تندفع إلى إعلان الحرب. ومن ثمّ، رأى بونسونبى أن الأمر برمته كان "ذريعة يرثى لها" من غرى كونه مصرًا على حرية البرلمان فى اتخاذ قراره.

طرح تشرشل على وزير الخارجية سؤاله: "ماذا سيحدث الآن؟" لدى خروجهما من البرلمان. عندئذٍ كتب غرى وأسكويث طلبًا إلى ألمانيا القيصرية فيما بينهما داخل مقر رئاسة الوزراء جاء فيه أنه إن لم تنسحب القوات الألمانية من بلجيكا بحلول منتصف الليل بتوقيت ألمانيا (الموافق الحادية عشرة مساءً بتوقيت جرينيتش) من يوم الثلاثاء الموافق للرابع من أغسطس، فإن بريطانيا ستعلن الحرب.

لكن ألمانيا دفعت بخمسة جيوش لتنتهك حيادية بلجيكا فجر ذلك اليوم، وعلى الرغم من أن القوة الغازية تألفت من مليون رجل مشكّلة بذلك واحدًا من أكبر التشكيلات التى سبق تجهيزها، فإن الجنود البلجيك والحرس المدنى شرعوا فى دحر الهجوم الألمانى. تطلب الأمر من الألمان ثمانى فرق لإخضاع ليغ بحلول يوم ١٦ من أغسطس. اعترى الفزع والغضب الجنود الألمان السكارى من شجاعة المقاومة البلجيكية، وبدا عليهم الخوف الشديد من الجنود غير النظاميين أو حروف العصابات التى تشنها مجموعات غير نظامية معروفة باسم "francs-tireurs" أو "القناصة الأحرار"، وزاد من غضبهم خروج شائعات تفيد بالتمثيل بالأسرى الألمان، الأمر الذى دفع الغزاة إلى تحريق المبانى واستخدام مدنيين بلجيك كدروع بشرية، فضلاً عن طعنهم بالحراب أو قتلهم بالرصاص.

أصدر اللورد هالدين فى لندن أمره بدخول الحرب فى تمام الرابعة عصرًا من يوم الثلاثاء الموافق الرابع من شهر أغسطس، وهنا فُتِح "كتاب الحرب". ومن خلية العمل المفعمة بالفوضى فى وزارة الحرب ورد الكثير من البرقيات المختصرة: أعلنوا التعبئة، بتوقيع المسئولين. ومع إصدار تلك الرسالة واتساع نطاقها من الجيش إلى الفيالق إلى الفرق إلى الكتائب، أرسلت برقيات إضافية إلى كل جنود الاحتياط بالجيش البريطانى

تأمرهم بتسليم أنفسهم إلى مراكز تجميع أفواجهم القديمة مطلع اليوم التالى. وبات كل جندى وضابط صف قدير راغبًا فى الانضمام إلى القوة الاستكشافية البريطانية وخوض ، بعض المعارك قبل انقشاع ظلمة الحرب.

تذكر الكثيرون المزاج الاحتفالى العام بوضعه الغريب فى مستهل الحرب فى ظل صيحات الوطنيين والحشود مرنِّمين "حفظ الله الملك" خارج قصر باكينجهام. وفى خضم الأحداث كان الرسام سولومون جيه سولومون، الذى دخل القصر حديثًا لعمل بعض الدراسات عن العائلة المالكة فى إطار الإعداد لجدارية ضخمة لصالح قاعة غيلدهول - حاضرًا فى اجتماع كئيب للجنة تابعة للأكاديمية الملكية فى دار برلينغتون هاوس فى بيكاديلى فى وقت متأخر من مساء يوم الرابع من أغسطس تحت أضواء اثنى عشر عامودًا من الشمعدان الفضى المضاءة بالشموع التى سطعت على وجود أعضاء المجلس الذين اجتمعوا بعددهم الضئيل حول طاولة الاجتماع، مع إفادات من توماس غينسبورو والسير جوشوا رينولدز. تخللت الاجتماع مناقشات ختامية حول الإفادات وما ينبغى عمله فى الحال، حتى إنه تمت تعبئة الحمّالين والعوام. ومما يؤثر فى أن سولومون قال: "ولما قارب اجتماعنا على الانتهاء، قرع آذاننا صياح مروِّع من بعيد من تجمهر لشباب يصيحون ويتمايلون على قارعة شارع سان جيمس ستريت، ذلك بأنه صدر عن قصر باكينجهام إعلان مفاده: "إننا أيضًا سنرفع السلاح فى وجه ألمانيا الغازية".

وفى فرنسا كان فيليب غيبز يستشيط غضبًا، فقد أرسلته صحيفة "ديلى كرونيكلز" خارج البلاد مراسلاً حربيًا، لكن السلطات العسكرية الفرنسية أوقفته وهو فى طريقه إلى جبهة المعارك، فتوجّه غربًا إلى نانسى؛ حيث رأى الرماة الفرنسيين يطئون الأرض الترابية وتشكيلات الخيول تجر بطاريات المدافع عبر طرق محدودة بالأشجار. كما طالعته تشكيلات المشاة الفرنسية بالمسير باتجاه حد ألزاس؛ وقد اعتمر أفرادها القبعات الفرنسية العسكرية ومعاطف لامعة بزرقة الأفق وسراويل حمراء فضفاضة يقودهم ضباط يأتزرون بالسيوف ويرتدون قفازات بيضاء. صدرت الأوامر من ضباط الجنرال فوش إلى المراسل بالعودة إلى العاصمة باريس، ولم يُسمَح لغيبز

برؤية الجيش الفرنسي ومدافع الهاوتزر الألمانية تشق صفوفه وتدك عتاده، ولا برؤية تشكيلاته ورصاص الأسلحة الآلية الألمانية تمزق صفوفها.

شهد يوم الاثنين السابق عودة اللورد المتجهم كيتشنر إلى مصر بعد استدعائه إلى لندن. وفي هذا السياق كتبت فيوليت بونهام كارتر، ابنة أسكويث، قائلة: "كان اللورد كيتشنر أكثر من مجرد بطل وطني، فقد كان مؤسسة وطنية". كان هربرت هوراشيو كيتشنر الجنرال الذي هندس عوامل الرفاهية البريطانية الملكية، وقد استدعى إلى مقر رئاسة الوزراء لاجتماع يعقده مجلس الحرب يوم الأربعاء. رأى الجنرال هربرت أنه لا يمكن الفوز بالحرب بالقوة البحرية وحدها، بل بمعارك كبرى على أرض القارة الأوروبية، وأن الحرب ستستمر لثلاث سنوات وستتطلب جهود الملايين من البشر. إلى ذلك طلب رئيس الوزراء أسكويث من الجنرال هربرت تولّي مهام وزير الدولة لشئون الحرب، وبعد ثلاثة أيام فقط أطلق الرجل دعوته للرجال من أجل الانضمام إلى "الجيوش الجديدة". وأعقب ذلك تعليق ملصقات كثيرة كبيرة في أماكن مثل ميدان ترافالغار سكوير؛ وقد ظهر عليها وجه ذو شارب وإصبع موجّه صوب الناظر مع عبارة: "وطنك بحاجة إليك".

ولما كان يوم الثلاثاء الموافق ٦ أغسطس من العام ١٩١٤؛ وافق مجلس الوزراء البريطاني على إرسال ١٠٠ ألف رجل من القوة الاستكشافية البريطانية، بقيادة المشير السير جون فرينش قائداً عاماً، إلى منطقة الحدود الفرنسية - البلجيكية من أجل تقديم الدعم إلى مسيرة الجيوش الفرنسية الثمانية ومواجهة الميمنة الألمانية المهاجمة. ومع توفير الحماية بفعل البوارج الحربية التابعة للبحرية الملكية والطائرات المزودة بأجهزة اللا سلكي، أبحرت السفن الغاصّة بالجنود من ساوثهامبتون إلى روين وبولون خلال عطلة نهاية الأسبوع؛ أي خلال يومي الثامن والتاسع من أغسطس. وصلت معظم القوة الاستكشافية البريطانية بسلام إلى مواقعها المحددة لها في شمال فرنسا وجنوب بلجيكا بحلول يوم العشرين من الشهر نفسه.

وصلت القوات المذكورة دون تغطية إعلامية أو صحفية، وذلك لأن الرقابة البريطانية، تحت قيادة كيتشنر، كانت شاملة جامعة. صاغت لجنة الدفاع الملكي

القانون الأول للدفاع عن المملكة (المعروف اختصاراً باسم DoRA) الذى كفل للحكومة صلاحيات رقابية وقسرية زائدة "لمنع الأشخاص من الاتصال بالعدو أو تحصيل معلومات لذلك الغرض". أقرت الصياغة وأصبحت قانوناً نافذاً يوم الثامن من أغسطس لعام ١٩١٤، ثم خضع للتمديد أو "التعزيز"، حسب اللفظة المستخدمة إبّان تلك الفترة، عدة مرات فى زمن الحرب. تمخض ذلك عن أوامر نافذة جديدة تقضى بمنع العسكريين "من تقديم أى معلومات عسكرية للمراسلين الصحفيين أو الملحقين العسكريين أو المدنيين".

أتاح هذا الحجب الإعلامى للقوة الاستكشافية البريطانية التحرك سراً دون قراءة المخابرات الألمانية أى شىء عن تلك القوة فى الصحف، لكن فيليب غيبز يتذكر كيفية إحكام الرقابة على الصحافة و"خنقها" بضربة واحدة؛ بل ويفيد بأنه كان يجرى مكالمة هاتفية من باريس إلى مكتب لندن فإذا بالخط ينقطع فى وسط المحادثة. وعلى ذلك، عاش الصحفيون العسكريون فى تلك الفترة حياة العمل الحر المتسارع التى لا تخلو من كثير من الإحباط وتخلو من التقدير والتكريم والدعم، لكنهم أبدوا ذكاءً لافتاً فى استحداث أساليب لإرسال ما لديهم، مع الحرص فى الوقت ذاته على تجنب التوقيف من السلطتين العسكريتين الفرنسية والبريطانية على حد سواء.

أما على المستوى الميدانى، فأبرم غيبز صداقة بمراسلين اثنين آخرين أولهما دبليو تى ماسى، الذى أطلق عليه غيبز اسم "الخبير الاستراتيجى"، وثانيهما إتش إم توملينسون الذى لُقب بـ "الفيلسوف". وفى غضون الشهرين الأولين من الحرب، قطع هؤلاء الثلاثة آلاف الأميال فى فرنسا وبلجيكا بركوب القطارات والحافلات وسيارات الأجرة بل وسيراً على الأقدام متعلقين بأضعف الآمال أو متفكّرين فى الهزيمة:

"لكننا مضينا قدُماً، مندمجين بصفة دائمة فى أوساط اللاجئين الهارعين هرباً من جحيم الحرب، وفى صفوف القوات المتقدمة صوب الجبهة أو المتقهقرة من الهزيمة، آخذين بلمحات بسيطة عن الوقائع الحقيقية مطلّين عليها من خلف ستار السرية والكتمان".

فيليب غيبز، فى كتابه The Soul of the War (1915)

اضطر المراسلون، فى بعض الأحيان، إلى حمل ما جمعوا عائدين بأنفسهم إلى شارع الصحافة، شارع فليت ستريت، ماكثين بضع ساعات قبل عبور القنال مجدداً للعودة إلى ساحات الوغى فى فرنسا، وقد ارتدوا لباسًا مدنيا مفتقرين إلى جوازات سفر عسكرية وحاملين حقائب من الأموال لاستئجار السيارات بأسعار باهظة، كما اضطروا إلى العيش فى الفنادق ورشوة الحرّاس فى الأماكن المقابلة لمسرح العمليات الحربية. لكن كل ذلك لم يحل دون تهديد دائم بإمكانية تصفيتهم باعتبارهم خونة. وليس أدل على ذلك من أن غيبز نفسه تعرض للتوقيف خمس مرات، "فالكثير (من الصحفيين) تعرضوا للتوقيف والزج فى غياهب السجون ثم الإفراج ثم الاعتقال مجدداً فى أماكن محظورة ثم إعادة التوقيف مجدداً وصولاً إلى الطرد من الأراضى الفرنسية".

أدى هجوم القوات الألمانية الزاحف إلى تقهقر الجيوش البلجيكية والفرنسية والبريطانية خلال الأسابيع الأربعة الأولى من الحرب، فيما بثّت الفظائع التى ارتكبها الألمان الرعب والفزع فى نفوس آلاف المدنيين؛ فخرجوا من مآمنهم لاجئين على الطرقات أو متقاتلين فيما بينهم للوصول إلى القطارات. وفى ذلك يقول أتش آر نيكربوكر:

"حيثما وجدت مئات وآلاف من الفزعين الساعين إلى الهرب من المكان وفى مقابلهم ثلة قليلة من المجانين الساعين إلى بلوغ المكان نفسه، فاعلم أن تلك الثلة ما هى إلا المراسلون".

لكن الصحفيين، على ما كانوا فيه، أبلوا بلاءً حسنًا، فهذا ليود جورج يقول فى إصداره "War Memoirs" – (مذكرات الحرب): إن رسائل كيتشنر العسكرية المختصرة كانت موجزة حتى درجة اللا فهم، فكان أول خبر واضح عن الحرب يتلقاه مجلس الوزراء البريطانى نفسه مفاده التقهقر المحبط فى القتال للجيش البريطانى، وجاء من تقرير آرثر مور فى طبعة الأحد الخاصة من صحيفة "ذا تايمز" يوم ٣٠ من شهر أغسطس لأنها "نجت من مقص الرقيب". سرت عدوى الخوف والفزع من مسرح الحرب

سريانًا واضحًا، "فألقت الحرب بظلالها القاتمة ومكنونها من الرعب الوشيك على كل حقول فرنسا"، كما قال غيبز سنة ١٩١٤: "على الرغم من اكتسائها بلون الذهب من أشعة الشمس فى شهر الحصاد".

فى الجهة المقابلة، أراد الألمان أن تدق صحفهم وصحف البلدان الأخرى أخبار زحفهم المرعب الجبار. وعندما رأى مراسل الحرب الأمريكى المخضرم ريتشارد هاردينغ ديفيس زحف الجيش الألمانى بلا مقاومة فى شوارع بروكسل يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٤، لاحظ الرجل القوة المربكة الكامنة فى لباسهم من حيث قدرتها على الخداع والتضليل، فكان "اللون الرمادى المخصص للميدان ناطقًا بسر الضباب وما ينضوى عليه من تهديد وخوف، فكأنه يزحف صويك عبر البحر":

"تحرك الجميع تحت ستار الخفاء، وما كان هذا اللون الرمادى ليُكتشف أبدًا إلا بعد اختبارات عديدة ومتنوعة وقاسية من مختلف الأبعاد والمسافات مع الاستعانة بكل المواد وتراكيب الألوان حتى الخروج بنتيجة كأنها اللا لون...

وبعد رؤية المرء لهذا الزى العسكرى الرسمى... يقر فى نفسه أن هذا الزى ولونه هو السلاح الأقوى فى يد الجندى الألمانى، ذلك بأن أكثر القناصة خبرة واحترافًا عجز عن إصابة هدف تعذر عليه رؤيته... إنه اللون الرمادى الذى شاكل لون الأفق قبيل بزوغ النهار، أو لون الصلب غير المصقول... فكان زحف الألمان كما لو كانوا نهرًا من الصلب المنهمر، بلون الرماد وشكل الأشباح".

"ذا نيوز كرونيكل"، لندن، ٢٣ أغسطس سنة ١٩١٤

لا شىء يحفز البريطانيين على العمل كما يفعل احتقار الألمان لهم، وعلى ذلك بادر ضابط أركان ماكر فى مقر قيادة الأركان العامة البريطانى إلى حفز القوة الاستكشافية البريطانية بإخبارهم (كذبًا) إن القيصر فيلهلم الثانى قد أطلق عليهم لقب "الثلة العسكرية الحقيرة النازلة على أمر الفرنسيين"، وبذلك صار لقب "الحقير العجوز" شارةً وأمارةً على الشرف لدى البريطانيين.

كان والد أمى، جيفرى بيج، ضمن أفراد تلك القوة الاستكشافية، فانطلق إلى فرنسا مع باقى أفرادها فى شهر أغسطس من العام ١٩١٤، أما رتبته فكانت ملازم ثان، علمًا بأنه كان ابن كاهن ماونتفيلد فى منطقة ساسيكس. لم يبعد الملازم ثانٍ فى حياته كثيرًا عن قرية ساندهيرست، وكان مما ملأ نفسه بالفخار والعزة أنه، وهو بعد ابن ٢٠ ربيعًا، تولى قيادة خمسين رجلاً أو نحو ذلك من الفصيل الثالث، وفى ركاب الكتيبة الثانية لانغشاير فيزيلايرز. عندما ترجّل الملازم ثانٍ من مركبه فى فرنسا عام ١٩١٤، كانت تلك المرة الأولى له فى حياته لمغادرة وطنه، بل ولم يسبق له أن سمع صوت رصاصة تُطلق بدافع من الغضب. إن عين القارئ الحديث لتقع على أمرين يبرزان من اليومية التى ما كان له أن يحتفظ بها أبدًا، أولهما: الصدمة المترتبة على التقنيات القوية الحديثة التى خرجت بها حروب القرن العشرين، وأقصد بذلك الطائرات والمدفعية والمدافع الآلية، وثانيهما: حاجة الجند الحقيقية إلى الاحتماء منها.

وفى صبيحة يوم ٢٦ من شهر أغسطس، تمكن فصيل الملازم ثانٍ من نبش خنادق لوضع الاستلقاء فى جذور وأكوام حقل من حقول القمح إلى الشمال من مزرعة لونغستار قرب مدينة إسنس، وإذا بهم يفاجئون بقذيفة مدفعية ألمانية فوق رءوسهم، وأعقبها رصاص المدافع الآلية ممزقًا ما نصبوا من أستار من التراب والقش. اتخذ الفصيل موقعه أقصى يسار الخط البريطانى على مبعدة ٥ أميال فى معركة لو كاتو، وهى المعركة التى لم ينج منها سوى ٩ أفراد. وفى خضم التقهقر المتواصل من منطقة مون إلى منطقة مارن، تظهر مذكرة جيفرى بيج اهتمامًا منقطع النظير بالجواسيس، ذلك بأن رؤية أولئك الجنود ورصد مواقعهم كان يعقبه نزال عنيف.

رصدت أعمال جون بوكان روح العصر التى اكتنفت عام ١٠١٤، وكذا الهوس بأمر الجواسيس والخوف المرضى من الغزو، وكلها عناصر مميزة لبداية الحرب الكبرى، لا سيما على طول ساحل بحر الشمال بين كرومر ودوفر. وعلى بعد نحو ١٢٠ ميلاً من مسرح العمليات فى لو كاتو، وعلى الجانب الآخر من القنال الإنجليزى فى مدينة برودستيرز المتاخمة للبحر فى منطقة كنت، حل يوم الأربعاء الموافق ٢٦ من

أغسطس لسنة ١٩١٤؛ إيذانًا بيوم ميلاد بوكان التاسع والثلاثين. كان الرجل فى معرض التعافى من هجمات القرح فى المعى الاثنى عشرى، فأخذ يكتب حكاية سريعة الأحداث عن القوات السرية والأيادى الخفية الكامنة وراء الأحداث السياسية، فكان كتابًا جمع فيه نسيج أفكاره وحمّله عنوانًا موازيًا لعمره إذ سمّاه "The Thirty - Nine Steps".

أدخل جون بوكان مادة الرواية القصصية عن السير الذاتية (أو ما يعرف بالإنجليزية باسم "Who's Who") لمرحلة الدراسة الجامعية فى أوكسفورد، وكان مديرًا من فئة النخبة فى جنوب إفريقيا، وكتب قصصًا قصيرة ومقالات وقصائد شعرية وتاريخًا وسيرة ذاتية، وأسهم فى تحرير وتنقيح مجلة "ذا سبكتيتور" باعتباره نائبًا لرئيس التحرير، وبات حينها مرشح حزب الاتحاد المرتقب عن المقعد البرلمانى فى بيبليسشاير وسيلكريك. ومنذ عام ١٩٠٧ عمل الرجل أيضًا مستشارًا أدبيًا لدار النشر الاسكتلندية التى تحمل اسم "توماس نيلسون أند سنز". ورغبة منه فى الإبقاء على عجلة العمل دائرة فى عالم الصحافة، وافق بوكان على تحرير وكتابة مجلة مصوّرة تصدر أسبوعيًا تحت اسم "ذا وور" - (الحرب) - عرفت طريقها إلى النور بعد ستة أشهر، فضلاً عن شروعه بمفرده تقريبًا فى البحث والكتابة لصالح إصدار شهرى جزئى بعنوان "نيلسنز هيستورى أوف ذا وور" أو "تاريخ نيلسون عن الحرب"، وكان عبارة عن أكثر من مليون كلمة من التاريخ القصصى المعاصر، وانتهى هذا العمل إلى إخراج أربعة وعشرين مجلدًا أحمر، وفيها قارن بوكان (الذى تبرع بكل ما آل إليه من أرباح ومكرمات ملكية على خلفية تلك الإصدارات إلى الجمعيات الخيرية المعنية بالمتضررين من الحرب) بالمؤرخ اليونانى ثوسيديدس الذى كتب كتاب "تاريخ الحرب البيلوبونيسية"، وهى الحرب التى شارك فيها بنفسه.

وفى هذا الإصدار الأخّاذ الجديد، أعنى كتابه الثامن عشر، تحولت بلدة "برودستيرز" بغرابة إلى "برادغيت" حيث تجرى ذروة الأحداث. وبالمضى قدمًا حتى أعالى الساحل الشرقى لإنجلترا، قُدّمت بلدى فرينتون أون سى الراقية، من أعمال

إسيكس، فى حالة من الإثارة الشديدة مطلع شهر أغسطس من عام ١٩١٤؛ عندما عاد صبى يبلغ من العمر ١٥ ربيعًا ملتحق بإحدى المدارس الحكومية يدعى دودلى ورانغيل كلارك إلى منزله من المخيّم الصيفى لفيالق تدريب الضباط فى الدار المختصة بمنطقة ستافوردشاير. ولمّا كان الصبى قد عزم فى قرارة نفسه على أن يصبح جنديًا محترفًا، فإنه لم يكن قد اكتسب بعد المواهب التى سيظهرها فى وقت لاحق بما يؤهله لأن يكون عبقرى الخداع الاستراتيجى البريطانى فى الحرب العالمية الثانية. لكن الصبى كان مسرورًا حتى ذلك الحين برؤية الجنود وهم يحفرون على الجبهة لإقامة الدفاعات ورؤية المدمرات البحرية وهى تجوب البحر بعنف وشموخ فى مواجهة هبوط افتراضى محتمل للعدو فى منطقة إيست إنغليا. وبالتوغل شمالاً، نجد منطقة غريت يارماوث عامرة بالصحفيين التوّاقين إلى سبق صحفى عن قصة المراكب المتوقع وصولها قريبًا من جزر فريزيان آيلاندز، مليئة بالجنود الألمان المعتمرين خوذات مدببة، ومغيرين على الشواطئ البريطانية المخصصة للمصطافين فى شهور الصيف.

أما الأكاديمى الملكى سولومون جيه سولومون، مؤلف "The Practice of Oil Painting and Drawing"، فكان رجلاً مفعمًا بالحيوية والحماسة وهو فى عقده الخامس من العمر، يقضى الصيف فى ضواحى سان ألبانز فى منطقة هيرتفوردشاير، بيد أن حمى الحرب التى انتشرت فى صيف ذلك العام الحار دفعته إلى النظر فى الكيفية التى يمكن بها استغلال الرسم والفن فى إخفاء الأشياء عن عيون مناطيد "زبلين" التى يستخدمها العدو محلقًا فى سماء البلاد. وفى الحديقة الكبيرة التى كانت تملكها حماته شرع سولومون فى تجارب عمله بحماسة، فاستخدم الدهانات والأصباغ التى اشتراها إضافة إلى التشكيلات الطينية والأوراق المسحوقة وقطع صوف الموصلين المشربة بالزبد التى جفّت على الحشائش وشبكة التنس؛ ثم علّق الرجل نتائج الرسم بين النباتات والجذوع أو ثناها على عصى الخيزران إلى جوار الأشجار وحلقاتها، ناظرًا إليها من علو السلالم متأمّلاً ألوانها وظلالها مع تغيّر الضوء الساقط عليها شيئًا فشيئًا.

ولما كان شهر سبتمبر من العام ١٩١٤، كان ونستون تشرشل فى غاية انشغاله بمسألة التجسس خاصته فى شمال غربى اسكتلندا. وفى هذا الشأن أفاد تشرشل فى إصداره "My Spy Story" - (قصتى مع الجاسوسية) التى نشرت فى "Thoughts and Adventures" (أفكار ومغامرات) عام ١٩٣٢؛ عن الكيفية التى سلكها للاتجاه شمالاً بقطار مخصوص باتجاه هايلاندز، إذ كان مسافرًا غربيًا بالسيارة لزيارة الأسطول عندما أشار قائد الأسطول الصغير، الذى كان جالسًا فى الخلف إلى جوار مدير المخابرات البحرية، إلى مصباح كشف ضخم مثبت على السقف البرجى لقلعة بارونية اسكتلندية فى غابة تقطنها الغزلان بالقرب من أتشناشين. ومع تسارع حركة السيارة فى قلب ويستر روس، حاول الجميع حل اللغز الماثل فى الغرض الفعلى من استخدام الجهاز.

وفى نهاية المطاف، أخذت الطريق فى الالتفاف بانحدار حول تل أرجوانى، ووجدنا أمامنا على بعد سحيق خليجًا براقًا من المياه الزرقاء؛ حيث كانت ترسو عشرون مدرعة بحرية ومدرعة بحرية متطورة بدت من بعيد كما النقاط المحددة على خريطة، فيما كانت هى ركيزة القيادة البحرية، وانتشر حولها وفيما بينها الكثير من القوارب الصغيرة. كانت السفن مطلية للمرة الأولى بأسلوب الرقط الغريب الذى آذن وقتئذٍ ببدايات فن التمويه. أماط الطريق اللثام فجأة عن هذا المشهد البديع، فحدقت فيه العين وامتلأ العقل بما نقلته إليه العين من صور مشهودة ليس إلى نسيانها من سبيل...

عندئذٍ قلت لمرافقى: "ما عساه الإمبراطور الألمانى يدفع ليرى هذا المشهد؟".

ناقش ضباط الأدميرالية الوسائل الأنسب لعودة النشاط الاستخباراتى إلى ألمانيا. كانت الغواصات سببًا فى قلق بالغ، فبعد أن شق الطراد الخفيف "إتش إم إس بيرمنغهام" الغواصة الألمانية "يو" يوم التاسع من أغسطس على بعد مئات الأميال من أقرب قاعدة بحرية ألمانية، بدأت البحرية الملكية فى استيعاب حقيقة مفادها أن تلك السفن لها مدى أوسع نطاقًا مما أدركه أى أحد من قبل، ومن هنا كان قلق تشرشل بشأن قدرة اعتراض الغواصات الألمانية رسائل لا سلكية:

"... لنفترض أن أسطولاً صغيراً من الغواصات كان كامنًا خلف بعض الجزر، ولنفترض أيضًا أن منطادًا من نوع "زيبلن" حلق فوق المنطقة ورأى الأسطول، أفلا يكون بمقدوره إخبارهم وكشف الأمر فورًا؟ لنفترض وجود جاسوس على الشاطئ يلوح لمنطاد زيبلن ليقوم المنطاد بدوره بإرسال إشارة للغواصات دون الاقتراب من الخليج... لنفترض مثلاً... أن شخصًا كان بحوزته نور كاشف...".

هل تعد الصورة الذهنية الحية التى قدمها تشرشل عن السفن، عقب مرور ثمانية عشر عامًا من المشهد، قائمة على ذاكرة دقيقة، أم شابها تداخل بعض المستجدات ذات الصلة؟ يذكر أن التمويه البحرى بالترقيط أو التشتيت لم يسجل كنهج معروف حتى سنة ١٩١٥، أقيمت مأدبة غداء على سفينة الأدميرال السير جون جيليكو "إتش إم إس آيرون ديوك" وتخللها طرح الموضوع مجددًا. وأدت الشائعات المنتشرة عن قصف الممتلكات، بما فى ذلك الأجانب والطائرات، إلى ترسيخ عزم تشرشل على التحقيق فى الأمر، فطلب أربعة مسدسات من تسليح السفينة تحسبًا لأن يكون النور الكاشف إشارة يستخدمها العدو أو أن تكون المنطقة الاسكتلندية منصة تصويب واستهداف لجواسيس ألمان تقطعت بهم السبل.

قاد تشرشل مجموعة بحرية مسلحة فى زيها الرسمى عائدًا إلى لوتشروسك لودج، ثم استدعى صاحبها. دهش عضو البرلمان السابق، الليبرالى النقابى، وعضو نادى كارلتون السير آرثر بيغنولد للاستدعاء من على مأدبة العشاء؛ حتى يشرح أنه قد نصّب بالفعل نورًا كاشفًا قطره ٢٤ بوصة على التكنات لا لشىء إلا أن شعاعه رصد عيون غزال خضراء براقة على المنحدرات التلية فى جنح الظلام حتى يتمكن الكشافة والصيادون من رصد مواقعها بسهولة فى اليوم التالى لمصلحة المجموعات الصائدة. وجد تشرشل صعوبة فى تصديق هذا المبرر على الرغم من كونه حقيقة واقعة فعلاً.

وأيًا ما كان السبب، فقد كان للقلق البالغ ما يبرره. لم يكن أحد يعلم مدى الغواصات الألمانية، ولم تكن هناك دفاعات وقائية مضادة جاهزة فى الموانئ والمراسى مثل سكابا فلو فى منطقة أوركنى. وإذا كان لدى أى أحد أى إثارة من شكوك بشأن

تعرض السفن الكبرى لتهديد الطوربيدات، فقد استطاع الألمان التعرض لها أيما تعرض في بحر الشمال بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩١٤؛ عندما استطاع الكابتن الملازم أوتو ويدينغن على متن الغواصة الألمانية يو - ٩، إغراق ثلاث سفن بريطانية مدرعة هي أبوقير أو هوغ وكريسي، ومات على متنها ١٤٦٠ بحاراً.

واعتباراً من شهر نوفمبر ١٩١٤، شجع تشرشل المساعي الرامية إلى بناء سفن تمويهية مسلحة تسمى "السفن الغامضة" أو "سفن كيو" بهدف المساعدة في مواجهة خطر الغواصات الألمانية في أعالي البحار. استند مفهوم الخداع إلى رصد تحركاتها. ولأن الألمان قلما كانوا يحافظون على طوربيداتهم لاستهداف السفن الكبرى المسلحة بها، فقد أدى ذلك إلى طفو الغواصات الألمانية المستهدفة للسفن التجارية، مما كان يجبر البحارة التجار على إخلاء سفنهم وركوب قوارب النجاة ليعقب ذلك إغراق السفينة بتوجيه مدفع ٣٧ مم إلى صدرها. ومن ثمّ، أخذت سفن "كيو" التي اقترحها تشرشل شكل السفن البحرية التجارية أو سفن البضائع سيئة المظهر أو السفن الساحلية أو ناقلات الفحم أو سفن الترول، واعتلتها طواقم مدنية ضعيفة المستوى ورفعت الراية الحمراء (البحرية التجارية)، لكنها حملت أيضًا أسلحة مخفية "أمكن استخدامها فجأة بفضل الخداع التمويهي الماثل في الأبواب والغوالق المخادعة" حسب وصف تشرشل نفسه في إصداره "The World Crisis".

أبحر ما يزيد على ٢٠٠ من "سفن كيو" بحلول نوفمبر من العام ١٩١٨، وعلى الرغم من أنه ينسب لها إصابة ١٨٢ غواصة ألمانية فقط خلال الحرب العالمية الأولى، فإن أوجه استغلالها الكبرى أثارت خيال البريطانيين المبهور أصلاً بقصص القراصنة؛ فكان إصدار "The Wonder Book of Daring Deeds" لقصص العجائب والمغامرات الذي احتل مكانها كإصدار مميز لحقبة الثلاثينيات من القرن المنصرم وفق معايير الدعاية الإمبريالية البريطانية المبهجة إبان تلك الفترة، وهو الإصدار الذي بيّن الكيفية التي اتبعها الملازم ستوارت وسيمان ويليماز للفوز بميدالية "صليب فيكتوريا"؛ ليكون رأساً برأس مع قبطانهم، غوردون كامبل، الذي فاز بها سلفًا، وذلك عندما استهدفت غواصة

ألمانية سفينتهما "بارغست" بطوربيد قبالة سواحل أيرلندا يوم الثانى من يونيو ١٩١٧، إذ انتظرا حتى انقضت موجة الرعب وزالت عن السفينة، وأعقب ذلك صعود الغواصة المعادية إلى سطح البحر، وعندئذٍ رفعت الحُجب لتظهر من خلفها الأسلحة المخبأة وتطلق النار على العدو.

لكن "الخداع لم يكن حكرًا على البريطانيين" كما يقول إدوين إيه غراى، مستكملاً القصة فى كتابة "The U-Boat War 1914-1918" حيث قال:

رد القبطان أول روزناو بإرسال بعض أفراد طاقمه إلى السطح رافعين أيديهم إيذانًا بالاستسلام، عندئذٍ أصدر كامبيل أوامره بإيقاف النار فورًا، وما كاد يفعل ذلك حتى أدرك أن الغواصة (UC-29) كانت تحاول الهرب تحت مظلة الهدنة المؤقتة. عندئذٍ زأرت أسلحة "بارغست" مجددًا، ولم يكن من سبيل عندئذٍ لطلب الرحمة أو عرضها. لم تكن القفزة الهائلة فى التمويه والخداع خلال القرن العشرين مجرد رد على ترسانة الأسلحة الحديثة على الأرض وفى البحر والجو، بل وجاءت كذلك كرد فعل لتقنيات المعلومات التى باتت مصدر خطر داهم فى أوقات الحروب؛ ومن ثم، هدف مفهوم الحرب السرية منذ البداية إلى تدمير اتصالات العدو أو قطعها.

وفى ساعة مبكرة من الخامس من أغسطس ١٩١٤، تعامل طاقم سفينة الاتصال البريطانية "تيلكونيا"، قبالة سواحل إمدين على الساحل الألمانى الهولندى، مع خمس برقيات تلغرافية ألمانية وجدت طريقها إلى فرنسا وإسبانيا وإفريقيا والأمريكتين عبر القنال الإنجليزى؛ حيث تم رصدها وإيقافها وتحويلها عبر تجهيزاتهم البسيطة ذات أغلفة الغاتبرشا المطاطية.

كان ميلاد التلغراف الكهربائى المغناطيسى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٦، لكن الإمبراطورية البريطانية كانت أول جهة يُبرق إليها. وفى عام ١٨٦٦، حملت سفينة برونل العظيمة "جريت إيسترن" البرقية العابرة للأطلنطى بنجاح والتى حملت شفرة صامويل مورس بما تضمنتها من نقاط وشرط. وفى عام ١٨٧٠ ارتبطت المملكة المتحدة بومباى، ثم زاد امتداد هذا الخط عبر جافا الألمانية وصولاً إلى أستراليا فى ١٩٧١ ذات.

ولقد تم تأسيس المجلس الباسيفيكي للبرقيات مع بدايات القرن التاسع عشر؛ ولقد أسس بالتعاون بين حكومات بريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلاند لتدشين خدمة التلغراف داخل الإمبراطورية البريطانية.

بعد ثلاثين عامًا من اختراع مورس للتلغراف، ظهر اختراع أديسون وهو الهاتف المحدث ورأى النور، فإنه كان لا بد من استخدام الأسلاك مع هذا الاختراع الحديث أيضًا. ولكن بعد عشرين عامًا من اختراع الهاتف السلكي ظهر، وبكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، الاتصال اللا سلكي: سحر الراديو. إن العالم الفيزيائي الألماني هينريتش هيرتز هو من اكتشف موجات الراديو، كما كان هو أول من أخرج الموجات الكهرومغناطيسية ولكن على نحو نظرى، إلا أن عالم الفيزياء الإيطالي، غوليلمو ماركوني، أكمل تجاربه فى بريطانيًا جاعلاً غايته إنشاء أول محطة لا سلكية دائمة. وبحلول يوليو ١٩٠٠، كانت قد ثبتت أجهزة الراديو فى إحدى السفن الملكية وإحدى السفن الحربية، وقد نجح هذا الأمر نجاحًا باهرًا؛ حتى إن البحرية البريطانية سرعان ما طلبت تثبيت أجهزة الراديو فوق العشرات من السفن الحربية.

يذكر أن إرسال الإشارات اللا سلكية/إشارات الراديو، أو قطع إرسالها، كان له دور بالغ الأهمية فى أحداث الحرب العالمية الأولى. إن أول جندى بريطانى يطلق النار على الألمان، فى الثانى عشر من أغسطس ١٩١٤، كان الرقيب الميجور ألهاجى جرونشى من فيلق الساحل الذهبى، وذلك أثناء حملة قطع اتصال المحطة اللا سلكية الألمانية فى كامينا بتوجولاند. ولقد كانت هذه المحطة تربط ألمانيا بويندهوك فى مستعمرتها الموجودة جنوب غرب إفريقيا، وبدار السلام فى مستعمرتها الموجودة شرقى إفريقيا، وبالسفن الألمانية فى جنوب الأطلنطى وبالعملاء الألمان فى كل أرجاء أمريكا الجنوبية. وقد نجحت قوات الإمبراطورية البريطانية فى أغسطس وسبتمبر ١٩١٤ فى قطع اتصال المحطات اللا سلكية الألمانية عبر الأطلنطى جميعها – ياب، أبيا – رابول، ونورو.

أما رد ألمانيا على حرب الاتصالات هذه؛ فكان اختراق الكابلات البريطانية العالمية وقطعها، أينما ترامت خطوطها وكان من الصعب إصلاحها. وفى السابع من سبتمبر ١٩١٤؛ رست إحدى السفن الحربية ذات مداخن ثلاث، وترفع علماً فرنسياً، بالقرب من الجانب الغربى الجنوبى لإحدى الجزر المرجانية وسط المحيط الهادى. وبعدها نزل إلى الشاطئ مركبان محملان بالرجال. أخرج البحارة والمارينز الذين اعتلوا السفينة الحربية الألمانية نورنبيرج مسدساتهم ومدافعهم الآلية وبدءوا فى تدمير المحطة البرقية الموجودة تحت أشجار جوز الهند. لم يصب أى شخص بضرر جراء هذا الهجوم، فإن الطاقم الذى تولى مهمة هدم المحطة فجر المولدات والمركمات. كما حطمت الفئوس معدات غرف التحكم وأطلقوا كلوريد الألمونيوم من خلاياه. ليس هذا وحسب، بل وقامت هذه العصبة من الرجال الذين هبطوا على الجزيرة بنهب النقود الذهبية كافة من خزانة المراقب، حيث وضعوا أيديهم على خريطة كنز ألفريد سميث؛ إذ تبين المكان المخصص لإخفاء المعدات الاحتياطية واحتياطى الأسلحة والذخيرة على هذه الجزيرة... وهكذا حفر هؤلاء الرجال وأخرجوا هذه الأسلحة ولم يكتفوا بذلك فدمروها. وفى تلك الأثناء، رست السفينة المرافقة لسفينة نورنمبيرج، السفينة الحربية ليبزج وهى من طراز بيرمن، ثم قطعت الكابل الخاص بكندا وسحبت طرف الكبل المترامى وألقت به داخل مياه المحيط. وبعدها قطع هؤلاء الرجال الكبل الفيجى، إلا أنهم سحبوه إلى منطقة شعاب قريبة... وهكذا سرعان ما تمكن البريطانيون من إخراجه وإعادة توصيله.

توجهت سفينة حربية ألمانية أخرى من الصين، إمدين، غرباً داخل مياه المحيط الهندى وباتت هذه السفينة أشهر السفن المقاتلة فى هذه الحرب، وذلك لما أحدثته من خسائر بملايين الجنيهات؛ إذ قصفت حاويات النفط فى مادراس، فضلاً عن هجومها لمرسى بينانج وأسرها لسفن تجارية بل وإغراقها. ولقد كان قبطان هذه السفينة داهية من دواهى هذه الحرب. نجحت هذه السفينة بتثبيت مدخنة رابعة زائفة وبما رفعته من أعلام بحرية ملكية؛ فإن تعبر على أنها السفينة البريطانية إتش إم إس يارموث إلى أن تصل إلى المسافة التى تريدها داخل النطاق البريطانى؛ وحينها تكشف الستار عن ماهيتها وألوانها الحقيقية.

وفى التاسع من نوفمبر ١٩١٤؛ خرجت السفينة إمدين فى غارة أخرى من غارات قطع الكبلات. وفى هذه المرة، كانت مهمة ممتطى هذه السفينة هى قطع اتصال البرقيات عابرة المحيط الهندى بين جنوب إفريقيا وأستراليا عند إحدى نقاط الاتصال، إحدى جزر كوكوس (كيلينج). ومجدداً، هبطت عصبة من الرجال على أرض الجزيرة، ولم يلحق الضرر بأى شخص جراء غارتهم، وكما هى الحال مع غير ذلك من الغارات حطم هؤلاء الرجال المعدات البرقية وقطعوا كبلين؛ إلا أن هذه الغارة تضمنت مهمة إضافية: تفجير البرج اللا سلكى، ذلك لأنه فى تلك الأحيان كانت الموجات اللا سلكية التى تصل بين الشاطئ والسفن بعضها بعض أحد سبل مساعدة الحلفاء على تنسيق تعقبهم للعدو. (دائمًا ما كانت سفينة إمدين تتحرى إخفاء موجاتها اللا سلكية إلا أنها كانت تطرق السمع لأى موجات لا سلكية، إذ لا تحدد المسافة الفاصلة بينها وبين غيرها من السفن إلا بقوة الإشارة وحسب). نفذت مهمة تدمير المحطة السلكية بحرص شديد وباحترام تام؛ إذ اتفق الألمان على عدم إسقاط البرج وسط ملعب التنس الوحيد على الجزيرة.. إلا أن الوقت داهمهم؛ إذ استطاع المسئولون عن الشركة الشرقية لمد البرق إرسال إشارة وصفها جون كى جان بأنها "ربما تكون الإشارة الأولى التى تعبر عن دهاء العصر الإلكترونى". وصلت هذه الرسالة التى كان محتواها "دخول سفينة غريبة" إلى قافلة أسترالية بعد ساعتين من إرسالها، مما حدا بهذه القافلة إلى إرسال السفينة الحربية إتش إم إيه إس سيدنى لتحرى الأمر... وهكذا اضطرت السفينة إمدين إلى رفع المرسى واللوذ بالفرار؛ إلا أن السفينة سيدنى لحقتها وأطلقت عليها الأعيرة النارية وأسقطت شراعها فمنيت بالفشل، فضلاً عن إصابة نصف طاقمها وتعرضهم للقتل.. هذا عن السفينة إمدين، أما عن السفينتين الأخريين، نيرنبيرج وليبزج، فقد تعرضا للغرق فى الثامن من ديسمبر ١٩١٤ فى معركة جزر فالكلاند.

قررت بريطانيا التحكم فى الموجات الهوائية ومراقبتها. وقتها كانت البحرية الألمانية قد استطاعت التحدث إلى مركباتها المتناثرة فى البحر عبر الموجات اللا سلكية، باستخدام الشفرات. كما استطاعت المركبات الألمانية التى تأخذ شكل حرف "U" الاتصال بمركز التحكم الخاص بها فى ويلهيملزهافين، على بعد مئات الأميال،

عند نطاق موجي يبلغ ٤٠٠ متر. وفى الثانى من أغسطس ١٩١٤، كانت الحكومة البريطانية قد فرضت سيطرتها على نقل الرسائل عبر البرقيات اللا سلكية، ما أسفر عن تعطيل تشغيل السفن التجارية وغيرها من السفن العادية. وفى أواخر صيف ١٩١٤؛ نجح مدير إدارة المخابرات البحرية بالبحرية الملكية، الجنرال البحرى هنرى أوليفر، زيادة عدد المحطات المعترضة للموجات اللا سلكية إلى أربع عشرة محطة على طول الساحل البريطانى. ولقد كان الغرض من هذه المحطات هو مراقبة نقل إشارات البحرية الألمانية جميعها وإمداد البحرية البريطانية بالمعلومات المفيدة اللازمة لها. ولقد تولى العمل فى هذه المحطات مهندسون سبق لهم العمل داخل مكتب البريد العام (GPO) ومشغلو راديو الهواة الذين تم حظر أجهزة الراديو الخاصة بهم. ومنذ عام ١٩١٥ فما بعد، طبق البريطانيون تقنية تحديد اتجاه الإشارات اللا سلكية (DF) وذلك لتحديد مواضع الناقلات الألمانية ولقطع الاتصالات اللا سلكية. كان الموقع الرئيسى لتطبيق هذه التقنية هو محطة حماية ساحل هانستانتون على خليج بنورفولك، حيث يمكن رصد الإشارات التى تبث فى فلاندرز وشمال فرنسا وبحر الشمال وإرسال معلومات عسكرية غير بحرية بشأن الجبهة الغربية إلى مكتب الحرب؛ ومن ثم إلى إدارة المخابرات بفرنسا.

كما طلب الجنرال البحرى أوليفر من مسئول التدريب البحرى، السير ألفريد إيونج، تأسيس قسم لفك الأكواد والشفرات التى كانت تستخدمها البحرية الألمانية. ولم يألُ إيونج جهداً إذ اختار لهذه المهمة أكثر المعلمين والأكاديميين مهارةً وذكاءً ممن يعرفهم. وكان من بين هؤلاء لاعب الهوكى الاسكتلندى ألاس تير دينيستون، فلقد كان دينستون ممن يدرسون الألمانية فى كلية البحرية الملكية فى أوسبورن بجزيرة وايت. ولقد أصبح دينيستون بعدها من أمهر مفككى الشفرات إلى أن ترأس مدرسة الرموز والشفرات التابعة للحكومة "جى سى أند سى إس" والتى سبق تأسيسها تأسيس المركز الرئيسى لاتصالات الحكومة "جى سى إتش كيو" الذى أسس بليتش بارك.

فى سباق فك الشفرات وفك الرموز، سرعان ما حالف الحظ البريطانيين. فبنهاية ١٩١٤، استحوذت البحرية الملكية على ثلاثة كتب للشفرات للبحرية الألمانية، استحوذ البريطانيون على أحدها فى أستراليا، فيما استحوذ الحلفاء الروس على كتاب آخر، أما الثالث؛ فقد علق فى شباك الصيد البريطانية بالقرب من إحدى المدمرات الألمانية على الساحل الهولندى. ولكن الألمان، بمنتهى الغباء، لم يغيروا شفراتهم... وهكذا استطاعت البحرية البريطانية، فى الغرفة ٤٠ من البناية القديمة بالبحرية فى لندن، مستعينة بنهايات الشفرات وبداياتها أن تفك شفرات رسائل العدو وتقرأها مما ساعدها فى كسب الحرب. لم يتعرف تشرشل على الإشارات الاستخبارية أو استخبارات الإشارات إلا عندما تقلد منصب اللورد الأول للبحرية البريطانية فى الحرب العالمية الأولى، الأمر الذى سيشكل أهمية بالغة بالنسبة إليه عند تقلده منصب رئاسة الوزراء فى أثناء الحرب العالمية الثانية.

ينقل عن دوق ويلينجتون أنه قال ذات مرة: "يرتبط النجاح فى الحرب، بل وفى حياتنا، بالسعى وراء كشف ما لا نعلم بما يمكننا فعله؛ وهذا ما أسميه افتراضاً ما يحمله الجانب الآخر من التل".

إذا استطعت التحليق عاليًا، يمكنك رؤية ما يضمره الجانب الآخر من التل. ومع تمكن الفرنسيين من اختراع المنطاد فى ١٧٨٣، بات هذا الأمر ممكنًا. بدأ عهد استخدام المنطاد فى الجيش البريطانى فى عام ١٨٧٨، ولقد كانت شركة رويال إنجينيرز للمنطاد هى أول من استخدم المنطاد فى الميدان، إذ أبقت على أحد الملاحظين سبع ساعات داخل منطاد لها فى عام ١٨٨٥ فى أثناء حملتها على المهدى فى السودان. وفى حرب البوير، استطاع المهندسون العسكريون التقاط صور استطلاعية وهم على سطح المنطاد، فيما تمكن المهندسون العسكريون من إرسال واستقبال أول رسائل غير سلكية وهم داخل المنطاد فى ١٩٠٤. بحلول ١٩١٤، كان كل المناطيد المثبت بالأرض يعود إلى فيالق الجوية الملكية، فيما كان المربوط بالسفن يعود إلى

الخدمة الجوية بالبحرية الملكية. وفى عام ١٩١٥، تمكن معتلو المناطيد التابعة للبحرية فى الدردالين، على سبيل المثال، من توجيه مسار إطلاق الأعيرة النارية للبحرية ومن رصد غواصات العدو.

وكان من المعتاد فى هذه الفترة؛ رؤية تلك المناطيد ذات المحركات التى كانت تستخدم للمراقبة على طول خطوط الجبهة من مقدونيا إلى بلجيكا. ولنا أن نعلم أنه فى نوفمبر ١٩١٤ تم تدمير كاتدرائية يبرس وقاعة كلوث هول التاريخية إثر قصف نارى بتوجيه من مناطيد المراقبة الألمانية. تمكن المراقبون البريطانيون ممن اعتلوا المناطيد من الاتصال بالكتائب الميدانية على الأرض عبر الهاتف، كما تمكنوا من الاتصال بالمقار الرئيسية وبأى بقعة من بقاع الأرض. فى إحدى العطلات فى ١٩١٧، أعطى أحد المراقبين رقمه الشخصى إلى المشغل... وهكذا، بعد ربع ساعة، كان له أن يتحدث إلى زوجته الموجودة فى شمال لندن بينما هو يحلق فى سماء فرنسا. وبطبيعة الحال، أصبحت مناطيد المراقبة هدفًا للعدو هى الأخرى. ذات ليلة من ليالى ١٩١٧، حينما صعد رسام الحرب سى آر نيفينسون داخل أحد المناطيد فوق الجبهة الغربية للمراقبة ورسم وميض البنادق ليلاً، وجد نفسه هدفًا لأعيرة باراشوت ضخم... وهكذا استعد للهبوط حال إشعال الطلقات للهيدروجين الموجود بـ "صندوق الغاز" المثبت أعلاه. (كان نيفينسون هو أول فنان بريطانى يرسم المناظر الجوية. وقد التقطت لوحاته التى رسمها فى ١٩١٧، "In The Air and Bankig at 4000 Feet"، النظر إلى حقول باتش وورك من زاوية منحدرة من طائرة صغيرة مفتوحة).

نهض الألمان بتقنية البالون ومضوا بها قدمًا وذلك بتطويرهم مناطيد الكونت زيبلن ذات المحركات والقابلة للنفخ بالهواء، إلا أن الفرنسيين كان لهم السبق والريادة فى تطوير الطائرات والنهوض بها لاستخدامها فى الحرب. فبحلول صيف ١٩١١، كانت الفيالق الجوية الفرنسية تضع تحت يدها ٢٠٠ طائرة، كما أن التنسيق بين سلاح الطيران وسلاح الفرسان والمشاة والمدفعية على الأرض إبان المناورات العسكرية فى معسكر دو شالون قد أدهش المراقبين الأجانب. وبحلول ١٩١٤، ضم سلاح

الطيران الألمانى ٢٤٦ طائرة وأحد عشر منطاداً بمحرك مقارنة بالأسطول الجوى البريطانى الذى كان يضم حينها ١١٠ طائرات وستة مناطيد بمحركات. قد نلاحظ تأخر البريطانيون عن الركب فى هذا السباق، إلا أنهم لحقوا بالركب وتقدموا عليه. تشكلت فيالق الجوية الملكية (RFC) فى ربيع ١٩١٢؛ ولم تكن تضم سوى ثمانى عشرة ماكينة، إلا أنها كانت تهدف إلى تكوين سبعة أساطيل جوية تضم عشرات الطائرات، فضلاً عن أسطول من المناطيد ذات المحركات فى جناحها العسكرى.

ولنا أن نعلم أن أولى الطائرات الخفيفة التابعة لفيالق الجوية الملكية لم تتضمن أى ذخائر أساسية؛ إذ كان الغرض منها هو الاستطلاع. إن من تولى قيادة الفيالق الجوية الملكية فى عام ١٩١٤ هو القائد الجنرال السير ديفيد هندرسون الذى كان قائد إحدى فرق المخابرات فى حملات السودان ومدير المخابرات العسكرية فى حرب البوير الثانية. لم يتعلم هندرسون التحليق بالطائرات إلا فى ١٩١١، عندما أثبتت الطائرات جدواها فى كل من مناورات الجيشين الألمانى والفرنسى، ثم أصبح، عند عامه التاسع والأربعين، من أكبر الطيارين فى العالم. كتب هندرسون أحد الكتب الإرشادية المهمة حول جمع المعلومات، "Field Intelligence"، وفى عام ١٩٠٣ ثم نشر كتابه "The Art of Reconnaissance" فى ١٩٠٧.

أثناء مناورات الجيش البريطانى أو تدريباته فى سبتمبر ١٩١٢، لم تثبت طائرات فيالق الجوية الملكية فعاليتها فى عمليات الاستطلاع التى أجريت فوق نورفولك. فمن بين ذلك ما روى عن جيمى جريرسون، ممن تولوا الزود عن ثيتفورد، إذ كان جريرسون على اتصال بالمنطاد الحربى جاما (اتصالاً لا سلكيًا، لما يقرب من خمسة وثلاثين ميلاً عن بعد) لمعرفة جميع التحركات الليلية لفريق الجنرال دوجلاس هيج، الفريق الذى يهاجم من الشرق، محاولاً التحرك متخفيًا تحت الشجيرات الممتدة على جانب الطريق. فإن هذه الخطوات لم تحقق ما هو مرجو منها بل العكس، فأصبحوا أكثر ظهوراً وأصبح من السهل تمييزهم من قبل الراصدين فى الجو؛ إذ استخدموا أسلوبًا بدائيًا من التمويه، محاولين إخفاء المركبات والمدافع بأغصان الأشجار.

تضمنت الطبعة الثالثة من كتاب "Art of Reconnaissance" لهندرسن، الذى نشر فى مايو ١٩١٤، فصلاً كاملاً عن "الاستطلاع الجوى". توقع هندرسون أنه مع وجود الطائرات الحديثة يصبح حظر مراقبة العدو أمراً مستحيلاً؛ ذلك لأنه مع المراقبة الجوية تنزع الحركات الاستراتيجية رداء السرية، كما يصبح القادة أكثر حذراً إذ بات من الصعب مباغتة العدو. ولقد توقع هندرسون أنه مع ظهور سلاح الجوية يغيب دور سلاح الفرسان.

كما أسر تشرشل أيضاً بسحر الجو وما يمنحه للمرء من حرية. فى ١٩١٢، صعد تشرشل على متن الطائرة باعتباره أحد ركابها، وبعدها توالت الرحلات. كان لتشرشل دوره فى تشجيع الجناح الملاحى فى فيالق الجوية الملكية على تعزيز البرق اللا سلكى فى المناطيد الحربية؛ فضلاً عن رصد تحركات الغواصات من الجو. ولما كان تشرشل معجباً بأسلوب الجوية الملكية فى الهجوم، تنبأ لسلاح الطيران بدور بالغ الأهمية فى الحرب يتجاوز مهمة جمع المعلومات وإيفاد التقارير التى توقعها هندرسون.

فى أوائل الحرب، عندما كان يلتقى طيارو أحد طرفى الحرب مع طيارى الطرف الآخر فى الجو؛ ما كان منهم إلا أن يتجاهل بعضهم بعضاً أو يلقوا إلى بعضهم التحية كما الأصدقاء، فإن هذه الأخلاق سرعان ما اختفت. ذكر جون ماسترز أن هؤلاء الطيارين شرعوا فى إلقاء أشياء كالطوب على بعضهم بعض فى بادئ الأمر؛ ثم بعدها شرعوا فى استخدام أسلحة صغيرة... وهكذا مع الشروع فى مثل هذه الأمور، كان من الطبيعى أن يستعد كل منهم للهجوم على الطرف الآخر وإسقاطه أرضاً... وهكذا أصبح تثبيت مانع إصابة الأجنحة بالرصاص داخل المدافع الآلية لإطلاق النيران عبر المدافع المثبتة بالطائرات تطوراً منطقياً.

سرعان ما تحولت المعارك الفردية فى الجو إلى ملحمة. ففى مايو ١٩١٥ وبعد أسبوع من شروع الألمان فى إسقاط القنابل فوق لندن، اصطدمت إحدى الطائرات أحادية السطح، بقيادة الملازم ثان ريجينالد ورنفورد، تابعة للفيالق الجوية الملكية، بمنطاد زيلين "LZ37" فوق بروج، بينما كان المنطاد عائداً إلى قاعدته؛ إذ منعه الضباب من

قصف إنجلترا. وفى المعركة التى تلت هذه الحادثة، استخدم ورنفورد "ريكس" تقنيةً أوصى بها تشرشل فى بادئ الأمر وشجع على استخدامها. عندما أقصت مدافع المنطاد زبلن الملازم ورنفورد بعيداً، ارتفع بمظلة طيارته، طراز "Morane-Saunier"، بعيداً ثم بعدها هبط من مسافة ١١٠٠٠ قدم مخترقًا وابل الطلقات النارية الخارجة من المدافع المثبتة أعلى سطح المنطاد إلى أن أصبحت المسافة الفاصلة بينه وبين الظهر الرمادى للمنطاد ١٠٠ قدم. عندما تأهب ورنفورد وأخذ وضعه، حرك محرر القنابل وأطلق القنابل الست التى يبلغ وزن كل منها ٢٠ رطلاً على طول المنطاد زبلن. أسفرت التفجيرات اللاحقة عن تفجير طائرته هو أيضًا، وأسقطتها رأسًا على عقب، على ارتفاع مئات الأقدام فى الجو (لم ينقذه من السقوط سوى أحزمة الأمان)، وأوقف هذا الانفجار المحرك الخاص به. تمكن ورنفورد من الهبوط بالمظلة على إحدى المناطق التابعة لأراضى العدو، حاول جاهداً إصلاح خط الوقود بحامل سيجار ومنديل إلى أن نجح فى الإقلاع مجدداً والتحليق دون محرك حتى اصطدم بالأرض بالقرب من كاب جريز نيز. فى تلك الأثناء تحطم المنطاد التابع للألمان فوق دير سينت إليزابيث فى جينت، ما أسفر عن مقتل راهبتين وأحد الأيتام. ولم ينج من هذا الانفجار سوى شخص واحد وهو ستيرمان ألفرد موهلر الذى استطاع أن يقفز من المدفع المشتعل وأن يصطدم بقوة فى أحد الأسقف ومنها إلى سرير مكسو بالريش. أصبحت الشظايا التى خلفها أول منطاد حربى تحطم للعدو تذكاراً للوطنيين البلجيكيين. إلا أن إحدى الكتل المعدنية المحروقة انتهى بها المطاف لتكون ثقالة ورق على مكتب أول رئيس للبحرية، السير ونستون تشرشل.

بعد هذه الملحمة أصبح ورنفود، أول طيار يدمر منطاد زبلن تدميراً كاملاً، بطل الساعة. ولقد تلقى هذا الطيار البطل برقية من قصر بيكنجهام: "أهنئك من أعماق قلبى على ما حققته من إنجاز منقطع النظير بالأمس؛ إذ استطعت وبمفردك أن تدمر واحداً من مناطيد زبلن التابعة للعدو. وكم أشعر بكامل الفخر والسعادة إذ أمنحك وسام صليب فيكتوريا تقديراً منا لهذا العمل البطولى. جورج الأول".

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فبعد عشرة أيام مما حققه هذا الطيار من انتصار ساحق وبعد الاحتفال بإنجازه وتكريمه من قبل المجتمع الباريسى، وبعد أن تسارعت إليه السيدات الفرنسيات وتنافسن للوصول إليه، لقى ورنفورد الذى كان يبلغ من العمر ٢٤ ربيعًا حتفه بالقرب من فيرساى. كان ورنفورد على متن طائرة "F-27" فارمان الاستطلاعية ذات المقعدين (دون حزام الأمان)؛ إذ انقلبت الطائرة إثر انعطاف شديد الانحدار وانفجرت فى الهواء. كان ورنفورد لا يزال على قيد الحياة عندما عثروا عليه مغشياً على وجهه وشارة فارس وسام جوقة الشرف مغروسة فى جانبه الأيمن.

قد يخيل إلينا أن عمليات الاستطلاع هى عمليات بسيطة وسهلة إلا أنها ليست كما يبدو لنا. ففى يوم الأربعاء الموافق التاسع عشر من أغسطس ١٩١٤؛ ضل طياران من طيارى الفيالق الجوية الملكية، فى أول استطلاع لها فوق الأراضى الفرنسية أثناء الحرب، أحدهما الآخر وضلا طريقيهما وسط السحاب. حلق أحدهما فوق مدينة بروكسل البلجيكية دون أن يدرك أى المدن يحلق فوقها، أما الآخر فاضطر إلى الهبوط مرتين ومعرفة الاتجاهات من الضباط الفرنسيين. إن ما أوحى إلى الطيار الضال الذى كان يدعى جيلينجز أنه يحلق فوق أرض العدو وقطع له الشك باليقين أن كانت الرصاصة التى استقرت فى ساقه من أحد بنادق العدو فى الثانى والعشرين من أغسطس. ليس هذا وحسب، بل وإن المراقبين الجدد لا يكونوا على يقين من حقيقة ما يرونه فى كل الأحوال. ففى مدينة إيبرس البلجيكية فى عام ١٩١٤، أبلغ أحد المستطلعين عن مدرجات الإقلاع عن أنها قوات متحركة وبعض الأضرحة عن أنها معسكرات للعدو. ثبت بالتجربة والخطأ أنه يمكن الوصول إلى رؤية جيدة مع مسافة ٦٠٠٠ قدم، وهو تقريبًا النطاق الذى تصل إليه طلقات البنادق الموجهة من الأرض.

منذ تسعينيات القرن التاسع عشر وحشو قذائف سلاح المدفعية يتغير شيئًا فشيئًا... وهكذا لم يعد طيارو الاستطلاع فى الحرب العالمية الأولى قادرين على رؤية السحب الدخانية البيضاء المميزة التى كانت تخرج من المدافع الكبيرة. مع ما أضفاه الدفع الذاتى عديم الدخان على المدافع المستخدمة فى الحرب من زيادة فى القوة والمدى

بات من غير الضرورى إطلاق هذه المدافع "من مناطق مفتوحة"، تكشف الهدف المصوب نحوه الأعيرة النارية، بل وأصبح من الممكن إخفاء هذه المدافع وإبقائها على بعد أميال من الهدف، إذ يوجه مسئولو المراقبة إطلاق النار عبر الهاتف. بدأ هذا الاتجاه فى ستينيات القرن التاسع عشر فى الحرب الأهلية الأمريكية، حينما تمكن راصدون مستخدمين شارات فى مناطيد مثبتة تابعة لقوات الاتحاد من مساعدة المدفعيين على الأرض على قصف مواطن للكونفيدراليين وبدقة.

مع استخدام طائرات الاستطلاع المتنقلة؛ أصبحت حياة الكثير من المدفعيين محفوفةً بالمخاطر. يمكن لأحد الطيارين رؤية كتيبة من كتائب العدو وبعدها يسقط قذيفة دخان لتمييز مكان الكتيبة. يحدد جنود المراقبة بعد ذلك المسافة الفاصلة بمقياس البعد ويرشدون سلاح المدفعية إلى مكان القصف. وإذا كانت الطائرة تتمتع بالاتصال اللا سلكى، يمكن إرسال إشارات الخريطة المرجعية. إليك الرسائل اللا سلكية التى أرسلتها إحدى طائرات فيالق الجوية الملكية ممن يوجهون مجموعة من المدفعيين الإنجليز على الأرض فى أثناء قصفهم إحدى الكتائب المدفعية للعدو فى الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩١٤:

٤,٢ مساءً، أقصر بعض الشىء. أطلق النار. أطلق النار.

٤,٤ مساءً، أطلق النار مجدداً. أطلق النار مجدداً.

٤,١٢ مساءً، أقصر بعض الشىء؛ الموقع المحاذاة جيدة.

٤,١٥ مساءً، أقصر، أعلى، أعلى وإلى اليسار بعض الشىء.

٤,٢٠ مساءً، كنت على نقطة بين كتيبتين. تحرك مئتى ياردة عند كل اتجاه من آخر طلقة. المدى جيد.

٤,٢٢ مساءً، تمكنت منهم.

٤,٢٦ مساءً، اضرب. اضرب. اضرب.

٤,٣٢ مساءً، أقصر ٢٠ ياردة وإلى اليمين.

٤,٣٧ مساءً، صوبت نحو مركز ثلاث كتائب متحركة؛ تحرك فى نطاق ٣٠ ياردة من آخر ضربة وستتمكن منهم.

٤,٤٢ مساءً، إنى عائد أدراجى الآن.

الخوف من جنود المراقبة كان هو الفكرة الرئيسية التى دارت حولها رواية جون بوتشن عن الحرب العالمية الأولى "Mr Standfast" (١٩١٩). ففى هذه الرواية التحق بيتر بينار، أحد الكشافة الفريكان، بفيالق الجوية الملكية وبات من أمهر رائدى حروب الطائرات. "كان يعرف كيف يتخفى فى الفضاء الشاغر تمامًا كما يتخفى وسط حشائش سهول الليبومبو الطويلة". تظهر ذروة هذه الرواية، فى أثناء الهجوم الألمانى الشرس فى أبريل ١٩١٨، مع رحلة بينار الرائعة والبائسة فى آن واحد والتى قام بها فى طائرته الصغيرة شارك جلاداس لإيقاف إحدى طائرات الاستطلاع التابعة للعدو من العودة إلى القاعدة الألمانية بما تحمله من أخبار عن الوهن والضعف الذى أحل بصفوف الحلفاء، "الأنباء التى حملت موتنا معها".

كان الشىء الأكثر خطراً من جنود المراقبة هو الكاميرا. أتاح الاستطلاع الجوى الفوتوغرافى أدلة أكثر مصداقية من انطباعات جنود المراقبة ورواياتهم؛ ذلك لأنه مع وجود مثل هذا الاستطلاع بات من السهل وضع تسجيل علمى للأرض المراد مراقبتها عن طريق الصور الأفقية والمنحرفة التى يمكن دراستها والتدقيق فيها ومضاهاتها بالخرائط. مع بداية الحرب العالمية الأولى كان الفرنسيون، وهم أول من التقط صوراً من البالون فى عام ١٨٥٨، يلتقطون صوراً للمواقع الألمانية. ذكر روديارد كيبلنج، فى أثناء زيارته للقوات الفرنسية وقت إعداد تقريره "France at War" فى عام ١٩١٥: "إن المخابرات بما تتمتع به من خرائط مصورة مدهشة لأخاديد العدو".

لم يتطرق هندرسون فى طبعة عام ١٩١٤ من كتابه "The Art of Reconnaissance"؛ إلى التصوير الفوتوغرافى إذ كان وقتها تطبيقًا جديداً بل وسرياً من تطبيقات تقنية

الطيران، فإن بعض الضباط البريطانيين، ذات يوم من أيام ١٩١٤، قد استطاعوا التقاط صور لكل مواطن الدفاع فى جزيرة وايت وبورتسماوث والمنطقة الفاصلة بينها وبين بريطانيا من ارتفاع ٥٦٠٠ قدم. كما استطاع هؤلاء الطيارون تحميض هذه الصور حتى تكون جاهزة للطباعة فور الهبوط.

تم تأسيس قسم التصوير الفوتوغرافى الجوى التابع لفيالق الجوية الملكية بصفة رسمية فى يناير ١٩١٥. عندما شن دوجلاس هاى أولى الهجمات البريطانية على نيف تشابيل بعد هذا التاريخ بشهرين، كان سلاح المدفعية والمشاة والجوية يعملون وفقًا لخريطة الأخاديد الألمانية ذاتها، وقد أعدت هذه الخريطة من ألواح تصويرية، ٤ بوصة × ٥ بوصة والتى التقطت من كاميرات ترونتون بيكارد التى صممت خصيصاً لطائرات الفيالق الجوية الملكية، فإن هذا الهجوم، كغيره، قد منى بالفشل ليس لجهل الأشخاص المسئولين عن الهجوم بالمكان القابعين فيه، إنما لتعذر اتصالهم ببعض. ففى ذلك الوقت لم يكن الاتصال بالهاتف على وتيرة القياس عن بعد. مع نهاية الحرب العالمية الأولى أخرجت مئات الكاميرات الجوية ما يقرب من ستة ملايين صورة غير ملونة لتوزيعها، وحينها اعتقد الحلفاء أنه لا يمكن حفر أى أخدود ألمانى دون أن يكونوا على علم به.

إن الحاجة الماسة إلى خداع أعين الطيارين؛ كانت هى السبب الذى عرف من أجله التمويه.

(٢)

طبيعة التمويه

لم يظهر التمويه فى الطبعة الحادية عشرة الشهيرة من الموسوعة البريطانية "بريتانيكا" ١٩١٠-١١، إلا أن كارثة الحرب العالمية الأولى عرفت الجميع بماهيته. ولقد أوردت الطبعة الثانية عشرة من الموسوعة ذاتها فى ١٩٢٢؛ مقالات عدة عن هذا الموضوع، ومن بين هذه المقالات مقال للفنان البحرى نورمان ويلكنسون الذى ابتكر طريقة مذهلة لإخفاء السفن الموجودة فى البحر عن أعين العدو. إن كلمة "camouflage" "تمويه" هى كلمة فرنسية نطق بها إريك بارتريدج اشتقاقًا من الفعل الباريسى العامى "Camouflage" بمعنى "التخفى"، أو ربما اشتقت هذه الكلمة من الكلمة الإيطالية "Camoufler"، المشتقة من "Capo muffare" بمعنى "تغطية الرأس". دخلت كلمة "camouflage" إلى اللغة الإنجليزية وأصبحت من بين مفرداتها فى غضون الحرب العالمية الأولى، فيما كان أول استخدام لهذه الكلمة فى قاموس أوكسفورد مقتبساً من صحيفة "Daily Mail" فى مايو ١٩١٧: "إخفاء أى شىء عن أعين العدو يطلق عليه "camouflage" تمويه.

ثمة روايتان لأول استخدام للتمويه فى عام ١٩١٤، وكلاهما مرتبط بسلاح المدفعية والفنانين والطائرات. يقال إن رسام صور فرنسياً يبلغ من العمر واحداً وأربعين ربيعاً، ويدعى لوسيان - فيكتور جويراند دو سيفولا، وكان يعمل جندى مدفعية من الدرجة الثانية، هو أول من وردت إلى ذهنه فكرة تغطية المدفعية بأوراق مطلية حتى لا يمكن

للعدو تحديد موقعها. إن ما دفع هذا الجندى إلى التفكير فى مثل هذا الأمر هو حماية أرواح أصحابه من الجنود؛ فبعد أن سقطت إحدى القنابل على مدفعيته وأسفرت عن إصابة أصحابه إصابات بالغة، فكر فى أنه من الممكن أن يمنع حدوث مثل هذا الأمر مجدداً إذا استطاع إخفاء ملامح الأسلحة وتغيير شكلها ولونها. وفى رواية أخرى أسقطت طائرة ألمانية قنبلة فوق سرية من الكتيبة السادسة لسلاح المدفعية بتاول، غرب نانسى، ما أسفر عن إصابة بعض من أصدقاء الرسام لويس جوينجوت والرقيب يوجين كوربين. وكان مع كوربين بضع لفائف من أقمشة الخيام التى كانت تستخدم فى ورش المخازن ذات الصلة حيث كان يعمل كوربين مديراً. وبعدها وضع هذا القماش الشمعى الملطخ بالبقع فوق البنادق والمدافع وتم تثبيته بالأوتاد. وفى ذلك الوقت كان جوينجوت قد استحوذ على مجموعة من الأرواب التى صبغها باللون الأصفر ثم نشر عليها بقعًا خضراء اللون تحيط بها خطوط سوداء صنعت خصيصًا ليرتديها رجال المدفعية فوق زيهم ذى اللون الأزرق الزاهى.

وقد اعتمد الضابط المسئول، الكولونيل فتر، كل هذه الإجراءات؛ فقد وضع هذا الأمر قيد التجربة؛ إذ جعل ابنه الطيار يطير فوق كتيبة حديثة "التمويه" على ارتفاع ٣٠٠ متر. وقد أسقط الطيار رسالة تفيد بأنه لا يستطيع أن يحدد سوى موقع الرجال الخمسة الذين أبقوا على زيهم الأزرق الزاهى متعمدين. وبعدها استعان الكولونيل فتر بكوربين وجوينجوت، وبصحبتهما هنرى روجر ويوجين رينين، للشروع فى صنع الأغطية والأرواب سعيًا وراء إخفاء الأسلحة التى يبلغ قياسها ١٢٠ و١٥٠ مم وطاقمهم، وذلك مع تقدمهم نحو متز.

بدءًا من أكتوبر ١٩١٤ فما بعد، باتت حرب الجبهة الغربية منغمسة داخل الخنادق... وهكذا أصبحت حروب المستقبل صورة مكررة من حروب القرون الوسطى، ومع انغماس الجنود داخل الطين، بدأت طلقات التمويه الحقيقى فى الظهور. يمكنك، بالطريقة المعتادة، أن تضع سياجًا من العيدان حول الأسلحة لتخفيها عن الأنظار، فإن ذلك لا يعد تمويهًا حقيقيًا، بل عملية إخفاء تمامًا كتلك "الكتائب المقنعة" ذات مدافع الميدان

التى قصفت مركبات المريخ فى رواية إتش جى ويلز "The War of the Worlds" ١٨٩٨.
فالتمويه هو فن جديد أسهم الرسامون فى رمى بذوره الأولى وخروجه للنور.

تلقى قسم التمويه بالجيش الفرنسى فى مدينة أمينز أمرًا رسميًا، فى الثانى عشر من فبراير ١٩١٥، بإعطاء الأولوية القصوى لإخفاء الأسلحة والجنود عن أعين العدو. ولقد تولى قيادة هذه المهمة جويراند دو سيفولا، فيما كان الرسام الانطباعى جين لويس فورين، الذى يبلغ من العمر ٦٣ ربيعًا، المفتش العام. كما تمكن الجنرال جوفر من توسعة نطاق التمويه بإرفاق ورش عمل لكل فيلق من فيالق الجيش، ليس فى أمينز وحدها، بل ووصلت ورش العمل هذه إلى أماكن أخرى منها غراس وبورجيت وتشالونز سير مارن وشانتيلى وإيبيرناى ونانسى وفى ٣٤ رو دو بلاتو باريس.

بدأ قسم التمويه وقوامه ثلاثين ضابطًا وسبعة رجال من مجالات المسرح والرسم والتحنيط والتصميم. ارتدى الفنانون جميعهم شارة تجمع بين اللونين الأحمر والأبيض أو عضادة مثبتة بحبل فى شارة الوحدة التابعين لها - حرباء فضية، سحلية إفريقية يمكنها أن تبدل لون جلدها المحصب. إن العيون الدوارة المجهرية لهذه الحرباء التى توجد على جانبى الرأس تساعدها فى تحديد المسافة الفاصلة بينها وبين فريستها من الحشرات كما تمكنها من إطلاق لسانها اللزج بسرعة البرق فتقع الفريسة فى شباكها... وهكذا، نرى أن هذه الحرباء تجمع بين مهارات التمويهيين والمراقبين والمدفعيين.

إن فن التمويه الذى حظيت به الحرب العالمية الأولى تقلد مبادئ قانون البقاء للأصلح فى الطبيعة. فالتمويه يضفى التفوق الاستراتيجى والتكتيكى فى سباق التسلح بين المخلوقات التى تستغل بصرها؛ إذ يمكن للمفترس والفريسة كليهما أن يخدع بعضيهما الآخر بالتلوين الذى يتيح لهما إمكانية مزج ملامحهما الشكلية مع ملامح الطبيعة المحيطة أو باتخاذ أشكال مغايرة لأشكالهما بما يغير شكلهما المعتاد تمام التغيير... وهكذا تصبح القدرة على الرؤية والقدرة على التخفى مسألة حياة أو موت. عندما تستقر واحدة من الفراشات البيضاء فوق شجيرة مغطاة بخطوط خضراء

وبيضاء اللون، يمكن لأجنحتها المطوية أن تتماشى تماماً مع حواف الأوراق الباهتة المزقة. يقول ونستون تشرشل فى كتابه "In My Early Life": إن من بين محاضرات المصباح السحرى التى تلقاها فى مدرسة "Harrow school" محاضرتين عن المعارك، وأخرى عن الإمبراطورية، وأخرى عن الجغرافيا وتلك التى تبين كيفية حماية الفراشات أنفسهن بالألوان. ومع قدرة بعض الحيوانات والطيور على الخداع والتمويه، فإن الجنس البشرى تفوق عليها، إذ يستخدم البشر عقلهم وذكاءهم للتفوق على بعضهم فى الدهاء، وعلى غيرهم من الفصائل، للتنافس من أجل ما يلزمهم من موارد... وهكذا نجد أن ما استخدمه القناصة الأوائل من شراك وسبل للتخفى ساعدتهم فى خداع فرائسهم وإيقاعهم فى الشرك. أول من فكر فى دراسة هذا الأمر أبوت إتش ثاير (١٨٤٩-١٩٢١)، وهو فنان أتوقراطى غريب الأطوار من مانوك، هامسفير الجديدة. فلقد أورد فى مقاله "The Law Which Underlines Protective Coloration" - "القانون الذى يبرز التلوين الوقائى"، بمجلة "The Auk" التى تهتم بدراسة الطيور فى ١٨٩٦، أن التمويه هو إدراك للعمق فضلاً عن تلوين للسطح، ولقد رسم ثاير صوراً طبيعية دفعت الناس إلى الاعتقاد أن لوحة زيتية ثنائية الأبعاد هى لوحة صلبة ثلاثية الأبعاد. ليس هذا وحسب، بل وأدرك هذا الفنان نفسه أن الطبيعة بوسعها أن تجعلنا نعتقد العكس فى بعض الأحيان.

وعلى أرض الواقع، نجد أن خطوط محيط أى جسم يقع فى منطقة مضيئة تظهر على نحو زاه فى الجانب المواجه لمصدر الضوء وتظهر على هيئة ظل فى الجانب الآخر. وكان ثاير هو أول من لاحظ أن العديد من الحيوانات تتمتع بما سماه "الظل المعاكس" - الألوان الأكثر قتامةً تظهر أعلى الحيوان، على الظهر حيث تكون مواجهةً للشمس، ثم تخف قتامة الألوان مع الاتجاه لأسفل وصولاً إلى منطقة البطن. ولما كان ترتيب هذه الألوان مغايراً للتوقعات البصرية المألوفة، الأزهى نحو الأعلى والأكثر قتامةً نحو الأسفل، تشكل أمامنا مخلوق دائرى الجسد يظهر وكأنه مسطحاً قبالة البيئة المحيطة. كان العالم البيولوجى البريطانى إدوارد باجنول بولتون هو أول من لاحظ فى ثمانينيات القرن التاسع عشر أن النقاط البيضاء المنثورة على الجانب المظلل والأكثر قتامةً من يرقة فراشة الإمبراطور الأرجوانية تجعلها تبدو كورقة شجر، مع أنه لم يكن قد

اكتشف حينها أن هذه السمة لا تقتصر على هذه الفراشة وحسب إنما هى سمة شائعة فى مملكة الحيوان.

فى عام ١٩٠٩، نشر ابن ثاير جيرالد، كتابًا يعد اكتشافًا فى حد ذاته، "Concealing-coloration in the Animal Kingdome, An Exposition of the Laws of Disguise through Color and Pattern: Being a Summary of Abbot H. Thayer's Discoveries" (الإخفاء - التلوين فى مملكة الحيوان، شرح لقوانين التخفى بالألوان والأشكال: ملخص لاكتشافات أبوت إتش ثاير). ولنا أن نعلم أن مقدمة ثاير كانت تضفو عليها المبالغة والقابلية للجدال. لم يتمكن علماء الحيوان ولا علماء الطبيعة من فهم ما أدركه الرسامون: "إن الأشكال التنكرية التى تتشكل بها الحيوانات إنما هى... إذا أردنا التماس الدقة، انتصار للفن." إن كلاً من ثاير الأب والابن أصرا إصرارًا شديدًا على أن سبل تمويه الحيوانات كافة إنما هى ترتبط بتخفى الكائن وامتزاجه ببيئته، ولم يقرأ أى منهما كتاب داروين "The Origin of Species" أصل الفصائل" أو يفهماه، حيث أرجع داروين فى هذا الكتاب لون الريش الزاهى إلى الاختيار الجنسى وليس للتخفى. وعلى الرغم من ذلك، فلا يزال هذا العمل من أبرز الأعمال، فهو يعد نصًا مرجعيًا للتمويه قبل أن تعرف الكلمة نفسها، كما يعد تعريفًا بأفكار تطرق إليها الفن الحديث. ويذكر أن تطرق ثاير لما سماه "العلامات المشوشة أو التخريبية"، على سبيل المثال تلك الخطوط البيضاء والسوداء التى تخفى الهيكل الخارجى لطائر الزقاق الذى يعشش بين الحصباء، كان مع شروع بعض الفنانين ومن بينهم جورج براك فى باريس فى تخريب وتشويه التشابه السطحى والرؤية الفردية بتوصلهم إلى التكعيبية.

ولا شك أن فنانى الطليعة الفرنسيين كان لهم بالغ التأثير فى الجيش الفرنسى فى الحرب العالمية الأولى. فى إحدى كتابات جوينراد دو سيفولا بعد الهدنة بفترة قصيرة أوضح أن أول من ورد إلى ذهنه عندما فكر فى إخفاء شكل الأسلحة هم التكعيبيون. ولنا أن نعلم أن الأساليب الصارخة التى استخدمها كل من بارك وبيكاسو لتغيير ملامح الأشخاص، والربط بين الرؤى والمنظورات لإظهار الأشياء بصورة جديدة وأضواء مختلفة، يمكن استخدامها كذلك لتغيير هيئة الأجسام فيصعب التعرف عليها.

أظهرت إحدى الصور التى تضمنتها مجلة "The War Illustrated" (٣ يوليو ١٩١٥)، والتى جاءت تحت عنوان "لعبة التخفى مع المدفعية الثقيلة" الأشكال والخطوط التشويهية التى تعلو المدفعيات، كما جاء التعليق الموجود أسفل هذه الصورة على هذا النحو: "آخر خدعات الحرب التى طبقها حلفاؤنا المهرة". ولقد بينت هذه الصورة المدفعيين الفرنسيين وهم يطلون مدفعيات "75s" بألوان المناظر الطبيعية التى تحيط بهم، سعياً وراء إخفاء مدافعهم عن طائرات الاستطلاع.

إن بيكاسو الذى عرف التكعيبية ذات يوم بأنها رسم الأشياء كما نعرفها ونفكر بها وليس كما نراها، عرف التمويه بأنه ابنه غير الشرعى. تذكر جيرترود شتاين إحدى المرات التى قضتها مع بيكاسو فى بوليفارد راسبيل ذات ليلةٍ فى باريس فى عام ١٩١٥ حينما سحبت إحدى المدفعيات الثقيلة المتخفية وراءهما. حينها نظر بيكاسو بإعجاب إلى المدفعية بما يضفو عليها من أشكال تخفى ملامحها وصاح قائلاً: "نحن من ابتكرنا هذا الأمر!". ليس هذا وحسب، بل وبينت شتاين بعد ذلك، فى ألزاس، كيفية اختلاف التمويه باختلاف الثقافات:

"من بين الأمور الأخرى التى باتت محل اهتمام لنا هو مدى اختلاف صور التمويه الفرنسية عن تمويه صور التمويه التى استخدمها الألمان، بل ولاحظنا بعدها شكلاً آخر من أشكال التمويه الذى غلب عليه الإتقان والترتيب وكان أمريكياً ... اختلف اختيار الألوان وترتيبها، واختلفت التصميمات بل واختلفت كيفية ترتيب التصميمات، بما يجعل من السهل علينا فهم نظرية الفن وما تتسم به من حتمية...".

أورد لويس مافورد فى كتابه "Technics and Civilization" - (١٩٣٤)، فكرة أنه مع ابتكار الكاميرا الفوتوغرافية أصبح الناس أكثر انفتاحاً، إذ بدأ الناس يقفون بعض الشىء لالتقاط صورة لهم أو فى التحرك لالتقاط صورة متحركة، كما لو أنهم اعتادوا الوقوف على خشبة المسرح أو الوقوف أمام الشاشة. وهو يعتقد أن هذه النقلة التقنية، من الفحص الذاتى للمرآة إلى العرض الذاتى للكاميرا، جعل من العرض أمراً بالغ الأهمية، فإذا طبقنا هذا الأمر على الحرب وعلى الواجهة اللازمة لمواجهة العدو، تتجلى أمامنا إمكانات العرض الزائف، الخداع.

هكـذا فـهم البريطانيون فكرة التمـويه مع نهـاية الحـرب العظمى، إذ صـرح بذلك المتحدث الرسمى فيما يتعلق بمبادئ التمويه وممارساته "الخداع، وليس التخفى، هو سر التـمويه". كمـا يعـرف كتـاب "Manual of Field Works" (All Arms) 1921، التمويه على أنه "فن إخفاء شىء ما، فهو يعتمد أساسًا على الخداع". وقد أظهر استخدام التـمـويه فى السنوات الأخـيرة من الحرب أن: أنصـاف الأكـاذيب وأنصاف الحقائق قد تكون "حقيقة مموهة" و"وطنية زائفة" وأحد الجنـود الألمان المموهين". وفى مجال الصحافة يعرف المقال الذى يضم معلومات خاطئة لتوصيلها للعدو "تمويهًا".

على الرغم من أن ممارسة التمويه لدى البريطانيين أضفيت عليها الرسمية فى ١٩١٥، فإن كلمة "تمـويه" لم يعرفها الجمهـور وتتناقلها ألسنتهم إلا فى عـام ١٩١٧. فلما أضفيت على هذه الكلمة السرية وقت الحرب، كانت وقتها سرًا من أسرار الدولة، تحميه إدارة الوكالات الرقابية... وهكذا كان لا بد من فرض الرقابة على فن إخفاء الأشياء لإبقائه بعيدًا عن كل من قد يهتم بما هو مخفى.

عندما زار الأخ الأصغر لتشيستيرتون، الصحفى السياسى المشاكس سيسيل تشيستيرتون، جورج برنارد شو لآخر مرة كان يرتدى الكاكى وتكسو ملامحه حرقة الشمس كما تضفو عليه ملامح الجندى اليائس:

حينها كانت كلمة "التمويه" قد باتت كلمة شائعةً تتناقلها الألسنة؛ و...صور لى خيالى الجامح صورةً لسيسيل متخفيًا على هيئة شمندر وسط حقيبة من البطاطس بوقوفه ثابتًا بينها.

اقتبس البريطانيون كلمة تمويه من الرسامين الفرنسيين، وبعدها ساعد الرسامون البريطانيون جيشهم فى إدخال هذه الفكرة حيز التنفيذ. ومن أبرز هؤلاء سولومون جيه سولومون، الأكاديمى الملكى الذى رأيناه يفرد أوراقًا من صوف الموصلين الملون فوق أشجار حديقة حماته إبان نشوب الحرب، ولطالما استحوذ هذا الموضوع على تفكير سولومون ولم يأل جهدًا فى الدعوة إليه.

ولد سولومون جوزيف سولومون فى باراجون، أحد الأحياء الراقية فى بلاك هيث، جنوبى لندن، فى السادس عشر من سبتمبر ١٨٦٠، وهو الابن الخامس بين اثنى عشر ولدًا لوالده وزوجته المثقفة هيلينا ليتشتنستادت من براج. كان سولومون ولدًا مفعمًا بالحيوية يشع ذكاءً وكان يؤمن بمعانى الأرقام، كان الرقم ٦ هو رقم حظه. كان الجد الأكبر لسولومون صائغ فضة فى أمستردام وكانت عائلته إحدى العائلات الأنجلو يهودية ذائعة الصيت، ممن انتقلوا للعيش بأحد معابد اليهود إلا أنهم كانوا من الأرثوذوكس المعتدلين. ولما كانت الوصية الثانية تحرم "الصور المحفورة"، فلم يكن من المعتاد فى تلك الفترة أن يتقلد أحد اليهود الرسم كوظيفة له، إلا أن سولومون التحق بمدارس الأكاديمية الملكية، وهو فى السابع عشر من عمره، فى برلنجتون هاوس. ومن بين أساتذة سولومون، كان أستاذه جون إيفيت الأكثر اهتمامًا به وعطفًا عليه. لم يلتحق بالأكاديمية الملكية إلا يهودى واحد: سولومون هارت من ليموث، ولقد تم اختياره للالتحاق بالأكاديمية فى عام ١٩٤٠. إلا أن سولومون قرر أن يلتحق هو الآخر بالأكاديمية. ولم لا يلتحق بها وهو شخص ملائم؟ فها هو بينيامين دزرائيلى يهودى الأصل وتدرج فى أعلى المناصب إلى أن وصل إلى رئاسة الوزراء مرتين، فكونه ينتمى إلى عائلة أنجلو يهودية يعنى التركيز على أصله "الإنجليزى"، وليس على كونه مختلفًا عن البقية أو كونه غير لائق... وهكذا كان التوحيد بين فئات المجتمع ضربًا من ضروب التمويه الاجتماعى.

بعد السفر عبر القارة الأوروبية وانتقاله إلى طنجة، وبعد دراسة سولومون للصور، بدأ فى رسم أعمال فنية رفيعة المستوى. ظهر اسم سولومون للنور للمرة الأولى فى عام ١٨٨٧ من خلال لوحته الرائعة "Samson" (توجد هذه اللوحة الآن فى معرض "Walker" للفنون، ليفربول) التى تمثل رجلاً مفتول العضلات جاحظ العينين تحت سطوة فلسطينى قوى البنية؛ فيما تلوح دليلة الفلسطينية بشعره المقطوع. كان من بين الكلمات التى جاءت فى نعى سولومون فى جريدة التايمز أنه مع شغفه وعمله فى هذا المجال "عانى من النزعتين، الحسية والعاطفية". أما كاتب هذا النعى فكان يؤمن بأن

موهبة رسم الأشخاص كانت هى موهبته الحقيقية، ذلك لما تمتع به سولومون من "دراية وفهم للإنسانية".

ومما لا شك فيه أن مثل هذا الشخص كان مرحًا سهل المراس. التحق سولومون بنادى الترفيه "savage Club"، كما كان أحد أعضاء نادى الفن الإنجليزى الحديث، والمعهد الملكى لرسامى الزيت، ونقابة الفنانين والجمعية الملكية لرسامى صور الأشخاص وأخيراً تقلد منصب رئيس الجمعية الملكية للفنانين البريطانيين، حيث قال حينها:

"حينما تلقى السير صامويل مونتيج، نصير الفن وواحد من يدعمون المجتمع اليهودى، خطابًا يحمل توقيع "إس. سولومون" يلتمس المساعدة لما يمر به من ضائقة، هب لمد يد العون للطالب الشاب. إلا أن صاحب هذا الخطاب لم يكن الشاب سولومون سولومون، إنما سايمون سولومون. كان سايمون أحد الفنانين المبدعين ممن انضموا إلى جماعة ما قبل الرفائيلية إلا أنه مع كونه فنانًا كان قد تم القبض عليه فى أحد المراحيض العامة بتهمة السطو، وانتهى به الحال فى آخر المطاف إلى الموت كأحد مدمنى الكحول فى إصلاحية بسينت جيلز. وبعد زيارة سايمن، نصح السير مونتيج سولومون وبشدة بأن تحمل خطاباته التوقيع سولومون جى سولومون. (وبعد بضع سنوات، تزوجت ابنة سولومون من حفيد السير مونتيج): "شعرت بأنه كان علىَّ أن أقبل هذا المنصب لأننى يهودى". ولقد كان سولومون مغنيًا جيداً وراقصًا ومجدف قوارب ماهراً فضلاً عن كونه فارسًا.

ولكون سولومون أحد اليهود الذين تغلب عليهم الثقة بالنفس، كان أول رئيس لجمعية المهنيين من اليهود الإنجليز، فضلاً عن كونه عضواً فى منظمة الأراضى اليهودية التى أنشئت خصيصًا لتأسيس وطن لليهود بعدما فشل المخطط الأول لاستقرارهم داخل أوغندا. ولم يعرف سولومون بنشاطه اليهودى وحسب، إلا أنه كان يفخر بكونه إنجليزيًا. ففى عام ١٩٠٦، أحد أعوام حظه وهو يضم الرقم ٦، اختارته المؤسسة الفنية داخل الأكاديمية الملكية ليكون أحد الأكاديميين المنضمين إليها.

التحق سولومون بالأكاديمية الملكية وهو فى أوج ازدهاره وذلك بعد رسمه صورة للسينت الجماهيرى، سينت جورج.

ومع اقتراب سولومون من عامه الرابع والخمسين إبان الحرب العالمية الأولى، كان رسامًا طموحًا ذائع الصيت، إذ بدأ فى رسم صور للشخصيات الغنية وذوى السلطة، حتى إنه كان يرسم لمؤسسات كبرى مثل مبنى البرلمان. وقد سبق لسولومون أن ذهب إلى قصر بيكنجهام فى يوليو من عام ١٩١٤ لرسم صور تمهيدية من الزيت على ألواح لشخص الملك جورج الخامس والملكة ميرى والأمير إدوارد (دوق ويندسور المستقبلى) استعدادًا لرسم لوحة كبيرة على قماش الكانفاس لتمثيل غداء تتويج ١٩١٠ الذى عقد فى جويلدهال.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، التحق سولومون بالجيش باعتباره جنديًا خاصًا فى أول الفيالق المتطوعة للدفاع عن الوطن، وتشكلت هذه الفيالق من كبار عالم الفن ممن لم يتمكنوا من الالتحاق بكتائب المرابطين ولا النظاميين. تولى قيادة فيالق الفنون المتحدة الكاتب المسرحى السير آرثر بينيرو وقد أطلق عليهم اسم "المتحدين" لما كانوا يرتدونه من قمصان من الصوف الأبيض كأول زى تدريبى لهم. صمم سولومون الشارة الخاصة بهذه الفيالق، حمامة ترفرف نحو سيف (والتى أطلق عليها المستهزئون "البط والسيخ")، كما استطاع سولومون أن يحصل على الإذن بالتدريب فى ساحة منزل بيرلنجتون، فضلاً عن إمكانية استخدام نصف معرض الأكاديمية الملكية. فيما استخدمت غرفة المرطبات كمكان لتناول الطعام وكمخزن لبنادقهم اليابانية، رغم حظر ترك الذخيرة فى الموقع.

حشد سولومون مطلبًا عامًا للالتفات إلى مجال التمويه الذى لم يكن يحمل اسمًا فى ذلك الوقت، بأن أرسل خطابًا مهيبًا إلى جريدة التايمز. ظهر هذا الخطاب فى عدد الأربعاء ٢٧ يناير ١٩١٥، تحت عنوان "الزى الرسمى والألوان":

سيدى، إن ما تمنحه الطبيعة للكائنات الحية من قدرة على الدفاع عن نفسها بما وهبته إياها من قدرة على التوحد مع لون البيئة المحيطة بها قد يستفيد منه المسئولون

عن إعداد جيش من الجيوش، وذلك لما يحمله التخفى من أهمية بالغة فى استراتيجية الحرب الحديثة. إن التخفى والغياب عن ناظرى العدو يعنى عدم وجودنا بالنسبة إليه. وقد تكون محاولتنا، نحن الفنانون، فى هذا الاتجاه أكثر علمية بعض الشىء. إن المعرفة بالضوء والظل وتأثيرها فى المنظر يعد عاملاً لا غنى عنه لتخيل مصمم الزى العسكرى بصفة خاصة ومعدات الحرب بصفة عامة.

يبدو جليًا أن سولومون قد قرأ نظرية ثاير عن الظل المعاكس؛ إذ ينتقد سولومون فى خطابه تماثل الزى العسكرى: "... إن لون الكاكى هو اختيار جيد للصيف، أما فى الشتاء فهو شديد الاصفرار، إلا أننا نلاحظ تدثر الجنود من رأسهم إلى قدمهم بلون القماش ذاته. وهنا يأتى دور المعرفة بالضوء والظل".

لقد اقترح سولومون تغميق قلنسوات الجنود ومنطقة الكتف مع تفتيح سراويلهم وأحذيتهم، كما أبدى استغرابه من تماثل الزى بهذه الدرجة. ولقد رأى سولومون أنه إذا اختلف لون السترة أو المعطف فى كل قسم ما بين اللون الأزرق الذى يغطى معاطف الحراس، واللون الأخضر الرمادى ولون الكاكى الموجود حاليًا، قد يتحقق انكسار الألوان بما يمنحه من مزايا. كما حذر سولومون من مخاطر الشكل والظل: "إن لون القلنسوات التى يرتديها الجنود حاليًا يعزلهم تمامًا عن البيئة المحيطة بهم مما يجعلهم هدفًا سهلاً للعدو".

وهكذا اقترح سولومون صورًا جديدة لاستيعاب الألوان:

"إن ضابط المدفعية يخفى سلاحه بقماش رمادى اللون حتى لا يميزه العدو، إلا أنه مع وجود مجموعة مكونة من ستة جياد إلى ثمانية أمامه، فلن يتخيل الطيارون أن هذه عربة جزار. وعليه ينصح بتغطية الجياد بأشياء خضراء رمادية حتى تتساوى درجة التخفى. كما نلاحظ طلاء الأسلحة بلون الرصاص - الرمادى، بخلاف أى من مكونات البيئة المحيطة... وهكذا قد تكون تغطيتها بلون من ألوان الرمال الدافئة أكثر اتساقًا مع الطبيعة. يمكن تطبيق الملاحظة ذاتها على السفن الحربية. يشتهر بحر الشمال بلونه

الأخضر اللؤلؤى الثابت... وهكذا من الأفضـــل أن نبتكر لها لونًا أكثر رقة من لون المعدن المطلية به.

وأنهى سولومون خطابه باعتقاده بأنه من الممكن أن يعود الفنانون والرسامون "صانعو فنون السلم" بالنفع على "مصممى أسلحة الحرب".

منذ بدايات الحروب البشرية المنظمة والغرض من الأسلحة المستخدمة جميعها، مثل: أغطية الرأس المعقدة والدروع البراقة والألوان اللافتة هى إنذار العدو وإخافته، تمامًا كإبداء مواطن التهديد لدى الفصائل غير البشرية... وهكذا نرى أن التفكير فى اتصال الوحدات المحتشدة بعضها ببعض، كالفيالق الرومانية التى كانت تتخذ شكل السلحفاة، وهى تدرأ عن نفسها سهام العدو بما تشكل من هيكل صلب من الدروع، أو الصياح عاليًا، أو استعراض تصادم الدروع لمقاتلى الزولو أو جنود المشاة البريطانيين بما يرتدونه من معاطف حمراء وقبعات مصنوعة من جلد الدببة، كان الغرض منها إلقاء الرعب والذعر فى قلب العدو وإجبارهم على الفرار.

وفقًا لما أورده مانسيل فى كتابه "Dressed to Rule"، صمم الزى العسكرى الذى انتشر فى أرجاء أوروبا بين ١٦٥٠ و١٧٢٠، من بين أشياء أخرى، لغرس:

النظام والشجاعة وروح القتال... ولأسر قلوب المشاهدين..... وإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء؛ وكما تظهر ملصقات التجنيد، لجذب الشباب للانضمام إلى الجيش.

لم يدفع الجنود الجدد إلى تغيير زيهم الضخم ذى الألوان الزاهية بزيهم رمادى اللون لشىء مثل تطور الأسلحة الحديثة. فى نهاية القرن الثامن عشر كان بعض وحدات المقدمة، مثل: الكشافة والمناوشين والقناصة كوحدات الرينجرز الأمريكية ووحدات جاجيرباتيلون الألمانية وفيالق البنادق البريطانية؛ قد بدأ فى ارتداء أزياء تميل فى لونها إلى اللون الأخضر لتضخيم غطائه. ليس هذا وحسب، بل وإن البنادق، "نتاج العلم المجيد"، قد أيقظت المناطق المعزولة من سباتها العميق، كما يقول ونستون تشرشل فى كتابه "In My Early Life":

لم تقدر فائدة البنادق وقيمتها، بل وقيمة خزانتها، فى أرض على وجه الأرض كما قدرت فى هضاب الهنود. ذلك لأن هذا السلاح الذى يمكنه القتل وبدقة على بعد ألف وخمسمئة ياردة قد فتح آفاقًا من النشوة والسعادة أمام كل أسرة تمتلكه أو قبيلة يمكنها الاستحواذ عليه. فمع هذا السلاح، يمكن لأى شخص أن يمكث فى داره ويطلق النار على جاره الذى يبعد عنه مسافة ميل. بل يمكن لأى شخص متربص على صخرة مرتفعة أن يصيب أحد الفرسان على مسافة بعيدة أسفل الصخرة.

عندما باتت خوذات الجنود البريطانيين وأحزمتهم بيضاء اللون هدفًا للرماة، لجأ هؤلاء الجنود إلى تلطيخها بالشاى. ويذكر أن أول ظهور للكاكى كان فى الجيش الهندى ولقد اشتقت هذه الكلمة من "Khak"، كلمة فارسية أو أردية تعنى "ترابية اللون". ولنا أن نعلم أن فيالق هارى لمسند الإرشادية الشهيرة، واحدة من القوات الهندية غير النظامية التى شكلها البريطانيون فى بونجاب عام ١٨٤٦ والتى استخدمت لجمع المعلومات والاستطلاع، هى أول وحدة عسكرية ترتدى الزى الكاكى، على الرغم من أن العديد من الجنود البريطانيين الذين كانوا يقاتلون فى الهند عام ١٨٥٧ تحت أشعة الشمس الحارقة؛ شرعوا فى صباغة زيهم الصيفى القطنى أبيض اللون بالشاى، والطمى ومسحوق الكارى.

تعد الثورة الهندية مرحلة رئيسية فى تحول الزى الحربى فى أوروبا من عرض رمزى إلى سبل للتخفى. فبحلول عام ١٨٨٥ كانت أقمشة الكاكى القطنية قد انتشرت فى جميع أرجاء الجيش الهندى وبين جنود الجيش البريطانى داخل الهند، وفى عام ١٨٩٦ تمت الموافقة على ارتداء الجنود البريطانيين خارج أوروبا أقمشة الكاكى ذات اللون البنى الرملى (سواء من القطن أو الصوف). ليس هذا وحسب، بل وإن حرب جنوب إفريقيا التى اندلعت فى عام ١٨٩٩-١٩٠٢ ضد البوير، الذين ارتدوا ملابس ريفية بسيطة طليت بلون الأرض التى يقاتلون فوقها، جعلت البريطانيين يؤمنون بأنه من الأفضل لهم الاحتفاظ بزيهم الأحمر الزاهى لمواكب الاستعراض ليس إلا، فلقد كان من المفترض أن يرتدى المشاركون فى المناورات الميدانية التى نفذت على

أراض طينية زيًا أكثر قتامة أو أكثر اتساخًا، إلا أنهم لم يبلغوا الدرجة المثالية من اللون... وصف كيبلينج لون زى الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى بأنه "عشب غازى". عقب الحروب الاستعمارية فى كل من كوبا والفلبين، جعل الجيش الأمريكى من الكاكى زيًا له فى ١٩٠٢، كمـا هى الحال مع اليابانيين الذين كانوا يحاربون الروس فى منشوريا عام ١٩٠٥. وفى عام ١٩١٠، تحـول زى جيش الإمبراطورية الألمانية إلى الرمادى القاتم. ولقد صنع زيهم من خليط من الأنسجة الرمادية والزرقاء والخضراء.

لم تكن الألوان الخاصة بملابس الجنود هى كل ما يشغل تفكير سولومون، إذ إنه مع بدايات الحرب كان يجرى تجاربه الخاصة بألواح البامبو والموسلين التى يمكن استخدامها لتغطية الأخاديد، حسب ما ذكر سولومون فى مفكرته غير المؤرخة:

"أرسلت بعضًا من هذه الألواح، مع الرسومات، إلى الإدارة المسئولة عن الحرب آنذاك، أعجبتهم الألواح، وطلبوا منى صناعة ألواح تغطى خمسين ياردة فى حوض بناء السفن فى وولويش، حيث تتوافر المواد اللازمة فضلاً عن وجود أيدٍ مساعدة.....".

وهكذا تم حفر خمسين ياردة من الأخاديد، وبحضور مجموعة كبيرة من الضباط، بما فى ذلك الجنرالات، ثبت سولومون الألواح التى صنعها على جزء من هذه الأخاديد. طلب من أحد الطيارين أن يحلق فـوق منطقة الأخاديد، وأفاد هذا الطيار بأنه يمكنه رؤية الأخاديد غير المغطاة، إلا أنه لا يرى تلك التى أخفاها سولومون. وفقًا لرواية سولومون، تحمس الضباط الموجودون تمامًا لهذه الفكرة، كما أرسلت الرسومات الخاصة بالأخاديد المغطاة إلى فرنسا. فى ذلك الوقت، رفض القائد المسئول، السير جون فرينش، اعتناق أفكار سولومون؛ إلا أن وقت الاستعانة به واعتناق أفكاره سيأتى يومًا ما.

(٣)

وجهة نظر هندسية متخصصة

استدعت عمليات التمويه خلال الحرب العالمية الأولى الاستعانة بالرسامين والمصممين والفنانين، وكذلك تطلبت جهود الدعاية الاستعانة بالمؤلفين والنقاد والشعراء والكتاب المسرحيين لتقديم يد العون والمساعدة. وكما هو الوضع مع كلمة "تمويه" لم تذكر كلمة "دعاية" فى الطبعة الحادية عشرة من موسوعة بريتانيكا، ولكن مع نهاية الحرب العالمية الأولى ومع صدور الطبعة الثانية عشرة، عرف الجميع هذه الكلمة، وبالطبع لم يكن هذا المفهوم جديداً بالكلية، وكما ذكر صامويل جونسون فى القرن الثامن عشر: "من بين ما يمكن اعتباره بحق من ويلات الحرب تدنى نسبة إيثار الحقيقة. فكانت تطلق الأكاذيب التى كانت تقتضيها المصلحة وتدفعها السذاجة... ولست أدرى أيهما أكثر رهبة؛ الشوارع المملوءة بالجنود الذين اعتادوا النهب، أم الغرف المملوءة بالمؤلفين التافهين الذين اعتادوا الكذب".

وقد أكد آرثر بونسونبى، صاحب كتاب "التزييف فى وقت الحرب "Falsehood in War-Time"، أن الكذب كان سلاحًا قويًا وذا جدوى كبيرة فى الحرب، فتلجأ إليه كل دولة عمداً من أجل خداع شعبها وجذب المحايدين وتضليل العدو. وخطّ آرثر هذا الكتاب لظنه أن كيان الكذب المتسلط وقت الحرب لم يكن معترفًا به على النحو الكافى، وكان يقول: إن خداع كل الناس ليس بالأمر الهين، وعلم بونسونبى أن الكُتّاب المشهورين كانوا أقدر على تزيين الأكاذيب بالعبارات الأدبية البراقة من رجال السياسة أنفسهم.

وقد دعا تشارلز مسترمان، عضو مجلس وزراء آسكويث، فى الثانى من سبتمبر عام ١٩١٤، إلى اجتماع كبار الكُتّاب البريطانيين من أجل التعاون على مواجهة نشرات وبيانات الدعاية الألمانية. وتجمّع الجميع فى غرفة واحدة، وكان بينهم عدد من الأسماء اللامعة مثل جى إم بارى وأرنولد بينيت وجى كيه شيسترتون وآرثر كونان دويلى وجون جالسورثى وتوماس هاردى وجلبرت مورى وجورج تريفليان وإتش جى ويلز وإسرائيل زانجويل. كما وجهت الدعوة لكل من آرثر كولر - كوتش وروديارد كيبلنج، إلا أنهما لم يتمكنا من الحضور.

وعقب الاجتماع الثانى المنعقد فى ٧ سبتمبر ١٩١٤ مع كتاب ومحررين من الصحافة البريطانية، على الرغم من أن الدعوة لم توجه إلى دعاة السلام ولا إلى دعاة الاشتراكية، أسس تشارلز مسترمان مكتبًا للدعاية الحربية فى ويلنجتون هاوس، بيكنجهام جيت، للترويج للمخطط البريطانى والتصدى للذرائع "البروسية التى لا يمكن وصفها" من أجل مخاطبة الصفوة فى الدول المحايدة والحليفة، بخلاف الموجودين فى بريطانيا وألمانيا والنمسا. وبحلول يونيو ١٩١٥، نجح هذا المكتب المتميز فى توزيع ٢,٥ مليون نسخة من الرسائل والكتيبات والبيانات الرسمية مترجمة إلى سبع عشرة لغة مختلفة. وبعد مضى عام واحد كان يتم توزيع مليون صحيفة مزودة بالرسم التوضيحى كل أسبوعين، وساعد المكتب فى نشر ٣٠٠ كتاب وكتيب.

عمل أنتونى هوب هوكنز صاحب كتاب "سجين زندا" - (The Prisoner of Zenda)، مستشارًا أدبيًا لمكتب الدعاية الحربية، وكان أرنولد توينبى ولويس نامير من الخبراء التاريخيين، وكان ويليام أركر مترجم إبسن يترأس قسم الاسكندينافيين. وقد كتب جى كيه شيسترتون رسالة بعنوان "همجية برلين"، وتناول آرثر كونان دويلى تاريخ الحملات فى فرنسا وفلاندرز. ويُذكر أن جون جالس ورثى كتب عددًا من المقالات، وكذلك المؤرخ جى إم تريفليان، وألقى محاضرات عن الصرب والنمساويين قبل رحيلهم إلى إيطاليا، وكتب جون ماسفيلد كتابًا حول جاليبولى وكتابًا حول السوم (نهر فى فرنسا)، كما نشرت الروائية المشهورة السيدة همفرى وارد عام ١٩١٦ أنشودة الشكر للجنود

المحاربين، تحت عنـوان "جهود إنجـلترا: رسائل إلى صديق من أمريكا حول رحلة فى الولايات المتحدة" (England's efforts: Letters to an American Friend on Tour in the United states).

وقد نُظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها أكثر الدول حساسية من حيث التواصل معها، ولذا أوكل مكتب الدعاية الحربية إلى الروائى الرومانسى الكندى المولد المعروف باسم جيلبرت باركر قيادة حملة العلاقات العامة التى كانت تستهدف كل دول المحيط الأطلنطى. وتمثلت الرسالة الأساسية من تلك الدعاية الحربية فى دعم الاعتقاد بأن الإمبراطورية البريطانية العظمى والحلفاء صامدون أمام القيصر الألمانى المحارب وشعبه المغولى القاسى. وكان احتلال دولة بلجيكا الصغيرة هو أول عمل وحشى يمكن أن يذكر، حيث قتل الجيش الألمانى ما لا يقل عن ٥٥٠٠ مدنى بلجيكى، واتهم الألمان باتهامات أقرب إلى الخيال. وكتب بونسونبى يقول: "وإنما تدور رحى الحرب فى مثل هذا الضباب الملىء بالأكاذيب... ويأتى الضباب من الخوف ويترعرع ويكبر على الذعر".

وفى الحقيقة؛ حمل عام ١٩١٥ حصاداً غنيًا من قصص الحرب الوحشية التى دارت فى بلجيكا، والتى كان من أبرزها قصة إعدام الممرضة البريطانية إديث لويس كافيل فى أكتوبر ١٩١٥، وهى المرأة التى شغلت منصب رئيسة الممرضات بمؤسسة بيركندايل فى بروكسل، وظلت فى وظيفتها عندما تحولت تلك المؤسسة إلى مستشفى للصليب الأحمر بعد اندلاع الحرب. وكانت السيدة كافيل، وهى الابنة العانس لنورفولك فيكار، تبلغ من العمر ٤٩ عامًا عندما حوكمت رسميًا ورميت بالرصاص من قبل القناصة الألمانيين فى بروكسل بتهمة مساعدة الجنود البلجيكيين والبريطانيين والفرنسيين على الفرار من المناطق التى استولت عليها القوات الألمانية إلى هولندا المحايدة. ولم ينكر البريطانيون أبداً أنها كانت تقوم بذلك، إلا أن الألمان قد جلبوا على أنفسهم كارثة جراء محاكمة وإعدام إديث كافيل بتهمة جديدة وهى إضعاف جهود الحرب للجيش الألمانى دون الاستجابة للنداءات الرحيمة، ودون النظر لمدى انتشار الخبر وما سيحدثه من صدى.

تسبب الإعدام بتلك الطريقة فى إحداث حالة من الغضب داخل المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. وأدى مقتل الممرضة فى وقت الحرب إلى حدوث توافق شعبى، واستغل رجال الدعاية البريطانيين موت إديث كافيل، ووصفه بأنه مقتل "ملاك الرحمة"، وصارت إديث كافيل رمزًا لتضحية شعب بلجيكا ومبررًا للحرب. ونشرت فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٥، صورة لشخصية بروسية بارزة، متجهمة تقترب من شخص ملقى على الأرض، وتحمل تعليق: "لم يكن بمقدور تلك المرأة تعيسة الحظ أن تقف أمام قاذفى النيران، وسرعان ما أغشى عليها أمام الجنود، ودنا إليها الضابط المسئول وقتلها ببندقية المهام الثقيلة، وحقق هدفه الغاشم، على مرأى ومسمع من الجميع".

ثم أقامت الملكة ألكسندرا تمثالاً يخلد ذكرى كافيل فى مارس ١٩٢٠، فى سانت مارتين، بوسط لندن، إلى الشمال من ميدان ترافالغار، قلب الإمبراطورية البريطانية، بين متحف الفن الوطنى وكنيسة سانت مارتن.

وقد أشار إم آر دى فوت – وهو أحد ضباط الاستخبارات الحربية، فى كتابه "إم آى٩ الهروب والمراوغة ١٩٣٩–١٩٤٥" (MI9: Escape and Evasion 1939-1945) – (الذى كتبه بالاشتراك مع جى إم لانجلى) – إلى أن نورمان كروكت رئيس المنظمة السرية التى أنشئت فى الحرب العالمية الثانية لمساعدة الجنود فى الخروج من مناطق العدو؛ عزا المنافسة التى كانت بين أجهزة الخدمات السرية البريطانية المختلفة إلى إيدث كافيل. كانت إيدث كافيل تعمل فى خدمة الاستخبارات السرية (إس آى إس أو إم آى٦)، لكنها خاطرت بنفسها فى محاولة لمساعدة أسرى الحرب فى الهروب، ولذلك لم يرغب كبار رجال خدمة الاستخبارات السرية فى اتخاذ أى إجراء ضد إم آى٩، لتصميم الاستخبارات السرية على عدم اتخاذ أى إجراء ضد الهاربين.

وقد تم الكشف أيضًا عن دور إيدث كافيل السرى فى كتاب بول روتليدج "الموظف العام، والعميل السرى: الحياة الغامضة والموت العنيف لـ "أيرى نيف" (Public Servant Secret Agent: the Enigmatic Life and Violent Death of Airey Neave)، وقد ذكر فوت من خلال تى إل إس فى مايو عام ٢٠٠٢ قائلاً: "إنها قصة أرويها للأجيال؛

كانت الممرضة كافيل، التى اغتالها الألمان فى بروكسل عام ١٩١٥، بدعوى تقديمها العون والمساعدة إلى الجنود البريطانيين للهروب إلى هولندا، كانت تعمل جاسوسًا أهينت فى الخدمة السرية لأنها تركت عملها من أجل العمل الخيرى".

ولم يتم الاعتراف بعمل كافيل لسبب معروف؛ وهو عدم الكشف عن الخدمات السرية لتحتفظ بفاعليتها، إلا أن كافيل عانت كذلك بسبب ما شاع عنها فى وسائل الإعلام باعتبارها امرأة. فلم يكن للمرأة فى ذلك الوقت حق التصويت، ولم تكن تخدم فى القوات المسلحة، وكانت البطولة النسائية تنحصر غالبًا فى التضحية بالنفس، ومن ثمّ فإن مطالبة كافيل بالعمل كجاسوسة – مع كل العواقب الوخيمة التى قد تترتب على ذلك – يعنى الحط من مكانتها أمام إنجازات الإناث وبعيدًا عن الشخصيات البارزة مثل فلورنس نايتانجل ونحو نساء مثل ماتا هارى، ومحاولة تسوية الوضع قد يؤدى إلى انخفاض قيمة الدعاية الخاصة بها. وعندما تناول رئيس الوزراء البريطانى جوردن براون؛ إيدث كافيل فى كتابه "الشجاعة: ثمانى صور" – (Courage: Eight Portraits)، يونيو ٢٠٠٧، لم يذكر أيًا من أنشطتها فى الخدمات السرية.

لعل أهم القضايا التى استغلتها الدعاية فى الحرب العالمية الأولى؛ كان نسف سفينة الركاب كانارد آر إم إس لوسيتانيا التى دمرها قارب "U-20" تجاه أيرلندا فى ٧ مايو ١٩١٥، حيث فقد نحو مئة وثمانية وعشرين أمريكيًا، وأثارت تلك الحادثة غضب الأمريكيين، واحتجت الحكومة الأمريكية على اعتبار أن هذا الهجوم على سفينة الركاب يُعد خرقًا فاضحًا لقواعد الحرب، وعلى حد تعبير مساعد وزير الشئون البحرية إف دى روزفلت بأنه "عمل قرصنة شديد الوحشية، بل وعمل إرهابى".

احتجت قوات الدفاع الألمانية على أن لوسيتانيا كانت سفينة تجارية مسلحة بتمويل من الحكومية البريطانية وتحمل مدافع خفية وتستعد لإطلاق النار على الغواصة، وكانت تقل قوات كندية إلى "الجبهة الغربية"، إلى جانب آلاف من صناديق الذخيرة المحظورة، وكما قيل بأنها كانت تحمل طوربيدات تسببت فى نسف السفينة وغرقها خلال ١٨ دقيقة. وقالوا: إن السفينة كانت تبحر فى منطقة قتال وفى أثناء الحرب، وإن السفير

الألمانى فى واشنطن العاصمة الكونت بيرنستورف أطلق تصريحات فى الصحف الأمريكية تفيد بأن السفن البريطانية الخاصة بالحلفاء ربما تتعرض للهجوم، ومن ثمّ كانت هناك تحذيرات كافية.

ولا غرو بأن كل هذه الادعاءات ليست صحيحة، فلم تكن سفينة لوسيتانيا مسلحة ولم تكن عليها مدافع خفية، وإنما كانت تقل جنديًا كنديًا واحدًا فقط على متنها هاربًا مع امرأة، أما باقى الادعاءات فكانت عارية تمامًا من الصحة. كانت لوسيتانيا تنقل بالفعل أربعة ملايين مجموعة من ذخيرة المدافع عيار ٣٠٢ و٥٠٠٠ عيار ٣,٣ من قذائف الفولاذ الخاصة بمدافع بيلهام، إلا أن علماء الآثار البحرية لم يجدوا دليلاً على انفجار الذخائر الموجودة على متن السفينة، ولم تكن الحكومة البريطانية بالتأكيد متشوقة إلى الإعلان عن وجود ذخائر حربية على متن سفينة الركاب، الأمر الذى يضعف من قوة موقفها. وعلى أى حال؛ لم تنل تبريرات القوات الألمانية أى تعاطف من جانب الرأى العام العالمى لشدة بشاعة الموقف، حيث قُتل ألف ومئتان من الأبرياء من بينهم العديد من النساء، إضافة إلى مئة طفل ثلثهم من الرضع. وكانت تلك هى إحدى القصص المرعبة التى تصدرت عناوين الصفحات الأولى من الصحف: "إغراق السفاحين الألمان السفينة لوسيتانيا"، كما ذكرت ديلى سكيتش فى عددها الصادر فى ٨ مايو، "القصة الكاملة لحادثة القتل الإرهابى"، و"الناجون من لوسيتانيا"، و"أحداث مرعبة".

عندما أبحرت لوسيتانيا فى رحلتها الأخيرة، كان من ضمن قائمة الركاب مصمم صغير أصم غاضب يُدعى أوليفر بيرسى برنارد، وكان السبب المباشر لغضبه على متن سفينة خطوط كونارد الملاحية هو التكبر الطبقى، لكن نيران غضبه كانت قد اشتعلت منذ زمن بعيد بسبب صور الإحباط التى واجهها فى الحياة.

وُلد أوليفر بين أناس يغلب عليهم طابع الغموض والعنف فى لامبيث، حيث كان والده ملاكمًا، يلعب مبارياته عارى اليدين، وقد تم إيفاد أوليفر "بانى" برنارد وهو فى الثالثة عشر من عمره، بعد وفاة والده، لتعلم الفنون المسرحية على خشبة المسرح فى مانشستر، وهناك تعلم بنفسه الرسم، وكان يطيل التأمل فى الأشجار ويرسم بعناية

جذوعها وأغصانها وأوراقها. وقضى أوليفر برنارد فترة ما قبل العشرين من العمر وحيداً منعزلاً محبًا للمسرح ومستاءً من غرور الممثلين المشهورين ونفاق النجوم من الممثلات... فلا شك أن من يخادع كثيراً ما يُخدع، ومن يجتهد فى إلحاق الأسى بالآخرين هو أول من يبكى، ومن يكذب يهلك بسبب كذبه.

وبحلول عام ١٩١٥؛ كان أوليفر أحد مهندسى المسارح الناجحين وأحد كبار الفنانين التصويريين. أحب أوليفر برنارد التأثيرات الموسيقية والمسرح وما يمكن أن يحققه بهما، لكنه كره الخداع الكبير الذى كان يراه فى دار الأوبرا الكبيرة فى بريطانيا وبوسطن ونيويورك، حيث كان يراه عالمًا من "الوحوش والبغايا والدجالين والمحتالين".

لم يكن أوليفر محبوبًا، وكان غير سعيد فى حبه، مستاءً من الأغنياء الذين يقودون السفينة، ويشعر بالخجل لكونه لم يشارك فى الحرب، وتذكر كيف أن الأساليب التمييزية فى انتقاء المجندين قد منعته من أن يصبح رجل مدفعية عام ١٩١٤؛ وفى الواقع يبدو أن "بانى" البائس الثائر هو من زاد سرعة سفينة لوسيتانيا حين انطلقت صافرتها لتخترق غياهب ضباب الأطلنطى.

فى اليوم السادس من انطلاق السفينة، كانت الشمس تشرق على جنوب غرب أيرلندا، وكان جميع الحاضرين من الركاب فى الفندق الضخم تغمرهم حالة من السعادة والبهجة. وبعد تناول الغداء وفى تمام الساعة ٢,١٥ مساءً؛ اعتلى برنارد سطح السفينة، حيث كان البحر هادئًا، ويبدو على مرمى البصر وكأنه لوحة سميكة ملونة بألوان البحر البراقة، وكان الأفق هادئًا لم يعكره دخان أو يظهر فيه شراع مركب أخرى. وبينما كان برنارد مستغرقًا فى تأملاته إذ بصوت يشق المياه خلسة... كما لو كان صوت قطار سريع، كان الطوربيد يبلغ طوله سبعة أمتار ويزن ما يزيد على الطن، ويحمل فى مقدمته ١٦٠ كجم من المواد شديدة الانفجار، كما كان يشق المياه بسرعة تتجاوز ٨٠ كم فى الساعة متجهًا صوب السفينة.

شعر أوليفر برنارد بصدمة خفيفـة على السطح كما لو كان أحد قوارب السحب قد اصطدم بالمركب العملاق، ثم دوى انفجار رهيب. وانطلق عمود من المياه إلى الأعلى فى الهواء وتبعه انفجار وانتشر الحطام فى كل مكان. وانطلقت قطع الفحم المشتعلة إلى أعلى السفينة. لم يعد برنارد وحده، حيث صعد الكثيرون من ركاب السفينة القاطنين بالفندق العائم إلى ظهر السفينة من كل مكان وهم يندفعون ويطئون بأقدامهم كل مكان، وضج الركاب وعلا صوت النحيب والعويل والصراخ. وانطلق برنارد إلى سطح السفينة الثانى "ب" لانتشال حزام النجاة من مقصورته. وانطفأت كل الأضواء، وشعر بعدم التوازن وسقط أسفل السلالم، وهو يمضى نحو مقصورته سالكًا تلك الممرات المظلمة، وعند عودته إلى سطح السفينة المزدحم، كانت هناك امرأة تصرخ من الخوف وانتزعت حزام النجاة منه، ولم يدر أحد ماذا يفعل ولم تكن أجهزة تكبير الصوت تعمل لإخبار الناس بما يتعين عليهم القيام به، ولم تكن لدى الركاب سترات نجاة، ومن كان لديه ارتداها بشكل خاطئ من هول الموقف. ومع ميل السفينة أكثر جهة اليمين وغرق مقدمتها، بدأ برنارد فى خلع ملابسه وطى معطفه وياقته ورابطة العنق بشكل منظم وحذر؛ حيث وضع دبوس رابطة عنقه فى جيب سرواله كما لو كان يستعد للاستحمام. لكن برنارد لم يكن يعرف السباحة، وانزلق من على سطح السفينة المرتفع كـ "نقطة ماء" متجهًا صوب قارب النجاة الذى انقطع عن المرساة، ونجا من الغرق هو ومن معه، وكادت مدخنة السفينة التى غاصت فى المياه تغرقهم، وشاهد الجميع البحر الهائج وهو يبتلع السفينة وتغوص إلى الأعماق، واختفى أعلى جزء من لوسيتانيا، وفقاقيع كبيرة من المياه تنبعث من الأسفل إلى الأعلى، كما لو أن هناك بركانًا أسفل البحر الهادئ.

اشتعل الغضب الشعبى لفترة طويلة على خلفية قصة لوسيتانيا، واستمر الخوف الشديد من الحدث لأسابيع، وأقيمت المقابر الجماعية وأماكن التعرف على الجثث فى كونستون؛ وكانت الجثث المنتفخة التى شوهتها طيور النورس ترسو على شواطئ أيرلندا، إلى جانب القصص المرعبة والمحزنة الأخرى. استغلت صحافة الدعاية هذا الحدث واستفاضت فيه بالرسومات والكلمات، ونهبت الحشود الثائرة فى ليفربول

ولندن المتاجر التى تحمل أسماءً ألمانية، وفى هذا الثوران العاطفى أعلن دى إتش لورنس قائلاً: "أكاد أجن من الغضب الذى أعانيه. وأود قتل مليونًا أو مليونى شخص من الألمان."، وأمرت الحكومة الليبرالية فى بريطانيا باعتقال نحو ٣٠٠٠٠ من الرجال الذين يحالفون الأعداء.

لم تدمر حادثة لوسيتانيا آمال الدعاية الألمانية فى أمريكا فحسب، لكنها خدمت هدف مكتب الدعاية الحربية الرامى إلى وضع الألمان فى موقف حرج، ولم يكن هناك نقص أو افتقار فى الموضوعات المثيرة المهمة فى ذلك الشهر. وفى ١٥ مايو ١٩١٥ أضافت جريدة التايمز مزيداً من التفاصيل إلى القصة غير الحقيقية بالمرة التى نُشرت فى ١٠ مايو حول الجندى الكندى الذى صلبه الألمان على حائط إسطبل فى بلجيكا، كانت تلك القصة كقطعة من اللحم العفن تضاف إلى ما ارتكبه الألمان فى بلجيكا - حسب ما جاء فى تقرير برايس الرسمى الذى نشر فى ١٣ مايو ١٩١٥، وقامت ويلنجتون هاوس بتوزيعه على كل الصحف المعروفة فى أمريكا، وبأكثر من سبعة وعشرين لغة على العديد من الدول حول العالم. كان كاتب التقرير جيمس برايس قاضيًا مشهوراً وعضواً فى مجلس اللوردات وسفيراً سابقًا فى واشنطن العاصمة، وهو الذى ساعد من قبل روجر كيسميت فى كشف تورط الشركات التى تملكها بريطانيا فى الاستغلال البشع لعمال الأشجار فى الأمازون عام ١٩٠٧، لكن تقرير المفوضية الملكية حول بلجيكا جاء ساذجًا للغاية فى سرد قصص الشهود عن حالات النهب والاغتصاب الجماعى وعمليات البتر وطعن الأطفال، دون التحقيق أو التأكد.

كتب تشارلز مسترمان إلى لورد برايس قائلاً: "لقد هز تقريرك أمريكا كلها... كما تعرف فإن أكثر المتشككين فى الأمر قد أعلنوا تراجعهم بسبب توقيعك على هذا التقرير"، وردَّ مكتب الدعاية الحربية فى أمريكا على مسترمان قائلاً: "حتى فى الصحف المعادية للحلفاء لا يوجد أدنى محاولة لتكذيب صحة الحقائق المزعومة، إذ إن هيبة واحترام اللورد برايس فى أمريكا تزيل كل الشكوك فى القضية".

وتمنى بعض المشككين تشويه تلك القصص التى أثارت الرعب، ومن بينهم روجر كيسميت الثائر، لكنه لم يكن سوى مجرد شخص متقلب وحيد من الأيرلنديين القوميين، وسريعًا ما حكم عليه بالشنق فى سجن بينتونفيللى فى ٣ أغسطس ١٩١٦، واتهامه بالخيانة العظمى؛ ثم زار فيما بعد المحامى الأمريكى كلارنس دارو فرنسا عام ١٩١٥، ولم يعثر على شاهد واحد من شهود برايس، وعرض مبلغ ١٠٠٠ دولار نظير مقابلة أى طفل بلجيكى مبتور الأطراف ممن أخبر عنهم برايس، وأبدى البابا ورئيس وزراء إيطاليا وديفيد لويد جورج تساؤلات مشككة، ولم يعثر أى شخص على هؤلاء الأطفال مبتورى الأطراف المزعومين. وكان هدف القصص التى تحكى عن تلك الأعمال الوحشية هو توحيد الناس ضد العدو فى ذلك الوقت.

لم يُجمع كل شعب بريطانيا على هذا، وكانت رسوم الكاريكاتير الرائعة والمعبرة للرسام ويليام هيث روبنسون المولود عام ١٨٧٢ لعائلة فنية، تقدح فى طرفى المعركة كليهما، وقال ذات مرة: إن الرعب الإعلامى الذى أُثير حول الجيش الألمانى أتاح له – كفنان – فرصة من أفضل الفرص. وسخر ويليام كثيرًا فى بعض الكتب مثل "صور الحرب المرعبة" – (frightful War Pictures) فى عام ١٩١٥، و"هونلايكلى" – (Hunlikely) فى عام ١٩١٦ و"القديس الألمانى: كتاب المآثر الألمانية" (The Saintly Hun: a Book of German Virtues) فى عام ١٩١٧؛ من تصوير الأعداء على أنهم شياطين باتهام الألمان بأنهم السبب فى كل هذه الإخفاقات، ولكنه كان يظهرهم كذلك بصورة غير لائقة. ومن بين رسوماته هناك صورة طيارين ألمان يحمون امرأة إنجليزية شابة وهى فى منزلها، وهناك قائد بروسى بدين جدًا يلبس خوذة وهو يقاوم رائحة الفطائر التى يحملها طفل جائع، وهناك رجل ألمانى عطوف "يرد الشر خيرًا" يعرض سيجارًا لأحد الجنود البريطانيين، بينما يطعنه الأخير بحربته. ويُعتبر هيث روبنسون أحد الإعلاميين البريطانيين الواعين الذين كانوا يقاومون الدعاية المبتذلة.

"كانوا ملوكًا متوجين فى الإعلام، فهل فكرت يومًا عزيزى فى قنوات الإعلام التى تبث السم وتضلل عقول البشر؟ إنه أخطر ما يكون، وأظن أن الجميع يستخدمونها

فى الحرب، ويختلقون أشر الأكاذيب." كما جاء فى رواية جون بوشان، "الرهائن الثلاث" – (The Three hostages) – عام ١٩٢٤.

لم يكن جون بوشان معروفًا بصورة كفاية تمكنه من حضور اجتماع تشارلز مسترمان الأول للكُتاب فى وايتهول ٢ سبتمبر ١٩١٤، ولكنه أصبح – بعد فترة – رائد الإعلام والملك المتوج فى عالم الصحافة والرواية والتاريخ. وكتب بوشان العديد من الكتب لمكتب الدعاية الحربية بقيادة مسترمان، وفى فبراير ١٩١٧ أصبح الكاتب الرئيسى عندما اختاره رئيس الوزراء ليترأس قسم المعلومات ويخول بتنسيق كل شئون الدعاية البريطانية.

يذكر أن بوشان هو ابن قس الكنيسة الاسكتلندية، وكان يدرك تمامًا أن الدعاية الفعالة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان العميق، كما أن كلمة دعاية (propaganda) كلمة دينية فى الأصل؛ وهى مشتقة من عبارة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية "congregation de propaganda fide"؛ ومعناها (طائفة الدعوة إلى الإيمان)، وهى هيئة تم تأسيسها لمساعدة الأنشطة التبشيرية التى تقوم بها الكنيسة، غير أن بوشان ربط الدعاية بشكل أقل بالروحانية الأرثوذكسية فى روايته "الرهائن الثلاث" التى نشرت عام ١٩٢٤ فى الفترة التى ظهر فيها لينين وستالين وهتلر.

وفى مارس ١٩١٨؛ تولى السير بيفربروك وزارة الإعلام وطرح اسم جون بوشان باعتباره مديرًا للمخابرات خلال فترة الأشهر الثمانية الأخيرة من الحرب. حيث يقول أنتونى ماسترز فى "عملاء الأدب: الروائى فى صورة جاسوس" (Literary Agents: the Novelist as Spy): تمثل عمل بوشان فى "كشف الغموض"، غير أنه تم جمع بعض الأفكار الجاهزة من أنتونى كلايتون: "الإعداد المسبق: تاريخ فيالق الاستخبارات" (Forearmed: A History of the Intelligence corps) فى عام (١٩٩٣).

تم تعيين جون بوشان، الذى صار بعد ذلك لورد تويدزموير، ملازمًا بفيالق الاستخبارات عام ١٩١٥، بهدف تقديم المساعدة بخصوص معركة سومى، ثم فيما بعد لجمع البيانات والمعلومات الرسمية الخاصة بها، وخطط الخداع ومعلومات التضليل

المستخدمة من جانب القيادة العامة لشـرطة الاستخبارات فى مناسبات مختلفة، وإعطاء التقارير الكاذبة للصحافة أو وضعها بشكل ذكى فى الخطابات السياسية.

كان بوشان يمتلك حلولاً أخرى، و كان يعتبر معلمًا من الطراز الأول، له دور فى تثبيت نوع أدبى جديد فى رواية الجاسوس الذى يعانى من اضطرابات - نشرت على نطاق واسع فى بداية القرن العشرين، وتعتبر الرواية مؤامرة شريرة تهدد إنجلترا؛ حيث كان جون بوشان مفتونًا بالخداع "ونذير السوء الخفى وراء مشاهد الأزمات"، وكانت مغامراته غالبًا ما تتمثل فى العمل على ربط أجزاء منفصلة من المعلومات فى محاولة منه لكشف صورة المشكلة أو الخطر الذى يجب العمل على حله من خلال إجراءات حاسمة ودقيقة وبطولية، مثل تلك الكتب ذائعة الصيت التى تكون نهاياتها سعيدة، لأن البطل دائمًا ما كان ينتصر ويعيد النظام مرة أخرى، لكنها مع ذلك كانت تنقل بطريقة مثيرة للقلق والتعصب للمجموعة الخاصة بالمؤلف.

ظهر بطل بوشان الجديد للمرة الأولى فى أكتوبر ١٩١٥؛ فى عمله المثير فى رواية "الخطوات التسع والثلاثين"، (The Thirty Nine Steps)، والتى بيع منها نحو ٢٥٠٠٠ نسخة بحلول أعياد الميلاد. كان البطل ريتشارد ديك هانى الذى ظهر فى البداية على أنه أحد المهندسين القاسيين فى مجال التعدين لكنه كان نشيطًا وهو من روديسيا، وُلد فى لندن فى مايو ١٩١٤؛ حتى تورط فى مغامرة قتل وهرب ليحل لغز دائرة التجسس الألمانى "الحجر الأسود" - (Der Schwarzestin). وفى الفصل الخامس يتذكر هانى السير بيتر بابنار وهو الشاعر الاسكتلندى القديم فى روديسيا وهو يخبره بأن السر الكامن وراء أن تلعب جزءًا من الحدث؛ هو أن تفكر وتتخيل نفسك فيه بالفعل، "لن يمكنك الحفاظ على الأمر ما لم تستطع إقناع نفسك به". وفى الفصل العاشر يتذكر هانى نصيحة بابنار فى أن السر وراء التنكر الفعال هو التعايش والامتزاج الكامل مع الأشياء المحيطة بك. يتذكر هانى بعد ذلك اصطياد ذلك الظبى البنى باستخدام كلبه فى بالى هيلز فى روديسيا، تسلل ذاك الظبى من السهول... وأمام صخور كوبجز الرمادية، لم يكن سوى غراب فى مهب السحب، لم يتطلب الأمر الركض بعيداً، بل ما كان يجب فعله هو الوقوف بثبات والاختفاء فى الخلفية.

كان قائد مجموعة التجسس الألمانية "الحجر الأسود" هو الآخر رائدًا فى التنكر، حيث تقمص بنجاح شخصية أول لورد بحرى بريطانى أمام عدد من زملائه العسكريين، ولأنهم كانوا يتوقعون رؤيته، سلموا بأنه هو، لكن لو كان أى شخصية أخرى لنظروا عن قرب، لكن لما كان من الطبيعى وجوده هنا أعماهم هذا.

فى الفصل الأخير يدرك هانى أن مجموعة الجواسيس الألمانية العنيفة نجحت فى التخفى خلال الطبقة الوسطى الكبيرة الرغدة، تلك الفئة التى تعيش على أطراف المدن فى القصور. هنا يتذكر هانى نظرية التكيف مع "المحيط الخارجى" التى أخبره بها صديقه الاسكتلندى القديم: الأحمق يحاول أن يبدو مختلفًا، لكن الشخص الماهر هو الذى يبدو مثل الآخرين بينما هو مختلف عنهم.

وفى مغامرة ريتشارد هانى الثانية لجون بوشان، رواية "جرينمينتال" – (GreenMantle)، يتظاهر هانى بأنه أحد البوير المؤيدين لألمانيا والمعادين لبريطانيا ويسمى نفسه كورنيليوس براند؛ وذلك حتى يتسنى له السفر إلى ألمانيا القيصرية. هذه القصة تحاكى واقعة حقيقية لصديق جون بوشان الاسكتلندى ويدُعى إدموند أيرونسايد الذى يصبح فيما بعد رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية. وفى عام ١٩٠٢؛ وقت أن كان إيرونسايد ضابطًا شابًا ذهب متنكرًا إلى جنوب غرب إفريقيا التابع للحكم الألمانى (ناميبيا حاليًا) عام ١٩٠٢ لتقصى الأنشطة الألمانية خلال ثورة شعب الهيريرو. وساعد قسم الاستخبارات فى تنكر أيرونسايد ذى القوام الضخم فى صورة سائق عربة ثيران يرتدى قبعة قديمة وحذاءً إفريقيًا من جلد غير مدبوغ، وأطلق لحيته وأخذ يدخن التبغ البويرى فى أنبوب كريه وصار يتحدث بلغة ألمانية عامية وسريعًا ما نال القبول؛ لكنه أصيب برعب شديد يوم أن رأى كلبه الأبيض معلقًا إلى جانب عربته وعليه قلادة بيضاء بها اسمه الخاص "إل تى أيرونسايد: المدفعية الملكية"، ومع ذلك قرر أيرونسايد أن يستمر فى تنكره بل وحتى يحصل على الميدالية الألمانية (التى عرضها فيما بعد على أدولف هتلر).

رواية جرينمينتال هى الرواية العاشرة لجون بوشان والكتاب الثلاثين له، ولا تزال تُعتبر واحدة من أفضل الروايات الإمبراطورية "Great Game"، وربما تكون الثانية بعد رواية روديارد كيبلنج "كيم" (Kim) فى عام ١٩٠١، وهناك إشارة لحقيقة أن كيم ذلك الغلام الجاسوس عمل مع أحد تجار الخيول الأفغان ذى لحية حمراء ويدعى محبوب علي؛ حيث يقول رئيس الخدمة السرية فى جرينمينتال السير والتر بوليفانت:

"لديّ تقارير من عملاء لنا فى كل مكان، باعة يجوبون جنوب روسيا وتجار الخيول فى أفغانستان والتجار التركمان والحجاج فى الطريق إلى مكة ومشايخ شمال إفريقيا والبحارة على ضفاف البحر الأسود ولابسى جلود الغنم من المغول والفقراء الهندوس والتجار اليونانيين فى الخليج، إلى جانب مجموعة قناصلة لهم مكانتهم ممن يستخدمون لغة الشفرات".

اختار كل من أوف جرين وجراهام جرين فصل الافتتاح فى رواية جرينمينتال "مهمة مقترحة"؛ ليكون أول مختارة من مجموعة الروايات الأدبية الخاصة بهما عام ١٩٥٧ "كتاب على طرف سرير جاسوس" – (The Spy's Bedside Book)، اعترافًا بجهود هذا الكاتب الذى كانت مذكراته "تبقى الذكريات" – (Memory Hold-The-Door)، أن جانبًا من واجباته فى الحرب العالمية الأولى جعلته على اتصال مع العالم السرى والغريب "الخدمة السرية".

وجاء على لسان العميل الأمريكى جون إس بلينك أيرون فى رواية جرينمينتال: "ليس لديكم أيها البريطانيون أدنى فكرة عن مدى يقظة مخابراتكم"، وقال أيضًا: "إذا كان عليَّ أن أعالج أمرًا جللاً وكان لى أن أختار من يعاوننى، فإننى سألجأ إلى قسم المخابرات التابع للبحرية البريطانية". ومنذ نوفمبر ١٩١٤؛ رأس قسم المخابرات التابع للبحرية البريطانية العميد البحرى دبليو رينجهال الذى قاد الطراد الحربى إتش إم إس كوين مارى فى معركة هيلجولاند بايت والذى خلف ألفريد إيونج فى رئاسة القسم الكودى "OB40" الذى ضرب العسكرية الألمانية والرموز الدبلوماسية. وكتب السفير الأمريكى فى لندن إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ويلسون: "هول هو ممن أصقلت الحرب مواهبهم"، "لا يمكن أن تجد فى عالم الواقع أو حتى عالم الخيال من يشبه هول".

تمثل شخصية والتر بوليفانت كبير الجواسيس فى رواية جرينمينتال لجون بوشان؛ نموذجًا شديد الشبه بالأميرال السير ريجينالد هول. وعلى الرغم من صغر حجمه كان هول نموذجًا للضابط البحرى بداية من رأسه الأصلع إلى ذقنه الحليق، وعينيه المحملقتين من تحت حواجبه الكثيفة وأنفه المعقوف. هذا المظهر الذى يحاكى صورة صقر مترقب، مع ارتعاش جفونه أكسبه لقب "بلينكر" (الضوء المتقطع). ووفقًا لما قاله إف إتش هينسلى - الكاتب لتاريخ الاستخبارات البريطانية - استخدم هول براعته ونشاطه بشكل مكثف؛ حيث أسس نظامه الجاسوسى الذى كان يتبعه ليقرر لنفسه متى وكيف يبدأ التخابر مع الأقسام الأخرى، ومتى وكيف يبدأ التخابر بشكل مستقل عن تلك الأقسام فى الشئون المتعلقة بالسياسة التى تكون على خلفيات وكواليس الأحداث التى تتخطى مجال اهتمام البحرية. وبلغة البيروقراطية هذا يعنى أنه كان فيلاً متشرداً قاسيًا وشريراً، وذكر السير الأميرال ويليام جيمس: "لا يوجد شىء يستمتع به هول أكثر من التخطيط للخداع، أعنى خداع الألمان".

كان هول "بلينكر" يتمتع بالذكاء الشديد فى اختيار الأشخاص، فقد وظف العديد من المدنيين ممن كان عملهم يتمثل فى التحليل بشكل غاية فى الدهاء وكان بينهم أكاديميون ومحاسبون ومحامون والعلماء؛ حيث وضعهم مع الفنانين والمؤلفين والمصممين والهواة... كما قام بتوظيف سيدات ماهرات فى وقت كان هذا الأمر من الأمور غير المعتادة مثل السيدة "مدخنة السجائر" هامبرو التى كانت تتولى تسيير أعمال السكرتارية.

عرف جون بوشان جيداً ريجينالد هول، ويمكن التعرف على ذلك من خلال قراءة جرينمينتال التى تدور حول عمليات الاستخبارات البريطانية الخيالية وأساليب الخداع، والتى تعتمد على معرفة أسرار عمليات أخرى. وبعد عام من نهاية الخطوات التسع والثلاثين؛ عاد الجنرال ريتشارد هانى (بالرواية) لينوكس هاى لاندرز إلى إنجلترا حتى يتماثل للشفاء جراء الإصابات التى لحقت به فى معركة لووز الحقيقية التى اشترك فيها فى أواخر سبتمبر ١٩١٥. لم تكن "لووز" نزهة كما يقول هانى فى

تصريح له عن تلك الكارثة التى خلفت نحو ٨٠٠٠ قتيل. كانت لووز الهجوم الكبير على مقاطعة منجم الفحم البلجيكى؛ حيث استخدم البريطانيون للمرة الأولى غاز الكلور السام واستخدموا فيها ما يقرب من ١٤٠ طنًا منه بعد خمسة أشهر من استخدام الألمان للغاز فى إبرس. وكانت هذه المعركة السادسة للجنود الاسكتلنديين المسلحين بالبنادق والتى فقدوا فيها ثلاثة أرباع الضباط الموجودين معهم ونصف الرتب العسكرية الأخرى. وظهر القائد الجديد فى فرنسا أوائل عام ١٩١٦؛ المقدم ونستون إس تشرشل.

يظهر جون بوشان فى جرينمينتال مع ريتشارد هانى؛ وهو يتعافى من الإصابات التى لحقت به من معركة لووز فى ريف هامشير مع صديقه الضابط الذى أنقذ حياته من الموت المحقق "ساندى" أربوثنت الابن الثانى للسيد كلان رويدن وأربوثنت شديد الولع بالصحبة الغريبة. نعرف أنك الآن فى لندن ويمكن أن تجمع أخبار ساندى أربوثنت من الرجال السود الموجودين في أقاصى الأرض... والملابس المجعدة.. إذ يمشون بخطوات غريبة خفيفة يتسللون إلى النوادى كما لو كانوا لا يتذكرون الانتماء إليها أم لا. ويذكر أن ساندى أربوثنت كان شغوفًا بالخيال الإمبراطورى الرومانسى؛ ثم ركب راحلته وسافر عبر اليمن وهو ما لم يفعله شخص أبيض من قبل. تركه العرب يمر لظنهم أنه مجنون، واقتنعوا بأن قضاء الله معه أشد من قدرتهم عليه. وهو شقيق للصوص ألبانيا، ومشارك فى السياسة التركية، بل وذاع صيته فى هذا... "نحن نعتبر أنفسنا معزولين عن الآخرين غير أن الحقيقة هى أننا الجنس البشرى الوحيد على وجه هذه الأرض الذين يمكنهم تقديم أناس قادرين على التنكر بمظهر أى شخص فى أى مكان بالعالم".

استوحى بوشان شخصية ساندى أربوثنت من نموذج واقعى لشخص مدافع عن الدول الصغيرة، إنه النبيل أوبرى هربرت، الابن الثانى لإيرل كارنارفون. عاش هربرت فى إيتون وكان شبه أعمى، ودرس فى أكسفورد واتسمت حياته فيها بالتهور ونال الدرجة الأولى فى التاريخ، ثم التحق بالعمل الدبلوماسى كملحق شرفى، وكان عضوًا

بالبرلمان لمدة سبع سنوات. وفى بداية الحرب استطاع الحصول على زى ضابط قام بصنعه له أحد الخياطين العسكريين، ثم التحق بأفراد الحرس الأيرلندى أثناء مغادرتهم إلى فرنسا، ومن خلال تهريبه فى سفينة من سفن الجند الموجودة حينذاك فى ثاوث هامبتون عن طريق أحد الضباط المقربين له غادر هربرت إلى الحرب مع القوات الخاصة البريطانية باعتباره مترجماً. وفى غضون شهر واحد أُصيب هربرت واعتقل ثم أطلق سراحه وأعيد مرة أخرى إلى أرض الوطن.

وفى سالونيكا، عثر أوبرى هربت على أحد الحراس الألبانيين الأشداء يسمى كاظم الذى كان يجيد استخدام الخناجر والمسدسات، واصطحبه إلى أوكار الحشيش. تعلم أوبرى تحدث التركية بطلاقة فى القسطنطينية وسافر مثل نظيره فى رواية بوشان إلى أماكن كثيرة. لا يُعرف لهربرت أى تعليق على الشخصية التى استوحاها بوشان من قصته سوى قوله: "لقد قدم جسارتى كما ينبغى، أليس كذلك؟".

تنتهى جرينمينتال بسقوط أرضروم فى تركيا عام ١٩١٦؛ حيث ينكشف الخداع الكبير. فى الواقع كانت كل من روسيا وبريطانيا تحاربان ألمانيا وتركيا، وفى رواية بوشان يحاول مخادع بريطانى تسريب الثورة الإسلامية المستوحاة من الألمان. وساعد كل من ريتشارد هانى والاسكتلندى بيتر بينار والأمريكى جون بلينكرون؛ حلفاءهم الروس فى التعرف على ثغرة فى الدفاعات التركية والالتحاق بالفرسان القوازق فى الجولة الأخيرة عبر الجليد ويتقدمهم فى عربة الشحن رجل واحد...

كان الرجل معمماً ينطلق كما لو كان به مس من الجنون، وأمام الجليد رأيت بريق الزمرد، وبينما هو يسير بدا أن الأتراك الهاربين لا تزال جروحهم غائرة، وأنهم غاصوا بجانب الطريق، وأعينهم ترمق هذا الشخص غير المبالى.... ثم عرفت أن النبوءة كانت صحيحة وأن رسولهم لم يخذلهم. ثم ظهرت جرينمينتال أخيراً لمن ينتظرونها.

يتحول النذير "الإسلامى" الراديكالى فى جرينمينتال إلى ضابط استخبارات بريطانى متخصص فى التمويه، ساندى أربوثنت. لكنه يظهر تماماً بمظهر لورنس العرب، متتبعاً الطريقة البريطانية فى التنكر. وكان تى إى لورنس مثالاً يحتذى به فى أناقته،

متأثراً بكتب بوشان المتعاقبة رائعة النظم. وفى عام ١٩٢٣؛ كتب إلى إدوارد جارنت حول روايات جون بوشان:

قد لا تعنى كتابات جون بوشان فى عصرنا شيئًا سوى كونها مجرد لهو، لكنها بعد قرن من الزمن ستخرج للنور لتتوج الكاتب الرومانسى العظيم لهذا الجيل الذى سينظر إليه على أنه كان أعمى ولا يستحق مثل تلك الموهبة.

وتعتبر مغامرات جون بوشان من الروايات الرائدة فى عمليات التمويه والخداع فى القرن العشرين، حيث يظهر البسطاء على أنهم من النبلاء ويتنكر الأبطال. وكما يذكر جراهام جرين "وبالنسبة إلى من يعيشون حياة محفوفة بالمخاطر؛ تكون هذه الكتابات مألوفة للغاية". وتتمثل فكرة بوشان الأساسية دومًا فى التحايل والادعاء والخداع التكتيكى.

"اكتشفت أنه من الخطأ التام فى الحرب الاستهانة والاستخفاف بعقول الخصوم. فبالتأكيد يتوقع الخصم أنك تتظاهر بخداعه وأنه لن يُخدع بهذا. إننى أعمل لما هو أدق من هذا.

ماذا يعنى ذلك؟"

"يعنى أنك تتظاهر بأنك تهاجم خصمك فى موقع ما فيعتقد الخصم أن ذلك كان خدعة ولا يعير هذا الأمر اهتمامًا، ومن ثم تتقدم بجسارة وتشرع فى عملك فى ذات الموقع". جون بوشان وجون ماكناب (١٩٢٤).

كان لمغامرات ريتشارد هانى تأثيراً لا شعورى شديد على الجيل الذى خاض الحرب العالمية الثانية، فقد كان الأطفال والشباب جميعهم يقرءون كتب وروايات جون بوشان، وقد تحدث إليهم أحد معاصريهم وهو جورج أورويل قائلاً: أعتقد شخصياً أن معظم الأشخاص يتأثرون إلى حد كبير بالروايات والقصص المتسلسلة والأفلام وغيرها تأثراً يفوق بكثير ما يتوقعون... وليس من غير المتوقع أن معظم من يعتبرون أنفسهم ذوى عقلية معقدة ومتقدمة يحملون فى الواقع خلفية خيالية اكتسبوها صغاراً مثلاً من سابر وإيان هاى.

كتب ريتشارد أوزبورن "أبطال كلابلاند" – (Clubland Hereos)، وهى دراسة عن روايات جون بوشان ودورنفورد ياتس وسابر، حيث كان يعمل بنفسه فى إدارة العمليات الخاصة، وقد تم تعيينه من قبل ونستون تشرشل فى ١٩ يوليو ١٩٤٠ لتنسيق جميع إجراءات تدمير وتخريب أهداف العدو. وذكر أوزبورن أن كل ضباط إدارة العمليات الخاصة الذين رآهم فى الحرب العالمية الثانية تقريباً كانوا يتخيلون أنفسهم ريتشارد هانى أو ساندى أربوثنت.

تضرب روايات ديك هانى لجون بوشان أمثلة على نجاح البريطانيين فى الخداع فى الحربين العالميتين الأولى والثانية: "انظر هنا ديك! كيف نريد التعامل مع بوتش؟ لماذا، كى نخدعه بأبرع الأكاذيب حتى يعمل على أساسها". جون بوشان والسير ستاندفاست (١٩١٩).

(٤)

عمليات التخفى والقناصة

عندما رأى جون بوشان مدينة إبرس للمرة الأولى من مسافة بعيدة، وكان ذلك فى مايو ١٩١٥، أدرك بوشان أن تلك المدينة الصغيرة جميلة وفاتنة، فهى تكتسى بثوب من الخضرة، وتزدان بأشعة شمس الربيع مع تغاريد الطيور، وذلك أن الحرب الموحشة لم تكن قد بدأت بعد. ولكن مع سيره نحو وسط المدينة المقفر، شعر بوشان وكأن زلزالاً قويًا ضرب ذلك المكان وألقى كل من فيه إلى خارجه. تعرضت إبرس لحرب ضروس، وأصبحت منازل البلدة التى كانت جميلة يومًا ما مجرد هياكل، فقد دمرتها القذائف الحربية التى أسقطت واجهاتها وتركت أثاثها وما بها من مقتنيات رائعة تعانى العراء.

كانت مهمة القسم البريطانى من خط المواجهة الذى انتشر بكثافة عبر الجهة الشرقية ممتدًا من بوسينف حتى سانت إلوى، هى حماية الحوض المنخفض فى مدينة إبرس، وكان هذا المستنقع الذى تحيط به تلك القوات يعرف باسم "نتوء إبرس". كانت هذه المنطقة من شتاء عام ١٩١٤ حتى ربيع عام ١٩١٥؛ تغمرها المياه بصورة لا تسمح بعمليات حفر الخنادق العميقة، لذا كان على الجنود القيام بعمليات بناء المتاريس والحواجز والجدران الحجرية لتوقى نيران مدافع الأعداء قدر المستطاع.

وفى الجيش الثانى؛ كان أرشيبالد وافيل من البلاك ووتش قائد فرقة المشاة التاسعة فى منطقة هوج، وكان أفضل الضباط الذين عرفوا فى ذلك الوقت، وهو من أصر على زيارة كل جزء من خط المواجهة التابع له عندما كان فى نتوء إبرس فى

الفترة من نوفمبر عام ١٩١٤ حتى يونيو ١٩١٥. أحبط وافيل بسبب قيام القيادة بحفر الخنادق بطريقة غير منطقية من غير اعتبار لمدى مناسبة المكان من عدمه، وما أن كانت الأرض رخوة أم جافة، وسواء كانت هذه الأماكن متسترة وتوفر لهم الحماية أم لا. كان من الأجدى من الناحية التكتيكية أن يتم نقل الخط عدة ياردات جهة الشرق إلى مكان جيرى أكثر صلابة، لكن الرفض المطلق للانتقال ولو مسافة بسيطة كان يعنى عدم القدرة على تنفيذه أو أن الأمر غير ممكن رسميًا؛ ولذلك مات الكثيرون بسبب الأوامر الصادرة لهم بالثبات والاستمرار فى المقاومة مهما كان الثمن دون توفير حماية للمنطقة التى تقع فى مرمى الأعداء، والتى صارت مقبرة هؤلاء الجنود الموحلة.

أظهر ونستون تشرشل إحساسه العملى بالمشكلة عندما كتب إلى رئيس الوزراء هربت أسكويث فى ٧ يناير ١٩١٥: "ألا يمكن أن ننتقل إلى خط أكثر راحة، حيث تكون تربته أكثر جفافًا، حتى إن استلزم الأمر الانسحاب إلى الوراء عدة أميال؟ إن قوات جيشنا تتعرض للإبادة". وبمجرد أن رأى وافيل الموقع العسكرى بالكامل وتعرف على الخنادق والمتاريس والحواجز الموجودة فضل المخاطرة فى التعرض للرصاص على تحمل جليد المستنقع، وبدأت فرقته سريعًا فى صنع قوارب برمائية مطاطية، ووضع الحواجز وجوالق الرمل، والحصول على المواد الضرورية المطلوبة لخططهم، وخلال الشهور والسنوات التى تلت ذلك أصبح هذا المكان موقعًا صناعيًا.

فى ١٦ يونيو ١٩١٥؛ هاجمت فرقة وافيل ثلاثة خطوط من الخنادق قرب بحيرة بيلليوارد بالطرف الشرقى من نتوء إبرس، وقد كانت إحدى هذه الهجمات على أحد خطوط المواجهة القريبة من أجل دعم الهجمات البريطانية والفرنسية التى كانت على بعد أميال نحو الجنوب، لكن قوات العدو أدركت الأمر برمته وأطلقت النار فى اتجاههم من ثلاث جبهات. وعلى الرغم من الدقة البالغة التى أُعدت بها هذه الخطط فإن ارتباكًا ما حدث أدى إلى أن تفقد الفرقة العسكرية نحو ٣٥٠٠ من رجالها، ومع تواصل القصف الألمانى الدقيق أصيب ثلثى الفرقة التاسعة بمن فيهم ٧٣ ضابطًا من مجموع ٩٦. كان من المصابين أرشى وافيل، حيث أصيب بشظية قذيفة أو رصاصة فى عينه اليسرى،

ولما لم يستطع أن يفتح عينه اليمنى إلا بأن يمسكها بيديه، قرر أن يتوجه إلى مركز الإسعاف، وهناك تم حقنه بالمورفين وأفاق فى مستشفى روالبندى العام فى ويميروكس بالقرب من بولونى. كانت الحماقة التى ارتكبت فى الخطط العسكرية التقليدية فى الحرب العالمية الأولى دافعًا لوافيل إلى ضرورة استخدام طرق جديدة فى شن الحرب تتضمن أساليب الخداع والتمويه بهدف تجنب وقوع مثل تلك المذبحة الكبيرة. وسوف نتقابل معه مرة أخرى وهو فى الشرق الأوسط بعد تركيب عين زجاجية.

بحلول يونيو ١٩١٥؛ كانت السلطات قد نظمت دور الصحفيين فى الجبهة الأمامية، فقد أجبر الضغط الذى مارسه أصحاب الصحف الرئيسية الثلاث فى لندن اللورد كيتشنر؛ على السماح باختيار مراسلين للحرب بدلاً من المتحدث الرسمى الوحيد الرائد إيرنيست سوينتون الذى كان قد كتب مئة مقال بعنوان ("شاهد عيان" توضيح الأمر أمام النقاد)، وكان يتم عرضها على كيتشنر نفسه قبل نشرها. وبداية من مارس ١٩١٥؛ ارتدى الصحفيون المعتمدون الجدد الزى الكاكى، وهو زى ضباط الجيش البريطانى، مع شارة خضراء تعلق على الذراع اليمنى، وحصلوا على رتبة نقيب شرف، لكنهم كانوا فى داخلهم يدركون أنهم مدنيون يعملون من أجل إخبار الناس بمجرد عودتهم بما يجرى على الجبهة وما يقوم به الجنود.

كان فيليب جيبس الذى يمثل صحيفتى "ديلى كرونيكل" و"ديلى تليجراف" واحداً من بين ستة مراسلين بريطانيين، إلى جانب بيرسيفال فيليبس مراسل صحيفة مورنينج بوست، وويليام بيتش توماس مراسل صحيفة ديلى ميل، وإتش بيرى روبنسون مراسل صحيفة التايمز، وهربرت راسيل مراسل وكالة رويترز الإخبارية، وباسل كلارك مراسل وكالة أمالجميتيد. بدأ المراسلون العمل فى أحد القصور الفرنسية المعروفة بالسلالم الدائرية فى تاتنغهام، وهى ليست بعيدة عن مقر القيادة العامة فى سانت أومير، حيث كان يقيم كبار الضباط الذين لم يعجبهم البقاء هناك، وكانوا يحاولون إضاعة الوقت؛ كان المراسلون دائمًا يرافقون ضباط الجيش وكل ما يكتبون لا بد أن يمر على مراقب من الجيش.

كان من بين المراقبين الأوائل مساعد ملحق صحفى طويل القامة يسمى هيسكث بريتشارد، وهو هندى المولد، وابن أحد الضباط المشهورين فى فرقة البنجاب الرابعة والعشرين، والذى كان قد مات جراء إصابته بمرض التيفود قبل ستة أسابيع من ولادة ابنه. وباندلاع الحرب عام ١٩١٤؛ كان بريتشارد البالغ من العمر ٣٧ عامًا قد كتب العديد من الكتب حول رحلته إلى هاييتى – حيث يحكم السود البيض)، وإلى جنوب أمريكا (عبر وسط باتاجونيا قبل ٧٠ عامًا من قدوم بروس شاتوين)، وكندا (عبر تراكلس لابرادور)، وقد نالت مغامراته فى صيد الحيوانات الكبيرة التى ذكرها فى كتاب "معسكرات الصيد فى الغابات والبرارى" – (Hunting Camps in Wood and Wilderness) (١٩١٠) إعجاب تيدى روزفلت.

ذاع صيت هيسكث بريتشارد بوصفه لاعب كريكيت محترفًا ولاعب الجناح الأيمن السريع لفريق هامشير فى الفترة ١٩٠٠–١٩١٣، وكان قد اختير ثلاث مرات فى فريق النبلاء لنادى ماريلبون للكريكت، كما كان راميًا بارعًا وقناصًا رائعًا، حتى قال عنه أحد رفاقه: "إنه لم يخطئ أبدًا فى رمية رماها؛ يستطيع إصابة أصغر الأهداف ومن على بعد وفى الضوء الخافت"؛ مع اضطراب الآخرين كان هيسكث يزداد ثقة.

عندما شرع جون بوشان فى كتابة سلسلة من المقالات لصحيفة التايمز فى مايو ١٩١٥؛ كان يرافقه فى الجبهة هيسكث بريتشارد الذى أخبره عن قناصى الأعداء "مغامرى الغابات القادمين من جنوب ألمانيا". يوضح أول هذه المقالات والذى نشر يوم الاثنين ١٧ مايو؛ التباين بين هدوء الريف والصراع الحربى السرى الذى يجرى فى الخنادق وبين التلال، فهدوء الريف قيدٌ يسبب اليأس، أم صمت صراع الحرب فهو يسبب الهلاك.

وبحلول أواخر الشهر التالى؛ قام بريتشارد بمرافقة إتش إم توملينسون مراسل جريدة ديلى نيوز، وهو ليس من النوع الذى يألفه بريتشارد، فقد كان اشتراكيًا يفخر بكونه من الطبقة العاملة، وباتصالاته مع الاتحاد التجارى، كما كان يميل لوجهات النظر المتطرفة التى عبر عنها جورج برنارد شو فى نوفمبر ١٩١٤ فى مسرحيته

"رجل الدولة الجديد" - (New Statesman): "يجب على كلا الجيشين قتل ضباطهما والعودة إلى وطنيهما ومحاصيلهما، والقيام بثورات فى مدنهما".

عجب كل من بريتشارد وتوملينسون بالآخر، وفى أثناء سيرهما بخطوات يحدوها الحذر والانتباه بالقرب من أرض الجبهة، أسر بريتشارد "الطويل" إلى توم لينسون "الصغير": "إنه كان يعتقد أنه لا يفعل ما يكفى، فلم يكن يقتل الألمان، مع أن القناصين الألمان كانوا يحدثون الكثير من الجراح والألم برجالنا. وأنه يرغب أن تكون لديه بنادق مزودة بتلسكوب مكبر، إضافة إلى أشخاص مدربين جيداً على المطاردة والقنص". لم يكن بمقدور الضابط المرافق أن يقوم بالكثير حيال ضربات المدفعية أو غاز الكلور السام، لكنه قرر استخدام مهاراته الشخصية ومهاراته فى القنص فى تجنيب رفاقه أن يصيبهم قناصة الأعداء فى الرأس؛ قرر هيسكث بريتشارد أن يتغلب على القناصين.

كان بريتشارد قد أحضر معه بالفعل من إنجلترا عدداً من بنادق الصيد المزودة بتلسكوب، وكان يحملها معه خلال مهماته العسكرية، أو يعيرها للوحدات المتواجدة فى الجبهة، كما كان يقضى الساعات الطوال فى مراقبة وحدات الألمان المتواجدة على الجبهة الأمامية عبر التلسكوب الخاص به، وكان يقوم بعمل محاولاته الأولى فى إعادة إطلاق النار، وكان من المناسب أن يقوم شخص رياضى بأداء هذه المهمة. بدأ "القنص" كهواية فى المستعمرات من خلال إطلاق النار بمهارة من مسافة طويلة لإسقاط الطيور ذات المنقار الطويل، والثغاء التى تحلق حول المستنقعات بسرعة فى حركة متعرجة.

سيطر الألمان على حرب القنص التى دارت بين الخنادق منذ بداية عام ١٩١٥. وكانت لدى كل من الشاعر روبرت جرافيس وآلان لاسلى "رجل الحاشية" مناظير متقنة تم التدريب عليها باستخدام رصاص قناصين، وكان الشاعر سيجفريد ساسون قد أصيب برصاصة فى الصدر، كما أصيب جون ريث، الذى سيصبح فيما بعد قائد بى بى سى، فى وجنته، كما قتل القناص الأبيض الشهير فريدريك كورتنى سيلوز والكاتب الساخر "ساكى" - (إتش إتش مونرو) برصاص قناصين. وفى عام ١٩١٥؛ كان الجنود يغنون أغنية "خذنى أعلى البحر: "أريد أن أعود إلى المنزل حيث لا يمكن للقناصين أن يقتنصوننى،

فأنا لا أريد أن أموت، أريد أن أعود إلى المنزل": أجبرت عمليات الجنود على البقاء تحت الأرض وجعلتهم من سكان الكهوف، وعودتهم الحذر، وأخيراً جعلهم يفكرون بعقلية التمويه.

كان القناصة الألمان هم الأفضل من حيث المعدات، حيث كانت ألمانيا من الناحية العلمية أكثر تطوراً من بريطانيا فى صنع المعدات البصرية. وبحلول نهاية عام ١٩١٤ كانت لدى الألمان فعليًا ٢٠٠٠٠ جهاز تلسكوب صنعتها شركات مثل كارل زيس الألمانية لتستخدم مع بنادقها موسير جويهر ٩٨، وكان القناصون الألمان والنمساويون المهرة الذين كان لهم باع طويل فى الصيد يحملون ألواحًا من الصلب، تبلغ قدمين فى ثلاثة أقدام، وكانت قوية بدرجة كفاية لمقاومة رصاصات البنادق البريطانية عيار ٣٠٢، وبها فتحة فى المنتصف لإخراج البندقية والقنص من خلالها. تفوق الألمان كذلك فى تلك المرحلة من الحرب فى عملية التمويه الحربى، فلقد نجحوا فى عمل فتحات أدق وأخفى فى خنادقهم التى تعمدوا بناءها بشكل غير منظم وغير منتظم. كما كانت خنادقهم ذات سواتر رملية مصنوعة من جوالق الرمل الملونة بألوان مختلفة مثل الألوان الأزرق والأخضر والأصفر والأحمر والأسود والوردى، وكانت تتخللها خطوط من الحديد المموج والعلب الخزفية والمعدنية القديمة وأنابيب تصريف المياه والألواح المزيفة وهى أشياء كانت تعمل فى مجموعها على خداع العين، لذا كان من الصعب للغاية اكتشاف مكان القناصين المختبئين فيها.

استغرق ذلك الأمر وقتًا بجانب الكثير من الأرواح التى حُصدت؛ حتى أدرك المنظمون البريطانيون المشتتون أن الحنكة البالغة أمر ضرورى. إن تسوية الصف الأعلى من أكياس الرمال تسهل من مهمة قناصى الأعداء فى اكتشاف قبعات الجنود فى بريق ضوء القمر، وفق ما أشار إليه سولومون جوزيف سولومون مما يجعل هؤلاء الجنود هدفًا سهلاً للغاية.

كان للقناصة تأثيرهم السيئ على معنويات الجنود، حيث كان الموت الفجائى العنيف والإصابات المرعبة يوقع فى نفوس من يرون هذه الأحداث خليطًا من مشاعر

الخوف والصدمة، وأى رد فعل غاضب يحدث بالرد بالقنص ما كان يعنى إلا وقوع خسائر مماثلة، كان أغلب المصابين من الجنود طوال القامة؛ لأنهم كانوا يغفلون الانحناء على طول الجبهة، وبعض كان يصاب أثناء خروجهم لقضاء الحاجة، وكما كتب جورج كوبارت: "لقى العديد من الجنود البريطانيين حتفهم فى مراحيض الخنادق". وفى أوائل عام ١٩١٥؛ فقدت إحدى الكتائب العسكرية نحو ثمانية عشر رجلاً من رجالاتها فى يوم واحد بفعل القناصين، إلا أن تلك الأعداد القليلة بمرور الأيام، يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر كلفت الحلفاء آلاف الخسائر فى الأرواح.

كانت هذه الواقعة استمرارًا للدرس الذى تعلمه البريطانيون من البوير فى حرب جنوب إفريقيا. يفتتح هنرى تشارلز بوسمان قصته القصيرة المسماة "ذا رونك" – (The Rooinek) بوصف اثنين من البوير يرتديان ثيابًا رثة، وهما يختبئان ويقتنصان الضباط البريطانيين باستخدام بنادق موزر عديمة الدخان؛ حيث يفر الضباط البريطانيون على ظهور الخيل للنجاة بأنفسهم. كان تشكيل آخر فوج بريطانى من قبل زعيم العشيرة الجبلية، فريق "كشافة لوفات" – (Lovat Scouts) ردًا على قناصى حرب العصابات فى جنوب إفريقيا.

تم عمل مشروع كشافة لوفات الأولى عام ١٩٠٠؛ من قبل سيمون فراسر واللورد لوفات الرابع عشر والقائد الحادى والأربعين كلان فراسر. وتضمنت الفرقة ١٥٠ صيادًا وقناصًا من أنحاء البلاد فى اسكتلندا (حيث تملك عائلة فراسر ما يربو على ١٨٠٠٠٠ فدانٍ من الأراضى) ممن يتمتعون بمهارة عالية لمواجهة جنود الكوماندوز فى البوير. تكيف هؤلاء القناصة المهرة الذين أمضوا حياتهم فى صيد ذكور الحيوانات النادرة وجلبها للفيكتوريين الأغنياء، مع عمل الاستكشاف والمراقبة والملاحظة والإشارة والإرشاد والتوجيه والقنص فى جنوب إفريقيا، غير أن العيب الوحيد كان يتمثل فى أن بعضًا من ضباطهم الذين انطبعوا بالطابع الإنجليزى كانوا لا يزالون يتحدثون اللغة الغيلية.

اعتبر هيسكث بريتشارد قناصى لوفيت المهرة أفضل المراقبين فى المعارك وفرق الكشافة فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى قائلاً:

"...خلف الجبهات لم يكن الجنرال وقائد الفيالق وقائد الجيش والقائد العام ذاته يطلعون على الخطوط الأمامية، الكل كان أعمى، لقد حولت عقولهم المعركة، لكن هذا لم يكن إلا بأعين ساندى ماكتوش".

كان كشافة لوفات أفضل المراقبين، وكما فعل هيسكث بريتشارد، استخدموا التلسكوبات النحاسية التى صنعها روس فى لندن والتى أحضروها معهم (كانوا يفضلون النظارة المعظمة مزدوجة العينين التى شاع استخدامها على كلا الجانبين فى الحرب العالمية الأولى)، وقد استطاعوا باستخدام هذه التلسكوبات قراءة شارة القبعة أو عقدة شريطها على بعد ١٤٠ ياردة، كما استطاعوا كذلك تحديد شارات أكتاف الأعداء المقلوبة من خلال تلسكوبات الأفق المثبتة أعلى خنادق العدو. كتب هيسكث بريتشارد: "إن الأعوام التى قضاها هؤلاء الرجال فى الزحف بين النباتات ومواجهة الرياح الهوجاء، وملاحظة الحركات الصغيرة، وإحصاء العلامات الموجودة على ذكور الحيوانات البعيدة، كل هذا لم يجعل رجال "لوفات" يدعون شيئا، أن أخبرونا عن شىء فلا بد أن يكون كما أخبرونا به".

كان كشافة لورد لوفات بمثابة إعادة اكتشاف، يأتى بعد مئة عام، للفيالق التجريبية المسلحة بالبنادق الخاصة بالكولونيل البريطانى كوتماننجهام والتى عُرفت فيما بعد باسم "الفيلق الخامس والتسعين" الشهير، حيث ارتدى الرماة المهرة الزى الأخضر الفاتح والزى الأسود واستخدموا المخابئ بأفضل الطرق، ومضوا كمستطلعين يراقبون ويكتبون التقارير بل وينزلون الدمار البالغ بصفوف الأعداء باستخدام بنادقهم صغيرة الحجم من نوع إيزيكل باكر. تدرب هؤلاء الرجال على يد ضباط مهرة مثل السير جون مورى؛ مما أثقل مهارتهم وأشعل نشاطهم بعد أن كانوا مجرد حاملى بنادق لا يدركون سوى هذا.

مع مرور الوقت تطور هؤلاء الرماة المهرة حتى أصبحوا من أمهر القناصة. بدأت شارات الضباط التى تدل على رتبهم تختفى، ولم تعد تستخدم بعد أن بدأ اختيار الرماة ذوى الأنظار الحادة الذين يجيدون التوارى عن العيون بدهاء. تفوق الألمان فى قدرتهم على إطلاق النار على الأرجل الرفيعة خلال الحرب العالمية الأولى، وذلك لأن الضباط كانوا يرتدون سراويل قصيرة. وكانت وظيفة القناصين الحربيين الذين كانوا يعملون - غالبًا فى أزواج - يتناوبون فى عمليات الرصد والقنص هى انتقاء قادة وضباط الأعداء، وضباط الصف، وأطقم المدفعية والهاون، وضباط المراقبة، وضباط الاستطلاع، والمستطلعين، والقناصة الآخرين وذلك لتحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من خسائر للعدو بأقل جهد ممكن، كما كانوا يضربون بقوة المجموعات العسكرية.

بعد حرب البوير والهزائم التى كان من بينها هزيمة ماجريسفونتين عام ١٨٩٩، تحسنت قدرة تصويبات فرق المشاة التابعة للجيش البريطانى بشكل كبير بفضل مدرسة موسكيترى فى هيزى فى كينت، حيث كان المعلم الرئيسى بها فى الفترة من ١٩٠١ إلى ١٩٠٣ وقائدها فى الفترة من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٧ القائد المحنك الجنوب إفريقى السير تشارلز كارمايكل مونرو. فبفضل أفكاره حول تدريب القوات على ظروف المعارك، إضافة إلى التنافس فى إصابة الأهداف، فشل الألمان فى التعامل مع بنادق المشاة البريطانية فى مونس عام ١٩١٤؛ نظرًا لتكتل نيران البنادق والمدافع، كما ربط مونرو بين قوة النيران والتحرك التكتيكى للتقدم، وكان استخدام الأساليب التكتيكية الجديدة بالاعتماد على الأرض فى أثناء إطلاق النيران بسرعة ودقة أمرًا ممتعًا وشيقًا ومجالاً للتنافس للقادة الصغار. وبحلول عام ١٩١١؛ تم إقرار تطبيق فكرة مونرو القتالية داخل كل وحدات الجيش البريطانى.

فى أغسطس ١٩١٤، تولى الجنرال مونرو وهو فى الرابعة والخمسين من عمره قيادة الفرقة الثانية، وبحلول يناير عام ١٩١٥ أصبح قائدًا عامًا للفيالق الأولى، وفى ١٥ يوليو ١٩١٥ اختير قائدًا للجيش الثالث الذى تم تشكيله آنذاك. كانت هذه هى فرصة هيسكث بريتشارد؛ فلم يكن مونرو مهتمًا فقط بأفكار الرمى الجديدة بل وأحب رياضة

الكريكيت وكان يلعبها، لذلك قدر مونرو ما كان بريتشارد يحاول فعله، بل وأمن له مهمة التجول فى الجيش الثالث فى محاولاته لتطوير فن القنص المضاد. أُسندت مهمة القنص الميدانى إلى الجنود لكونها شيئًا متقنًا تعتمد على المهارة الفردية أكثر من نيران المجموعات، وتعامل أوبرى هربرت مع الأمر وكأنه رياضة أكثر من كونه حربًا دائرة:

"فى مكان واحد وعلى الطريق كنا نجرى ونراوغ مثل الظباء، كان الجنرال يجرى هو الآخر ومعه بعض الرصاصات، وكان القنص أكثر متعة من إطلاق قذائف الشظايا بل وأكثر إنسانية، حيث تتنافس مع العدو فى استخدام مهارتك بطريقة أقل عدوانية".

ثم زار آلان لاسلى فوج يورك شير فى سبتمبر ١٩١٥:

مكثنا فى خندق أعمق من بقية الخنادق، وكان هناك رقيب يجلس أسفل أحد المتاريس المزودة بتلسكوب وبندقية يوجهها من بين جوالق الرمل التى بناها وأعدها بمهارة وبراعة خصيصًا لهذا الغرض. قال النقيب الذى يقودنا فى هذه الجولة. "ذلك الرجل هو قناصنا الماهر؛ فقد قتل ١١ من الألمان منذ أتينا من قرابة ٥ أيام، فقال الرقيب: "بل اثنى عشر يا سيدى، لقد أتوا به توًا إلى هنا".

يذكر أن مشروع القنص المضاد أطلق مرة ثانية فى يونيو ١٩١٥؛ عندما ذهب الجنرال هيسكث بريتشارد لرؤية صديقه القديم النقيب ألفريد كاثرين - هاردى فى أقصى الجنوب قرب الجبهة فى نايف كابلى والذى كان معه بنادق اسكتلندية عيار ٩ (ثم قتل بعد عدة أشهر فى لوس). لقد زحفا معًا على أرض غير مهيأة لسرقة عدد من الألواح الحديدية الكبيرة لتستخدم فى التوقى من رصاص العدو، والتى كان بها فتحات يقوم القناصة الألمان من خلالها بإطلاق النيران. أخذ بريتشارد تلك الألواح معه خلال الإجازة فى يوليو ليقوم بعمل اختبار لها ضد بنادق القنص والرصاصات المختلفة، اكتشف بريتشارد أن الرصاصات ذات الحجم الكبير (من نوع ٥٧٧ أو ٤٧٠ نايترو إكسبريس) التى يمكن إطلاقها من بندقية مزدوجة الماسورة من نوع إيليفنت أو حتى البنادق السريعة الأصغر حجما مثل جيفريس ٣٣٣، تخترق وتمزق الألواح المعدنية كما لو كانت قطعة من الشيكولاتة.

اتفق هيسكث بريتشارد مع جون بوشان في لندن على توفير الأموال لشراء المزيد من تلك البنادق. وأصدر المحقق طلبًا، كما طلب بوشان المساعدة من اللورد هالدين وعدد من الأغنياء الآخرين لتمويل الأمر، وفي الوقت نفسه قام بريتشارد بزيارة ويلى كلاركسون (صانع الثياب اللندنى المشهور الذى صنع الثياب التى ارتدتها فرجينيا وولف لعمل خدعة – dreadnought hoax) وحصل منه على مجموعة من الرءوس التى كان يستخدمها لعرض الشعر المستعار. فى سبتمبر ١٩١٥؛ رتب هيسكث بريتشارد لترك عمله باعتباره حارسًا بمقر القيادة العامة وبدأ فى تعليم "القنص والمراقبة والاستكشاف" لضباط ورجال الجيش الثالث. وفى صيف عام ١٩١٦؛ بدأ فى إنشاء مدرسة القنص للجيش الأول فى لينجهام فى بلجيكا، وعندها كان معلمه تشارلز مونرو عائدًا من جاليبولى ورئاسة الجيش الأول.

كان على بريتشارد أن يتغلب على ما يجده من توانٍ لدى القيادات العليا، وكذلك عدم خبرة الجنود، لذا بدأ عمله بشكل فردى دون أى مؤسسة أو سلطة يستند إليها أو قانون يقويه، كما كان عليه أن يتخلى عن رتبته كجنرال إلى رتبة نقيب مشاة دون أن يتلقى أموالاً لفترة ٨ أشهر. كانت تلسكوبات الرؤية الخاصة بالبنادق بكميات قليلة وكانت نسبة ٨٠٪ منها لا تصلح للاستخدام بسبب عدم انضباط المرايا وعدم الصيانة، ولم يكن أحد يعلم أى شىء عن أمور التمويه والمراقبة. لكن مع تنقله ببطء من فرقة إلى أخرى وجد هيسكث برتشارد حلفاءً ومؤيدين، مع أن بعضًا قد يقولون: "من هذا التافه الذى يأتينا هنا؟ إنه لاعب الكريكيت، أليس كذلك؟"، وذلك بسبب إظهاره الحيل الجديدة لمواجهة القناصة الألمان، ومساعدة القناصة/ المستكشفين على اكتساب المزيد من مهارات القنص والقتل.

استخدمت الرءوس التى حصل عليها برتشارد من كلاركسون فيث فى خداع الألمان، وللمساعدة فى تحديد مواقع القناصة، فكانت الرأس توضع على عصا تنزلق للأعلى والأسفل فوق الأخاديد وكان يتم دفعها ببطء وحرص إلى أعلى المتاريس لتظهر وكأنها شخص يقوم بالمراقبة، فإذا أصيبت برصاص القناصة كانت تُسحب بسرعة.

ومن خلال إدخال عود تنظيف البندقية (الحربى) إلى الفتحة الناتجة عن دخول وخروج الرصاصة برأس التمثال، يمكنك حساب الزاوية المناسبة وكذلك وقفة القناص الذى قام بإطلاق الرصاصة، أو يمكنك وضع منظار الأفق على الأخدود فى مكان الرأس واكتشاف مكان القناص.

عندما زار بريتشارد مركز الأعمال التمويهية التى كانت تتم فى الجانب الفرنسى فى اميان عام ١٩١٦؛ أُعجب بخبير التمويه هنرى بوتشارد، وكان فى هذه المدينة نحات يصنع رءوسًا وأكتافًا لجنود فرنسيين وبريطانيين من معجون الورق، وكانت تلك النماذج أكثر وفرة من نماذج كلاركسون التى تأتى من لندن، وقد كان من المستحيل التعرف على حقيقتها من على بعد ٣٠٠ ياردة. حصل هيسكث بريتشارد على نماذج لأفراد من الجوركا السيخ لعمل تنوع فى الأهداف وإرباك الاستخبارات الألمانية الذين يجمعون معلومات عن المعركة أو قوات العدو. كانت لبعض التماثيل فتحة تشبه الفم لإيقاد سيجارة يمكن نفثها من الأسفل من خلال أنبوب من المطاط. كتب بريتشارد: "من العجيب أن تكون لديك رأس ومن خلالها تدخن سيجارة ثم تطلق رصاصة من بندقية موزر فجأة".

ساعد خبراء التمويه القناصين فى الميدان من خلال صنع نقاط مراقبة واختفاء حقيقية متماثلة تمامًا مع طبيعة الأرض والخنادق؛ هناك قطع طوب متهشمة ومعالم فرنسية وأخشاب وخيول منتفخة وجثث لجنود فرنسيين أو بروسيين. كما قام هؤلاء الخبراء كذلك بعمل ثياب كاملة للقناصة تحاكى ألوانها ألوان النباتات فى المنطقة وبها رسوم على غرار الأرضية.

فهم الجنود الألمان بشكل أسرع من الجنود البريطانيين أنه ليس من المناسب وضع شىء مختلف عما حوله. يصف فيليب جيبس الجزء المكسو بالأخشاب على طول الجبهة بين فوكس ساسومى وكورلو؛ حيث كانت الحرب دائرة فى صيف ١٩١٥، إذ دخل نحو ثلاثين أو أربعين رجلاً من القوات المغيرة إلى أدغال هذه الأرض الخالية وهناك وجدوا:

"مجموعة من الألمان... يزحفون نحو الجانب الآخر فى الاتجاه نفسه متنكرين فى ملابس متعددة الألوان ومزركشة بألوان خضراء وحمراء وبنية؛ كى لا يمكن اكتشافهم بين الأشجار وعلى وجوههم أقنعة بنية، ثم دوى صوت البنادق الكثيف والمختلف ليقطع الصمت الذى يخيم بين الأشجار إضافة إلى أزيز رصاصات وصيحات الرجال المصابين الذين استسلموا".

"حقائق الحرب" (Realities of War) عام ١٩٢٠.

بدأ الرائد أندر هيل من كتيبة "كينج شروبشير لايت إنفانترى"؛ يعيد بناء موقع فى أرض فضاء مرة أخرى لمتدربى قوات الحلفاء للقيام بالزحف ليلاً فى موقع حقيقى عن طريق تفجير لغم فى حقل قديم، ومن حولهم أسلاك وفتات صخور حقيقى. كان مع الدمى التى مثلت جثث الألمان كتيبات المرور إلى جانب عدد من الأوراق المهمة لتحديد الهوية. وفى حين كان يطلق المدافعون النيران يكون على المهاجمين الزحف إلى أقرب مكان ممكن وتثبيت وتد حتى يمكن التعرف فى الصباح على مكانهم الذى وصلوا إليه.

يتم التدريب على المطاردة والاختباء والاندماج مع البيئة والانتظار والتمويه والتصويب الدقيق؛ إنه يشبه عالم صيد الحيوانات الكبيرة، إلا أن الأمر يختلف هنا حيث يمكن أن تقوم الفريسة بالرد بإطلاق النيران. كان كتاب بريتشارد "القنص فى فرنسا" - (snipping in France) يشبه إلى حد كبير كتاب أساليب القناص الهندى أو الإفريقى، أو ما ورد فى أدب القنص، وكما ورد فى روايات القصص التى كان يرويها جيم كوربيت والعقيد باترسون وآخرون، حيث كان على الصياد أن يتظاهر كما لو كان أحد الحيوانات فى الحقول فى محاولة للإغواء بقتله، إنه يقوم بدفع القناص إلى إطلاق النار من خلال الجرى على نحو غير مدروس ولا مخطط وبلا حيطة وحذر، وهو ينظر إليك من فوهة لوحه ليقتنصك؛ فى حين ينتظر الرفاق الآخرون بحكمة وترو فى أماكنهم المحددة يسترقون النظر من جانبك على نقطة محددة من خلال استخدام التلسكوب لمعرفة حركة العدو وفوهة البندقية أو الدخان الذى ينبعث منها.. فكل ذلك ما هو إلا جزء من عملية رياضة وإن كانت مميتة.

كان سعى هيسكث بريتشارد إلى ما سماه "روح القناص" فى الجيش هو ما قاده أولاً إلى تشكيل فريق كشافى لوفات؛ حيث كانوا قد أسهم فى صنع سترة مموهة من ألوان شبيهة بألوان جلد الأيل كانت تستخدم فى التمويه. وكان القناصون الجدد فى الجيش البريطانى لا يزالون يرتدون ذلك النوع من السترات فى الميدان؛ وكان يغطيها بعض الأشرطة غير المترابطة المصنوعة من النايلون وتتدلى من البنطال خطوط من الحلقات الخشنة الطويلة من الحرير المقطع والمشذب بفروع مشعبة؛ وكانت تلك تمثل سترة مموهة تحجبهم وتجعلهم كما لو كانوا جزءًا من الطبيعة، كانوا يبدون كالنباتات أو كحيوان يسمى الكسلان حين يتحركون، وكانوا يظهرون وكأنهم مجموعة الأشجار الكثيفة المتلاحمة عندما يتجمعون ويستعدون للقتال.

أدرك الصيادون قيمة التمويه؛ حيث كان ذلك جزءًا من ممارساتهم المنتظمة. بعد يومين من خطاب سولومون جوزيف سولومون عن التمويه والذى ألقى فى يناير ١٩١٥، نشرت صحيفة التايمز ردًا من والتر ويننانس، أحد محبى ركوب الخيول وبطل الرماية الأوليمبى، وقد ولد فى سانت بطرسبرج عام ١٨٥٢؛ وكان والده قنصلاً للولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى كونه من عائلة غنية تنحدر من بالتيمور، ولها الكثير من الأموال، وتجيد التربح وتقيم فى إنجلترا، ولها أملاك كبيرة فى بلجيك، وكانت تمارس الصيد فيها وكان والتر يحب هذه الرياضة جدًا ومغرمًا بها إلى أبعد الحدود.

الأزياء الموحدة وتنوع الألوان

إلى محرر صحيفة التايمز،

سيدى، هناك نقطة تركها "سولومون جوزيف سولومون" فى خطابه، ومن جهتى أتفق معه تمامًا، وهنا تكمن أهمية الخروج على المألوف، فعلى قدر جودة طبيعة الملابس التى يرتديها الشخص؛ فإنها قد تجعله متماشيًا مع ما حوله من الطبيعة ومن ثم تجعل من الصعب اكتشافه فى محيطه.

وبوصفى فنانًا وصائد حيوانات، وجدت أنه إذا كانت صدرية الرجل من لون واحد وكانت السترة من لون وسرواله من لون آخر، يكون من الصعوبة بمكان التعرف على

ذلك واكتشافه، فعلى سبيل المثال إن جلست يومًا فى إحدى الغابات تنتظر أيلاً، وكانت قبعة رأسك بلون الحجر وقميصك بلون الجماد الذى حولك وسروالك القصير بلون العشب وجواربك وحذائك باللون الأسود، وظللت ساكنًا بلا حركة؛ فإنك لن تكون هدفًا أو كائنًا أو شيئًا، بل كتلة حجر صغيرة وقطعة خرقاء وقطعة عشب وقطعة جلد مكشوفة، إلا أن الوجه يمثل المشكلة حينئذ ويمكن تمويهه هو الآخر بقطعة من الغطاء قد تكون خضراء اللون أو رمادية. ويذكر أننى كنت أمشى فى اتجاه رجل يرتدى على النحو الذى وصفته وقد غطى وجهه بقطعة طويلة من القماش رمادى اللون، فلم ألحظه على الرغم من أنه هو ذلك الرجل الذى أعرفه وكنت أبحث عنه عندما خرج متتبعًا أيلاً بين الأشجار. فالمهم فى هذا كله هو الخروج عن المألوف، هذا مع افتراضى أن ماسورة البندقية قد صدئت وإلا سوف يكون من الأفضل أن تطلى هى الأخرى باللون الرمادى أو الأخضر، حيث كانت تميل إلى اللون الساطع فى الحرب العالمية.

وافق هيسكث بريتشارد فى رأيه بعض الرياضيين الآخرين، وعندما عاد المحرر جورج إيه بى ديوار محرر ساتر داى ريفيو ومؤلف العديد من الكتب عن صيد الأسماك وحيوانات البرية، من واحدة من زياراته المتعددة إلى الجبهة الغربية فى صيف ١٩١٧، كتب مقالاً عن مدارس القنص لصحيفة التايمز يذكر فيها فضائل ومزايا الصيد والقنص فى الاستعداد للحرب.

يكمن أفضل أنواع التدريب الطبيعى فى الاستعداد للحرب، فى الرياضة "القاسية"... فأفضل قناص فى الحرب هو من لا يستطيع فقط قنص فريسته، بل من يستطيع أن يكتشفها بنفسه، فى الوقت نفسه الذى يختبئ ويوارى نفسه تمامًا عنها.

إن رجال القناصة الذين نريدهم اليوم ليواجهوا الأعداء هم من لا يجيدون ممارسة القنص الصائب فقط، ولكن من يستطيعون "الزحف والتسلل" لساعات فى خفاء، ومن يستطيعون استغلال كل ساق نبات ورقعة عشب كحجاب، علاوة على ذلك، هم أيضًا من يستطيعون التجسس والتعرف على التفاصيل.

زار اللورد لوفات مدرسة هيسكث بريتشارد، وكان متأثرًا لدرجة أنه أراد من المتخصص فى القنص بإصابة الرأس، كوربورال دونالد كاميرون، أن يعلمه تفاصيل المراقبة الدقيقة وعمل البوصلة واستخدام التلسكوب فى التجسس. وقد حدث ذات مرة أن أخبر الطلاب بوجود "جنود فى أزياء زرقاء على بعد ٦٠٠٠ ياردة، نظر كاميرون عبر المنظار وكان قادرًا على التحقق من أنهم برتغاليون، حيث كانت تصميمات أزيائهم تأخذ الشكل الفرنسى، لكن خوذاتهم البريطانية مكتوب عليها بوضوح "حلفاؤنا القدامى"، البرتغاليون.

كانت المعلومات التى تأتى من خلال المراقبة؛ تتطلب نوعًا من الاستخبار أدق وأعمق استنتاجًا للاستفادة منها قدر المستطاع، إن التفكير فى طريقة سير قطة التورتوشيل بهدوء وتؤدة فى خنادق صيد الفئران تقودنا إلى فكرة يمكن أن تساعدنا فى زعزعة خط المواجهة الألمانى من خلال التصوير الجوى لمواقع الضباط ثم قصف هذه المواقع بالقذائف.

(٥)

شراك مضيق الدردنيل

لم يكن لغاز الكلور السام فى إبرس تأثيراً يذكر على دور دوف كوبر اللامع بوزارة الخارجية أواخر أبريل ١٩١٥، لكنه كان حزينًا وضجراً للغاية عندما لطمته سيدة جميلة تسمى ديانا مانرز على وجهه فى شجار نشب بينهما فى عطلة نهاية الأسبوع فى فندق كافنديش (لكنهما تزوجا فيما بعد). أصيب دوف كوبر بصدمة عندما قرأ فى صحيفة يوم الاثنين أن "الشاعر الجيد" و"الوسيم" روبرت بروك قد مات بسبب "ضربة شمس"، (لكنه أصيب فى الحقيقة بلدغة بعوضة فى شفته) فى جزيرة يونانية تقع فى البحر الأبيض المتوسط عندما كان فى طريقه إلى قتال الأتراك. كان ونستون تشرشل نفسه قد نعى بروك فى جريدة التايمز، ذلك الرجل الذى كان يعمل فى قسم البحرية الملكية الذى أسسه تشرشل، وتوفى روبرت بروك عند بداية حملة مضيق الدردنيل الاستراتيجية التى أشار إليها تشرشل.

فلو نظرت إلى خريطة للبحر الأبيض المتوسط عام ١٩١٥، فستجد ثلاثة مداخل فقط للسفن، يتحكم البريطانيون فى اثنين فقط هما مضيق جبل طارق ومضيق السويس، وأما الثالث فكان بحوزة الأتراك العثمانيين الذين صاروا فيما بعد أعداءً بانضمامهم إلى ألمانيا ودولة النمس المجرية. وفى المنطقة الشمالية الشرقية من الخريطة، ستجد مضيقًا صغيراً يسمى الدردنيل يصل بحر إيجيه مروراً بشبه جزيرة جاليبولى (جليبولو فى اللغة التركية) وبحر مرمرة حتى البحر الأسود.

تكمن أهمية مضيق الدردنيل للحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى فى أنه كان يمثل الطريق الحيوى للإمبراطورية الروسية، إضافة إلى كونه المسار البحرى الوحيد من البحر الأبيض المتوسط إلى ميناءى أوديسا وسيباستوبول بالبحر الأسود، وبعد انضمام القوات التركية - العثمانية إلى دول المحور كان ذلك بمثابة إغلاق طريق روسيا عبر البحر الأسود. ومع تجمد الموانئ الشمالية فى فصل الشتاء، فإن ذلك يعنى عدم إمكانية تصدير محاصيل الحبوب الأوكرانية وعدم وصول الإمدادات العسكرية. وعند صد هجمات الألمان فى الغرب، كانت قوات الأتراك العثمانيين تهاجم روسيا فى القوقاز، وهنا ناشد القيصر الروسى حلفاءه البريطانيين والفرنسيين باستخدام قواتهم لإخراج قوات الأتراك العثمانيين من بلاده.

ومع بداية عام ١٩١٥، أراد ونستون تشرشل - كأول لورد بالبحرية - تدعيم الروسيين من خلال مهاجمة مضيق الدردنيل. كان كل من اللوردين كتشنر وجاك فيشر أول لوردين بالبحرية الملكية يدعمانه فى ذلك، غير أن الفكرة تحولت فى عقل تشرشل إلى رؤية واقعية؛ هجوم جرىء عبر مضيق الدردنيل بهدف الاستيلاء على القسطنطينية التى يسميها الأتراك اسطنبول وضربها مما يخرج الأتراك العثمانيين من الحرب تماما. علقت الآمال الكبرى (أو ما كان يسميه السير إيان هاملتون بصندوق الهلوسة) على تلك الضربة؛ حيث سيتم منع الألمان من التطفل على الشرق، كما ستتم مساندة اليونان والإبقاء على صربيا ومصر وستتم حماية الخليج الفارسى، ولم شعث البلقان والاستيلاء على بداية نهر الدانوب وإنقاذ روسيا وتحرير مخازنها من دول المحور التى تطوق دول الحلفاء. وكانت هنالك رؤية خاصة تشبه رؤية إرنست رايموند عام ١٩٢٢، تلك الرواية التى كانت الأكثر رواجًا فى ذلك الوقت، والمسماة "أخبر إنجلترا" (Tell England): "إنه الصليب ضد الهلال مرة أخرى، إنه الصليب الإنجليزى العظيم، نعم العظيم!".

حاولت البحريتان البريطانية والفرنسية فرض ممر بالقوة عبر مضيق الدردنيل فى ١٨ مارس ١٩١٥ باستخدام ١٠ سفن حربية (من السفن القديمة المستنفدة المخصصة للمناوشات)، وبدءوا تفجير الحصون المقامة على الشواطئ ومواقع المدفعية التركية

الواقعة على بعد عدة أميال من شبه جزيرة جاليبولى واليابسة الآسيوية. أطلقت سفينة البالونات المقيدة إتش إم إس مانيكا بالونات تحمل مراقبين مرتفعًا فى الهواء ليراقبوا سقوط القذائف على مسافة تقارب سبعة أميال، كما اختبرت السفينة الحربية المدرعة المسماة الملكة إليزابيث (كوين إليزابيث) مدافعها الجديدة عيار ١٥ بوصة التى تتميز بصوتها الشديد وقوتها الفاتكة وفاعليتها الأكيدة. وبفرض أنه قد تم القضاء على المدفعية التركية، كان يفترض استخدام سفن الصيد المدنية لفتح ممر بمساحة ٩٠٠ ياردة عبر حقول الألغام التركية، ولكن بعد الوقوف فى سلسلة تتكون من عشرين لغمًا بحريًا لم تكتشفها الطائرات المائية ولا قوارب الطوارئ؛ أدت إلى إغراق السفينة الحربية الفرنسية "بوفيت" إضافة إلى السفينتين الحربيتين البريطانيتين "إريزستيبل وأوشن"؛ ما أدى إلى مقتل ما يزيد على ٦٠٠ جندى (كان أغلبهم من الفرنسيين)، هنا قام العميد البحرى جون دى روبيك بإيقاف العمليات البحرية.

فى يوم هجوم الحلفاء نفسه، كان تشرشل يزور الخنادق الفرنسية المتواجدة بين كثبان الشواطئ الرملية البلجيكية؛ حيث وجد الأسلاك الشائكة تمتد نحو بحر الشمال حيث توجد الجثث المغطاة بطحالب البحر وتتدلى جيئة وذهابًا بفعل الأمواج، وذكر تشرشل أنه حاول عدم التفكير فيما حدث فى مضيق الدردنيل؛ حيث أيقن أنهم كما استطاعوا النجاح فإنهم سيتمكنون من اجتياز مأزق فرنسا فلاندرس. وبالعودة إلى لندن فى اليوم التالى، كان السياسيون وكبار المسئولين مصرين على المثابرة، وهنا قال فيشر: كيف يمكن أن تخسر البحرية عشرات السفن الحربية دون وجود أى خطورة.

وفى ٢٣ مارس؛ فقد العميد البحرى دى روبيك أعصابه وأرسل برقية إلى تشرشل يقول فيها: إن مضيق الدردنيل لا يمكن الاستيلاء عليه دون تدمير الجيش للمدفعية المتواجدة على الشواطئ، فبعض المدفعية التركية متحرك وبعضها الآخر خفى يتعذر تدميره من البحر أو الجو باستخدام أساطيل البحرية الملكية أو الطائرات المائية المحمولة بحرًا،

وملأ هذا الخطاب قلب تشرشل رعبًا، واستغلت القوات المعادية التأخير لتعزيز صفوفها، وعندما فك رئيس الغرفة رقم ٤٠ شفرة الرسائل بين برلين والقيادة الألمانية لدى العثمانيين، أرسل تشرشل تلغرافًا إلى دى روبيك:

"نعلم أن هناك نقصًا فى الذخيرة وإمدادات الألغام داخل الحصون، ولا نعتقد أن الوقت قد حان بعد للتخلى عن فكرة الاستيلاء على مضيق الدردنيل من خلال عملية بحرية خالصة".

إلا أن ثلاثة من كبار عمداء البحرية فى لندن أيدوا رأى دى روبيك، الرجل الذى كتب برقية تشرشل ولم يرسلها، منذ ذلك الحين، بأنه لن يتم استئناف هجوم البحرية، وملأ الحزن قلب تشرشل عندما علم بقرار عمداء البحرية.

شكل ذلك الحدث مشكلة تاريخية، فما الذى يمكن أن يحدث إذا استمرت سفن قوات الحلفاء فى المرور عبر الدردنيل فى الأسبوع الثالث من شهر مارس ١٩١٥؟ إلا أن بعض الأشخاص الموثوق بهم مثل روجر كيز قائد إحدى غواصات الهجوم حاول إعادة فكرة تشرشل من خلال هجوم البحرية فقط عبر المضيق لتستولى على القسطنطينية، لكن ذلك لم يحدث. وبعد عشرة أعوام من قيادة أسطول البحر المتوسط، تسلل كيز وتغلبه عاطفته عبر ممرات ضيقة قائلاً: "يا إلهى، لقد كانت أسهل كثيرًا مما ظننت وما كان علينا أن نخطأ، وحيث إننا لم نحاول، فقدنا حياة مليون واستمرت الحرب لثلاث سنوات أُخر".

ظل تشرشل بقية حياته يتحمل تبعات موتى الدردنيل وكوارث جاليبولى، فربما كان هذا اليوم يمثل ما كان يأمل تشرشل فى حدوثه "أحد أعظم الأحداث فى تاريخ البشرية" إلا أن ذلك لم يقع، ثم كان الإنزال البر مائى على شبه الجزيرة فى أبريل ١٩١٥؛ حيث لم يكن ذلك من بين مخططات تشرشل ولا من بين تصوراته؛ فقد وضع كل ثقته فى قدرة السفن وحدها على إيجاد طريقها عبر المضيق لتستولى على القسطنطينية.

عندمـا أعلن كـتـشنر - وهو إيرل الخـرطوم - أن الجـيش سـيكمل عـملياته، كـان القول أسـهل من الفعل، وتم إرسال فرقة المشاة البريطانية التاسعة والعشرين، التى لا تضاهيها قوة والتى انضمت إلى قوات الحملة، كقوة أكثر ضراوة من قـوات الغـزو البر مائية. كان التنظيم المطلوب لكلا الدورين مختلفًا قليلاً، وكانت خطط قوات الحملة فى القسطنطينية استثنائية تمامًا، ذلك أن قوات البحرية الملكية هى المعنية بعملية اقتحام مضيق الدردنيل، ومن ثم قامت السفن عشوائيًا بتحميل وحدات منفصلة عن معداتها وتحميل بنادق منفصلة عن الذخيرة الخاصة بها، ولم يكن هناك أدنى تفكير بالأولويات والمطلوب أولاً. كان هناك عدد قليل من المهندسين، ولم يكن هنالك عدد كاف من القـوارب الصـغـيـرة لنقل الأفـراد والإمـدادات إلى الشـاطئ؛ إضـافـة إلى كـون الإمدادات الطبية غير كافية، ولم يفكر أى شخص فى إمدادات المياه. كما لم تكن هناك قاعدة كبيرة يتم فيها تخـزين كل ذلك؛ لأن أقرب الجزر اليونانية إيمبروس وليمونز (حيث ميناء كبير فى مودروس) لم تكن بها مياه كافية. لذلك كان على السفن الإبحار مسافة ٨٠٠ ميل إلى الإسكندرية فى مصـر للحصول على احتياجاتها. وكما يقول بعض الجنود: "توجد هنا ثلاث جزر هى ليمونز وإيمبروس وشوز".

أتاحت كل تلك العوامل نحـو ٤ أسابيع للقـائد ليمـان فـون سـاندرز قـائد المهمـة الألمـانية من أجل تنظيم الجيش الخامس التركى ليدافع عن مضيق الدردنيل. ولم تكن نوايا البـريطانيين خـافـية، غـير أن ليمـان فون سـاندرز لم يعرف تمامًا أين سـينزل البـريطانيـون، لذا قـسم قـواته إلى ثلاثة أقـسـام مـتسـاوية يتكـون كل منهـا من نحـو ٢٠٠٠٠ جندى لتغطية الجزء الشمالى من شبه الجزيرة فى بولير والجانب الجنوبى من جاليبولى إضافة إلى الجانب الآسيوى. وتم تلغيم ووضع أسلاك وإقامة حاميات بأماكن الإنزال المكشوفة فى جنوب شبه الجزيرة. وكذلك توفير قوات احـتياطية تنتقل عند الضـرورة. تولى قـيـادة ١٠٠٠٠ جندى، من الفرقـة ١٩ من قـوات الاحـتيـاط بالجيش التركى فى بيجالى أسفل جنوب شبه الجزيرة، مقدم تركى يدعى مصطفى كمال الذى عرف فيما بعد بأتاتورك مؤسس الجمهورية التركية ورئيس تركيا فى الفترة من ١٩٢٣ إلـى ١٩٣٨.

حمل أسطول يتكون من ٢٠٠ سفينة القوات البريطانية من ليمونز عبر ظلمات البحر تجاه شاطئ مدينة طروادة. وقام القائد إيان هاملتون بنشر ست فرق حيث أنزل الفرقتين الفرنسيتين منهما فى كوم كال على الجانب الآسيوى من المضيق؛ إلا أن ذلك كان هجومًا مخادعًا، كما كان هناك هجوم مضلل أيضًا من قبل فرقة البحرية الملكية فى بولير على ضفاف شبه الجزيرة فى الشمال. إلا أن الهجوم الرئيسى كان على جنوب شبه الجزيرة من خلال ٣٠٠٠٠ جندى من الفرقة البريطانية التاسعة والعشرين وفرقتى أنزاك (من فرق الجيش الأسترالى والنيوزيلندى).

كان مخططًا أن يتم إنزال البريطانيين على خمسة شواطئ حول كيب هيللز ليعسكروا على مرتفعات أكى بابا؛ وكان على فرقتى أنزاك النزول على بعد عشرات الأميال فى جابا تيب للسيطرة على شاطئ سارى بير. ومن هناك يتقدم الجميع باتجاه سهل باشا داغ الذى يتحكم فى الجزء "الضيق" من مضيق الدردنيل. كان بحوزتهم خرائط، غير أنه لم تكن لديهم صور استطلاعية. واعتقد كتشنر أن الأتراك سيفرون، لذا فلا حاجة للطائرات.

كان أول من نزل على شبه الجزيرة هو واحد من أخر من خرجوا منها بعد ٩ أشهر، وكانت مهمته الأولية هى الخداع. وقد ولد الرائد البحرى بيرنارد فريبرج الذى عمل فى فرقة البحرية الملكية فى لندن، لكنه نشأ فى نيوزيلندا، وكان ضمن قوات باناكو فيللا الثورية فى المكسيك عند اندلاع الحرب، وشق بيرنارد فريبرج طريقه إلى البحرية الملكية عندما أعجب به تشرشل فى عرض الفرسان. ولم تمض أربع وعشرين ساعة بعد دفن أخيه الضابط الشاعر روبرت بروك فى بستان الزيتون فى ليلة مقمرة على جزيرة سكايروز؛ حتى سبح لميلين لينزل إلى شاطئ بولير. وفى يوم السبت ٢٤ أبريل ١٩١٥؛ كان فى غرفة المحركات شبه عار وعليه طبقة كثيفة من شحم كأنه يرتدى قناعًا بنيًا لا يبدو منه سوى عينه البيضاويين. كان فريبرج يجر حقيبة بها سبعة أعمدة مضيئة ليثبتها على الشاطئ حتى يوقن الأتراك أن عملية إنزال قوات الحلفاء جارية إلى الشمال من مواقع الإنزال الحقيقية، وبفضل هذا نال المرتبة الأولى فريبرج الأول فى ترتيب الخدمة المميزة.

كان يوم الأحد يومًا ربيعيًا جميلاً، وكان بحر إيجيه أزرق وهادئًا ولطيفًا. وحدثت عملية الإنزال المثالية هذه قبل الفجر مباشرة. وفى جابا تيب فى الشمال نزل أول ١٥٠٠٠ جندى من قوات أنزاك أسفل جرف صخرى على بعد ميل من شمال شاطئ "زيد" الذى كان من المقرر النزول به. لم يكن ذلك اليوم بالكارثة الكبرى، بل تمت مواجهة بعض المشكلات، حيث وصف جون بوشان القوات الأسترالية وهى ترمى بحمولتها ومعداتها ليصعدوا نحو مئة قدم عبر أشجار الآس وحدائق الصخور الصفراء المليئة بأزهار وقمم الشواطئ الصخرية البنفسجية والصفير المتعالى ونبات شقائق النعمان ونبات البرقوق والنرجس ليتحصنوا من النيران التى تعلوهم وهم يحملقون بأنظارهم والشمس متألقة عند الشروق.

"والآن عليك أن تحفر وتحفر وتزيد الحفر حتى تكون فى مأمن من النيران"، على حد قول الجنرال هاملتون إلى جنود فرقتى أنزاك، ومن هنا أطلق على الأستراليين لقبهم الدائم "الحفارون"، وكان عليهم صد الهجمات المضادة بالحراب، وبعد أشهر من النزول إلى خليج أنزاك كان المكان أشبه بأحد مخيمات التعدين فقد اقتلعوا الصخور وتلونوا بلون البرونز بفعل الشمس.

وفى النقاط إس وواى وإكس حول خليج كيب هيللز؛ نزل الآخرون على نحو أسهل فلم تكن هناك مقاومة، إلا أن الغزاة لم يفعلوا الكثير حيال ذلك الأمر. تجولت قوات من النقطة واى على بعد عدة ياردات من قرية كريثا المهجورة ثم عادوا إلى الشاطئ حيث كانوا يفوقون فى هذا الوقت القوات التركية المدافعة عددًا فى كيب هيلز. ولم يقترب أى من قوات الحلفاء من كريثا مرة أخرى.

عند شاطئ النقطة دبليو توقف دوى للقصف البحرى، وكان جنود كتيبة لانكشاير فوسيلرز الأولى ثقيلة التسليح لا يزالون مجهزين فى مجموعتين من القوارب القوية ومعهم اثنان من قوالب الحبال، حيث يجدفون نحو الشاطئ وعلى متن كل منها أربعة من الجنود، بينما بدأت رصاصات بنادق موزر المقبلة من المتاريس التركية تصيبهم. ولم يكن النصر حليف شارلز سامسون القائد فى البحرية الملكية فى موريكا فارمان،

حيث كتب: "لقد رأيت الحفر وهى تتفجر، وكان البحر ثائرًا ومغطى بالزبد الذى أتاه من سيل الرصاص وقذائف المدافع الصغيرة. وصل قاربان فقط إلى الشاطئ وقفز الجنود مذهولين من على السفن التى لم تكن لترسو حيث كانت تحمل أكثر من ٧٠ رطلاً من الأطقم والخوذ، وكان الرجال يناضلون على عمق نحو أربعة أقدام من المياه ليبحروا فى اتجاه السلك الشائك والحفر ليستقروا على الشاطئ. حتى إذا ما ملأ الرمل المبلل بنادقهم، لم يبق لهم سلاح سوى الحراب. قتل وجرح أكثر من ٥٠٠ جندى وكان من بين القتلى نحو ٦٣ من رجال البحرية من إجمالى عددهم البالغ نحو ٨٠ جنديًا. وأما الذين كانوا يرقبون الشاطئ بالمناظير فتساءلوا لماذا ينام هؤلاء؟".

كانت الخطة على الشاطئ فى النقطة "فى" تقضى عمل ما يسمى بحصان طروادة باستخدام السفن على الشاطئ والدخول بها فى شكل هلالى بين حصنى تركيا والقلعة المقاتلة، ثم إنزال القوات من السفن عبر فتحات مربعة إلى الجوانب اليمنى واليسرى لصنادل (مراكب تفريغ) تعمل بقوة البخار باستخدام ممرات خشبية وعوامات. كانت ناقلة الفحم إس إس ريفر كلايد تزن نحو ٤٠٠٠ طن، وكانت مموهة باستخدام زركشة من الألوان الرملية الصفراء والسوداء، كما كانت تحمل فرقة جنود تلقب بالبقرة الداكنة. كانت ناقلة الفحم ريفر كلايد تحمل ٢٠٠٠ من الجنود واثنى عشر مدفعًا آليًا مخبأة خلف أكياس من الرمل، وكانت ترافقها مراكب مكشوفة يملؤها "جنود ذوى قبعات زرقاء" من طليعة الفرقة الملكية من حملة البنادق فى دبلن وتسحب خلفها زوارق بخارية. ومن فوق قمة سيدولباهر أطلق جماعة من الجنود الأتراك نيران البنادق والمدافع الآلية إضافة إلى قذائف الشظايا والمدافع السريعة، ما أدى إلى حدوث مذبحة بين جنود دبلن وكذا بين رفاقهم من الدفعة الثانية من مقاتلى هامبشير وطليعة الجنود الملكيين ثقيلى التسليح الذين هرولوا إلى القفز من ناقلة الفحم ريفر كلايد وكانوا يتساقطون فوق بعضهم وهم يفرون إلى الزوارق البحرية الخفيفة. وعندما انزلقت عوامات الشاطئ بعيدًا، قفز الجنود فى المياه وغرقوا وقامت الأطقم المصاحبة لهم بسحبهم. وذكر الملاح الجوى سامسون الذى كان يحلق عاليًا أن نحو خمسين ياردة من مياه البحر "تلونت بشكل كامل بلون الدم".

أما من بقى من الجنود على متن الناقلة ريفر كلايد، فقد سقطوا فريسة للكوابيس، ثم عثروا فى النهاية على الطعام والشراب الذى لم يحصل عليه المئات المحاصرون على الشاطئ. ثم غامرت سفن البحرية الملكية الكبيرة بالاقتراب من سيدولباهر لقصفها، وحاولت القوارب الصغيرة جمع الجرحى بعد الظهيرة وفى المساء، وبعد حلول الظلام، تطوع أحد ضباط الأركان الذين كانوا على متن إحدى السفن بالذهاب إلى الشاطئ ليقيم الموقف.

كان المقدم ريتشارد "نيل" داوتى ويلى البالغ من العمر ٤٦ عامًا ابن أخ المستكشف العربى تشارلز داوتى متزوجًا من جيرترود بل. قضى داوتى ويلى عشرين عامًا كجندى محترف فى آسيا وإفريقيا قبل أن تضطره جراحه إلى العمل "قنصل عسكرى" فى تركيا والحبشة، فالجنود القدامى لا يستسلمون أبدًا. وفى عام ١٩٠٩؛ وقبل حدوث عداوة خلال الحرب العالمية الأولى ضد تركيا استخدم داوتى ويلى القوات التركية النظامية لمنع حدوث مذبحة ضد الأرمن فى أدما. وكان داوتى ويلى يتحدث اللغة التركية وجاءت معرفته بشئون الإمبراطورية العثمانية من خلال قائد عسكرى مصرى؛ ما جعله يعهد بقيادة قوات الحملة البريطانية المرابطة بالبحر المتوسط إلى طاقم السير إيان هاملتون.

وجد داوتى ويلى جنودًا على قيد الحياة يختبئون تحت ركام الشاطئ أسفل منطقة سيدولباهر، وفى الصباح قام بحشد الضباط الذين كان معهم، وبعد جمع بقايا الكتائب الثلاث التى تضمنت مقاتلى هامبشير ودبلن ومونستر، حثهم على الهجوم على الحصن التركى المتواجد يسارًا والقرية المتهدمة، ثم عاد داوتى ويلى ليرتب لقصف ما تبقى من الحصون التركية الضخمة المتبقية على التل ١٤١ المطل على الشاطئ عن طريق المدافع الثقيلة. وعندما أنهت البحرية قصفها فى الساعة الثانية بعد الظهر، قاد بنفسه هجومًا لكتيبة المشاة على الحصن الأخير، وهناك فقد لفافة ساقه ولم يكن يحمل سوى عكاز، لأنه لم يرد أن يشهر السلاح فى وجه أصدقائه القدامى من الأتراك. وقد دفن فى المكان الذى سقط فيه، فى قمة أحد التلال؛ ما اعتبر علامة فارقة فى

تحقيق النصر عندما أصابت وجهه رصاصة قناص لترديه قتيلاً على الفور. وتنتهى سيرة حياته فى "السجل الوطنى بقاموس أكسفورد" (Oxford Dictionary of National Biography) بالقول: "لقد مُنح داوتى ويلى بعد موته صليب الملكة فيكتوريا، وكان أعلى الضباط الذين فازوا بالجائزة فى حملة جاليبولى".

لقد كان ربيعًا قاسيًا على شبه الجزيرة، فقد قتل عددًا كبيرًا من الجنود فى الشهر الأول يفوق عدد من قتلوا فى الأعوام الثلاثة الأولى من حرب البوير كما قال جون بوشان، ولذلك اتفق البريطانيون والأتراك على هدنة مدتها يوم واحد فى ٢٤ مايو لدفن موتاهم. وكان أوبرى هربرت من بين المجموعات "التى أبيدت بشكل جماعى، فالجميع لقوا حتفهم بنيران المدافع". فكانت رائحة الموتى من الرجال والبغال كريهة للغاية خصوصًا عند سطوع الشمس، الأمر الذى جعل الجنود يتقيئون. وهنا صعد ضابط الأركان كومتون ماكنزى إلى متراس سارية السفينة كوين فى ذلك اليوم: "عندما نظرت إلى الأسفل رأيت هلاكًا كبيرًا بالأرض على الجانب الآخر من السفينة، كانت الأجساد قد تعفنت، وتلونت رءوس الجنود الأتراك باللونين الأخضر والأسود". كانت رائحة الموتى وتحلل الأجسام أمرًا ملموسًا، وكان الندى يشبه أجنحة الخفافيش، وصرح ماكنزى بأنهم كانوا يغطون أنوفهم لمدة أسبوعين لا يستطيعون كشفها سوى لساعتين فقط، وعندما كان يأتى الليل، تحمل الرياح المقبلة من جهة الشاطئ رائحة العفن إلى السفن الراسية بالبحر.

صار التمويه من الآن ضرورة حتمية، فمنذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامهم شبه الجزيرة، أصبح جنود الحلفاء فى مرمى نيران بنادق الأتراك. كانوا يبحثون عن مأوى أو يحفرون لأنفسهم مأوى باستخدام أدوات حفر الخنادق، ولأنهم لم يقوموا بأى تمويه أو إخفاء، فقد وضعهم ذلك فى مأزق مواجهة خصومهم. يقول الأسترالى ألبرت فيسى فى سيرة حياته الرائعة "حياة سعيدة" – (A Fortunate Life) وهو يتذكر حياته على شبه الجزيرة فيقول: "لقد كانت أسوأ أربعة أشهر فى حياتى كلها"، فقد وجد نفسه مع مجموعة أخرى من فرقتى أنزاك يزحفون فى مجموعات صغيرة، كما وجد نفسه بين ضباط الصف الذين كانوا يعدون الخطط لأن جل الضباط قد أصيبوا:

"فقدنا العديد من جنودنا على يد القناصة ووجدنا أن بعضهم قد أطلقت عليه النار من الخلف، وكان الأمر مربكًا للعديد منا، فتراجعنا للتحقق من الأمر، فوجدنا أنه من الحكمة أن نعلم الخدع التى يستخدمها الأتراك. كانوا يجلسون ويقفون بين الأشجار كثيفة الخضرة مرتدين زيًا أخضر بالكامل. كما كانت أيديهم ووجوههم وأحذيتهم وبنادقهم وحرابهم ملونة باللون الأخضر وهو نفس لون الأشجار والأغصان. وكان من الممكن أن تسير بالقرب منهم دون أن تعرفهم. وأخيرًا وجدنا طريقة لاستفزاز أولئك القناصة؛ قمنا بإطلاق العديد من الأعيرة النارية على كل مجموعة من مجموعات الأشجار؛ وهو ما أدى إلى وقوع أحدهم فى الأسر، وعندما فعلنا ذلك مرات عديدة قفز القناصة الأتراك واستسلموا أو سقطوا قتلى".

فى كتاب "تفسير الحرب" – (War Illustrated)؛ توجد صورة فوتوغرافية لقناص تركى بين صور حرب ٢١ أغسطس ١٩١٥ ويظهر فيها واقفًا بين اثنين من الجنود الأستراليين واللذين كانا يرتديان سروالين قصيرين، وعلى كتف كل منهما بندقيته الخاصة. لم تظهر من ذلك القناص سوى رأسه الصلعاء تكسوها أوراق الشجر التى كانت تخفى جسده، ويقول الضابط:

"إن الأتراك مخادعون كعامة الشرقيين يسارعون فى تنفيذ أفكار أسيادهم المعاصرين". لقد راج القنص الذى كان سمة الحرب العالمية الأولى فى أوروبا، رواجًا إلى حد كبير فى مضيق الدردنيل، حيث يبدو أن القناص التركى الأسير كان لديه تنكر قوى، لكن ليس بالدرجة الكافية التى تجعله يستطيع الهروب من خصومه المتيقظين.

قال أوبرى هربرت معلقًا:

"تكمن أولى الدلائل المقنعة للخدعة التى تعرضنا لها، فى قصة الفتاة التركية التى لونت وجهها باللون الأخضر من أجل أن تبدو كالشجرة التى عليها، وقامت بإطلاق النار على العديد من الجنود اليونانيين من بين أغصان إحدى أشجار البلوط...".

يعد "المكر" و"الخديعة" اسمين من أسماء التمويه إضافة إلى التضليل، حيث استخدمه العدو ولم نستخدمه نحن. قام صيادو حيوان الكنجارو فى المناطق الأسترالية النائية وصيادو الأيائل فى جبال نيوزيلندا بتطويع أشكال جديدة للقنص. كان بيلى سينج – وهو من مجموعة لايت هورس الخامسة – أشهر قناص أسترالى. لقد كان زنجيًا يشبه الهنود وله شارب سميك ولحية تشبه ذقن الماعز، وتخصص فى القنص السريع على يد قادته، كما سجل رقمًا قياسيًا فى القنص؛ حيث استطاع قتل تسعة جنود فى يوم واحد، وعندما كان الجنود يعانون نقصًا فى القنابل اليدوية؛ كانوا يقومون بتصنيع قنابلهم اليدوية الخاصة من الديناميت ويضعونها فى علب المربى المصنوعة من القصدير وإضافة قطع الحديد القديمة وبعض قصاصات السلك الشائك. وكانت المسافة بين خنادقهم وخنادق القوات المعادية تصل فى بعض الأحيان مسافة ما بين لاعبى فريقى الكريكيت.

لكن هؤلاء الجنود الذين كان يحارب بعضهم بعضًا بكل ما أوتوا؛ لم يكونوا يكرهون عدوهم، فكانوا يتقاسمون الابتسامة فى وجوه بعضهم بعض ويبدون شجاعتهم على الرغم من الظروف السيئة. وقد قارن ألان مورهيد ذلك بتلك الصداقة القوية الكائنة بين الفقراء المعدمين. كان كبار الضباط من أمثال هنرى بارنز ينظر للجندى التركى "عبدول" أو "جونى تركى" أو "جاكو" كما كان رجال فرقة يصفونه بقولهم:

"لم أره أبدًا يسخر من أى جندى، فقد كان محاربًا شريفًا ومن أكثر الرجال شجاعة فى العالم؛ فعندما قدم إلى هناك لم يتخف بين الأشجار، بل واجه نيران البنادق الكثيفة التى لا يمكن إيقافها بكل جسارة، ولكن المفارقة أننا عندما قابلناه وقت الهدنة فى ٢٤ مايو؛ تأكد لنا أنه بالفعل شخص صالح، وقضينا معه الكثير من الوقت".

غنى لاركز فوق التلال الزرقاء التى تغطيها نبات الخشخاش القرمزى والتى كانت نقطة انطلاق لإيه بى هربرت، الذى غدا شخصًا معروفًا بالفكاهة، وعمل بالمحاماة وكان عضوًا فى البرلمان. وعندما اعتقلت إحدى الدوريات لاركز ذات ليلة فى منطقة غير مأهولة، قام باستنفار أحد القناصة الأتراك الذى أطلق النار على رفيقه المستطلع

هربرت فى منطقة الشريان الفخذى، فاضطر هربرت إلى حمل الرجل الذى شارف على الهلاك إلى خندقه، وحيث سجلت فى رواية "المعركة السرية" – (The Secret Battle) (١٩١٩) التى وصفها ونستون تشرشل: "بأنها رواية من أكثر الروايات التى ظهرت خلال الحرب إثارة للمشاعر... تتناول حياة جندى كان مرابطًا فوق إحدى الصخور".

عرض هربرت فى روايته تباين الظروف والأحوال فى مسرحين من مسارح العمليات اللذين خدم فيهما، حيث خدم فى فرنسا وشبه الجزيرة. لم يرجع أى شخص إلى الوطن فى عطلة قادمًا من جاليبولى، كانوا ينامون على نقالات وبطانيات رقيقة. كان بعض القطاعات الفرنسية تبدو كأن الهدوء مخيم على خطوط القتال، ولكن القتال الحقيقى كان يدور فى شبه الجزيرة بين فرق المشاة "من فجر إلى آخر":

"فى تلك الخنادق الواقعة على تلال جاليبولى، كان القتال الدائر بين الأتراك ومن سماهم الأتراك بالكفار مستمرًا طوال اليوم بالبنادق والقنابل ثم يزحفون ويطعن بعضهم بعضًا فى ظلمة الليل... كان الجندى التركى مرابطًا بشكل دائم فوق قمم المرتفعات وكان يعرف كل شبر فى تلك الوديان وحقول العنب والمنحدرات والطرق الوعرة، كما كان يتمتع بدقة خارقة فى إصابة الهدف. وأظهر العديد من الجنود الأتراك القوة دائمًا... وكانوا راضين عما يقال لهم من أكاذيب ومستعدين لصراع الكفار حتى الموت. لقد كانوا رجالاً شجعانًا، لكن العمليات التى قام بها القناصة الأتراك لم تقتصر على هؤلاء الرجال المعتوهين الذين تنكروا فى شكل الأشجار فى وضح النهار، وعرفوا الصورة الورقية، بل كان كل خندق من خنادقهم مليئًا بالقناصة على الرغم من عدم بلوغهم درجة منافسيهم فى الاستعداد. كانوا يزحفون ليلاً بطريقة تشبه الأشباح، ويقتربون من خطوط القتال الخاصة بنا ويقومون بقتل حراسنا وتدمير حواجزنا.

وخلال حملة جاليبولى المروعة، ازداد اشمئزاز هربرت من ونستون تشرشل، وفى أثناء فترة الانتظار لغزو أبريل الذى كتب عنه تشرشل فى مذكراته: "كان الجميع يستشيط غضبًا عند سماع اسم ونستون تشرشل.. فإذا كان الأباطرة الرومان

يقتلون العبيد ليجعلوا من أنفسهم محبوبين، فقتل تشرشل الأحرار ليجعل من نفسه شخصًا مشهورًا".

وعلى مسافة ثلاثة آلاف ميل فى لندن، أدت الاستقالة المثيرة للجدال التى تقدم بها العميد البحرى الطاعن فى السن جاك فيشر إلى حدوث أزمة سياسية. فقد اضطر رئيس الوزراء الليبرالى هربرت أسكويث - الذى ذكرت الأخبار أن عشيقته كانت متزوجة من عضو آخر فى حكومته - إلى تشكيل حكومة ائتلافية مع خصومهم من حزب المحافظين المعارض بزعامة أعضاء حزب بونار لو، وهو ما وصفه كومتون ماكنزى "بذى السياسة العقيمة التى تتميز بالجشع والمحسوبية". وطلب الأعضاء المحافظون انضمام شخصين مقابل الدخول فى الائتلاف، هما اللورد هالدين وونستون تشرشل.

وفى ٢٦ مايو ١٩١٥؛ استبعد تشرشل من القيادة البحرية على الرغم من احتفاظه بمقعد بمجلس الوزراء وعضوية لجنة الدردنيل. كان هذا بمثابة صدمة مروعة لتشرشل. وكما ذكرت فايلوت بونهام كارتر أن ذلك كان "أكثر الجروح التى عانى منها تشرشل فى كامل حياته المهنية عمقًا وإيلامًا"، أخبرت كليمنتين زوجة تشرشل السيدة مارتن جلبرت التى كتبت سيرة تشرشل الذاتية: "ظننت أن زوجى سيموت حزنًا". جلست السيدة مارى فيسى زوجة أوبرى هربرت يومًا إلى جانب ونستون تشرشل وهى تتناول العشاء فى داوننج ستريت، وكان هذا فى يونيو ١٩١٥، وقالت:

"كان فى حالة فضول ويشعر بالمرارة رغم تظاهره بالتماسك. وبدا كل من تشرشل وكليمى فى حالة انكسار كبيرة، وليس هكذا تنتهى مسيرته بهذه الطريقة".

وقال أوبرى هربرت من شبه الجزيرة وهو فى حالة غضب شديدة: "لأن يعذب ونستون ويموت من شدة التعذيب كآخرين خير له من أن يخسر منصبه كرئيس للوزراء".

ثم قام المحافظون فى الحكومة الائتلافية بمنع تشرشل من السفر شخصيًا لتنشيط الحركة فى جاليبولى خلال شهر يوليو. ولم يكن بمقدور ونستون فعل أى شىء، فقد خرج الأمر من يده، ولكن التراجع منحه شيئًا ملموسًا يشغل به وقته، فبدأ يرسم.

"مثلى مثل وحش البحر الذى يخرج من العمق، أو أحد الغواصين الذى يصعد فجأة؛ لأن عروقه كادت تنفجر بسبب الضغط الذى تعرض له.... كان على أن أراقب ذلك الرجل المنبوذ الذى كان يشعر بعدم السعادة جراء ما فاته من فرص وبسبب التنفيذ غير الفعال للخطط التى طرحتها وكنت مؤمنًا بها أشد الإيمان... ثم جاء وقت الرسم لينقذنى من ذلك الخطر...".

بدأ تشرشل الرسم باستخدام علبة الألوان الخاصة بأطفاله فى أحد أيام الأحد من شهر يوليو ١٩١٥، وفى اليوم التالى تحصل تشرشل على حامل وقماش وألوان زيتية ولوحة وفرش ومعطف أبيض فضفاض. بالنسبة إلى تشرشل، كان الرسم أشبه بخليط من القتال ونوع من أنواع السحر - ولكن "دون وجود مصير محتوم" للتخلص من دوامة العنف. تقول ابنته مارى سومايس: "عندما كان يمسك فرشاة الرسم، كان يشعر وكأنه يمسك بعصا الساحر".

عندما عاد إلى بحر إيجيه فى أغسطس ١٩١٥، صعد رسام آخر يسمى نورمان ويلكنسون إلى سارية السفينة ليراقب من مسافة آمنة إنزال الفيالق البريطانية التاسعة التى تدافع عن سلاف باى فى آخر هجوم كبير فى حملة الدردنيل. حيث سماه "البث السينمائى المباشر للمعركة":

كانت المناظير ضرورية حتى أتمكن من تمييز اللون الكاكى الفاتح لجنودنا فى خلفية الشجيرات والرمال. كانت القوات تسير فى تشكيل مفتوح نحو البحيرة المالحة.... ثم عبرت سطحها الذى بدا كالفضة المتلألئة. كانت شظايا القذائف تنفجر دون توقف، تاركة أشكالاً صغيرة مجعدة على الأرض؛ حيث كانت واحدة أو أكثر منها تتدحرج نحو الشاطئ ببطء بينما يظل الباقى ثابتًا فى المكان الذى سقط فيه.

تعتبر رواية جاليبولى للكاتب آلان مورهيد إحدى تحف السرد التاريخى، حيث تشتمل على رسومات نورمان ويلكنسون التى صور فيها الجنود وهم يعبرون البحيرة المالحة، وبعد ذلك بأربعين عامًا كتب مورهيد عن قاعدة تم الكشف عنها فى حملة جاليبولى:

"نجح كل شيء تم تنفيذه خلسة وبترو، بينما فشل كل شيء تم القيام به عن طريق وسائل الهجوم الأمامية المتهورة".

كان ذلك صحيحًا بالنسبة إلى إنزال فرق الجيش المهاجمة فى اليونان فى أبريل ١٩١٥، كما قام البريطانيون فى ١٢ مايو بتنفيذ أسلوب جورخا بلوف. كذلك نفذت مبادرة الخداع التى قام بها كومتون ماكنزى بشكل صحيح فى لشبونة فى شهر يوليو، حيث تم إرسال الكاتب وهو يرتدى الزى الخاص بأفراد البحرية الملكية من مقر القيادة العامة إلى ميتلين فى جزيرة لشبونة. وكانت الأوامر الصادرة له تتمثل فى إعداد خطط لتأسيس قاعدة عسكرية "سرية" استعداداً لهجوم وشيك كبير من قبل الحلفاء على سميرنا فى عقر الأراضى التركية. لم يكن هناك تخطيط لمثل هذا الهجوم؛ لذا يعد ذلك الأمر كله تحولاً. لكن ماكنزى أخبر العديد من الأشخاص، مثل القنصل البريطانى ومراسل جريدة التايمز والحاكم المدنى، عن هذه الخطط وقدم الكثير من صغار رجال الأعمال اليونانيين رشاوى بالدراخمة (العملة اليونانية) على أمل الفوز بتعاقدات فى المستقبل مع القوات المسلحة، إلا أن ماكنزى رفض ذلك بطريقة تنم عن دماثة خلق لكنها كانت غير مقنعة. وتم التخطيط لعملية الخداع التى استمرت لثلاثة أسابيع قبل أن تنفذ من قبل أحد ضباط الأركان ويدعى جاى دونى وكانت فعالة ولها أهمية كبيرة من الناحية التاريخية.

راجت الشائعات من مصادر متعددة فى القيادة العامة العثمانية، التى تدعمها القوات الألمانية، عن التحركات التى تقوم بها القوات البريطانية والتى كشفت عن معلومات استخباراتية تحذر من هجوم وشيك على سميرنا. عززت القوات المعادية استعداداتها وتحصنت فى أماكن خاطئة، ولذا لم يكن بمقدور زوارق أليو وقف الغزاة عندما وصلت فى نهاية المطاف إلى سلاف باى فى شهر أغسطس، وفى الوقت نفسه، هبط ٢٥٠٠٠ جندى سرًا، فى جنح الليل، إلى خليج أنزاك ثم احتشدوا فى خنادق مجهزة. وقام العديد من عمال حفر الأنفاق الأستراليين، الذين عمل أغلبهم فى السابق كعمال لحفر مناجم الذهب، بحفر خنادق عميقة وضيقة باتجاه خطوط الأتراك من أجل

إحداث هجوم سريع ومفاجئ على نحو واضح فى ٦ أغسطس، وكانت هناك آمال كبيرة من أجل إحداث ثغرة مناظرة.

وبشكل مأساوى كانت عمليات الإنزال والهجمات التى تتم فى سلاف قد أجهدت؛ لأن مجموعة القادة لم ينفذوا ما كان يفترض أن يتم تنفيذه. وفى سلاف ظن الجنرال الطاعن ستوبفورد أن وظيفته تتمثل فقط فى إعداد معسكر بجوار الخليج ثم انتظار شحنة مدافع الهوتزر التى سيتم إمداد قواته بها. وقد أحدثت خطة، يشوبها اليأس، بفرقتى أنزاك إصابات مروعة شملت مجموعة من أمهر الجنود، وذلك لأن السواد الأعظم من القوات الإنجليزية الذين كان مطلوبًا منهم تمشيط المنطقة حول سلاف ومساعدة الأستراليين والنيوزيلنديين فى احتلال المرتفعات، وكانوا لا يزالون يستحمون على الشاطئ.

كانت خيبة الأمل كبيرة، حيث قتل وجرح نحو ٤٠ ألف جندى فى شبه الجزيرة فى شهر أغسطس لمجرد احتلال عدة أميال مربعة، ثم جاء شهر سبتمبر وعانى الجنود من الدوسنتاريا والإسهال؛ فكانوا يترددون بين الحمامات، وفى الوقت ذاته؛ كان مشروع مضيق الدردنيل يختنق ببطء، لكن الأقدام ظلت راسخة. وفى شهر أكتوبر، اقترح تشرشل استخدام الغاز السام ضد الجنود الأتراك، وأراد روجر كيز الدخول بالسفن فى مضايق شاناك، وفى نوفمبر أقر كتشنر الهجوم على بولير كما كانت هناك مخططات وحشية أخرى.

كان سكان الجزر الواقعة فى بحر إيجيه لا يزالون مستمتعين بالنظر إلى ما يدور فى فصل الخريف. شكلت رسومات نورمان ويلكنسون فى جاليبولى التى استخدم فيها الألوان المائية ما يقرب من ٣٠ صفحة فى كتابه المسمى الدردنيل ١٩١٥، والتى توضح ذلك البحر ذى المنظر الخلاب وتلك المناظر الطبيعية مع عدم وجود أى رعب يعكر الصفو، وبجوار الخيمات البيضاء كانت توجد محطة لتضميد الجروح أُقيمت على رمال شاطئ سلاف البيضاء التى ترى منها الرايات مرفوعة فوق القضبان للحصول على الظل الذى يساعد فى الخداع، وليس تلك الضمادات الملطخة بالدماء، كما يمكنك أن

تدرك وجود مغامرة إنسانية عظيمة يقوم بها الأقزام فى مساحات شاسعة فى البحر والسماء والأراضى التى استعصت عليهم. فهناك مشاهد لأسراب طويلة من المناطيد والغواصات والطائرات المائية التى حولت إيكوانتانيا إلى مستشفى عائم كبير الحجم. ويشبه السكون المخيم على المكان والعمق الموجود فى اللوحات ذلك الخمول الذى يشعر به المرء فى فترة القيلولة أثناء قضائه العطلة.

فجأة أبحر الأسطول بشكل كامل، واختفى الجميع على صوت المفرقعات، وفى طروادة كان رحيل أسطول اليونانيين مقدمة لخطة خداعية؛ حيث تركوا حصان طروادة وراءهم على الشاطئ، مع وجود وحدة من القوات الخاصة التى تختبئ بالداخل. وبالمقابل، كان الإبحار بعيداً عن جاليبولى يمثل ذروة الخداع؛ حيث تركوا الخنادق الفارغة على التلال والذبائح المحترقة على الشاطئ للأتراك.

كانت عملية إخلاء جاليبولى أفضل شىء بالحملة؛ فقد سماها إيه جى بى تايلور "النهاية الناجحة لمغامرة حزينة" كما قال العميد جون موناش المهندس اليهودى، الذى حارب فى شبه الجزيرة وغدا أعظم جنرال أسترالى فى الحرب العالمية الأولى: "كانت أروع خطة قمت بإعداد تصور وتنظيم لها وقمت بتنفيذها، وأنا على يقين من ذلك، وستصبح أكبر مزحة فى التاريخ العسكرى بأسره..".

فى ١١ أكتوبر ١٩١٥؛ طلب كتشنر من هاملتون تقدير حجم الخسائر المتوقعة فى حالة سحب الجيش، وهنا كانت الإجابة القاسية "٥٠٪"، وبناء عليه تم استبعاد السير إيان هاملتون فى ١٦ أكتوبر من رتبته وخلفه السير تشارلز مونرو الذى زار سلاف وأنزاك وهيللز فى يوم واحد، ثم أوصى فى اليوم الثانى الموافق ٣١ أكتوبر بإخلاء شبه الجزيرة، وهنا قال تشرشل: "لقد أتى وعاين ثم أذعن للأمر". (أطلق معظم المعلقين على ذلك بالنكتة المنحازة). زار اللورد كتشنر الميدان بنفسه، حيث كان مهتمًا بمواصلة العمل، ولكنه أرسل برقية إلى أسكويث بعد رؤيته للتدريبات القاسية فى الميدان يقول فيها: "الحال فى هذه البلاد أصعب كثيراً مما تخيلت".

وفى لندن ألقى المهندس الذى قام بتنفيذ مشروع مضيق الدردنيل كلمة الوداع الأخيرة أمام مجلس العموم أعلن فيها استقالته من الحكومة الائتلافية بزعامة أسكويث. كان ونستون تشرشل فى طريقه للالتحاق بالفوج المسافر إلى فرنسا؛ إذ كان برتبة رائد، وكان كتشنر الوحيد من زملاء تشرشل الذى زاره رسميًا عندما ترك القيادة البحرية، وكان هذا صنيعًا طيبًا لم ينسه تشرشل الذى كان شابًا فى ذلك الوقت؛ لكن حياة كتشنر انتهت بشىء من التناقضات، فوجهه الذى يعبر عن الرجولة بشاربه الكثيف الذى يضفى عليه جمالاً يشبه جمال الأوانى والأثاث الصينى الجميل، وكلامه الحاسم يغلفه شىء من المزاج المتقلب، لم يستطع ببساطة تحديد ما يمكن القيام به فى جاليبولى. يتحسس كتشنر جبينه نتيجة الشعور بالبرد تارة ونتيجة الشعور بالحرارة تارة أخرى؛ ثم أخذ يداعب الحضور بالأفكار وهو يحاول توضيح بعض الرموز. وهنا لاحظ لويد جورج أن كتشنر يخفى قيوده تحت عباءة من الغموض والسرية.

ذكر جون بوشان أن كتشنر لم يكن يتمتع بقوة الإدارة؛ حيث كان مبهمًا قليل الكلام، لكنهم كانوا يرتبطون معه بصداقة حميمة لكونه جنديًا عظيمًا. تركت مارجوت زوجها هربرت أسكويث لأنه "محتال كبير"، وقد كان رئيس الوزراء يخطط للتخلص منه، كما تمت ترقية السير ويليام روبرتسون ليسكن فى قصر فى سى إى جى إس الذى كان يمتلكه كتشنر.

حل شتاء قوى وقاس على جاليبولى فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٥، وتسبب سقوط الأمطار الغزيرة المتواصلة على مدار ٢٤ ساعة فى حدوث فيضانات فى سلاف، وغمرت الوديان والخنادق والمخابئ بالماء، وغرق ما يزيد على ٢٠٠ جندى، وتسببت عاصفة مقبلة من الجنوب الغربى فى تدمير الأرصفة وإحداث ضرر بالشواطئ؛ ثم انحرف اتجاه الرياح شمالاً وحدث انخفاض فى درجات الحرارة على مدار يومين؛ ما جعل الآلاف من فرقتى أنزاك يعيشون تجربة أول عاصفة جليدية لهم على الإطلاق وتعرضوا لبرد الثلج القارص والصقيع والغرغرينا. لقى بعض الحراس الملكيين مصرعهم وعُثر على

جثثهم فى حالة تجمد عند الحواجز التى قاموا بنصبها. وكان الجنود يتمسكون بأهداب بعض البطاطين ويحاولون إشعال نيران صغيرة للتدفئة لمقاومة ما يجدونه من برودة ورعدة، بينما يقوم بعض الرماة من الأعداء بكسح هذه الثلوج فى الخلاء.

فى ٧ ديسمبر؛ قررت الحكومة البريطانية الجلاء من سلاف وأنزاك والتحصن فى هيللز على حافة شبه الجزيرة، لكن ساورهم القلق من ضياع هيبتهم أمام جيوش العالم الإسلامى الذين وقفوا الند بالند أمام التفوق العسكرى. وفى اليوم التالى أمر مونرو الجنرال بيردوود بتنفيذ الخطط التى وضعها بعناية كل من العقيد أسبينال أوجلاندر والمقدم برودنيل وايت، وبعد إصابات بلغت نحو ربع مليون جندى خلال ثمانية أشهر حان وقت اتخاذ القرار.

كانت السرية التامة أمرًا ضروريًا فى تلك الفترة، فربما يتسبب أى حديث غير مدروس فى فقد آلاف الأرواح، وفى اجتماع مجلس الوزراء فى لندن بتاريخ ٢٤ نوفمبر؛ أوضح اللورد كرزون الذى بدت عليه علامات الخوف خطورة الانسحاب؛ حيث يمكن أن يتعرض الجنود لقصف بالمدافع مما تكون له نتائج سياسية سيئة، لكن كان لمناقشة كل من اللورد ميلنر واللورد رابلز ديل فكرة "الجلاء من شبه الجزيرة" بشكل علنى فى مجلس اللوردات فى شهرى أكتوبر ونوفمبر أثر فى تضليل الأتراك والألمان، لكنهم لم يستطيعوا الثقة فى تلك الحماقة واللا مبالاة التى تعترى هؤلاء الأشخاص الأذكياء فى تصرفاتهم، لذا افترضوا أن تكون المناقشة مجرد دعاية فقط.

وفى الأيام التى سبقت أعياد الميلاد عام ١٩١٥، بدت الحياة وكأنها عادت إلى حالتها الطبيعية فمع بزوغ ضوء النهار فى كل من سلاف وأنزاك نزل جنود أقوياء من السفن وتوجهوا إلى خط القتال صفًا واحدًا وهم يركبون بغالهم، إنهم القناصة. فى الحقيقة، كانت الفرق نفسها من الجنود تنزل كل يوم وكانت الصناديق والمخالى التى يحملونها فارغة. ووفقًا للخطة، كان آلاف الجنود ينزلون فى كل ليلة إلى الشاطئ ويتخذون طريقهم إلى القوارب، مع مراعاة تقدم المرضى والمصابين للصفوف، ثم بعد ذلك الجنود المحاربين وأخيرًا دفعات المشاة. كانت هناك منافسة ضارية حول آخر

جندى يغادر الميدان، كما فاز الجنود الذين كانوا ضمن فريق الإنزال الأولى فى ٢٥ أبريل بشرف المخاطرة. وبعد أن تم إخلاء الخنادق، ظل جنود الصفوف الخلفية وراء المدافع المثبتة فى المتاريس. وكانوا مستعدين لإطلاق النيران من تلقاء أنفسهم باستخدام سلك أو حبل يوضع حول زند البندقية وفق آلية هيث روبنسون التى تقضى بوضع علب من الصفيح وتملأ بالمياه أو الرمال حتى الوصول إلى وزن مناسب يقلل الضغط الواقع على الإصبع المستخدم فى الضرب. وقرر عدد قليل من الأفراد زيارة قبور أصدقائهم للمرة الأخيرة وتنقلوا بين فتحات الرمى واضعين الشراك والألغام وسحبوا الأسلاك الشائكة عبر خنادق الاتصالات ثم تسللوا إلى الشاطئ متجهين نحو قواربهم يرتدون سترات قصيرة. كانت عملية الانسحاب محفوفة بالمخاطر، وكان التقدير المبدئى للخسائر يتراوح بين ٢٥٠٠٠ وأكثر من ٤٠٠٠٠، وفى ذات الوقت استطاع البريطانيون الانسحاب تدريجياً فى سرية تامة حتى الساعة ٤ من صباح يوم الاثنين ٢٠ ديسمبر ١٩١٥؛ رحل ٨٣٠٤٨ جنديًا من سلاف وأنزاك مع وجود عدد قليل من الجرحى الذين كان معظمهم ممن يتعاطون الكحول.

وبشكل لا يصدق، تكررت المعجزة فى هيللز بداية من يوم ٢٨ ديسمبر والانتهاء فى وقت مبكر من يوم ٩ يناير ١٩١٦ وبعد يومين من تصدى الحلفاء لهجوم تركى. ومن خلال السفينة الضخمة ريفر كلايد ووسائل النقل الأخرى تم سحب نحو ٣٥ ألفًا من الجنود و٤ آلاف من الحيوانات و١١٠ مدافع و١٠٠٠ طن من المؤن بحلول الساعة ٣.٤٥ صباحًا. وحاول البريطانيون تدمير كل شيء تركوه خلفهم؛ مثل مستلزمات البنادق وأكياس الرمال، كما سكبوا الشراب والدقيق والوقود الذى خلفوه وراءهم، وأطلق الجنود النيران على ما يزيد على ٥٠٠ بغل وحصان على الشاطئ (على الرغم من أن الجنود الذين غلبهم عطفهم تركوا الحمير مع أعلافهم للأتراك حتى يستطيعوا العثور عليهم)، وأخيراً فجروا شحنات ناسفة تحت أحد جبال المعدات الغارقة فى الزيت وكانت النتيجة حدوث تفجيرات بركانية لها ألسنة لهب تشبه نبات الفطر فى السماء فى تلك الليلة، وتناثر حطام القوارب التى انسحبت أو بدأت فى الانسحاب بسبب المفرقعات والقذائف التى كان جيش العدو يقوم بإطلاقها. وإذا كان الأتراك قد استطاعوا فى النهاية إطفاء

ألسنة اللهب، فقد استفادوا بشكل أكبر من المواد التى استغرق شحنها إلى أسطنبول نحو سنتين.

اعتبرت الاستخبارات الألمانية ذلك بمثابة ضربة موفقة وقاموا بترويج شائعة منطقية تقول: إن البريطانيين قد قدموا رشوة للأتراك ليسمحوا لهم بالإفلات. وكتب تشرشل إلى زوجته فى ٣١ يناير ١٩١٦؛ قائلاً: "ربما تسبب قلة المال فى إيقاف الأعمال، ووصف ذلك الحدث الذى يمثل ذكرى خالدة بأنه كان أقل خطورة مما توقعوه. أنكر هينرى نسفينسون، صاحب التفكير الرفيع: "تعتبر تلك الإهانة الخبيثة التى لحقت بذلك المشروع تشهيراً بالأعداء وبجنودنا على حد سواء، وليست بها مثقال ذرة من الحقيقة ولا دليل على وجود أى صفقة".

وفى عام ١٩١٦؛ عرض البريطانيون مليونى جنيه إسترلينى كرشوة أو مكافأة للأتراك العثمانيين لإطلاق سراح جنودهم المحاصرين فى العراق فى كوت العمارة، وهو أمر مشهور ومعروف. وفى غرفته رقم ٤٠ - من مقر الاستخبارات البحرية البريطانية فى الفترة ١٩١٤-١٩١٨؛ أخبر باتريك بيسلى بما سماه "القصة التى لا يمكن تصديقها"؛ حيث إنه فى أوائل عام ١٩١٥ فوض العميد ريجينالد هول وكيلين تاجرين فى تركيا لإنفاق نحو ٤ ملايين جنيه إسترلينى لمحاولة شراء ممر عبر الدردنيل من الشباب الأتراك، تلك الصفقة كان إتمامها يعنى عدم وجود حاجة إلى حملة جاليبولى على الإطلاق.

(٦)

أشجار الصفصاف الفولاذية

ذكر المؤرخ جيمس أى إدموندز فى كتابه "لمحة تاريخية مختصرة عن الحرب العالمية الأولى" – (A Short History of World War I)؛ أنه فى يونيو ١٩١٥ تم الاعتراف رسميًا بأساليب التمويه التى كانت تمارس بالفعل، وبحلول الأول من يناير ١٩١٦؛ تم تنظيم الخدمة الخاصة بإعداد عمليات التمويه. وفى هذا السياق، قام القائد السابق لسلاح المهندسين الملكيين بالجيش البريطانى فى فرنسا بكثير من أنشطة التمويه اشترك فيها الموظفون الحكوميون.

وصرح الجنرال روبرت بورتر، بالجيش الثانى المرابط فى فرنسا، بأنه تسلم فى أواخر عام ١٩١٥ من أحد ضباطه ملفًا به كمية كبيرة من الأوراق، ويحتوى على العديد من الرسومات والأوصاف التى توضح كيفية تمويه المدافع والبنادق والمخيمات لإخفائها عن أعين الأعداء. كان ذلك الملف من الرسام سولومون جوزيف سولومون الذى بدا عليه الضيق عند خروجه من مقر جريدة التايمز، حينما كان يجرى بعض التجارب فى منطقة وولتش، كما أرفق سولومون مع هذا الملف خطابًا يشتكى فيه من تردده على أبواب وزارة الحربية البريطانية لمدة ٦ أسابيع يحاول إجراء مقابلة مع أى شخص للتعريف بأهمية التمويه.

وبطريقة ما وصلت أوراق سولومون جوزيف سولومون إلى قائد الجيش الثانى الجنرال هربرت بلومر، ذلك الرجل الذى تحاكى شخصيته شخصية العقيد بليمب الكارتونية، سريع الغضب ذى الوجه الأحمر والشارب الأبيض والبطن الممتلئة،

لكن بلومر عرف أهمية ذلك الستار من خلال خبرته؛ حينما كان قائدًا للقوات غير النظامية في ماتابليلاند تحت قيادة بادين باول فى حرب البوير جنوب إفريقيا.

كان بلومر يملك حسًا عاليًا من الضمير جعله يحافظ على حياة جنوده، فرأى أن يدعو سولومون جوزيف سولومون إلى اجتماع فى فرنسا لتنفيذ فكرة التمويه. وفى أوائل ديسمبر رتبت وزارة الحربية البريطانية لسولومون جوزيف سولومون زيارة إلى الجبهة فى فرنسا لتحديد ما ينقص خبراء التمويه الفرنسيون هناك وإبداء الآراء حول ما إذا كان ينبغى على البريطانيين القيام بالشىء نفسه أم لا.

عبر سولومون القنال الإنجليزى إلى منطقة الحرب على متن سفينة حربية تعج بالجنود، وكان يرتدى صدرية منتفخة تحت معطفه المصنوع من الفرو؛ خشية أن تتعرض السفينة إلى قصف باستخدام الطوربيدات. ولاحظ سولومون بالقرب من الميناء وجود مجموعات من الطائرات الصغيرة المصنوعة من الفولاذ التى تستخدم فى الاستطلاع المائى لدعم سفن القوات ضد الغواصات الألمانية. وفى بولونى قابله ملازم من سلاح المهندسين الملكى، حيث قرر الجيش البريطانى وضع خبراء تمويه جدد جنبًا إلى جنب مع خبراء المتفجرات عند بناء المنشآت، ليتمكنوا من إخفائها فى الوقت ذاته. وفى سيرته "كيتشنر: الرجل صانع الأسطورة" – (Kithchener: The Man behind the Legend) أوضح فيليب وارنر أن المهندسين العسكريين هم من قاموا بعمليات التمويه والخداع، ليس فقط لأنهم كانوا يمتلكون المواد اللازمة لعمل هياكل وأهداف خداعية؛ ولكنهم أيضًا كانوا ينظرون إلى الطبيعة المحيطة بهم بمزيد من الوعى مقارنة بما يفعله الجنود.

كان الضابط الذى تم إرساله للقاء سولومون هو الملازم مالكولم وينجيت من السرية الميدانية رقم ٤٥٩ التابعة لسلاح المهندسين الملكى، وهو الابن الأصغر لحاكم السودان العام والسردار (القائد العام) للجيش المصرى سابقًا ريجينالد وينجيت. مضى مالكولم وينجيت فى طريقه رغبة فى الحصول على وسام الخدمة المميزة وصليب الحرب، حتى قتل فى عملية قرب أراس فى ٢١ مارس ١٩١٨، لكن سولومون كان يكثر من ذكر مآثر وينجيت. لم يكن سولومون معتادًا على الحياة العسكرية، وقد كان كثيرًا

ما يخطئ فى التمييز بين رتب الجنود، وهو ما اعتبره حماقة لا معنى لها. وعلى الرغم من ذلك، رافق وينجيت سولومون بلطف بالغ واصطحبه فى سيارته إلى مقر القيادة العامة فى سانت أومير لتناول العشاء مع القائد العام لسلاح المهندسين الجنرال فوك، وفى اليوم التالى توجها إلى المرسم الفرنسى الذى كانت تتم فيه عمليات التمويه فى إميان؛ حيث كان يعتبر مركزًا للابتكار والتجارب. كان الفنانون فى ذلك المكان يعملون من أجل التوصل إلى ألوان تناسب التنكر والتخفى وكان يقومون بصنع دمى تحاكى الواقع، فشملت هذه الدمى أشجارًا مدرعة تستخدم كأبراج للمراقبة، وقام سولومون بتصوير ذلك ببراعة مع العديد من الرسامين الفرنسيين، حيث كان بعضهم قد التحق بمدرسة الفنون الجميلة كما فعل هو من قبل، لكن سولومون كانت لديه فكرة خاطئة تتمثل فى عدم ضرورة وضع خبراء التمويه تحت القيادة العسكرية. وقد كانت هذه الفكرة هى السبب وراء الكثير من حالات الإحباط والفشل التى تعرض لها سولومون.

وصل سولومون بالقرب من مقر القيادة العامة فى سانت أومير، وتم اصطحابه لتناول العشاء فى قصر رئيس الأركان المشير جون فرنش. ولكن فرنش كان فى باريس يتناول العشاء مع ضيفه ونستون تشرشل فى تلك الليلة خارج المنزل، لذا لم يستطع سولومون أن يقابل أيًا منهما.

وبحلول ديسمبر عام ١٩١٥، جرى نقل صفائح القيادة البريطانية بالجبهة الغربية، ووصل سولومون إلى مقر فرنش فى أواخر هذا العام، ومكث هناك عقب المعركة المشئومة فى لوس نهاية سبتمبر، فلحقت به الهزيمة فى أكتوبر ونوفمبر بالجنرال دوجلاس هيج (الذى كان يخبر أصحاب النفوذ، ومن بينهم الملك جورج الخامس، بأن جون كان سببًا فى الهزيمة، فلم يؤد الدور المطلوب منه فى لوس).

كان الجنديان يعارض بعضهما الآخر، وصرح فيليب شيت وود بما يلى: "كان فرنش رجلاً يعشق الحياة والمرح والنساء، بينما كان هيج اسكتلنديًا عنيدًا، وكان من أكثر الرجال فتورًا فى الإحساس ما جعلنى لم أشعر بالسعادة عند لقائه". كانت هناك حالة من الاشمئزاز والبغض بين هيج وفرنش رغم أنهما كانا صديقين حميمين فى السابق".

مع ذلك بقى تشرشل مقربًا من فرنش، وبعد استقالته وصل فرنش، الوزير السابق في الحكومة، ومعه الرائد ونستون إل إس تشرشل إلى بولونى فى ١٨ نوفمبر؛ وقد أخبره الضابط المسئول عن عمليات الإنزال العسكرى بأن رئيس الأركان أرسل له سيارة من سيارات الهيئة. استخدم تشرشل السيارة للتواصل مع مالكى الأراضى وفرقة الفرسان الخاصة بالملكة قرب بولونى قبل أن يحل ضيفًا فى قصر فرنش. وعندما سأله فرنش عما يود فعله، أخبره تشرشل بأنه يود قضاء بعض الوقت بالجبهة الأمامية مع قوات الحرس، وانضم الابن المسرف مرة أخرى إلى الجيش، ولكنه كان يعرف أنه كان عليه أن يتغلب على الظروف الخاصة المتعلقة بحرب الخنادق؛ لأنه كان من ضباط الفيلق الخاص قبل توليه مسئوليات أخرى فى القيادة. وبعد يومين زار تشرشل كتيبة الحرس الثانية المسلحة بالقنابل بالقرب من مارفل، دون إبلاغ تلك الكتيبة بهذا والذين لم يسعدوا بوجود ذلك السياسى بينهم، على الرغم من أنه كان من سلالة دوق مارلبورو المولع بالقتال، والذى كان قائدا لهذا الفيلق ذات يوم.

استغرق وصول سولومون إلى خطوط الجبهة الأمامية ثلاث ساعات تحت هطول المطر، وامتطى الضباط خيولهم تحت رذاذ الجليد فى فترة ما بعد الظهيرة وكان هذا فى أواخر نوفمبر، وأضاءت ومضات المدافع الحمراء السهول المظلمة؛ حيث كان الخراب قد حل بالثكنات وتزايدت القذائف وأكياس القمامة وانتشرت فى الحقول أشجار متهتكة بلا أوراق إضافة إلى الأعشاب الضارة.

وبعد أن حل الظلام؛ نزل الجنود النظاميون عن خيولهم واستمروا فى السير على أقدامهم مسافة ميلين آخرين فوق أرض منزلقة حتى وصلوا إلى مقر قيادة الكتيبة فى مزرعة إبنيزر التى تبعد نحو ألف ياردة خلف خط الجبهة الأمامية، حيث يوجد صرح محطم من قطع الطوب المثبتة على جوالق الرمل، هنا بدأ تشرشل يتعلم أسلوب حرب الخنادق. وكتب إلى زوجته يقول:

"تنتشر القذارة والقمامة فى كل مكان، وتبنى القبور داخل التحصينات الدفاعية، وبطريقة غير منتظمة، كما لطخت الملابس والأحذية بالوحل والمياه إضافة إلى وجود

الروث فى كل جهة، وفى أثناء هذا الموقف بدأت أعداد كبيرة من القوات تزحف فى ضوء القمر ومعها بنادق ومدافع آلية وعلا الأنين وأزيز الطلقات فوق رءوسنا".

وفى الوقت نفسه تقريبًا، قابل سولومون جوزيف سولومون قائد الجيش الثانى الجنرال هربرت بلومر الذى أخرجه من فرنسا وذهب معه إلى مقر القيادة الكندية، حيث طلب الجنرال إتش اى بورستال قائد سلاح المدفعية الكندى والخبير فى عمليات التمويه والتخفى من سولومون أن يقدم تصورًا لنقاط المراقبة "OPs" أو "Oh Pips"، وأن يقدم تصورًا للتخفى فى شكل أشجار مثلما فعل الفرنسيون.

وبالقرب من التل ٣٦ بين غابة بلوجستريت وميسن جنوب إبرس، رسم سولومون شجرة فوق التل أثناء هطول الأمطار، وفى اليوم التالى وجد سولومون نفسه فى مقر قيادة الفرقة ٣٩ فى بريلين شمال غرب إبرس ومعه حقيبة نوم وقناع واقٍ من الغاز، حيث أخبر الجنرال بيرسيفال سولومون بأنه فى حاجة إلى أجهزة "Oh Pips" الخاصة بالمراقبين فى سلاح المدفعية، حتى يمكنه قصف الجبهات الألمانية بدقة أكبر. أدرك أفراد المدفعية أنه لو تم إحلال أشجار مقلدة ذات لب فولاذى محل بعض أشجار الصفصاف، فإن هذا الأمر يمكن أن يخدم أغراضهم.. فهل سيذهب سولومون لإلقاء نظرة على ذلك؟

لمعت أشعة الشمس فوق مياه قناة "يسر" باللون الأصفر، وكان قد أقيم على هذه القناة اثنا عشر جسرًا عائمًا. وعلى الضفة المقابلة، وبالقرب من الخطوط الألمانية، تراكمت كومة من الطين الأصفر اللزج بارتفاع اثنى عشر قدمًا وتم جمعها من خلال حفر طبقتين من المخابئ. وفى الخلف نمت أشجار الحور والبتولا الطويلة التى تسببت نيران قذائف المدفعية فى تكسير بعضها. شاهد سولومون قذيفة ألمانية تسقط على أحد المعالم المعروفة باسم "القصر الأبيض" ليغرق فى سحابة من الدخان الأسود، وهنا قام برسم المشهد على ورقة بنية.

عبروا أحد هذه الجسور الممتدة فوق القناة، وسمعوا فى ذات الوقت صوت ارتطام رصاصة طائشة بالخشب أو بالحديد قام بإطلاقها أحد القناصين الألمان.

وهنا لاحظ سولومون أن قطعة الخيش البالية المتدلية على أحد القضبان الحديدية المثبتة بالكوبرى تشبه المنشفة؛ وأن الأجزاء التى تحتها تبدو كساقى جندى، بينما تعذر تغطية الرأس والكتفين أعلى تلك القطعة. كان المقصود من وضع ذلك الحاجز، هو إعطاء الثقة للجنود، إلا أن سولومون اعتقد – وبحساسية شديدة – أن الدعامة القوية المبنية باستخدام جوالق الرمل على جانبى كبارى الأعداء تشكل حماية حقيقية كبيرة.

تسلق الجميع قمة الضفة المنزلقة للقناة، ثم أخذوا ينظرون وهم فى صمت شديد، ودرس سولومون كيف تنمو جذوع الأشجار على المنحدر الشديد فى الجانب الآخر فى مواجهة الألمان، وكان سولومون يرتدى معطفًا سميكًا واقيًا من المطر. بدأ الجميع يتحركون على طول الممر وهم مطأطئى الرءوس ينتقلون من شجرة إلى أخرى، ووجد سولومون أن هذا العمل كان صعبًا وشاقا بالنسبة إليه، كما التصق الطين الأصفر السميك بقدميه، وبينما كان يلهث نظر سولومون من خلال فتحة إلى مدفعية الأعداء المثبتة على دشم الخرسانة المعروفة بـ "الفطر". كانت خمائل أشجار الصفصاف أقل مما يريده سولومون، لذلك عرض سولومون على الجنرال بيرسيفال أن يصنع سترتين من قضبان الفولاذ عند عودته إلى المملكة المتحدة.

عند عودته إلى لندن؛ قابل سولومون الجنرال سكوت مونكريف فى وزارة الحربية البريطانية الذى أوصى بالعمل مع هولبورن وميسرز رونيو الذى يعمل فى صناعة الفولاذ. أعطاهم سولومون مقاييس الرسم وطلب منهم صناعة نموذجين من رقائق الخشب. كان سولومون يريد صنع برج قيادة بيضاوى الشكل من الفولاذ المجوف، يتكون من جزءين يتم الربط بينهما على أن يكون عريضًا حتى يتمكن أى شخص من تسلقه لرؤية ماذا يحدث فى الخارج. كان سولومون فى حاجة إلى لحاء شجر من الخارج حتى يتمكن من عمل نقطة المراقبة تلك، وهنا قرر سولومون الاستعانة بالقيادة العليا، فطلب إذن الملك جورج الخامس للحصول على أشجار الصفصاف البالية فى وندسور.

فى يوم السبت ١٨ ديسمبر وفى منزله القريب من بوابة حديقة هايد، كتب سولومون الرسالة التالية إلى القائم بأعمال مخصصات الملكية:

سيدى،

عدت للتو من مقر القيادة العامة؛ حيث دعيت لأكتب تقريراً عن "التخفى فى الحرب...

يقوم الفرنسيون بعمل ما يسمونه بـ "التمويه" لخدمة نقاط مراقبة سلاح المدفعية وعرضوا تنفيذ الشىء نفسه فى الجيش البريطانى، وسوف يأخذ الأمر وقتًا طويلاً قبل أن نتمكن من استخدام الأشياء التى قاموا بعرضها علينا...

كما عبر ضباط قادة فى الجيش الثانى عن حاجتهم الماسة إلى نقاط أمامية محصنة، وبشكل رئيسى عمل نموذج يحاكى تلك الأشجار المتواجدة بالمكان، وأرسلونى إلى الجبهة لدراسة متطلباتهم، وقد وافقوا بسرور على اقتراحى بالتجربة وسعيى (لمدهم بالمعاونين من مهندسين وغيرهم) ما يجعل تلك النقاط هى الأفضل قبل حدوث تطور فى الحياة النباتية فى الربيع والصيف، من الممكن أن يقلل من فاعليتها.

عند مناقشة هذا الأمر مع الجنرال جورج سكوت مونكريف فى وزارة الحربية البريطانية خلصنا إلى أن تلك الأشجار التى نحتاجها هى (أشجار الصفصاف الطويلة)، وأن سرية هذا الأمر لها أهمية كبيرة، لذلك فلن يكون من الحكمة التعامل مع ملاك تلك الأشجار وأن الطريقة الآمنة هى الحصول على إذن جلالة الملك ليسمح فى بادئ الأمر بدراسة أشجار الصفصاف الموجودة فى العقارات الملكية وجمع لحاء الأشجار وغصونها لمحاكاة تلك الأشجار؛ مما قد يخدم مراقبى سلاح المدفعية فى منطقة إيرس.

خادمكم المطيع،

سولومون جوزيف سولومون

قام فريدريك بونسونبى - الأخ الأكبر لآرثر بونسونبى، مؤلف رواية "الكذب فى وقت الحرب"، (Falsehood in War Time) - بالاتصال من خلال المكتب الخاص بالقائم على المخصصات الملكية فى قصر بكنجهام فى يوم الاثنين الموافقة ٢٠ ديسمبر:

أبدى جلالة الملك اهتمامًا كبيرًا؛ وهو ينتظر قيامك بإخفاء نقاط مراقبة سلاح المدفعية، وسيكون الملك مسرورًا عند توفير جميع التسهيلات الممكنة التى تطلبها سواء فى وندسور أو ساندرينجهام.

رتب سولومون للذهاب إلى قصر بكنجهام عصر اليوم التالى. وكتب بونسونبى بعد ذلك خطابًا "خاصًا وسريًا" إلى دبليو أرشيبالد ماكلير كبير البستانيين فى وندسور:

عزيزى ماكلير،

يرغب سولومون جوزيف سولومون، الضابط فى الأكاديمية الملكية، فى تنفيذ عدد من التجارب التى تتعلق بالأشجار، حيث تم تفويضه من قبل وزارة الحربية البريطانية لعمل نقاط مراقبة على شكل أشجار الصفصاف ويجب الحفاظ على سرية هذه المعلومات، وهو يرغب فى الحصول على مكان يمكنه فيه إجراء تجاربه. ويرغب الملك فى توفير جميع التسهيلات له ولو لزم الأمر توفير عمال ليكونوا فى خدمته.

فى ٢٣ ديسمبر ١٩١٥؛ وصل سولومون فى القطار المقبل الساعة العاشرة واثنتين وأربعين دقيقة فى محطة بادينغتون، واستقبله كبير البستانيين الذى كان يستقل عربة تجرها الكلاب وهرول سولومون جوزيف سولومون على ضفاف النهر وقت الشتاء. اختار سولومون إحدى أشجار الصفصاف القديمة وقام بقطعها وإحضارها بالكامل فيما بعد إلى إحدى الصوبات الزجاجية فى فروجمور، وفى أثناء العمل فى الصوبة الملكية الدافئة ورسم مشهدين مسرحيين، قام سولومون بصنع لب شجرة فولاذى يحاكى لب الشجرة الحقيقية وتمت حياكة ولصق القطع والخطوط التى يمكن لفها حول المعدن.

فى الوقت ذاته؛ أرسل الجنرال المعاون فى مقر القيادة العامة فى فرنسا خطاباً يوم عيد الميلاد يطالب فيه سولومون جوزيف سولومون: "بإنجاز أعماله التى يقوم بتنفيذها فى أقرب وقت ممكن مع مده بمساعدين أكفاء يقوم هو باختيارهم لتمكينه من إنجاز العمل فى أقرب وقت ممكن من أجل إنشاء بعض نقاط المراقبة المطلوبة بشكل عاجل.

بدأ سولومون فى انتقاء أعضاء فريقه الذى ضم الخطاط هارى باجات ذلك الرجل العجوز الذى كان يرسم لوحات، أبيض وأسود، وكان قد عمل مع بعض الفنانين فى سلاح المدفعية ولديه بعض المعلومات العسكرية المفيدة، وكذلك الخجول والتر دبليو راسيل وإيه آر إيه، والمخترع ليندساى دى سيمنجتون والشاب رونالد هاركر الذى كان يرسم المناظر الطبيعية.

كان هناك أيضًا شاب مصاب بالصمم وهو ممثل الأوبرا كوفينت جاردن، وكان معروفًا بحسن التنظيم، إنه فى الحقيقة أوليفر برنارد الذى عاش تجربة الغرق فى لوسيتانيا. أحضر برنارد معه إف دبليو هولمز من ليدز الذى كان رئيس إحدى الجمعيات الملكية فى أحد الأزقة قرب مسرح درورى والذى كان نجاراً بارعًا عندما التقى "بانى" أو برنارد مع سولومون للمرة الأولى فى مانشستر قبل عشرين عاماً. ثم عمل كل من سولومون وباجيت وراسيل وهاركر وسيمنجتون وبرنارد ضباطًا ذوى رتب منخفضة فى قائمة الألوية.

اكتسب ونستون تشرشل خبرة فى دخول الخنادق والخروج منها مع الحراس المسلحين بالقنابل اليدوية، وقد أبدى إعجابه بخوذته الزرقاء الجديدة المصنوعة من الفولاذ الذى أعطاه إياها أحد الألوية الفرنسيين فى ٥ ديسمبر لحماية رأسه "التى لا تقدر بثمن". وفى عام ١٩١٥ لم يقف الفرنسيون على حد التفوق فى التمويه، ولكنهم أيضاً استخدموا الخوذات الواقية للرأس من ضربات سلاح المدفعية. حيث بدأ هذا الأمر عندما قابل الجنرال أدريان الجندى الفرنسى الذى نجا من إصابة قاتلة فى الرأس بسبب احتفاظه بأحد صحون الطعام المعدنية المجوفة تحت قبعته المصنوعة من عليق الماشية.

كانت المحاولة الأولى لعمل قبعات فولاذية تتلخص فى عمل غطاء ضد مخاطر الإصابة بقذائف الشظايا، لذا تمت إضافة العديد من الحواف الأعمق والأضيق. وتتمتع الخوذات الفرنسية (التى تتطلب القيام بسبعين عملية حتى تتم صناعتها) بوجود تقاطع مركزى؛ حيث إنها تتألف من أجسام مكعبة لعمل خوذة لرجال الإطفاء أو (الفرسان). أشار جى إم تريفليان الذى يعمل مع منظمة الصليب الأحمر فى إيطاليا إلى كيف تم تبنى صناعة "الخوذات الواقية من قذائف الشظايا" تدريجيًا فى ربيع وصيف عام ١٩١٦. كانت النماذج الأولى من الخوذات فرنسية الصنع، وتم طبع عليها الحرفين "آر إف" اللذين يرمزان لـ "الجمهورية الفرنسية".

أما البريطانيون فقد صنعوا "خوذات فولاذية عُرفت بمارك ١، وقد صبغوها باللون الأخضر" واشتهرت فى ذلك الوقت" الخوذات المصنوعة من القصدير" بين الجنود والضباط لاستخدامها كـ "قبعة فى المعارك" واستوحى شكلها المصمم جون إل برودى فى منتصف عام ١٩١٥ من الخوذة التى ارتداها الجنود حاملو الرماح فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ثم قام جورج كوبارت – من فيالق المدفعية الرشاشة – باختبار مقاومة الخوذات المصنوعة من الفولاذ التى تناثرت أجزاؤها فى المعارك الميدانية عبر ضربها بالمعول بأقصى قوة ممكنة.

عدلت الخوذات البريطانية الجيدة ليصبح لها تجويف معتدل، لكن بعض مقاولى الحرب الماكرين زوروا فى هذا الأمر، ولم تقم وزارة الحربية البريطانية بعمل فحوصات بالشكل السليم، وقد أدى هذا إلى ضعف مقاومة الخوذات للشظايا، ومن المنطقى افتراض أن ذلك كان سببًا فى فقد العديد من الجنود حياتهم على الرغم من أنهم يرتدون الخوذات.

استلمت كتيبة تشرشل فى مقدمة الجبهة الأمامية خمسمئة خوذة فولاذية من نوع "برودى" فى ٢٤ يناير ١٩١٦، حيث اعتمد الجيش الأمريكى خوذات برودى عندما اشترك فى الحرب عام ١٩١٧؛ وأبقى الجيش الأمريكى على استخدامها حتى بعد معركة قاعدة بيرل هاربور.

كانت الخوذة المميزة المعروفة باسم "دلو الفحم" التى صنعها الألمانى ستاهيلم؛ تزن نحو رطلين ونصف الرطل؛ وربما كانت الأفضل من ناحية التصميم، كما كانت مزودة بعروتين لحماية مقدمة الخوذة. وكان جنود المدفعية الآلية من الألمان يرتدون أنواعًا من الخوذات المحشوة بطريقة خاصة ومدرعة بشكل أكثر سمكا وتزن نحو ثلاثة عشر رطلاً وربع الرطل، الأمر الذى يجعلها تقاوم جميع أنواع الذخائر. (على الرغم من إدعاء جورج كوبارت أن الخوذ التى يرتديها الجنود الألمان يسهل تحطيمها من خلال ضربات المعول؛ أو ربما كان يقصد ضربها بقوة شديدة)، كما كانت الخوذات الألمانية أيضًا أول ما رسم عام ١٩١٧ فى نماذج التمويه المميزة بالألوان البنى والأخضر والأسود.

عندما خلف دوجلاس جون فريش فى منصب رئيس الأركان فى ١٩ ديسمبر ١٩١٥، كان على تشرشل أن يقبل بتقليص الفرقة التى وعدت بها فرنسا والتى تتكون من ٥٠٠٠ جندى إلى كتيبة تتألف فقط من ١٠٠٠ جندى.

وقع المشير هيج خطابًا آخر من مقر القيادة العامة بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩١٥:

"طلبت أن يتم منح الرتبة العسكرية المناسبة للسيد سولومون جوزيف سولومون لتمكينه من تنفيذ واجباته فيما يتعلق بأعمال التمويه، كما أوصى بمنحه تفويضًا مؤقتًا برتبة مقدم وأعتقد أن هذه الرتبة تتناسب مع مسئوليات وأهمية واجباته التى يضطلع بها...".

قد تكون الترقية الاستثنائية التى نالها سولومون جوزيف سولومون غير مناسبة فى الحرب العالمية الأولى؛ حيث ترقى من جندى من الدرجة الثانية فى فرقة القناصة الملكية إلى مقدم بسلاح المهندسين الملكى، وكان ذلك يعنى سرعة ترتيب زيارته إلى الخياطين وصانعى الأحذية العسكريين، وفى ١٥ يناير ١٩١٦ كتب سولومون إلى بونسونبى المسئول عن مخصصات الملكية:

الآن، سوف تساعد أشجار الملك فى حماية الجنود الذين سوف يشيدون ويستفيدون من نقاط وأبراج المراقبة، وأنا ممنون لجميع التسهيلات التى قام سماحة الملك بتوفيرها.

أجاب بون كوخ يورك فى مقاطعة ساندرينجهام:

كان الملك مهتمًا للغاية وتواقًا إلى سماع أنك قد انتهيت من عمل الأشجار فى وندسور كما يشعر الملك بأنهم سيحققون نجاحًا كبيرًا، ويعرف جلالته الأهمية الخاصة للأشجار المشابهة وتنكر الجنود؛ الأمر الذى تم تطبيقه فى الجيش الفرنسى، إنها تبدو فكرة عملية للغاية وسيسر جلالة الملك أن يعرف ما تقوم به لمعالجة المشكلة.

فى ١٨ يناير ١٩١٦؛ عبر الفريق الأول من خبراء التمويه القنال الإنجليزى إلى بولونى. وتتذكر أوليفر برنارد ببالغ الأسى عملية إطلاق الطوربيدات على السفينة لوسيتانيا، أما سولومون فكان مشتاقًا لذلك؛ فقد مضى عشر سنوات وأسبوع على كونه أحد الأكاديميين الملكيين، والآن حالفه الحظ ليصبح مقدمًا "تاركًا إنجلترا القديمة الجميلة" فى طريقه إلى الحرب. لكن لسوء الحظ، كانت الحافلة التابعة للجيش التى قابلتهم فى لندن قد لحق بها دمار وهى فى منتصف الطريق إلى سانت أومير. كان البرد قارصًا فى تلك الليلة، وعندما قابلوا الجنرال جورج فوك لم تبد عليهم أمارات شجاعة الجنود بسبب زيهم البالى، وهنا اندفع سولومون نحو باجيت لتقديم التحية العسكرية. لم يكن يعرف فوك الكثير عن الفن أو الأوبرا، ولكنه اعتاد على الذهاب إلى حفلات الأزياء فى كوفينت جاردن، وسأل أوليفر برنارد: "هل ما زال ويلى كلاركسون حيا؟"، ثم أضاف: "لقد اعتدت على أن أحصل على ثيابى الجميلة منه". كان "بانى" أو برنارد ممنونًا لوجوده ضمن صفوف جميع القوات؛ ومن ثم كان أكثر تكيفًا مع المضيفين الجدد وأدرك على الفور وجود فجوة كبيرة بين سولومون والقيادة العسكرية.

كان سولومون يتمتع برؤية فنية تحدد طريقة استخدام التمويه العسكرى، إلا أنه لم يكن يدرك التنظيمين المادى والبشرى المطلوبين لتحقيق ذلك. كان هناك تقسيم خاص داخل المجموعة، وهنا قصد سولومون أن يجتمع مع الفنانين باجيت وراسيل وسيمنجتون وأن يبتعد عن الحرفيين من أمثال برنارد وهاركر وهولز. كانت تعاملاته الأخيرة مع صفوة الطبقات الراقية، الملوك والقادة العسكريين وما إلى ذلك، مما زاد ميله إلى الطبقات العالية. لم يكن أوليفر برنارد يبدى إعجابه بما تقدمه "الأكاديمية الملكية

للتمويه؛ حيث كان الجميع يتساءلون عما يمكن للجنود القيام به، وكانوا يقللون من شأن ما يقوم به الجنود لإظهار ما يقوم به الفنانون". اعتقد أوليفر أن سولومون يصنع لنفسه أعداء من خلال ادعائه أنه يدرك كل أبعاد الموضوع دون أى اعتراف لما قامت به القيادة العسكرية فى سبيل الحصول على احتياجاتها. استبعد سولومون كل قنوات الإمداد الرسمية واعتبرها "روتينية". وبدأت المشكلات عندما بدأ يتسوق وهو سعيد فى بولونى بدلاً من الحصول على المعدات العسكرية إما بالأمر المباشر وإما من مستودعات سلاح المهندسين الملكيين. وأدت المهارات الفائقة لدى أوليفر برنارد إلى أن لقبه سولومون "رجل أعمالى الخاص".

أمضى الرجال الأسبوع الأول فى إميان فى دراسة التمويه وأعمال الطلاء التى كان الفرنسيون يمارسونها منذ عام كامل؛ حيث جمعوا بين استخدامهم للدروع أو ألواح الفولاذ المقوى من أجل حماية نقاط المراقبة. كان قائد خبراء التمويه الفرنسيين جيراند دى سكوفولا شخصية مثيرة للإعجاب، فكان أنيقًا فى ملبسه يرتدى قفازًا أبيض اللون. وكان قد أعار تسعة من خبراء التمويه التابعين له إلى البريطانيين الذين يهدفون فى ذاك الوقت إلى إنشاء صناعتهم الخاصة بهم والبدء فى إنتاج ما يحتاجونه من مواد. كانت ورشة العمل المؤقتة الأولى عبارة عن مخزن للحبوب أقامه عمدة بوبرينج، وذهب أوليفر برنارد إلى باريس للحصول على إمدادات خاصة من الأقمشة والدهانات. (رفض مدير أعماله والمؤرخ الحكومى فيما بعد جيمس آى إدموندز دفع ٤٦٨ فرنكًا أنفقها برنارد فى استخدامه سيارات الأجرة قائلاً: إنه لم يكن مخولاً باستخدام مثل تلك الوسائل).

وفى الوقت نفسه، اصطحب الجنرال فوك "سولومون" إلى ويميروكس بالقرب من بولونى وأطلعه على مصنع مهجور لسيليكات الألمونيوم بالقرب من ملعب للجولف على بعد ٢٠٠ ياردة من حافة منحدر صخرى، حيث أقيم هذا المصنع على مساحة ستة أفدنة، ويحيط به سور يرتفع نحو عشرة أقدام قرب خط فرعى للسكك الحديد، وقاطرة قديمة تقف إلى جانب مرسم فنى. وكانت أصوات الطرق التى يحدثها نحو خمسة عشر عاملاً

يقومون بصقل الأرضيات الخراسـانية تضج بالداخـل. وكان من المفترض أن يكون هذا البناء مركــزًا للأعمـال التخـصصية فى ويمـيروكس؛ لكنه لن يكون جاهـزًا قبل ستة أسابيع.

لم تكن هذه هى آخر مرة يجمح فيها خيال سولومون بعيدًا؛ ونظرًا لأن الألمان كانوا قد أجّروا المكان ذات مرة، فقد أعتقد سولومون أن خط السكك الحديد كان المقصود منه هو جلب المدفعية طويلة المدى إلى المصنع والتى استطاعت أن تطلق نيرانها على السفن بين بولونى وأرخبيل كريس نيز.

وعندما بدأ أوليفر برنارد فعليًا فى استكشاف البناء، لم يجد تلك الأشياء التى كان يتخيل وجودها، فقام برسم خريطة للأماكن التى ستوضع فيها طاولات النجارين وورش الماكينات وآلات سن المناشير وغرفة الدهان وغرفة التجفيف وما إلى ذلك، كما أمر بإحضار الدروع الواقية للصدور من مستودعات الذخيرة الخاصة بالجيش والوقود من فيالق الجيش وخشب الأشجار من بولونى. وأقام أوليفر برنارد علاقة طيبة مع الكابتن فوتى المسئول عن أعمال آر إى فى بولونى والذى كان يتمتع بعقلية عملية ومع المقدم كروفتون سانكى الذى كان يلقى إعجاب الفنانين من الضباط.

عاد سولومون مع عدد من الجنرالات إلى بلوجستريت؛ حيث كان تشرشل قد توجه إلى الجبهة ليبحث عن موقع خاص يضع فيه أشجار نقاط المراقبة التى قام بتصميمها فى إنجلترا، ثم أخذ يتحرك بين الخنادق الطينية التى أعادوا تسميتها باسم "ستراند" ثم توجهوا إلى مقاطعة "شارمينج كروس" ومنطقة الغابات بها. وبالقرب من مأوى تابع للجيش الألمانى، سهلت إحدى أشجار البلوط المحطمة لهم المأمورية، لأنها كانت ترتفع سبعة أقدام عن المتاريس التى بنيت باستخدام جوالق الرمل. وباستخدام منظار أفق، استطاع سولومون تقدير أنه لا يبعد عن خندق الجبهة الألمانية سوى سبعين ياردة.

بعد ذلك تم استدعاء سولومون إلى مقر القيادة العامة لمقابلة دوجلاس هيج رئيس الأركان شخصيًا فى منزل أحد المحامين فى وسط مدينة سانت أومير. كان سولومون مسرورًا عندما صافحه دوجلاس هيج بدلاً من تقديم التحية العسكرية لأن الأمر بدا اجتماعيًا،

وكان سولومون يعتقد أن هيج كان رجل وسيماً وفى غاية الأناقة، لكنه وجده شخصية خجولة للغاية، فرسم له فيما بعد صورة كبيرة له فى مدرسته الأم كلية كليفتون. نظر هيج إلى خريطة كبيرة ممددة على الحائط وأخذ يشير إلى أفضل المناطق التى تحتاج إلى نقاط مراقبة.

تساءل هيج فى قلق: "ألا يوجد شىء يمكننى فعله من أجلك؟"، وأخذ سولومون يوضح أن الفنون التى كانوا يقومون بها لا تزال فى مهدها ولكنه فى حاجة إلى ميدان بالقرب من سانت أومير حتى يتمكنوا من إجراء تجارب على إخفاء البنادق والمدافع والخنادق ليتمكن الضباط من المجىء ورؤية الأهداف بسهولة.

"جميع أراضى فلاندرز رهن يديك".

"نحتاج فقط إلى عدد قليل من الأفدنة القريبة".

"حسنًا، اذهب إلى الجنرال، وسيساعدك فى الحصول على أى شىء تحتاجه".

كان سولومون يشعر بالفخر فى قرارة نفسه عندما عاد مكرراً ما قاله رئيس الأركان ليسمعه إلى رئيس أركان سلاح المهندس: "اذهب إلى الجنرال، وستحصل على ما تريد"، ولكن فوك، الذى سيصبح رئيس إدارة الجيش فيما بعد، لم يكن راضيًا بالمرة، واحمر وجهه فأصبح بلون سرطان البحر وصاح غاضبًا: "يجب أن يتم كل شىء من خلالى!".

اندهش سولومون ولم يستطع ببساطة أن يفهم معنى البيروقراطية؛ لكنه فهم النظام الإدارى الذى عمل فيه. وعندما جاء إف إى سميث المدعى العام لحكومة الملك لزيارة تشرشل فى بلوجستريت فى هذا الوقت تقريبًا، تم اعتقاله بسبب عدم الحفاظ على المسار العسكرى الصحيح (وتحرك صف من حملة المشاعل إلى مكتب رئيس إدارة الجيش، المسئول عن القانون العسكرى، والذى قدم فى النهاية اعتذاراً رسمياً).

لم يعتذر أى أحد لسولومون، وشعر بعد ذلك بالإحباط والضرر بسبب رفض فوك إدموندز أفكاره الأولية حول تغطية خنادق المقدمة التى تؤدى إلى الأشجار المموهة

باستخدام الأقمشة الواقية من الماء؛ وكان نتيجة ذلك أنه سرعان ما امتلأت الخنادق بالمياه، وحتى مع وضع الأقمشة كان الماء يتخللها. علاوة على ذلك؛ فإنه لا يمكنك تمييز قطع النسيج الناعم الواقى من الماء وبين البيئة الطبيعية المحيطة، ثم حاول سولومون بعد ذلك صنع شبكة مصنوعة من الخيوط وأخذ يربط حزمًا صغيرة من القش بين الثقوب. لم يكن الأمر فى الواقع مُرضيًا لأحد الرجال المدنيين وعامل المسرح هولز حيث نظر إليه قائلاً: إنه يصنع شيئًا ليضعه فوق الأقمشة الواقية من الماء. وفكر سولومون أنه يستطيع خلال ساعتين أن ينسج ياردة مربعة من الشباك وقال:

أعتقد أننا توصلنا توًا إلى ما نريده، ليس فقط من أجل الموقف الذى نحن فيه، بل وأيضًا لصالح العمليات المقبلة. بعد ذلك قام الرجال بربط حزم صغيرة من أعواد القش المتشابكة ثم قمنا بتلوينها. كانت العودة إلى سانت أومير بهذا النموذج أمرًا فى غاية الأهمية حتى يتم عرضه على المقدم ليدل، وقمت بإخبار الفرقة التابعة لى بأننا إذا لم نقم بفعل أى شىء آخر فسيتعين علينا أن نبرر سبب تواجدنا فى هذا المكان.

ذكر أحد مراسلى صحيفة التايمز فى عددها الصادر ٣ أغسطس ١٩٢٧؛ أن سولومون قام فى وقت مبكر من الحرب بتوسيع أعماله الخاصة بحماية الخندق وقام بوضع شبكة من الخيوط المتشابكة مع أفرع وأوراق الأشجار لتغطية الرءوس - ينسب لسولومون أنه أول من قام باستخدام شباك الصيد بدلاً من خيوط النسيج لشد الدعائم والقطبين لتغطية المدافع والمخازن والخنادق... إلخ. وكان متوسط حجم هذه الشباك ثلاثين قدمًا مربعًا، وتحاك باستخدام خيوط النسيج وخرق الخيش وحزم مصبوغة من ليف نخل الرافية والنباتات المحلية ("بعمل ضفائر من الأغصان المورقة، ووضعها بين الشباك" مثل ما فعل شيموس هينى)، ثم علقها عن طريق ربطها فى زوايا منخفضة حتى لا يظهر لها ظل كبير.

يدعى أن هذه الشبكة العلوية المسطحة المزخرفة بليف نخل الرافية هى اختراع فرنسى، ففى أبريل من عام ١٩١٣؛ استخدمها الرائد أناتولى كوبنهاجن فى سانت كير بنجاح فى إخفاء فصيلة من الجنود من إحدى الطائرات التى كانت تحلق على ارتفاع منخفض.

ولسوء الحظ تم رفض فكرة كوبنهاجن رسميًا؛ لأنها "تفتقر للتطبيق العملى" حسبما زعم البيروقراطيون العسكريون فى وزارة الحرب الفرنسية (فى أغسطس ١٩١٤ وعلى مدار بقية الشهور).

وسواء كان من اخترع شبكة الصيد المستخدمة فى التمويه هو هولز أو كوبنهاجن أو سولومون، فإن هذه الشبكة تمتد تقريبًا لسبعة ونصف مليون ياردة مربعة من المواد الخام، وترتبط بها أجزاء نباتية تزيد على ستة ملايين ياردة مربعة من شباك الأسلاك المعدنية، ومليون ياردة من صحائف النسيج الملون حتى أصبحت أكثر الحواجز استخدامًا خلال الحرب العالمية الأولى.

فى نهاية فبراير ١٩١٦؛ وصلت البلنديج (الألواح المثقبة) التى طلبها سولومون من مؤسسة هولبورن. كان الفولاذ أخف وزنًا من النماذج الفرنسية؛ ورأى سولومون إمكانية تثبيت الأجزاء البيضاوية معًا وحملها كقطعة واحدة، فإذا كان اثنا عشر رجلاً يستطيعون رفع مجموعة من القضبان وزنها سبعمئة رطل، فهذا يعنى أنه يجب على كل رجل أن يحمل وزنًا مقداره ثلاثة وستين رطلاً، وفى الأول من مارس أخبر سولومون اللورد كافان القائد العام لفيالق الجيش الرابع عشر داخل الجيش الخامس بأن الشجرة جاهزة وأنه يرغب فى المجىء إلى خليج إبرس.

فى الساعة الثالثة من صباح ٥ مارس ١٩١٦؛ استقل سولومون سيارة مع كل من الجنرال العسكرى جاثرون هاردى والجنرال العسكرى وشوب للتأكد من موقع الشجرة، وقادوا السيارة تجاه قناة يسر مع إطفاء الأضواء وإيقاف السيارة خلف الحوائط المنهارة الخاصة بحانة الطاحونة الحمراء. وأرشدتهم اللافتات الموجودة بشارع كونى إلى الخندق فى خليج إبرس وتوجهوا نحو شكل يشبه الفطر؛ وهو شكل ذو قبعة صغيرة مستديرة فوق تلال بيليكم. وفوق هذه القناة، قام سولومون برسم مخطط لشجرة من الصفصاف من أجل تحديد أين يجب حفر الخندق العميق الضيق. كان الجو باردًا، والأرض موحلة، وبينما كان سولومون يعبر فوق شجرة مطروحة على الأرض، زلت قدمه وسقط فى أحد المستنقعات، فقال لجنرال: "هذا شىء سيئ!"،

فانفجر الفنان ضاحكًا؛ وهو يفكر كيف سيرى الأطفال والدهم العجوز وهو في هذا المأزق. كان سولومون يرتدي معطفًا حمى جسده من البلل، لكن حذائه الطويل المصنوع من المطاط كان يصدر صوتًا بسبب امتلائه بالماء، وغطى الثلج الذائب كميه والجزء السفلي من رقبته. وهبت عاصفة ثلجية فأحدثت زوبعة. وفي نهاية المطاف، قام السائق بإفراغ حذاء سولومون من الماء، بينما كان سولومون يجلس مستترًا بالجزء الخلفي من السيارة. كان سولومون يخشى إصابته بنزلة شعبية، فذهب إلى الفراش ومعه "بعض الصحف المحلية وزجاجة من الخمر المعتق".

كانت ليلة الثلاثاء الموافق ١٢ مارس ١٩١٦؛ هي الليلة التي تم فيها إنشاء أول نقطة مراقبة بريطانية. وقد شارك العريف براينت في إنشاء الشجرة فوق أحد المخابئ في الأسبوع السابق. كان يوجد سطح من الفولاذ تعلوه حافة وثقوب حديدية حول فتحة بيضاوية في الوسط. وفي المساء، غادر خمسة عشر رجلاً المصنع في شاحنة ووضعوا بداخلها الشجرة وقاموا بإحكام مقابض الرفع، وذهب كل من سولومون ووالتر راسيل بسيارتيهما. ومضت الشاحنة إلى إبرس عبر طريق تمتلئ بمجموعة من أكياس الرمال على الجانبين، وظهرت إشارة "دايمنت" فوق جدار طويل مصنوع من الطوب الأحمر الذي يشكل إحدى بقايا جدران ما مبنى يبدو أنه كان محلاً للمجوهرات.

وفي مكان يدعى "وايت هارت" قاموا بإنزال الشجرة على مجموعة قضبان وقام الرجال بحملها نحو الأسفل، وقامت قوات أخرى بالدخول في حالة صمت تام وانشغلوا بأعمالهم: كتيبة من العسكريين ترتدي خوذات من القصدير وأقنعة واقية من الغاز وكانوا مرابطين على ضوء القمر. عبر الرجال الذين كانت بحوزتهم "الشجرة" الجسر رقم ٤ ومضوا لمسافة ١٠٠ ياردة على امتداد الطريق بجوار شارع كوني ثم استداروا ليسلكوا طريقهم المعتاد. كان عدد من الرجال الآخرين بانتظارهم لتقديم المساعدة لمن كانوا يحملون تلك الشجرة. وفجأة، حدث انفجار شديد جعل كل واحد منهم يثبت في مكانه حتى انقشع لون السماء الأزرق. هزت المدفعية الألمانية أرجاء المكان، وعبر الجنود البريطانيون جداول الماء فوق ألواح خشبية وجاهدوا بكل ما أوتوا من قوة لعبور ضفة القنال الموحلة بمهماتهم الثقيلة.

وفى الجانب الأعلى، قاموا بنصب شبكة القضبان نحو الأعلى ورفع الشجرة فى اتجاه مستقيم لمسافة ثمانية أقدام ونصف قدم. دخل سولومون إلى مخبئه، ومعه مشعل لإنارة الثقوب الموجودة فى الحلقة؛ حيث كان الرجال يقومون بلف الشجرة حتى تصبح محاذية لهم، وتثبيت المسامير المشحمة فى حلقات محكمة، وتم إلصاق العشب والطين فوق طبقة ورفعها إلى أعلى قاعدة الشجرة؛ حيث حشر أحد الرجال نفسه بداخلها (قدرت مساحة الشكل البيضاوى ٢٢ بوصة × ١٨ بوصة) لفحص ثغرات المراقبة والفتحات المضادة للرصاص. اعتقد سولومون أن عملية إعادة الإنتاج قد تمت بشكل ممتاز؛ فعلى بعد خطوات قليلة لا يمكن الجزم بأن الشجرة الموضوعة هناك غير حقيقية. وإذا عدنا إلى مخزن الحبوب فى بوبرينج؛ فإننا نجد أن القائمين بالحفر كانوا يحتفلون بتناول الطعام الساخن وشرب الجعة. وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين الحكوميين الذين أتوا فيما بعد تعاملوا بطريقة أكثر فظاظة مع الشجرة الأولى؛ حيث قال بعضهم: "ثبت بشكل عملى أن استخدام هذه الشجرة كان أمرًا قليل الجدوى، ويندر أن ينكر هذا من له حظ من الحكمة، حيث كانت بعيدة جدًا بالنسبة إلى المراقبة، وهذا خطأ ناتج من قلة خبرته".

كانت لوحة سولومون جوزيف سولومون الزيتية التى بعنوان "أول شجرة مراقبة قمنا بعملها"؛ قد تم عرضها فى معرض فنون التمويه فى بيرلينجتون الذى نظم فى أكتوبر ١٩١٩، ولا تزال معلقة فى متحف الحرب الاستعمارية، فعلى ضوء القمر الخافت، يقوم كل من سولومون وراسيل، وهما يرتديان قبعتين ومعطفين مميزين، بإلقاء نظرة من ناحية اليمين، حيث توجد "الشجرة" التى لا جذر لها. وتعبر لوحة زيتية أخرى بمتحف الحرب الاستعمارية عن التمويه الموجود منذ عام ١٩١٩، وكانت تسمى "نصب شجرة التمويه" وقد رسمها ليون أندر وود، وهى تعرض عشرة من الرجال نصفهم لا يرتدى القمصان؛ وهم يلبسون فى رءوسهم خوذات مصنوعة من الصلب يعملون على تثبيت اللحاء المدبوغ فوق الأسطوانات تحت إشراف رقيب بدت عليه علامات الأسى، ويظهر هذا المشهد فى وضح النهار، ويمكنك رؤية البندقية ٣٠٢؛ وهى موضوعة إلى جوار مطرقة، وتظهر كذلك عضلات الجنود.

في ٢٢ مارس ١٩١٦؛ أقام جيراند دي سكوفولا حفل عشاء على شرف خبراء التمويه البريطانيين في فندق صغير في ويميروكس، وغنى الجنود الفرنسيون عدداً من الأغاني، وألقيت خطب تتسم بالطرافة، وسهروا حتى وقت متأخر. كانت مناسبة جميلة على الرغم من مرارتها بالنسبة إلى سولومون؛ لأنه في ذلك اليوم تخلى عن قيادة قسم التمويه البريطاني، وخولته وزارة الحرب القيام بالأعمال الخاصة بالرائد ويات آر إي. وتأسست الوحدة من عشرة ضباط واثنين وثمانين رجلاً من الرتب الأخرى، ثم تمت زيادة العدد في ١ يوليو ١٩١٦ ليصبح خمسة عشر ضابطاً و١٥٧ رجلاً من الرتب الأخرى.

أما القطع المعدنية الثقيلة الخاصة بنقاط المراقبة والشباك الصناعية والمخابئ؛ فقد قام بإنتاجها بعض العمال الصينيين الذين أقاموا في المصنع الأصلي في ويميروكس. كانت هناك رقعتان فسيحتان من الأرض بهما وحدتا تمويه مميزتين؛ كانت وحدة إيرى تغطي النصف الشمالي من خط القتال البريطاني، بينما كانت وحدة إميان تغطي النصف الجنوبي منه. أصبح الرائد جي بي رودس مسئولاً عن إيرى اعتباراً من ٨ نوفمبر ١٩١٦، وكانت فكرته هي البدء في توظيف المئات من النساء الفرنسيات في مصانع الشباك. كانت هناك مشكلات تتعلق بالعمالة، لكن والتر راسيل أثبت هدوءه في وقت المحن. وفي إميان كان المسئول هو النقيب باجيت وكان يعمل مع الفرنسيين حتى ديسمبر ١٩١٦، كانت أدوات الخراطة الخاصة بالمعادن والخشب متوافرة في ورش العمل، وكان ليندساي دي سيمنجتون هو من يحسن استخدامها. لذا قام بتطوير ملابس سيمن لقناصة مدارس إس أو إس (وتم تصنيع ما يقرب من ٤٨٠٠ قطعة منها)، كما قام بإعداد نماذج لما يقرب من ٣٠٠٠ دمية ذات رأس مصنوعة من الصلصال. أما نقاط المراقبة المتنقلة فكانت موضوعاً آخر (سواءً كانت مدرعة أم غير مدرعة) وكانت القلنسوات مغطاة بجص باريس مع وجود فتحة يمكن من خلالها رؤية المكان والبيئة وجميع ما يمكن تمويهه كي تناسب كل المتاريس. وفي إميان قاموا بعمل نحو ١٢٠٠٠ دمية نصفية "أشكال الرماية الصينية" التي يمكن تفجيرها مباشرة عبر مفجرات كهربية لتبدو تماماً كقوات بريطانية تتقدم وذلك من أجل تشتيت التركيز بعيداً عن أماكن القوات الحقيقية. وصمم سيمنجتون أيضاً نوعاً جديداً من المدافع الآلية

التى كانت مموهة تمامًا ويصعب اكتشافها سواء من خلال التصوير الجوى الفوتوغرافى أو الرصد المباشر. وتم تثبيت صندوق مدرع فى إحدى البقاع وبه رافعة بسيطة تسمح بتثبيت مدفع آلى على بعد معين داخل ذلك الصندوق حتى لا يرى لهب الطلقات النارية المنبعثة من فوهته، وهنا يمكن إطلاق النار من هذه النقطة دون أن ترصد. واستخدم الكنديون هذا التصميم بنجاح باهر فى القتال الذى دار حول مونكى لابريو قرب أراس.

لكن سولومون، الذى كان معنيًا بعمليات الاستطلاع وإظهار وعرض الحيل أمام الضباط ممن لديهم حس فنى، أصبح فى حالة بائسة؛ حيث تراجع عن فكرة العمل كمستشار، وانفصل عن العمل الميدانى. وفى أبريل عام ١٩١٦؛ تمت إقالته وعاد إلى الوطن فى عطلة، ثم عاد فى مايو وخطط لمقابلة دوجلاس هيج الذى كان وقتها يخطط لمعركة سومى الحاسمة أثناء زيارة أحد مصانع التمويه الحربى:

سولومون: آمل أن تظل جميع الخدمات التى قدمتها فى ذاكرتكم.

هيج: يجب أن نهزم الألمان.

لم يستطع سولومون فهم طريقة النطق "الدلفى" التى تحدث بها هيج، وفى مايو ١٩١٦؛ عاد كل من تشرشل وسولومون إلى إنجلترا. عاد تشرشل لممارسة واجباته البرلمانية فى ٧ مايو على الرغم من أنه لم يعد إلى الحكومة لمدة عام آخر وتم استدعاء سولومون لإجراء محادثات مع الكولونيل إيرنيست سوينتون آر إى فى مخازن السلاح. ودخل الرجلان؛ وكان سوينتون جنديًا يتمتع بخيال واسع، كما كان رسامًا متميزًا، وقد تولى منصب رئيس قسم الرسومات الهندسية فى "ذا شوب" بالأكاديمية الملكية العسكرية فى وولويتش. كما أنه كان كاتبًا جيدًا حيث كتب: "دفاع جرف دوفر" – (The Defence of Duffer's Drift)، و"المنحنى الأخضر" – (the Green Curve)؛ وهما كتابان ساعدا فى تحويل المشكلات العسكرية إلى روايات ممتعة. كان سوينتون أول مراسل حربى حكومى فى ظل قيادة كتشنر، فكان "شاهد عيان" ومهتمًا على الدوام بالتقنية الجديدة فى مجال الطيران والسكك الحديد والمدافع الآلية. فى كتابه التاريخى الذى

يتكون من جـزءين والذى تحدث فيه عن فـوج الدبابات المـلكية بعنـوان "الدبابات" – (The Tanks) ينسب النقيب ليديل هارت إلى سوينتون وتشرشل الفضل فى اختراع الدبابة. وخلال الأيام الأولى من الحرب رأى سوينتون رجالاً شبه عرايا وهم يسيرون باتجاه جبهات العدو مدججون بمدافع آلية؛ حيث أثار هذا الأمر تفكيره فى الحاجة إلى حماية مدرعة. كتب سولومون:

كان ونستون تشرشل أفضل العقليات العسكرية بين رجال الدولة فى بريطانيا، فأخذ يشاركهم وجهات النظر وكانت مداولاتهم، التى أجروها بمساعدة المهندسين، تدور حول ما كان يعرف بالدبابة.

قام سوينتون بصياغة كلمة "الدبابة" للحفاظ على السرية من خلال إشارته إلى المركبات المدرعة بأنها حاويات معدنية محكمة الإغلاق. وقد عالج الروس الأمر بعناية أكبر فأطلقوا عليها "بتروجراد" بحروف سريالية كبيرة الحجم على جانب الدبابة لخداع الأشخاص بأنها مجرد حاوية زيت تابعة للجيش الروسى.

اصطحب سوينتون سولومون إلى زيتفورد فى نورفولك فى ٣١ مايو؛ ليطلعه على المنطقة العسكرية السرية التى قام بإنشائها فى ضيعة يملكها اللورد إيفاج فيما سمى بعد ذلك بقطاع فيالق المدفعية الآلية الثقيلة. كانت وظيفة سولومون هى المساعدة فى إخفاء هذه الدبابات فى بداية إنتاجها، حيث كانت تنبعث منها رائحة غاز أول أكسيد الكربون السام، بعيداً عن أعين العدو.

ظن الفنان سولومون أن السواتر الدخانية أو الضباب الخفيف أو الأشكال المصنوعة من الزنك من شأنها إنجاز هذه المهمة على أكمل وجه؛ إلا أن فكرة الطلاء لم تكن ملائمة لذلك.

عاد سولومون إلى فرنسا فى أوائل يونيو ١٩١٦؛ لتحديد الأماكن التى يمكن فيها استخدام الدبابات ودراسة التربة وألوان الحياة النباتية. وفى منتصف يونيو ذهب إلى نورفولك حيث منطقة التدريب على الدبابات. وفى كل يوم كان يمتطى صهوة مهره وهو ذاهب إلى عمله الجديد، يقول: "كان على أن أخلع كل يوم سترتى العسكرية

القصيرة وأرتدى ثياب العمل مثلما يفعل الرسام المنزلى العادى". قام سولومون بتلوين أول مجموعة من الدبابات وأغطيتها الكبيرة المصنوعة من القماش ببقع تعبر عن حركة فاوفيست الفنية ذات الألوان الوردية والرمادية والخضراء والبنية. ووصف ضابط الدبابة باسل هينريك المؤثرات النهائية بأنها "نوع من المناظر الطبيعية الخلابة تكسوها الخضرة تعلو فوقه السماء بلونها الوردى ساعة الغروب".

كان سولومون حاضراً يوم ٢١ يوليو؛ عندما جاء بعض السياسيين وكان من بينهم ليورد جورج وزير شئون الحرب، وإدوين مونتاجو وزير الإنتاج الحربى، وكبار القادة العسكريين برأسهم ويليام روبرتسون رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية، جاءوا جميعاً إلى منطقة المتفجرات فى إيلفادين فى نورفولك لمشاهدة أربع وعشرين دبابة تزن الواحدة منها ثلاثين طناً ذات الشكل الشبيه بالمعين الهندسى؛ وهى تشق طريقها عبر الخنادق وتسحق أسفلها الأشجار وتخترق الحوائط والحواجز المصنوعة من أكياس الرمل وحواجز الحماية الخشبية ضد المدافع الآلية التى كان الأعداء يستخدمونها؛ دوى صوت الدبابات على الأرض بشكل مزعج فبدت للمرة الأولى وكأنها تشبه عربات بوديكا.

زحفت الدبابات فى أول الأمر إلى ميدان معركة سومى فى ١٥ سبتمبر ١٩١٦. وبعد ضربات كثيفة بالمدفعية تقهقرت ثلاث مجموعات من الدبابات تتألف الواحدة منها من اثنتى عشرة دبابة إلى الخلف. وقد تعطل معظمها فعلقت أو أصبحت بطيئة الحركة، لكن التسعة الباقية أحدثت بعض الأضرار فى صفوف الأعداء. وبين فلير، كورسيليت وساحة جيويدو تسببت الدبابات البريطانية "D-5" و"D-6" و"D-16" و"D-17" فى إحداث حالة من الذعر، وفر الجنود الألمان هاربين.

انفجر فيليب جيبيس من الضحك عندما رأى للمرة الأولى الدبابات وهى تترنح وتتصاعد منها الأدخنة؛ وظل هدير محركاتها يتصاعد.. وكتب يقول: "كان منظرها هزلياً بشكل مخيف، حيث بدت وقت الفجر وكأنها ضفادع كبيرة تخرج من الوحل".

(٧)

الدهاء وحرب العصابات

أدت الحرب العالمية الأولى إلى ظهور المنطقة الجغرافية السياسية التى عُرفت باسم "الشرق الأوسط". كان أول من صاغ هذا المصطلح هو المنظر الأمريكى للاستراتيجيات البحرية، وأحد ألوية البحرية الأمريكية العميد ألفريد ثاير ماهان عام ١٩٠٢؛ فى إشارة منه إلى المنطقتين العربية والفارسية بين منطقتى "الشرق الأدنى" شرق البحر المتوسط، و"الشرق الأقصى" فى الهند والصين. وفى أثناء الحرب العالمية الأولى، تسببت رؤية ونستون تشرشل الاستراتيجية واسعة النطاق فى ظهوره كـ "رجل شرقى" بين صناع السياسة البريطانية وليس كرجل "غربى" حصر اهتمامه فى فرنسا وبلجيكا.

ثمة رجل شرقى آخر معروف هو تى إى لورنس (١٨٨٨ - ١٩٣٥)؛ وهو الذى عُرف عالميًا باسم لورنس العرب لمساعدته للثورة العربية. كان توماس إدوارد لورنس (نسبة إلى أسرته) شخصية تتسم بالفضول، وصفه أوبرى هربرت بأنه "قزم غريب الأطوار، فعلى الرغم من اتصافه بالنذالة بعض الشىء؛ فإنه كانت له لمسات عبقرية"، ومع ذلك كان قادرًا على الجمع بين السمعة السيئة، وأنه بطل يقوم بواجباته. لم يكن اسمه لورنس، فى واقع الأمر، إنما هو ابن غير شرعى لبارون يسمى تشابمان، والذى هرب مع إحدى المربيات التى أنجبت منه دون زواج. أخذ المحتال تى إى لورنس يؤلف قصصًا كما ظل يغير هويته؛ فقام بانتحال أسماء مثل "روس" و "شو" بعد ذلك. أما الممثل البارع "لورنس العرب"؛ فقد عرف بتنكره عن طريق ارتداء ثياب عربية،

حيث أشار إلى ذلك فى إحدى الرسائل التى يقول فيها: "يغير الفهد البقع الموجودة على جسمه إلى خطوط، حيث إن الخطوط توفر حماية أفضل فى البيئة الطبيعية المحلية".

من بين مناحى الغموض فى شخصية لورنس، هى نظرته للزمن والتكنولوجيا، فهو يجمع الماضى والحاضر معًا، وضعه حبه للآثار وولعه بالرومانسية فى جو الحياة القديمة بين الخيام والجمال فى الصحراء، لكن تى إى لورنس الحقيقى كان مفتونًا بالحداثة، فبيته البسيط فى تل كلاود لم تكن به كهرباء، لكن كان يحتفظ فيه بأغذية صناعية معلبة، وكانت تنبعث من جهاز حاكى الفونوغراف أصواتًا موسيقية مسجلة، كان لورنس يحب طباعة الصحف، وإصلاح محركات رولز رويس والزوارق السريعة التابعة لسلاح الجو الملكى البريطانى؛ ركب الجمال الواردة فى الكتاب المقدس ولكنه حمل معه فى السرج رشاشًا خفيفًا فى دلو من القماش. اغتيل لورنس عام ١٩٣٥؛ بينما كان يقود دراجته النارية السابعة من ماركة بروف الراقية والتى كانت تعمل بالبترول.

أدت الحرب إلى تغيير تكنولوجى، وساعد ونستون تشرشل فى جعل الحرب العالمية الأولى أول حرب فى عصر البترول. فعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا يعتمدون فى الزراعة بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨؛ على ١,٥ مليون من الحيوانات آكلة العشب، مثل الثيران والجمال والحمير والخيول والبغال، (ونفق نحو نصف مليون حيوان)، فإنها كانت أول حرب فى التاريخ تستخدم فيها المحركات ذات الوقود الداخلى. بدأ الجيش البريطانى الحرب بأقل من ٩٠٠ سيارة ذات محرك، وبنهاية الحرب فى نوفمبر ١٩١٨؛ أصبح لديه أكثر من ١٢٠٠٠٠ سيارة ذات محرك. وبوصفه القائد الأول للبحرية بين عامى ١٩١١-١٩١٥، عمل تشرشل بجد "من أجل تزويد السفن بالوقود" عن طريق تغيير نظام الوقود الشمسى المتحجر الخاص بسفن البحرية الملكية البريطانية من الفحم المحلى إلى النفط الأجنبى. وبشكل عملى، كانت كل السفن الحربية الجديدة للبحرية الملكية والتى بنيت فى الفترة بين ١٩١٢ و١٩١٤، تعمل بالوقود البترولى. ومن أجل تأمين إمدادات البحرية الملكية من النفط، أنفقت الحكومة البريطانية عام ١٩١٢؛ خمسة ملايين جنيه إسترلينى لنيل نصيب الأسد فى أسهم شركة النفط البريطانية – الفارسية (أصبحت فيما بعد شركة بترول بريطانيا)، والتى تحملت فى البداية الدفاع عن الذهب

الأسـود فى منطقـة الخليج الفـارسى عـام ١٩٠٨، كـانت مـعـامل تكريرها فى آبادان القريبة من ميناء البصرة. وكان هذا الاستثمار الحيوى موجهًا لخدمة الأسطول البريطانى العظيم طوال عقـد من الزمان، لكنه لم يعطها سوى النفط، وأصبـحت المناطق الغنية بالنفط مناطق ذات أهمية استراتيجية لم يسبق أن تمتعت بها من قبل، حيث خاضت بريطانيا الحرب ضد الدولة العثمانية فى تركيا أولاً فى العراق ثم فى جاليبولى ثم بعد ذلك فى الأراضى المقدسة.

كانت بداية الغزو البريطانى للشرق الأوسط فى الحرب العالمية الأولى؛ بسبب قرار الأتراك العثمانيين الالتحاق بالقوات الألمانية فى مهاجمة روسيا ٣١ أكتوبر ١٩١٤. استهدفت ألمانيا من وراء هذا المخطط إثارة العالم الإسلامى فى وجه الحلفاء، وبالفعل فى ١٤ نوفـمبر؛ أعلن شيخ الإسلام فى القسطنطينيـة الجهاد على التحالف الثلاثى المكون من بريطانيا وفرنسا وروسيا وحلفائها، وتحول هذا الصراع بالفعل ليصبح حـربًا عـالمية.

تم بناء قناة السويس التى يبلغ طولها مئة ميل عام ١٨٦٩؛ بأموال فرنسية ومصرية، لكن بريطانيا اشترت حصة مثلت غالبية الأسهم عام ١٨٧٥. ووفقًا للدستور كانت مصر لا تزال تخضع نسبيًا لسلطان الإمبراطورية العثمانية، ويحكمها خديو أو والٍ جنبًـا إلى جنب مع رئيس وزراء مـصـرى، لكنهـا فـعليًـا كـانت تحت السيطرة البـريطانيـة بداية من يوليـو عام ١٨٨٢؛ عندمـا قـصـفت سـفن البـحرية الملكيـة ميناء الإسكندرية، وهــزم الجيش البريطانى الوطنيين من أفراد الشعـب المصـرى فى التـل الكبـير.

حدث تحـالف عسكرى جديد بين الدولة العثمانية فى تركيا وبين الإمبراطورية الألمانية؛ ما شكل تهديداً للقناة بشكل مباشر؛ لذلك وضعت مصر رسميًا تحت الحماية البريطانية فى ١٨ نوفمبر١٩١٤، وتم اعتماد مندوب سامى بريطانى رفيع المكانة بها، وتم عزل الخديو العثمانى وفرض تعيين سلطان جديد.. وهكذا أصبحت حماية بريطانيا المتخفية على مصر واضحة، وجاءت حامياتها تعززها قوات من الهنود والأتراك لحماية الخنادق المحدودة الموجودة فى آسيا وأوروبا.

حاول الجيش العثمانى - التركى الاقتراب عن طريق صحراء سيناء، ومحاصرة قناة السويس فى وقت مبكر من فبراير عام ١٩١٥، لكنه تم إحباط هذا الهجوم على الضفة الشرقية. كان هدفهم هو قطع شريان الحياة الإمبراطورى من القناة. وكانت مهمة المارشال الألمانى فون دير جولتز فى بغداد هى إخراج البريطانيين والروس من العراق وإيران، ثم غزو الهند عن طريق أفغانستان. كما لخص والتر بوليفانت فى مذكراته عن ديك هانى فى رواية "العباءة الأخضر" (Greenmantle) قائلاً:

"كانت هناك رياح جافة تهب من جهة الشرق، والأعشاب الجافة تنتظر شرارة كى تشتعل. هذه الرياح تتجه نحو الحدود الهندية... لقد سخرنا من الحرب المقدسة والجهاد الذى تنبأ به العجوز فون دير جولتز، لكننى أعتقد أن هذا العجوز الغبى الذى كان يرى بعين البصيرة؛ لقد كان هناك إعداد للجهاد".

بمجرد أن بدأت اللعبة الكبيرة مرة أخرى، اعتقد البريطانيون أن اثنين بإمكانهما إحداث الخسارة بين الرفقاء الآخرين، إذا كان التحالف التركى - الألمانى سيؤدى إلى إثارة الاستياء الإسلامى فى الإمبراطورية البريطانية، فإن البريطانيين سيشجعون القومية العربية داخل الإمبراطورية العثمانية المنهارة. وقد لعب رجل عربى هو الشريف حسين بن على الهاشمى حاكم الحجاز، ومنطقة ساحل البحر الأحمر فى شبه الجزيرة العربية والجد الأكبر لملك الأردن الحالى دوراً مهماً فى تحقيق ذلك الهدف.

عندما أعلنت تركيا فريضة الجهاد عام ١٩١٤ ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، رفض الشريف حسين المشاركة؛ وحيث إن الحجاز هى الأراضى المقدسة لدى المسلمين ومنشأ عقيدتهم؛ فإن أمرها يهم الجميع. لُقب حسين بالشريف لأنه من آل النبى محمد. وقد نصب حسين أميراً شرعياً على مكة عام ١٩٠٨، ولهذا فقد بدأ فى إثبات استقلاله الفكرى عن الإمبراطورية العثمانية، كان رجلاً نبيلاً عنيداً ولكنه كان أيضاً ذا إيمان قوى وفقاً لما قاله (تى إى لورنس)، إلا أنه فى نظر أعدائه كان متآمراً ذا وجهين، لكن ذلك كان وسيلة جديدة من وسائل تحقيق القومية العربية. كان حسين على اتصال بالجمعيات السرية السورية التى ضمت مثقفى المدن وضباط الجيش مثل

جمعية العهد والفتاة، فكانا أول من فكر بشكل سياسى فى القومية، كما هى الحال بين كبار شيوخ القبائل البدوية فى السعودية والذين كان ولاءهم الأول للعائلة والعشيرة والقبيلة. عاش الحسين فى الحجاز، وهى منطقة صحراوية حارة لا يمكن أن تكفى نفسها بالغذاء وإنما تستمد أغلب دخلها من الحجاج فى موسم الحج، وإذا أدى الحصار البحرى فى الحرب العالمية الأولى إلى منع الحجاج من القدوم إلى الحجاز؛ فإنه سيضطر إلى الاعتماد على الدولة العثمانية فى تركيا ربما أكثر من ذى قبل. كان الشريف الحسين فى حاجة إلى حليف خارجى قوى قادرًا على إمداده بالعدة والعتاد وإبقاء طرق التجارة والسفر مفتوحة، لذا قامت كل من ألمانيا وبريطانيا بمحاولة استمالته، لكن مساعى الحسين الأولى كانت للبريطانيين.

وفى أبريل عام ١٩١٤، أى قبل بداية الحرب بأربعة أشهر، جاء عبد الله، وهو الابن الثانى للحسين، ليقدم طلبًا خاصًا للحاكم البريطانى لمصر إيرل كتشنر الموجود بالخرطوم. فسأله عما لو ثار عرب الحجاز ضد قادتهم الأتراك، فهل يمكن أن يساعدهم البريطانيون بتقديم القليل من المدافع الآلية؟ لكن كتشنر أخبر عبد الله بأن الاهتمام الوحيد الذى تبديه الحكومة البريطانية فى هذه المرحلة نحو شبه الجزيرة العربية يتمثل فى حماية الحجاج الهنود البريطانيين الذاهبين لأداء الحج فى مكة، لكن كل هذا تغير باندلاع الحرب العالمية الأولى.

فى أواخر سبتمبر عام ١٩١٤، أرسل كتشنر مبعوثًا سريًا ليتساءل: "إن كان عرب الحجاز مع البريطانيين أم ضدهم". وفى ٣١ أكتوبر؛ أرسل كتشنر برقية تضمنت سلامه لعبد الله بن الحسين، وطلب منه فيها أيضًا المساعدة ضد الأتراك والألمان قائلا: "إذا ساندت الأمة العربية إنجلترا فى هذه الحرب، فإن بريطانيا سوف تضمن ألا يحدث أى تدخل فى شبه الجزيرة العربية، وسوف تقدم للعرب أى مساعدة ضد أى اعتداء أجنبى خارجى"، استمرت المفاوضات حول ما يمكن أن تتنازل عنه بريطانيا سياسيًا من أجل الحصول على دعم العرب فى ١٩١٥؛ فى شكل مراسلات غامضة بين الحسين والمندوب السامى البريطانى المقدم هنرى مكماهون والذى حل مكان كتشنر فى مصر.

أعرب الشريف الحسين أنه كان يريد بناء دولة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية كتكتل عربى من شأنه أن يضم جنوب تركيا وسوريا والعراق والكويت ولبنان والأردن وإسرائيل وفلسطين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان، إلا أن الخطابات التى تمت بين مكماهون والشريف حسين لم تؤد إلى اتفاق حول هذا الموضوع الحيوى الخاص بالأراضى التى سيتم استبعادها من الخطة؛ وكان أهم مناطق الخلاف هى منطقة جنوب سوريا التى تقع بين نهر الأردن والبحر المتوسط والتى يسميها البريطانيون "فلسطين". كان المندوب السامى مكماهون يعرف الهند أكثر من معرفته بالشرق الأوسط وكان لا يتحدث العربية، بل يكتفى بالتوقيع على ما يضعه مستشاروه أمامه. اعترف سكرتيره فى المنطقة الشرقية، رونالد ستورز، بدوره فى هذه المراسلات التى كان يقوم بإعدادها "شخص محايد" وكان يفحصها هو وبشكل متعجل، بينما كانت رسائل حسين "نثرًا غامضًا غير مترابط... مشوبًا ببعض التعبيرات والتراكيب اللغوية التركية".

لم يكن شريف مكة الحسين الهاشمى يحظى بدعم كل أهل شبه الجزيرة العربية، ففى الرياض شرقًا كانت تنافسه أسرة آل سعود، والتى لا تزال تحكم المملكة العربية السعودية، كان قائدهم عبد العزيز بن سعود، وكان رجلاً طويلاً تمرس فى حروب الصحراء الشرسة، يمتلك قوة عسكرية لكنها كانت تفتقر إلى القوة المعنوية حيث خضعت مكة والمدينة لمنافسه الشريف الحسين.

كان ابن سعود، معارضًا لكل من الشريف الهاشمى والعثمانيين، ويرى أن الفائدة تكمن فى التحالف مع البريطانيين، ولكن أى بريطانيين؟ هل يتصل بالبريطانيين فى لندن أم فى القاهرة أم فى دلهى؟ لم تكن الإمبريالية البريطانية بكل هذا التماسك كما تخيلها أعداؤها. استطاعت شبه الجزيرة العربية الوصول إلى نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى الهند، وفى النهاية تم إقصاء بيرسى كوكس وعميله الجديد هنرى سانت جون فيلبى (الذى اعتنق الإسلام وهو والد الجاسوس كيم فيلبى) من الخدمة السياسية فى الهند، وقضوا بقية عام ١٩١٥ فى إبرام صفقة مع ابن سعود. أما الإمدادات

المنتظمة من البنادق والذخيرة والإعانة الشهرية التى بلغت ٥٠٠٠ جنيه إسترلينى؛ فقد جعلت السعوديين يقفون على طول الخط مع البريطانيين دون مهاجمة حلفائهم أو مساعدة أعدائهم طوال الفترة التى تبقت من الحرب العالمية الأولى.

ثمة منطقة أخرى لا بد أن توضع فى الاعتبار، وهى بلاد الرافدين، العراق حالياً. استعادت المنطقة مكانتها الاستراتيجية مرة أخرى عام ١٩١٤ بسبب قربها من الهند. فما هى إلا رحلة بحرية قصيرة من بومباى متجهاً غرباً حتى تكون فى البصرة، مدخل منطقة الهلال الخصيب، تلك المنطقة التى رآها نائب الملك فى الهند، اللورد هاردينج، صومعة قوية ومكاناً جيداً لإعادة توطين عدد كافٍ من هنود الإمبراطورية البريطانية ذات الكثافة السكانية العالية.

لم يكن هاردينج منحازاً لدعم الثورات العربية ضد حكامهم من الأتراك؛ لأنه لم يكن يريد إغضاب المسلمين السنيين فى الهند، وكان يكره القوميين الذين كانوا يحاولون قتله من قبل. وافق هاردينج على الاستعانة بقوات الجيش الهندى لتأمين تركيب مصافى النفط البريطانية الفارسية فى جزيرة أبادان فى الخليج الفارسى.

تحولت حملة "مسبوت" لـ "القوات الهندية الخارجية دى" إلى حملة شرسة، واستنكر ذلك لويد جورج واصفاً إياها بأنها "قصة تراجيدية شنيعة ناجمة عن عدم الكفاءة وعدم المبالاة من جانب السلطات العسكرية المسئولة". استطاعت القوة "دى" تأمين مناطق إنتاج النفط فى البصرة وفى شط العرب جنوباً، ولكنها اغترت وظنت أن بإمكانها السيطرة على بغداد بثمن بخس، فلم يكن لديهم أى طائرات بل القليل من المدافع الثقيلة ووسائل النقل غير الكافية وبضع خيام وعدة ناموسيات وبعض الإمدادات الطبية والبطاطين والملابس. تم إيقاف تقدم هذه القوات فى ستيسفون فى نوفمبر ١٩١٥ من قبل قوات تركية قادمة من منطقة الأناضول وتحت إدارة ألمانية.

أما من بقى قوات الحملة الهندية على قيد الحياة؛ فقد تراجع إلى كوت العمارة، حيث حوصروا لمدة خمسة أشهر بداية من ديسمبر عام ١٩١٥؛ وقد مرض هؤلاء الأفراد ولم يتلقوا أى إسعافات على الرغم من أن المحاولات للوصول إليهم نتج عنها

إصـابة نحـو ٢٣٠٠٠ شـخص؛ ونظرًا لنقص الإمـدادات تزايدت آلامـهم من الجـوع وأمراض الدوسنتاريا والإسقربوط والكوليرا والملاريا والحمى والبعوض.

أرسل النقـيب تى إى لورنس الذى كان يتـحدث العـربيـة إلى مـا سـمـاه "أرض التخبط" مع أوبرى هربرت الذى كان يتحدث التركية، فى نهاية أبريل عام ١٩١٦، فى مـهمـة لدفع رشوة إلى الأتراك تزيد على مليونى جنيه إسترلينى مقابل افتداء القوات البريطانية. لكن المحاولة باءت بالفشل، وفزع لورنس لما لحق به من خسائر. وكتب بعد ذلك يقول: "إن جميع المقاطعات التابعة لنا لا تستحق أن يموت من أجلها فتى إنجليزى واحـد"، وذلك عندمـا تجـاوز عـدد الخسـائر من الجيش البـريطانى ٩٢٠٠٠ فى بلاد الرافدين، وتوفى أكثر من ثلث الجنود البريطانيين البالغ عددهم ١٤٠٠٠ جندى والذين استسلموا فى النهاية للأتراك فى مدينة الكوت كأسرى حرب فى صحراء العراق أو عملوا فى خط السكك الحديد الألمانى الذى كان مقررًا له أن يربط بين برلين والبصرة وبين بروسيا والخليج الفارسى.

كان تى إى لورنس يعلم الكثير عن منطقة الشرق الأوسط، وفى عام ١٩٠٩ كتب نظرية بى إيه عن تأثير الحروب الصليبية على بناء القلاع فى أوروبا على مدار الفصول الأربعة، إضـافـة إلى علمـه الخـاص بآثار الحـيـثـيـين الموجـودة فى مـتـحف الحـفـريات البـريطانى فى كركيمش التى جعلته يبحث عنها عبـر مسـاحـات شاسـعة فى لبنان وسوريا الخـاضـعتين للحكم التركى. استـخدم لورنس هواياته العلمية فى التمويه فى عمله بالمخابرات الحربية فى شتـاء ١٩١٣-١٩١٤؛ عندمـا خـرجت اكتشـافـاته الأثرية الخـاصـة بـ "صحراء زين" إلى النور فى "التقـرير العسكرى عن شبـه جزيرة سيناء" (Military Report on the Sinai Peninsula)، وهى الدراسة الاستطلاعية التى كلفه بها اللورد كـتـشـنر التـابع لسـلاح المهندسين الملكى. وبعد اندلاع الحـرب خدم لورنس فى القسم الجغرافى بهيئة الأركان العامة (إم أو ٤ بى) القسم الفرعى من إدارة العمليات الآسيوية بلندن، وبنهاية عام ١٩١٤، أصبح لورنس، وهو فى السادسة والعشرين من عمره، أصغر الأعضـاء سنًا فى جهاز المخـابرات تحت إدارة جلبرت كلايتون فى القاهرة،

ذلك الجهاز الذى كان مهتمًا بوضع الإمبراطورية العثمانية فى بؤرة المراقبة. تعددت واجبات لورنس الاستخباراتية فى مصر بما فى ذلك عمل الخرائط من خلال صور الاستطلاع الجوى، والإلمام بكل ما هو جديد حول نظام المعارك التركية عن طريق الأدلة التى تم جمعها من العملاء وملاحظات المسافرين وأسرى الحرب والوثائق والصور التى تم الاستيلاء عليها، واعتراضات الصحف والإذاعة، والتى جمعها فى "دليل الجيش التركى" (Handbook of the Turkish Army) وحرره فيليب جرافيس. اهتم لورنس بوحدات الجيش التركى، وبشكل خاص، تلك الوحدات التى كان يرأسها ضباط عرب لا يدينون بالولاء التام للإمبراطورية العثمانية. وأثناء وجوده فى القاهرة، ادعى أنه علم من شخص منشق عن صفوف الجيش التركى فى جاليبولى، وهو الملازم محمد شريف الفاروقى، أن هناك أعضاءً آخرين فى الجمعيات السرية السورية يعملون على بث روح القومية العربية، وهم موجودون بين الجنود الأتراك الذين أرسلوا لتعزيز جبهة القوقاز ضد روسيا فى نهاية عام ١٩١٥. وقد ذكر روبرت جرافيس فى كتابه "لورنس والعرب" (Lawrence and the Arabs) أن سقوط أرضروم فى شرقى تركيا فى أيدى القوات الروسية كان إلى حد ما "من تدبير لورنس"، وأن لورنس نفسه ادعى أنه جعل القيصر نيكولاس (فى روسيا) على اتصال مع بعض الضباط العرب الغاضبين فى أرضروم. قام لورنس بذلك من خلال وزارة الحربية البريطانية والملحق العسكرى فى روسيا". كتب بى. إتش ليدل هارت فى سرده لحياة لورنس:

فى ربيع ١٩١٦، لعب (لورنس) دورًا أكبر فى مسألة أكثر أهمية من تلك، وهى "الاستيلاء" على أرضروم بمساعدة الجيش الروسى فى منطقة القوقاز بعد أن أصاب الفتور دفاعاته بطريقة غريبة، قد يجد قراء الرواية التالية لجون بوشان - جرينمينتال، أن تلك الأعمال الأدبية كانت تستند إلى قاعدة من الحقائق غالبًا.

ومن الصعوبة بمكان معرفة حقيقة المشكلة. فكل من جرافيس ولورنس كانا يجنحان إلى المبالغة والرومانسية.

كانت سنة ١٩١٦ حافلة بالثورات، فقد ثار بعض الأيرلنديين في عيد الفصح في دبلن وتم شنقهم، كما اندلعت الثورة العربية في وقت مبكر من شهر يونيو، فقد أعطى الشريف حسين الذي كان يخشى قيام الأتراك بعزله عن الحكم، الإشارة لأبنائه الأربعة: علي وعبد الله وفيصل وزيد وآلاف من رجال القبائل في منطقة الحجاز لمهاجمة الحاميات التركية في غرب الجزيرة العربية في مكة وجدة ورابغ وينبع التي سقطت في النهاية في يد قوات الشريف بمساعدة سلاح البحرية الملكي البريطاني والطائرات البحرية، لكن المتمردين لم يحصلوا على دعم جميع العرب؛ فقد اختار معظمهم البقاء على ولائهم للسلطان العثماني. ولم يكن هناك أي تنازلات من قبل الجيش التركي، كما لم ينضم منافس الشريف حسين ابن سعود إلى الثورة، ولم يستطع الثوار الاستيلاء على المدينة المنورة التي كانت آخر محطة في سكة حديد الحجاز.

كانت المسافة بين جانبي قضيب السكك الحديد (الذي تم إنجازه عام ١٩٠٨) نحو ٤٢ بوصة وقامت بتصميمه شركة ألمانية، وكان يمتد على طول طريق الحجاج لأكثر من ٨٠٠ ميل باتجاه الجنوب من دمشق إلى المدينة المنورة عن طريق درعا ومعان، متخطيًا نحو ٢٠٠٠ من الكباري. ربما اعتقد المتدينون أن القضبان اللامعة كانت، كما كان يقال لهم، هدية السلطان التركي السخي لرعاياه من سكان البلاد العربية من أجل توفير وسيلة نقل أسهل استخدامًا أثناء رحلة الحج. لكن الملاحظ أن محطات السكة الحديد التي تبعد نحو أحد عشر ميلاً، كانت عبارة عن معاقل شبيهة بالحصون، وبها فتحات لوضع البنادق وأبراج مياه تبدو وكأنها نقاط مراقبة. في الواقع، كان خط السكة الحديد المار بطريق الحج هو الطريق المباشر لنقل القوات والإمدادات العسكرية العثمانية من دمشق وحلب وإسطنبول. كتب لورنس عن الأتراك يقول:

تحركت فيالق الجيش إلى المدينة المنورة عن طريق السكة الحديد، وقامت بتحصينها بعد تزويدها بالبنادق والسيارات والطائرات والرشاشات وكميات من الخيول والبغال والجمال كي يتم استخدامها في النقل.

فى أواخر سبتمبر عام ١٩١٦، تحركت قوات الحملة التركية من المدينة المنورة قاطعة نحو ٢٥٠ ميلاً فى اتجاه الطريق الغربى الرئيسى لاستعادة مكة المكرمة، وبدأت تجبر العرب المتمردين تحت قيادة الشريف على التقهقر إلى الوراء. خشى البريطانيون من أنه إذا نجح الأتراك فى استعادة السيطرة على مكة المكرمة، فستنتشر الدعوة التى بثتها ألمانيا، اللهم أهلك إنجلترا، بين جموع المصلين يوم الجمعة فى كل المساجد حول العالم، تم إنذار جميع عمال الإمبراطورية البريطانية القديمة مثل الجنرال رينجهال وينجيت من خطورة الجهاد. وفى وقت لاحق، أصبح وينجيت مندوبًا ساميًا فى مصر بعد سبعة عشر عامًا قضاها كحاكم عام وسردار للسودان، حيث أدار هيئة الاستخبارات هناك منذ عام ١٨٨٧، وكتب دراسة حالة عن الأصولية الإسلامية تحت عنوان "الحركة المهدية والسودان المصرى" (Mahdiism and the Egyptian Sudan)

أخذت تظهر بعض الأدلة تؤكد مخاوف وينجيت، حيث قام الأتراك بغزو محمية عدن عن طريق الخليج العربى؛ مما شكل تهديدًا للمحطة البحرية البريطانية هناك. وقد أرسل الألمان الرائد فرايهر عثمان فون ستوتزينجين إلى اليمن لإنشاء محطة لا سلكية للاتصال بالقوات الألمانية فى شرق إفريقيا، ونشر الدعاية بين المسلمين فى القرن الإفريقى. أراد ليج إياسو تحويل الحبشة من دولة مسيحية إلى دولة إسلامية. ولعل ليج إياسو والصوماليين المسلمين قدموا الدعم للألمان لمحاصرة البريطانيين فى تنجانيقا. كان هناك مسلمون تسهل إثارتهم فى السودان مثل: على دينار، سلطان دارفور، المثير للمتاعب، وكذلك السنوسيون المتمردون فى غرب مصر. وفى منطقة الشرق الأقصى، عبر الألمان بلاد فارس إلى كابول لإقناع أمير أفغانستان المحايد بتجميع جيش لغزو الهند؛ حيث يوجد هناك ملايين من المسلمين. ألم يكن "متعصبو الهندود" على خط المواجهة الشمالى الغربى من الهند على علم بأنهم ربما يقعون تحت تأثير رجال الدين الوهابيين القادمين من شبه الجزيرة العربية؟ عثرت المخابرات الهندية عام ١٩١٥؛ على خطابات تحث على الجهاد من شخص مثير وله اتصالات معروفة فى جدة؛ هو مولانا عبيد الله سندى، وكانت مكتوبة على قطعة من الحرير صفراء اللون ومخيطة فى معطف طالب يسمى عبد الحق، كان قادمًا من كابول، فقامت السلطات باعتقال ما يزيد

على ٢٢٠ من الإسلاميين فى شمال الهند. بدا لأناس مثل وينجيت أنه من الممكن أن يبدأ الجهاد عبر آسيا وإفريقيا، حيث تتم إثارته من قبل الألمان الذين كانوا يعملون على إثارة النزاعات.

وحتى يمكن القضاء على شعار "ألمانيا فوق الله"، كان لا بد من تحقيق مطلب حيوى وهو الحيلولة دون استرداد مكة. أراد البريطانيون إعادة تنشيط الثورة العربية ضد الأتراك دون إرسال قوات مسيحية إلى معاقل المسلمين. وظهر خلاف بين وزارة الخارجية ووزارة الحرب البريطانية؛ فهل يتعين إرسال الجنود لحفظ ماء الوجه، أم كان الأمر أبسط من هذا؟ فى النهاية قام المكتب العربى فى القاهرة بالاضطلاع بكل المسئوليات. كان المكتب العربى عبارة عن "مكتب مخابرات مختلط"؛ تم تأسيسه بواسطة مدير المخابرات البحرية العميد البحرى رينجهال بلينكر هول عام ١٩١٦، وعين جلبرت كلايتون رئيسًا له، أما النشرة العربية فكانت مجلة استخبارات محدودة الانتشار، وكان تى إى لورنس واحدًا من أعضائها الجدد. وكان مقر المكتب العربى موجودًا فى "فندق سافوى بالقاهرة، وهو مكان مزعج، فأصوات الأجراس والصافرات لا تنقطع؛ ما دعا العضو أوبرى هربرت إلى القول بأنه يشبه "محطة سكك حديد". كان هول هو من أرسل إلى جيرترود بيل، المستعرب المشهور الذى قام بست رحلات عبر الصحراء وكان يعرف الكثير عن القبائل فى سوريا وبلاد الرافدين وشمال ووسط الجزيرة العربية، طالبًا منه الانضمام إلى المكتب العربى. كما قام هول أيضًا بتعيين ديفيد هوجارث أحد ضباط الصف المتطوعين، الذى كان يتسم بالهدوء، وكان له تأثير فى سلاح البحرية البريطانية، وكان حارسًا بمتحف أشموليان، وزميل كلية مريم المجدلية (حيث وصفه لورنس بأنه "مرشدنا جميعًا").

أدرك رينجهال هول الأهمية الاستراتيجية والبحرية لمدينة الحجاز؛ فإذا استطاع الألمان والأتراك إنشاء غواصة لتكون قاعدة لهم على ساحل البحر الأحمر، سيكون بإمكانهم الإغارة على خطوط الملاحة البريطانية الحيوية عبر قناة السويس.

لذلك قام المكتب العربى بدعم الثورة العربية بصناديق من الأسلحة تقوم بتسليمها البحرية الملكية؛ وكانت تحتوى على: ٥٤٠٠٠ بندقية و٢٠ مليون طلقة من الذخيرة وذلك خلال الأشهر الستة الأولى. كما أرسلوا ما كان يسمى "سلاح فرسان القديس جورج" وهدايا تذكارية بريطانية ذهبية، وعملات إسترلينية فئة الجنيه الواحد وتم تسليم أول ١٠٠٠٠ جنيه إسترلينى فى جدة أوائل يونيو عام ١٩١٦؛ على متن سفينة تسمى إتش إم إس دوفرن، وكانت خزينة الدولة عبارة عن مبنى حجرى صغير مقام بالأسمنت والحجارة فى العقبة، وتراكمت صناديق الذخيرة حتى وصلت إلى السقف. وكان كل صندوق يحتوى على خمس حقائب مصنوعة من القماش الكتانى، تحمل كل منها ختم بألف جنيه إسترلينى. وقد وصف بكباشى فى فرقة الهجانة المصرية كيف كان يتم الحصول على قراب لحمل الغنيمة ثم العودة بها إلى المرتزقة. وعلى كل حال، دفعت بريطانيا رشاوى تقدر بنحو مليون جنيه إسترلينى للعرب فى الحرب العالمية الأولى.

وصلت بعثة بريطانية رفيعة المستوى إلى مصر عبر البحر الأحمر فى منتصف أكتوبر عام ١٩١٦؛ لزيادة حماس الثورة العربية. كانت البعثة تحت قيادة الدبلوماسى اللبق رونالد ستورز الذى يسميه تى إى لورنس " أذكى رجل بريطانى فى منطقة الشرق الأدنى" – مع أن أوبرى هربرت وصفه بأنه "وحش الشرق". كان رونالد يرتدى ملابس خفيفة بيضاء ملطخة من الخلف بسبب تساقط العرق على المقعد الجلدى أحمر اللون الذى كان يجلس عليه، وكان قد اشترك فى منافسة صيد بالمسدسات على ظهر السفينة مع عبد العزيز المصرى، وهو من القوميين العرب وكان قد هرب من الجيش التركى، وأصبح، ومنذ فترة وجيزة، جنرالاً فى جيش الشريف الحسين.

حصل النقيب لورنس وهو الآن ضابط مخابرات فى الثامنة والعشرين من عمره على إجازة مدتها عشرة أيام ليقوم برحلة قصيرة. وقد وصفه ستورز فى "يوميات صديق" بأنه "رفيقى الذكى". كانت هذه الرحلة إلى جدة هى أول زيارة يقوم بها لورنس إلى شبه الجزيرة العربية.

رسونا، في نهاية المطاف، في الميناء الخارجي، على شاطئ مدينة متلألئة معلقة بين السماء اللامعة وظلها على سطح بحيرة واسعة، ثم ارتفعت حرارة الجزيرة العربية وكأنها سيف سلط علينا فأصابنا الخرس. كنا في منتصف النهار، وكانت شمس الظهيرة في جهة الشرق وكأنها ضوء القمر، لكن ضوءها كان باهتًا، لم يكن هناك سوى الأضواء والظلال والمنازل البيضاء. وفي المقدمة لاح ضباب شاحب أعلى الميناء الداخلي، وفي الخلف ظهرت صورة مجموعات متوالية من الرمال، ثم توجهنا إلى الأعلى نحو حافة التلال المنحدرة، ومع شدة الحرارة بدأنا نشعر بالإغماء.

أعمدة الحكمة السبعة:

يُعتبر كتاب لورنس "أعمدة الحكمة السبعة" - (Seven Pillars of Wisdom) عن الثورة العربية، والذي اختار له اسم فرعي هو "الانتصار"، في واقع الأمر ملحمة لرومانسية الفشل، وكان من الموضوعات التي أثارت جدالاً واسعًا، شأنه في ذلك شأن معظم ملامح أطوار حياة لورنس نفسه. كان روبرت إروين يعتقد أنه "عمل عظيم" يمكن أن يعتبر رواية، وكان أقرب للحقيقة من مجرد قصة صحفية أدبية، ويشير إدوارد سعيد إلى أنه كان عملاً أدبيًا أكثر منه تاريخيًا. شعر لورنس ذات مرة بأن هناك "دافعًا داخليًا يدفعه للتعبير عن نفسه بشكل أقرب ما يكون إلى الخيال". ففي مقدمة كتابه أعمدة الحكمة السبعة، والتي ألغاها لورنس فيما بعد - يقول لورنس: "إن الكتاب كُتب بغرض التأثير والإقناع... "إنها مسيرة معالج للحرية العربية يسير من مكة إلى دمشق... قام رجل عربي بشن حرب وقاد مجموعة من العرب للاستيلاء على شبه جزيرة العرب"، كان الكتاب من أعمال الدعاية العربية، وهو يتطلب وجود بطل عربي مناسب.

قابل لورنس أبناء الشريف الحسين، وقال: "وجدت عبد الله ذكيًا للغاية، وكان على مهندمًا جدًا، وزيد رابط الجأش". في ٢٣ أكتوبر ١٩١٦، قال لورنس: إنه وجد الرجل الذي يريده. إنه الابن الثالث الصبور فيصل (جسد هذه الشخصية أليك غينيس في فيلم ديفيد لين الكلاسيكي عن لورنس)، فهو الشخص المطلوب لبعث الثورة من جديد.

امتلك فيصل السلاح والشخصية ليكون الزعيم الذى يحتاجه العرب، كما كان يمتلك أيضاً المرونة السياسية اللازمة لدعم المصالح البريطانية. حاول لورنس كسب رضا السير رينجهال وينجيت سردار الخرطوم، والذى كان قائد المنطقة فى الحجاز أثناء الثورة العربية، وقد حصل على الموافقة من مديره فى الاستخبارات جلبرت كلايتون فى القاهرة، وبعد ذلك عاد إلى الجزيرة العربية ليؤدى دوره باعتباره ضابط اتصال ومستشاراً عسكرياً لفيصل.

فى الفصل ٢٠ من كتاب أعمدة الحكمة السبعة، يطلب فيصل فجأة من لورنس أن يبدأ فى ارتداء ملابس عربية مثل الموجودين فى مخيم الصحراء، ويوافق لورنس على ذلك "فى الحال وبكل سرور". دل قبول لورنس لارتداء ذلك الزى فى ديسمبر ١٩١٦ على أنه رجل واسع الأفق بخلاف النقيب شكسبير الأكثر جموداً، والذى كان قد تفاوض بالنيابة عن بريطانيا مع ابن سعود قبل سنتين. لقى شكسبير حتفه فى نزاع قبلى لأنه أصر على أن يبقى مرتدياً زيه وخوذته المميزين بلونهما الكاكى، وأخذ يلتقط صوراً بالكاميرا ذات اللوح الزجاجى الميكانيكى، بدلاً من الاشتراك فى هذه المعركة العربية.

فى أغسطس من عام ١٩١٧، وزعت النشرة العربية "سبعاً وعشرين مقالاً" عن النصائح التى وجهها لورنس لضباط الاتصال والمستشارين الآخرين الذين ربما يعملون مع البدو أو عرب الحجاز. إن ما يستوقف القارئ اليوم هو تواضعها الحكيم. إنها تدعو إلى لفت الانتباه إلى العرب وتدعو إلى فهم العرب لا عن طريق إعطاء الأوامر، ولا عن طريق استخدام القوة البدنية: "فمن الصعب أن يظل الإنسان صامتاً أمام الخطأ، وكلما تحكمت فى أعصابك أصبحت أكثر تميزاً". يبدأ المقال الأول بقول لورنس: "لا بد أن تتحلى بالمرونة فى الأسابيع الأولى، فإن البداية السيئة يصعب التكفير عنها"، ويقول المقال الثانى: "تعلم كل ما تستطيع عن الأشراف والبدو، وتعرف على أسرهم وعشائرهم وقبائلهم وأصدقائهم وأعدائهم والآبار والتلال والطرق التابعة لهم، وذلك من خلال الاستماع والاستفسار بشكل غير مباشر. لا تحاول توجيه أى أسئلة. حاول التحدث بلهجتهم العربية، وليس بلهجتك". أما المقالات التسعة التالية فكانت عن الإدارة المقدرة لرغبات الآخرين، خصوصاً عند التعامل مع القائد: "وإذا تعاملت مع الشريف قم بإخفاء شخصيتك ولا تفكر بعقلك".

تناولت المقالات من ١٧-٢٠ موضوع الملابس بشكل خاص: "ارتدى غطاء رأس عربى عندما تصاحب أفراد القبيلة، فالبدو يكنون مشاعر بغيضة تجاه من يرتدون القبعات". ومضى يقول: "باستثناء مناطق بعينها، أخبرهم أنك ضابط بريطانى وتعتنق المسيحية"، يعتقد لورنس أنه بذلك ستساعدك "القبيلة العربية" فى "اكتساب الثقة والعلاقة الحميمة بدرجة يستحيل أن تصل إليها حال ارتداك الزى الموحد. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمر يتسم بالخطورة والصعوبة"، حيث يقول: "لن تتم مراعاة الخصوصيات، ولن يتم التغاضى عن انتهاكات السلوك: "ستكون بمثابة ممثل فى مسرح أجنبى تؤدى دورك فيه ليلاً ونهاراً لمدة أشهر دون راحة من أجل الحصول على شظف العيش". ربما يكون بقاؤك مرتدياً الزى الرسمى البريطانى أمراً سهلاً: "ومن ثم فلن يقوم بشنقك الأتراك عندما يلقون القبض عليك"، لكنه يشير إلى أنه إذا كان بإمكانك دفع ثمن تغيير ملابسك معنوياً، فإن جائزة النجاح قد تكون أكبر بكثير. نراه يصرح ويقول: "إذا قمت بارتداء الملابس العربية كلها، فارتدى أفضلها"، ويضيف: "إذا قمت بارتداء الملابس العربية كلها، فامض فى هذا الطريق إلى نهايته، فاترك أصدقاءك الإنجليز والأعراف التى درجت عليها على الساحل، وتمسك تماماً بعادات العرب".

ومن هنا؛ فإن رواية أعمدة الحكمة السبعة توضح كيف لبس لورنس ملابس بيضاء جميلة مصنوعة من الحرير الناعم الذى يشبه أنسجة فساتين الزفاف، والذى أصبح بعد ذلك شعاراً له، وبدأ يدخل العالم الأصعب والأقسى لسكان الصحراء من العرب. أصيب لورنس بالدوسنتاريا نتيجة شرب ماء الصحراء؛ وتحمل الطفيليات مثل: القمل والبراغيث والقراد والحمى. وفى الفصل ٣٣، يذكر أنه أصيب بالهزال نتيجة المرض، ومكث فى إحدى الخيام لمدة عشرة أيام، يهيم ويحلم بالجبر وعلم الأحياء وسيكولوجية الحرب... وكانت تفوح من خيمته رائحة العرق، بدأت نظرية حرب العصابات تترابط فى ذهنه.

كان لورنس عالمًا بأدب الإغريق والرومان، واستطاع فى وقت لاحق ترجمة "أوديسا" (Odssey)، واستطاع أن يتذكر عدداً من القصص المشابهة من العالم القديم. ففى الكتاب الثالث عن زحف زينوفون العسكرى، وجد مجموعة من المرتزقة اليونانيين

أنفسهم قريبين من بغداد، على بعد ألف ميل من بلادهم، حيث أعدم قادتهم من الألوية والضباط كما حوصروا واتهموا بالخيانة من قبل الفارسيين المتعطشين للدماء. وتقدم زينوفون قدمًا وهو يرتدى أفخم ثيابه ليخاطب من تبقى منهم على قيد الحياة. إنه ليس جنديًا مثلهم، لكنه كان رجلاً مرفهًا من الطبقة الراقية وأحد تلامذة سقراط الذين أتوا وهم يمتطون الخيل لاستكشاف العالم والتعليق على ما يجرى فيه. أخبر زينوفون الجمع الذين بلغ عددهم عشرة آلاف بما يجب عليهم فعله، من وجهة نظره، كى يعودوا إلى وطنهم فى اليونان.. عليهم أولاً القيام بإحراق مركباتهم وخيامهم وجميع حقائبهم، ولا يحملون معهم سوى الطعام والماء والأسلحة ثم مغادرة البلاد، ومن ثم ينالون حريتهم، ثم يتمكنون من ابتكار أسلحة وأساليب جديدة، لكى يحاربوا من أجل البقاء على قيد الحياة".

ويتأمل لورنس لوضعه فى أواخر عام ١٩١٦، قام فيه بتطوير أفكاره الخاصة بحرب العصابات، وقد كان هذا التصور هو أساس مقاله الرائع فى فترة ما بعد الحرب بعنوان "تطور الثورة" والذى نشر فى أكتوبر ١٩٢٠ فى العدد الأول من صحيفة الجيش التى تصدر كل ثلاثة أشهر، والتى أسسها وحررها غى داونى، ضابط المخابرات الذى أرسل كومبتون ماكنزى إلى ليسبوس. كان ذلك المقال واحدًا من أهم مقالات لورنس التى لم يكتب مثلها من قبل. أعاد ليدل هارت فى وقت لاحق صياغته تحت اسم "علم حرب العصابات" فى الطبعة ١٣ من الموسوعة البريطانية، وأدرجها فى الفصل ٣٣ من أعمدة الحكمة السبعة، فالمقال يتخطى التفكير العسكرى التقليدى، وتحلل حرب العصابات غير المنظمة بطريقة جديدة فى العصر الحديث:

فلنفترض أننا (على سبيل المثال) مجرد أفكار، أو شىء غير ملموس، وليس هناك ما يحمينا، تنجرف مثل الغاز؟ فإن الجيوش ستقف ثابتة مثل النباتات، تتغذى من خلال جذع طويل يصل من خلاله الغذاء إلى قمتها، أما نحن فسنصبح بخارًا يذهب حيث توجهه الرياح.

فى ١٩١٦، نقل الأتراك جنودهم بالقطار إلى المدينة المنورة وتقدموا ٢٥٠ ميلاً ناحية الجنوب تجاه مكة، فأدرك لورنس أن رجال القبائل العربية لم يكونوا أقوياء

بدرجة تكفى لمهاجمة الجبهات الرئيسية الأمامية التركية، كما كانوا غير قادرين تماماً على الدفاع عن مواقع ثابتة، ولذلك لم يحاول المبادأة بالهجوم. بدلاً من ذلك، قام بتحريك قوة ناحية الشمال خلف الأتراك لتهديد خط سكك حديد الحجاز الذى يبلغ طوله ٨٠٠ ميل، فوضع العدو فى موقف الدفاع، لذا ارتد الأتراك وتراجعوا إلى المدينة المنورة، ثم انقسمت قوتهم إلى مجموعتين، الأولى لحماية وتحصين المدينة المنورة، والأخرى لحماية خطوط إمداداتهم. أدرك لورنس أنه لم يكن هناك أى ميزة فى الاستيلاء على المدينة المنورة فى معركة تقليدية سوى سفك الدماء الذى لا طائل منه، وإذا كان من الممكن إجبار الأتراك على البقاء فى قلعتهم؛ فإنها سوف تتحول إلى سجن لهم. لذلك خارت قوى الجنود الأتراك، وأخذوا يستهلكون مؤنهم، بل ويأكلون دوابهم من الحيوانات الصالحة غير الضارة. "إنه سيحوز بقعة الأرض التى يجلس عليها، وليس فى وسعه أن يصوب بندقيته لأى اتجاه"... وهكذا صار نحو ٩٩٪ من أرض الحجاز للعرب.

كانت تسعة أعشار التكتيكات مؤكدة ويتم تدريسها فى كتب؛ لكن العشر الباقى فهو كطائر الرفراف الذى يحوم حول البركة، وهذا هو اختبار الألوية.

إن "تطور الثورة" يصف ما يسمى الآن بـ "الحرب غير المتكافئة"، يقول لورنس: "إن التصدى للتمرد العربى سوف يكون أمراً يبعث على الفوضى، وبطئ بالنسبة إلى الأتراك، يشبه تناول الحساء بالسكين"، ولن تكون هناك معارك منظمة، لأن القوات العربية غير النظامية لا تتحمل أى خسائر، فجميع أفرادها ذوى قيمة، وليسوا مجرد وحدات؛ لن يكون هناك أى اتصال، لأن العرب التابعين للورنس سوف يقومون بدلاً من ذلك بشن "حرب منفصلة.. كان يمكننا احتواء العدو عن طريق التهديد الصامت فى صحراء مجهولة مترامية الأطراف، دون أن نكشف عن أنفسنا حتى وقت الهجوم". لن ينخرط العرب فى صفوف القوات التركية، لكنهم سيهاجمون الأراضى الخالية فى محطة سكة حديد الحجاز. لقد قاموا بتعطيل المسارات، لا لتدميرها بشكل دائم ولكن لجعل الأتراك يتكبدون خسائر جراء عمليتى الحماية والإصلاح. وكان لقطع أسلاك التلغراف غرض استخبارى: حيث جعل الأتراك يستخدمون أجهزة اللا سلكى التى من الممكن أن

يعترضها البريطانيون بعد ذلك ويستمعون إليها. يتطلب شن حرب الكر والفر مع البدو غير النظاميين أن يكون جهاز المخابرات فى أفضل حالاته، وكذلك الاهتمام بالحالة المزاجية والروح المعنوية لرجال القبائل اهتماما فائقًا.

كانت أوراقنا التى اعتمدنا عليها هى السرعة والوقت، وليس ضرب السلطة، وهذا ما أعطانا قوة استراتيجية أكثر من القوة التكتيكية؛ فالحرب تعتمد على الاستراتيجية أكثر من القوة.

كانت الطلعات التى يقوم بها رجال حرب العصابات فى الصحراء أشبه بالعمليات البحرية، لكنها هنا بالجمال التى تستخدمها الأطراف المغيرة مثل السفن. يحمل كل رجل مؤنه من الطعام الذى يكفيه مدة ستة أسابيع على جمله، ومئة طلقة لبندقيته ونصف لتر من الماء لتستمر معه حتى نهاية الآبار. ومع قطع مسافة تتجاوز الألف ميل، كانت التكتيكات دائمًا ما تجرى فى السر كما كانت بعيدة المدى، لم تكن هذه حملات، ولكنها ضربات... حيث استخدمنا أصغر قوة لدينا، فى أسرع وقت، وإلى أبعد مدى".

كان التعاقد مع المتطوعين العرب غير المنتظمين يتم بوعد شرف، وكانت حروبهم عبارة عن حرب فرد لفرد، وبشكل مثالى، كان كل حدث عبارة عن سلسلة من القتالات الفردية التى ظل فيها المقاتلون الأكفاء رابطى الجأش، واستخدموا السرعة والكتمان والدقة فى إطلاق النار كى يحققوا النصر. ظن لورنس أن "الحرب غير النظامية أمر أكثر جدوى من التراشق بالحراب".

جاءت الهدنة قبل أن يستطيع لورنس إثبات أنه يمكنه الانتصار فى الحرب دون الدخول فى معارك، لكنه كان يتحرك فى هذا الاتجاه. أصبحت تلك الأفكار البسيطة تقليدية هذه الأيام، لكنها كانت ثورية حينها وكأنها نظريات تقوم على أساس ميكانيكا الكم. اعتقد البريطانيون، بعد ذلك بين عامى ١٩١٦ و١٩١٧، أن فقدان ٦٠٠٠٠ رجل فى يوم واحد فى معارك السوم، أو فقدان ١٤٢٠٠٠ شخص فى أربعة أيام فى أراس، أو فقدان ٢٧٥٠٠٠ فى أربعة أشهر فى باشينديل أمر عادى، ثم ينتهى كتاب "تطور الثورة" بما يلى:

من خلال الحركة والأمان المتاحين (فى ظل تنكير الأهداف بالنسبة إلى العدو) وكذلك الوقت والعقيدة (فكرة تحويل كل موضوع إلى أمر ودية)، سيكون النصر فى جانب الثوار...

ومنذ ذلك الحين، كان لهذه الصيغة تأثير تاريخى حول العالم لم يكن فى الحسبان. فالثوار الشيوعيون، ومن بينهم الفيتناميون، تعلموا الدرس جيداً. تم شراء أول طبعة كاملة من دراسة روبرت تابر التى نشرت تحت عنوان "حرب العصابات بين النظرية والتطبيق وحرب البراغيث" Warfare Theory and Practice، (The War of the Flea) بين عامى (١٩٦٤ و١٩٦٥) التى قام بها الجيش الأمريكى خلال حرب فيتنام. وبعد أربعين عاماً، لا تزال هناك دروس يتم تدريسها فى العراق؛ فبعض الضباط العسكريين الأمريكيين الذين يقرءون نشرة الحروب الصغيرة، يمتلكون أيضاً نسخاً من كتاب أعمدة الحكمة السبعة الذى لا زال يلقى إعجاباً منقطع النظير.

فى شهر ديسمبر ٢٠٠٦، أصدر الجيش الأمريكى دليله الميدانى الجديد حول مكافحة التمرد، والذى كتبه كل من الجنرالين ديفيد بتريوس والعميد كونراد كرين، وأخذا يدعوان فيه إلى إحداث تغيير جذرى بالانتقال من صلابة القوة الأمريكية التقليدية وقوة النيران الهائلة إلى منهج يقترب من "القلوب والعقول". وفى الجزء الثالث من ملاحظات الخاصة بالمصادر فى كتابه "تطور الثورة" جاء أن المقال السادس من بين "المقالات السبع والعشرين" كان مأخوذاً من نشرة خاصة بأحوال العرب فى ٢٠ أغسطس ١٩١٧، وقد جاء فى المقال ما مفاده:

لا تحاول عمل الكثير بنفسك، فما تقوم به يتقنه العرب، إنها حربهم، ويقتصر وجودك هناك على تقديم المساعدة لهم وليس تحقيق النصر نيابة عنهم.

(٨)

وعد أرض الميعاد

لعب الخداع والاحتيال العسكرى دورًا رئيسيًا فى حملة فلسطين فى الحرب العالمية الأولى، ففى يونيو ١٩١٧؛ اصطحب لورنس المجاهد الشيخ عودة أبو طايع (صاحب الشخصية المفعمة بالحيوية، والذى جسد دوره فى فيلم لورنس العرب الفنان أنطونى كوين) خلال الهجمات القوية على ميناء العقبة العربى الذى يقع على البحر الأحمر، حيث تصدت دفاعات الأتراك لهذه الهجمات البحرية التى كان من المتوقع أن يقوم بها الفرنسيون أو البريطانيون، لكنه لم يكن من المتوقع أن يقوم البريطانيون بشن هجمات الصحراء من خلفهم، قام لورنس بتمشيط المناطق التى تقع خلف الساحل، ورافقه فى ذلك عدة مئات من العرب غير النظاميين ممن يمتطون الجمال. وبعد أن قام لورنس بتأمين ميناء آخر للبحرية الملكية بقصد وضع الإمدادات فيه؛ أسرع لورنس بالذهاب إلى القاهرة لمقابلة القائد العام البريطانى الجنرال إدموند ألنبى للمرة الأولى (الذى جسد دوره فى فيلم لورنس العرب جاك هاكينز). أكل العث الزى الكاكى الرسمى الخاص بلورنس، لذا ظل لورنس مرتديًا ملابسه العربية، ووصف لورنس الجنرال ألنبى فى كتابه "الأعمدة السبعة" – (Seven Pillars) قائلاً:

كان ألنبى ضخم البنية واثقًا من نفسه... جلس على كرسيه وهو ينظر إلىَّ، ليس بالتحديق المباشر كما هى عاداته وإنما بطرف عينيه، ثم بدت عليه الحيرة. كان قادمًا من فرنسا التى أمضى فيها سنوات لتجربة آلة جديدة تستخدم فى سحق الأعداء. وقد كان يحمل الكثير من الأفكار الغربية عن مسحوق البارود والمدافع الثقيلة،

وكان ذلك هو أسوأ تدريب فى الحرب التى نخوضها، ولأنه فارس لم يكن مقتنعًا تمامًا بالتخلى عن الرفقة القديمة فى هذا المكان المختلف فى آسيا، وبمصاحبة دوناى وشيتود طوال الطريق الغريب فى هذه المناورة. لم يكن مستعدًا على الإطلاق وكانت هيئته غريبة مثلى، عرض الرجل ذو القدمين الحافيتين الذى يرتدى إزارًا من الحرير أن يقوم بعرقلة الأعداء إذا وفرنا له الإمدادات والسلاح والتمويل اللازم لمئتى ألف محارب من أجل السيطرة عليهم والتحكم فيهم.

درس ألنبى الخريطة بينما حدثه لورنس عن منطقة شرق سوريا وسكانها، حيث وعده ذلك الرجل الغريب، ذو البنية الضعيفة، بتقديم مساعدة كبيرة له ضد الأتراك فى الجبهة اليمنى، إن هم أعطوه البنادق والمال، وفى النهاية التفت ألنبى وردَّ مباشرة وبهدوء: "حسنًا، سأفعل كل ما أستطيع من أجلك"، وانتهى الأمر.

كلف لويد جورج ألنبى بالاستيلاء على فلسطين عن طريق مصر ليقوم بطرد الأتراك العثمانيين والسيطرة على القدس، فقام بنقل مقر قيادته من المنطقة الراقية بالقاهرة إلى الصحراء شمال رفح، كما كان يتجول بين صفوف رجاله (ما جعله محبوبًا بين الأستراليين)، وأعاد التزود بالمؤن ونظم فيالقه العسكرية الثلاثة من أجل معركة حاسمة مع الأتراك المتمركزين بغزة فى فلسطين؛ حيث فشل هجومان مباشران قام بهما البريطانيون فى السابق.

وبشكل عام، فقد حقق ألنبى بذكائه أكثر مما حققه بعناده الذى كان يعرف به. كان فارسًا، وحيث إنه كان يستخدم آلاف الخيول والجمال فمن المحتمل أن يظن الآخرون أن حملته هذه كانت حملة على الطراز القديم، ولكنها فى حقيقة الأمر كانت تنم عن إبداع وحسن استخدام للذكاء والدهاء كما استخدم تقنية جديدة فى الطيران والتصوير والميكنة واللا سلكى لخداع وإحراز التفوق ببراعة على الأعداء. وفى دراستها عام ٢٠٠٧ حول "المخابرات العسكرية والثورة العربية" – (Military Intelligence and the Arab Revolt)، اعتبرت بولى إيه موس "أنها كانت حرب المخابرات الحديثة الأولى".

كانت حملة فلسطين عام ١٩١٧؛ آخر حملة عسكرية كبيرة فى سجلات الحرب، استخدمت فيها الخيول والجمال على نحو استراتيجى كبير.. إلا أن الحالة اختلفت بشكل كبير عن حرب الخنادق فى فرنسا، حيث كانت المدفعية تقوم بكل شىء؛ بينما لم يكن لسلاح الفرسان أى جدوى، أما فى فلسطين فكان سلاح الفرسان بقيادة هارى شوفيل الأسترالى قد خاض أكثر من ست وثلاثين معركة ضد الأتراك فى ثلاثين شهرًا وانتصر فيها جميعًا، وكان الفرسان يقودون اثنين من فيالق ألنبى العسكرية فى قوات الحملة المصرية؛ وكان من بينهم المخطط اللامع فيليب شيتود قائد الفيلق رقم ٢٠.

كان ضابط أركان شيتود القادم من مصر، هو العميد جاى دوناى المصرفى الذى اشترك فى خدعة مضيق الدردنيل. "لم يكن دوناى برجل الحرب الذى يحارب معركة منتظمة"، وقد كتب تى إى لورنس فى الفصل التاسع عشر من كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" – (Seven Pillars of Wisdom) ما يلى: لقد كان دوناى شيتود ممن أقنعوا ألنبى أن المعركة الثالثة فى غزة يجب ألا تكون على رأس أولوياته.

وعلى نحو موسع، تشبه خطة ألنبى خطة لاعب كرة قدم يقوم بتسديد ضربة جزاء؛ حيث يتجه ذراعه وجسده يسارًا نحو الأتراك، ويتجه ذراعه اليمنى نحو غزة ولكن قدمه تسدد الكرة بشكل صحيح نحو الأتراك فى بئر سبع ثم تنعطف الكرة نحو الجزء الخلفى من الشبكة. كان الأمر خطيرًا؛ حيث كانت الطريق الصحراوية إلى بئر سبع مناسبة للخيول والجمال إلا أنها لم تكن مناسبة للمركبات، لذا قد تكون هناك مشكلة كبيرة تتعلق بإمداد الحيوانات بالماء. كان من الضرورى جعل الأتراك يظنون أن أى تحركات فى هذا الاتجاه هى من قبيل الروتين أو الخداع فقط، وأن عليهم التفكير فى الهجوم الحقيقى الذى سيقوم به البريطانيون على ساحل غزة.

كتب تى إى لورنس أن جاى دوناى:

وجد حليفًا فى طاقم الاستخبارات والذى نصحه بتخطى التدابير الاحتياطية السلبية، وتقديم معلومات (خاطئة ومزيفة) للعدو عن خطط قام بإعدادها. كان هذا الحليف هو ماينرتزيهاجين، وهو طالب مهاجر التحق بالجندية تظهر كراهيته للعدو فى مراوغته لهم وعنفه معهم.

كتب الرائد ريتشارد ماينرتزيهاجين (١٨٧٨-١٩٦٧)، فيما بعد رواية "طيور نيكولز فى مصر، طيور الجزيرة العربية" - (Nicoll's Birds of Egypt Birds of Arabia)، كما قام بإعداد دراسة عن سرقة الطيور "القرصنة والنهب" - (Pirates and Predators)، إلا أن قائده العام ألنبى كان عالمًا فى مجال الطيور، وربما ساعدت معلوماته عن عالم الطيور كلا الشخصين فى تنفيذ عمليات الخداع. سجل ديك ماينرتزيهاجين (وهو لقب ألمانى) حياته فى ستة وسبعين مجلدًا ضمنها يوميات مليئة بالرعب وأحداث القصف. وطبقًا لما ذكره عندما قابل أدولف هتلر للمرة الأولى عام ١٩٣٤، حيث مد القائد ذراعه اليمنى إلى الأعلى وقال: "مرحى سيدى هتلر!"، ارتبك ماينرتزيهاجين قليلاً ثم قام برفع ذراعه قائلاً: "مرحى ماينرتزيهاجين!"، إنها بالفعل قصة عظيمة، لكنها لم تحدث أبدًا.

يمكنك التعرف على أسلوب ماينرتزيهاجين عندما كان تلميذًا بالمدرسة من خلال الحوار الذى دار بينه وبين اللورد ساليزبورى فى أثناء إجراء تفتيش ميدانى لفرق المتطوعين فى هاتفيلد بارك فى صيف عام ١٨٩٢:

- هل هو أحد الأرانب الخاصة بى؟

- نعم سيدى.

- وكيف قتلته؟

- قذفته بحجر.

- حسنًا، وهل تنوى أن تأكله؟

- لا يا سيدى، إنه فقط لنسور هارو.

وطبقًا لما جاء فى يومياته التى كان يرويها حين كان فى الصف الثانى الإعدادى، تعرض ماينرتزيهاجين لاعتداء جنسى وتم جلده بصورة بشعة من قبل ناظر المدرسة الذى كان يدعى والتر رادكليف. ادعى الفتى الصغير شعوره بالعزلة وتسرب الشر إلى روحه. وابتداءً من مرحلة المدرسة الإعدادية قرر أن يكون فارسًا لا فريسة ضعيفة. وطوال حياته أخذ يتوارى خلف الجندى العنيد ماينرتزيهاجين، ويمكن أن يظهر ذلك فى الكلمات أو الأفعال العنيفة أو تقنعه فجأة باللباقة.

التحق ماينرتزيهاجين بالجيش فى الهند، وانتدب بين عامى ١٩٠٢ و١٩٠٦ لدعم مجموعة بنادق الملوك الإفريقية فى كينيا؛ حيث كان يستمتع بإبادة كل من الحيوانات والبشر. وفى أثناء قيامه ببعض الإجراءات العقابية ضد أشخاص من قبائل الكيكويو والإمبو عام ١٩٠٤؛ استطاع اكتشاف سلالات جديدة من فصائل الخنزير الشرقى العملاق التى اشتق اسمها هايلوكيرويس ماينرتزيهاجين من اسمه. وأخيراً غادر ماينرتزيهاجين كينيا بعد أن خضع لثلاث محاكم عسكرية بسبب إطلاق النار على ثلاثة وثلاثين من رجال القبائل المتحدثة بالناندى فى ١٩ أكتوبر ١٩٠٥، فعندما كانوا يقاومون بناء خط بريطانى للسكك الحديد يمتد من مومباسا بأوغندا (أطلق عليه "القطار السريع") ليمر عبر أراضيهم، وكان زعيمهم بصدد مقابلة ماينرتزيهاجين ليطلب منه السلام وأقبلا ليتصافحا؛ قام ماينرتزيهاجين بسحب مسدسه وأطلق النار على كويتيل أراب ساموای فأرداه قتيلاً؛ وادعى أنه كان يدافع عن نفسه ضد ذلك الرجل العجوز الملعون الذى كان على وشك أن يقتله ويستخدم أعضاء جسده فى إعداد الحساء السحرى.

عاش ماينرتزيهاجين طوال حياته مغرمًا بالحياة الطبيعية، وقد استخدم الخداع خلال صيده؛ مما جعله ينشئ دمية على شكل نعامة فى كينيا، حيث قام ببسط جلد إحدى إناث النعام على إطار من الخيزران، وأمسك الرأس والرقبة المنفصلة فى يده اليمنى، وبندقيته فى اليد اليسرى؛ حيث كان يستطيع التصويب إليها من على مسافة خمس وعشرين ياردة فى معظم الأحيان وعكس اتجاه الريح. ظن ماينرتزيهاجين أن "براعة القتال تأتى من براعة صيد حيوانات البرية".

وطبقا لما ذكره تى إى لورنس، عن ماينرتزيهاجين:

كان رجلاً عقلانيًا، وكان مثاليًا ومؤمنًا بقناعته باستخدام الشر كمطية لاستحضار الخير. كان ماينرتزيهاجين عالم استراتيجيات وعالم جغرافيا، كان ضحكه الصامت يضفى وقاراً عليه، وقمة سعادته أن ينجح فى خداع أحد أعدائه (أو أصدقائه) من خلال بعض المداعبات غير الأخلاقية مثلما فعل مع بعض الغوغاء الألمان.

صُدم ماينرتزيهاجين بصورته عن نفسه وتوسل إلى لورنس ليقوم بإزالتها من كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، لكن يُوميات لورنس زادت من الانطباع السيئ عنه تماماً، فعندما كان ماينرتزيهاجين عضواً فى هيئة تدريس جامعة كويتا بولاية بلوشستان، قال: إنه عندما وجد سائس الإسطبل الذى يقوم على خدمة المهور يسىء معاملتها، فأخذ يضربه بمطرقة البولو حتى الموت، وادعى أنه سوى الأمر مع الشرطة، حيث تم تسجيل سبب الوفاة بأنه مرض الطاعون، وفى حملته ضد الألمان فى تنجانيقا بشرق إفريقيا، وضع ماينرتزيهاجين عدداً من الطيور والحيوانات النافقة حول بئر مليئة بالمياه النظيفة ووضع عليها ملصقاً مكتوباً عليه كلمة (مياه مسمومة) حتى يضلل الأعداء ويحتفظ بها بشكل آمن لاستخدامه الخاص. وعندما كان ضابطاً فى الاستخبارات البريطانية أرسل ذات يوم جاسوساً ألمانياً مشتبهاً به ومعه ١٥٠٠ روبية وحمّله رسالة شكر، وتأكد من قيام الألمان باعتراضه وإطلاق النار عليه. ومن خلال إدارة شبكة من العملاء النشطين فى شرق إفريقيا اكتشف ماينرتزيهاجين أن مراحيض الضباط الألمان كانت تمثل مخبأ جيداً للمستندات الملوثة، فعلى الرغم من قذارتها، كانت الرسائل " تضم معلومات دقيقة". كان ماينرتزيهاجين جندياً نشطاً غير خلوق، ولعب دوراً بارزاً فى الخداع البريطانى فى فلسطين.

قضى ماينرتزيهاجين وقتاً فى الإعداد سراً لخدعة "حقيبة الظهر" فى ١٠ أكتوبر عام ١٩١٧؛ التى اعتمدها ألنبى لتكون دوراً رئيسياً فى الهجوم الناجح على غزة، وكان دائماً ما يدعى أنه نفذها شخصياً وبشكل فردى. امتطى ماينرتزيهاجين حصانه شمال غرب بئر سبع وتعمد الاشتباك مع دورية تركية مما عرضه لإطلاق نار، فسقط من فوق سرجه وسقطت زجاجة المياه الخاصة به ومنظاره وبندقيته والأهم من ذلك كله حقيبة الظهر ذات اللون الكاكى الملطخة بدم الحصان، وكانت تحتوى على رسائله وأوراقه الشخصية وأوراق نقدية فئة ٢٠ جنيهاً إسترلينياً؛ ثم امتطى جواده مرة أخرى وأقفل راجعاً، وتظاهر بأنه مصاب ليبعد انتباه رجال الدورية عن حقيقة الخدعة، ثم تريث وقتاً طويلاً ليرى كيف يلتقط رجال الدورية بندقيته وحقيبة ظهره.

أما الأوراق القديمة داخل حقيبة الظهر؛ فقد بدت وكأنها سليمة على الرغم من أنها ما كانت إلا مجرد أكاذيب، فهى عبارة عن سجل أحد ضباط الأركان البريطانيين رقم ١٥٥ يتحدث عن الخطط والصعوبات التى واجهتهم، وكان المقصود أن ينذر الأتراك والألمان بقرب موعد الهجوم الرئيسى فى غزة، مسبوقًا بمجرد هجوم صغير على بئر سبع، وهو أمر منافٍ تمامًا للحقيقة. كان هناك أيضًا خطاب ملهب للمشاعر كتبته إحدى الزوجات تعلن أنها أنجبت طفلاً وسمته ريتشارد (ادعى ماينرتزيهاجين فى بادئ الأمر أن الخطاب يخص أخته؛ التى لم تنجب أصلاً؛ وكانت بعيدة فى إنجلترا تبعد عنه أميالاً وأسابيعًا كثيرة، لكنه صرح فيما بعد بأن التى كتبت ذلك الخطاب هى إحدى المرضات التى تعمل فى مدينة العريش). كانت هناك ملاحظات أيضًا حول الشفرة التى قد تمكن الأعداء "من حل شفرات رسائل التمويه والخداع التى من المحتمل أن نقوم بإرسالها لاحقًا".

ادعى ماينرتزيهاجين أنه احتفظ بنسخة احتياطية من خطة الخداع الخاصة به من خلال إرسال رسائل لا سلكية تثير القلق عن حقيبة الظهر المفقودة والأوامر المتعلقة بتحقيق سلامة مثل تلك الوثائق. ووقع ضباط المخابرات الأتراك والألمان فى الخدعة حيث نقلوا الرسالة اللا سلكية إلى قائد الجيش التركى الثامن، الجنرال فريدريش كريس فون كرسنشتاين الذى اعتقد صحتها، ثم تم أسر جنديين بريطانيين أثناء بحثهما بجدية عن حقيبة الظهر، وتم التأكد من مصداقيتهما، هذا بالإضافة إلى عثورهما على أوراق تحمل أوامر موجهة للفيالق الصحراوية (توحى بأنها ألقيت بإهمال ظنًا من الجنود البريطانيين أنها مجرد أغلفة تستخدم للف طعام الضباط فلن يهتم أحد بها) وكان مضمون الأوامر هو البحث عن الأوراق المفقودة وإعادتها إلى مقر القيادة العامة.

كانت "خدعة حقيبة الظهر المفقودة" تمثل قصة جنونية؛ لقد حدثت بالفعل، لكن فى السيرة التى كتبها براين جارفيلد "أسطورة ماينزتزيهاجين" – (The Meingertzhagen Mystery) عام ٢٠٠٧، يقول: إن فكرتها جاءت من رجل آخر هو المقدم جيه دى بلجريف،

بينما كان المعد الأصلى لهذه الفكرة هو آرثر نيت فى ١٢ سبتمبر وليس ماينرتزيهاجين، فإذا كان جارفيلد على حق، يكون ماينرتزيهاجين بذلك قد انتحل مبادرة الآخرين.

شارك المقدم أرشيبالد ويفل مباشرة فى أحداث حرب فلسطين كضابط اتصال بين رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية العامة فى لندن والقائد العام الميدانى إدموند ألنبى.. وبعد ذلك، عندما أصبح ويفل قائدًا عامًا فى منطقة الشرق الأوسط، كتب سيرة حياة ألنبى بعنوان "دراسة فى سيرة عظيمة" – (A Study in Greatness)، شرح فيها كيفية استخدام ألنبى للخداع والاستخبارات ومجموعات حرب العصابات فيما يسميه تشرشل بالعمليات "البارعة وغير المكلفة" فى فلسطين التى تأثر بها وفيل بشكل عميق خلال الحرب العالمية الثانية.

بدأ تقدم ألنبى نحو فلسطين فى نهاية أكتوبر عام ١٩١٧، وكان لسلاح الجو الملكى والمحطة الجوية التابعة للبحرية الملكية تفوق جوى واضح عندما بدأت البحرية الملكية فى قصف غزة من البحر، واستطاع البريطانيون فى القاهرة الاستماع إلى كل الاتصالات التى يقوم بها ضباط الملاحة الجوية وسلاح الإشارة فى المسافة الممتدة من سوريا إلى سيناء، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا على استعداد لإرسال أى طائرات لاعتراض الجهود الألمانية فى مجال الاستطلاع الجوى.. وبسبب ذلك لم يستطع العدو تحديد موقع ٤٠٠٠٠ من القوات البريطانية المتجهة شرقًا ليلة ٣٠ أكتوبر. حاصرت قوات المشاة البريطانية مدينة بئر سبع محكمة التحصين، وهاجمتها على حين غرة، وتبع ذلك مشهد مذهل قامت به فرقة الخيالة الأستراليين فاستولى سلاح الفرسان وأفراد الهجانة فى الصحراء على آبار المياه قبل هدمها.

وفى ليلة ١ نوفمبر؛ قام ألنبى بمهاجمة غزة وأحدث إرباكًا فى جميع الاحتياطات التى كان الأتراك يحتفظون بها فى الغرب. وبسبب تضليله للأتراك والألمان بمعلومات استخباراتية خاطئة، بما فى ذلك حيلة حقيبة الظهر، افترض الأتراك أن هذا هو الهجوم الرئيسى فى معركتهم الثالثة على غزة، لكن القوات البريطانية صعدت من هجماتها على القوات التركية إلى الشرق من مدينة بئر سبع اعتبارًا من ٦ نوفمبر،

حيث أصيب الأتراك بالذعر؛ وأصبحت غزة مهجورة فى اليوم التالى، وبدأت القوات التركية فى الانسحاب نحو الشمال على امتداد السهل الساحلى.

كان ماينرتزيهاجين قد ادعى أن العديد من هؤلاء الجنود كان قد غشاهم النعاس أو شربوا حتى الثمالة، كما كان من بين حيله الأخرى إلقاء آلاف من سجائر "الأفيون" بين القوات التركية؛ يقول ماينرتزيهاجين إنه حاول بنفسه فيما بعد تجربة واحدة منها: "لقد كانت قوية بالفعل، وكان تأثيرها نافذًا كالسم واستنفد بهذا كامل طاقاتهم بالإضافة إلى الخيالات وعدم القدرة على الحركة أو التفكير"، ولم ينف أحد هذه القصة التى أخبرها ماينرتزيهاجين.

وفقًا لما ذكره ماينرتزيهاجين كانت خدعة "حقيبة ظهر" سببًا فى تضليل العدو بصورة كاملة، ما أدى إلى إقالة الجنرال الألمانى فريدريش كريس فون كرسنشتاين من قبل قيادته. وقد علمنا فيما بعد أن ألنبى ذكر فى التقرير السرى الذى يخص ماينرتزيهاجين: "كان هذا الضابط مسئولاً بشكل كبير عن نجاحاتى فى فلسطين"، لكن ديك ماينرتزيهاجين تأكد أن المؤرخ الرسمى كان يعرف كل شىء عن مآثره، أما المصدر الذى اعتمد عليه ألنبى فى تقييمه فهو يوميات ماينرتزيهاجين الخاصة، ولم يكن هناك شخص أكثر حرصًا على تلميع سمعته من ماينرتزيهاجين.

فى فلسطين، قطعت قوات ألنبى مسافة خمسين ميلاً فى عشرة أيام واستولت على ميناء يافا على البحر المتوسط كى تستطيع البحرية الملكية التزويد بالإمدادات البرية، ثم تحولت شرقًا نحو تلال يهودا، الأمر الذى اعتبروه جائزة كبرى، متمثلة فى احتلال القدس. وفى ٨ ديسمبر ١٩١٧؛ تركت القوات التركية المدينة المقدسة، وخرج حاكم القدس وهو يرتدى طربوشًا ومعطفًا يشبه عباءات الرهبان، وكان يحمل فى يده راية بيضاء ومفاتيح المدينة؛ حيث سلمها فى سذاجة منه لبعض طهاة الجيش الذين قدموا من لندن فأعطوها للرقيب ثم لبعض ضباط المدفعية ثم للعميد وأخيرًا لجنرال.

قدم ألنبى إلى لويد جورج والشعب البريطانى الهدية التى طلبوها منه وذلك فى أثناء الاحتفال بعيد الكريسماس فى عام ١٩١٧؛ فللمرة الأولى منذ عام ١٢٤٤،

يستطيع المسيحيون انتزاع المدينة المقدسة مرة أخرى من قبضة المسلمين، لكن خطتهم لاقتسامها مع اليهود أصابت المنطقة بأسرها بالصدمة، ما جعل العالم مضطرباً حتى يومنا هذا. استغل لويد جورج الدعم الدولى وغير المحدود، لا سيما من الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه أراد استخدام الحركة الصهيونية (كما ذكر جون مارلو) كـ"حصان طروادة لفرض السيطرة البريطانية على فلسطين"، حيث ناقش ذلك مع وزير الخارجية أرثر بلفور.

احتوى خطاب آرثر بلفور الذى ظهر وكأنه مداهنة فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ الموجه، عن طريق اللورد روتشيلد، إلى الاتحاد الصهيونى على جملة واحدة فقط، تخص "إعلان بلفور" الشهير الذى سبب الكثير من الأسى. كانت هذه الحيلة سبباً فى تسمية فلسطين بـ "أرض الميعاد الثنائى":

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى بفلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية مع البيان الجلى بألا يفعل أى شىء يضر الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين الآن، ولا الحقوق أو المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى...

فى ظهر ١١ ديسمبر ١٩١٧، وبعد ستة أسابيع من يوم الهجوم على بئر سبع، دخل الجنرال ألنبى رسمياً القدس سيراً على الأقدام عبر بوابة يافا. (على نقيض ما حدث عام ١٨٩٨؛ عندما كان القيصر الألمانى يمتطى جواده بكل غطرسة، وكان المعلق السياسى الكاثوليكى مارك سايكس يأمل فى أن يفهم أتباع الأديان الثلاثة المحلية هذه الإيماءة بمحبة البريطانيين للمدينة المقدسة). راقب ألنبى جميع المراجع الخاصة بأحداث إعلان بلفور واحتمالية أن يؤدى ذلك الإعلان إلى تأجج مشاعر العرب. وكان المكتب الصحفى بوزارة الإعلام (الذى كان بالطبع يديره جون بوشان) قد أذاع فى وسائل الإعلام يوم ١٥ نوفمبر البيان التالى:

انصب اهتمام الصحافة مرة أخرى على شىء غير مرغوب فيه؛ وهو نشر أى مقال أو فقرة أو صورة تتعلق بالعمليات العسكرية ضد الأتراك واعتبارها، فى جميع الأحوال،

حربًا مقدسة أو حربًا صليبية حديثة أو أنها حربًا دينية. إن الإمبراطورية البريطانية كانت تضم نحو مئة مليون مسلم من رعايا الملك، ولذا لم يكن من اللائق اعتبار النزاع بيننا وبين الأتراك حربًا بين المسيحية والإسلام.

نشر بعض وكلاء الدعاية البريطانيين ما يفيد بأن اسم القائد "ألنبى" له أصل عربى مشتق من كلمة النبى التى تعنى "الرسول"، وأن الحرم الشريف أو منطقة المعبد من المدينة المعروفة فى العالم الإسلامى باسم القدس التى كانت تحت حراسة الجنود المسلمين الهنود من قوات الحملة العاملة فى مصر.

أما بقية الجنود، من الإنجليز والاسكتلنديين والأيرلنديين وويلز والأستراليين والنيوزيلنديين والفرنسيين والإيطاليين، فقد تم تنظيمهم على مدخل يافا، لقد كان يومًا باردًا مع أنه كان مشمسًا، ظهر الجنرال ألنبى محاطًا بالقادة الفرنسيين والإيطاليين ويتبعه نحو عشرين من ضباط الأركان إضافة إلى قائد الفيلق رقم ٢٠ فيليب شيتود. وكان من بين هؤلاء يمشى بجوار العقيد إيه بى ويفل الرائد تى إى لورنس؛ حيث كان يسخر من استعارته للزى البريطانى الموحد. وقبل ثلاثة أسابيع تحمل ما وصفه به رونالد ستورز حينما قال: "إنه رجل بشع التعامل"، وأنه اغتصب وجلد على يد بعض الجنود الأتراك عندما اعتقل بالقرب من درعا. وفى القلعة أعلن قانون الأحكام العرفية بسبع لغات على مسامع "سكان مدينة القدس المباركة والسكان المتاخمين لها". ونص الإعلان على أنه "ستتم حماية وتأمين كل المبانى والآثار والبقاع المقدسة والأضرحة والمواقع الدينية والأوقاف وآثار الصالحين وأماكن الصلاة بغض النظر عن انتمائها لأى دين من الأديان الثلاثة"؛ ثم قابل ألنبى وجهاء المدينة والزعماء الدينيين قبل إعادة تشكيل الموكب ومن ثم العودة من خلال البوابة التى تركوا جيادهم عندها. وكان احتفال بوابة يافا المؤثر والبسيط بالنسبة إلى لورنس "لحظة الحرب الحاسمة".

استمرت السياسات كعادتها، وفى عصر ذلك اليوم أعلن لويد جورج خبر الاستيلاء على القدس فى جلسة أمام مجلس العموم البريطانى وهو مغمور السعادة، وسريعًا ما دعا مجلس الحرب إلى احتلال كل فلسطين. انتهت المعركة المروعة على تلال

باشينديل قبل شهر من الاستيلاء على خمسة أميال من أراضى الساحل المختلطة بالدماء فى خسائر تزيد على ٢٥٠٠٠٠ رجل من الأتراك والبريطانيين والكنديين. هزم ألنبى تركيا فى الشرق الأوسط "ضارباً دعامتهم الأساسية"، ما اعتبر خروجاً من المأزق الذى تعانيه بريطانيا بالجبهة الغربية، وقد لقى العمل العسكرى فى الشرق دعماً كبيراً.

فى بداية عام ١٩١٨، تقلد تى إى لورنس دوراً جديداً يتمثل فى مساعدته للجيش العربى فى الشمال بقيادة فيصل الذى يخضع لقيادة ألنبى لمهاجمة الجبهة اليسرى من الجيش الرابع التركى الذى أخذ فى الانسحاب شمالاً. كان لورنس يعانى من توتر عصبى متزايد بعد اعتقاله لفترة بسيطة على يد الأتراك فى درعا، حيث "حل الذعر فى قلبه، ولم يعد يشعر به مرة أخرى". والآن يتهم نفسه بأنه يمارس "الخديعة" و"الاحتيال" تجاه العرب بتظاهره بـ "قيادة المشاعر القومية لأناس آخرين إذ عاد إلى عمله اليومى من ارتداء ملابس غير ملابسه ودعوة الناس بلغة غير لغته"، وهو الآن يريد أن يترك ذلك. فى الحقيقة لقد فكر فى أن يمارس أعمال السمكرة الخاصة بعربات رولز رويس المدرعة مع الرجال الذين هم على شاكلته، لكن ألنبى كان يحتاج إلى مساعدته فى الاستيلاء على حلب ودمشق قدر الإمكان.

"ليس هناك خيار أمامى، فعلىَّ أن أعود مرة أخرى إلى الشرق لاستكمال عملية الاحتيال التى أقوم بها... قد أكون مزوراً أو ألعب دوراً فى مسرحية هزلية؛ لا يمكن لأى شخص أن يقول إننى لا أستطيع أؤديه..".

أعطى ألنبى إلى لورنس المزيد من الأموال ونحو ألفين من الجمال والعربات المدرعة وطائرة للمساعدة فى الهجمات التى يقوم بها جيش فيصل على محور عمان، درعا، دمشق بامتداد الجبهة التركية لحثهم الأتراك على تدعيم الجبهة الواقعة شرق نهر الأردن. واشتملت المرحلة الأخيرة من الحملة الفلسطينية فى سبتمبر ١٩١٨ على مزيد من الخداع البريطانى؛ حيث كان البريطانيون يتظاهرون بتوجههم إلى اليمين أعالى وادى الأردن فى مدينة أريحا، لكنهم فى حقيقة الأمر كانوا يتجهون إلى اليسار

باتجاه السهل الساحلى لمدينة يافا. وقد سجل لورنس ذلك فى الباب رقم ٩٨ من كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" – (Seven Pillars of Wisdom).

بعد نجاح ماينرتزيهاجين وعمليات الخداع التى قام بها، أعد القائد فى هذا الوقت لبعض الترتيبات قبل المعركة التى أصبحت هدفًا رئيسيًا فى استراتيجية ألنبى، وعليه، كان على بارثولوميو نصب كل الخيام (بالقرب من أريحا) فى مصر، ونقل المصحات البيطرية والخيول الوهمية إلى هناك. وهنا نتساءل: هل سيساعد وضع معسكرات وخيول وقوات وهمية فى مكان مكشوف، إضافة إلى إقامة العديد من الجسور على النهر، وتجميع وكشف البنادق التى تم الاستيلاء عليها من الأعداء، فى تأكيد وجود حركة لأجسام أشخاص وهميين غير محاربين على امتداد الطرق البرى، من أجل الإيحاء بقرب هجوم؟

كانت هذه إحدى عمليات الخداع الناجحة بشكل تام.. تحركت ثلاث فرق كاملة غربًا باتجاه الساحل ليلاً، بينما كانت تختبئ فى النهار بين أشجار بساتين البرتقال حتى لا يراها أحد. وتضاعف عدد الجنود داخل الخيام وتم حظر التحرك تحت ضوء النهار باستثناء الخيول التى كان يقدم لها الماء كى تشربه فى ساعات محددة عندما ينتهى سلاح الجو الملكى من استعراض قوته، وذلك للحيلولة دون رصدهم من قبل طائرات استطلاع العدو. لقد تركت الخيول الوهمية الخاصة بسلاح الفرسان خلف وادى الأردن، وهى خيول مصنوعة من الخشب وقماش الكتان ذى الأنسجة السميكة حيث تم حشوها بالقش، وكانت البغال تقوم بسحب الحواجز لإثارة الغبار، أثناء ورود الخيل إلى الماء، إلا أن رقيبًا هنديًا، وقع فى أيدى الأتراك وأخبرهم بأنباء صادقة تفيد باقتراب موعد هجوم يتم شنه على الساحل، لكن القائد الألمانى الجديد ليمان فون ساندرز رفض ذلك؛ حيث ظن أن هذه خدعة، مثل حقيبة الظهر، فقد تم إخفاء كل دليل على ما قاله الرقيب بمهارة.

تمثل الدور العربى فى هذه الحرب فى مهاجمة وتهديد وسائل نقل واتصالات الأتراك بالشرق؛ لإقناعهم بأن جبهتهم اليسرى فى درعا بصدد أن تتعرض لهجوم كبير،

وكما ذكر ليدل هارت: "أحكم لورنس نسج مجموعة من عمليات الخداع لإقناع القيادة التركية بأن هجوم ألنبى سيكون من جهة الشرق نحو عمان بدلاً من الشمال نحو الجليل". في تلك اللحظات كان لورنس الذى يقول عن نفسه: " ينم هذا الاحتيال الخطير عن شخصية غريبة" يشعر بالذنب بسبب ما يفعله، لقد قضى ذكرى ميلاده الثلاثين يحاول أن يتغلب على الفكرة التى تراوده بعدم فعل أى شىء. فى اتفاقية سايكس بيكو التى أبرمت فى مايو عام ١٩١٦ قسم البريطانيون والفرنسيون مناطق نفوذهم فى منطقة الشرق، علم لورنس أن تقسيم إنجلترا وفرنسا وروسيا للمناطق التركية بين كل منها لا يضع أدنى اعتبار للقومية العربية، لذا قام لورنس بتحذير فيصل من هذا الأمر فى جلسة انفرادية؛ ولكنه أقنعه كذلك أن الطريقة الوحيدة للخروج من ذلك "تتمثل فى مساعدة البريطانيين بأكبر قدر ممكن"؛ حيث يتم إحراجهم من أجل الحصول على السلام المرجو، اعترف لورنس بأنه "طلب" من فيصل" ألا يفرط فى ثقته فى الوعود التى يقدمها الإنجليز، كما فعل والده، لكن عليه أن يفعل ذلك بشكل شخصى. وعلى الرغم من ذلك، فقد دب الخوف فى قلب لورنس بسبب خديعته للناس بطريقة بارعة.

"لا أستطيع أن أنكر أن خداع العرب سببه ضعف فى شخصيتى أو نفاق متأصل فى نفسى، لكن لا بد أنه يستهوينى الخداع والذكاء الذى تُمارس به الحيل، إذ لولا ذلك لم أستطع أن أخدع أحداً، وقد تمسكت برأيى طوال عامين ونجحت فى ممارسة الاحتيال وسار الآخرون على منهجى فى ذلك..".

لم أكن أعطى الثورة العربية فى بدايتها أى اهتمام، إلا أننى كنت مسئولاً فى النهاية عن كونها مصدر حرج للقائمين عليها، وطوال الفترة التى قضيتها، تسلل إلىَّ إحساس بالذنب وتحول إلى مبدأ يحرك بداخلى إحساس بالإدانة.

فى شهر سبتمبر ١٩١٨، تجمعت قوة مشتركة من العرب والبريطانيين فى مدينة الزرقاء شرق عمان تحت قيادة لورنس وقائده المباشر العقيد جويس، وكانت قوته المحاربة تجمع بين القديم والحديث، ويتكلم أفرادها الإنجليزية والفرنسية والعربية والهندوسية، كما شملت طائرتين وخمس عربات مدرعة من شركة مركبات الحجاز مزودة بمقطورات،

ومجموعتين من عشرات المدافع مثبتة فوق سيارات تالبوت، إضافة إلى أربعة مدافع فرنسية، ومجموعة من المدافع الآلية الهندية، ومئات من فرسان البادية العرب والخيالة. تقدموا جميعًا لمهاجمة خط السكك الحديد شمال وجنوب درعا، وفجروا عدة كيلومترات بوضع كميات من المتفجرات تزن الواحدة منها نحو ٣٠ أوقية مغلفة بالقطن أسفل قضبان السكك الحديد؛ ما أدى عند تفجيرها إلى التوائها وتشوه الفولاذ بطريقة يصعب معها إعادة إصلاحه مرة أخرى.

ولقطع سبل النقل عن فلسطين ومنطقة الحجاز بتدمير خط السكة الحديد الممتد من الحجاز إلى دمشق واسطنبول وألمانيا، استولى رجال جويس على محطة مزاريب التى تقع غرب درعا، وتناولوا وجبة العشاء على ضوء حريق القطارات التركية وخزانات الوقود الخاصة بها. كما قاموا بتقطيع خطوط المراسلات التلغرافية. "كان من الروعة بمكان أن تتخيل اللعنة التى أصابت ليمان فون ساندرز" فى مدينة الناصرة بسبب قطع أسلاك التلغراف"، وفجر لورنس ما قال إنه جسر السكك الحديد رقم تسع وسبعين فى نصيبين، حيث أشعل فتيلاً يدوم لثلاثين ثانية وقام بتوصيله بقنبلة تزن ٨٠٠ رطل، لكن الأمور لم تسر على ما يرام، فقد وقعت هجمات جوية تركية - ألمانية، وألقيت المتفجرات على قوات لورنس وهو راكب على ظهر الجمل وفى السيارة، وهو سائر على قدميه؛ إنه الآن بحاجة إلى دعم جوى.

عندما حملت إحدى الطائرات أنباءً عن تقدم ألنبى بشكل جيد عاد لورنس إليه فى الطائرة نفسها، حيث شكل خليج وادى الأردن والبحر الميت حاجزًا أمام الاتصال المباشر بين الجيش العربى فى الشرق وقوات ألنبى فى فلسطين، لكن الطائرات ألغت العوائق الجغرافية واستقل لورنس الطائرة المتجهة إلى مقر القيادة العامة فى بئر سالم قرب الرملة للقاء قائده العام.

جلس ألنبى مع لورنس فى منزل جيد التهوية ومحصن ضد الطائرات، يعرض عليه الخطط التى تقضى بتوجيه ثلاث ضربات عبر الأردن؛ حيث سيذهب الجنود النيوزلنديون إلى عمان، بينما يذهب الجنود الهنود إلى درعا، والأستراليون إلى القنيطرة،

وستلتقى جميع القوات فى دمشق مع القوات العربية التى يقودها لورنس فى الجبهة اليمنى، وهنا أوضح لورنس مشكلات الطلعات الجوية التى يعانى منها، فاستدعى ألنبى سلاح الجو الملكى ما أثار تعجب لورنس من "عقلية ذلك الرجل المتكاملة الذى يمكنه استخدام أسلحة المشاة والفرسان والمدفعية والقوات الجوية والقوات البحرية والسيارات المصفحة وخطط الخداع والقوات غير النظامية بقدر المستطاع وعلى الوجه الأكمل!"، كما خطط ألنبى لإرسال قاذفة قنابل يتم إمدادها بالوقود والذخيرة إضافة إلى اثنتين من مقاتلات بريستول للتحليق فوق الأماكن التى يتواجد فيها لورنس.

نالت قاذفة القنابل هاندلى بيدج التى كان يمكنها حمل نحو طن من المعدات، إعجاب العرب من أتباع لورنس: "لقد أرسلوا لنا أخيراً الطائرات الجوية، لقد كانت "هذه الأشياء" بالنسبة إليها كالمهر الصغير"، "هذه الأشياء" هى الطائرات الحربية المقاتلة ذات السطحين التى استخدموها فى أحداث الثورة العربية منذ نوفمبر ١٩١٦؛ حيث كان ذلك أول دعم جوى لحرب عصابات فى التاريخ.

قام رجال حرب العصابات العرب بالواجب المنوط بهم وفقًا لما حدده ألنبى، ومع ازدياد هجمات العرب وإطلاقهم القذائف بدأ الجيش الرابع التركى فى الانهيار، وتمكن العرب من سيادة المنطقة، وصار بمقدورهم التجول والذهاب إلى جماعاتهم وقبائلهم، ولكن لورنس كان يرغب فى متابعة السير نحو دمشق.

كنت حريصاً على الوفاء للعرب؛ حيث كنت استمر فى خدمتهم مهما كلفنى الأمر، فقد التحقوا بالحرب لينالوا حريتهم، وكان استعادة عاصمتهم القديمة بقوة السلاح إشارة إلى أنهم سيبذلون فى سبيل ذلك أقصى ما يستطيعون.

يحدثنا لورنس فى كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" – (Seven Pillars of Widsom) كيف هاجم العرب بعزم وقوة، وقدموا الدماء للوصول إلى دمشق التى كانت أول مدينة دخلوها، ونجحوا فى استعادة النظام فيها اعتباراً من ١ أكتوبر عام ١٩١٨، يقول ويفل: "لم تكن تلك هى الحقيقة الكاملة؛ ولكنها كانت الفكرة المحورية لأسطورة الدعاية العربية التى احتاج لورنس للقيام بها".

قدم القائد العام الجنرال ألنبى ببنيته الضخمة وأوداجه الحمراء مبتهجًا إلى فندق فيكتوريا فى دمشق فى سيارته رولز رويس الرمادية. ووفقًا لما رواه لورنس فقد أقر "فى عشر كلمات" بكل ما قام به لورنس، وأكد استيلاءه على المستشفى وعلى خط السكك الحديد. وصل فيصل "ذو العينين الجاحظتين من شدة الإرهاق" على متن قطار خاص استقله من درعا، واختلطت ابتسامته بدموعه التى أسالتها تحيات أفراد الشعب الذين استقبلوه وأخذوا يلوحون فرحًا باستقباله ليتقابل بعد ذلك مع ألنبى للمرة الأولى.

لقد كانا على طرفى نقيض، فهذا رجل إنجليزى قوى البنية، واثق من نفسه يوجه الأوامر ويستطيع السيطرة على أى قوات نظرًا لما يتمتع به من شخصية قوية، وعلى الطرف الآخر عربى زاهد له مظهر الأمراء، وفنون السياسة بالنسبة إليه أمر بديهى مثل جسارة الجندى. وقد وجد كل من الرجلين فى الآخر الكفاءة والتقدير والثقة المتبادلة.

ويفل: "ألنبى... دراسة فى سيرة عظيمة"

لكن ألنبى بدأ بعد ذلك بفرض شروطه حول اتفاقية سايكس بيكو الخاصة بمناطق النفوذ والسيطرة البريطانية والفرنسية، فعلى فيصل أن يتعامل مع أحد ضباط الاتصال الفرنسيين، وألا يحاول فرض أى سيطرة له على لبنان حتى لو كانت سوريا التى يحكمها تحتاج إلى ميناء على البحر المتوسط. لم يسترح الفرنسيون كثيرًا إلى بدء بزوغ نجم الهاشميين، بينما طالب فيصل بحكم ذاتى منكرًا اعترافه بأى اتفاق أنجلو فرنسى، ومنكرًا اتفاقه مع لورنس الذى أخبره بالفعل بحقيقة وجود اتفاقية سايكس بيكو، وادعى عدم معرفته بتلك الاتفاقية. فما الذى يمكن للعرب أن يحصلوا عليه نظير شجاعتهم وتحملهم خلال تلك الحملة من قوى السياسة الاستعمارية، اضطر لورنس إلى أن يتراجع باستياء عن الخداع الكبير الذى شارك هو فيه، حيث تم إقحام أناس فى حرب نظير شىء لن يحصلوا عليه. وصف ويفل لورنس بأنه "قد أرهق عقله وجسده". سأل لورنس ألنبى أن يأذن له بالرحيل عن دمشق فى ٤ أكتوبر ١٩١٨. وكانت آخر كلمة فى كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" – (Seven Pillars of Wisdom) هى كلمة: "آسف".

تجمع العديد من المريدين حول تى إى لورنس، كما كان له أصدقاء من نوى النفوذ، وكان ونستون تشرشل أكثر المعجبين به، والذى أشار إلى "شخصيته المذهلة" فى "الأزمة العالمية" – (The World Crisis)، وكتب عنه مقالاً بعنوان "تى إى لورنس فى عيون أصدقائه" – (T.E. Lawrence by His Friends) "هو فى نظرى من أعظم الشخصيات التى عاشت فى زماننا... وواحد من أعظم أمراء الطبيعة". وأشار ونستون تشرشل إلى إعجابه بالبطل لدرجة بالغة فى مؤلفه "المعاصرون الكبار" – (Great Contemporaries).

تمثلت تجربة ونستون تشرشل الأولى فى الحرب الحقيقية برؤيته خروج الإسبان من كوبا عام ١٨٩٥. وقد قرأ كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" – (Seven Pillars of Wisdom) على أنه قصة تحكى كيفية قيام فرد بتوجيه هجمات تتسم بالشجاعة على خطوط السكك الحديد داخل الصحارى الحارقة مثل أشيليس ذلك الفارس المشهور، وإذا نجحت هذه الهجمات؛ فإن نتيجتها ستكون سقوط نظام الحكم فى تركيا ثم ألمانيا. لقد اعتبر تشرشل أن لورنس كان ينطلق بشكل غريب، ولا يستطيع أحد ترويضه، ولا يحد تحركاته أى معاهدات. وكان لخطاب تشجيع تشرشل على تنفيذ العمليات الخاصة برجال حرب العصابات والقوات المتخصصة مثل قوات الكوماندوز والأساليب الخططية التى اتبعوها فى غاراتهم، تأثير بالغ وضخم حيث اعتبر نموذج الكولونيل لورنس نموذجًا يحتذى به.

وفى ربيع عام ١٩٢١؛ توجه ونستون تشرشل إلى مكتب العقيد، وكان الشرق الأوسط فى ذلك الوقت "يمثل" نوعًا من كآبة، والأوضاع فيه باعثة على القلق" نتيجة حالات الفوضى والشغب، حيث كان هناك تمرد فى العراق، وكانت مصر فى حالة اضطراب، كما كانت هناك حالة من التوتر بين اليهود والعرب فى فلسطين، وأبدى زعماء العرب السخط فى الصحارى حيث كانوا يلاحقون البدو الهائجين فى مناطق ما بعد الأردن، فقام تشرشل بتشكيل إدارة للتعامل مع المنطقة ودعا تى إى لورنس للانضمام لصفوفه. وأثبت جدارته المدنية باقتدار.

وفى مـارس عـام ١٩٢١؛ اجـتـمع وزير المسـتـعـمـرات العـقـيد تشـرشل فى فندق سميراميس بالقاهرة مع أكبر القادة العسكريين والمدنيين بالمنطقـة (الذين كان يلقبهم بـ "الأ يعين لصًا")، حيث عقد الجميع مؤتمرًا استغرق عشرة أيام. قام تشرشل ولورنس بإعادة رسم الخريطة، وقاما بتقسيم المناطق الخاضعة للحكم البريطانى فى غرب العراق إلى جزءين من ناحية نهر الأردن. وذلك بوضع نسبة ٢٣ فى المئة من الأرض الواقعة غرب نهر الأردن تحت السيطرة الفعلية للمندوب السامى هـربرت صـامويل الذى كـان يهودى الديانة، والذى وعد بتـحقـيق حلم "الوطن القومى للشـعب اليـهودى" حسبما جاء فى وعد بلفور. أما نسبة ٧٧ فى المئة من الأراضى الواقعة شرق النهر، والمسماة حاليًا بإمارة شرق الأردن التى كان يحكمها العرب، فتُعطى للأمير عبد الله ابن الشريف حسين. أما أخوه فيصل الذى تم إخراجه من دمشق على يد القوات الفرنسية فى يوليو ١٩٢٠؛ فإنه يتلقى الآن جائزة الترضية المتمثلة فى حكم العراق، وهو مكان لم تسبق له زيارته فى أى يوم من الأيام.

كان لورنس مسرورًا بدوره فى تنصيب الملوك فى كل من الأردن والعراق ومكافأة الأشراف الهاشميين، ولكن تشرشل كان قلقًا بسبب "المصروفات الكبيرة" للحاميات، التى وصل عدد قواتها فى العـراق إلى ٤٠٠٠٠ جندى والتى تستـهدف قمع التمرد، وهو ما كلف بريطانيا مبلغ ٢٣ مليون جنيه إسترلينى عام ١٩٢٠. لقد أراد تشرشل الاحتفاظ بالأمن فى الدولة الجديدة بأرخص التكاليف وذلك بسحب الجنود واستخدام سلاح الجو الملكى فقط، ومن ثم يمكن الاعتماد على المال غير الكافى الذى كان يقوم بإرساله كيو ترينشيرد.

عندما كـان ونستون تشرشل فى وظيفـتـه السابقة وزير الدولة لشـئون الحـرب والقوات الجوية، أخبر مجلس العموم فى ١٥ ديسمبر عام ١٩١٩ بـ "إن الواجب الأول للقوات الجوية الملكية هو حماية الإمبراطورية البريطانية"، وبالنسبة إلى النجاح المحدود الذى حققته الحملة الجوية على أراضى الصومال، فى يناير وفبراير من عام ١٩٢٠،

فقد أقنعه أن "التحكم فى الجو" هو الطريق إلى التحكم فى المستقبل. فى ذلك الوقت تمكنت ست طائرات تابعة لسلاح الجوى الملكى، تدعمها ٥٠٠ من فيالق الهجانة ومجموعات بنادق الملوك الإفريقية على الأرض، من سحق تمرد إسلامى قام به محمد عبد الله حسن المعروف اسم (الإمام الغاضب فى الأراضى الصومالية) خلال ثلاثة أسابيع، وتم فرض السلام الذى استمر فترة عشرين عامًا تالية، ولم يكلف الأمر سوى ٧٧٠٠٠ جنيه إسترلينى، لذا ادعت وزارة الطيران أن استخدام الطائرات والهجمات الجوية المنفصلة، بما فى ذلك قصف مناطق القبائل المتمردة بالقنابل، وإطلاق غاز الخردل عليها بشكل متزن هو أفضل الأساليب من الناحية الاقتصادية، ضمن خطة التمويه السريعة خلال حرب الاستقلال.

وبعد تتويج فيصل ملكًا على العراق فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١؛ حمته ثمانية أسراب من الطائرات التابعة لسلاح الجو الملكى إلى جانب بعض السيارات المصفحة والزوارق الحربية من أعدائه. وبحلول عام ١٩٢٣؛ حمى البريطانيون الموصل وحقول النفط فيها من الغزاة الأتراك والثوريين العرب.

كان الناقد العسكرى ذائع الصيت النقيب باسل ليدل هارت من بين المعجبين بشخصية تى إى لورنس، حيث كتب سيرته "تى إى لورنس: فى الجزيرة العربية والفترة التى أعقبتها" – (T.E. Lawrence': in Arabia and After) اشتهر ليدل هارت بـ "منهجيته غير المباشرة"؛ وأعاد التفكير خلال فترة العشرينيات من القرن العشرين فى الأساليب التى تستخدمها فرق المشاة لتجنب المذابح التى رآها باعتباره قائد عمليات مشتركة فى سومى، وهو ما جعل الأنظار تتجه إلى لورنس الذى قال عنه ليدل هارت: "هو من تنبأ بحرب العصابات وهى نوع جديد من الحروب".

أثار لورنس انطباعات متكافئة من الحب والكراهية، فقد حكم المؤرخ ديفيد كانادين على لورنس بأنه "شاذ جنسيًا". كان جون كيجان يرى أن تشجيع حروب العصابات فى الدول النامية التى لعب فيها لورنس دورًا محوريًا، يتحمل مسئولية

كبيرة فى إطلاق العنان للإرهاب المعاصر؛ لكن جون بوشان قال فى سيرته الذاتية: "أستطعت أن أتابع لورنس فى كل مكان فى العالم، وأطلقت على لورنس؛ أذكر الرجال الذين عرفتهم".

التقى كل من جون بوشان و لورنس للمرة الأولى عام ١٩٢٠؛ على الرغم من أن بوشان كان قد سمع عن لورنس من أصدقائهما المقربين مثل: دى جى هوجارث وأوبرى هربرت. كان يجمع بينهم الكثير من الأشياء المشتركة، فكان كل منهما صغير الحجم، وتميزا بالنشاط، وبدت عليهما الغلظة على عكس حقيقتيهما، وجرى تدريبهما بطريقة تقليدية قديمة، كما كان لديهما ذوق أدبى واحد، وكانت لهما النظرة الحميدة نفسها لمستقبل الإمبراطورية البريطانية (بوصفها مجتمعًا لا يعرف التفرقة العنصرية)، لقد كانا يشتركان أيضًا فى اهتمامهما المستمر بالحروب، حيث كتب بوشان يقول: "كان علم الحرب هو إحدى هواياتى".

غيّر بوشان حياة لورنس حين كان مديرًا لقسم المعلومات عام ١٩١٧، حيث أرسل الصحفى والمخرج الأمريكى لويل توماس إلى الشرق لتغطية حملة ألنبى، وهناك قام اللورد رونالد ستورز، الحاكم العسكرى لمدينة القدس، بتقديمه إلى لورنس، وقال له: "أريد أن تقابل الكولونيل لورنس الملك غير المتوج للجزيرة العربية"، حيث تم وضع الفيلم السينمائى والمحاضرة بعد أن صورهما توماس مع ألنبى فى فلسطين ولورنس فى الجزيرة العربية فى قاعة ألبرت هول، وفى دار الأوبرا الملكية وفى قاعة محبى الموسيقى وفى قاعة الملكة اعتبارًا من شهر أغسطس عام ١٩١٩، ثم ذاع ذلك الفيلم وتلك المحاضرة فى العالم لمدة أربعة أعوام، ثم توجا فى كتاب يحمل اسم "مع لورنس فى الجزيرة العربية" – (With Lawrence in Arabia)، الذى كان مبعث أسطورة لورنس وهو ما جعله معشوق الجماهير.

كان جون بوشان هو من اقترح على ليدل هارت أن ينشر مقال لورنس "نشأة الثورة" على صفحات موسوعة المعارف البريطانية مع كلمة "حرب العصابات".

وكان جون بوشان (وفقًا لما جاء فى مذكرات ابنه وليم) معجبًا ومنبهرًا بلورنس وزياراته النادرة والسرية له فى منزله فى أكسفوردشير، وقد جسد لورنس من خلال بطل رواياته الخيالى ساندى أربوثنت. وفى روايته التى كتبها عام ١٩٢٩ بعنوان "محاكم الصباح" – (The Courts of the Morning)؛ أعاد فيها صياغة رواية "نوسترومو" (Nostromo) التى كتبها جوزيف كونراد، قاد ساندى أربوثنت من فوق صهوة جواده ثورة قام بها رجال حرب العصابات فى جمهورية أوليفا الغنية بالمعادن فى أمريكا الجنوبية، ثم قاموا بتفجير أحد خطوط السكك الحديد، مثلما فعل لورنس تمامًا. بالنسبة إلى بوشان الذى صارت حياته مرتبطة بالعمل المكتبى، كان لورنس هو آخر صلة بينه وبين عالم المغامرات.

(٩)

التمويه بالألوان اللامعة

نعود إلى إنجلترا، فمع نهاية عام ١٩١٦ ترقى ديفيد لويد جورج ذى الشارب الأبيض ليرأس ما سماه بعد ذلك "المرحلة الدامية فى الطريق للنصر"؛ وهى المرحلة الأخيرة والأطول من مراحل الحرب، حيث لعبت فيها عمليات التمويه والخداع والدعاية دورًا حيويًا، ففى ٦ ديسمبر ١٩١٦ طلب الملك جورج الخامس من ديفيد لويد جورج تولى منصب رئيس الوزراء وقام ذلك العبقرى "الذى تعود أصوله إلى إمارة ويلز" بتشكيل حكومة وطنية ائتلافية من أحزاب المحافظين والعمل والأحرار، كما قلص عدد أعضاء مجلس الحرب إلى خمسة أعضاء. وفى ذات الشهر قام سولومون جوزيف سولومون بإنشاء مدرسة التمويه فى منطقة هايد بارك.

كان لويد جورج يتمتع بالجرأة وروح المبادرة، كما كان أكثر معرفة بالضرورات التى يستلزمها الواقع من سلفه آسكويث، وقد نُشرت له صورة كاريكاتيرية فى مجلة بانش تحت عنوان "القائد الجديد"، يظهر باعتباره رئيس وزراء جديدًا مفعمًا بالحيوية يرتدى ملابس سهرة وممسكًا بعصا، وهو يعرض تصوراته لعام ١٩١٧. كانت المهمة كبيرة، حيث استنزفت خزينة البلاد نتيجة الحرب الدائرة منذ عامين (وصلت تكاليف الحرب إلى ٥,٧ مليون جنيه إسترلينى يوميًا) مما استنزف الموارد القومية، وقد أسفرت المعارك البرية عن مقتل عدد مهول من الجنود، كما أصابت الغارات الجوية مواطنى العاصمة البريطانية لندن بالفزع، إضافة إلى الحروب البحرية التى كانت أكثر ضررًا

على الاقتصاد القومى بسبب مهاجمة قوارب اليو لسفن الشحن التى تقوم بتوفير المؤن للجزر البريطانية.

بدت البحرية البريطانية كأنها عاجزة عن مواجهة الغواصات الألمانية، وتم إبلاغ الحكومة البريطانية بعجز البحرية الملكية فى نوفمبر ١٩١٦، "لم يتم التوصل إلى رد قاطع على هذا الشكل من أشكال العدوان... علينا التحلى بضبط النفس فى الوقت الحالى..."، كانت وسيلة الدفاع الوحيدة المتاحة فى ذلك الوقت ضد هجمات الغواصات الألمانية، تكمن فى نشر شباك فولاذية تحت المياه، وبالنسبة إلى قوارب أليو فيمكن مهاجمتها على سطح المياه من خلال دكها، أو بإطلاق النار عليها بشكل مستمر، إلا أن المسماع المائى يعتبر الوسيلة الجديدة التى يمكنها فى النهاية أن تحدث فرقًا، حيث يستخدم لكشف الغواصات وتدميرها تحت سطح الماء، إلا أن تطويره وإجراء المزيد من الأبحاث عليه سيستغرق المزيد من الوقت.

كان أول ما يخشاه تشرشل هو تمكن غواصات العدو من تدمير البحرية البريطانية، ومن ثم الفوز بتلك الحرب، إلا أن وتيرة هجمات قوارب اليو الألمانية قد تضاءلت بعد الصورة السيئة التى علقت بها على خلفية غرق السفينة لوسيتانيا عام ١٩١٥، كما أوقف القيصر عمليات إطلاق الطوربيدات، لكن الإخفاق الذى صاحب حرب الخنادق والحصار عام ١٩١٧ قد زاد من نبرة الألمان الاستعمارية، وأصاب جلالة القيصر بالإحباط مما اضطره إلى إصدار أوامره: "ببداية حملة موسعة للغواصات اعتباراً من ١ فبراير بأقصى طاقة ممكنة". وبعد يومين من إعلان القيصر بدء هجوم واسع النطاق باستخدام الغواصات، قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فقد كانت بريطانيا بحاجة إلى الرجال والعدة والعتاد الأمريكى. أدان سلاح الغواصات الألمانية موقف الولايات المتحدة الأمريكية الذى يعتبر فى صالح الحلفاء، ولكن أسلوب الخداع الذى مارسته بريطانيا ثبت الولايات المتحدة على موقفها.

كان أشهر موقف يقوم به قسم الاستخبارات البحرية البريطانى للعمل على دخول الولايات المتحدة الأمريكية تلك الحرب؛ هو الموقف الدبلوماسى وليس قضية البحرية بالتحديد. كان قائد الاستخبارات البحرية فى ذلك الوقت هو العميد البحرى رينجهال "الذى كان له منظر قبيح فى زيه الموحد" حسب ما وصفته باربارا توشمان، وكان هول يتحكم فى الغرفة رقم ٤٠ من المبنى القديم (OB40) من الأميرالية، ذلك المبنى الذى يعتبر مركز إشارات الاستخبارات البريطانية، وقد كان يضم نحو ٨٠٠ من عمال اللا سلكى، ونحو ٨٠ من موظفى قسم الشفرات، والموظفين الإداريين الذين قاموا باعتراض ما يقرب من ١٥٠٠٠ اتصال سرى ألمانى فى الحرب العالمية الأولى. تصور قصة جون بوشان القصيرة، "العدو القاتل" – (The Loathly Opposite) التى كتبها عام ١٩٢٧ عمل التشفير الحربى الذى قام به مجموعة من الهواة، وأنه فى الغالب كان عمل هؤلاء الذين كانوا يعملون فى الغرفة رقم ٤٠ من المبنى القديم.

وقد صرح السير هنرى آل ستمسون وزير خارجية الولايات المتحدة عندما أغلق مكتب التشفير الخاص بالسير هربرت أو ياردلى عام ١٩٢٩: "بأنه على السادة الموقرين عدم قراءة رسائل البريد الخاصة بغيرهم". كان البريطانيون، خاصة رينجهال، أقل قلقًا بشأن اتصالات الأعداء فى أثناء الحرب. ففى ١٧ يناير ١٩١٧؛ اعترض أعضاء الغرفة ٤٠ بالمبنى القديم، من خلال شبكة وزارة الخارجية بالولايات المتحدة الأمريكية، على برقية أرسلها وزير الخارجية الألمانى آرثر زيمرمان إلى فون إيكهارت الوزير الألمانى فى المكسيك. استطاع اثنان من موظفى قسم التشفير بالغرفة ٤٠ من المبنى القديم، وهما نايجل دى جراى والسير ويليام مونتغمرى (الخبير فى سانت أوجستين فى هيبو) فك الرموز، اندهش الاثنان عند قراءة نص البرقية التى كانت تقول: إذا دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء، فإن ألمانيا ستقوم بدعم الثورة المكسيكية، وستساعد الثوار المكسيكيين فى استعادة الأراضى التى فقدوها فى تكساس ونيومكسيكو وأريزونا. كان الواجب على هول أن يقوم بحيلة ذكية عند نقل هذا الموقف لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر فبراير ١٩١٧. كان هدف هول هو إقحام الولايات المتحدة فى ذلك النزاع، لذا كان إقناع الأمريكيين أن مثل هذه البرقيات تهدد

بقيام حرب ثورية فى المكسيك، دون أن يترك ثغرة توحى بأن هذا الاعتراض للرسالة جاء انتهاكًا لحيادية أمريكا.. علاوة على ذلك لم يسمح هول للألمان بأن يشكوا أن شفراتهم قد تم فكها.

ومن أجل إخفاء مصدره الحقيقى، خط البرقيات الأمريكى، تأكد هول أن إدوارد ثورستون، الوزير البريطانى فى المكسيك، قد حصل على نسخة من برقية زيمرمان فى مكتب الاتحاد الغربى بمدينة المكسيك، وفى ٢٢ فبراير عندما عرض هول على المسئولين بالسفارة الأمريكية فى لندن البرقية مؤرخة بتاريخ ١٩ يناير كان بإمكانه ادعاء أنه حصل عليها فى المكسيك وتم فك شفرتها فى لندن.

عرضت البرقية التى تم حل شفرتها على وزير الخارجية الأمريكى، ثم على الرئيس وودرو ويلسون فى ٢٧ فبراير الذى أصابه الذهول، فما أن قرأها حتى أخذ يردد قائلاً: "يا إلهى!". ونُشرت على صدر الصحف الأمريكية فى ١ مارس ١٩١٧، وتسببت "رسالة زيمرمان" فى إحداث جلبة وضجيج كبيرين، فقد أثار السيناتور ستون عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ميسيسيبى، وعدد من المحايدين أن هذه البرقية عبارة عن خيلة دبرها البريطانيون لإقحام الولايات المتحدة فى الحرب. أما قطب الصحافة وليم راندولف هيرست الذى بنى عليه أورسون ويلز فيلم "المواطن كين" – (Citizen Cane) فقد أصدر تعليماته إلى رؤساء تحرير الصحف بالتعامل مع الحدث على أنه "خدعة وكذب".

كان هناك أكثر من ثمانية ملايين أمريكى ينحدرون من أصول ألمانية داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وهم يتذكرون حملات الدعاية المضادة للألمان التى قام بها العملاء البريطانيين سابقًا، لكن زيمرمان اعترف صراحة إلى أحد الصحفيين الأمريكيين فى برلين ٣ مارس بأنه لا يمكنه إنكار كتابته للبرقية؛ وهنا فتحت أبواب السخط على مصراعيها. فقد أسهم البروسيون فى إثراء فكرة الثوار المكسيكيون مثل باناكو فيللا وإميليانو زاباتا، وقدمت إليهم أكبر مساعدة من أجل أن يثوروا عبر ريو جراند.

تراجعت فكرة الموالاة لألمانيا وأصبح اندفاع الولايات المتحدة فى دخول الحرب أمرًا حتميًا. وفى أواخر ذاك الشهر، تم تجنيد ما يزيد على ٢٦٠٠٠ جندى أمريكى. وهنا قال تشرشل: "عملاق جديد طالما ظل غارقًا فى شكوكه... لكنه الآن يتهيأ للقتال".

سعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى التسلح فى الوقت نفسه الذى كانت فيه بريطانيا وفرنسا قد أعياهما طلب السلاح من حليفتهما روسيا التى تركتهما ينهاران. وفى ١٥ مارس ١٩١٧، وإثر الاضطرابات والاحتجاجات التى قامت بها مجالس "العمال" و"السوفييت"، أجبر قيصر روسيا نيكولاس الثانى فى ٢ أبريل عام ١٩١٧ على التخلى عن العرش، وتم تشكيل حكومة تتكون من سياسيين ليبراليين معتدلين تحت قيادة كرنسكى وكان جميعهم من الليبراليين، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أول من اعترفت بهم فى ٢٢ مارس.

تحدث الرئيس ويلسون إلى الحلفاء بمن فيهم روسيا فى ٢ أبريل ١٩١٧؛ وأعلن أن "العالم لا بد أن يكون آمنًا حتى يتسنى تحقيق الديمقراطية"، كما وصف ويلسون الحكومة الألمانية الإمبريالية بأنها "العدو الطبيعى للحرية". أعلن مجلس النواب الأمريكى الحرب فى ٦ إبريل ١٩١٧ متيحًا "جميع موارد البلاد". الأمر الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية تنتج المزيد من الفولاذ والمزيد من السيارات أكثر من أى دولة أخرى على سطح الكرة الأرضية، لكن الجيش الذى كان يتكون من ٥٠٠٠ ضابط و١٢٣٠٠٠ من الجنود لم يكن أكبر من قوات الحملة البريطانية فى عام ١٩١٤. بدأ استدعاء الجنود فى مايو ١٩١٧، وسرعان ما انضم إلى صفوف القوات الأمريكية عشرة ملايين من الشباب الأشداء، وتم إمدادهم بالمعدات، وتدريبهم للذهاب إلى أعالى البحار للحرب وفتح الجنود الأمريكيون النار على الجنود الألمان للمرة الأولى أواخر أكتوبر ١٩١٧.

كانت قوارب اليو تشكل تهديدًا حقيقيًا لخطوط الإمداد الحيوية الخاصة بنقل الطعام والوقود والمواد الصناعية فى الجزر البريطانية وفرنسا وإيطاليا، وهو ما تتطلب

تطوير أساليب جديدة لحماية السفن من خطر الغواصات الألمانية، لكن ضباط البحرية البريطانية لم يفكروا فى ذلك بشكل طبيعى، بأسلوب الصياد والفريسة. وعلى نحو لا يصدق، كان على لويد جورج وموريس هانكى أن يكافحا حتى يقنعا ضباط البحرية محدودى الأفق بقبول فكرة بسيطة تتمثل فى تجميع السفن التجارية فى قوافل؛ مما يؤمن أكبر عدد منها ويسمح لهم بحمايتها من المدمرات التى كانت تحمل القنابل التى يمكن تفجيرها فى الأعماق. وبالفعل لما بدأت السفن فى السير فى يوليو وأغسطس عام ١٩١٧ بدأت الخسائر الناجمة عن قوارب اليو فى التراجع.

كان من الصعب إقناع مؤسسات البحرية بأن استخدام سفن مموهة سوف يساعد فى إرباك الغواصات، حيث ينبغى على السفن الحربية التابعة للبحرية الملكية البريطانية والطرادات أن تكون على نفس شكل السفن الألمانية والفرنسية التى كانت فى عام ١٩٠٣، حيث يتم طلاء السفن باللونين الأزرق والرمادى مضاهاة للون كل من البحر والسماء، وعلى الرغم من ذلك فقد بقى معظم المدمرات وسفن الأساطيل الصغيرة باللون الأسود. وطليت السفن التى كانت تقوم بالدعم المباشر للقوات البرية (كما هى الحال فى الدردنيل) بلون مزركش منذ عام ١٩١٥، ولكن استخدام الألمان للغواصات والطوربيدات بشكل مكثف فى عام ١٩١٧ زاد الأمر صعوبة.

كان عالم الحيوانات الاسكتلندى السير جراهام كير عام ١٩١٤؛ من بين الأوائل الذين قاموا باقتراح ما يشبه "الظل المقابل" الذى كان يستخدمه الرسام أبوت ثاير فى إخفاء الأشياء عن طريق عكس المواطن الحقيقية للضوء والظل. وأشار كير إلى أنه يجب على السفن الحربية التابعة للبحرية الملكية استخدام أنواع الطلاء الأبيض إلى جانب اللون الرمادى، غير أن رجال البحرية لم يقوموا بتنفيذ فكرته بشكل حيوى أو حتى فكر أبوت ثاير فى تلوين الغواصات باللون الأزرق "لتشبه السمكة التى تسبح فى قاع البحر". وخلال أزمة الغواصات التى نشأت عام ١٩١٧، توصل رسام آخر إلى فكرة جوهرية جديدة.

كان الرسام نورمان ويلكنسون البالغ من العمر ٣٨ عامًا؛ أحد الفنانين المحترفين بسلاح البحرية؛ حيث أصبح فيما بعد رئيسًا للمعهد الملكى للرسامين بالألوان المائية. ولأنه كان يعيش بالقرب من بورتسموث، فقد كان أحد ممارسى رياضة سباق اليخوت منذ نعومة أظفاره، وقد شجعه أرثر كونان دويل على دخول المجال التجارى قبل أن يصبح مشهورًا من خلال ابتكار لشخصية شرلوك هولمز. ويلكنسون هو الذى رسم لوحة لميناء بورتسموث بتكليف من مديرى هارلاند وولف، وهو من قام بتعليقها فوق رف الموقد فى غرفة المدخنين فى السفينة تايتنك، أكبر سفينة ركاب بنيت حتى ذلك الوقت. ظل ويلكنسون يعمل بشكل مستمر لجريدة إلستراتيد لندن نيوز" (The Illustrated London News) بين عامى ١٩٠١ و ١٩١٥ واعتبر عمله (طفرة فى التصوير باللونين الأسود والأبيض)، كما يدعى بأن تلك اللوحة "أصل الملصقات (الفنية) فى محطات السكك الحديد الإنجليزية".

التحق ويلكنسون بقوات الاحتياط التطوعية بالبحرية الملكية، وكما رأينا فقد قام بطلاء السفن فى حرب مضيق الدردنيل عام ١٩١٧، ثم أرسل إلى ديفونبورت فى القنال الإنجليزى وكان ضابطًا برتبة ملازم فى قوات الاحتياط التطوعية بالبحرية الملكية؛ حيث صمم زورقًا بمحرك يصل طوله إلى ثمانية وثلاثين قدمًا لكشف الألغام فى بورتلاند بيل، حيث كان مزودًا بشحنتين جاهزتين لنسف غواصات الأعداء. عرف ويلكنسون من خلال الدردنيل كيف يمكن أن تكون الغواصات مؤثرة ومخيفة، والآن، أغرقت قوارب اليو نحو ستين سفينة فى أسبوع. وبالنسبة إلى دورية القنال، فقد كان ويلكنسون يراقب أهداف القوات وسفن الإمداد التى كانت تبحر عبر فرنسا، أما السفن السوداء التى طلاها باللون الأسود وكانت قاتمة بشكل صارخ، فقد رأى أنها تمثل أهدافًا مثالية لقباطنة قوارب اليو المزودة بمناظير أفق.

عاش ويلكنسون طوال حياته صيادًا ماهرًا، والصيد يتطلب أساليب خططية، وتنفيذ بعض طرق التمويه؛ لذا تعلم استخدام الإقناع والتأنى والذكاء من أجل التمويه الذى يستخدمه لتكمل خطة نصب الشرك الذى يضعه للفريسة. يمكن ملاحظة ذلك

فى كلام آرثر رانسوم الذى يقول: "الصياد الجيد هذا هو الذى يضع نفسه فى مكان السمكة التى يحاول اصطيادها". وفى أثناء عودته فى إحدى عربات السكك الحديد إلى بليموث - من عطلة نهاية الأسبوع كان قد قضاها فى الصيد فى ربيع ١٩١٧ - عنت ويلكنسون فكرة مفاجئة؛ إذا كان من المستحيل طلاء السفينة حتى لا يمكن لأى غواصة تحديد موقعها؛ فإن "العكس تمامًا هو الصحيح". وبعبارة أخرى، نحتاج إلى طلاء السفينة بطريقة تؤدى إلى تشتيت رؤيتها ومن ثم إرباك ضابط الغواصة عن الاتجاه الذى تسير فيه السفينة. وصل ويلكنسون إلى بليموث وبدا عليه التشويق، وتوجه مباشرة إلى ثكنات البحرية الملكية، وطلب مقابلة القائد. أعد ويلكنسون مسودة بالسفن التى أجريت لها عمليات تمويه وقام بتحديد الميناء ورسم فى الميمنة أشكالاً غريبة بالألوان الأخضر والبنفسجى الفاتح والأبيض، وذهب للقاء القبطان تشارلز ثورب فنالت إعجابه هو الآخر، وكتب رسالة إلى مجلس إدارة القيادة البحرية للاختراعات والأبحاث، بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٧:

يقضى اقتراح ويلكنسون بتلوين السفن برقع كبيرة الحجم مركزة الألوان؛ مما يؤدى إلى تشوه شكل السفينة ويقلل من استهداف الغواصات لها بشكل كبير. لم تكن الفكرة تتمثل فى إخفاء السفينة بأى حال من الأحوال فهذا مستحيل من الناحية العملية، ولكن تشويه الشكل الخارجى للسفينة باستخدام ألوان صارخة فى التباين.

أخذ مدير المعدات البحرية النقيب كليمنتين جريتوركس تلك الفكرة وسماها "الرسم المبهر". وفى نهاية شهر مايو، تم اختبار تلك الألوان على سفينة صغيرة تم طلاؤها وفقًا لتصميمات ويلكنسون وتم إبلاغ المحطات الموجودة على الشاطئ وطلب من السفن الأخرى كتابة تقارير عنها.

تم إبلاغ ويلكنسون بعدم وجود غرفة لتنفيذ تصميماته فى مقر الأميرالية فى لندن، لذا يتوجب عليه البحث عن مبنى آخر. وبينما كان ويلكنسون يسير فى بيكاديللى، التقى صدفة مع صديقه القديم النحات ديورانت وود خارج مبنى بيرلينجتون، حيث كان سولومون جوزيف سولومون يقوم بأعمال الحفر وكان أتباعه يرتدون سراويل بيضاء.

اقترح وود استخدام الكليات التابعة للأكاديمية الملكية، وبحلول منتصف يونيو عام ١٩١٧ تمكن ويلكنسون من استخدام أربعة مراسم فى "قسم دازيل" الذى كان يرأسه.

تفادى ويلكنسون المحاذير التى وضعتها إدارة القوات البحرية من خلال بيع فكرته إلى مالك السفن السير جوزيف ماوكلى الذى يتمتع بشخصية حادة؛ وهو من أهالى جلاسكو، وقد تم تعيينه مؤخرًا من قبل لويد جورج قائدًا عامًا لشئون تسيير السفن التجارية. رأى جيه بى ماوكلى أن تمويه سفن البحرية التجارية كان يستهدف حمايتها من الغواصات. ولكن ويلكنسون لم يكن ضابطًا فى البحرية بشكل نظامى، لذا نقلت "دازيل" من البحرية الملكية إلى السفن التجارية. رأى نورمان ويلكنسون عندما كان يستقل القطار المتوجه إلى بليموث سفينة يتصاعد منها الدخان ويتحول إلى عكس لون السماء والبحر حيث يصعب إخفاؤه. لكن ومن خلال هندسة "التمويه" عن طريق الخطوط السميكة والمنحنيات والخطوط المتعرجة ذات الألوان السوداء والبيضاء والخضراء، يمكن أن يعمل ذلك على تقسيم هيكل السفينة. كان ويلكنسون يأمل فى أن يتمكن من تشتيت رؤية أجهزة التلسكوب قصيرة المدى الخاصة بقوارب اليو، لجعل القائد يجهل المسار الذى تتخذه السفينة، وكذلك سرعتها والمسافة التى تقطعها، وبالطريقة نفسها التى تفقد فيها مجموعة من الأسود الخطة التى وضعتها لاصطياد أحد قطعان الحمير الوحشية بعد تشتت أفراد القطيع. يكمن الهدف من رسم هذه اللوحات فى تمويه السفن، فقد شرح أحد ضابط التمويه ذات مرة لقبطان سفينة تجارية أهمية الألوان الزاهية لسفينته:

سيدى العزيز، ليس الهدف من التمويه، كما تقترح فى كلامك، وهو جعل سفينتك تبدو وكأنها أحد الببغاوات التى تعيش فى غرب إفريقيا، أو قوس قزح فى مسرحية صامتة تدور أحداثها فى البحر، أو ثوب مبهرج لسيدة شاذة، فالهدف من التمويه هو إعطاء انطباع بانعكاس وجهة السفينة حيث تبدو الرأس فى المؤخرة.

قام ويلكنسون بجمع فريقه من الموهين فى مدارس الأكاديمية البحرية بمبنى بيرلينجتون، ثم قام صناع النماذج الثلاثة بإعداد سلسلة من نماذج السفن التجارية

المسطحة التى يبلغ طولها قدمًا واحدًا، ثم قام أحد الملازمين الخمسة المسئولين عن تصميم مشروع دازيل بتصميم مخطط كانت قد رسمت له صورة مائية سيدة من بين إحدى عشرة امرأة تم تدريبهن فى المدرسة الفنيــة (كانت تلك السيدة تسمى إيفا ماكنزى هى واحدة من "هؤلاء الموظفات" وقد تزوجت فيما بعد من ويلكنسون).

فى أماكن المنــاورات وتحت خلفيات السماء المختلفــة؛ يمكن تحوير السفينة من خلال النظر إليها من خلال ميكروسكوب يتم وضعه على مسافة عشرة أقدام للتأكد من آثار التشوهات فى المنحدرات والمنحنيات والخطوط.

أما بالنسبة إلى التصاميم؛ فإنه يجب أن تكون مختلفة حتى لا يستطيع قباطنة قوارب اليو الاستفادة منها، حيث يبقى الهدف على الدوام؛ جعل الناظر غير متأكد من التعرف على مقدمة السفينة ومؤخرتها والسلم الفاصل بين طابقيها، لذا يجب تنفيذ رسم الخطوط الأفقية والرأسية حول وفوق السفينة بما فى ذلك المداخن وقوارب النجاة حتى تصبح مضللة من جميع الزوايا . وعندما وافق ويلكنسون على هذا، كان ترتيب الألوان التى تم وضعها فى مساحة ١ قدم كانت كما يلى: ١٦/١ بوصة لون أبيض مخطط يظهر على الجانبين الأيمن والأيسر من التصميم، ومن ثم إرسالها إلى الميناء حيث تكون السفينة الحقيقية رأسية، وحيث يوجد نحو عشرة من الضباط، وهم فى الأصل فنانون فى البحرية الملكية ويرتدون الزى الموحد، وسيقومون بالإشراف على طلاء الخطوط المرسومة لتظهر على هيئة أكواب باستخدام الألوان: الأسود والأبيض والأزرق والأخضر كألوان أساسية، إما فى أشكالها الأساسية وإما خلطها بدرجات مختلفة. وعندما بدأ الأسطول التجارى البريطانى فى الانطلاق بسرعة فى أكتوبر عام ١٩١٧، كان الفنــان الفورتيزسى إدوارد ألكسندر وإدزورث يقــوم بعمليات إعادة الطـــلاء فى الأحواض الجافة فى ميناءى بريستول وليفربول؛ حيث كانت هندسة المعدات الثقيلة فى بداية عهدها؛ وكانت النتائج مذهلة.

تم الحكم على الأعمال من خلال التقارير الإيجابية الواردة من قباطنة السفن اعتبارًا من أغسطس ١٩١٧ فصاعدًا، حول أعمال الطلاء المبهرة:

فى تمام الساعة ٩:٥٥ صباحاً من يوم ٢٥ سبتمبر، شوهدت إتش إم إس إمبرو وكأنها حيوان يقف على مقدمة رصيف الميناء.

بدت السفينة وكأنها تغير مسارها إلى الميناء، لكنها فى الحقيقة كانت تقوم بتعديل مسارها نحو اليمين.

يجب علىَّ أن أعرف أنه فى مثل هذه الحالة من الالتباس لا يمكن استخدام البندقية أو الطوربيد.

لقد كنت على يقين من أنها تحاول العبور؛ لذا بدأت أوقف المحركات وأتراجع إلى الخلف بأقصى سرعة لتجنب الاصطدام، عندها اكتشفت أنها كانت تقوم بتعديل مسارها نحو اليمين. وبعد أن اجتازت السفينة، كان من شبه المستحيل الحديث عن الكيفية التى كانت تسير بها.

فى أكتوبر من عام ١٩١٧، أمرت الأميرالية بإعادة طلاء جميع السفن التجارية والسفن التجارية المسلحة وعدد من الزوارق والمدمرات البحرية والسفن التى تقوم بزراعة الألغام حتى تستطيع تنفيذ الواجب المنوط بها. وفى نهاية ذلك الشهر توجه الملك جورج الخامس لزيارة قسم التمويه فى مبنى بيرلينجتون؛ حيث اندهش بما رآه من أسلوب التمويه الذى يعتمد على إظهار الشىء لا جعله أقل وضوحاً.

قام نورمان ويلكنسون، الذى تمت ترقيته مؤخراً إلى رتبة قائد، بوضع فريق الخدع داخل غرف مخصصة لاختبار تصميماته، فقام بتوجيه الدعوة إلى أمير بحرى ذى لحية - وهو قائد لأحد اليخوت واشتهر برسم أشكال متعددة وغريبة من الوشم خلال السنوات التى عملها فيها بالبحرية الملكية - ليصبح قبطان غواصة. وكان هذا "الأمير" ينظر من خلال منظار أفق معدنى نحو أحدث نماذج السفن التى تم طلاؤها فى منطقة المناورات، ومن ثم كان يقوم بتقدير المسار الذى كانت تتوجه إليه بوضع نموذج لم يتم طلاؤه فى المكان الصحيح على يمين قرص البوصلة. كان اسم السفينة المطلية إى إس إى، واعتقد الأمير أنها كانت متجهة شمالاً ثم ساورته الشكوك حول سيرها جنوباً،

ثم أخذ يدور للتحقق من حــركة السفينة الصغـيرة وعندئذ قام بتـهنئة ويلكنسون: "عملت كبحار محترف لسنوات عــديدة، ولا أعــرف كيف لم أستطع تحــديد حركة هـذه السفينـة".

بحلول ذلك الوقت، كانت مدرسة التمويه الجديدة التى أنشأها سولومون جوزيف سولومون فى حديقة هايد بارك فى قلب لندن والتى تقع بين طريق بايزووتر ومقر مجلة "ذا باودر" التى كانت تصدر فى القرن الثامن عشر شمال سربنتين، قد عملت مدة عام تقريبًا. كانت تلك المدرسة تقع على بعد مسيرة عدة دقائق من منزل سولومون ومرسمه الكائن فى هايد جات بارك فى حدائق كينسينجتون جاردنز. لا ريب أن يصبح الأمر مناسبًا لسولومون، فلم يكن يتقاضى راتبًا نتيجة مقابل الخدمة العسكرية، فكان عليه أن يقوم برسم لوحاته ليكسب قوت يومه، وقد تزايدت آنذاك أعداد القتلى فى الحرب، فكانت أسرهم الحزينة تشترى لوحات لهم تخليدًا لذكرى أبنائها وإخوانها.

كان ضباط نظاميون من سلاح المهندسين الملكيين يقومون بإدارة مدرسة التمويه الخاصة بالجيش البريطانى تحت قيادة الرائد جون بى رودس، الذى ترقى بعد ذلك إلى رتبة المقدم، وتم الاحتفاظ بسولومون للعمل مستشارًا فنيًا شرفيًا. تم اختبار أفكار جديدة من أجل تعليم الضباط الفنانين الجدد تقنيات وأساليب الإخفاء والتمويه، ودراسة الدورات الخاصة بتعليم المبادئ الأساسية للتمويه للضباط وضباط الصف الذين يحبون الاطلاع، ثم وطدت المدرسة أقدامها فى الصعيد السياسى. فمثلما اختار سولومون منطقة المناورات بالقرب من مقر قيادة هيج المركزية فى فرنسا، أصبحت المدرسة فى مكان يعتبر محط أنظار كبار الضباط السياسيين والصحفيين من أجل دراسة سمات ومظاهر وأفكار حرب الخنادق؛ حيث ساعدت تلك المدرسة فى تسويق فكرة الخداع ونشر مصطلح "التمويه".

نالت تلك المدرسة ختم الموافقة الملكية عندما زارها الملك والملكة فى ٨ مارس ١٩١٧، وكانت ملاحظة الزيارة التى دونها الملك جورج الخامس فى يومياته هى أول استخدام مسجل لكلمة "التمويه" الفرنسية الدخيلة على اللغة الإنجليزية: "ذهبت أنا

وماى إلى حديقة هايد بارك القريبة من مقر مجلة ذا باودر؛ حيث رأينا هناك مظاهر التمويه فى فترة الحرب وقد وجدنا الأمر مثيراً للغاية".

ذهب سولومون كذلك إلى اسكتلندا لتقديم الاستشارات بشأن عمليات التمويه التى تجرى عند مصب نهرى فورث وتاى وحتى هول بعد أن تمت مهاجمة المنطقة بالمناطيد. صعد سولومون عبر المناطيد والطائرات للتعرف على منظر الأهداف من الجو وكيفية تمويهها لتبدو مختلفة عما هى عليه. ومع تزايد القصف الجوى ليلاً ونهاراً من قبل القاذفات الثقيلة مثل قاذفة جواثا، كان الأمر يتطلب استراتيجية تمويه واسعة النطاق إضافة إلى إخفاء المعالم الرئيسية التى يتعرف عليها طيارو الأعداء.

وفى الوقت نفسه، قامت فرنسا التى تعتبر نقطة انطلاق سولومون، إضافة إلى علماء التمويه البريطانيين، بعمليات تمويه للدفاع عن البلاد ضد هجمات الطائرات من خلال تركيب أغطية ملونة لتمويه البحيرات والقنوات وملتقى أنهار السين ومارن وأويس، كما تم تركيب مولدات دخان فى باريس (محركات أدخنة القنابل) لإطلاق سحابة ضبابية بقصد التعتيم، حيث شكل ذلك جزءاً من منظومة الدفاع المضاد للطائرات التى تضمنت مجموعات من المدافع المضادة للطائرات ومئات البالونات التى تستخدم كمتاريس يتم ربطها بأسلاك معدنية يبلغ طولها نحو كيلو مترين؛ ما يؤدى إلى تدمير أى طائرات تحاول اختراقها. كان مراقبو الجهة الشمالية الشرقية من العاصمة يقومون بإجراء اتصالات هاتفية قبل نحو اثنتى عشرة دقيقة من الهجوم محذرين من قاذفات الأعداء، ثم تدوى صفارات الإنذار، حيث يهرول مئات الآلاف من سكان باريس إلى العديد من محطات المترو والمخابئ المعدة للاحتماء بها عند وقوع غارات جوية.

بحلول عام ١٩١٨، كان الفرنسيون يحاولون تصميم عمليات خداع بصرى واسعة النطاق، لذا تم وضع نماذج ضخمة تشبه محطات السكك الحديد جنبًا إلى جنب مع الشوارع العريضة التى بها أشجار مصنوعة من الخشب والكتان فى حقول فى الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وتم تثبيت مجموعات من الأضواء التى كانت تضاء بينما

يتم إطفاء أضواء شوارع باريس. لكن مهندسى البحرية الملكية البريطانية كانوا متحفظين من استخدام هذه الأهداف المضللة للغارات الجوية. وعندما اقترح بعض المتحمسين فى كتاباتهم "بناء نسخة من مدينة لندن على بعد مسافة قصيرة داخل الريف، وتغطية لندن الحقيقية بحقول مموهة"، كانت تلك الفكرة عبارة عن (رسالة خفيفة الظل كتبها العقيد جيه بى رودس إلى جريدة التايمز)؛ وتم التأشير عليها بجملة "تم استلامها مع خالص التحية"، إلا أنه"تم تجاهلها حيث إنها لا تناسب هذا البلد"، على الرغم من أنه تم استخدام هذه الأفكار خلال الحرب العالمية الثانية.

فى الوقت نفسه، كان لدى خبير التمويه أوليفر برنارد أفكاراً مختلفة عن الحرب فى فرنسا. ظل برنارد مرابطًا فى الميدان حيث كان عازمًا على أن يرى الأوغاد الذين اسموه "المشاكس"، وقد أثبت ذلك الرجل الضئيل البنية أنه جندى عظيم، وليس "ضابط فنان" مثل سولومون يحب التباهى. أحب برنارد وضوح الكتيبات الخاصة بالجيش وتعلم منها الكثير، لذلك فإنه حينما كان يطلب منه أن يقوم بفحص البنادق الخاصة بأفراد العرض، كان يؤدى ذلك على أكمل وجه. كان يفهم أن الانضباط يؤدى إلى القوة. تخلص برنارد من العمال الكسالى عندما كان يعمل فى مجال المسرح، والآن على جنوده تقبل هذه المعدات البذيئة التى تستخدم فى تنظيف البنادق، كما أنه لن يتسامح معهم إذا لم يقوموا بحلاقة لحاهم. لقد كان أوليفر أكثر قدرة على التكيف من سولومون. والآن وجد أوليفر برنارد اليتيم مكانًا ينتمى إليه، حيث كرس سيرته الذاتية "كوك سبارو" – (Cock Sparrow) للحديث عن فيالق سلاح المهندسين الملكيين.

كانت تجربة أوليفر برنارد الأولى مع الجيش الثانى فى خليج إبرس فى أوائل مايو عام ١٩١٦، وذلك عند تعيينه ضابط عامل ومسئولاً عن الشجرات المموهة الثانية والثالثة والرابعة فى بيرنت فارم وبيل الاينس وهيل توب فارم على التوالى. اعتقد أوليفر أن شجراته كانت ذات تصميم أفضل، وتم وضعها بشكل أكثر تناسقًا مما كانت عليه شجرات سولومون.

وصف برنارد صناعته التى قام بها فى ويماريوكس "أو بايبس"؛ بأنها عبارة عن جذوع أشجار صفصاف مجوفة مستعارة، تتكون من أسطوانات مصنوعة من الفولاذ المقاوم للرصاص، المؤلف من مقاطع بيضاوية الشكل، مغطاة بأغلفة خارجية أو دروع مصنوعة من ألواح حديدية رفيعة، حيث تم وضع إطار لهذه الدروع ووضع منسوب لها ثم طرقها وتهيئتها ليبدو شكلها الخارجى كالأشجار الموجودة بالمكان والتى تم تغيير بعض منها بأشجار مستعارة ليستخدمها المراقبون.

ومع غروب الشمس تسلل خبراء التمويه داخل أشجار الغابات باتجاه القوارب الموجودة بالقنال فى اسيكس فارم. وفى ذلك الوقت كان يسمع صوت القذائف الطائشة تبتر الأشجار وتثير رائحة الحفر النتنة التى تسقط بها. وما أن حل الظلام، حتى استشرى القصف؛ حيث بدأت تنفجر قذائف الشظايا محدثة لهبا لامعًا تاركة فى الأفق بقع دخان أرجوانى. لاحظ أوليفر برنارد أن رفيقه الخبير فى مجال الاستطلاع والتمويه، أندريه مارى، كان يتصبب عرقًا، إذ كانت خوذته الجديدة ثقيلة وغير مريحة، أما هو فقد أثنى على تصميم خوذته الواقية من الشظايا. هز مارى رأسه بغرابة قائلاً: "لا، ليست جيدة بالنسبة إلى (الشظايا) الصغيرة، إن قبعتك أفضل".

استغرق تنصيب الشجرة الأولى نحو ليلتين، وبعد التحقق من تثبيت تلك الشجرة، قابل برنارد ومارى حارسًا بريطانيًا لم يكونا يعرفاه والذى اصطحبهما عبر الخنادق إلى مقر قيادة الكتيبة فى إحدى الحفر وتم استجوابهما على ضوء الشموع، حتى أجريت مكالمة هاتفية بمقر قيادة المدفعية الثقيلة تم التأكيد خلالها أنهما ليسا بجاسوسين. وفى الليلة الثالثة، ومع قدوم فرق من المهندسين العسكريين وأفراد المدفعية إلى الشجرة الثانية يحملون ما يقرب من طن من المعدات، واجهوا قصفًا ألمانيا كثيفًا بالمدفعية الثقيلة وضل مرشدهم الطريق. وهنا، استشاط برنارد غضبًا وهدد بإطلاق النيران على أى شخص يحاول مغادرة المجموعة أو الخندق، استمر برنارد بصحبة عريف البحرية المقدام كيرفل الذى ادعى معرفته بكيفية الوصول إلى أشجار الصفصاف فى بيلى أليانس.

تسلق الرجلان الحاجز الموجود بمشقة، بين كر وفر، وكانا يحتميان داخل الحفر من القذائف المتساقطة. وكان برنارد ضعيف السمع ولكنه لم يخطئ صوت المدافع الآلية وهديرها الذى يشبه صوت طائر العقعق إضافة إلى صوت المدافع الكبيرة. مضى برنارد يتبعه كيرفل عبر خندق قديم حيث أخذ الخندق يزداد عمقًا، فاستدار برنارد ينظر إلى ظلهما الذى كان يظهر على ضوء القذائف، فلم ير برنارد العريف الذى كان معه بل لمح اثنين من الجنود يرتديان خوذتين تشبه تلك التى يرتديها الجنود الألمان، ما دفعه فى الظلام إلى التسلق إلى خارج الخندق ليستلقى خلف متاريس الأعداء شاهرًا مسدسه الآلى عيار ٤٥ من جرابه وهو يحدث نفسه: "سأقتل الجندى الأول باستخدام قناع الغاز الذى يرتديه، ثم بعد ذلك أقتل رفيقه الآخر لأطرحه جانبًا.."، أما الرجل الثالث، الذى كان ضابطًا، فقد تلقى رصاصتين قبل أن تنفجر القذيفة التى طرحت برنارد مما اضطره إلى القفز وعاد إلى الجبهة البريطانية يتعثر الطريق. عاد برنارد مسرعًا نحو كيرفل الذى كان قد حدد موضع الشجرة، وبعدها وجدا فريق أندريه مارى مختبئين أسفل جوالق الرمل التى أصابت قذائف المدفعية الآلية منتصفها. تحرك الجميع نحو الموقع وقاموا بوضع متاريس حماية بارتفاع الصدر وأخذوا يحفرون الخنادق استعدادا لليلة التالية التى استطاعوا فيها نصب الشجرة. وبسبب وقوفه منحنيًا على أحد صناديق تخزين المعدات، أطلق زملاء العريف كيرفل النار عليه فأصابوا ردفه.

كانت هناك حوادث أسوأ من ذلك، فأثناء أول عملية لبرنارد مع سلاح المدفعية بالكتيبة الكندية الأولى فى يونيو ١٩١٦، قام بتمزيق أحشاء أحد الحراس الذى كان يزحف فى أرض غير مأهولة قرب مابل كويس فى أثناء محاولته العثور على شجرة محطمة يمكنه بها تجهيز منظار الأفق. كانت رائحة الجثث "قذرة". وفى الشهر ذاته وجد أوليفر برنارد فى منزل ألمانى فى بوا دى بلوجستيرت جذع إحدى أشجار البلوط، التى أشار سولومون قبل عدة شهور إلى أنها مناسبة من أجل عملية "أو بابيس". ثم قاموا بحفر خندق بطول عشرين قدمًا من خط الجبهة الأمامية، ليكونوا على استعداد لاستبدال شجرتيهما هما غير الحقيقيتين، اللتين كان ارتفاعهما يزيد على ثلاثة أقدام عن الشجرة الأصلية،

لإتاحة فرصة أفضل للرؤية للمراقبين، ولذلك كان عليهم رفع الحاجز المصنوع من أكياس الرمل بشكل كامل فى ليلة واحدة؛ ليصبح شكلها ملائمًا للشجرة.

عمل أوليفر برنارد مع الكتيبة الكندية الأولى حتى أكتوبر، وغالبًا ما كان يشاهد بصحبة الجنرال نورتن ودى إس أو وهو ضابط مساحة بسلاح المدفعية الملكية طويل القامة، حيث اعتقد برنارد أنهما "عبقريان، كان أحدهما طويلاً والآخر قصيرًا"، وقد برز دوريهما فى خليج إبرس عند القيام بمهام الاستطلاع زحفًا للمساعدة فى إقامة وتشييد مخابئ القناصة، ومناظير الأفق، ونقاط المراقبة التى هى عبارة عن أشجار مستعارة على امتداد المسافة ما بين بوسينف وأراس.

كان ٤ يوليو ١٩١٦؛ هو اليوم الرابع لمعركة السوم فى أقصى الجنوب. وفى هذا اليوم قام برنارد بإجراء فحصه الأول لبقايا طاحونة هوائية ممزقة عرفت باسم فيربراندن مولان بالقرب من كروستات، حيث كان بها عمود رأسى مصنوع من خشب البلوط يشير نحو الأعلى كلوحة الإرشادات وقد أصابه التدمير. أدرك برنارد أن شركة روس الموجودة فى لندن (هى أفضل من يقوم بتصنيع مناظير التجسس لفرقة مستطلعى لوفات)، حيث قامت أيضًا بتصنيع مناظير أفق طولها عشرة أقدام وست بوصات. رأى برنارد أنهم إن تمكنوا من عمل نقاط مراقبة تحت الطاحونة بعمق ثمانية أقدام؛ فسيستطيعون عندئذ خفض منظار الأفق فيها من أجل تنظيف العدسات وإخفاء الجزء العلوى لعدد من المناظير التى يمكنها رصد البطاريات الألمانية المخبأة خلف تل وليتشيت.

لم تكن تلك الوظائف الحساسة سهلة على الإطلاق، فربما كان على المهندسين العسكريين العمل لست عشر ليلة فى مكان مرتفع واضح للعيان لا يبعد سوى مئة ياردة فقط عن الجبهة الألمانية. وكان عليهم محاولة ألا يراهم أو يسمعهم أحد أثناء نقبهم قناتين داخل جذوع شجر البلوط الكبيرة، حيث يكون عمقهما كافيًا لتركيب مناظير أفق طولها عشرة أقدام فى غلاف واقٍ من الرصاص، والتى ستتم تغطيتها بواسطة صفيحة تم طرقها ومعالجتها بالحديد لتبدو مثل الخشب البالى، لقد كانوا

يرتعدون كلما أطلقت القذائف الضوئية إلى الأعلى فى الظلام، كان الصمت مخيمًا على المكان، ولكن بقية أفراد الجيش البريطانى ظلوا يقومون بأعمال صاخبة مثيرة، حيث كان هدير محركات عربات الجيش يصعد إلى أعلى الخندق باتجاه هيكل الطاحونة حيث تم وضع المعدات الهندسية محدثين ضجيجًا يلفت انتباه قوات المدفعية فى جيش العدو. فى بعض الأحيان يتذكر أوليفر برنارد بأسى ما كان يحدث، لقد كان هناك ثلاثة عملاء يقومون بعملية التمويه، منهم من يؤمن بصعوبة هذا الأمر على الأعداء وهم قليلون؛ ومنهم من يؤمن بصعوبة الأمر على الجميع إلا الأعداء وهم كثيرون؛ وفى ذات الوقت كان هناك عدد كبير من الرجعيين الذين يعتقدون أن كل أشكال التمويه يعتبر بمثابة خرق لقوانين الملك، ونسى هؤلاء الحمقى أن أعداءهم الألمان لا يترددوا فى محاكاة جميع أفكار التمويه الفرنسية والبريطانية.

عاد الملازم برنارد من مسرح العمليات، حيث كان يجب أن يستمر العمل. وفى وقت مبكر من صبيحة أحد أيام صيف ١٩١٦ تم إنجاز المهمة عند الطاحونة. وبعد عدة ساعات، قام الجنرال والعميد بإيقاظ برنارد الذى كان نائمًا قائلين له: "لقد تم إنجاز الطاحونة".

ظن برنارد أن العمل بالطاحونة قد انتهى فى تمام الساعة ٢:٣٠ صباحًا، إلا أنهما عادا فقالا له: "لا، لقد أنهاها بوتش ثم بعد ذلك قصفتها المدفعية الألمانية"، فلم يصبح بإمكان برنارد سوى تجميع المواد الزجاجية وعدسات منظار الأفق ولعن حظه فى الحرب.

ظل ذلك العبقرى الصغير بالقرب من خليج إبرس دون أن يصيبه أذى، حتى وصل إلى مكان يسمى فورمازالى، وفى ٤ أغسطس ١٩١٦ - وهو اليوم الذى يلى اليوم الذى قتل فيه أخوه بروس على يد الجنود النيوزيلنديين - أصيب أوليفر برنارد بقذيفة مدفع آلى أسفل ركبته اليسرى. وبعد فترة قضاها فى مستشفى ويميروكس تمت إعادته مرة أخرى إلى إنجلترا؛ حيث قال للسيدة التى وضعت سلة فاكهة فى سيارة الإسعاف الخاصة به فى محطة تشارينغ كروس: "أنا لست من السوم اصطحب الجنرال رودس برنارد إلى نزل مستشفى كلوك هاوس المعروف عند جسر تشيلسى.

توكأ أوليفر برنارد على عكازيه ذات يوم لرؤية سولومون جوزيف سولومون عند بوابة حديقة هايد بارك. وعند الباب الأمامى، ارتبك أوليفر وتساءل إن كان ذلك الفنان سيقدر الشخص الذى كان سولومون يطلق عليه قديمًا "رجل أعمالى"، لكن سولومون كان لطيفًا ودودًا، فدعا برنارد إلى مرسمه وهيأ له المكان كى يرسم ما يشاء من صور. ومن خلال المحادثة التى جرت بينهما، استشعر برنارد بأن سولومون مجروح الشعور ومصاب بخيبة الأمل جراء ما حدث له أثناء الفترة التى قضاها بالجيش. كان برنارد رجلاً متمرسًا فى الحياة كثير الانتقاد لما يجرى حوله، لقد تعجب: "ما الدافع وراء نجاح سولومون. هل كان يغذى طموحه أم طمعه؟"، بدا سولومون، عندما تحدث إليه برنارد فى المرسم، رجلاً بقلب طفل يصعب السيطرة عليه، فهو موهوب وكريم ومدلل ويتميز بحنكة غير معتادة ومعارضة ما يصدر له من أوامر، والتى اعتبرت أكثر الصفات التى عانى منها جميع الرواد فى تلك الفترة التاريخية. وعلى الرغم من أن سولومون لم يكن يصلح، من وجهة نظر برنارد، لإدارة وحدة عسكرية، كما كانت أساليبه السياسية لا تتسم بالحكمة، فإنه كان أول شخص قادرًا على استيعاب الفكرة الفرنسية الجديدة وتقديمها بقوة إلى السلطات. كان سولومون سيحظى بمزيد من التقدير والإجلال لو أن عمله كان تقديم الاستشارات وليس فرض الأوامر.

تواصلت أعمال الخداع والتمويه فى فرنسا، وقام كل من الطرفين بقصف أراضى الجانب الآخر غير المأهولة بالسكان. وفى وقت مبكر من عام ١٩١٧، عاد أوليفر برنارد وهو يعرج إلى نقطته، وأخذ يهزأ من الشريط الذى ربط به جرحه بجوار شارته العسكرية. أنشأ نقاطًا للمراقبة من أو بايبس على الأحجار الجيرية بالقرب من فيمى ريدج وخلف جدران الطوب عند جبل كيميل. وقبل بضعة أيام من عيد الفصح فى أبريل ١٩١٧؛ أصبح أوليفر برنارد، وهو لم يزل فى السادسة والثلاثين من عمره، الضابط المسئول عن عمليات التمويه فى الفيلق التاسع بالجيش الثانى للسيد هربرت بلومر. كانت هذه القوة العسكرية تستعد لشن هجوم شامل على تلال ميسن ويجسيشارت ريدج المطلة على خليج إيرس من جهة الجنوب، حيث قام المهندسون العسكريون وجنود المدفعية بتمهيد الطريق أمام المشاة؛ وكان العاملون فى الأنفاق من البريطانيين

والأستراليين والكنديين يقومون سراً بعمليات حفر الأنفاق لوضع واحد وعشرين لغماً من الحجم الكبير أسفل المواقع الألمانية؛ وهم يستمعون من خلال مكبرات الصوت إلى أصوات الجنود الألمان وهم يتحدثون، ولا يدرون أنهم بعد قليل سيتم تفجيرهم. قام عمال الأنفاق بشجاعة بشق أنفاق فى مناطق مملوءة بالمياه فى أحد الأماكن التى اسماها البريطانيون بالمأزق. والآن، قام خبراء التمويه بالمساعدة فى إخفاء مناظير الأفق على بعد سبعين ياردة فقط من جبهة القتال الألمانية. وفى الوقت نفسه تم تركيب أكثر من ٢٢٠٠ مدفع هوتزر ثقيل، إضافة إلى ٤٠٠ مدفع مورتر ثقيل و٧٠٠ مدفع رشاش ثقيل. كما تفوق الجيش الثانى جوياً، حيث تم تدعيم ثمانية من مناطيد المراقبة بنحو ٣٠٠ طائرة من طائرات الفيالق الجوية التابعة للفرقة الثانية التى هاجمت الأهداف الأرضية والسكك الحديد ومعسكرات قوات الاحتياط الألمانية إلى جانب القيام بدوريات مراقبة وتصوير لجبهات قتال القوات المعادية. كما قام سلاح الجو الملكى بتدمير جسر ميسن الذى كان بحجم ملعبين من ملاعب الكروكى إضافة إلى دفاعاته، حيث قدر الضباط ذلك النموذج من خلال السقالات التى وضعت حوله.

عندما تم استدعاء برنارد لإطلاع قائد قواته العسكرية الفريق السير ألكسندر هاميلتون جوردون على أخبار عمليات التمويه، اصطحب برنارد معه بعض الصور الفوتوغرافية المأخوذة من الجو. كان برنارد قد أطلق على جوردون بسبب كآبته اسماً مستعاراً يبعث على السخرية هو "سانى جيم"، ولكن برنارد كان يشعر بـ "أن شعاعاً من الأمل قد اخترق أعماق قلبه الحزين"، عندما استطاع فى النهاية رواية ما يراه خطئاً لشخص يمكنه أن يصحح ذلك الخطأ. وقال: "يجب أن يكون التمويه أمراً مدروساً بدقة منذ البداية وليس بعد فوات الأوان، فإن لاحظ العدو أول حفرتين تستخدمان مستودع ذخيرة أو مواضع نصب المدفعية لديك، فإن كل محاولات الإخفاء اللاحقة ستكون من الصعوبة بمكان". وأضاف برنارد: "أما هذا النوع الخاطئ من التمويه فهو أسوأ من عدم وجوده من الأساس"، وقام بعرض الصور الملتقطة من الجو على هاميلتون لحفر المدافع التى تم نصبها فى الخلاء وتمت تغطيتها بأكواخ بيضاوية أو مستديرة الشكل وخيمات مربعة من الخيش وقطع من قماش الكتان ذات اللون الأخضر الفاتح مع

تزويدها بفتحات جانبية واضحة للعيان؛ كما هى الحال بالنسبة إلى الكتل السكنية. تعجب قائد الفيالق وقال، "يا لحماقتنا! تُركت هذه المواقع فى مكانها لتكون طعمًا، لكنها وبهدوء جعلت العدو يغير مواقعه".

ربما كان الهجوم التالى على ميسن أو ميسن ريدج أكبر نجاح بريطانى تحقق حتى الآن فى الحرب التى وصلت إلى طريق مسدود، حيث تم زرع تسعة عشر لغمًا من إجمالى واحد وعشرين فى الساعة ٣:١٠ صباحًا الموافق ٧ يونيو ١٩١٧؛ أسفل جبهات المواجهة الألمانية من جانب عمال الأنفاق الذين قاموا بوضعها فى ترتيب متتالٍ؛ مما أحدث انفجارًا استمر نحو ثمانى وعشرين ثانية، وتصاعدت أعمدة كبيرة من اللهب وصلت إلى عنان السماء ثم تهاوت تاركة الرماد والحطام والدخان. قال فيليب جيبيس: "لقد كانت كنيران من الجحيم تتصاعد إلى الأعلى". أدى انفجار نحو مليون رطل من المتفجرات إلى موجة تصادمية يمكن لقاطنى الجانب الآخر من القنال الإنجليزى فى لندن سماعها والشعور بها، حيث أحدثت فوهات بامتداد ٢٥٠ قدمًا؛ مما أفسد المناظر الطبيعية القريبة. وربما يكون هناك ٨٠٠٠ من الجنود الألمان قد لقوا حتفهم فور الانفجار وهم فى مخابئهم وخنادقهم المهشمة، وبالسير تحت غطاء نيران ومدفعية المورتر والمدفعية الآلية. قام نحو ٨٠٠٠٠ من المشاة البريطانيين والأنزاك بالتحرك نحو الأمام واحتلال التل بالكامل ثم التحرك نحو الجانب الآخر، ما أدى إلى استسلام أكثر من ٧٠٠٠ ألمانى وهم فى هول الصدمة، وقد رأى فيليب جيبيس أن خوذات الجنود الألمان كانت مموهة، وقد رأى فى عيونهم مدى حنقهم على ألمانيا. وبعد أربعة أيام من القتال، كان نحو نصف القتلى والمصابين فى القوات البريطانية البالغ عددها ٢٥٠٠٠ جندى من الأنزاك.

وبعد مرور يونيو ١٩١٧، أى عندما استولى الأنزاك على القطاع الكندى فى خليج إبرس، انتقل التمويه من مجرد إجراء جزئى إلى إجراء كلى، حيث كانت الكتيبة الأسترالية الأولى التى قاتلت فى جاليبولى هى أول من طلب القيام بأعمال تمويه خاصة أن جميع الطرق من بوبرينج إلى إبرس تعتبر ظاهرة لمناطيد المراقبة الألمانية، كما أن

الكتيبة غير مستعدة للتضحية بالمزيد من الجنود والمعدات ووسائل النقل من خلال عدم الاهتمام بالأمور البصرية. ومنذ ذلك التاريخ، كانت هناك أدلة فوتوغرافية على استخدام رايات من الخيش وترتيب أقواس تشكل طبقات متشابكة ضد من يقومون بالمراقبة من مسافة بعيدة، كما ارتفع إنتاج أدوات مراقبة الطرق التى تمكن المراقبين من الرؤية على بعد يصل إلى ٢٥٠٠٠ ياردة مربعة فى شهرى يونيو ويوليو، بدءًا من الصفر فى شهر مايو. وبحلول عيد الميلاد سنة ١٩١٧، كان هناك نحو ١١٢٠٠٠ من ياردات الخيش المربعة ترفرف فى الهواء.

بدأت قوات الحملة البريطانية تتفهم أن الفكرة الرئيسية للتمويه تتمثل فى الخداع وليس الإخفاء. ولكن الأفكار الجديدة أخذت تدخل حيز التنفيذ ببطء شديد، حيث نقل برنارد إلى الساحل قرب دون كيرك للمساعدة فى تمويه المدافع البحرية بلون الرمال للقيام بهجوم رئيسى على الساحل فى يوليو ١٩١٧؛ حيث قامت قوة ألمانية كبيرة بالتصدى لهم من خلال هجوم بغاز الخردل. وتضمنت واجبات برنارد تمويه مطارات سلاح الجو الملكى، حيث تمكن برنارد من إقناع قائد سلاح الجو الملكى بعدم بناء أى مبانٍ جديدة، واستغلال منشآت المزرعة الموجودة بدلاً من ذلك، دون إحداث تغيير فى الأراضى أو عمل مسارات جديدة، فأعجب قائد سرب الطائرات قائلاً: "يا لها من فكرة جديدة، إنها أفضل من أى تمويه". فأجاب برنارد قائلاً: "ليس الأمر كذلك، فذلك هو التمويه". وعندما أرسل بلومر إلى شمالى إيطاليا فى نوفمبر ١٩١٧ لمساندة ودعم الحلفاء الإيطاليين فى مواجهة القوات النمساوية، استكمل برنارد عمله باعتباره ضابط تمويه.

وبالطبع؛ كان الأعداء هم الآخرون يستخدمون التمويه، حيث كتب برنارد عن "التدريب الرائع الذى قام به الأعداء، والمعدات المجهزة بشكل متكامل بأفضل الوسائل العلمية لتوفير الحماية والتمويه للأشخاص والمعدات فى جبهاتهم الغربية" فى أبريل ١٩١٧. وبعد أن انسحب الألمان من أنديفر وود إلى هيندينبيرج لاين، سجل النقيب جى سى دن كيف يمكن بشكل عام الاستفادة من الأخشاب.

ففى الجزء الأمامى، المختفى فى أشجار الزان، يتم تثبيت المدافع الآلية على طبقات مدرعة وأخرى من الخرسانة تشبه صناديق البريد الضخمة. ومع تثبيت البنادق والمخابئ على جذوع الشجر والموجودة بين نباتات السرخس والحشائش بقصد التخفى يتم وضع أغصان نامية وأخرى مقطوعة على المخابئ الصغيرة، وتتم تغطيتها باستخدام الطحالب ونبات اللبلاب وزهور الآس وشقائق النعمان والفراولة البرية، إلا أن الآثار المترتبة على الاستفادة من ذلك ليست ثابتة حتى الآن.

وبحلول عام ١٩١٧؛ لم تكن أعمال المنتزهات فى فرنسا تقتصر على استخدام العاملات لصناعة شباك الصيد فقط، لكنها أيضًا أوجدت نطاقًا واسعًا من الفنون لعمل دمى جوفاء تحاكى الواقع وتشبه جلود الحيوان والأشجار والحوائط والخيول الميتة. وفى يوليو ١٩١٧، عندما وصل الملك جورج الخامس ومعه أمير ويلز قادمين من كاسيل لرؤية المنتزه الخاص بأعمال الطريق الواقع بين ويرم، ويدر، كتبت جريدة الديلى ميل تقول: "شاهد الملك جميع الحيل التى تستخدم فيها الألوان الخاصة بالخداع، أو ما يمكن أن نسميه الآن "التمويه" الذى يعرض نماذج للبنادق والقناصة والمراقبين". كما تابع مراسل جريدة التايمز الخاص تلك الجولة التى استغرقت عشرة أيام بالجبهة الغربية:

فى يوم الجمعة الموافق ٦ يوليو، اتجه الملك إلى منزل الكاهن الأكبر صاحب الأساطير التى ليس لها مثيل فى عالم التمويه، والذى يقطن فى مكان خلاب بين الحقول البلجيكية، حيث لا تبدو الأشياء كما تعودت أن تراها عيناك؛ إنه مكان مذهل لا يمكنك وصفه بالتفصيل، وعلى الجانب الآخر، فإنه يمكنك من خلال الزجاج رؤية الرجال على هيئة أشجار، بينما يبدو لك أن كل شىء يغور فى الأرض كما يمكنك أن ترى الشراك والكمائن... إنه بيت به الكثير من الأفكار، وقد كان فى استقبال الملك كبير السحرة الذى عرض عليه فنونه السوداء وأطلعه على جميع أسراره.

(١٠)

الكذب على لويد جورج

كان لويد جورج ليبراليًا، غير أن مشاغباته أدت إلى سقوط آخر حكومة ليبرالية شهدتها بريطانيا، فبعد أن ساعدته الصحافة فى الإطاحة برئيس الوزراء أسكويث، ووضعته فى السلطة فى ديسمبر ١٩١٦، كافأ لويد جورج أقطاب الصحافة العظماء بمنحهم وظائف فى الحكومة، وتغيير آلية الدعاية بأسرها، وتحت قيادة رئيس الوزراء هذا، أصبحت الدعاية سوقًا ضخمًا.

يعتبر أهم الشخصيات فى عالم الصحافة البريطانية، والذى اعتمد على تقديم الأخبار الصادقة، والاهتمام بالرأى العام هو اللورد نورثكليف، هو ذاته اللورد ألفريد هارمسورث الذى ولد عام ١٨٦٥ فى تشابيلزود فى دبلن، حيث كان رجلاً عصاميًا، علم نفسه بنفسه، وعمل صحفيًا حرًا لمساعدة والدته وإخوانه وأخواته بعد أن أدمن والده المحامى الكحوليات. تعلم مما ينشره جورج نيونس فى تيت - بتس فى تسعينيات القرن الثامن عشر أن طبقات المثقفين الجديدة تريد أن تكون المعلومات مسلية ويسهل الوصول إليها، فضلاً عن أن هارمسورث كان يتحلى بالبراعة فى فهم أذواق وأفكار الآخرين، وكان ذاك هو سر تفوقه فى الصحافة الشعبية، فهو من قال: "الصورة الباسمة تجعل الناس يبتسمون"، وقال أيضًا: "الناس يحبون القراءة عن الاستغلال، مع معظمهم لا يمانع أن يكون مستغلاً إذا ما واتته الفرصة."، بدأ هارمسورث حياته الصحفية بالكتابة عن أخبار ركوب الدراجات، وكانت صحفه الشعبية المستقلة بما فى ذلك كومينج كاتس ومارفيل تحقق مبيعات تصل إلى مليون نسخة أسبوعيًا وذلك فى عام ١٨٩٢.

كانت أول صحيفة يومية يديرها هارمسورث هى لندن إيفينينج نيوز عام ١٨٩٤؛ وكانت صحيفة متعثرة، فقام بمضاعفة أرباحها من خلال تغيير شكلها وتبسيط تقاريرها (مؤكداً على ما يرغبه الجمهور) وجعل العناوين الرئيسية والجانبية أكثر إثارة، فضلاً عن أنه أضاف عموداً للمرأة، ثم أصدر هارمسورث أول جريدة جديدة متكاملة هى ديلى ميل فى ٤ مايو ١٩٨٦؛ وكان سعرها نصف بنس فقط، وتجدر الإشارة إلى أن العدد الأول منها باع ما يقرب من ٤٠٠٠٠٠ نسخة، وهو يعادل تقريباً مجموع ما تبيعه الصحف التى تباع بسعر بنس مجموعة، كما كان من نتيجة الاستخدام الحاذق لشبكة السكك الحديد البريطانية فى أن يعم توزيعها أرجاء الدولة، حيث أصبحت صحيفة ديلى ميل سوقاً وطنية كبيرة. وعلى الرغم من أن لورد سالسبرى زعم بطريقة متعجرفة أن الصحيفة الجديدة كان "يديرها ساعٍ وأن قراءها هم من السعاة"؛ فإنها كانت تحتوى على فقرات صغيرة رائعة تتميز بالبساطة والوضوح.

يعتبر كل من الوطنية والاستعمارية سبباً فى بيع الصحف، إلا أن هارمسورث استخدم الدعاية لتحقيق الربح. وتسببت تغطية صحيفة ديلى ميل الوطنية لحرب البوير فى مبيعات يومية قدرت بنحو مليون نسخة، وهى نسبة التوزيع الأعلى فى العالم، وفى غضون السنوات الأولى من القرن العشرين دق هارمسورث ناقوس الخطر فى صحيفة ديلى ميل داعياً إلى تكوين قوة بحرية أضخم وجيش أكبر ودفاعات أقوى، مظهراً مخاوفه من وقوع غزو أو تهديد أجنبى. وفى عام ١٩٠٣، أصدر هارمسورث الصحيفة الشعبية ديلى ميرور التى تستهدف تكوين شخصية "امرأة عصرية"، حيث كان طاقم عمل الصحيفة من السيدات، وفى عام ١٩٠٨ تولى هارمسورث إدارة صحيفة التايمز، تلك الصحيفة التى أسستها الحكومة البريطانية، فقام بتحديثها وجذب مزيد من الإعلانات، وشمر عن ساعد الجد وشجع الاتحاد القومى للصحفيين فى مهده. وفى مارس ١٩١٤، قام بخفض سعر بيع صحيفة التايمز من ثلاثة بنسات إلى بنس واحد فقط وزاد توزيعها إلى ثلاثة أضعاف لتصل إلى ما يقرب من ١٥٠٠٠٠.

عند نشوب الحرب العالمية الأولى، أصبح هارمسورث من طبقة النبلاء وصار يلقب باللورد نورثكليف. كان لورد نورثكليف الجديد متحمسًا ليلعب دور نصير الشعب، متحديا بذلك الحكومات والمصالح الشخصية. والآن بدأ يتناول قضية التحالف كاشفًا خطورة الوحشية الألمانية على صفحات جرائده، متحديًا الرقابة على المطبوعات، ومدافعًا عن الجندى العادى، وداعيًا إلى مزيد من التجنيد وتوفير ذخائر أفضل مشددًا على أهمية التجنيد الإلزامى. وفى عام ١٩١٤ نبهت صحف هارمسورث كتشنر محملة إياه مسئولية أزمة الذخائر التى حدثت فى مايو ١٩١٥، كما هاجم اللورد هالدين لكونه محبًا للحضارة الألمانية، حيث كان بين الرجلين خلاف قبل الحرب حول مستقبل القوات الجوية، هذا فضلاً عن أنه هاجم تشرشل عقب هزيمة الدردنيل. كتب هارمسورث عن تشرشل قائلاً: "لقد مارس السياسة دون مسئولية رسمية، وأنه يتمتع بمعلومات سرية دون فهم عام للأمور، وأنه بدد ثروات القادة الوطنيين دون أن يرغب فى تحمل أعباء ذلك". بحلول نهاية عام ١٩١٦، كان أسكويث المخادع مصدر غم هارمسورث (الذى أكن له فى المقابل الضغينة وعدم الثقة) وساعد فى وصول لويد جورج إلى السلطة. شعر أمير الصحافة المختال بالنصر عندما سقطت حكومة أسكويث، حيث أفردت لها صفحة كاملة فى صحيفة ديلى ميل يوم السبت الموفق ٩ ديسمبر ١٩١٦ تحت عنوان رئيس "سقوط الإفلاس".

كان لويد جورج يود أن ينضم تشرشل إلى حكومته ولكن اللورد نورثكليف، صاحب الكلمة المؤثرة، أوضح عبر صحيفتى ديلى ميل والتايمز أن فى تاريخ تشرشل نقطة سوداء. وما زال التحقيق بشأن الدردنيل ودور تشرشل فى ذلك المشروع ماثلاً أمام القضاء. عندما استبعد تشرشل من الحكومة مجدداً، شعر بالخيانة، لكن الحال لم تدم طويلاً، فبعد ستة أشهر حينما كان اللورد نورثكليف فى أمريكا الشمالية، طلب لويد جورج من تشرشل العودة ليشغل منصب رئيس مجلس الدفاع الجوى ثم بعد ذلك وزير العتاد الحربى.

وفى ١٢ من يونيو ١٩١٧، كان اللورد نورثكليف يتناول وجبة الإفطار فى فندق جوثام فى مدينة نيويورك عندما قدم شاب كندى صغير نشط يدعى كامبل ستيوارت لمقابلته، حيث عمل نورثكليف رئيسًا للمهمة الحربية البريطانية فى الولايات المتحدة الأمريكية ما جعله يتحمل أعباءً ضخمة. أنفقت المملكة المتحدة على الحرب ما يقرب من ٣,٧١ مليار جنيه إسترلينى حتى ذلك الوقت، واحتاجت إلى أغذية أساسية من الولايات المتحدة الأمريكية وقروض عاجلة وصلت قيمتها إلى ٢٠٠ مليون دولار أمريكى شهريًا. عين كامبل ستيوارت فى ذلك الوقت سكرتيرًا عسكريًا للمهمة الحربية البريطانية، وما لبث أن أصبح ملحقًا عسكريًا وسكرتيرًا ومعينًا لقطب الصحافة فى حملته لإقناع أمريكا بأن تدخل الحرب للفوز بها ضد ألمانيا. كان ستيوارت برفقة نورثكليف فى مدينة كانساس فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٧؛ عندما قابل نورثكليف أبرز الصحفيين فى الغرب الأوسط "الذين يحملون معظم الأفكار الغربية"، حيث أخبر ستيوارت فيما بعد كيف بأن:

نورثكليف اشتد على هؤلاء الرجال متحدثًا بصراحة بالغة عن ميولهم الانعزالية وضيق أفقهم وجهلهم وغير ذلك، حيث يقول ستيوارت: "أشك فى وجود أى إنجليزى آخر يمتلك شجاعة القيام بذلك فى هذا الوقت؛ لقد كان لكلماته تأثير بالغ".

السير كامبل ستيوارت، "الفرصة تأتى مرة واحدة" – (Opportunity Knocks Once) (١٩٥٢).

عرض لويد جورج على اللورد نور ثكليف وزارة الإعلام المقترحة لتولى مهمة تنسيق الدعاية، لكنه رفضها، وهذا هو السبب الذى جعل جون بوشان، بعد كتابة "تاريخ الحرب" – (History of the War) إضافة إلى كتب أخرى والعمل لصالح الجنرال هيج رئيس الاستخبارات والعميد جون كارتريز، يتقلد هذا المنصب فى فبراير ١٩١٧.

يذكر أن وزارة إعلام بوشان الجديدة جمعت بين الدعاية الخارجية والدعاية الحربية، بيد أن ذلك كان فى صعيدين متباينين، وكانت الوزارة آنذاك لا تتعدى كونها منظمة إقليمية "وزارة ضعيفة" مهددة بالخطر من أن تبتلعها المؤسسات الحكومية العتيقة الأخرى.

كتب الروائى أرنولد بينيت الذى التحق بعد ذلك بأعمال الدعاية: "كانت الحرب الحقيقية الوحيدة داخل الحكومة البريطانية، وكانت الحرب فى فلاندرز وفرنسا بمثابة مباراة كرة قدم دامية". أدار تشارلز مسترمان إدارة قسم الإنتاج فى ويلنجتون هاوس، ذلك القسم لذى كان يتولى مسئولية إصدار الكتب والكتيبات، فضلاً عن الصور الفوتوغرافية واللوحات. اختارت لجنة الدعاية المصورة فنانى الحرب "الرسامين" الأوائل، ومن بينهم جون أغسطس مورهيد بون ويندهام لويس وسى أر دابليو نسفينسون إضافة إلى ويليام أوربن.

كان قسم الصحافة والسينما يقع بجوار مكتب مستشار اللورد بمجلس الأعيان. وتطلع بوشان إلى صحافة جيدة تستخدم قصصًا حقيقية؛ كما أنه شجع منتجى الأفلام على تحرى المصداقية، كما تعامل هذا القسم أيضًا مع البرقيات السلكية واللا سلكية، وتولى بوشان منصب المدير التنفيذى لوكالة رويترز الإخبارية، بينما كان رودريك جونز مستشارًا مؤقتًا لا يحصل على أجر. (وبعد أن انتحر قطب الصحافة بوكالة رويتر "بارون هربت" فى أبريل ١٩١٥، تاركًا وكالة رويترز الإخبارية فى موقف مالى هش، عقد جونز صفقة مع الحكومة البريطانية مستخدمًا قرضًا رتب له صهر هربت "آسكويث" يقدر بنحو ٥٥٠٠٠٠ جنيه إسترلينى، وتمكن جونز من شراء رويتر، وأصبح المساهم الرئيسى فيها، وكان يتم عرض الأخبار الحربية التى تم جمعها "على الرقابة البريطانية" وأن الحكومة البريطانية تشرف على شبكة توزيع تلك الأخبار على المستوى العالمى).

حل قسم الاستخبارات بوزارة الإعلام فى شارع فيكتوريا محل لجنة الصحافة المحايدة القديمة، وكان الهدف من ذلك هو الحصول على معلومات جيدة من الفروع المختلفة للحكومة على وجه السرعة، أما القسم التنفيذى الذى كان به بوشان؛ فقد كان مقره وزارة الخارجية. وكان لزامًا على بوشان أن يبقى على اتصال بالملك فى قصر بكنجهام وأن يتقدم بالتقارير لرئيس الوزراء فى داوننج ستريت، على الرغم من أن آثر لويد جورج حاول تنفيذ هذا العمل مع أصدقاء آخرين فى مجال الصحافة.

ذاق جون بوشان من ويلات الحرب، فقد كان هربرت آسكويث، ويدعى رايموند، أول صديق له من أكسفورد يلقى مصرعه، ثم تلاه برون لوكاس من سلاح الجو الملكى الذى لقى حتفه فى نوفمبر ١٩١٦، وتلقى بوشان صفعة مفجعة يوم الاثنين الموافق ٩ أبريل ١٩١٧ عقب عيد الفصح، عندما فقد أعز صديق له وشريكه فى دار النشر تومى نيلسون ثم أخاه الأصغر أليستير، حيث قتل كلاهما فى فرنسا فى معركة أراس على بعد نصف ميل من بعضهما بعض.

بعد وقت قصير من تعيينه رئيسًا للوزراء فى ديسمبر ١٩١٦، أخبر لويد جورج العمال والوفد الاشتراكى: "أكره الحرب وأمقتها جدًا، فأنا أفكر أحيانًا قائلاً لنفسى أأحلم؟ هل هذا كابوس؟ لا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة. ولكن ما أن تفتح عينيك وتتأكد أنك فى خضم الحرب؛ فما عليك إلا أن تغزوها بشدة، وإلا ستفقد أسباب النجاح أى قضية...". إلا أنه بنهاية الحرب قام الأيرلندى الاشتراكى والمحاور والكاتب المسرحى والروائى ومؤلف الكتيبات جورج برنارد شو بمشاركة لويد جورج وجهة نظره أن الحرب هى الهاوية، لكن عليك الفوز بها. كان برنارد شو فى الستين من عمره عندما سافر إلى فرنسا عام ١٩١٧ لزيارة خنادق الحرب لكتابة استنتاجاته فى إحدى الصحف اليومية، فعندما طلب الجنرال جورج ماكدونو مدير الاستخبارات العسكرية الذى أدار وحدة الدعاية إم ١٧ بى من فيليب جيبيس أن يعهد لمحرر بزيارة الجبهة بشرط أن يكون "قادرًا على كتابة شىء طيب عن حيـــاة وبطولة رجالنا"، فأجاب جيبيس على سبيل السخرية: "ما رأيك فى برنارد شو؟"؛ فكان الرد: "يا إلهى، يا لها من فكرة جيدة!".

وصف ونستون تشرشل برنارد شو بـ "الحرباء ذات الرأسين"، كما وصفه بأنه "متألق وحاذق وصارم وواسع الإدراك"، وقدم شو خلال طقس بارد وسط تساقط الثلوج فى يناير ١٩١٧ إلى الخنادق بـ "لحية طويلة تذروها رياح فرنسا وفلاندرز"، حيث تناول تلك الفكرة فى مسرحيته "الرائد باربرا" (Major Barbara) – تاجر السلاح المليونير أندرو أندرشيفت الذى نعت نفسه بـ "وسيط القتل والفساد"، لكن الكاتب المسرحى يتواجد

الآن فى ساحة القتال الحقيقية، وأضاف أندرشيفت قائلاً: "كلما كانت الحرب أكثر تدميراً، اكتشفنا أنها أكثر جاذبية". استخدم برنارد شو كلمة "جاذبية" بشكل متكرر ليشير إلى الدعوة الخفية إلى استئناف الحرب، وكتب شو: إن مراسلى الحرب العالمية الأولى أمثال فيليب جيبيس، الذين رأوا المعاناة التى لاقاها الجنود، كانوا مفتونين بشجاعة الرجال التى تدفعهم إلى تحدى الخطر الجسيم وتحمل الصعوبات.

رافق فيليب جيبيس برنارد شو إلى أماكن مختلفة مثل: إبرس وفيمى وأراس، مستعيناً بدهائه، وأثناء تناول وجبة الغذاء سأل الجنرال: "متى ستنتهى الحرب فى اعتقادك؟"، فأجاب برنارد شو: "حسناً أيها القائد، نحن جميعاً نتطلع إلى سلام مبكر"، وهنا ضحك الضباط، لكن الجنرال لم يضحك. سجل فيليب جيبيس برنارد شو وهو يوصى بـ "مجوعة من الأفكار"، كانت إحداها "يعد ذلك بمثابة انحطاط لكل ما نعنيه بكلمة حضارة"، ومنها كذلك، "علينا يا عزيزى جيبيس، أن نهزم البوتش (الألمان)". أثناء زيارتهم إلى الجبهة كان هيسكث بريتشارد دليل فيليب جيبيس وجون بوشان وغيرهما من مراسلى الحرب الأوائل، وبحلول عام ١٩١٧ رافق النقيب تشارلز مونتيجو ذا الشعر الأبيض المحرر السابق والناقد المسرحى فى صحيفة مانشستر جارديان، حيث صبغ مونتيجو شعره الفضى بلون أصفر حتى يتمكن من الانخراط فى "جيوش كتشنر الجديدة" بوصفه جندياً خاصاً، وهو فى السابعة والأربعين من عمره ثم ترقى إلى درجة رقيب اعتماداً على كفاءته قبل أن يقبل تكليف الاستخبارات، كما ظل مونتيجو مبتهجاً أثناء فترة الحرب: حيث كتب: "وجدت هوايتى فى تفجير القنابل التى تجمع بين متعة كرة الكريكيت والألعاب النارية". ومن الناحية الأخلاقية كانت الحرب تتعارض مع مبادئ نصرانية مونتيجو، فقد عارض حرب البوير أيما معارضة، ولكنه رأى أن الحرب العالمية الأولى كانت حتمية من أجل النصر؛ فضلاً عن أن سى إى مونتيجو وصف كيف تخلصت الجيوش الجديدة من أوهامها فى كتابه "التحرر من الأوهام" – (Disenchantment) عام (١٩٢٢)، الذى يعتبر أحد أعظم الكتب التى أعدت عن الحرب العالمية الأولى.

اصطحب مونتيجو رفاقه الصحفيين إلى الجبهة الأمامية لشوقهم إلى رؤية القصف دون خوف، وفي يناير ١٩١٧، اصطحب مونتيجو جورج برنارد شو فى جولة استغرقت أسبوعًا حول أطلال ما خلفته القذائف من أضرار بالبساتين، وفى هذه الجولة كان برنارد شو يرتدى الزى الكاكى كأى جندى، بينما كان الثلج الأبيض يكسو فلاندرز فى يناير ١٩١٧، وكان لون قبعة القائد الرومانى غير ظاهر بينما كان زى برنارد الكاكى ظاهرًا على نحو جلي؛ ما جعل الكاتب المسرحي يشعر بأنه يرتدى سترة القرون الوسطى الفضفاضة، ونشرت مقالات برنارد شو الثلاثة التى كتبها عن خبراته فى فرنسا فى صحيفة ديلى كرونيكل فى مارس ١٩١٧، والتى جمعها تحت عنوان "متعة الوقوف على الجبهة"، حيث علق جيبيس قائلاً: أهان العنوان واللهجة اللتان كتب بهما برنارد شو الناس إهانة بالغة، ما جعلهم ينظرون إلى تلك المؤلفات على أنها عديمة الفحوى وساخرة، ولكن بعد مرور تسعين عامًا، تبدو وكأنها حديثة. فمقاله "متعة الوقوف على الجبهة"، مليء بالأساليب الساخرة؛ حيث يطلق أفراد المدفعية القذائف بشكل مكثف على خنادق العدو التى هجروها، إضافة إلى وجود دلائل على إطلاق النار والغاز واشتعال ألسنة اللهب؛ مما أصاب أبناء قرى فرنسا القريبة بالسعال ودفع كبار ضباط قواتهم إلى الفرار. أما مقال شو الثانى "أسلوب الحرب" فهو عبارة عن تحليلات لتخبط المدفعية والقصف الجوى، ولكنه يهدف أيضًا إلى إعادة الطمأنينة إلى القراء القلقين داخل البلاد، حيث أودت الصواريخ بحياة من يحبونهم على الجبهة، ثم قام بتحويل التخريب السافر الذى أحدثته الحرب فى مقاله "إحراق المنزل من أجل شواء اللحم" إلى حملات دعائية: "حيث دعا إلى عدم التهرب من الضرائب، فالجنود يحاربون بشجاعة وقسوة، ويحاربون طويلاً، يحاربون تحت مظلة التمويه، وبلا هوادة وبطرق متعددة، إلا أنهم لا يمكن أن يستمروا فى الحرب دون مال".

كان برنارد شو يقول فى أثناء الحرب: "لا يمكن أن تظل رابط الجأش حين ترى الدماء تراق؛ فالكراهية أحد الأشياء التى تتزايد بالبقاء داخل الوطن، وستشعر بالكراهية ما دمت بالداخل"، فربما جاءت هذه الفكرة نتيجة محادثات برنارد شو مع سى إى مونتيجو الذى أشار فى كتابه "التحرر من الأوهام" – (Disenchantment): "إلى أن الجحيم

معد لمن لم يقاتل"، وقد أدرك الجنود أن أخلاقيات الحرب تختلف عن أخلاقيات السلم "مثلما تختلف أخلاقيات مقابلة سفاح فى المعركة عن أخلاقيات المقابلة مع مبشر". لم يكن شو مسالمًا، فقد شاهد الجنود يحاربون فى تضامن دون أنانية حيث كانوا يرددون: "الدفاع عن أنفسنا، وإلا فالهلاك لنا جميعا، فعلى الجميع التضامن وإلا فالهلاك هو المصير المحتوم...".

يقول جورج أورويل: "إن مثقفى جيله كانوا يصفون تلك الحرب "١٩١٤ - ١٩١٨ بالمذبحة الخرقاء". بينما اتجهت ميول بعض الكتاب أمثال ويلفريد أوين إلى رثاء جنود الحرب العالمية الأولى بوصفهم ضحايا مجهولين "يموتون ميتة شنيعة". ومع ذلك فقد رأى برنارد شو أن من واجبه الوطنى أن يقدم تقارير إخبارية أكثر شجاعة فى "متعة الوقوف على الجبهة". كان برنارد شو لا يفتر عن محاولة تجميل الأشياء، حيث كتب: "سئم الرجال من الحياة المدنية، وما بها من ثراء ودعة وآثروا الخدمة المحفوفة بالمخاطر، بل يمكنك أن تقول إنهم يشعرون كأنهم لم يجدوا السعادة من قبل".

يبدأ الباب الشيق المسمى "حتمية الكذب" من كتاب سى إى مونتيجو "التحرر من الأوهام" – (Disenchantment) بقوله:

إن خداع الطرف الآخر أمر مقبول تمامًا، فالمبارز أو الملاكم له أن يخدع منافسه.

إن تضليل عدوك فى الحرب شىء مباح، فالحرب، على الرغم من أنها قد تكون رياضة جيدة لبعض الأفراد؛ فإنها أنها ليست مجرد رياضة، فالجاسوس الجيد يكذب حتى النهاية، وفى الحرب قد يتظاهر الأسير بأنه قديس... إن تاريخ حيل الحرب وأكاذيبها يمتد امتداد تاريخ الحرب نفسها، كما أن لها أهمية الحرب نفسها.

رأى مونتيجو فى الصحافة سلاحًا متكاملاً للخداع، فاستخبارات العدو تقرأ كل شىء فى الصحف:

إن القلق بشأن ما يعنيه خبر ما أو الشك بصحة الخبر من عدمها الشرك الذى يتم نصبه، قد تحدث الزلات الصغيرة فى حين غفلة.

إنها لعبة كما يقول مونتيجو لممارسة براعة ضابط البحرية الذى يستخلص فتات المعلومات الحقيقية من المعلومات الخداعية.

يعلم مونتيجو، الذى يعمل خارج نطاق الحرب صحفيًا فى صحيفة الجارديان، العديد من الأسرار الحربية للجبهة الغربية، كما يشير إلى أنه لم يتم استغلال "قصص التمويه" الاستغلال الأمثل فى الصحافة من قبل أى من الجانبين، لكن القليل مما كشفته الصحف عن التدريب كان عبارة عن مكيدة؛ إلا أن نوعًا جديدًا من الصحافة، لم تتم تسميته بعد، قدم فى أواخر الحرب وصفًا كاملاً بطريقة تتسم بالإهمال عن "أجهزة التنصت" التى استخدمها البريطانيون للتنصت على المكالمات الهاتفية الألمانية فى الميدان، حيث كان هذا المقال بالفعل "تمويهًا أعده مقر القيادة العامة كطعنة أخيرة فى سلسلة مبارزات طويلة".

كان الألمان يتنصتون على المحادثات الهاتفية البريطانية منذ بداية حرب الخنادق، ففى بداية فبراير ١٩١٥، وفى اليوم التالى لتغيير الفوج الفرنسى بالفوج البريطانى لايف جاردس قرب إبرس ليلاً وبشكل سرى، وبعد أن تمت إزالة جميع شارات الهوية الخاصة بهم، أصيب النقيب ستيوارت منزيس، الذى يصبح فيما بعد رئيس خدمة الاستخبارات السرية، بالذهول لرسالة تلقاها فى زجاجة تم قذفها من فوق أسلاك فوج الألزاس المواجه للخنادق الألمانية مرحبة بسلاح الفرسان البريطانى فى قسمهم على الجبهة.

كانت نقاط المراقبة متصلة بالمدفعية عبر خطوط هاتفية، لكن هذه الخطوط الأمامية كانت فى الغالب سهلة الاختراق، ولم يدرك البريطانيون الكفاءة التى تحلى بها الألمان فى فك شفرات المحادثات الهاتفية البريطانية حتى يوليو ١٩١٦، حيث كانت "وحدات التنصت" تلتقط مكالمات قوات التحالف إما عن طريق توصيل سلك مباشر بالخط الهاتفى وإما من خلال الاستقراء الأرضى لأى خطوط غير معدنية، حيث يمكن التقاط الإشارات الكهربية التى تمر عبر الأرض (من مسافة تزيد على ٣,٢ كم) ثم تضخيم الصوت والاستماع إليه عبر أجهزة تنصت موريتز. لذا فقد أسفرت المحادثات

البريطانية التى اتسمت بالإهمال عن ضحايا أكثر مما سببه "الجواسيس الأجانب"، كما ساعدت المحادثات التى كانت تجرى داخل خنادق الاستخبارات الألمانية فى توقع النظام البريطانى الكامل للمعركة، كما مكنتهم من معرفة مكان وتوقيت الهجمات حتى تمكنوا من تجهيز مدفعيتهم وآليتهم العسكرية. ويشير مونتيجو إلى أن البريطانيين لم يكونوا مدركين لمدى ما يحدث حتى موقعة السوم:

عندما بدأت الحرب كان بحوزة الألمان أجهزة جيدة للتجسس الهاتفى. أما نحن فلم يكن معنا شىء يذكر، فقد كان من نتائج ذلك تدمير هجومنا الأول فى أوفلرز بالقرب من ألبرت مطلع يوليو ١٩١٦؛ حيث اختنقت جبهتنا التى قامت بالهجوم بشكل فورى ونهائى تحت تأثير دخان القذف الذى حصد أرواح جنودنا، ولم يترك لنا فرصة للرد. وبعد مرور بضعة أيام، وبعد أن تمكنا من الاستيلاء على أوفلرز؛ عثرنا على قطعة من الورق وضعها أحد الرجال ممن كانوا يعملون فى "جهاز التجسس" الألمانى وكان نصها يمثل مضمون أوامر الهجوم الأول بالحرف الواحد. ومن ثم بذلنا كامل طاقتنا فى العمل، وقمنا بسحب هواتفنا وتحسين أجهزة التجسس الخاصة بنا حتى سحب العدو أجهزته، وشيئًا فشيئًا تخلينا عن المزيد والمزيد من الاتصالات السهلة والسريعة من أجل تأمينها.

فى الواقع، أدت بيروقراطية الموظفين البريطانيين التافهين إلى ضياع ما يقرب من عامين سدى فى تناقل الملفات بين الإدارات (المتنافسة) المختلفة قبل الوصول إلى حل لمشكلة الإشارات فى نهاية الأمر. لذا بدأ البريطانيون فى وقت متأخر من الحرب استخدام وسائل إعلامية أخرى لتضليل الألمان، وكتب فى هذا الوقت مقال صحفى بهذا الصدد، ووفق ما قاله مونتيجو: "لم يتم الإعلان عن اكتشاف وسائل تجسس خاصة بنا، وكما يقتضى الواقع فقد لاحظ هذا المقال القليل من الأشخاص، بيد أن المؤكد ملاحظة العدو له".

كتب مونتيجو أيضًا عن خطة الخداع التى تزامنت مع هجوم الجيش البريطانى الخامس على بيلكم ريدج شمالى شرق إبرس ٣١ يوليو ١٩١٧، والتى تحولت إلى معركة

شهيرة تعرف باسم باسكنديل؛ إلا أن ذلك النصر تضاءل بمرور الوقت حتى شهر نوفمبر. قام المشير دوجلاس هيغ، بشن الهجوم الأول باستخدام نوع من أساليب التضليل التى استخدمها جيش بلومر الثانى بنجاح، ونجح فى الاستيلاء على ميسن فى شهر يونيو، وبمساعدة الكنديين تمكن البريطانيون من إحكام السيطرة على فيمى ريدج فى أبريل، حيث فاجأ الجنود الكنديون الألمان بانقلاب بارع من خلف ظهورهم فى منتصف منطقة غير مأهولة من خلال الخنادق التى حفروها وسط الأحجار الطبشورية، كما قاموا أيضًا بفك ونقل وتجميع برج الكنيسة، ما أدى إلى قصف الألمان لمكان خاطئ. وكما حدث قبل هجوم ميسن، تستخدم الآن صورة طبق الأصل من أرض ونماذج دفاعات للتدريب قرب إبرس، بينما تم تجميع الأسلحة النارية كبيرة الحجم فى مكان ما، وفى الوقت ذاته كان البريطانيون يخططون لشن هجوم مخادع من قبل "صينيين" أقصى جنوب لنس، لجعل الألمان يعتقدون أن هناك اندفاعًا قادمًا وأن عليهم التقدم نحو الجنوب بدلاً من الشمال.

بسبب ذلك الدليل الذى تم تقديمه، أصبحت هناك إشارات ملموسة بأن المدفعية البريطانية تتجه إلى غرب لنس، ودارت مقاومة بسيطة على هذا الجزء، فقمت بالرد بقصف مذهل ومزلزل. "وأنا أسرح بخيالى متوهمًا ضابط أركان بريطانى يهبط من سكراب إلى الجبهات الألمانية، لقد تصور الألمان، علاوة على الخرائط والأوراق، أن لنس كانت هى الهدف"(١).

وبعد ذلك نشر جنرال "فى إحدى الصحف البريطانية الصغيرة" ما يشير إلى أن الهدف والمقصد من التعبئة البريطانية هو لنس، وهنا ثارت الشرطة العسكرية (ظاهريًا) طارحةً طلبًا فى مجلس العموم البريطانى حول زيادة السيطرة على حرية الصحافة.

---

(١) يبدو أن هذا هو جانب قصصى، وما يؤيد ذلك قوله "أتخيل"، فمن "الممكن" أن تكون هناك تلميحات جلية من الحدث الحقيقى، فنهر سكراب هو رافد النهر الذى تجرى مياهه من غرب أراس التى تقع تحت سيطرة البريطانيين إلى الأراضى التى تسيطر عليها الدولة الألمانية، حيث يبدو ذلك وكأنه تجربة لواحدة من أكثر عمليات الخداع والتضليل التى حدثت فى الحرب العالمية الثانية.

واعتقد مونتيجو فيما بعد أن الخداع قد أثمر: "حيث احتفظ الألمان بمدافعهم وأسلحتهم النارية في وضع التأهب في لنس، وأطلقوا وابلاً من نيران المدفعية المضادة شرقي إيرس كبداية، وكانت خسائرنا هي الأقل بكثير"، إلا أن كلاً من روبن بريور وتريفور ويلسون قد اختلفا في دراستيهما الموثقة عن معركة باسكنديل - القصة غير المروية. وكان تقييمهما أن ذلك كان وحشيًا، "فخطة خداع هيغ تبدو كما لو كانت مصممة لخداع السير دوجلاس نفسه".

جرت أنواع أخرى من الحيل خلف الجبهات البريطانية، حيث اقتبس الكثير من المعلومات المفيدة من قتلى العدو، من خلال مدوناتهم الشخصية والوثائق والخرائط والرسائل، وسجل المدفوعات والصور الفوتوغرافية والبطاقات البريدية، وأقراص الهوية وإشارات الكتف، وحتى العلامات التي على أسلحتهم وصندوق أدواتهم، كل هذا كان يساعد الاستخبارات البريطانية في جمع معلومات حول "تكوين الجيش"، وتحديد وحدات وتشكيلات العدو، إلا أنه يمكنك معرفة الكثير من أسرى الحرب الأحياء، فقد تم اعتقال مئات الآلاف من الألمان في الحرب العالمية الأولى، وقد أدلى العديد من هؤلاء بالمعلومات الحاسمة فضلاً عن أسمائهم ورتبهم وعددهم.

وهذا ما لا يمكن تحقيقه أبدًا من خلال استجواب رسمي، فغالبًا ما كانت تفضي المنهجية الهادئة إلى نتيجة جيدة، عن طريق المعاملة الجيدة والمحادثة الودية مع شخص لم يشعر بأي عداء تجاهه؛ إذ إنه لو رأى شخصًا متبجحًا فلن يلتفت إليه، ففي حين أن الأسلوب الهادئ يمكن أن ينتزع ما يريد بسهولة وهم يفضون بهمومهم، فإنه تم وضع أسلاك ميكروفونات مخبأة بعيدًا عن غرف التحقيق وأقفاص وزنزانات الاحتجاز، إضافة إلى وضع أشخاص يتحدثون الألمانية بطلاقة يسترقون السمع من خلال أجهزة تنصت، كما كان هناك أيضا جواسيس:

وكان "الجاسوس" إما ألمانيا خائنًا وإما بريطانيًا يتحدث الألمانية بطلاقة، مرتديًا الزي الألماني ويقدم إلى جمع من السجناء بهدف "توجيه الحوار بينهم إلى المسار الصحيح"، ويشرع الجاسوس في الحديث عن العمليات المقبلة أو الخسائر أو عن

المواد الغذائية والنظام، أو عن أى شىء آخر تلقاه هذا الجاسوس مسبقًا من قبل هيئة الاستخبارات البريطانية.

وذات مرة وتحديداً فى عام ١٩١٥، تم أسر ضابط ألمانى مصاب فى إبرس ونقل إلى مستشفى منطقة بوبرينج، لكنه رفض أن يتفوه بشىء، ومن ثم تم اللجوء إلى حيلة أخرى وهى نقل ضابط بريطانى يتظاهر بأنه ضابط ألمانى مصاب إلى سرير مجاور لسرير شخص ألمانى حقيقى، وكان الضابط المزيف حليق الرأس على الطريقة الألمانية القديمة، وكانت ذراعه وساقه مضمدين بجبيرة، ومن ثم كان الرجلان يقضيان الليل معًا، وكان الألمانى الحقيقى يئن ألمًا يعقبه البريطانى المتخفى؛ وهنا تساءل الألمانى الحقيقى: "أألمانى أنت؟" فأجاب البريطانى المتخفى المزيف فوراً بقوله: "نعم ضابط ألمانى". وكان البريطانى المتخفى لا يشجع المحادثة؛ بل كان قليل الكلام كئيبًا تبدو الهموم على وجهه.

مصدر تلك القصص هو كتاب "الفيالق السرية: قصص الاستخبارات على كل الجبهات" – (The Secret Corps: A Tale of Intelligence on all fronts)، والذى كتبه النقيب فيرديناند توهى، الرئيس السابق للخدمة اللا سلكية بمقر القيادة العامة. وفى الباب السادس من كتابه "الحرب العقلية" – (the Brain War)، وبخ توهى بعنف نظام الاستخبارات على البطء المخزى فى إدراك أهمية الخداع:

أن تبدأ أولاً بالتركيز كلية على اكتشاف ما يقوم به العدو، وفى المرحلة التالية، تتخذ التدابير اللازمة لمنع العدو من اكتشاف ما تقوم به، وأخيرًا تتأكد من تضليل العدو وخداعه بالمظهر الكاذب وتوصله لاستنتاجات زائفة، لذا يكون من شأن هذا التطور النهائى أن يجعل "للاستخبارات" اليد العليا فى أى حرب مقبلة.

ويرجع توهى هذا البطء الأولى إلى تخلى القيادة العامة البريطانية عن فكرة المفاجأة التكتيكية بعد فشل هجوم نايف كابلى فى ربيع ١٩١٥، ويضيف قائلاً: كانت خطط عمليات الخداع تلقى رفضًا حتى عام ١٩١٦؛ إلا أنه بحلول منتصف ١٩١٨ كان الخداع هو الممارسة القياسية لمقر القيادة العامة فى فرنسا.

توضح مذكرة أرسلها الفريق هربرت لورنس، رئيس هيئة الأركان العامة للجيش، فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩١٨؛ أن الخداع نجح فى مواجهة العدو فقط عندما أحكم البريطانيون قبضتهم على أمنهم اللا سلكى (من خلال تغيير إشارات الاتصال اليومية)، وبدءوا إرسال محادثات وهمية "وإشارات زائفة" أرادوا أن يسمعها الألمان عن قصد، وعندما بدءوا فى تحركات التمويه الميدانى فى الأماكن غير الضرورية، وأيضًا عندما أمدوا قواتهم وكذلك العدو بمعلومات كاذبة.

جاء النموذج الأكثر تطورًا فى هذا النوع من التفكير خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، فى مذكرة حول "الأمن" تقدم بها العقيد ريتشارد ماينرتزيهاجين إلى العميد والقائد الجنرال وإلى هيئة الأركان فى الجيش ومركز القيادة العامة وجهاز الاستخبارات بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٨. ويتجلى مفهوم الأمن من خلال عملية التجسس المضادة فى منع العدو من الحصول على أى معلومة عنك، وهذا يستلزم حفظ الوثائق بطريقة آمنة، والوقف الفورى لتسرب المعلومات عبر أجهزة الاتصال اللا سلكية والهاتفية، وتوجيه جميع الرتب إلى كيفية التصرف عند الوقوع فى الأسر (بعد الإدلاء بالاسم والرتبة العسكرية والرقم المطلوب ينبغى أن إجابتهم المتكررة ."لا أستطيع أن أتكلم"). كما يستلزم تحذير الجنود من بعض الأساليب الملتوية التى يستخدمها العدو فى جمع المعلومات.

ومع ذلك عرف ماينرتزيهاجين الأمن بطريقة غير مألوفة، حيث اعتقد أن الهدف من الأمن يكمن فى "منع العدو من التكهن بخطتنا الحقيقية"، بل وتزويده بمعلومات كافية لحمله على الاعتقاد بأنه توصل إلى خطتنا الحقيقية. فمن وجهة نظر ماينرتزيهاجين، تعنى كلمة "الأمن"، "التضليل"، كما أن "الأمن يشمل أيضًا إمداد العدو بمعلومات زائفة فى شكل مقبول كيفما أمكن"، وعندما كتب ماينرتزيهاجين أن "تأثير التمويه سيئ الإعداد على ضابط الاستخبارات المدرب (ولو فى مركز القيادة العامة للعدو) هو تأثير الطعام الفاسد نفسه على المعدة، حيث سترفض المعدة ذلك الطعام وإن قبلته فلن تستطيع هضمه"، لذا كتب أن كلمة "التمويه" تعنى الآن "معلومات خاطئة مضللة".

كما قال ماينرتزيهاجين بوجود نوع من التمويه الميداني يقوم به المهندسون الملكيون في مناطق خاصة مثل: "التمويه السلبي، أي التمويه الذي يصمم لإخفاء المعلومات والأهداف أو القوات من العدو"، ومن وجهة نظر ماينرتزيهاجين يكمن "التمويه الإيجابي" في كل ما نصممه لـ "نقل المعلومات الكاذبة المضللة للعدو"، فضلاً عن قواتنا، بل والعالم أجمع.

أعتقد ماينرتزيهاجين أنه من الضروري أن يتحكم في "التمويه الإيجابي"، الخداع، "عقل واحد" في مركز القيادة العامة، وبعد ذلك يتم تمريره من خلال الجيوش والهيئات والأقسام، والجنرالات والكتائب وما إلى ذلك، كما أجمل ماينرتزيهاجين مختلف أنواع "التمويه الإيجابي" تحت النقاط الرئيسية التالية:

(أ) بناء المطارات، والمستشفيات، والمعسكرات، وتحويلات السكك الحديد ومواقع المدفعية، ومقالب النفايات... إلخ، بقدر ما تسمح به الموارد، ويجب أن يكون تمويه هذه الأشياء أقرب ما يكون إلى الحقيقة، كما يجب أن يكون العمل مصممًا لخداع قواتنا بقدر خداع العدو.

وينبغي أن يطلب دائمًا من سلاح الجو الملكي البريطاني تقديم تقارير عن مثل هذه الأعمال.

(ب) نشر الأخبار الكاذبة عبر وسائل متعددة.

(ج) التمويه اللا سلكي والهاتفي وجهاز الطنان الكهربي، إضافة إلى الرسائل الوهمية، تلك الأنشطة التي أثبتت فاعليتها كأسلحة تمويه في الماضي.

(د) القوات وحركة الإمدادات واتجاهات وتنظيمات قوات الجيوش، وحركة السكك الحديد وحركة الطائرات واشتباك المدفعية (المضادة للطائرات).

(هـ) إعداد خرائط ووثائق مصممة خصيصًا لخداع العدو، ومحاولة إيقاعها عمدًا في أيدي العدو أو في أيدي عملائه.

وهنا يمكن إدراك أن أفكار ماينرتزيهاجين تحتاج إلى أكثر من خمسة عقود أخرى حتى يتم التطبيق الكامل لخطته الخاصة والعامة.

وعلى درب برنارد شو، فهم سى إى مونتيجو أن أخلاقيات الحرب تختلف تماماً عن أخلاقيات السلام: "ولذلك، إذا استخدمت بعض نطاقات الخداع بين أصدقائك فى السلم فمن الممكن أن تسوء الأمور بينكم". ومع ذلك شعر مونتيجو بأن البريطانيين بطباعهم العطوفة قليلة الخبرة، كانوا لا يزالون فاترى الهمة فى استخدام الصحافة فى عملية التضليل، وتصور مونتيجو أهمية هذا السلاح إذا استخدم بشكل كامل:

وإذا تتبعنا الخداع الكامل فى أول يوم من أى حرب جديدة، فسوف نرى ستاراً واسعاً ومبهماً من الأخبار الزائفة تجتاح كامل دولتنا، إن لعب السلطة على أوتار الصحافة وكأنها تعزف على آلة موسيقية، سيجعل العدو المتنصت يتتبع رنين الألحان الزائفة، فإذا فعلنا ذلك وفكرنا فيه فسنجده مربكاً للغاية... وسيتم تعتيم الجو بالأكاذيب التكتيكية والسياسية، ما يجعل العدو يقاتل فى "حرب ضبابية" حقيقية.

اعتقد مونتيجو أن "فن الدعاية كان أقل مما كان عليه عندما ظهر" خلال الحرب العالمية الأولى، وتساءل عن الآثار المترتبة، على المدى الطويل، على حرب أخرى فى ظل دعاية تصل إلى ذروتها، وأضاف مونتيجو أيضاً إنه سوف تكون هناك حاجة إلى "قسم كبير للتمويه الصحفى يكون عبارة عن: عدد كبير من الصحفيين الناجحين وخبراء الدعاية" يدعمون الصفوف العليا، حيث تستبدل بالعواطف الحجج والمنطق من أجل تنويع الأخبار التى يقدمها المراسلون، والاهتمام بأنهم يرون مثل هذه الحقائق فقط بالطريقة التى نشروها بها، إلا أن التأثير الأخلاقى السلبى سيتمثل فى إيجاد صحفيين كاذبين خبراء فى الخيال يحظون بمنزلة كبيرة استناداً إلى "خصوبة أفكارهم الزائفة التى أكسبها لهم التعامل مع العدو" لتستمر فى الازدهار بقوة بعد الفوز بالحرب، فى عالم السلام الجديد ليكون موبوءاً بالكذب".

وفى ١٠ فبراير ١٩١٨، أصبح قسم استعلامات بوشان وزارة للإعلام. وأضحى الكندى النشط ماكس إيتكين لورد بيفربروك ومالك صحيفة ديلى إكسبرس،

وزيراً للإعلام، وحصل على مقعد فى مجلس وزراء لويد جورج، وكان ماكس واضحًا بشأن دوره الجديد:

وزارة الإعلام هى وزارة الدعاية الخارجية، حيث تكمن مهمتها فى دراسة الرأى العام الخارجى وكيفية التأثير فيه باستخدام جميع القنوات الممكنة، ويكون العامل الرئيسى فيها هو الصحافة الدولية، كما يكون هدفها الأساسى هو توضيح موقف بريطانيا للعالم أجمع.

وبالطبع؛ لعبت الدبلوماسية الرسمية هذا الدور على نحو مختلف من قبل. أما قطب الصحافة بيفربروك فقد قال: "تمثل وزارة الإعلام الجانب الديمقراطى والمألوف للسياسة الخارجية"، ولذلك كان من طبعه أن يستخدم الصحفيين والكتاب فى العمل، وكان كثيراً ما يطلب بيفربروك من روديارد كيبلنج المشورة الشخصية على الرغم من أنه لم يوظف رسميًا فى مجال الدعاية بسبب طباعه الشرسة وميوله إلى الانتقام "الشخصى الهمجى البغيض" فى التعاملات العامة. ثم ترقى بوشان ليصبح مديراً للاستخبارات. أما عن تقديم معلومات إلى المحايدين، ذكر بوشان:

يجب على القسم العمل سراً إلى أقصى حد ممكن من خلال القنوات غير الرسمية، فالخدا ع الصحيح يعد ضرورة حيوية، حيث يمكن أن يعلن عن سلعة، لكنه لا يجرؤ على الإعلان عن البائع.

كان النصر الأكبر لبيفربروك هو تقديم اللورد نورثكليف مدير الدعاية إلى دول العدو، وتقديم تقارير مباشرة إلى رئيس الوزراء ومجلس وزراء الحرب. وكانت منظمة نورثكليف تعرف باسم "كرو هاوس" بعدما وضع ماركيز مقر إقامته الرائع المسمى بهذا الاسم فى شارع كيرزون بلندن، تحت تصرفهم وإمرتهم.

كان السير كامبل ستيوارت هو من يقوم بتنظيم وحشد وإدارة كرو هاوس. وفى فبراير ١٩١٨؛ كلف بمهمة تشكيل فريق لإنتاج وتوزيع الدعاية بين السلطات المركزية، وشملت لجنته الإدارية رئيس تحرير مجلة ديلى كرونيكال والمحرر الخارجى لصحيفة التايمز والعضو المنتدب لوكالة أنباء رويترز، والروائى الشهير هربرت جورج ويلز.

وكانت العلاقات التى تربط كرو هوس بإدارات الحكومة المختلفة لضمان تسهيل الإصدار، هى الأمر الأكثر إثارة لدى الحكومة البريطانية، وقد شملت هذه العلاقات الحد الائتمانى الصحيح مع وزارة المالية، والتعاون الكامل مع مكتب معلومات القطاع العام الذى قام بطباعة ملايين من المنشورات باللغات الأجنبية، والاستخدام الوافر للخدمات اللا سلكية بوزارة الإعلام، والتفرغ التام للتنقل بين وزارة الحربية البريطانية والدفاع الجوى وإدارة الاستخبارات السياسية فى وزارة الخارجية، ومدير قسم الاستخبارات البحرية، ومدير الاستخبارات العسكرية.

كان التعاون والعمل المشترك مع العالم السرى أمرًا ضروريًا لتوزيع الملايين من الرسوم الكاريكاتيرية، والمنشورات والكتيبات التى تنتجها كرو هوس، ففى البداية كانت طائرات القوات الجوية الملكية هى المستخدمة فى تلك العمليات، إلا أنه لم تكن لديهم وسائل كافية لتوزيع المنشورات، وبعد إسقاط طائرتين لتوزيع المنشورات والزج بالطيارين لفترات طويلة فى السجن لضلوعهم فى نشر رسائل تحريضية، قامت وزارة الحربية البريطانية بتغيير تلك الطريقة. كانت الاستخبارات العسكرية ٧ قد استخدمت مناطيد الهيدروجين الضخمة لنقل العملاء والجواسيس إلى أراضى العدو ليلاً، لذا فهم يستخدمون الآن آلاف المناطيد الصغيرة لنقل الصحف شرقًا لإسقاطها جوًا ثم تلقيها الرياح فى أى مكان. كان يتم إنتاج ما يقرب من ٢٠٠٠ من المناطيد الهيدروجينية أسبوعيًا لإسقاط الصحف على ارتفاع عشرين قدمًا من سطح المحيط، حيث يمكن لكل منطاد أن يحمل ما يصل إلى ١٠٠٠ من المنشورات حسب اتجاه الرياح فى تلك الليلة.

كانت هذه المنشورات تخاط فى فتيل نسيج بطىء الاشتعال يتم إشعاله قبل الإطلاق، وعندما يشتعل الفتيل، تتساقط المنشورات واحدًا تلو الآخر، وفى الساعة الأولى يتم إلقاء المنشورات المصممة للقوات الألمانية، وفى الساعات التى تلى ذلك تُلقى المنشورات المصممة للمدنيين المتعاطفين معنا، وأخيرًا تتساقط المنشورات المصممة للمدنيين الألمان، وكلما كانت الفرصة مناسبة كان يتم إرسال ملايين من هذه المنشورات على يد فرق مرابطة على جبهتنا الأمامية.

"الدائرة الداخلية: مذكرات إيفون كيركباتريك"
(The Inner Circle: The Memoirs of Ivone Kirkpatrick).

فى أواخر الحرب تم إرسال العديد من منشورات الدعاية البريطانية عن طريق البريد الداخلى إلى جميع أنحاء النمسا وبافاريا وألمانيا، وبهذا أمكن تجنب الرقابة الصارمة للبريد الخارجى، حيث تم ذلك بطريقتين: الأولى، تهريب المنشورات بكميات كبيرة عبر تجارة الكتب التى لم تكن تخضع لمراقبة قوية، لاسيما إذا كانت المجلدات ذات أغلفة تقليدية ألمانية، والثانية، تمرير المنشورات عبر الحدود من هولندا المحايدة عن طريق العمالة المهاجرة، ثم ترسل عبر البريد العادى داخل أراضى العدو لتتلقاها الصحف والمحايدون والمتعاطفون من أهل الفكر من النخبة المثقفة، وذلك من خلال استخدام طوابع بريدية مزورة، طبعها والتر لو من واتفورد لأحد عملاء الخدمة السرية البريطانية.

وتم تقسيم إنتاج الدعاية فى ثلاث مناطق للعدو؛ النمسا والمجر وبلغاريا وألمانيا، فيما أقنع إتش ويكهام ستيد محرر الشئون الخارجية بصحيفة تايمز نورثكليف، أن مملكة النمسا والمجر المزدوجة هى الحلقة الأضعف فى سلسلة القوى المركزية، ولهذا فهى المكان المناسب لنبدأ منه. كان ذلك بسبب أن إمبراطورية هابسبورغ مترامية الأطراف تضم كثيراً من الشعوب والجنسيات الموالية للحليف، وهنا كتب نورثكليف: "يوجد فى الإمبراطورية النمساوية المجرية ككل ما يقرب من ٣١٠٠٠٠٠ مناهض للألمان، ونحو ٢١٠٠٠٠٠ موالٍ لهم، وعلى الرغم من هذا تتحكم الأقلية الموالية للألمان فى الأغلبية المناهضة لهم".

وفى ٢٤ فبراير ١٩١٨، طلب نورثكليف من اللورد بلفور وزير الخارجية توضيح موقف الحلفاء السياسى تجاه طبقة الإمبراطور هابسبورغ الحاكمة والأقليات العرقية التى يحكمها. كان لا بد من وجود حملة دعائية؛ وكان نورثكليف يريد مساراً واضحاً يتبعه، وبعد أربعة أيام وافق بلفور على "إطلاق حملة دعائية تساعد فى تعزيز روح القومية لدى الشعوب الخاضعة لحكم الألمان النمساويين من أجل نيل الحرية وتقرير المصير".

حيث يعتبر ذلك امتداداً لاستراتيجية التقسيم الموجه سابقا ضد الإمبراطورية العثمانية.

من أجل هذا، وفى مطلع أبريل ١٩١٨؛ ذهب إتش ويكهام ستيد برفقة أحد أعضاء فريق كامبل ستيوارت، وهو الدكتور الأكاديمى آر دبليو سيتون، واطسن إلى إيطاليا، لحضور المؤتمر المنعقد فى روما الذى استغرق ثلاثة أيام ودار حول القوميات المضطهدة فى هابسبورغ؛ حيث تواجد "الإيطاليون والبولنديون والتشيكيون والسلوفاكيون والصربيون والكرواتيون والسلوفينيون والرومانيون الذين جمعهم سبب مشترك، ألا وهو "حق الشعوب فى تقرير مصيرها"، وقبل ستة أشهر من استسلام الجبهة الإيطالية فى كابوريتو بسبب هجوم مباغت من قبل النمساويين؛ حيث تم أسر مئة ألف إيطالى، وفقد ٧٠٠ مدفع أثناء تراجعهم، تبدلت الأمور وأنشأ كل من ستيد وسيتون، واطسن صحيفة تطبع بلغات متعددة فى ريدجو إميليا. كانت الصحيفة تصدر أسبوعياً، وتنشر أخباراً ومنشورات وطنيةً ودينيةً بست لغات، وكان يتم إلقاؤها عبر الخنادق بواسطة مدافع الهاون والصواريخ وقنابل البنادق والطائرات، كما وزعتها دوريات الاتصال من المتحمسين الهاربين من الجندية الذين تطوعوا للقيام بهذه المهمة، وتم شن حملة دعائية على الجنود المشكوك فى ولائهم وإخلاصهم فى الأراضى غير الآهلة بالسكان باستخدام مكبرات الصوت وتسجيلات حاكى الفونغراف وبث أغانٍ تشيكوسلوفاكية، فبدأ الفارون يحملون المنشورات فرادى أو جماعات، بينما تمردت بعض القوات التشيكية وانزعجت السلطات النمساوية المجرية العسكرية من تجدد مقاومة الإيطاليين بدءاً من يونيو.

وفى الفترة بين مايو ويوليو ١٩١٨؛ تولى هربرت جورج ويلز إدارة الدعاية ضد الألمان. ويلز هو المؤلف الخيالى العصامى الذى علم نفسه بنفسه وهو صاحب المؤلفات العديدة من الكتب الناجحة، مثل "تاريخ السير بولى" – (The History of Mr Polly)، ورواية الحرب العالمية الأولى "السير بريتلنج يدرك الحقيقة" – (Mr Britling Sees it Through)، والتى يصور فيها أبًا يقاسى الويلات حتى يجد الرب. عندما انضم هربرت جورج ويلز

إلى كرو هاوس، وافق على أنه يجب توضيح السياسة المنشودة قبل بدء أى دعاية إيجابية، حيث قال: "إنه يريد بيانًا واضحًا شاملاً حول أهداف الحرب لدول التحالف". وعلى نحو تقليدى، أراد ويلز إيجاد رؤية مثالية للمستقبل، يمكن أن يؤمن بها الناس بعد ما شاهدوه من ويلات الحرب، حيث يتبلور فكر العالم الآن فى عبارة واحد وهى "عصبة الأمم الحرة". أراد ويلز بذلك، الصمود تحت مظلة منارة الأمل، وحلم السلام الدولى الدائم، اقتنع ويلز بهذه المثالية لكنه كان يعتقد أن الحكومة البريطانية لم تكن جادة بشأن هذا الأمر حيث يقول: "كنا فى الحقيقة مجرد دمى كحال تى إى لورنس فى "أعمدة الحكمة السبعة" التى استخدمت كل ما هو لا شعورى للإيقاع بالعرب".

وعلى الرغم من أنها صدرت من إدارته، فإن ويلز لم يكتب شخصيًا نصوص المنشورات البريطانية باللغة الألمانية، والتى أمطرت سماء ألمانيا بتلك الكميات الكبيرة، (أكثر من عشرة ملايين فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحرب).

كانت تلك المنشورات تهدف إلى قذف الرعب بدلاً من الأمل، فكانت محبطة لأنها حقيقية؛ فهى تحتوى على مذكرات نقاط الضعف والمشكلات الاجتماعية، وخرائط ورسوم بيانية بالأرض المفقودة والهزائم العسكرية، وفى المقابل تذكر بنجاح الحلفاء وتنامى القوة الأمريكية، وقوائم أسماء القتلى والأسرى جراء قوارب يو الألمانية، وصور لعدد من الجنود الألمان وهم سعداء، من الذين استسلموا ولم يتم تعذيبهم، كما تذكِّر باستسلام بلغاريا فى شهر سبتمبر.

الدعاية لها تأثير أكبر على الخاسرين منه على الفائزين، ذلك أن الخوف والقلق يملآن قلوبهم، وحيث إن المنشورات لا تشغل مناط عقولهم، ترجم عديد من الصحف الألمانية الأجزاء الشيقة والقطع المثيرة من تلك المنشورات إلى الصحف الألمانية والهولندية والاسكندينافية والسويسرية المحايدة، فتلك المنشورات - إضافة إلى "المقالات المزيفة" التى تم إرسالها بمهارة تفوق الوصف من كرو هاوس - تظهر الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والعلمية فى كل أرجاء البلدان الحليفة، يمكن للقراء الألمان إجراء مقارناتهم الخاصة لمعرفة وضعهم الحالى.

أظهـرت إحــدى صحــف الخنادق الألمانية، هــير آند هيمات، صورة للقيصر بين مـجـمـوعتين من رتب الترقية، وعنــوان فــرعى "صــرخة من أجــل الوحــدة" (Der Ruf zur Eingigkeit)، حيث تصدرت الصفحة الأولى صـورة كرتونية للأحـزاب السياسية الألمانية فى الداخل وهم يقاتلون بعضهم بعضًا بدلاً من العدو، أظهرت هذه الصفحة ألمانيا كما هى، لكنها كانت أيضًا من إنتاج كرو هاوس. كان الجنرال فون هوتير على حق فى تحذيره لقواته ضد حيل وخداع البريطانيين وغيرها من أساليب الخداع.

كان لإدراك الألمان أساليب وطـرق البريطانيين، فى التفـاخر بالنصر والفوز عن طريق أشخاص مثل السير كامبل ستيوارت، عواقب بعيدة المدى، حيث اعتقد كل من لودندورف فى مذكراته، وأدولف هتلر فى السيرة الذاتية للزعيم النازى "كفاحى" – (Mein Kampf)، أن حملة الدعاية البريطانية أنهكت الإرادة الألمانية فى المقاومة؛ وأن القوات المسلحة الألمانية لم تهزم على الجبهة أبدًا، لكنها طعنت فى ظهرها، وأن الأجانب المنحرفين هم المسئولون عن ذلك وليس الألمان الشرفاء، إلا أن الشعور بالإشفاق على الذات سينعكس بالاستياء من جانب حزب العمال الألمانى الاشتراكى الوطنى الوليد.

(١١)

تضليل المخادعين

ومع قرب انتهاء الحرب، استقر سولومون جوزيف، وفى فبراير ١٩١٨ اشترى آلة تصوير جديدة تعمل بالأشعة وتقوم بعرض صورة سطحية على شاشة، وذلك ليستخدمها فى التدريس للطلاب الذين يدرسون التمويه. مكنت تلك الآلة التى تتكون من مجموعة من المرايا وأضواء إلكترونية شديدة، سولومون من دراسة صور الاستطلاع الجوى بالتفصيل، كان سولومون مهتمًا بثلاث صور، بشكل خاص، من بين تلك الصور كان قد تم التقاطها فى خريف عام ١٩١٧، فقد لاحظ من خلال حاسته الفنية بعض الغرابة اللافتة للنظر فى تلك الصور، حيث بدت بعض الظلال فى اتجاهات معاكسة مع اتجاه ظلال الشمس، وبتأمل سولومون الجيد لهذه الصور، بدأ يعرف أن هذا منظر طبيعى تم تصميمه بشكل متعمد كى يخدع الكاميرات. تم استخدام أسلوب جديد يمكن من الرؤية خلال التمويه، فهى طريقة متطورة لعرض الصور الملونة، وتمكن جنود المراقبة المصابين بعمى الألوان، من معرفة الصور المصطنعة والصور الطبيعية (الخضراء)، لكن سولومون اقتنع بأن التمويه ما زال يخدع دول الحلفاء.

وفى النهاية؛ أودع سولومون أفكاره فى كتاب يسمى "التمويه الاستراتيجى" – (Strategic Camouflage)؛ حيث يتضح أسلوبه التآمرى من خلال المقدمة:

"عندما يرغب شخص ما فى ارتكاب جريمة فى حجرة يطلع عليها شخص آخر، فإن أول ما يقوم به هو تعتيم المكان، وفى حالة ما إذا كان يستخدم نوعًا ما من الضوء، فإنه يقوم بغلق جميع النوافذ.

وإذا كانت الحرب جريمة، فإن تلك الحرب وأى حرب مقبلة أخرى ستكون تحت المراقبة؛ وبناءً على ذلك، يحتاج المشاركون فى الحرب إلى وضع وإعداد خطة للتعتيم. ولم يتجاهل الألمان هذا الإجراء".

كانت ألمانيا دولة متقدمة فى المجال التقنى، حيث حازت ثلاثًا وثلاثين جائزةً من أصل مئة جائزة نوبل فى العلوم، بينما حصلت بريطانيا على ثمانى عشرة جائزة، كما وضع الألمان وتيرة تكنولوجيا حرب القرن العشرين، أكد سولومون أن الألمان تفوقوا على دول الحلفاء فى استخدامهم التمويه لإخفاء الجنود والمعدات.

ذكر سولومون فى كتابه "التمويه الاستراتيجى": "كان التمويه وفك شفرة الصور المأخوذة من الجو من أساسيات الحرب، وما زال هذان الأمران فى مراحلهما البدائية". كان سولومون على يقين بأنه لم يكن هناك أى خبير فى تحليل الصور لديه ما يكفى من الأدوات مثل الرسام من أجل القيام بتلك المهمة (كان من بين محللى الصور الأوائل، دبلوماسيون وسماسرة ماليون)، وكما فعل الفنان أبوت ثاير، بالغ سولومون فى تقدير خبرة الفنان. لم يتأثر بدليل الرسمى الموضح بعناية "ملاحظات على تفسير صور الطائرة" – (Notes on the Interpretation of Aeroplane Photographs) وما زال سولومون مصرًا على أن بريطانيا قد خدعت جراء المكائد التى دبرتها ألمانيا.

احتج سولومون على أن الألمان قد خططوا لبناء مواقع خلفية منخفضة بحجم جميع المواقع من أجل إخفاء آلاف الجنود فى أثناء النهار، وتقع على بعد يتراوح بين خمسة وتسعة أميال خلف الجبهة. ونادرًا ما تظهر المبانى المنحدرة المتصلة بسياج الشجيرات وطرق فلاندرز، فينخدع كل من المراقبين الجويين وخبراء تحليل الصور فى إدراك أن ما يرونه قطعًا أقمشة ملونة وحقولاً زراعية.

اعتقد سولومون أن الألمان فهموا بالضبط ما يمكن أن يظهر فى الصور الجوية التى تلتقطها طائرات الحلفاء، حيث كان "الحفاظ على الأشياء فى وضع منخفض" إحدى تعليمات التمويه التى تم الحصول عليها من أسير ألمانى، فعلى سبيل المثال تعد الجسور من بين الأهداف الواضحة التى يسهل ضربها بالقنابل أو المدفعية، إلا أنه إذا

طليت الجسور باللون الأسود وتم بناؤها تحت مستوى سطح النهر بنحو ثلاث أو أربع بوصات، كان من الصعب رصدها من الجو. اعتقد سولومون أيضًا أن عمال التمويه الألمانيين قاموا بالتخطيط لتغطية الطرق بشكل تام بالأسلاك والأشرعة، ومن ثم لا يستطيع أى مراقب أن يرى سوى طرق خاوية خالية من الحركة ويمكن أن تتواصل عمليات نقل العدو أسفل تلك الأنسجة والشباك الملونة.

طالب سولومون بتحديد ومعرفة الأخطاء فى "الصور الإشعاعية" الألمانية أو فى لوحات الظلال، فحينما لا يوجد للمبنى ظل على الأرض، فإن هذا يدل على أن الألمان قد بنو حقلاً مزيفًا بجانب ذلك للمبنى وعلى نسقه المعمارى نفسه. كما أشار إلى البنايات صغيرة الحجم وظلال الأشجار التى لا تتحرك مع دوران الشمس إضافة إلى المواسير التى تبدو كما لو كانت ممرات. أصبح التمويه الاستراتيجى مربكًا للغاية، لذا طلب سولومون منا أن نعاين الصور البيضاء والسوداء، إضافة إلى الصور الزيتية الملونة بأشكالها الغامضة وظلالها الغريبة والباهتة مقارنة مع بعض الصور الخاصة.

رسم سولومون لوحات ورسومات ونماذج ملونة تبرهن على وجهة نظره. وفى مارس ١٩١٨، بدأ يخبر قادته فى سلاح المهندسين الملكيين والعاملين فى وزارة الطيران وهيئة الأركان العامة والعاملين بمكتب رئيس الوزراء وزملاءه فى نادى أثينايوم مثل السير مارتن كونواى الذى قال: "يعد هذا من بين أعظم الاكتشافات منذ اندلاع الحرب"، وانطلق ليخبر الجنرال كيو ترينشيرد قائد فيالق الطيران الملكى الذى أصبح فيما بعد قائد سلاح الجو الملكى.

ومن خلال فحص سريع تحت الإضاءة الخافتة، ينظر بووم ترينشيرد بدقة فى دليل سولومون ليرى مجرد حقول، حيث قال: ينبغى أن يتم تقصى الأمر والحصول على صور جديدة. وسأل ترينشيرد سولومون: "هل أنت مستعد للسفر إلى فرنسا؟".

"لكنه لا يوجد عمل كى نرسل سولومون إلى هناك"، فاضجر سولومون وعاد إلى المنزل وبدأ يحدق مرة ثانية فى الصور التى التقطها القديس بير كابيل؛ وفى تلك المرة ظهرت ميادين العمل كمطار صغير متموج؛ حيث كانت أكوام القش وظلال الأشجار مزيفة،

وبدت المنطقة على أنها معسكر قوات احتياط مخبأ يبعد نحو ثمانية كيلو مترات شرق نيوبورت على أرض مرتفعة فى منطقة مستنقعات شمال إبريس.

عندما أرسل ترينشيرد مساعده، الرائد جون مور برابازون، أول طيار بريطانى معتمد ومخترع الكاميرا الجوية ووزير تشرشل لإنتاج الطائرات أثناء الحرب العالمية الثانية، للاطلاع على دليل سولومون فى المرسم، فشل الرسام فى إقناع ذلك الطيار الشكاك. وهنا سعى سولومون لرؤية رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية السير هنرى ولسن الذى لم يتكلم كثيرًا بل "بدا أنه يعتقد أن هناك شيئًا ما بتلك الصور"، وفقًا لما قاله سولومون.

أطلق الناس على هيسكث بريتشارد ملك القناصين "القاتل المحترف"؛ كانت هذه العبارة مثيرة للإعجاب، لكنه دفع ثمن ذلك اللقب نفسيًا، فعلى الرغم من أن مهمته هى قتل الألمان، فقد كانت الساعات التى يقضيها فى متابعة العدو بعينه السوداء من خلال منظار روسى بمثابة تدريبات ممتدة للتعرف على الجانب الآخر، وبتقريب العدسة عشرين درجة يرى رجلاً حليق الذقن يرتدى قبعة بالية، لكن بريتشارد لا يستطيع أن يمكث طويلاً ينظر إلى ذلك الجندى الألمانى.

لاحظ بريتشارد جميع أساليب العدو الحياتية واحتياجاته البدنية محاولاً دراسة خنادق الجانب الآخر ذات الأسلاك الشائكة؛ حيث رأى شيوع الفردية بين الألمان. كان بريتشارد حساسًا بصورة أهلته ليكون مثل صياد أو رياضى محترف، فعندما سمع بريتشارد بقتل صديقه ألفريد جاثورن ماردى فى ٣ أكتوبر ١٩١٥ مع كثير من الجنود على بعد عشرة ياردات من الأسلاك الشائكة الألمانية، كتب قائلاً: "لو استطعت أن أنتقم، لأطلقت على جندى ألمانى رصاصة بين عينيه فى الساعة الخامسة من صباح اليوم"، وبعد مقتل نيرس كافيل كتب بريتشارد قائلاً:"سررت عندما أطلقت النار على جندى ألمانى وكان ضابطا"، وفى أغلب الأحيان لم يكن بريتشارد مدفوعًا للأخذ بالثأر، فقد علم أن الألمان جنود وبشر. كان عمل بريتشارد ضروريًا، إلا أنه كان يتسبب له فى مشكلات تتفاقم شيئًا فشيئًا.

ذكـر إتـش إم توملينســون فى مذكـراته عــام ١٩٣٠ "أيامنــا المــاضية" - (All Our Yesterdays)؛ كيف مرض بريتشارد لعدة أسابيع بعد قتله قناصًا ألمانيًا كان مصدر إزعاج للجميع بإصابته برصاصة فى رأسه. وكتب الحدث ذاته فى قصة بريتشارد القصيرة المعروفة باسم (القنص فى فرنسا) كما كتب عنه "الألمانى ويليبالد"؛ فضلاً عن صدوره كتحقيق صحفى، كان هيسكث يشعر بصداع نصفى شديد بسبب تركيز العين فى المراقبــة والرماية طــوال اليــوم، وبعد ذلك تطــور المرض إلى "حمى الخنادق" نتيجة تسرب مصارف الغائط، ولكنه ظل يناضل من أجل إنجاز عمله، واختلق حيلاً وطرقًا وخطط تمويه وخداع تنقذ آلاف الأرواح، لكن المرض كان يتسرب إلى ملك القناصين ببطء، حيث كان مرضه غامضًا جعله يجرى نحو أربعين عملية جراحية قبل وفاته عام ١٩٢٢ عن عمر يناهز ٤٤ عامًا.

كتب إتش إم توملينسون نعيه تقديرًا لهيسكث بريتشارد فى صحيفة نيشن آند أوثانوم، حيث وصفه بأنه رجل "نبيل"، ونبيل من طبقة غنية يشار إليها بالولاء والمعروف أنه كان قائدًا له فى بداية الأمر على الجبهة. انتقصت الحرب من قدر فلسفة هيسكث وأفسدت أفكاره المرهفة بسبب "ضياع أرواح الرجال بلا قيمة"، وكما يقول توملينسون: أصيب بريتشارد بصدمة جراء "فقدان الحياة الجميلة" وبسبب الغش والحماقة والخسة والتآمر.

أصيب جسد بريتشارد المعافى باضطرابات فى سلوكياته الوطيدة لاعتقاده عدم جدارته بالمعرفة، إلا أن الفرد أن يرى مرضه كان قاتلاً، حيث أطلقت عليه الصحف "مسمم الدماء" وأظن أن كان لهذا المصطلح تأثير كبير.

شهد اليوم الأول من فصل الربيع ٢١ مارس عام ١٩١٨؛ المرحلة الأولى من هجوم ألمانى كبير يرمى إلى إخراج القوات البريطانية من الخنادق والضغط عليهم من أجل الانسحاب نحو الساحل الفرنسى. وبعد الثورة الروسية فى أكتوبر ١٩١٧ نقض الشيوعيون فى التحالف الروسى عهدهم مع بريطانيا وفرنسا وسعوا إلى سلام مستقل مع ألمانيا فى مدينة بريست ليتوفسك، فمع عدم تدخل الروس وعدم وصول الأمريكيين

بعد إلى أوروبا، رأى الألمان فى تلك الآونة فرصة مواتية للقيام بضربة حاسمة مباغتة، لذا قاموا بتحريك أكثر من مليون جندى وثلاثة آلاف مدفع نحو الجبهة الغربية.

كان الحلفاء يعلمون بقرب وقوع هجوم كبير، إلا أنهم لا يعلمون شيئًا عن حجمه ومكانه. يقول فرديناند توهى فى كتابه الفيالق السرية: أصدر الجنرال الألمانى إيريش فون لودندورف أوامره لكل قسم وفرع بعدم إفشاء أى معلومات للعدو، وعين لودندورف ضباط أمن متخصصين لمنع تسرب المعلومات.

أخفى الألمان إشارتهم وشوشوا أساليب نقل تلك الإشارات من أجل وضعنا خارج المشهد، كما قاموا بعمل طرق وسكك حديد زائفة وقاموا بتحركات فى المناطق البعيدة عن مناطق الهجوم، وأنشأوا مستودعات أسلحة ومستشفيات ومواقع لبطاريات الصواريخ ومطارات مستعارة فى أجزاء محددة على طول الجبهة ليقوم مراقبونا بتصويرها.

بينما كانت التحركات الكبيرة للجنود والمؤن تتم خلال الليل باستخدام أساليب التمويه، كما أعد الألمان جيشًا وهميًا فى مواجهة القطاع الفرنسى مستخدمين إشارات ومحطات لا سلكية وهمية، ولم يكن لدى مخابرات المشير هيج فى مقر القيادة العامة أى معلومات، حيث إن العميد جون كارتريز كان يخبرهم فقط بما يرغب فى سماعه.

بدأت معركة قيصر بأكبر وابل من نيران المدفعية: ٣,٢ مليون قذيفة فى يوم واحد، وساعد الجو الرطب فى تمويه الألمانيين، حيث جعلتهم ملابسهم الرمادية كالأشباح مع تقدمهم فى حقول ضبابية، ونتج عن ذلك اليوم الدامى إصابة نحو ٨٠ ألف شخص من كلا الجانبين.

بدأت المرحلة الثانية من الهجوم الألمانى والتى أطلق عليها "جورجيت" فى ٩ أبريل ١٩١٨ بالقرب من مدينة ارمنتيريز شمال فرنسا، حيث شنت أربع كتائب ألمانية هجوما بقيادة الجنرال فون أرنيم على الكتيبة البرتغالية الثانية التى كانت موجودة على الجبهة،

واندفع الجنود الألمان من خلال تلك الثغرة، مما اضطر الحلفاء إلى إجلاء أرمنتيريز وبلوجستريت وميسن فى ١٠ أبريل.

فقدنا ما حصلنا عليه خلال أشهر صعبة فى حملة باشينديل فى أيام قلائل، وفى يوم الثلاثاء الموافق ١١ أبريل ١٩١٨ كانت الجبهة البريطانية تتفكك عندما أصدر هيج أمرًا بالثبات والقتال حتى آخر جندى، حيث استولى الألمان على مساحات شاسعة من الأرض الطينية التى أطلق عليها تشرشل "فواكه البحر الميت" فى معركة السوم قبل أن ينهكهم التعب.

تسبب ذلك الهجوم فى تداعيات كبيرة. أولاً: وافق الحلفاء على توحيد قيادتهم العسكرية تحت الجنرال الفرنسى فرديناند فيتش؛ بينما اتفق الجميع فى الحرب العالمية الثانية أن تكون القيادة العامة لجنرال الأمريكى أيزنهاور. ثانيًا: انتهر ليود جورج حكومته قائلاً: تسببت أخبار الهجوم الألمانى الكبير المؤسف وتراجع البريطانيين والخسائر الفادحة فى تداعيات سياسية داخلية، فمن الذى سيتحمل تلك النكسات؟ وفى ١٨ أبريل تولى اللورد ميلنر مكان اللورد ديربى بوصفه وزيرًا للدولة لشئون الحرب، كما تولى أوستن تشامبرلين مكانه فى مجلس وزراء الحرب، وانتشرت أصداء ذلك الأمر بعيداً حتى فلسطين؛ حيث تم تجريد ألنبى من القوات التى كان على وشك استخدامها لشن هجوم أخير ضد الأتراك.

وفى ظل الاتهامات المتبادلة وإلقاء اللوم على الآخرين، تأثر سولومون عقليًا وتغيب عن النوادى والمجتمع، ثم قام الألمان بشن هجوم شامل ومفاجئ باستخدام طريقة التمويه التى ابتكرها سولومون، وهنا قرر سولومون بدء حملته، فأرسل خطابًا إلى رئيس الوزراء، إلا أنه عرضه على جاره السير إدوارد كارسون ليقوم بمراجعته، فكتب كارسون خطابًا شديد اللهجة إلى اللورد ميلنر؛ مشيرًا فيه إلى أهمية التمويه الذى اكتشفه سولومون والذى ساعد الألمان فى إخفاء الجنود وسط المناظر الطبيعية.

وبعد مضى ما يقرب من أسبوع، قدم سولومون قضيته إلى ليود جورج ووزير الدولة لشئون الحرب أثناء تناولهما وجبة الغداء فى منزل السير ألفريد موند،

فأكد رئيس الوزراء قائلاً: "لا ريب فى ذلك"، فقال سولومون: "إنه يرى أن مناطق الحدود قد تأثرت بتقدم الألمان"، وهنا قام لويد جورج بتقديم سولومون إلى الجنرال جيه سى سماوت واللورد روثيرمير رئيس المجلس الجوى. حاول سولومون أيضًا مقابلة الجنرال جورج ماكدونو رئيس المخابرات العسكرية لمعرفة ما إذا كان قد تم الحصول على أى معلومات تتعلق بالتمويه من أحد السجناء الألمان.

فى مايو ١٩١٨؛ عاد رسام اللوحات الأمريكى المشهور والجندى بالجيش النظامى جون سنجر سارجنت إلى لندن حيث تم انتدابه بوصفه فنان حرب، فرأى سولومون فى ذلك فرصة مواتيه لتنبيه الجيش الأمريكى. ذكر سولومون:

قدم سارجنت إلى مرسمى، وأخذ يتصفح الصور، وكان سولومون راضيًا تمامًا عن تفسيره لتلك الصور على نحو دقيق... وكان التمويه قد وصل إلى مرحلة كبيرة من الإتقان لدرجة جعلت التحليل المنطقى للصور المأخوذة جواً لا يستطيع القيام به سوى فنان".

سمع سولومون من الأستاذ الجامعى مانتوكس أوائل يوليو أن الجنرال فيتش أعجب بمكتشفاته وأنه يريد مقابلته بمقر القيادة العامة الفرنسية فى مدينة فرساى. خضع سولومون لمجموعة من الإجراءات الروتينية والرسمية قبل أن تبدأ رحلته اليائسة والمضطربة إلى فرنسا، حيث استقل سولومون ثلاثة قطارات وبات بأحد الفنادق ثم استقل سيارة فى طريقه إلى البعثة البريطانية فى قصر بريو. رتب الجنرال ويجند لتيسير وصول سولومون إلى شالون لمقابلة محلل الصور والخبير الفرنسى النقيب دى بيسى.

أخذ مدفع ألمانى ثقيل يطلق النيران فى شالون كل عشر دقائق، وانبطح الجنود أرضًا تحت السراديب، وافق عيد الجمهورية ١٤ يوليو يوم الأحد، ومن ثم قام الألمان بإحياء ذلك اليوم بهجوم كبير، وأمضى سولومون عطلة نهاية الأسبوع فى مشكلاته الاعتيادية؛ مثل: قبول الفرنسيين على مضض لبعض النقاط، إلا أنهم رفضوا فكرته بأن الحلفاء قد تم خداعهم لمدة ثلاثة أعوام من قبل الألمان، حيث كان موقف الفرنسيين

يتلخص في أنهم أذكى من الألمان، لذا فكيف يمكن للألمان أن يقوموا بشيء أفضل من الفرنسيين؟

بدأ سولومون رحلته بالقطار عائداً إلى باريس رغم شعوره بالتعب؛ بسبب قلة النوم وبسبب الفشل في إقناع الكابتن دي بيسي، حيث نزل في غرفة مقابل اثني عشر فرنكًا بفندق تيرميناس حيث فقد أمتعته، لذا كان عليه أن يشتري ماكينة حلاقة إضافة إلى قيامه بتنظيف ياقته. وحيث كان على سولومون الانتظار في ذلك المكان، لذا كتب خطابات كثيرة وكان يخرج ليرى الناس عامة الناس بالخارج، وذات مرة عندما كان سولومون مضجعاً على سريره سمع الصفارات تنذر بغارة جوية "صوت ينتشر في أرجاء المدينة"؛ إلا أنه لم يحدث شيء، وإثر ذلك أرسله وزير الحرب إلى قسم التمويه في ٢٣ شارع يونفرستي.

في يوم الأحد التالي، تناول المقدم سولومون جوزيف سولومون أول خبير تمويه؛ بريطاني الغداء في مدينة تشانتلي مع النقيب جيراند دي سكوفولا وكان أول خبير تمويه فرنسي، وبعدئذ وفي روض الحديقة المشمسة شرح سولومون لدى سكوفولا وفريقه الصور والنماذج التي جلبها معه، إلا أنه توجد ملاحظة لافتة للنظر في تقرير سولومون:

لم يعترض أحد... شاهد الجميع كل نقطة بوضوح تام، وعبروا عن ذهولهم لعدم وجود أي محاولة لاختبار صحة نتائج تحليل الصور... ورغب دي سكوفولا في أن ينضم سولومون إلى مؤتمر خبراء تمويه الحلفاء المقرر عقده قريباً.

رأى سولومون العديد من الجنرالات ومساعديهم، وهنا حاول الحصول على إذن بالنزول إلى الجبهة البلجيكية ليثبت صحة نظريته، فطلب سولومون طائرات لقصف المنطقة بالقنابل وطائرة أخرى لتصوير ما حدث بعد القصف، وفي بداية أغسطس كان سولومون في مدينة روان؛ حيث أخذه والتر راسيل إلى مصنع الأعمال الخاصة في مارون. اعتقد سولومون أن فريق تمويه سلاح المهندسين الملكي لا يعرفون أي شيء عن التمويه. وفي أبيڤلي تناول سولومون الإفطار مع ليندساي سيمنجتون وطلب

منه الإعراب عن وجهة نظـره فى التمـويه الذى أُعد فى فرنسا، فأجاب سيمنجتون، أنه يعتقد أن نحو ٧٥٪ من المواد الخام فاسدة تماماً؛ بسبب قلة المعرفة ومعايير الإنتاج المفرطة.

عاد سولومون إثر ذلك من بولونى إلى ساحة الأعمال الخاصة بمنطقة ويميروكس؛ حيث بدأ أعماله منذ سنتين، فزار سولومون جميع الأماكن بصحبة الرائد إف جى سى ويات الذى حل محله فيما بعد. اندهش سولومون من ركود الإنتاج؛ فليست هناك دراية بشبكات التمويه المعيارية التى تعتبر أحد النماذج المألوفة، كانت تلك المصانع مملة عندما خلت من البراعة الفنية والإيحائية أو معرفة فائدة التمويه، وإثر ذلك أدرك ويات أن سولومون كان أكثر الزائرين إزعاجاً.

كتب سولومون رسائل إلى المسئولين أثناء تواجده فى نادى استراحة الضباط، كما ضايق النزلاء الآخرين بنماذجه وصوره، استمر حتى الصباح على الشاطئ ثم نام بعد الظهيرة. طرق بقدميه على منصة الفرقة الموسيقية بولونى، وفى أثناء تواجده هناك صمم سولومون أيضًا خطة جديدة لتمويه المطارات، ثم اتصل سولومون بالبعثة البريطانية، ولم يكن هنـاك أى معلومات عن أمر الاستدعاء إلى بلجيكا حسب ما كان يتوقع.

يتصرف سولومون كأنه نبى، فهو يشتكى الملوك فى أوامرهم. كان سولومون يمتلك رؤية ثاقبة لا يمكن لأحد تفهمها، فكيف يستطيع الناس الذين لا يفهمون معنى استراتيجية التمويه أن يدركوه أمام أعينهم؟ وعندما رجع سولومون إلى ويميروكس تلقى خطاباً من زوجته التى أقنعته بالعودة إلى المنزل، فقاد باجيت سولومون إلى بولونى؛ حيث قاما بتحليل الصورة لبضع دقائق قبل رحيل مركب الساعة الثانية والنصف إلى مدينة فولكستون.

بحلول ٢٠ أغسطس؛ مكث سولومون فى مستشفى هامبستيد ويحوزته صور شارع بير كابيل وسباربلهوك؛ إضافة إلى صور من ابن أخيه جوزيف هيبيرت سولومون الذى كان يعمل على منطاد؛ حيث حاز على أصول تلك الصور عندما كان يخدم فى بلجيكا.

كانت قراءة سولومون للصور بمثابة "إشهار" للمراقب الصغير، حيث يشرح عمه سولومون السبب الذى جعل ابن أخيه لم ير أى سيارة على امتداد ٢ كيلو متر من شارع بير كابيل نيوبورت، فقد كان الطريق مموهًا، وبعد ذلك كتب سولومون خطابًا آخر إلى اللورد ميلنر وزير الدولة لشئون الحرب وطلب منه توجيه المدفعية إلى هذا الطريق، على الرغم من أن ميلنر أخبر سولومون بأنه لا توجد حركة سير على الطريق، حيث يبدو أنهم يتحركون بالليل، فضلاً عن أنه ليس هناك سبب يدفع الألمان إلى بناء مطارات كبيرة الحجم بسبب ارتفاع التكلفة!

وبعد ذلك طلب جون رودس قائد مدرسة التمويه فى هايد بارك حضور النقيب ليجون إلى مرسم سولومون لفحص أدلته، اعتقد سولومون أن ليجون أذكى القراء فى حين إنه لم يستطع أن يجد شيئًا مثيرًا فى كتابات سولومون. إنها المرة الأولى التى يناقش فيها مسئول موضوعًا تم البت فيه من قبل، لكن رودس أخبرنى فيما بعد بأنه ما زال غير مقتنع بالتمويه.

والآن، بدأ سولومون يشعر بمرض جنون العظمة "فكان يبتسم مثل الطائش المعتوه" وشعر بأن النبلاء الإنجليز يتصرفون بحماقة وأن هناك أشخاصًا وراء المسارح يصطنعون التملق. ليس هناك أى تلميح من سولومون بشأن معاداة تلك الأشياء السامية.

حاول قائد مدرسة التمويه فى بادئ الأمر إعطاء سولومون فرصة كافية فى الخامس من سبتمبر ١٩١٨، ومع ذلك بعث جون رودس خطابًا لمقر القيادة العامة فى بريطانيا مرفقًا به معالم رئيسية على الخريطة وصورة مكبرة وشفافة توضح المعالم الأساسية والرأسية لـ "منطقة يشتبه فى أنها منطقة ألمانية مموهة".

إثر ذلك، قام قائد من الاستخبارات العسكرية ٢ بوزارة الحربية البريطانية – لم يعلن عن اسمه – بالرد على مكتب المخابرات التابع لمقر القيادة العامة فى ٢٠ سبتمبر ١٩١٨:

تمت إحالة عدد من الخطابات من المقدم سولومون بشأن موضوع مناطق التمويه الألمانية إلى الفريق العام لدراستها خلال الأشهر القليلة الماضية.

تمت دراسة أدلة المقدم سولومون بدقة للفصل فيها من خلال فحص مجموعة كبيرة من صور هذه المناطق تحت ظروف مختلفة وعلى مرات متعددة خلال هذه السنة؛ حيث إن استنتاجات سولومون غير مزودة بالحقائق. فى هذه الحالات لا يمكن النظر إلى تبرير القيام بقصف شارع بير كابيل؛ نظراً إلى أن هذه المنطقة قد تم إلقاء القنابل عليها من قبل.

وفى سبتمبر ١٩١٨؛ زار جون رودس مناطق العمل الخاصة فى فرنسا، حيث ناقش نظريات سولومون بشأن سباربلهوك ومنطقة بير كابيل مع مقر القيادة العامة فى فرنسا، وقبل أخذ عطلة لمدة ثمانية عشر يوماً كتب إلى سولومون:

رأيت صورتين مجسمتين وأخاف أن أدعم فكرة إثارة البلاد، وفى ظل هذه الظروف لا أعتقد أنه سيتم تطبيق ذلك مرة ثانية لقصف المنطقة أو لعمل أى تجارب أخرى، وأنا شخصياً مقتنع من خلال ما بدا لى بأن المنطقة المشار إليها غير مرتفعة.

بعد عودته من العطلة، كتب رودس إلى ويات وقائد منطقة التمويه فى ويميروكس فيما يتعلق باستخدام الألمان للتمويه فى المنطقة:

الآن وبسبب أن هذا الخط بالغ فى تقدمه، سأكون مسروراً عندما تخبرنى فى أقرب وقت ممكن، على وجه التحديد بالمناطق التى يزعم سولومون أن الألمان قد قاموا بتغطية وإخفاء الجنود من أجل تكوين منطقة مموهة، كانت مغطاة فعلاً أم غير مغطاة... أنتظر هذا التقرير فى أقرب وقت ممكن.

وفى ٢٧ أكتوبر؛ كتبت الاستخبارات العسكرية "٣" البريطانية:

"المناطق التى يشتبه فيها المقدم سولومون جوزيف سولومون؛ وهى: سباربلهوك ومنطقة بير كابيل على أنها معسكرات مموهة، وقعت فى أيدينا وتم فحصها جيداً، ولا يوجد أى دليل على صحة ما يقوله المقدم سولومون...".

أرسلت نسخة من الرد أيضاً إلى سولومون، فكتب خطاباً فى ٥ نوفمبر يدافع فيه عن نفسه أمام هيئة الأركان. وبسقوط اسم المشير فيتش والجنرال ويجند وزير الدولة لشئون الحرب ورئيس الوزراء، انتقل سولومون فى إثبات ادعائه إلى الارتكاز إلى دليل آخر بـالاتجاه نحو الجنوب.

تمت تغطية الوادى بين مدينة بوليكورت وكرسيلى تمامًا باستخدام إحدى طرق التمويه، فالممرات الصغيرة التى تم اكتشافها فى كوينت، والتى كنت قد وصفتها بدقة، إضافة إلى مواقع مدافع بيرثا التى سقطت بين أيدينا كانت مواقع خداعية تم تدميرها، أما من يقول بحقيقة أنه لا توجد خطط استراتيجية ألمانية للتمويه، على الرغم من تكرار وصفى لتلك المواقع الألمانية منذ بداية مارس، لهو دليل كافٍ على عدم وجود رجال فى الجيشين البريطانى أو الفرنسى يستطيعون تحليل صورة من هذا النمط بدقة كافية.

فى أثناء وقت الهدنة، كان ونستون تشرشل فى فندق متروبول فى ميدان نورثمبرلاند ينتظر ساعة بيج بن حتى تدق الحادية عشرة؛ معلنة بذلك نهاية اثنين وخمسين شهراً من الحرب. انتهت الحرب بالنسبة إلى فيليب جيبيس بينما بدأت بالنسبة إلى الجيش البريطانى فى عام ١٩١٤ فى مدينة مونس البلجيكية، حيث يعد ذلك بمثابة مصادفة خيالية. فى تمام الساعة الحادية عشرة يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨؛ توقفت المدفعية عن إطلاق النيران؛ "فلا مزيد من القتلى ولا المشوهين ولا المكفوفين. وبغروب الشمس وإقبال الليل الهادئ، بدأ فيليب جيبيس يشعر بنيران الجحيم تخمد ويسمع الناس يتحدثون بسعادة، وأصوات الفرق الموسيقية تعزف.

شهدت نهاية الحرب ظهور أشهر الآثار الأدبية الساخرة؛ وهو فيلم تشارلى تشابلن "أسلحة شولدر" – (Shoulder Arms) – والذى نُشر فى أكتوبر ١٩١٨، وكان أغرب جزء فى ذلك الفيلم، هو الدقائق الست التى قضاها تشارلى تشابلن مموهًا فى صورة شجرة. عندما تتجول فى شوارع كاليفورنيا لا تجد شخصاً يقاتل الألمان بسلاحه. لقد سبب ذلك تغييراً فى الشعور العام نحو التمويه، فالسر الرسمى الذى أخفاه المسئولون

لسنوات قليلة أصبح الآن مثار سخرية الناس، حيث زادت سخرية تشارلى تشابلن من توتر سولومون.

وبعد مرور يومين على الهدنة التى أنهت الحرب وفى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وصل ضابط تمويه محنك ليقوم بفحص منطقة بلجيكا التى أشار إليها سولومون بأنها مختفية تمامًا، فقام ضابط تمويه سلاح المهندسين الملكيين بزيارة مجموعة من القرى الفلمنكية فى جميع الأرجاء؛ عبر أوستند وسباربلهوك وميدليكراك وسلايب وبير كابيل وليك وبيرست وفلادسلو وديكسمود وإيسن وزاران واستادن وورلرز. كان هذا هو الوقت المناسب لإثبات صحة نظرياته من عدمها، خاصة أن خبير التمويه الوحيد الذى لديه القدرة للحكم على ذلك، والذى تم اختياره هو تلميذ سولومون ومنافسه القديم أوليفر برنارد.

وجد برنارد بعض أغصان الشجر المقطعة على جانب الطريق "إطارات خشبية تبلغ مساحتها نحو ٥ بوصة × ٥ بوصة ومتصلة بسيقان يبلغ ارتفاعها ٧ أمتار؛ تستخدم لإخفاء ملتقى الطرق والطرق الفرعية المتقاطعة تحت المراقبة، ولكن ليست هذه الطرق ممرات ألمانية أو حواجز طرق مخفية." أوضح برنارد أيضًا أن:

منطقة بير كابيل كانت تحت المراقبة المستمرة من آر إن إس جى فى رامسكا بيليه منذ بداية ١٩١٥ حتى آخر العمليات. ثمة محاولة لرفع مستويات الطريق اصطناعيًا حتى تتمكن السيارات المرتفعة من المرور على هذه الطرق وقد يكون ذلك واضحًا جدا فى المنطقة المسطحة، حتى يسهل على المراقبين رؤية كل معلم.

لم يستطع أوليفر برنارد أن يجد ضابطًا ليدخل هذه المنطقة بعد الإخلاء ولم يستطع إيجاد أى صور ملتقطة: "يبدو أنه لا يوجد شىء يستحق التسجيل كدليل واضح تجاه القضية المطروحة بهذا الصدد"، وبناءً على ذلك تم التوقيع على تقرير الإدانة فى ١٩١٨/١١/١٤، وفى النهاية أكمل كل من "برنارد والرائد آر إى ضابط التمويه بالجيش الثانى" والفنان المسرحى الصورة الزيتية، وكانت الكلمة الأخيرة:

لقد تم البحث بدقة فى الأنقاض الموجودة أو فى التمويه المدمر والطرق البنائية والريف ولم يتم العثور على دليل يشير إلى أن المنطقة أو الطرق قد تم تمويهها.

لكن سولومون لم يستطع التوقف عن البحث، فاتجه إلى بير كابيل التى تم تدميرها بالكامل ولا يوجد أى أثر للمنازل، وعندما كانت اللوحة الخضراء تلمع تحت الإفريز وجد بقايا من الورق البنى وتأكد أنها زينت السطح بحقل مزيف، وجد سولومون أوراقًا أخرى فى الأنقاض كان بعض منها رمادى اللون إضافة إلى حقيبة من المصيص الصلب وبعض المربعات الكتانية على الطرقات، لكنه أقتنع بأن الألمان حاولوا تدمير أهم دليل على جرائمهم.

كان لدى سولومون وقت كافٍ ليستمر فى سير حملته، لكن جون رودس غضب جدًا مما سماه "حكمة سولومون": "لقد قام كل منا بالنظر فى دعاويه بالقدر الكافى، لكن لكل أمر حدود". كتب رودس فى ١٠ نوفمبر ١٩١٨ خطابًا إلى مقر القيادة العامة: "إننى أعتبر خطابه بجانب كونه لا تدعمه الحقائق، أنه اتهام لذكاء وقدرة الضباط المشار إليهم، وأطالب بأن يتم إيقافه عن عمله كمستشار شرفى فى مدرسة التمويه".

وعندما نشر كتاب سولومون "التمويه الاستراتيجية" – (Strategic Camouflage)؛ تجاهل جون رودس هذا الكتاب وظهر النقد الهدام فى جريدة رايت ونج مورنينج تحت عنوان "صار التمويه جنونًا".

مع اقتراب الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨، تحولت دعاية الحرب إلى مناورات سياسية، حيث كتب نور تكليف على نحو مبالغ فيه عن سياسته بشأن "سياسة دعاية السلام" والاستسلام غير المشروط، وطالب بمقعد فى مؤتمر السلام فى باريس، على الرغم من أنه يهاجم فى جريدته ديلى ميل اللورد ميلنر بوزارة الحربية البريطانية.

فى السابع من نوفمبر، حصل الأيرلندى السير إدوارد كارسون على مقعد فى مجلس العموم، ذلك الرجل الذى دمر حياة أوسكار وايلد من خلال الاستجواب الدقيق، وهو الآن يوجه اهتمامه القضائى إلى قطب الصحافة:

إنها خيانة عظمى أن تقول كلمة ضد اللورد نورثكليف، وأنا على علم بمكانته الوظيفية وأنه لا يتردد فى القيام بها على أكمل وجه... لكن بالنسبة لى فإنه ليس من المقبول القيام بالاشتراك فى حملة دعائية خارجية لصالح سلطته فى الحكومة، كجزء من دعايته التى يهاجم فيها وزير الدولة لشئون الحرب، ويدعى أنه يخدم الحكومة... ومن ثم يهتم اللورد نورثكليف باللجنة الحربية، لأنه قد يكون أحد المشتركين فى مؤتمر السلام... جميع المواضيع التى تمت مناقشتها فى المؤتمر تعد إهانة للحياة العامة فى إنجلترا وتعد إهانة للصحافة.

استقال اللورد نور ثكليف فى ١٢ نوفمبر؛ وهو اليوم الأول للسلام الكامل على الرغم من رفض ليود جورج، وتزايد جنونه بالسلطة إلى الأسوأ وتحول إلى جنون الشك. أصيب بعدوى فى أسنانه ثم أثرت فى مخه ثم انتقلت إلى قلبه، وأصبح أشهر عبقرى عرفته الصحافة البريطانية يصاب بالجنون، وقضى الأسابيع الأخيرة من حياته من صيف عام ١٩٢٢ فى كوخ بسطح منزل ديوك ديفونشير فى شارع كارلتون جاردنز.

بمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى تحولت كلمة الدعاية إلى كلمة مستنكرة، حيث قام السير كامبل ستيوارت بغلق وتنظيف كرو هاوس بحلول ٣١ ديسمبر ١٩١٨، وأسرعت الحكومة بالتنصل والتخلص من آلة الدعاية لديها، وفى شهر أكتوبر استقال اللورد بيفربروك ولم يشغل أحد مكانه، بنهاية ١٩١٨، وكانت وزارته الإعلامية أول وزارة تم غلقها تمامًا، وكان جون بوشان "مأمور التصفية"؛ حيث قام بتسليم قسم الفنون والتصوير الخاص بالوزارة إلى متحف الحرب الملكى الذى تم تأسيسه بقرار من البرلمان عام ١٩٢٠. عندما فرح الشعب بالانتصار، اهتم بوشان بالسلام وقام بتحرير ١٥٠٠ سجين لا يرغبون فى العمل فى الخدمة العسكرية. لم يتضرر جون بوشان من الخدعة على خلاف الآخرين، وفى عيد الكريسماس ١٩١٨ تذكر بطله ريتشارد هانى فى رواية "العباءة الخضراء" – (Greenmantle)، فهناك شخص هارب مقنع قضى عيد الكريسماس ١٩١٥ فى بيت العدو:

أدركت فى تلك الليلة حماقة الحرب، عندما رأيت قذائف إبرس وسمعت حكايات بشعة عن أفعال الألمان، وكنت أريد أن أرى أرض الألمان كلها بعد توقف إطلاق النار والضرب بالسيوف. اعتقدت أننا لا نستطيع أن ننهى الحرب بطريقة مناسبة دون أن نذيق الجنود الألمان بعض ما جرعونا، ولكننى شفيت من هذا الكابوس عندما مكثت فى كوخ خشبى، وكنت أعاقب المجرم وأترك البرىء يتصرف بحرية، كان عملنا نشكر عليه الرب ونحفظ أيدينا من الأخطاء الشنيعة التى يرتكبها الألمان بسبب جنونهم. ما الذى فعله الشعب النصرانى من أعمال تستحق حرق الأكواخ الصغيرة الرديئة وترك جثث الأطفال على جوانب الطرق؟ إن المتعة والرحمة هما ما يميزان الإنسان عن الحيوان.

(١٢)

عباقرة الحرب العالمية الثانية

عمل ديدلى كليرك وسيفتون ديملر، قطبا الخداع الاستراتيجى البريطانى والدعاية السوداء خلال الحرب العالمية الثانية، فى مجالين مختلفين، حيث تميز ديدلى كليرك بطابع فنى ابتكارى مسرحى والذى سعى لإثبات براعته الفنية فى ظل قسوة الجيش البريطانى، بينما نشأ سيفتون ديملر فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى حيث كان التلميذ البريطانى الوحيد فى مدرسة برلين، وعندما انتقلت عائلته إلى بريطانيا، أصبح الفتى الوحيد الناطق بالألمانية فى المدرسة الإنجليزية العامة أثناء الحرب، إلا أن الحرب العالمية الأولى لعبت دورا كبيراً فى تشكيل حياة كلا الرجلين.

كان للمقدم ديدلى كليرك ضابط الأكاديمية الملكية، الرجل صاحب اليد الطولى فى عمليات الخداع الاستراتيجية التى جرت فى الحرب العالمية الثانية، مظهر الضابط الرسمى بسبب شعره الحريرى المعقوف جهة اليسار وطبيعته المجاملة، فلم يكن يحب التحدث فى الاحتفالات، وقد أعطاه وجهه البيضاوى الشاحب ونظراته الخاطفة من تحت جفونه المتدلية شكلاً محيراً جعله يشبه الوصيف الساخر. كان الغموض سر وصفه بالروعة، حيث أضحى – وفق ما ذكره كاتب سيرته الذاتية ديفيد مورى – "الخادم العسكرى" وواضع حلول مشكلات سيده.

لم يكن كليرك غريب الأطوار، بل كان تقليدياً وعلامة فارقة فى المثالية داخل الجيش البريطانى؛ فلم يتزوج ولم يحب الأطفال وكان تقليدياً فى التزامه الرومانسى

المحافظ؛ حيث كتب فيما بعد تاريخ صفوة القادة فى الحرب العالمية الثانية "الأحد عشر قائداً" الذين لم ينتصر أحد فى معارك بقدر ما انتصروا. كان "ديدلى العجوز الطيب" ودوداً لكنه كان حذراً؛ فقد ذكر أنه دائمًا ما أراد أن يكون "أحد المقربين والمراقبين لتتابع الأحداث داخل الإمبراطورية البريطانية خلال اللحظات التاريخية الحاسمة"؛ فقد كان يخفى عمله الدءوب مبرراً وصوله إليه بمحض الصدفة، خافياً طموحه وراء التسلية، إضافة إلى قصص يحط فيها من قدر نفسه بذكره الحوادث والأخطاء التى وقع فيها.

استطاع كليرك اجتذاب كبار الضباط ببراعة، ولكنه أنجز الكثير من الأعمال، كما امتزجت أعماله فى الاستخبارات بخياله العبقرى إضافة إلى ذاكرة فوتوغرافية، فهو يقوم بأفضل أعماله فى المساء، ويجلس عادة فى الأماكن العامة مستنداً بظهره على جدار، فلا يمكن أن يلفت انتباهك فى الزحام، فلم يكن مشهوراً حتى اعتقد المشير هارولد ألكسندر أن كليرك فعل من أجل الفوز بالحرب ما لم يفعله أى ضابط آخر، وانتهى المطاف بالعميد كليرك ليكون من أفضل عملاء الخدمة السرية البريطانية وأروع مخادع بريطانى خلال الحرب العالمية الثانية.

ولد ديدلى رانجل كليرك فى جوهانسبرج فى ٢٧ أبريل ١٨٩٩ (بسَّلى على رأسه)، وهو الابن الأكبر ليوركشيرمان الذى سافر إلى جنوب إفريقيا ليجمع ثروته ثم عاد إلى وظيفته الدائمة فى شركة جولد مينتج فاينانس فى بول مول، وفى عام ١٩١٢ بدأ سنواته الثلاث الأولى فى مدرسة تشارترهاوس العامة التى وصفها أوسبرت لانكاستر بأنها "كانت معسكر اعتقال واسعًا فى بداية القوطية الإنجليزية". لم تكن تلك المدرسة بعيدة عن المؤسسة العسكرية فى الدرشوت. أُعجب ديدلى بالزى العسكرى الرسمى الجميل، وفرق العرض المتألقة، وجلجلة الفرسان التى استهوت الفتى الشاب ونستون تشرشل. كانت مدرسة تشارترهاوس قريبة من القاعدة الجوية فى فرنبروف؛ ما جعل فتيان المدرسة يقيمون صداقة مع الميكانيكيين الجويين التابعين لقسم البالونات بسلاح المهندسين الملكين الذين شكلوا فيما بعد فيالق الطيران الملكى.

حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤؛ كان ديدلى فى الخامسة عشرة من عمره يرتدى الزى الرسمى فى معسكر فيلق تدريب الضباط فى ستافوردشاير، حيث قتل اثنان بين الستة الذى كانوا يرافقونه فى خيمته فى تلك الحرب، وفقد زميل آخر ساقه، كما لقى مدربهم حتفه فى جاليبولى، إلا أن والده إرنست كليرك منح رتبة فارس لعمله التطوعى فى أثناء الحرب وكان المسئول عن تنظيم سيارات إسعاف الصليب الأحمر (التى بدأت بثمانية وانتهت بأربعة آلاف). ونشر توم الأخ الأصغر لديدلى الذى كان فى السابعة من عمره، خطاباً فى دلى تلغراف فى أكتوبر ١٩١٤؛ واصفاً فيه كيف كان ديدلى يقوم بعمل أعلام صغيرة ملونة بألوان دول التحالف يقوم ببيعها ليجمع خمسة شلنات للاجئى بلجيكا الفقراء. وقد عرض هذا الأمر الأب الفخور فى اجتماع جمعية الصليب الأحمر؛ وسرعان ما قام الصليب الأحمر ببيع الأعلام الصغيرة وجمع علب الطعام، وفى سيرته الذاتية "من هنا أتيت" – (This is where I came in) اعتذر توم عن تسببه فى فرض "أعياد العالم" فى العالم.

على النقيض من ديدلى، كان توم كليرك مدنياً، فهو من تخلى عن بندقيته فى العرض العسكرى فى معسكر تدريب الضباط وترك المدرسة كى يذهب إلى السباق فى حديقة سنداون؛ وكان عمه المقرب إليه هو رئيس الدائرة السحرية الذى كان يقوم باستخراج عملات هاف كراونز من الأذن. وبعد أن عمل بوظائف متعددة، احترف توم، أخو ديدلى كليرك، كتابة السيناريو لميشيل بالكون فى شركة إيلينج فيلمز، وانتهى به المطاف بالحصول على الجائزة الأكاديمية عن كتابة أفلام بريطانية كبيرة مثل "زهرة الخزامى فى تل الغوغاء" – (The Lavender Hill Mob)، و "جواز سفر إلى بيملكو" – (Passport to Pimlico)، و"الحمل الأزرق" – (The Blue Lamp)، و "صاعقة تيتفيلد" – (Titfield Thuderbolt).

تقاسم ديدلى الشاب خيال أخيه الإبداعى الذى أثار رجولته الكامنة؛ حيث كان يسوى الأرض فى ميدان المناورات وينظف الإسطبلات ويحمل الصناديق فى الثكنات. وفى فبراير ١٩١٦، التحق ديدلى بسلاح مدفعية الفرسان وبعد شهر من عيد ميلاده

السابع عشر التحق بالأكاديمية الملكية العسكرية فى وولويتش، ليتلقى دروس ركوب الخيل على يد ضباط صارمين. وفى نوفمبر ١٩١٦، ترقى إلى رتبة ملازم أول، حيث كان صغيراً لدرجة لا تسمح له بالذهاب إلى فرنسا مع قوات الحملة البريطانية والالتحاق بفيالق الطيران الملكى.

فى يوم الاثنين، الموافق ٥ نوفمبر ١٩١٧، وصل ديدلى كليرك إلى المدرسة العسكرية للملاحة الجوية فى ريدنج بحقيبة سفر ضخمة دون مقابض اسماها "الفيل الأخضر" وكان فى الثامنة عشرة من عمره. كان ديدلى نشيطاً واثقاً من نفسه، ومحتفظاً بمذكراته، وكان من بين ما يدل على أن ديدلى كليرك كان رجلاً دقيقاً، التزامه بمواعيد القطارات. لم تكن مذكرات ديدلى تنطوى على أى شىء يتعلق بالحرب؛ فبدلاً من ذلك، أحب جمال المسرح وأصبح ديدلى أحد فرسان المسرح الملكى بعد روايته المؤثرة الشهيرة "السوط" – (The Whip) التى تحاكى سباق خيل حقيقياً على مسرح دوار بطىء. وكان أول شىء لاحظه فى ريدنج، بعد أن انبهر بالفتيات ذوات الزى الموحد اللاتى تركبن دراجات نارية، "فى مجموعات سريعة"، هو ميدان سباق الخيل، وفى هذه الليلة توجه دون تردد إلى قصر ريدنج؛ حيث أنفق اثنين من الشلنات للحصول على المقعد الأخير من المسرح وشاهد "شارب تومبونيرس" وهو يملأ المسرح ضحكاً من خلال عرض "ياكا هولا هيكى دولا" وبيرى وزوجته عازفة البيانو التى تتحرك برشاقة، على الرغم من أنها كانت تفقد أسنانها الأمامية.

وذات ليلة، لم يكن ديدلى قادراً على أن يستمتع بالمرح فى ريدنج إذ لم تكن معه نقود (وكان وقته بصدد تحرير صحيفة وطنية سميت نوتى نيوزو حيث كان يعرض "أفكاره الإلهامية") فقام بتسلية نفسه فى غرفته بعمل جهاز يتكون من رباط حذاء وحبل قصير وبعض أشرطة حقيبته، حيث يمكنه إغلاق الإضاءة دون النهوض من الفراش. وأظهر ديدلى البراعة نفسها عندما جاء إلى مصر فى زيارة استغرقت سبعة أشهر فى عام ١٩١٨، من خلال ابتكاره "نادى التحدى" – (Problem Club) وهو عبارة عن مجموعة من التحديات المثيرة لأقرانه من رجال الطيران فى مصر؛ حيث كانوا يمرحون بها ولا يخرجون فى المساء من أجل توفير النقود.

كان التحدى الأول هو تقديم مقال أصيل بأسلوب رصين. ثم اقتبس هورن من كل عضو دون علمه، وقام ديدلى بعمل جزء من روايته ميس تشيمنى.

فى مطلع يوليو ١٩١٨، قام كليرك بالتحليق بمفرده للمرة الأولى فى سماء مصر، واستمرت ساعات الطيران لسرب التدريب فى سماء السويس من الساعة ٤,٣٠ حتى ١٠,٣٠ صباحًا، ومنذ ذلك الحين تعلق كليرك بالسباحة والاستجمام فى الشمس، فكان يمارس هذه الهواية وهو يمضغ لبان التشكلت ويقرأ قصص بينى السبع فى خيمته، مرتديًا قميص التنس الأبيض وسراويل كرة القدم دون جوارب، وكان مقعده عبارة عن صندوق بلاستيكى كما كان مكتبه مصنوعًا من صناديق الويسكى. كان كليرك محبًا للجمال، حيث كان مفرش مائدته الحريرى ذو اللون الأزرق الشاحب متناسقًا مع ستائره القطنية وغطاء سريره، فهو يحب أن يعجب الآخرون بغرفته والنارجيلة التى ساوم من أجلها بعدما حصل على أجنحته رقم خمسة فى مدرسة القتال بهليوبوليس. اعتقد كليرك أن الخروج وإنهاك الجمال المصرية فى الصحراء متعة كبيرة ولكن فيما بعد ندم على مثل هذا التكبر. فى وقت الهدنة شاهد كليرك احتفالات القاهرة تتحول إلى شغب من المخمورين وإحراق للممتلكات وسلب ونهب.

تنطوى حياة ديدلى كليرك العسكرية على جانبين، كان أحدهما نشطًا وفعالاً، ففى ظل غياب الصراع الأساسى للجنود الطموحين أمثال كليرك أو الشاب تشرشل الذى أراد أن يشرق نجمه، كان لزامًا عليه أن يجد مهامًا مثيرة كى يقحم نفسه داخلها، وفى عام ١٩٢٠؛ رابط ديدلى كليرك فى العراق يتعلم كرة الماء وصيد الخنازير البرية، وعندما اندلعت ثورة الأشهر الأربعة العراقية، أجلى كليرك الأوروبيين وصناديق النقد عبر نهر دجلة على متن سفينة بخارية، متصديًا لهجمات رجال الحدود بأسلحة خفيفة، ثم وجد كليرك نفسه فى إجازة تركيا فى شهر سبتمبر ١٩٢٢، محاصراً بأزمة شانك التى أنهت حياة ليود جورج السياسية. وعندما قاومت جيوش الاحتلال البريطانى تهديد القائد القومى التركى مصطفى كمال باستعادة القسطنطينية والدردنيل بالقوة، كانت مهمة كليرك تتمثل فى تقديم جزء بسيط من المعلومات المزيفة

إلى أذان مديره، جاسوس كمال، وفى أواخر عام ١٩٢٥، حصل كليرك على إجازة أخرى، حيث ذهب فيها إلى المغرب كى يغطى عملية القمع الفرنسى والإسبانى لتمرد عبد الكريم فى صحيفة مورنينج بوست (حيث تعرف على أحد الناشرين وانضم لجمعية المؤلفين من أجل أن يؤلف كتابًا، ولكنه لم يكمل كتابه ذلك بعد خلاف مع تشرشل.)، وفى عام ١٩٣٠ انضم إلى القوات الحدودية شرق الأردن وكان يشمئز من ذوى الأحذاية الأسود فى كلباك وقرتة وكمبرند وتعلم ركوب الإبل وملاحقة لصوص الإخوان، وجلس إلى مؤسس الفيلق العربى فى الأردن، جون باجوت غلوب على مقهى فى الصحراء.. ومع ذلك، لم يكن غلوب بسترته ذات الأزرار الأربعة السوداء وطوقه البراق والعمامة بالنسبة إلى كليرك، سوى نموذج لشخصية هربرت جورج ويلز التنكرية اللامعة التى يفضلها لورنس.

كان الشق الثانى من حياة ديدلى كليرك المهنية ترفيهيًا، حيث رابط فى الترسانة الملكية، فى وولويتش، وفى عام ١٩٢٢، أنعش ديدلى النادى المسرحى لضباط المدفعية فى فترة ما قبل الحرب، وعندما طلب منه الجنرال وايت أن يأخذ على عاتقه مسئولية عرض المدفعية الملكية فى المسابقة الملكية فى عام ١٩٢٥ فى أوليمبيا، خرج ديدلى بعرض كبير عرض خلاله فترة زمنية تستغرق نحو مئتى عام من "قوة النار" ونقلها من مندن إلى مارنى. وتحدث إلى مالك السيرك بيرترام ميلز ومصمم الملابس ويلى كلاركسون واستأجر فيلين وجملين وستة عشر ثورًا، وثمانية من رجال السيخ، وأربعة عشر من أضخم الرجال النيجيريين استطاع اختيارهم من بين المئات من الرجال السود الذين شاركوا فى المسابقة. كان لدى ديدلى سوط يبلغ طوله اثنى عشر قدمًا ورسنًا يبلغ طوله ثلاثين قدمًا صنعا فى سوين وأدينى، استخدمهما لإحداث صخب وحيوية لعرض استمر لنصف ساعة والذى كان يتكرر مرتين يوميًا حتى بلغ ثلاثين عرضًا، مستخدمًا فيه ٣٧ نوعًا من الأسلحة النارية، و٣٠٠ حيوان و٦٨٠ رجلاً.

كتب ديدلى كليرك وأخرج اثنتين من المسرحيات الإيمائية فى أعياد الميلاد، فى كلية الأركان فى كمبرلى فى الفترة بين عام ١٩٢٣ و١٩٢٤، ومسرحية

"أليس فى بلندرلاند" – (Alice in Blunderland) و"آلدين والمنحدر العجيب" (AL Din and a Wonderful Ramp)، والتى قُدمت لأسر الطبقات العليا. فى عام ١٩٣٥ كتب كليرك (النقيب ديدلى كليرك آنذاك) مسرحية أخرى كانت ذروتها واقعية لدرجة أن كثيراً من المشاهدين فروا من المسرح. وكما أعد عرض اليوبيل الفضى لتكريم الملك جورج الخامس فى خليج هولكات فى مدينة عدن، عاصمة اليمن فى ٦ مايو ١٩٣٥.. كان ذلك هو الوقت الذى تصاعد فيه التوتر فى المنطقة، لأن موسولينى كان يقود قواته الإيطالية الفاشية استعداداً لمهاجمة هيلا سيلاسى بإثيوبيا على الجانب الآخر من البحر الأحمر، وفى النهاية، تم تقديم عرض "الغزو" أطلق لديدلى العنان فى استخدام جميع القوات المسلحة لعمل عرض يحاكى الهجوم، بدأ الهجوم فى الظلام بعد سماع صوت صفارة البروجى. وظهرت الباخرة إم إس بنزانس و٨ قاذفات قنابل من سلاح الجو الملكى البريطانى والسفن الحربية، وفجأة قامت فرقة عدن المضادة للطائرات، بمهاجمة قوات العدو لمنعها من النزول إلى الشاطئ؛ كان هذا العرض يهدف إلى أن يقوم قسم العربات المدرعة الباسل وجيش محمية عدن وشرطة عدن المسلحة برد الغزاة على أعقابهم إلى البحر، إلا أنه عندما ظهرت الطائرات والسفن بالظلام، صرخ شخص باللغة العربية قائلاً "الإيطاليون قادمون"، حينها فر الجمهور من المسرح.

فى فبراير ١٩٣٦، حصل كليرك على الوظيفة التى أرادها وهى ضابط أركان فى فلسطين، واشترى سيارة دلاج بيضاء ذات مقعدين ١٩٢٩ ونقلها بحراً إلى ميناء بورسعيد، وفى إدارة العمليات العسكرية قرأ مذكرة سرية حول نقاط الضعف العسكرية للجيش البريطانى، لكن الوضع كان يتغير، ففى ٣ مارس ١٩٣٦ أصدرت حكومة ستانلى بلدوينس بياناً يتعلق بإعادة تسليح وتعزيز قدرة سلاح الجيش. نشر ذلك الإعلان بعد يومين، حيث بلغت زيادة التضخم السنوى للعام الرابع على التوالى فى نفقات الدفاع إلى ٤٩ مليون جنيه إسترلينى؛ بينما بلغت هذه النسبة ٣٦ مليون جنيه إسترلينى عام ١٩٣٢.

فى جبل طارق، زار ديدلى كليرك صديقه بكلية الأركان والمتحدث الطلق للغة الألمانية كينيث سترونغ (الذى صار فيما بعد ضابط استخبارات أيزنهاور). وبعد مجموعة من الاجتماعات المجدية والملهمة فى مقر القيادة العامة بالقاهرة، استقل كليرك سيارته من مصر عبر طريق مثلة إلى القدس، حيث قد تزايد التوتر فى الأراضى المقدسة طيلة العشرين عامًا منذ أن اجتاز ألنبى بوابة يافا.

حكمت بريطانيا فلسطين بموجب انتداب من عصبة الأمم، إلا أن تزايد الهجرات اليهودية التى أيدها تصريح بلفور كانت تشعر العرب القاطنين فى تلك الأراضى بالتهديد على الرغم من أن معدلات مواليد العرب كانت مرتفعة وكانوا يمثلون الأغلبية، لكن ازدياد القوانين المعادية للسامية واليهودية فى ألمانيا النازية أدى إلى ارتفاع وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

توجه تونى سيموندس من مصر إلى القدس فى أبريل ١٩٣٦؛ بأمر بسيط يتمثل فى "تأسيس الاستخبارات العسكرية"، حيث يقول سيموندس، فى سيرته الذاتية "مشاهد من الحرب" – (Pieces of War): لم تكن الاستخبارات ضمن قائمة الأولويات العسكرية فى ذلك الحين، فلم يستعد البريطانيون فى فلسطين لاندلاع الهجمات والأعمال التخريبية إضافة إلى حرب العصابات العربية التى نتجت عن ذلك، كما كانت القوات المسلحة البريطانية فى القدس وحيفا تتكون من كتيبتى مشاة تحت إدارة العميد جاك إيفتس وضابطى أركان فقط، كان من بينهم ديدلى كليرك، ولم يكن هناك سوى سرب واحد من الطائرات التابعة لسلاح الجو البريطانى وكتيبتى عربات مدرعة تتبعان سلاح الجو البريطانى فى رام الله إضافة إلى ٥٠٠ بريطانى و٣٠٠ يهودى و١٠٠٠ شرطى فلسطينى عربى (لم يكونوا محل ثقة)؛ كان على البريطانيين أن يتعاملوا مع نوع جديد من الانتفاضات التى تتسبب فى مقتل المئات وإصابة الآلاف.

بصفته ضابط أركان العمليات الكبرى، جعل كليرك سلاح الجو البريطانى وسرايا الجيش الأخرى تعمل معًا؛ حيث أمكنهم فعل الكثير من خلال العمليات المشتركة فيما بعد، فقد أرسل كليرك سفن الخدمات اللا سلكية التابعة لسلاح الجو البريطانى إلى الخارج

مع القوافل الحربية، حتى يتسنى لهم فى حالة وقوع هجوم إرسال إشارة وطلب الدعم الجوى القريب لقصف المهاجمين، كما رأى كليرك أيضاً أن الجيش النظامى عبارة عن آلة غير فعالة فى مواجهة حرب العصابات التى تتمتع بتأييد قومى، لذا فكر فى محاربتهم على المستوى المحلى من قبل وحدات صغيرة ومخابرات قوية حصل عليها سيموندس بمعاونة المصادر اليهودية والعرب الموالين.

ثم عين الفريق جون دل، المدير السابق للاستخبارات والعمليات العسكرية، بالقيادة العليا بفلسطين فى سبتمبر ١٩٣٦، وتم إرسال كتيبة إضافية من القوات البريطانية قوامها ١٧٠٠٠ جندى للمساعدة فى قمع ما أطلقت عليه وزارة المستعمرات "حملة العنف" التى حاول القادة العرب من خلالها أن يؤثروا فى سياسة الحكومة البريطانية، ثم أصبح ديدلى كليرك رئيس أركان دل فى مقر قيادته فى فندق الملك ديفيد بالقدس، وبدأ يعمل فى وقت متأخر من الليل، مستنداً بظهره على الحائط وممسكاً بمسدس فى يده، لقد أثارت حرب العصابات ذكاء ديدلى كليرك؛ ما جعله يثبت مشبك مسدسه الآلى بعمود عجلة القيادة ودائماً، كما كان دائماً، ما يوقف سيارته معكوسة فى ساحة الركن ليتمكن من الخروج سريعاً.

وفى سبتمبر ١٩٧٣، تم تعيين قائد جديد لكليرك، حيث غير جون دل القائد عسكرى للقوات البريطانية برجل يعرف فلسطين جيداً، هو الجنرال أرشيبالد ويفل وهو كاتب سيرة ألنبى وصديق تى إى لورنس، كان أرشيبالد ويفل شخصية قاسية قليل الكلام لم يتحدث أبداً إذا لم يكن لديه ما يقوله، ما جعل بعض يغضب من صمت ويفل لكن كليرك تغلب على ذلك. دار حديثهما الأول أثناء قيادة السيارة من القدس إلى حيفا:

– متى انضممت؟

– فى عام ١٩١٦، سيدى!

– (وبعد مرور ساعة) لقد قصدت متى التحقت بهذا المقر؟

كتب كليرك:

"سرعان ما تعلمت احترام هذا الصمت بل تعلمت أن أفهمــه، كما أدركت بطريقة أو بأخرى أن الجنرال قد فهمنى، ومن ثم تأثرت تدريجيًا بذلك الرجل...".

خاضت عائلة ويفل أسلوب التجنيد غير التقليدى، فقد كان جده من الجنود المرتزقة، وقد حارب مع الإسبان فى حرب شبه الجزيرة، ثم حارب ضدهم فى شيلى والمكسيك، كما عاصر حماقة الكثيرين من المعنيين بخطط الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى. أحب ويفل التفكير غير التقليدى لأناس أمثال جون فريدريك تشارلز فولر، وتى إى لورنس وبى.إتش. ليدل هارت. لمدة أربعة عشر عامًا، قام ويفل بتدريب الضباط البريطانيين فى تدريبات فصل الخريف باستثناء الفترة التى قضاها فى فلسطين. درب ويفل الجنود البريطانيين على الحرب فى ميدان المناورات السنوى بعيدًا عن الثكنات، محاولاً محاكاة بعض ملابسات المعــركة الواقعية، مثل: الاضطراب والفوضى والمفاجأة. يحكى برنارد فيرجسون، المعاون الشخصى الأول لويفل كيف أن القائد شجع أساليب حرب العصابات الجسورة فى تدريباته كما استخدم نوعين مختلفين من حيله، ففى البداية خدع زميله العميد وقائد الفرقة من خلال خريطة واضحة تحتوى على ترتيبات مزيفة للمناورة. وفى المرة الثانية وبعد بضع سنوات، كان الضابط نفسه قائدًا لكتيبة منافسة فى المناورات، وفى هذه المرة كانت لدى ويفل خريطة تحمل ترتيباته الصحيحة تمامًا، وقام بإعطائها إلى فارس وطلب منه أن يقع فى الأسر ثم يتظاهر بأنه يقوم بتمزيق الخريطة. كان ويفل يأمل فى أن يحدث الضابط نفسه قائلاً: لقد نسى أرشى ويفل الطاعن فى العمر... لقد نسى أنه خدعنى من قبل، فالشىء الوحيد الذى أستطيع تصديقه هو أنه لا يوجد ترتيب واحد حقيقى على هذه الخريطة، إلا أن كل شىء يسير وفق الخطة التى تجنبها الضابط فاستحق هزيمة نكراء.

عقب وصول ويفل إلى فلسطين، اغتيل مفوض مقاطعة الجليل على يد إرهابيين عرب فى الناصرة. وقام ويفل بفرض إجراءات صارمة على اللجنة العربية العليا، كما نفى العديد من القادة العرب إلى جزيرة سيشل واختبأ مفتى القدس، الحاج أمين الحسينى،

زعيم المتطرفين وقائد الجماعة الدينية داخل منطقة المعابد وسط المدينة القديمة، ثم هرب مفتى القدس فى النهاية لينضم إلى النازيين فى برلين عملاً بالمبدأ القديم الذى يقول: "عدو عدوى هو صديقى". كانت للنضال ضد الاستعمارية أبعاد دولية، حيث خلف المفتى وراءه فى مكتبة ترجمة عربية لكتيب للجيش الجمهورى الأيرلندى عن محاربة البريطانيين.

كان ويفل فى طريقه لزيارة موقع عسكرى ذات يوم، وهنا لوح نقيب بريطانى شغوف ومتحمس وشجاع يدعى أورد وينجيت من طاقم الاستخبارات لسيارة ويفل كى تتوقف، ثم طرح عليه خطته للتعامل مع العصابات العربية المسلحة؛ تتمثل تلك الخطة فى تشكيل عصابات يهودية مسلحة أو جماعات ليلية خاصة مدربة ومنظمة يتولى قيادتها ضباط بريطانيون، وهنا أعطى ويفل النقيب وينجيت إشارة التقدم ومحاربة النار بالنار. وفى غضون ذلك كتب ديدلى كليرك معبراً عن تقديره العميق قائلاً: "تعلمنا الكثير من الدروس العسكرية من تمرد العرب"، والتى تم تداولها فى وزارة الحرب.

وفى مقدمته لكتاب ديدلى كليرك الأول "المهمات السبع" – (Seven Assignments) كتب ويفل:

عندما كنت قائداً فى فلسطين خلال الفترة بين ١٩٣٧ و١٩٣٨، كان فى طاقمى ضابطان جعلانى أشعر بمستقبل حقيقى وغير تقليدى للجندية... كان أحدهما أورد وينجيت أما الثانى فكان ديدلى كليرك. كان ويفل القائد العام للجيش البريطانى فى منطقة الشرق الأوسط عندما بدأت الحرب العالمية الثانية، حيث عمل على تطوير القوات الخاصة والخداع السرى باختيار أورد وينجيت لحرب العصابات فى إثيوبيا، واختيار ديدلى كليرك للخداع الاستراتيجى.

كان سيفتون ديملر على عكس ديدلى كليرك ضخم الجثة، ذا لحية، وهو المخادع المعروف لدى أغلب الإدارات السرية فى لندن فى فترة الحرب مثل السير "سيلدوم دفتر". ولد دنس سيفتون ديملر الذى عُرفه بين أصدقائه وفى عائلته "بتوم" لأبوين أستراليين فى ٢٤ مايو ١٩٠٤، فى برلين. عمل والده فريدريك سيفتون ديملر أستاذاً

للغـة الإنجليـزية بجامـعـة برلين، وعلى الرغم من أصله الأسـترالى فـإنه حصل على الجنسيـة البريطانية؛ فنشـأ الولد مـتحـدثًا للغة الألمـانيـة فى المنزل، وبسبب كونه فتىً صغيرًا استطاع دنس سيفتون ديملر فى شبابه الاحتفاظ بشىء من اللهجة الألمـانية، ولم يبدأ توم التحدث بالإنجليزية إلا عندما بلغ الخامسة من عمره، عندما اصطحبته أمه مـابيل هوك فى رحلة إلى أستراليا اسـتغرقت ثمـانى عشـرة شـهرًا، بينمـا أكمل فـريدريك ديملر تدريس كتـاب "الأدب الانجليـزى: منذ عـهد بيولف وحـتى برنارد شـو (١٩١١)" – "English Literature: from Bewulf ti Bernard Shaw" (1911)، الـذى أصبح الكتاب المدرسى الأساسى للطلاب فى ألمـانيا.

اضطر الشاب توم ديملر أحيانًا للدفاع عن نفسه بيده فى الفترة التى قضاها فى المدرسة الألمـانية، صالة ألعاب فريدريك ويردرك (١٩١٤–١٩١٦) – لكونه الفتى الإنجليزى الوحيد، ولكن الكثير من الألمـان كانوا يعاملونه بعطف عندما سجن والده لرفضه قبول الجنسية الألمـانية، وقد خفض مـالك الفندق الإيجار، كمـا قام الطلاب بتسديد القروض القديمة، إضافة إلى أن طبيب الأسنان لم يعد يتقاضى أجرًا نظير العلاج ولم تطرده المدرسة لكونه مواليًا للعدو. بعد فترة من الزمن رد توم هذا المعروف، حيث قام بزيارة جيـرانه القـدامى فـى برلين المخـربة والمدمـرة صـيف ١٩٤٥، ووجـد ديملر نفسـه يطأ الحصى مرتديًا زى الجيش البريطانى الفضفاض فى فناء مدرسته القديمة التى غدت مـستشـفى لمرضى الرئة، حيث نادى بأعلى صوته "هير هارى ديجلو"، فـأجـابه رجل يرتعـد على كرسى المرضى. قـدم ديملـر السجـائر وعـبـوة من الشـوكولاتة النادرة إلى هارى ديجلو، ذلك الفتى الذى أنقذه من الضـرب المبرح قـبل ثلاثين عـامًا عندمـا فـرح الشاب توم عند تلقيه خبر غرق البارجة الحربية الألمـانية أيدمن على يد البارجة الحربية الأسـترالية سيدنى.

لم يكن والد ديملر مـتـورطًا بالتـجـسس؛ لكنه وضـع فى سـجن انفرادى فـى ربيع ١٩١٥، وتحـملت العـائلة جـوع شـتـاء عـام ١٩١٦–١٩١٧.. وفى النهـاية تم السمـاح له بمغادرة ألمـانيا إلى هولندا فى ٢٣ مـايو ١٩١٧، تناول توم ذلك اليوم خمسة من الآيس

كريم الدسم فى بوفيه محطة أولدينزال وأصيب بإعيــاء مفاجئ. تذكر تــوم ذلك وهو فى الثالثة عشرة من عمره فى أثناء حديثه إلى ضــابط مخابرات فى القنصلية البريطانية فى أمـستردام؛ عن عدد القطارات الخاليـة المتجـهة نحـو الشـرق والقطارات المكتظة المتجهة نحـو الغرب التى استطا ع أن يحصيها، مؤكداً أن الإمبراطورية الألمـانية كانت تنقل الجنود إلى الجبهة الغربية وكان هذا هو لقــائه الأول وليس الأخــير مع الخدمات السـرية البريطـانية.

استطا ع الغـلام اللاجئ بملابسه الغـريبة التكيف مع الحياة الجديدة (التـجديف وليس لعبة الكريكيت) فى مـدرسة سـانت باول فى هامـرسميث فى لندن، كمـا تعرض منزله القديم بألمـانيا للقصـف من قبل الطائرات جواًا. نجح والده فى اجتياز اختبار ولائه للاستخبـارات البـحرية من قبل العميد البـحرى رينجهال هول، كمـا واصل كتابة مقالاته لصـحيفتى ديلى ميل والتايمز التابعتين للسيد نورثكلف.

يذكر أن ديلمر لم يزر ألمـانيا منذ الحرب العـالمية الأولى وقت أن كان فى ١٧ من عمره. كما قدم إلى وارسو إكسبرس فى كولونيا لمقابلة والده الذى كان يعمل فى ذلك الوقت ضـمن مفـوضيـة الحلفاء المشـتركة لمراقبـة الامتـثال الألمـانى لمعاهدة فـرسـاى الخاصة بنزع السلاح.

انبهر توم الشاب بنظام الحكم الجمهورى بألمـانيا فى ربيع ١٩١٢، وجلس يحتسى الخمر تحت أشعة الشمس بجانب نهر الراين، مشاهداً المتسـولين والمـانحين المتجولين، وشـباباً أقوياء يحملون حقائب ظهر، وفتيـات كاشـفات الجيوب ترتدين فسـاتين درندل ذات الألوان الزاهيـة، يتـغنون بأغـانٍ يعرفـها منذ أيام الدراسة الأولى، حـينهـا علم أن الألمـان لن يقبلوا على الحرب مرة أخرى. كان الكل مسالمًا، فكل شىء جميل، لا للمزيد من الحـرب. ويصف توم تبـخـر هذا الأمل فى كتـابه الذى صـدر فى ١٩٧٢ والمسـمى "فايمر جرمـانى" وهو عبارة عن دراسة لنظـام الحكم الجمهورى "فايمر" الذى استمر مـن ١٩١٨ حـتى ١٩٣٣.

درس ديملر الألمانية فى كلية لينكولن، بجامعة أكسفورد، ولكنه قضى كثيراً من عطلات ١٩٢٠ فى ألمانيا؛ حيث رأى حلم صباه السعيد يذبل. كان العنوان الجانبى لكتابه هو "الديمقراطية تحت التجربة" – (Democracy on Trial) وبداية من الصفحة الافتتاحية، التى يذكر فيها عقد القائد الديمقراطى الاشتراكى فريدريك إيبرت معاهدة سرية مع فرقة تدريب ضباط قوات الدفاع بالجيش الألمانى، قبل هدنة عام ١٩١٨ بيومين، يقول ديملر: إن الديمقراطية الألمانية كانت... "ديمقراطية جوفاء". وفى توضيح هذا يضرب مثلاً فى كتابه عن "جون هارتفيلد" فى صورة توضح ثلاث حشرات على شجر البلوط، حيث يشبه "إيبرت" باليرقة، و"هيندينبيرج" بالخادرة، و"هتلر" بالفراشة. اعتقد ديملر أن الديمقراطية الألمانية كانت مجرد مظهر زائف مؤقت لخداع الحلفاء. "وسوف تتلاشى عندما يتلاشون". كما عرف ديملر أيضًا حقيقة التحالف العسكرى الساخر بين ألمانيا وروسيا. فمنذ عام ١٩٢٤، شيد الألمان أسلحة على أرض روسيا كما قاموا بتدريب القوات العسكرية هناك، وفى المقابل حصل الروس على المهارات التقنية، وبراءات الاختراع الجديدة وعمليات التصنيع.

امتلأ كتاب فايمر جرمانى بالخيانة وخداع النفس. انتشرت ثورة سبارتكوس، والمشعوذين، فى بلد أصيب اقتصاده بالتضخم؛ حيث إذا أردت أن تشترى قطعة من الحلوى فإن نقودك لم تكن تعد وإنما توزن. وعندما زاد التضخم فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣، كان الدولار الأمريكى يعادل ٤٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مارك. اعتقد ديملر أن التضخم كان مقصوداً لمصلحة شخصية، ذلك أن ديون الحرب كان تحتسب بالمارك، فقد أبعد التضخم ألمانيا عن إصلاحاتها، ومن الممكن أيضا أن يلقى باللوم فى ذلك على معاهدة فرساى الفاسدة وعلى الديمقراطية واليهود، كما يصف ديملر كيف أنه بعد أن استقر سعر المارك عام ١٩٢٤، جاءت فترة "ذهبية" للفنون والثقافة استمرت لمدة خمس سنوات وحتى انهيار سوق الأوراق المالية، ولكنه يرى أيضًا أن أعمال فنانى فايمر أمثال جورج غروش وأوتو ديكس هى دليل على موجة الاستياء والوحشية.

بعدما غادر سيفتون ديملر أكسفورد فى صيف ١٩٢٧، عاش مع والديه فى برلين، واستعد لامتحانات وزارة الخارجية ليصبح دبلوماسيًا بريطانيًا، الأمر الذى غير مجرى حياته. وحتى ذلك الحين كان والده يعمل محررًا صحفيًا لعدد من الصحف الأمريكية والبريطانية المختلفة، ولكنه خرج فى إجازة تاركًا ابنه كى يتولى مسئولية نفسه. وعندما حصل توم على خبر من حارس فندق أدلون بأن اللورد بيفربروك قد وصل، اتصل على الفور بمالك ديلى إكسبرس وعرض عليه خدماته، فأجابه صديق تشرشل المتذمر ماكس بصوته الأجش، "احضر لزيارتى".

حضر السير بيفربروك وبصحبته الكاتب الروائى أرنولد بينيت (الذى كتب رواية "اللورد رينجو" – (Lord Raingo) عن بيفربروك كأحد رموز الدعاية فى الحرب العالمية الأولى) وبعض الارستقراطيين الذين لهم علاقة بمشروع الفيلم الذى لم ينتج، مثل فالنتين كستليروز والسيدة فينيتا مونتاجيو والشقراء صاحبة العيون الزرقاء السيدة ديانا كوبر. كان توم ديملر نحيفًا وطويلاً ذا بشرة سمراء يعظم من شأن نفسه ويحب الثرثرة حول ليل برلين الماجن الغريب. وفى وقت لاحق تجول كستليروز حول النوادى الليلية للمخنثين، وطلب بينيت أن يرى بعض المجلات الماجنة والعارية التى أشار إليها الشاب ديملر، وبعد جولة ديملر الثالثة لشراء مجموعة من المجلات الإباحية فى ساحة بوتسدامر، بدأت السيدة التى فى كشك الجرائد تنظر إليه نظرات غريبة. اصطحب ديملر اللورد بيفربروك فى جولة فى برلين وأخبره بأن الألمان كانوا يعيدون تسليح أنفسهم سرًا، وعندما سُئل توم عن ماذا تريد أن تكون، أجاب توم: "أريد أن أكون صحفيًا، يا سيدى"، كتب توم إحدى قصصه تنفيذًا لأمر اللورد بيفربروك، واتصلت سكرتيرة بيفربروك به فى ديلى إكسبرس برسالة من المالك: أخبر المحرر بأننى أنصحه أن يضعها فى الصفحة الأولى... وهكذا حصل سيفتون ديملر على فرصته الأولى وانضم إلى ديلى إكسبرس حيث سيصبح، على مدار الثلاثين عاما المقبلة، مراسلاً خارجيًا أسطورة، وفى غضون عام واحد، وفى خريفه الرابع والعشرين، عاد إلى ألمانيا لإدارة مكتب الصحيفة الجديد ببرلين.

كانت برلين فى العشرينيات منبعًا للقصص الجيدة والعنف والرذيلة بالنسبة إلى المراسل الشاب، فقد وقع فى هياج العصرية المفرطة وجنون الثراء السريع، بينما لم تلقى روح الدعابة التى يتمتع بها ديملر الاستحسان عندما ظهر فى ثوب غريب فى حفل راقص مرتديًا خوذة طفل، وسيفًا مستعارًا وبندقية هواء فى مقدمة فوهتها سدادة من الفلين، ثم كاد يعدم بعد ذلك دون محاكمة عندما أهان الجيش الألمانى، وعندما قدم ديملر عرضه "من أجل المساعدة فى الحرب المقبلة، آن ذاك" تم إجلاؤه بالقسر. كان ديلمر يجيد اللغة الشعبية الألمانية وكان يحب الاستمتاع بالخمر والنساء والاستماع إلى الأغانى؛ ما جعله محبوبًا فى المجتمعات الراقية، بين السياسيين والأثرياء، وفى الحانات والنوادى الليلية. وزع ديملر بطاقات زيارة على كل رجال محطات الوقود فى برلين، ودفع لهم مقابل للمعلومات التى كان يحصل عليها، وكان نظام المهاتفة الألمانى الفعال سر سبقه الصحفى، فكان لديه هاتف فى كل غرفة واستطاع أيضًا إجراء مكالماته بالنوادى الليلية التى كان يزورها؛ ولذلك كان يتمكن من الانطلاق فى لمح البصر إلى مكان الشغب أو مسرح الجريمة ويحقق السبق الصحفى.

شهد سيفتون ديملر بزوغ قوة حزب العمال الاشتراكى القومى الألمانى، فعندما رأى ديملر، فى البداية، أدولف هتلر يلقى كلمة فى قاعة صغيرة فى فبراير ١٩٢٩، انسحب ديملر إلى خارج القاعة؛ حيث كان أدولف هتلر مجرد مهووس بسياسة فايمر، ويرفض البرتقال باعتباره فاكهة دخيلة، ويحث الألمان على أن يأكلوا طعامًا ألمانياً، إلا أنه بعد عام واحد توسع حزب العمال الاشتراكى القومى أو الحزب النازى من اثنى عشر مقعدًا فى البرلمان الألمانى إلى ١٠٧ مقاعد، وعندما ذهب ديملر مرة أخرى للاستماع إلى كلمة هتلر، جلس قريبًا منه قدر المستطاع، منبهرًا بعيون الرجل الزرقاء اللامعة، حيث كان يطأطئ رأسه ويتحدث بصوت مرتفع؛ ما جعل العرق يتدفق إلى سترته الصوف الرخيصة لتبتل بلون أرجوازى داكن. وعندما كان ديملر وسط جمهور الطبقة الوسطى الذين "أشاع فيهم هتلر حالة من البهجة الممتزجة بالعدوان"، لم ينشد ديملر ولم يقدم التحية النازية، فأراد الرجل الذى كان يجلس إلى جواره أن يجلسه قائلاً: "انتظر بعد الجلسة لنعلمك أداء التحية".

بنهاية أبريل ١٩٣١؛ بدأ سيفتون ديملر التعرف على القيادات النازية بصفة شخصية، حيث قدمه شخص مزور إلى الرائد إرنست روم ذلك الرجل البدين ذى الوجه كثير الندبات والذى كان فى ذلك الوقت قائدًا عامًا جديدًا للجناح شبه العسكرى فى الحزب النازى. تذكر روم وهتلر الأيام الخوالى فى ميونخ، عندما ساعد روم فى جمع المال للصحيفة النازية فولكستشر بروبتشر وشغل أول رتبة فى قوات العاصفة مع المتطوعين البافاريين. وخلال مأدبة غداء فاخرة على نفقة صحيفة ديلى إكسبرس، أوضح روم أنه كان يقوم بترحيل العناصر المشاكسة وتحويلهم إلى قوة مدنية منظمة لحمايتهم من الشيوعية الروسية، لكن ديملر وبطبيعة عمله كصحفى علم أنه كان مستهدفًا بمخطط لتأكيد فكرة الغرب والقادة الألمانيين الذين يديرون الأمور على أرض الواقع. وعندما ذكر روم أنه كان يتفقد عرضًا عسكريًا لجنود قوة العاصفة فى برلين تلك الليلة، طلب منه ديملر أن يسمح له بالحضور، فأجاب روم بلطف: نعم يمكنك ذلك يا صديقى العزيز؛ ولكن فى زيك المدنى.

كان هناك نحو ٣٥٠٠ جنديًا من جنود قوة العاصفة فى قصر الألعاب الرياضية، وكان أغلبهم يرتدى القمصان البنية والسراويل القصيرة، إلا أن الساديين ذوى الجفون المتدلية الشقراء والشفاه الحمراء كانوا يرفضون الاستجابة للأوامر. صافح ديملر إدموند هينز وهو قاتل مدان وأحد من يفضلهم روم "سوف يصافح المراسل ذلك القاتل نفسه فى إحدى القصص"، ثم ألقى روم خطابًا يخبر فيه جنود العاصفة بأن وقتهم قد حان، كما دُعِىَ ديملر لمقابلة هتلر فى ميونخ. كان ديملر أول رجل إنجليزى يزور حزب العمال الاشتراكى القومى أو مقر القيادة النازية فى ميونخ بحلول مايو ١٩٣١، وكانت تجرى حراسة مشددة على دان براون هاس من قبل مرتديى القبعة السوداء أو فرقة حماية هتلر. تقابل ديملر وروم مرة أخرى إلى جانب الشخص الأصلع، البدين المعادى للسامية المسمى يوليوس ستريتشر ومحرر الصحيفة العنصرية در ستورمر، كان هذا الرجل يعشق السجق الأبيض والكرنب المخلل اللذين يقدمهما ملهى الجنود. فى قسم الإحصاءات، بما يحويه من الملفات وماكينات هوليريث للبطاقات المثقبة التى تستطيع إخبارك على الفور بالطريقة التى كان يعمل بها الحزب فى أى مكان، تفاجأ ديملر

لمعرفة أن النمسا وإقليم سوديتنلاند التشيكى تتم معاملتهما بالفعل على أنهما جزء من ألمانيا، منذ ست سنوات قبل معاهدة النمسا وسبع سنوات قبل معاهدة ميونخ. عرض المرشد الخاص خريطة موسعة لألمانيا والنمسا محددة بدبابيس على ديملر: "تمثل كل من هذه الدبابيس وحدة عددها ١٠٠ من قوات العاصفة" كما كانت توجد دبابيس حتى فى المناطق الكاثوليكية والشيوعية. وفى الشهر الأخير، انضم نحو ٣٨٥٠٠ فرد إلى الحزب النازى، وكان أعضاء الحزب النازى يتزايدون بشكل متزايد.

تفقد روم وديلمر غرفة كبيرة خاصة بالقائد، بها نافذات طولية وشرفة تطل على الشارع، كان هتلر يقف فى أحد الأركان يتحدث إلى رجل كثيف الحاجبين ذى وجه غريب، إنه رودولف هس، لكن توقف فجأة عن الكلام وتقدم إلى الأمام بحلته الزرقاء مزدوجة الصدر، محدثًا صوتًا بنعل حذائه الجلدى اللامع وأدى التحية؛ عندما فرغ روم من المقدمات صافح هتلر دون تبسم أو تفكير، وقال بالألمانية "كلمات" تعنى: "سعيد بمقابلتك". هنا تحقق ديملر من طبيعة هتلر المألوف بشاربه الصغير، وبشرته غير الطبيعية وشعره الأسود المنسق بعناية قائلاً: "إنه يذكرنى بالجنود البائعين فى عربات السكك الحديد الذين قابلتهم فى رحلاتى عبر ألمانيا"، كان هتلر يتحدث كواحد منهم، لكنهم لم يتحدثوا بهدوء وعطف وطلاقة، وتركيز كالتى يراها ديملر الآن فى أدولف هتلر.

سرعان ما صاح الزعيم منددًا بفرنسا لاضطهادها الألمان، ويذكر أن ديملر تحدث مع هتلر عن إنجلترا، لكنه كان منغلقًا؛ حيث ادعى هتلر أنه يريد التعاون مع بريطانيا وإيطاليا فى ثلاثة محاور كى يهزم البولنديين والفرنسيين، متحدثًا بحماسة عن رابطة الدم الشمالى والمهمة المشتركة، حيث أراد إلغاء تعويضات الديون وأن يكون لهم مطلق الحرية فى الشرق قائلاً: "يجب أن يتم الآن السماح لشعوبنا باستخدام المصادر التى تبددت على يد الإدارة السيئة للشيوعيين". اعتقد ديملر أن هتلر يود أن يسيطر البريطانيون على طرق الغرب بينما يتوجه هتلر ليقضى على روسيا السوفيتية ويتقدم بدولته خطوات كبيرة ناحية الفاشية. فى ذات الوقت قطع حديثهم سمو الأمير أغسطس فيلهلم،

الأمرد ذو القدمين المعقوفتين الابن الثانى للقيصر، حيث تقدم مندفعًا بطريقة غريبة إلى الحجرة يحمل صحيفة من الورق بها حصيلة الأعداد المصابة من قوات العاصفة الذين قاتلوا الماركسيين خلال الأربعة أشهر الأخيرة؛ ٢٤٠٠ قتيل وجريح. حيث صاح "الزعيم القومى": (إنها حرب أهلية!). وعندما انتهى هتلر من المقدمة تلعثم ابن حفيد الملكة فيكتوريا النازى بالإنجليزية قائلاً: "سررت لمعرفتك يا سيد ديملر".

فى ربيع ١٩٣٢، كانت هناك انتخابات رئاسية فى ألمانيا، وفى الاقتراع الأول الذى جرى فى ١٣ مارس، فاز المشير فون هيندينبيرج والديمقراطيين الاشتراكيين بنسبة ٤٩.٦٪ من الأصوات وفاز هتلر النازى بنسبة ٣٠٪، وفاز شيوعيو ثالمان بنسبة ١٣٪. يعنى عدم حصول أى من المرشحين على الأغلبية المطلقة، الإعادة فى ١٠ أبريل ١٩٣٢، وقد دعا هتلر سيفتون ديملر لمصاحبته فى جولة حول ألمانيا خلال حملته الانتخابية.

علم أدولف هتلر كيف يستغل لغز القوات الجوية، وبعد مرور عامين أبطأ افتتاح فيلم الدعاية لينى ريفنستال النازية "انتصار الإرادة" فى لفت الأنظار إلى طائرة هتلر المتجهة نحو نورمبرغ. كانت وظيفة ديملر فى الرحلة الجوية تلك جزءًا من مداهمات وسائل الإعلام وتم ترتيبها بشكل حصرى عن طريق رجل العلاقات العامة لهتلر إرنست "بوتزى" هانفستنجل. تأهب هتلر أن يأخذ ديملر على متن الطائرة لأنه يتحدث الألمانية بطلاقة دون الحاجة إلى مترجم.

غادرت طائرة هتلر مدرج مطار تمبلهوف صباح ٥ أبريل، وكان يومًا مطيرًا، وظهر جوزيف غوبلز القزم، فى سيارة مرسيدس كبيرة بنية اللون، يرتدى معطفًا واقيًا من المطر وقبعة ذات حواف، وبرفقته ماجدة غوبلز الضاحكة بقبعة فارسية سوداء فاخرة ومعطف يظهر شعرها الأشقر وعيونها الزرقاء. وصل هتلر فى سيارتى مرسيدس سوداوين مليئتين بحراس معسكر قوات الأمن الخاص، بقيادة سب ديتريتش، وكانت تفوح من الطائرة رائحة المطاط والبنزين. أنهت الحاشية المتملقة خدماتها، وهنا شاهدت ديملر هتلر مسترخيًا على كرسيه، سادًا أذنيه بقطن طبى لتوقى

صوت المحركات الثلاثة، فاترًا ومكتئبًا حاله كحال البائع الذى يتملق الناس وهم لا يريدونه. عندما تم فتح باب الطائرة، اندفع هتلر على السلم باعتباره القائد، وصور نفسه باختيال كأنه "لودندورف"، وعندما ارتفعت صيحات الترحيب، تقنع بقناعه الثانى حيث بدا كالمسيح بعينين واسعتين. عرف ديلمر التألق الموجود بعينى هتلر منذ أيام الدراسة، والآن يعود أدولف هتلر الشاب فى معطفه إلى تألقه السابق. ذُهل ديلمر بمجموعة كبار الشخصيات المحلية الألمانية الذين جاءوا ليرحبوا بالمرشح، الشرطة والجيش والسلطات القضائية والإدارية، حيث لقبه الجميع: بـ "الزعيم القومى". راح ديلمر يراقب هتلر وهو يتقلد الروح العاطفية تارة ويتركها تارة أخرى كممثل بارع، إلا أن جاذبية هتلر لم تفز هذه المرة فى انتخابات أبريل، فقد حصل المشير فون هندنبرغ على ٥٣٪، على الرغم من ارتفاع عدد الأصوات المؤيدة النازية لتصل إلى ٣٦٪، حيث أدلى الملايين من الناس بأصواتهم مؤيدين هتلر. وبعد ثلاثة أشهر، وفى يوليو ١٩٣٢، فازت النازية بعدد ٢٣٠ مقعدًا فى مجلس النواب الألمانى مقابل ١٣٣ مقعدًا للحزب الاشتراكى الديمقراطى و٨٩ مقعدًا للشيوعيين.

فى اليوم الأول من رحلة الطيران، فقد ديلمر حقيبته الليلية فى كونيغسبرغ، وكان ديلمر يتحدث إلى كل من هتلر وغوبلز على رصيف السكة الحديد عندما اصطحبه الملحق الصحفى بوتزى هنفستانجل جانبًا مبتسمًا وأشار إلى شخص يمسك بحقيبته. كان ديلمر على وشك أن يعطى الرجل ماركًا على سبيل البقشيش؛ لكن بوتزى أسرع قائلاً: هذا هو السير هاينريش هيملر، رئيس أجهزة هتلر الأمنية. وفى تلك الأثناء أخذ هيملر يفحص الحقيبة خوفًا من وجود قنابل أو أجهزة تفجير أخرى.

تم إقحام سيفتون ديملر بوصفه صحفيًا فى المؤامرات النازية والمؤامرات المضادة، مثل الخداع والخداع المزدوج، حين كان يواصل القادة طريقهم إلى السلطة، ما جعل مثل تلك الأشياء تشكل قصصًا شيقة لصحيفة ديلى إكسبرس، وهنا تشكك النازيون حول إذا ما كان سيفتون ديملر جاسوسًا بريطانيًا على اتصال مباشر بالحكومة البريطانية، فيما اعتقد بعض البريطانيين أن ديملر كان جاسوسًا نازيًا، كما اعتقد

بعض أنه كان عميلاً شيوعيًا. لم يثق كثير من الناس فى ديملر، لكن الواقع يقضى بأنه نادرًا ما يحوز المراسلون الجيدون الثقة فى المواقف الخطيرة. لم يكن سيفتون ديملر نازيًا أبدًا، بل كان مجرد صحفى يبلغ من العمر ٢٨ عامًا حالفه الحظ.

كثف النازيون ضغوطهم عام ١٩٣٢ على المستشار فرانز فون بابن، والذى حل محله كورت فون شلايخر فى شهر ديسمبر. أدت حرب الشوارع التى دارت بين الشيوعيين والنازيين إلى انهيار الحكومة البرلمانية بقيادة فون هيندينبيرج البالغ من العمر ٨٥ عامًا، مما اضطره إلى أن يعمل على حل المشكلة بتعيين أدولف هتلر مستشارًا لألمانيا - أى ما يعادل منصب رئيس الوزراء الألمانى فى ٣٠ يناير ١٩٣٣، وأخبر الدبلوماسيون ديملر بأن هتلر أصبح مستشارًا تعادل سلطته سلطة فون بابن الذى صار الآن حاكم بروسيا المبجل، ويمكنه الوصول إلى فون هيندينبيرج، لكن هيرمان جورينج، التابع المخلص لهتلر منذ ١٩٢٢، كان وزير داخلية بروسيا، وكان يعمل على أن تكون قوة الشرطة كاملة من النازيين، وكلما ضاقت الأمور بهتلر، كان يجد حلولاً لها لدى صديقه ضخم الجثة جورينج.

فى ٢٧ فبراير ١٩٣٣، قطع سيفتون ديملر مسافة ميل ونصف من مكتب صحيفة ديلى إكسبرس حتى مبنى البرلمان، حيث جاءته معلومات سرية من أحد رجال محطة الوقود تفيد بأن مجلس النواب الألمانى يحترق، وصل ديملر مجلس النواب الألمانى فى تمام الساعة ٩,٤٥ مساءً، بعد إطلاق جرس الإنذار بأربعين دقيقة. كان الدخان واللهب يخرجان على شكل قمع من القبو الزجاجى، وتتابع وصول سيارات الإطفاء، وقد أخبره شرطى فى حالة من الذهول إنهم ألقوا القبض على أحد الرجال الذين قاموا بهذا الحادث. لم يكن الرجل يرتدى شيئًا سوى سرواله، فيبدو أنه استخدم معطفه وقميصه ليشعل الحريق، ولكنهم ما زالوا يبحثون عن متواطئين آخرين. وصل ديملر إلى البوابة الثانية لمدخل مجلس النواب الألمانى وقت صعود هتلر الدرج، وصل الاثنان فى آن واحد، حيث كان هتلر يرتدى معطفه الواقى وقبعة الفنانين السوداء، ويتبعه غوبلز والحاشية. سأل ديملر: "هل تمانع من أن أصعد معهم أيضا؟"، فأجابه حراس هتلر بابتسامة

عريضة قائلين له: "جرب حظك!"، فقال هتلر: "مساء الخير يا سيد ديملر"، وكانت هذه بمثابة تذكرة القبول.

وقف ديملر ينصت بلهفة عندما قال جورينج إلى هتلر: "هذا عمل شيوعى دون أدنى شك، سيدى القائد". وواصل قوله: "كان هناك عدد من النواب الشيوعيين متواجدين فى المبنى قبيل اندلاع الحريق بعشرين دقيقة"، فسأل هتلر: هل المبانى العامة الأخرى آمنة؟ فأجاب جورينج أنه وجه الشرطة لحراسة المواقع المهمة، إلا أن ديملر كان متأكداً أن هذا لم يكن بيت القصيد، بل كانت المخاوف تنتاب جورينج وهتلر حول احتمال القيام بانقلاب من قبل الشيوعيين.

انطلق الجميع فى جولة حول مبنى البرلمان الذى ما زال يحترق وسط برك من المياه وحطام متفحم، التقط جورينج بعض القطع المحترقة من الستائر كدليل على "أنهم" وضعوا ملابس مبللة بالبنزين على الأثاث. اعتقد ديملر أن كل هذا كان من الممكن أن يحدث بفعل رجل واحد، ثم وقفوا ينظرون إلى غرفة المناقشات التى تحترق وتندلع النيران من قبتها. ولم تستطع خراطيم رجال إطفاء الحريق التغلب على النيران المتوهجة مثل التنور. تأخر هتلر ليمشى مع ديملر قائلاً: "إذا كان هذا من عمل الشيوعيين، فستشهد بداية عهد جديد عظيم فى تاريخ ألمانيا يا سيد ديملر، وسيكون هذا الحريق هو البداية"، وهنا تعثر هتلر فى خرطوم مياه ثم اعتدل قائماً وقال: "لو حكم الشيوعيون أوروبا وسيطروا عليها لمدة ستة أشهر، بل قل شهرين ماذا أقول؟ سوف تصبح القارة بأكملها ألسنة من اللهب مثل هذا المبنى!".

وفى الطابق الأول قابلوا فرانز فون بابن العائد لتوه من هيرينكلب؛ حيث كان يتناول وجبة العشاء مع رئيس هيندينبيرج. كان ديملر يفكر بصفته إنجليزياً تخرج فى مدرسة عامة، يركز على الاختلاف الطبقى بين الاثنين؛ ففون بابن شخصية أرستقراطية إلى حد كبير، يرتدى معطفاً رمادياً جميلاً من الصوف فوق سترته الرسمية، ووشاحاً ذا لونين أبيض وأسود حول عنقه وقفازاً؛ إضافة إلى قبعة هامبورج يمسكها فى يده، بينما يرتدى هتلر معطفه الواقى وقبعة سوداء ناعمة على رأسه

يتحدث باللغتين الألمانية والنمساوية حول سحق الشيوعيين. مد فون بابن يده مصافحًا هتلر بحرارة، حيث أخبره هتلر بأنه سعيد على الأقل بسبب إنقاذ مفروشات غوبينز ومكتبة البرلمان الألمانى. وجه هتلر الدعوة إلى فون بابن لحضور مؤتمر حول سياسة الإجراءات التى يجب أن تتخذها الشرطة، ولكن فون بابن رفض الدعوة بأدب، مضيفًا أن عليه أن يخبر أولاً الرئيس هيندينبيرج.

توقع ديملر أن تُهنئه صحيفة ديلى إكسبرس على سبقه الصحفى العالمى، إلا أن ذلك لم يحدث عندما هاتف لندن، فقد سأل: "هل المقالة جيدة؟"، منتظرا الإشادة، فأجابه المحرر الثانوى: "أعتقد أنها جيدة لكننا لا نريد كل هذا الإطناب السياسى، فنحن نريد معرفة المزيد عن الحريق، حيث تعلن يونايتد برس أن هناك نحو ١٥ فرقة إطفاء فى الموقع الآن وأن القبة قد انهارت".

لم يصدق ديملر أن الشيوعيين هم من دبروا حريق مجلس النواب الألمانى، كما يدعى النازيون، أو أن النازيين أنفسهم هم من دبروا هذا الحريق كما يدعى الشيوعيون، حيث اعتقد ديملر أن الهولندى مارينوس فان دير لوب، غريب الأطوار، (الذى تم إعدامه فيما بعد لضلوعه فى الحادث)، من المحتمل أن يكون هو المسئول عن الحادث. إلا أن هتلر بالتأكيد كان فى حاجة إلى ذلك النوع من الأحداث لتبرير هجومه على أعدائه، وفى غضون ساعات تمت مداهمة المقر الرئيسى للحزب الشيوعى من أجل العثور على أدلة على تورطهم فى الحادث. وألقت الشرطة القبض على أعضاء البرلمان الشيوعيين وقادة اتحاد العمال، جنبًا إلى جنب مع الأطباء والمحامين والكتاب اليساريين. وفى صباح ٢٨ فبراير ١٩٣٣، وعندما تصدرت العناوين الرئيسية للصحف "المؤامرة الشيوعية" أعلن هيندنبرغ مرسوم الطوارئ لحماية الشعب والدولة وفقًا للمعلومات التى وضعها كل من هتلر وفون بابن أمامه.

حدث ذلك عندما انتهى نظام فايمر الجمهورى. فكان مرسوم إلغاء حرية التعبير وخصوصية النشر والبرقيات بمثابة إعدام للديمقراطية الألمانية ووضع معالم ميلاد دولة شرطية، فالشرطة الآن تتمتع بحق غير مقيد فى البحث، والقبض والمصادرة، فلا يمكن التصدى للنازيين الآن.

قابل سيفتون ديملر ونستون تشرشل للمرة الأولى والوحيدة وجهًا لوجه فى مارس ١٩٣٢، فى أعقاب حريق مجلس النواب الألمانى. وبما أن تورى يتفق فى وجهات النظر مع كيبلينجسج، كان ديملر معجبًا جدًا بتشرشل. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن لقاؤهم فى منزل اللورد بيفربروك فى لندن، ستورنواى هاوس ناجحًا. حيث قام مدير ديلى إكسبرس الكاتب فرانك أوين بتعريف الرجلين بعضهما بعض بصورة رسمية بعد العشاء. كان تشرشل يحمل كأسًا من خمر البراندى فى يد وسيجارًا كبيرًا فى اليد الأخرى، وكان أحمر الوجه قاسيًا فى حديثه إلى أوين عن الهند، حيث كانت آراء تشرشل عن الهند رجعية واستعمارية لذا كان يكره غاندى لأنه محام يميل إلى إثارة الفتن، ويتظاهر الآن بأنه ناسك، كما قال تشرشل ذات مرة بأن "الهنود والألمان هم أكثر الشعوب همجية فى العالم".

لم تكن لديملر أى خبرة بالمكان، ولذلك بقى صامتًا ثم جاءته الفرصة ليشارك فى الحديث قائلاً: كثيرًا ما سمعت آراء أدولف هتلر حول هذا الجانب من المشكلة سيدى...، فاتجه تشرشل إليه، والغضب يحترق فى عينيه الزرقاوين: "هذا مستحيل يا رفيق هتلر! أنا لا أريد أن أسمع أى شىء عنه"، ثم سكت. كان ديملر يعتقد أن رجل السياسة ينبغى عليه أن يبدى استعداده لتبادل الأفكار، لا سيما أنه يعرف أن تشرشل كان قد حاول دون جدوى أن يقابل هتلر، وتحديداً عندما زار ميونخ العام قبل الماضى. وكان نجل تشرشل راندولف قد اتصل بوتزى هنفستانجل يدعوه لتناول العشاء، ولكن هتلر رفض عدة مرات. وفى النهاية جاء الملحق الصحفى وحده حيث أربكه تشرشل بشأن آراء هتلر المعادية لليهود، حيث قال له تشرشل: "أبلغ رئيسك عنى أن معاداة السامية قد تكون بداية جيدة، لكنها دعاية سيئة". وبعد تناول العشاء، سأل تشرشل هنفستانجل بهدوء عن طبيعة شعور رئيسه حيال التحالف بين ألمانيا، فرنسا وبريطانيا ضد روسيا.

غادر سيفتون ديملر ألمانيا بعد أن وصفه بيفربروك بأنه أفضل مراسل أجنبى، وأن الجريدة لم تشهد شخصًا أفضل منه، كما أخبره بأنه فى حاجة إلى اكتساب خبرة

بالعمل فى باريس ونيويورك ليكون صحفيًا دوليًا. عرف ديملر أنه سيفقد اتصالاته فى برلين، فأين يمكن لببغائه المسمى بوبيتشكا أن يسقط روثه الأبيض على سترة السهرة الخاصة بالمارح هيرمان جورنج؟ وفى واحدة من آخر أمسيات ديملر فى برلين، أحضر إرنست روم هاينريش هيملر لتناول العشاء وللحديث عن معسكرات الاعتقال التى أصبحت فى ازدياد مستمر. كان جوزيف ستالين قد بدأ بالفعل فى روسيا توسيع نطاق ونظام عمل معسكرات الاعتقال التى أخذها من القياصرة، ونظام هتلر (وتقليد الماركسيين الذين يظنون حسب اعتقادهم أنهم قد مُقتوا مقتًا شديدًا، حسب ما يقول فيكتور سيرج) الذى شيد مبنى خاصًا يتبع معسكرات الاعتقال للتعامل خصيصًا مع العدو. كان هاينريش هيملر قائد الشرطة فى بافاريا وكان قائدًا فظًا، وقد أنشأ مؤسسة نموذجية ذات طابع سيئ فى مكان يدعى داخاو، لكنه أصر على أن كل التقارير التى سجلت حول أعمال الوحشية كانت مفبركة.

فأجابه ديملر، إذا كانت هذه هى الحال فلم لا تتركنى أقضى بضعة أيام هناك؟ اتركنى أُعامل كأسير حرب، لننظر ماذا يحدث لى... ماذا تقول؟

علق هيملر على ذلك قائلاً: إنها فكرة جيدة وسأرتب لها.

وهنا ضحك روم قائلاً: "يا لها من فكرة بارعة، سوف تعايش العملية برمتها بداية من الضرب المبرح إلى آخر لدغة، لحظة تلقيك رصاصة أثناء هروبك"، فانفجر الجميع ضحكًا وملئوا كأسًا آخر من الفودكا، ورفع هيملر كأسه بتغطرس.".

تخيل ديلمر مقالاً بعنوان، "ديملر فى داخاو"، متى نستطيع أن نقوم بذلك يا سيد هيملر؟ أيمكن أن نفعلها فى نهاية هذا الأسبوع؟ فتردد هيملر ثم قال: أفضل أن يكون ذلك بعد عيد الفصح، وعندما اتصل ديلمر هاتفيًا يوم الثلاثاء بعد عيد الفصح، أوضح المعاون قائلاً: يجب أن تؤجل الزيارة بسبب تفشى وباء الكوليرا، وعلى التو تراءى لديلمر عنوانا رئيسيًا جديدًا هو: "الكوليرا فى داخاو". والآن بدأت ثقة ديلمر فى الشباب الذين يتحكمون فى السلطة تنفد.

انتقل ديلمر إلى باريس، لكنه لم يستطع التخلص من ميوله نحو الشئون الألمانية. وفى يونيو ١٩٣٤ كان فى مدينة البندقية ليشهد الاجتماع التاريخى الأول بين هتلر وموسولينى، حيث تحصل على معلومات سرية تفيد بأن إرنست روم الذى كان اختلف مع هتلر هو يخطط الآن لمؤامرة مع كورت فون شلايخر، فسافر إلى لندن ليطلع اللورد بيفربروك بما حدث، لكن بيفربروك أخبره بأن المستشار الألمانى السابق، الدكتور برونينج، قال فى زيارة سرية إلى لندن: إن هناك محاولة ستتم قريبا للإطاحة بهتلر واستبدال حكومة المحافظين العسكرية.

عاد ديلمر إلى ألمانيا بعد عام، حيث وجد أن خليفته بيمبروك ستيفنز قد طرد من مكتب ديلى إكسبرس فى برلين بألمانيا لكشفه معلومات عن خطط إعادة التسليح السرية الخاصة بجورنج. ظهر ذلك بشكل منتظم على صفحات الصحافة حول نزع سلاح الجيش الألمانى بموجب اتفاقية فرساى التى تقضى بتنفيذ عمليات التدريب على دبابات مقلدة ومدفعية خشبية، لكن الألمان قاموا بإخفاء الأسلحة والمدافع والدبابات الحقيقية. اكتشف ديلمر أن معلومات بيفربروك كانت صحيحة تماماً، حيث أراد فون بابن وحزب المحافظين استخدام هيندينبيرج ومعه الجيش للإطاحة بهتلر واستعادة النظام الملكى لأسرة هوهنزولرن. على الناحية الأخرى، كان تحالف جورنج وهيملر معارضاً لهم، وقد أصبحت السيطرة الكاملة على قوات الأمن الخاصة فى زمام هيملر الآن، بينما كان يقف على الحياد روم وقوات العاصفة التى تمثل مصدر إزعاج، وبعدها أراد إرنست روم أن يضم ثلاثة ملايين جندى من قوات العاصفة الذين هم تحت إمرته وطوع إرادته إلى الجيش، لكن الجيش كره هذه الفكرة بسبب الشذوذ الجنسى لروم وجنود قوات العاصفة غير المنضبطين؛ وبدأت مرحلة المواجهة.

كانت ليلة ٣٠ يونيو ١٩٣٤؛ "ليلة الأسلحة البيضاء الطويلة" تشبه مشاهد أفلام العصابات التقليدية عندما تتم تسوية حسابات كثيرة فى معركة دامية واحدة، حيث قام هتلر شخصياً بذبح صديقه القديم روم، ليبعد قيادة قوات العاصفة عن منافسه المحتمل، وفى الوقت نفسه يكون قد نال رضا القوات المسلحة النظامية، لكن هتلر أطلق

النار على الجنرال فون شلايخر وزوجته، وذلك ما اعتبره السكرتير فون بابن وكاتب الخطابات، بمثابة تحذير شديد اللهجة للجيش عن مدى قسوة قلب هتلر. ولا أحد يعرف بالضبط عدد عمليات القتل والإعدام التى تمت هناك، ولكن سيفتون ديلمر أصدر قائمة تضم .حو ١٠٨ أسماء فى الصحيفة اليومية ديلى إكسبرس؛ ما جعل البوليس السرى النازى يطلب منه مغادرة البلاد.

وعندما توفى هيندينبيرج فى ٢ أغسطس ١٩٣٤، ادعى أدولف هتلر أنه قائد ومستشار ألمانيا، الأمر الذى جعل ألمانيا دولة حزب واحد وتحت قيادة ديكتاتورية. وفى الفترة من ٤-١٠ سبتمبر ١٩٣٤ دخل حزب العمال الاشتراكى القومى الألمانى المسرح السياسى فى نورمبرغ، ما جعل الأمر كبيراً بالنسبة إلى المراسل الصحفى الأمريكى وليام شيرر الذى عاد لتوه إلى ألمانيا؛ حيث صدم لتحول العديد من المفكرين الأحرار الألمان الذين كان يعرفهم أثناء نظام الحكم البرلمانى إلى نازيين متعصبين، كما رأى شيرر الحشود الصارخة من الجماهير تقع مغشياً عليها فى نشوة دينية عند رؤية هتلر، وسمع أيضًا التصريحات التى تقول: إن الحكومة الألمانية النازية ستستمر لألف عام، إضافة إلى سب ولعن وشتم اليهود والشيوعيين، كما شاهد بأم عينه ٥٠٠٠٠ من أعضاء حزب العمل الجديد، يقومون بالتدريبات العسكرية بالمجاريف اللامعة بدلاً من الأسلحة النارية بسبب منع معاهدة فرساى لهم. وكره شيرر الطريقة الهستيرية التى تصرف بها نحو نصف مليون شخص، غير أنه كان يحترم ذلك.

كان ديدلى كليرك أيضًا موجوداً فى شوارع نورمبرغ فى شهر سبتمبر ذاته؛ يزور ألمانيا أثناء قضائه الإجازة الكبيرة للسنة الدراسية الثانية فى كلية أركان الجيش فى كمبرلى، حيث تعجب كيف استطاع النازيون حشد ما يقرب من ٥٠٠ قطار من مسئولى الحزب، وحزب العمل وقوات العاصفة ومؤيدى هتلر من جميع أنحاء البلاد.

شاهد ديدلى كليرك هتلر وهو يمر واقفًا فى سيارة مرسيدس كبيرة تسير بسرعة فائقة وتحيط بها سيارات الحراسة، حيث كان من المستحيل على القناص البارع أن يصوب نحوه طلقة من أى جانب، هذا فيما قامت لينى ريفنستال بتصوير فيلم

"انتصار الإرادة" - (Triumph das Willens) للحزب النازى بنورمبرغ. وقد استخدمت فريقًا كبيرًا بلغ قوامه ١٧٠ شخصًا إضافة إلى كاميرات متعددة الزوايا، ومونتاج لحركات الانسجام والمطابقة حتى تصل فى النهاية لإخراج فيلم الدعاية النازية، حيث كان كل شيء متناغمًا. كان فيلمها الذى صدر فى وقت سابق قد تعرض لمشكلات بسبب الشخص البدين ذى الندبات إرنست روم الذى لم يعد موجودًا الآن. توقف المشهد الأخير من الفيلم الجديد عند استعراض عسكرى ضخم لرجال قوات العاصفة وهم يستمعون إلى خطاب هتلر الذى يعفيهم من المسئولية عن "الظلال القاتمة" التى تسبب فيها روم. وفى نهاية المطاف هتف رودولف هس بصوتٍ عالٍ: "الحزب هو هتلر، وهتلر هو ألمانيا، و ألمانيا هى هتلر ذاته!"

هذا وقد تم إخراج فيلم انتصار الإرادة بنفس طريقة فيلم بوسبى بيركلى الدينية الكاذبة داخل مبنى ضخم أسسه ألبرت سبير فى موقع مناطيد نورمبرغ، حيث جرى عرضه الأول المتألق فى أوفا - بلاست بمدينة برلين، فى ٢٨ مارس ١٩٣٥. إنها أغنية لينى ريفنستال المحببة إلى أدولف هتلر وواحدة من أروع أعمال الدعاية. وقبل شهر، قام النازيون بتمزيق معاهدة فرساى العسكرية إعلانًا للتحدى، وبعدها كشفت ألمانيا عن قوتها الجوية التى تساوى القوة البريطانية، وأعلنت التجنيد العسكرى الإلزامى.

لم يستطع سيفتون ديلمر الذى كان يغطى وقتها الحرب الأهلية الإسبانية عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧، أن يترك قضية الألمان الذين كانوا يساعدون سرًا الجنرالين المتمردين القوميين، فرانكو ومولا. وبعد يوم واحد من إعلان فرانكو ثورة وتمرد اليمينين ضد دولة وجمهورية إسبانيا اليسارية فى يوليو ١٩٣٦، انطلق ديملر إلى إسبانيا من باريس فى سيارته المكشوفة فورد (فى٨) برفقة آلته الكاتبة وزوجته إيزابيل وألوانها وحامل اللوحات الخاص بها والقط السيامى بيلبول. ففى بداية الأمر، غطى ديملر حملة مولا القومية، حيث شاهد سيارات محترقة، وجثثًا متفحمة وأشلاءً متناثرة فى ممر ساموسيرا، كما شاهد السجناء شاحبى الوجه يرتجفون رعبًا وهم يساقون إلى حتفهم رميًا بالرصاص، إضافة إلى نهب مدينتى سان سيباستيان وايرون. لكن ديملر سرعان ما طرد،

حـيث إن الألمـان قادمـون، واعتـقد القـوميين أنه كان جاسوسًا بريطانيًا لا يريدون تواجـده فى الوقت الذى يهبــط فـيـه فـيلق كـوندور الألمـانى سـرًا مـتـحـديًا قـرار عـدم التدخـل.

عندما وصل ديلمر إلى مدريد على متن حافلة لتقديم تقارير من الجهة الأخرى، الجمـهوريين، فى بداية شتـاء عام ١٩٣٦، كانت الحكومة الجمهورية المنتخبة قد فرت هاربة إلى فالنسيا للنجاة من بطش القوميين التابعين لفرانكو الذين كانوا يحاصرون المدينة، حيث كانت مدريد فى هذا الوقت تستـعر حربًا. ومـرة أخرى ينظر إلى ديلمر كمشتبه به، فهو يعرف شخصيًا القائد الذى بدأت طائراته التابعة لسلاح الجو فى إسقاط القذائف على العاصمة الإسبانية. وقد ذكر عنه أحد المتعصبين من الفرقة الدولية عن ديلمر "أنه نازى محب للدماء"، وأجاب بريطانى آخر: كان يعرف سخاء ديملر فى الغذاء والسـجـائر والمشـروبات والمـال الذى كـان يقـدمـه للجـيش الدولى: "إذا كنت شيـوعيًـا، فسأكون نازيًا دمويًا مثله".

انتـقل ديملر فى مطلع عـام ١٩٣٧؛ إلى فندق فى ولاية فلوريدا يطل على سـاحـة كالاو فى غران فيا، "وهو أفضل فندق من حيث المتعة والمرح والمغامرة على الإطلاق". وفى الحـمـام ثبت ديملر بارًا خزن فـيه النبيذ والكحول المهرب من مـخـزن خـمـر الملك ألفونسو الثالث عشر، بينما قام بشراء الخمر الرخيص منها من حانة تدعى الأناركية قبالة بويرتا دى سول. كان ديملر يحب شرب الخمر بعد أن يفرغ من عمله، وقد ظنت الصحفية الأمريكية فيرجينيا كولز أن فندق فلوريدا به وكـر دولى يتردد عليه "المثليون، العـمـلاء السيـاسيـون، الأوغـاد، المغــامرون، المتـربصــون، المتـعـصـبـون، المتـآمرون، السذج والخـارجون على القـانون"؛ حيث دخل العديد منهم غرفـة توم التى بها مـواقد كهربيـة وأطباق حـرارية، ولحم خنزير وعلب أسـمـاك ورقـائق البسكويت. كـان من بين الصـحفيين الذين يتجمعون هناك بعد السـاعة الحـادية عشرة مساءً عندما ينتهون من الانتظار طويلاً لتقديم أخبارهم وقصصهم عبر الهاتف من تليفونيكا، وهو أعلى مبنى فى مدريد – إرنست همنغواى من صحيفة حلف شمال أمريكا ومـارثا جلورن من كولير،

كان ديلمر يطفئ النـور ويفتح النوافذ ويقـوم بتشغيل مقطـوعة بيتهوفن الخامسة على الفونغراف المواجه للريح عندما ترتفع درجة حـرارة الجـو، بينما يتوالى الرفاق فى الدخول إلى الغرفة حتى الثانية أو الثالثة من صباح الغد، ولكنهم توقفوا جميعًا عندما سقطت قذيفة على الغرفة، ولم يكن أحد منهم موجوداً بداخلها آنذاك.

ازداد وزن ديلمر مرة أخرى بعد أن كان فقد رطلين من وزنه فى منتجع صحى ألمانى، ولم يعجبه حينها منظره وشبه نفسه بصبى بدين كئيب، يرتدى ثوبًا رماديًا منكمشًا باليًا قذرًا، له حاجب كثيف أشيب، ومعطفًا من الجلد وسترة كاكية اللون، وإذا اشتدت الشمس، ارتدى قبعة واسعة الحواف المصنوعة من القش من النوع الذى يرتديه الفلاحون البروفنساليون حول مدينة آرل التى اشترى قبعته منها.

أزعج ذلك الزى كونستانسيا دى لا مورا فى مكتب الصحافة الأجنبية التى اعتقدت أن تلك القذارة تنم عن عدم احترام الجمهورية الإسبانية. وفى مذكراتها قالت: لا أحد يحب أو يثق برجل صحيفة ديلى إكسبرس، وأنها لا يروق لها روح دعابته: "كان ديلمر دائمًا ما يتحدث ويتصرف كما لو كان الإسبان قبائل غرباء وهمجيين يخوضون معركة سخيفة وبدائية بالأقواس والسهام.

كان مما يدل على براءة سيفتون ديملر اعترافه بأنه لم يتوقع حدوث اتفاقية نازية سوفيتية. وعندما ذهب ديملر إلى روسيا مع وفد تجارى بريطانى أواخر مارس ١٩٣٩، أخطأ فى فهم الاتحاد السوفيتى؛ حيث اعتقد أنه بسبب الفوضى وعدم الكفاءة لا يمكنه أن يحارب أو يحشد قواتًا مسلحة. وأصابت معاهدة عدم الاعتداء "الساخرة" بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ بريطانيا وفرنسا بالدهشة كما أحبطت بولندا. وبعدها شنت القوات الألمانية غزوًا من جانب واحد فى ١ سبتمبر، ثم قام الروس بعد ذلك بأسبوعين بشن غزو من جانب آخر، واتحد البوليس السرى النازى مع منظمة البوليس السرى السوفيتى (وقوات البوليس السرى السابق للاتحاد السوفيتى)؛ حيث كتب إيفلين بهذا الصدد يقول: "يفر السجناء فى الشرق والغرب من الرق".

كان أفضل شيء فى رحلة روسيا بالنسبة إلى ديملر، هو تكوينه صداقة مع مراسل صحيفة تايمز أثناء رحلة قطار من وارسو إلى موسكو، وكان هذا الشخص طويل القامة مبتهجًا له أنف مكسورة، يسمى إيان فليمينغ. تقاسم الصحفيان جناحًا بفندق ناشونال، العتيق المتع المواجه لمبنى الكرملين، وشربا الفودكا واصطحبا فتاتين من أوديسا، ومن خلال فليمينغ حصل سيفتون ديلمر على دوره المحورى فى الحرب السياسية والدعاية السوداء عندما اندلعت الحرب.

(١٣)

رفـــع الســتـــار

كانت كلير هولينجورث تفكر دومًا في التهرب، وهي عميدة نادي هونج كونج للمراسلين الأجانب، وقررت الهروب في وقت مبكر من مدينة ليسترشاير العتيقة، وتطلع على الدول الأجنبية التي كانت تحتفظ بخرائط لها عثرت عليها من صحف الحرب العالمية الأولى كأي طفل صغير. تركت كلير مراهنات سباقات الخيول ولعبة اصطياد الكرات لتلتحق أولاً بقسم الدراسات السلافية في جامعة لندن تحت إشراف البروفيسور آر دبليو سيتون، واطسن - الذي كان شخصية بارزة في الدعاية لكرو هاوس أثناء الحرب العالمية الأولى - ثم التحقت بعد ذلك للعمل في عصبة الأمم المتحدة. كانت كلير في السابعة والعشرين من عمرها عندما قام رئيس تحرير ديلي تلغراف بشارع فليت عام ١٩٣٩ بتعيينها مراسلة صحفية للجريدة في بولندا؛ حيث كانت قد عملت مسبقًا في العاصمة وارسو ومدينة كاتوفيتسه لمساعدة اللاجئين الفارين من ألمانيا النازية في الحصول على تأشيرات سفر. كانت القارة على مشارف حرب أخرى، كما كان تعيين هولينجورث أول صحفية محترفة له أثرًا في جعلها من بين القليلين الذين حققوا سبقًا صحفيًا في هذا القرن. وفي صباح اليوم التالي سافرت من مطار هندون إلى وارسو عبر برلين ومعها حقائب سفر اشترتها من محلات هارودز.

وافق يوم السبت ٢٦ أغسطس ١٩٣٩؛ مرور خمس وعشرين سنة على انسحاب قوات الحملة البريطانية من مونس في بداية الحرب العالمية الأولى، وهذا ما أخر الغزو الألماني ولو لفترة بسيطة بعد معركة لو كاتيو، كما وافق أيضًا ذلك اليوم الذكرى

السنوية لمعركة كريسى؛ وهى واحدة من أشهر المعارك التى اصطحب فيها والد كلير هولينجورث فتاته الصغيرة، وكان هذا اليوم أيضًا آخر عيد ميلاد لجون بوشان الذى بلغ وقتها من العمر ٦٤ عامًا.

كانت برلين هى مقصد شخص آخر يحمل أمتعة رثة، وكان يغادر لندن فى ذلك اليوم ليستقل قطارًا من محطة فيكتوريا. وسألت كلير حامل الحقائب وهى فى محطة السكك الحديد: "هل هذا القطار متوجه إلى برلين؟" وكانت الإجابة: "أنا متوجه إلى مكان مدينة شراب الروم" الآن. كان بوجه مالك تلك الحقائب أثر جرح بلون أحمر ممتد من أذنه اليمنى إلى فمه وكأنه جرح شفرة، هذا الرجل هو الفاشى وليم جويس الذى كان فى طريقه ليكون المتحدث باسم الحزب النازى والذى سيلقب بـ "اللورد هاو - هاو". كان وليم جويس أيرلنديًا وأحد الفارين من القسم الخاص بوحدة شرطة متروبوليتان حيث أخذ العبّارة المتجهة إلى أوستند.

استغرقت رحلة كلير إلى وارسو ست ساعات. ومنذ ما يقرب من شهرين كان نويل كاورد قد سافر متخذًا الطريق نفسها، وتصور هذا الفنان أن وارسو عبارة عن مجموعة أحجار رمادية ملتوية وقديمة، ولكنه لما قدم أدرك أنها أرض منبسطة تمتاز بالاتساع وتميل إلى الصفرة. مكث نويل كاورد فى فندق يوروباجسكى الذى يطل على الميدان الذى يوجد به مبنى وزارة الخارجية البولندية. فى الفندق نفسه، قابلت كلير، التى كانت لا تزال صغيرة السن آنذاك، مراسل صحيفة ديلى تلغراف فى العاصمة البولندية السير كيو كارلتون جرين الأخ الأصغر للروائى جراهام جرين الذى أصبح فيما بعد مديرًا عامًا لهيئة الإذاعة البريطانية. كان جرين طويلاً ونحيفًا، بطىء الحركة وكان يتحدث الألمانية بطلاقة، وكان قد طرد من عمله وقت أن كان مراسلاً فى برلين بعد عشر سنوات من العمل. وفى عام ١٩٣٣ زار معسكر اعتقال داخاو حيث وجد حراس المعسكر أكثر إجرامًا ووحشية من السجناء الشيوعيين. وكان كلير يقول: "علينا الذهاب إلى الحدود"، وبناءً عليه تطوعت كلير للقيام بتلك المهمة، فاستقلت القطار المتجه نحو الجنوب حتى وصل إلى الحدود الألمانية، وكانت محطات السكك الحديد على امتداد الخط تعج بمسئولين يقومون بتعليق لافتات عن انتشار الجيش البولندى.

عندما عادت كلير إلى كاتوفيتسه، استعارت سيارة صديقها القنصل العام البريطاني، وقد سهل لها العلم البريطاني الذى يرفرف فوق السيارة فى عبورها الحدود المغلقة فى بيوثن. وفى مدينة سيليزيا الألمانية قامت كلير بشراء جرائد وأقراص إسبرين وفيلم وبطاريات كهربائية وزجاجات من النبيذ، وهى الأشياء التى كان يصعب الحصول عليها فى بولندا، ثم استقلت السيارة مرة أخرى. فى أثناء سيرها على امتداد طريق الحدود الحصينة باتجاه مدينة جلايفيتز آخر مدينة فى ألمانيا، لحق بها خمسة وستون من سائقى الدراجات الآلية العسكرية، وأثناء محاولتها صعود أحد التلال الموجودة على الحدود من الناحية الجانبية وجدت أقمشة مشمعة وستائر من الخيش منصوبة على طول الطريق، وكانت هذه الأقمشة من المشمع وقطع الخيش المنتشرة على امتداد الطريق تساعد فى عملية إخفاء الوادى الذى كان على يسارها فلا تستطيع رؤيته، ولكن الريح هبت بعد ظهيرة يوم ٢٩ أغسطس عام ١٩٣٩ وأزاحت هذا الستار، ورأت المراسلة كلير هولينجورث بأم عينيها أعداداً من الدبابات منتظمة فى صف واحد على استعداد لغزو بولندا.

فى ٢٢ أغسطس، أخبر أدولف هتلر قادة قواته المسلحة فى أوبرسالزبورج قائلاً: "سأقوم بعمل دعاية لشرح أسباب الأعمال العدائية، إنه مجرد سرد منطقى ولا يهم أن يصدق الناس هذا، لأن أحداً لا يسأل المنتصر إن كان قد قال الحقيقة أم لا.".

جلس أحد أولئك الرجال وكان يدعى كارل؛ جلسة القرفصاء بجانب صندوق إحدى السيارتين وهو يضع سماعات فى أذنيه ليتلقى إشارة من جهاز الاستقبال اللا سلكى الموجود داخل صندوق السيارة، وفى الساعة ٢٧:١٩ استقبل كارل رسالة مشفرة تقول (توفيت الجدة)؛ فركبوا السيارات وعادوا أدراجهم إلى برج الإرسال اللا سلكى المرتفع المصنوع من الخشب الذى كان يمكن رؤيته من على بعد أميال.

كان قائدهم الرائد ألفريد هيلموت ناوجوكس ذو المظهر البولندى الخالص، أول من صعد السلالم ودخل من خلال الأبواب الزجاجية لمحطة الإذاعة الألمانية، حيث اصطدم مسدسه بشدة فى شخص ألمانى جالس فى مكتبه، كما صدم أحد

الكراسى وأحد مساند القبعات الذى تحطم فوق إحدى الخزائن المعدنية، ثم دخل ناوجوكس إلى الاستوديو حيث كان زميله المعلق هاينريش قد أخذ مكانه على مقعد خلف منضدة خضراء مثبت بها مكبر صوت، وهو يحمل الوثيقة المزيفة التى قاموا بإعدادها والتى تحمل سطورها الإشادة ببولندا كبلد مستقل واستنكار ما قام به هتلر ورجاله من أعضاء الحزب النازى.

نظر ناوجوكس من خلال الزجاج العازل للصوت إلى كارل مهندس الإشارة اللا سلكية وهو فى حالة هياج شديد؛ لأنه فشل فى إيجاد مفتاح البث الأرضى لمدينة بريسلو، فما كان منه إلا أنه ضرب الجهاز بعنف وهو يقول: "ابدأ"، فقرأ هاينريش النص المكتوب جهراً وبسرعة، ثم أطلق أتباع ناوجوكس الأعيرة النارية محدثين جلبة داخل الاستوديو الصغير. وقام المتظاهرون البولنديون بقطع الإشارة ثم الفرار من المبنى.

أدى هاينريش مولر، الضابط البوليسى السرى النازى، الدور المطلوب منه فى هذه المهمة التى أُطلق عليها "التعبئة"، وتسليم ما سموه "السلع المعلبة"، وكانت هناك جثة لشخص ميت حديثًا فى ملابس مدنية. كان المتوفى رجلاً طويلاً حسن المظهر فى الثلاثين من عمره قوى البنية وذى طلعة بهية. وكان من المفترض أن يتم اختيار رجل "هذه المهمة" من بين سجناء ساشينهاوزين وهو معسكر اعتقال نازى شمال برلين الذى افتتح عام ١٩٣٣، والذى يودع به السجناء الذين يعاملون معاملة قاسية، لكن تم اعتقال المواطن فرانسيزك هونيوك الذى ينتمى إلى سيليسيا فى بولندا سرًا، وكان هذا الرجل يتمتع بروئ وطنية قوية. تم تخديره ووضع عصابة على عينيه ثم قتل برصاصة صوبت إلى رأسه واتهامه بأنه أحد البولنديين الذين شنوا الغارة على محطة اللا سلكى.

فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى الموافق الجمعة ١ سبتمبر ١٩٣٩، كان ناوجوكس، الذى لم يستطع حتى الآن أن يحلق لحيته، يجلس فى مكتب رئيسه "الوحش الأشقر" راينهارد هيدريش قائد مكتب الأمن المركزى الألمانى وهو يتلقى التهنئة على المهمة التى قام عميله السرى بإنجازها باقتدار. وقبل ثلاثة أسابيع، أخبره هيدريش الماكر صعب المراس بـ "أن هناك حاجة إلى دليل دامغ على أن البولنديين هم

الذين قاموا بهذه الهجمات لعرضه على الصحافة الأجنبية وكذلك لعرضه فى نفس وسائل الدعاية الألمانية". مضى الأمر كما ينبغى، وتم تقديم بولنديين متهمين زوراً بقيامهم بتلك الهجمات"، واتصل المستشار أدولف هتلر شخصياً بهيدريش فى الساعة الخامسة صباحًا طالبًا منه إثارة الأمر، ولم يسمح لأحد بالبحث عن الحقيقة وراء الغارة. وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩، منع جميع أفراد الشعب الألمانى من الاستماع إلى نشرات الأخبار فى محطات الإذاعة الأجنبية وإلا واجهوا عقوبة السجن مع الأشغال الشاقة. أما عقوبة نشر الأخبار الواردة من محطات الإذاعة الأجنبية فكانت هى الإعدام.

وفى اليوم نفسه، كان المقال الرئيسى فى الصفحة الأولى فى جريدة الحزب النازى تناول الهجمات الوحشية التى قامت بها القوات "البولندية" على مكتب الجمارك فى هوشيلندن خاصة على محطة جلايفيتز الإذاعية فى ٣١ أغسطس، حيث نجح "الثوار المسلحون" على ما يبدو فى قراءة بيان الدعاية باللغتين البولندية والألمانية على مسامع جمهور الإذاعة المترقبين لاستنفار قوات الشرطة. وذكرت الجريدة أن أحد البولنديين قد قتل أثناء تبادل إطلاق النار الذى أعقب الهجوم. (وكان ذلك الرجل بالطبع هو فرانسيزك هونيوك، صاحب عملية "السلع المعلبة").

ولهذا السبب، شوهدت الشابة كلير هولينجورث فى وقت مبكر من صباح ١ سبتمبر ١٩٣٩ وهى تقف حاملة فى يدها سماعة الهاتف خارج نافذة غرفة الفندق الذى تقيم فيه فى منطقة كاتوفيتسه، حتى يستطيع مسئولو السفارة البريطانية فى وارسو أن يسمعوا بأنفسهم صوت مدافع ودبابات وطائرات العقيد جيرد فون روندستيد تتحرك جنوبياً للقيام بغزو بولندا مع بزوغ ضوء الفجر.

ومنذ فترة طويلة، كان استخدام الدعاية والخداع فى جلايفيتز فكرة مهيمنة على سلوك أفراد الحزب النازى. فبداية من حريق الرايخستاج مروراً بأوليمبياد برلين وانتهاءً بأنشطة جوزيف غوبلز وزير الدعاية والإرشاد القومى، ويمكن للفرد أن يتبع سياسة المنظمة لخداع العالم الخارجى. أصبحت منطقة جلايفيتز فى جنوب بولندا ومركز

معسكر الإبادة الجماعية فى أوشفيتز - بيركيناو موقعًا صناعيًا، حيث تم تسخير عمال لتعبئة المواد الكيماوية الخاصة بالحواجز الدخانية فى فيرماخت. وكان النازيون يؤمنون دائمًا بما يسمى بـ "قوة التعتيم الدخانية".

كانت الغارة على جلايفيتز تقليدًا للعمليات البريطانية المماثلة، وعلى الرغم من وجود شائعات حول يهودية هيدريش الذى كان يعمل مهندس الدولة النازية العنصرية، فإنه كان واحدًا من بين النازيين القلائل الذين كانوا جزءًا من المؤسسة الميكافيلية، وحسبما يقول المؤرخ الحربى والضابط كيو تريفور - روبر: "يعتقد القراء الذين لا يملون قراءة الروايات التى تتعلق بالخدمة السرية البريطانية أن المؤسسة الميكافيلية التى يؤمنون بمبادئها وأفكارها، أسهمت فى تأسيس الإمبراطورية البريطانية".

أحب هيدريش أن يدعى "سى" مثل رئيس المخابرات السرية البريطانية، وقد مضى قدمًا حتى أصبح المسئول الرئيسى عن إقليمى بوهيميا ومورافيا، ولكنه اغتيل فى براغ عندما قام جنود من جمهورية التشيك، يستقلون اثنتين من سيارات كنس الطرقات فى يونيو ١٩٤٢ بمهاجمة سيارته بالقنابل اليدوية، كان هؤلاء الجنود قد تلقوا تدريبهم فى أستون هاوس فى هيرتفوردشاير على يد وحدة سرية تابعة للمخابرات البريطانية، وكان هيسكث بريتشارد هو من دربهم على إلقاء القنابل اليدوية، فقد كان رياضيًا متمرسًا وراميًا ماهرًا مثل والده الراحل.

رثى رئيس الوزراء البريطانى نيفيل تشامبرلين ضحايا "هذه الكارثة الرهيبة" فى يوم الجمعة الموافق ١ سبتمبر ١٩٣٩؛ فى اجتماع مجلس العموم. وبالطبع لم يتنبأ أحد بالرعب الذى تنشره هذه الفرق العسكرية الألمانية فى بولندا كالتدمير والقيام بأعمال السلب والنهب وتعذيب الملايين وقتلهم، ولم يتصور أحد عواقب الدمار والموت فى السنوات الست التالية. ولكن التزام كل من بريطانيا وفرنسا باتفاقية الدفاع عن بولندا ضد أى عدوان، وبسبب عدم سحب الحكومة الألمانية لقواتها بحلول الساعة ١١ صباحًا من يوم الأحد ٣ سبتمبر ١٩٣٩ بعد عقدين مما أطلق عليه "سلام"، جاء رئيس الوزراء البريطانى نيفيل تشامبرلين، البالغ من العمر ٧٠ عامًا، إلى محطة إذاعة بى بى سى قادمًا من

مجلس الوزراء فى داوننج ستريت ليلقى على مسامع الشعب وبصوت بدا عليه التعب والحزن، كلمات كانت للمستمعين كالدواء المر قائلاً: "لقد انتهى الإنذار النهائى الموجه إلى الحكومة الألمانية وعليه فإن بلدنا فى حالة حرب مع ألمانيا".

بدأت بريطانيا الحرب العالمية الثانية بالطريقة التى أنهت بها الحرب العالمية الأولى، فقامت أولاً بنشر نحو ٢٠ مليونًا من صفحات الدعاية فوق الأراضى الألمانية، وكان وزير الطيران البريطانى السير كينجسلى وود يسمى ذلك بـ "الغارات الحقيقية". وباستخدام قاذفات القنابل الثقيلة وايتلى، قام سلاح الجو الملكى البريطانى بإلقاء الآلاف من المنشورات فى صفحات متفرقة كتبت بأسلوب يقارب أسلوب الألمان، وهو ما اسماه إيه بى هربرت فى مجلة بانش "الرسائل المقنوفة"، وشاهد نائب قائد سلاح الجو عابس الوجه أرثر هاريس، حمولة من "ورق المرحاض". طبعت عليه نشرات الدعاية فى شركة النشر البريطانية وبأسلوب وزارة خارجية تحت قيادة اللورد هاليفاكس، بهدف تشجيع العديد من الألمان الذين يعارضون أدولف هتلر ونظامه النازى، وكان أسلوب الكتابة يعبر عن سعة الثقافة أكثر من الإعلان والدعاية، لأنها كتبت بيد مؤلف كتاب أدب رحلات "الطريق إلى أوكسيانا" – (The Road to Oxiana) وهو اللورد بيرون.

فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩؛ ألقيت أولى صفحات هذه الدعاية وكانت عبارة عن تنويه إلى الشعب الألمانى يحذرهم من خداع قادتهم: "على مدار سنوات عديدة، فقد حالت الرقابة الصارمة التى فرضوها عليكم دون معرفة الحقائق التى يعلمها أقل الشعوب ثقافة، لقد حبسوا عقولكم وكأنكم فى معسكر اعتقال". لم يكن المواطنون الألمان هم فقط الذين منعوا رسميًا من قراءة هذه الوثائق. وعندما سأل أحد مراسلى الحرب الأمريكيين رقيبًا فى وزارة الإعلام البريطانية عن نص المنشور، رفض بحجة "أنه ليس مسموحًا لهم التصريح بمعلومات قد تكون ذات مغزى بالنسبة للعدو"، فأشار الصحفى إلى أن العدو فى حوزته الآن ٢ مليون نسخة من هذه المنشورات، فهل يمكننى الحصول على واحدة منها، وهنا أومأ ذلك المسئول بعينيه وأدرك أن شيئًا ما خاطئ؛ (تم تجنب مثل هذه المواقف عندما تقرر فى بداية شهر نوفمبر أن يقوم رئيس القسم السرى بطباعة منشورات ترسل إلى جميع ملاك الصحف الذين يثق بهم).

كانت الخطة الفرنسية - البريطانية عند اندلاع الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ تشبه إلى حد كبير خطة عام ١٩١٤، حيث أرسل فيلقان من قوات الحملة البريطانية إلى فلاندرز، يسار الجبهة الفرنسية ليكونا على استعداد لمنع الألمان من التقدم مرة أخرى عبر بلجيكا. بدا الأمر وكأنه إعادة للأحداث، لكن بأسماء مختلفة، فبدلاً من ميناءى كاليه وبولونى، نزل الجنود فى ميناءى شيربورج وبريست، وعلى الرغم من تولى ونستون تشرشل قيادة القوات البحرية من جديد مثلما كان سابقًا فى الفترة بين ١٩١١ و١٩١٥، فإنه عهد بقيادة فيالق الجيش هذه المرة إلى جون دل وآلان بروك، بينما لم يتول اللورد جورت الذى حاز صليب فيكتوريا وأنجز تسع مهمات خلال الحرب العالمية الأولى، منصبًا عامًا بالجيش.

فى أروقة رديئة ومكاتب متردية كانت توجد مكاتب وزارة الحربية البريطانية فى لندن. اختفى الزى المدنى فى الأول من سبتمبر، ولم يهتم الناس بالشارات الموجودة على الأكتاف أو الأزرار أو الأشرطة التى تحكى قصص الحروب السابقة التى خاضوها. قدم المقدم ديدلى كليرك ليصبح مساعداً لنائب وزير الحربية، وقد وجد ابنة اللورد جوت، وهى إحدى فتيات الجيل الجديد الذى ظهر فى الحكومة البريطانية، وكانت ترتدى زيًا جديداً وحذاءً أسود، وكان هناك أيضًا المدير جوان برايت الذى أصبح مغرمًا بشئون وزارة الحربية القديمة وكأنها شىء مقدس:

تعكس المسالك القديمة والحوائط المتسخة وعدم انتظام إمدادات الماء بالمبنى القديم لوزارة الحربية عدم الاعتناء به، كما كان الغبار يكسو الأسقف ضوء الغرف حتى إنها لتكاد تكون مظلمة، وكانت بتلك الغرف روائح السجائر وأكواب الشاى القديمة... أحببت الضباط الأقوياء الذين كانوا يتحدثون بلطف مع السيدات إضافة إلى السعاة ذوى الأقدام المفلطحة الذين يقدمون لنا الشاى والسجائر ودبابيس الرسم ويقومون بتغطية اللوحات العارية فى غرفنا.

فى ٣ سبتمبر، اعترف نيفيل تشامبرلين فى برنامجه الإذاعى فى محطة البى بى سى، بأن فشل كفاحه الطويل من أجل إحلال السلام كان بمثابة "ضربة قاسية"، واختتم قائلاً:

باركـكم الرب جـمـيـعًـا، إن الرب يدافع عن الحق، سنقـوم بمحـاربة الأشـرار الغاشمين وسوء نيتهم وإجحافهم، الذين يظلمون ويضطهدون، وأنا على يقين بأن الحق سوف يسـود.

تم بث النشيد الوطنى البريطانى ليحفظ الله الملك ووقف العديد من الشعب فى كل أنحاء بريطانيا حيث كان بعضهم يبكى، بينما جلس بعض الآخر فى حالة من اللا مبالاة المعروفة عن البريطانيين، كان الأمر يدل على نشوب حرب قيصرية فى كل مكان مرة ثانية، إلا أنه تم اجتياح بولندا هذه المرة بدلا من بلجيكا، ولكن إلى أى مـدى ستكون بشاعة هذه الحرب هذه المرة، بعد خمسة وعشرين عامًا من التقدم العلمى!

فى تلك اللحظة، بدأت صـفـارات الإنذار تدوى جنوب إنجلترا، وشـاهـد ونسـتـون وكليـمنتين تشـرشل صـعـود المناطيد إلى الأعلى، وارتفعت العـشـرات من مناطيد المراقبـة تحت سـاتر من النيـران لتـحلق فى أفق المدينة حـيث بدت المناطيد كـالسـمك الفضـى السمـين، وظهـر رجـال الشـرطة وهـم يركـبون دراجـاتهم ويطلقـون صـفـاراتهم ويرتدون زيهم الأنيق.

فى وزارة الحـربيـة البريطانية وفى المكتب الذى يطل على المدخل الرئيسى، كـان ديدلى كليرك يشرف على كتابة اللوحات وتخزين الأوراق وتأمين النوافذ وجمع الخوذات الفـولاذية و"الأقنعـة الواقـيـة من الغـازات" ومـؤن الطوارئ، ثم انضـم إلى الجنود ذوى القبـعات النحـاسـيـة. قام تشـرشـل أيضـًا (بمرافقة المفـتش والتر طومـسـون الذى عاد مؤخرًا إلى عمله كحـارس شـخـصى) بتفقد المقر العـام الذى يبعد مئـات الأمتار وكـان معهـم نبيذ براندى منعش. كتب تشرشل فى المجلد الأول فى كتاب "العـاصفة المتجمعة" – (The Gathering Storm) حـول تاريخه فى الحـرب العـالمـيـة الثـانيـة: "كـان الكل مبـتـهـجًـا وسـعيدًا كـمـا هـى عـادة الإنجليز عندما كانوا على وشك مواجـهـة المجـهـول". فى صـبـاح يوم مشرق من أيام سبتمبر أخذ تشرشل يصـور الدمـار وأشـلاء الموتى والانفـجـارات الضـخـمة التى تهز الأرض بما عليـها من مبانٍ لتتحول إلى كومة من الغبار والأنقاض، وعربـات الإطفـاء سـيـارات الإسـعـاف التى تنطلق بسـرعـة مـختـرقة الدخـان تحت أزيز طائرات العدو، حيث لا يمكن تخيل مدى فظاعة تلك الغارات!

كان التفجير هو الغالب على العمليات العسكرية فى ثلاثينيات القرن العشرين، حيث قال ستانلى بالدوين عام ١٩٣٢ بحزن شديد: "سوف تحقق قاذفات القنابل الهدف المرجو منها". بالنسبة إلى التخطيط البريطاني من أجل التصدى للغارات الجوية، كان يتضمن الإخلاء الجماعى باستخدام القطارات وتم بناء مساكن إيواء عامة وخاصة، إضافة إلى صناعة الملايين من أقنعة الغاز وأكياس الرمل. وقدم مكتب جلالة الملك الإجراءات الاحترازية ضد الغارات الجوية للحيوانات بسعر زهيد، ونقلت الكنوز الفنية من لندن أو تم تخزينها تحت الأرض.

استهل ديدلى كليرك مذكرته عن العام الأول للحرب، المهمات السبع، بالطريقة نفسها التى يستهل بها جون بوشان روايات المغامرة، حيث تروى تلك المذكرة كيف كان كليرك الجندى البالغ من العمر أربعين عاماً والذى كانت له صلات ببطل رواية بوشان ريتشارد هانى، يعمل حتى وقت متأخر من الليل فى وزارة الحربية البريطانية فى ٣١ أغسطس ١٩٣٩ ثم عاد إلى شقته التى كـان يعيش فيهـا وحيـداً بعد منتصف الليل؛ حيث وجد على ممسحة الأرجل بطاقة زيارة من أحد ضباط الأركان الارستقراطيين الألمان وهو المقدم جرهارد كونت فون شفيرن.

التقى كليرك للمرة الأولى فون شفيرن فى عيد الفصح عام ١٩٣٩؛ وقت أن كان يقيم مع صديقه الرائد كينيث سترونغ مساعد الملحق العسكرى فى برلين، والتقى معه مرة أخرى أواخر العام نفسه فى إنجلترا فى يوليو عندما أرسلت الأركان العامة الألمانية فون شفيرن بشكل علنى إلى إنجلترا ليتحقق مما إذا كانت بريطانيا ستنفذ التزاماتها حقًا بشأن الدفاع عن بولندا فى حالة الهجوم عليها. لم يكن كليرك وفون شفيرن صديقين بمعنى الكلمة ولكنهما كانا فى العمر نفسه، وعندما التقيا فى لندن تحدثا معًا حول موضوع الحرب الوشيكة بين بلديهما، وأثناء ركوبهما معًا فى إحدى سيارات الأجرة، قال كليرك بشكل هزلى: "أرسل لى كلمة تحذير أولاً". الآن، وفى تلك اللحظة التى يبدو تماماً وكأنه بوشان، وجد كليرك بطاقة مزركشة ومكتوباً عليها من الخلف إلى اللقاء؛ فجلس يقلبها بين أصابعه لفترة، ثم اتجه إلى الهاتف المتواجد بجوار النافذة،

وكانت الأضواء ما زالت مضاءة بالخارج فى بيكاديللى؛ فى تلك اللحظة كانت القوات الألمانية النازية تتقدم نحو بولندا.

وبداية من يوم الجمعة ١ سبتمبر ١٩٣٩؛ تم إجلاء ثلاثة ملايين شخص بينهم الصغار والحوامل والمعاقين والمكفوفين من مدن مثل لندن وجلاسجو وبرمنجهام وليفربول إلى "مناطق آمنة" فى القرى والمدن، والتى لم تكن تسعهم فى واقع الأمر. وضعت السكك الحديد البريطانية الخاصة تحت سيطرة الدولة، وتم إصدار بطاقات هوية تعتمد على قيد تعداد السكان، كما تم قطع إرسال تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية حديث العهد الذى يقدم خدمته إلى نحو ٢٥٠٠٠ مشاهد، وصودرت جميع أجهزة الاتصال اللا سلكى وأغلقت دور السينما الرقص والمسارح. وتمت تعبئة الجيش والقوات البحرية والجوية، وكانت الأنوار تُطفأ عند الغروب فى تمام الساعة ٧:٤٧ مساءً، ما يعنى عدم إنارة الشوارع وتم تنبيه جميع الأسر إلى عدم ترك الأضواء تنفذ من أبوابهم أو نوافذهم، وكان سائقو السيارات والمركبات لا يستطيعون استخدام كشافات سياراتهم الأمامية خشية أن تحدد قاذفات القنابل أمكانهم، حتى المصابيح اليدوية كان يتم خفت أضوائها باستخدام أنسجة رقيقة. وبداية من ذلك اليوم "الجمعة السوداء"، وقعت إصابات لآلاف الأفراد بسبب ارتباكهم فى السير إلى بيوتهم عبر شوارع الشتاء المظلم، كما وقع الكثير من حوادث السيارات فى أثناء الليل ما تسبب فى الكثير من الوفيات، ولم يتوقع أن تمتلئ أسرّة المستشفيات بمثل هذا العدد من المصابين جراء تلك الحوادث، بل كان المتوقع حدوث ذلك بسبب القصف الجوى للعدو، وتم إفراغ حمامات السباحة من الماء المتواجد بها إضافة إلى تجميع أكفان من الورق المقوى استعداداً للوفيات من فيالق الجيش.

وبعد فترة من الرعب والفزع الذى امتد نحو نصف ساعة صباح يوم الأحد الموافق ٣ سبتمبر، استعد كل فرد للتعامل مع قاذفات القنابل التى يستخدمها النازيون، ثم سمعت صفارات الإنذار التى تشير إلى "زوال الخطر" وخرج الجميع من

المخابئ التى يلجئون إليها أثناء الغارات الجوية؛ ليجدوا أشعة الشمس قد غطت الشوارع الهادئة المحصنة بأكياس الرمل، ثم جاء إنذار كاذب مقبل من مصب نهر التيمز يفيد بأن الألمان سوف يصلون فى اليوم الأول فأُصيب الجميع بالهلع، وتمت تهيئة بداية مناسبة لتلك الفترة الغريبة ولم يكن أحد يعلم على وجه اليقين هل سيجرى القتال أم لا، ما جعل تشرشل يطلق عليها "الحرب المزعومة" ثم "حرب الفجر الكاذب"، لكن الصحفيين الأمريكيين المتذمرين سموها "الحرب المصطنعة". استمر هذا الوضع لمدة ثمانية أشهر، وعلى الرغم من أن سياسة ترشيد استهلاك الطعام التى وضعت آنذاك استمرت بشكل أو بآخر لمدة أربعة عشر عاماً، وتعتبر رواية إيفلنى ويف المسماة بنشر "المزيد من الأعلام" – (Put Out More Flags) هى الأكثر حدة فى تصوير تلك الفترة الغريبة قبل عصر نهضة تشرشل والتى أطلق عليها الناس فى ذلك الوقت اسم "الحرب الكبرى".

(١٤)

عـــودة ونســـتون

ذهب تشرشل يوم الأحد إلى مجلس العموم، وبعد نقاش عرض نيفيل تشامبرلين على تشرشل منصبًا فى مجلس الحرب وهو منصب القائد الأول للإمارة البحرية. (وأرسل المجلس إشارة إلى جميع سفن البحرية الملكية فحواها "عودة ونستون") وعثر تشرشل مساء ذلك اليوم على صندوق الخرائط الذى على الجدار خلف كرسيه القديم فى مكتب اللورد الأول، كان تشرشل قد قام بتعديل هذه الخريطة قبل ثمانية وعشرين عامًا، وعندما فتح تشرشل باب الصندوق، وجد أن الخريطة لا تزال تحمل تحديد موقع الأسطول الألمانى فى ٢٣ مايو ١٩١٥، وهو اليوم الذى غادر فيه مكتبه.

عاد تشرشل من جديد إلى مشكلات البحرية التى عهدها فى الفترة بين ١٩١٤ حتى ١٩١٨. وفى اليوم الأول للحرب، وكما حدث فى الحرب العالمية الأولى، صدر أمر بقطع اثنتين من طرق الاتصالات البحرية اللتين تعتبران شرايين حياة بالنسبة إلى القوات الألمانية واللتين تربطان بين أيدمن فى ألمانيا وجزر الأزور والأمريكيتين من جهة ولشبونة وإفريقيا من جهة أخرى، فلم يدع قطع خطوط الهاتف والتلغراف خيارًا لألمانيا النازية سوى الاعتماد على أنظمة المحادثة اللا سلكية التى يمكن أن تعترض رموزها وشفراتها من قبل خدمة "واى" البريطانية أو خدمات التنصت وإحالتها إلى القائمين على فك الشفرات فى بلتشلى بارك. كان العدو القديم يستخدم ألغامًا حديثة وغواصات متطورة فى محاولة لحصار وقطع الاتصال بين الجزر البريطانية، ومن جديد

عادت قوارب اليو لتكون صداعًا فى رأس البحرية، وأصبح الأسطول الهدف الرئيسى للألمان، حيث فقدت بريطانيا نصف أسطولها التجارى فى الحرب العالمية الأولى، بينما تمكنت دول المحور فى الحرب العالمية الثانية من إغراق ما يقرب من ٦٠٪ أو ١١,٣ مليون طن من الشحن البريطانية، وقتلت ما يزيد على ٥٠٠٠٠ من تجار الإمبراطورية البريطانية البحرية، ما جعله أخطر من احتلال القوات المسلحة للأرض. وقد تمكن محللو الشفرات بالاستخبارات البحرية الألمانية فى بى دانست من فك الشفرات البريطانية منذ أزمة الحبشة عام ١٩٣٥؛ واستطاعوا بهذه الطريقة تحديد أماكن العديد من سفن البحرية الملكية وسفن الخدمة التجارية بدقة. فالحرب بحرًا كانت بمنأى عن التمويه.

استذكارًا لشعور الذعر الشديد الذى سيطر على تشرشل منذ نحو ربع قرن خلال مذكرة تشرشل فيما يتعلق بالخوف الرهيب خلال ربع قرن مضى، اخترقت مجموعات قوارب اليو ٤٧ الألمانية سفن إعاقة الملاحة وأبراج المراقبة فضلا عن الدوريات متجهة نحو سكابا فلو وميناء أوركنى المجاور للأسطول الرئيسى للبحرية الملكية البريطانية فى ١٤ أكتوبر. كما نسف أحد قوارب اليو البارجة البحرية العملاقة ١٩١٤ إتش إم إس رويال أوك، والتى غرقت فى غضون ثلاث عشرة دقيقة؛ حيث فقد فى تلك العملية نحو ٨١٠ ضباط وجنود، وفى أثناء محاولة الجنود الناجين وهم فى البحر رفع عزيمتهم وهم يغنون بعض الأغانى هرب قارب اليو. وبعد أربعة أيام خرج النقيب غونزر برين وأفراد طاقم غواصته بابتسامة عريضة فى مؤتمر صحفى نازى قبل الاحتفاء بهم وسط هتاف جماهيرى فى برلين. أخبر تشرشل مجلس العموم بأن البحرية الملكية أغرقت ١٣ قاربًا ألمانيًا من طراز يو ودمرت عدة قوارب أخرى، وهو ما يعتبر معدلاً هجوميًا أفضل مما كانت عليها الحال فى الحرب العالمية الأولى، إلا أن ذلك كان فى الغالب مبالغة، لكن تشرشل أراد أن يرفع الحالة المعنوية للعامة.

قام برين بزيارة إلى سكابا فلو قبيل الحرب متظاهرًا بأنه شخص سائح، مستخدمًا صور استطلاع جوى ملتقطة من أعلى مباشرة ليجد ممرًا لقاربه من أجل

الذهاب إلى رويال أوك، حيث كان كل من طائرات الاستخبارات العسكرية الألمانية وبعض خطوط الرحلات المدنية يقوم بالتحليق على ارتفاع عالٍ وتصوير البريطانيين سراً قبل اندلاع الحرب بوقت طويل، لكن القوة الجوية بقيادة هيرمان جورج استطاعت سد الثغرات.

باعتباره الأميرال الأول فى الأسطول البحرى ذهب تشرشل إلى سكابا فلو ويكى على حطام رويال أوك وأمر بمزيد من الغواصات الدفاعية؛ إلا أن غرق إحدى سفنه يوضح مدى هشاشة الدولة. ومرة أخرى يلجأ تشرشل إلى الخداع من أجل الحماية بعدما فشلت القوة. فأمر ببناء نموذج سفن وهمية وكان هذا التمويه كافيًا لتضليل المراقبين فى طائرات الاستطلاع الجوية. ثم عاد تشرشل بعد ذلك ليتفقد النتائج، وشاهد السفن الحربية المموهة التى كانت على شكل ميناء أوركنى العملاق. وعندما أشار تشرشل إلى إحداها، قال: "لن يقصفها الألمان"، وأخبروه بأن تلك السفن الوهمية أقنعت الاستطلاع الجوى الخاص بنا، فرد الأميرال الأول فى عجالة: "إذا كان الأمر كذلك فسيحتاج الطيارون الألمان إلى نظارات".

لا توجد طيور نورس حول تلك السفن! دائمًا ما تحلق طيور النورس حول السفن المأهولة بالأفراد، لكنها لا تحلق حول دمية ما لم تلق بعض النفايات منها، وإذا وضعنا النفايات فى الماء ليل نهار على مقدمة هذه السفن ومؤخرتها! سيكون هذا طعمًا لطيور النورس ويخدع الألمان!

لقد خدع البريطانيون البحرية الألمانية خلال معركة ريفر بليت فى مونتيفيديو، بأوروجواى. لكن البارجة الألمانية غراف سبى المسلحة التى يمكن أن تصل سرعتها إلى ست وعشرين عقدة وتحمل ست مدفعيات ١١ بوصة ويصل مداها إلى سبعة عشر ميلاً وكانت ترافقها سفينة التمارك المساعدة التى تحمل الأسرى، واصلت غاراتها التى بدأتها فى الحرب العالمية الأولى، متظاهرة بأنها إحدى سفن التحالف حيث تقوم بإرسال رسائل لا سلكية مزيفة، بينما تقوم بإغراق التجار جنوب المحيطين الأطلنطى والهندى. وفى ١٣ ديسمبر ١٩٣٩، لحقت بتلك السفينة أضرار خفيفة بعد الدخول

فى اشتباك مع الطرادات الثلاثة البريطانية إكستير وأياكس وأشيليس، ثم توجهت السفينة إلى مونتيفيديو المحايدة لإصلاح ما لحق بها من أضرار. بينما تضافرت جهود الدبلوماسيين البريطانيين والملحقين البحريين والعملاء السريين من أجل تأجيل العملية حيث أذاعوا فى هيئة الإذاعة البريطانية وفى المحادثات الدبلوماسية والحديث فى الهواتف التى يعرفون أنها مراقبة أن الأسطول البريطانى أسطول كبير يحتوى على حاملة الطائرات آرك رويال التى يضيق بها الأفق، بينما هى فى حقيقة الأمر على بعد خمسة أيام فى البحر. كان قائد غراف سبى النقيب لانجسدورف قد خدع حيث اعتقد عدم وجود فرصة أمامه للهروب إلى أعالى البحار، مما اضطره إلى تسريح طاقمه وإغراق غراف سبى والذهاب إلى شاطئ بينوس أيرس حيث التف فى علم البحرية ثم أطلق الرصاص على نفسه.

كان من بين ما قاله جون لوكير لجورج بلمبتين فى باريس ريفيو: "من الضرورى أن تفهم حقيقة عمل الاستخبارات، إنها، فى أفضل حالاتها، تمثل الذراع اليسرى للحكومة.... فمهمتها جمع المعلومات، إنها مهنة صحفية إن صح التعبير، ولكنها تتم فى الخفاء"، إلا أن قسم الاستخبارات البحرية لم يكن جهازًا سريًا، فلم يكن لديه عملاء بغرض التجسس. وعلى الرغم من أن السرية كانت سمة من سماته، لكنها لم تكن الأساس حيث تعامل ذلك القسم مع معلومات شرعية من مصادر عديدة. ثم بدأت الاستخبارات البحرية عملها من جديد أثناء الحرب الأهلية الإسبانية فى الفترة بين ١٩٣٦ و١٩٣٩، عندما كانت الاستخبارات الإيطالية والألمانية تساعد فى تمرد الجنرال فرانكو ضد الجمهورية الإسبانية، وكان على الاستخبارات مراقبتهما لتنفيذ الحصار البحرى ومهمات الإنقاذ.

ثمة دروس استنتجت من الحرب العالمية الأولى، وكان لا بد من وجود عقلية ذكية ونظام اتصالات قوى يعتبر بمثابة الجهاز العصبى للجسد، فلم تكن الأميرالية وزارة حرب أو وزارة طيران مهمتها الأساسية مهمة إدارية بل كانت تنفيذية؛ وكانت تقاليد البحرية البريطانية هى العمل والهجوم، كما أن الخطأ الذى حدث فى مركز تشفير

البحرية البريطانية غرفة ٤٠ فى الحرب العالمية الأولى عطل فاعليتها التنفيذية بسبب غياب السرية؛ لكن جمود القيادة يعنى عدم فاعلية قتال الأفرع، فعندما حصل القائمون على فك الشفرات على معلومات عن الأسطول الألمانى، لم يكن هناك نظام لتوصيل تلك البيانات بسرعة إلى الأسطول البريطانى، فلم يستطع العقل أن يصدر أوامره لليد بالتنفيذ، ومن ثم جاء الإخفاق فى معركة جوتلاند نتيجة ضعف الاتصال ونقل المعلومات ما يعنى التسبب فى فقد كل من الأسطولين للآخر.

عندما تولى العميد البحرى جون غودفرى إدارة الاستخبارات البحرية فى ٣ فبراير ١٩٣٩، ورث أساس نظام مركز استخبارات العمليات، وكان قادراً على استشارة أكثر سابقيه شهرة الأميرال السير رينجهال، واتباع نصائحه فى تأسيس نظم لتغذية هذا المركز بالمعلومات. كان كل شيء يمثل خياراً محتملاً لدى مدير الاستخبارات البحرية، وكان لزاماً توسيع نطاق الشبكة بشكل يفوق عالم الإشارات التقنية وتحديد الاتجاهات وتأسيس فريق عمل جيد لتقييم المعلومات الكثيرة، فمهمة جمع المعلومات الحساسة تتطلب أشخاصًا نشطاء يتميزون بالفضول والتدقيق، ومن ثم التحق بقسم الاستخبارات البحرية (الذى توسع فى الحرب العالمية الثانية بتعيين الآلاف) علماء مدنيون ومحامون نقض واستئناف وكُتاب وصحفيون كان من بينهم روائيون أمثال تشارلز مورجان ووليام بلومر وسيمون نويل - سميث الذين كانوا يعملون فى ملحق جريدة التايمز الأدبى، بالإضافة إلى هيلارى سانت جورج سوندرز أمين مكتبة مجلس العموم. أنشا العميد البحرى غودفرى نظام تصنيف بالغ الأهمية فى الاستخبارات، حيث كان يتم إسناد الخطاب إلى مصدره، ثم يشار إلى المعلومات الصحيحة بالرمز "إيه ١" والمعلومات المشكوك فى صحتها بالرمز "دى ٥".

وطد العميد البحرى غودفرى العلاقات مع الحكومة ودبلوماسيى التحالف وأجهزة القوات المسلحة والأجهزة السرية والاستخبارات العسكرية القسمين الخامس والسادس والفرع الخاص، حيث التقى مع السير رودريك جونز من وكالة رويترز الإخبارية إضافة إلى أقطاب الصحافة البارزين ورؤساء تحرير صحفهم. وذكر العميد البحرى رينجهال

أن مدير الاستخبارات البحرية كان يتمتع بحق الحصول على مساعدة أى فرد فى الدولة حتى كبير أساقفة مدينة كانتربيرى، وقد قدم رينجهال للعميد غودفرى السير مونتيجو نورمان محافظ بنك إنجلترا والعديد من الشخصيات البارزة ذات السلطة فى مدينة لندن. كما عين رينجهال سمسار الأسهم المالية كلود سيروكولد مساعداً شخصياً له فى الحرب العالمية الأولى ونصح غودفرى أن يقوم باتخاذ مساعد له، كذلك عثر محافظ بنك إنجلترا ورئيس بنك بارينجز السير إدوارد بوكوك فى مايو ١٩٣٩ على رجل ليكون الذراع اليمنى للسيد غودفرى، كان هذا الرجل عميلاً رقيقًا وهو الذى كان يجالس سيفتون ديلمر يحتسى معه الفودكا فى الفندق المواجه لمبنى الكرملين، إنه سمسار الأسهم المالية إيان لانكاستر فليمينج.

تولى إيان فليمينج قيادة قطاع التنظيم فى الاستخبارات البحرية القسم ١٧، حيث كان يقوم بتقديم أفكار رئيسية وإيجاد نظام هيكلى وتواصل بالعالم الخارجى الكبير. تعلم إيان فليمينج اللغتين الألمانية والفرنسية بعد رحيل أتون وساندهيرست وعمل مراسلاً صحفيًا فى رويترز قبل أن يصبح سمسارًا للأسهم المالية فى المدينة، لكنه أخبر ديلمر عندما كان فى مدينة موسكو فى مارس ١٩٣٩ بأنه قدم إليها مجاملة لرئيس تحرير التايمز، وبعد انقضاء سنوات، زعم ديلمر قائلاً: بمجرد أن رأيت (إيان فليمينج) علمت أنه يشغل إحدى وظائف الاستخبارات أو ما يشبهها، فقد كان يتظاهر بالكتابة كلما رأى الروس لكنه كان من الواضح أنه ليس بصحفى عادى.

وفى القطار أثناء عودته إلى وارسو وقبل حدود روسيا، حفظ ديلمر ملاحظاته ثم مزقها وألقى بها بعيداً، فمازحه إيان فليمينج: "لما لا تبتلعها؟ فهذا ما يفعله كل الجواسيس البارعين". وفى نجلورج قام مسئولو الجمارك بتفتيش أمتعة فليمينج ثم تجريده وتفتيشه. وتم فتح علبة تحوى وسائل منع الحمل تحتوى على مركب أخذه معه إلى لندن لتحليل مكوناته، وأخرج مسئولو الجمارك ما بالعلبة من عوازل ذكرية، واحمر وجه فليمينج خجلاً عندما همس إليه ديلمر قائلاً: "كان عليك ابتلاعهم".

وبعد خمسة أشهر من رحلة القطار هذه، دعا ديلمر فى خريف عام ١٩٣٩ فليمينج إلى الغداء بشقته فى منزل لينكولن؛ حيث ظهر فليمينج متأنقًا فى زى البحرية الملكية الأزرق القاتم ذى الشريط المموج وشارة معقوصة لملازم احتياطى متطوع.

"أعتقد أنك عدت إلى ساندهيرست فماذا تصنع فى البحرية؟".

"نعم فقد حصلت على وظيفة مكتبية فى الأميرالية". بعد تناول القهوة والبراندى، ذكر فليمينج أن مديره يرغب فى أن يستمع إلى ديلمر حول ما شاهده فى الحرب فى بولندا، فأجاب المراسل أنه لم ير أى سفن، فكل ما رآه هو بعض قاذفات القنابل والمقاتلات الجوية إضافة إلى بعض القتلى وأناس يطلقون النار على المنشقين عن الدولة، لا شيء مما قد يشغل بال البحرية.

"لا تشغل بالك، فقط افعل ما أخبرتك به".

وفى اليوم التالى ظهر ديلمر عند باب مركز تجارى خلف تمثال الكابتن كوك؛ حيث كان يوجد ممر مظلم يصل طوله إلى ستين ياردة فى جناح فى مواجهة للغرفة ٣٩، وعندما فتح الباب رأى مكتبًا مكدسًا به ثلاث نوافذ طولية تطل على ساحة عرض تستخدم لعرض فرق المشاة. كان هناك عشرات الرجال يجلسون إلى مكاتبهم ويتحدثون عبر الهاتف، ما أعاد إلى ذهن ديلمر الحجرة الخلفية لبنك بيروت، إلا أن هؤلاء الرجال لم يكونوا موظفين بل كانوا رؤساء قطاعات فى الاستخبارات البحرية البريطانية. فتح إيان فليمينج باب الغرفة ٣٨ وقاد ديلمر لمقابلة العميد البحرى غودفرى وكان بالغرفة أكثر من قائد نقيب بالبحرية إضافة إلى ضباط من القوات الجوية والجيش حيث قد وجهوا له الكثير من الأسئلة وأجابهم حسبما يعتقد: "بأن الأمر لا يمثل أهمية كبيرة"، لكن الاجتماع كان ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى ديلمر حيت اكتشف أهمية صديقه إيان فليمينج "فلن يكون فى منصب أقل من "إف ١٧"، وهو المساعد الشخصى لرئيس الخدمة العليا بالاستخبارات. وانساق ديلمر خلف فضوله حول المكان الذى سيقوم فيه فيما بعد بأداء بعض من أعظم أعماله.

كان فليمينج يتمتع بالثقة الاجتماعية وقوة الشخصية المطلوبة ليكن خادمًا نافذ التأثير لمديره الحازم والنشيط والصارم، لم يكن فليمينج الأحكم والأرجح عقلاً، لكنه كان بالتأكيد أكثر أفراد الاستخبارات البحرية القسم ١٧ نشاطًا وحيوية؛ فقد قال عنه دونالد ماكلشلان مؤرخ الغرفة ٣٩: "يتمتع فليمينج بمهارة قوية فقد تلقى تدريبه فى رويترز باللغة الإنجليزية الصرفة ما أهله ليكون الشخص الأول لصياغة ردود مديره على طلبات تشرشل المتعجرفة. فقد عاد ونستون وكان كثير المطالب كعادته.

أدى اندلاع الحرب إلى حالة من إعادة التنظيم، حيث كانت وزارة الإعلام هى إحدى وزارتين بريطانيتين جديدتين استحدثتا فى ذلك الوقت. أما الوزارة الثانية فهى وزارة اقتصاد الحرب وكان محور مهمتها يكمن فى إفساد الحياة الاقتصادية للعدو حتى لا تتمكن ألمانيا من القتال، واعتقد بعض فى الوقت ذاته أن تلك مهمة وزارة الإعلام كانت كذلك بالنسبة إلى اتصالات الجبهة الداخلية للعدو. كان بالمبنى الإدارى، بجامعة لندن نحو ٩٩٩ موظفًا مدنيًا بالإضافة إلى إجراء تعيينات جديدة. فيما تولى عضو مجلس الأعيان البارون ماكميلان رئاسة أول وزارة للإعلام لفترة وجيزة. وكان ماكميلان أثناء الحرب العالمية الأولى المدير المساعد بقسم المخابرات برئاسة جون بوشان والتابعة لوزارة الإعلام.

مُنح بوشان البالغ من العمر أربعة وستين عامًا؛ لقب لورد تويدسمير وكان يعيش فى أوتوا. وبصفته حاكمًا عامًا، كان من دواعى حزنه التوقيع على إعلان كندا الحرب ضد ألمانيا. حيث كتب إلى صديق قديم له: "هذه هى الحرب الثالثة التى أخوضها ولا أعتقد أن أحدًا يكره الحرب مثلى"، وقد أسدى نصيحة إلى ماكميلان من بعيد: إنه لا توجد دعاية موجهة لأمريكا ولا يمكن أن يكون هناك ائتلاف فى ظل سياسة الانعزال ولن تكون هناك محاولة للتجمل ولا يمكن لأحد أن ينكر الكارثة". كما اقترح أيضًا: "إنه يجب أن تسير أخبارنا على نهج خطة رويترز وأن تكون موضوعية قدر الإمكان"، على الرغم من أن هذا قد يعنى الخلاف مع وزارة الحربية البريطانية وتحمس البحرية للسرية الصبيانية".

كان الهدف من وزارة الإعلام هو نشر الأخبار بالنيابة عن كل الجهات الحكومية وأجهزة القتال الثلاث، لكن السياسة الإعلامية المسماة (فتح الأبواب والنوافذ) تعارضت مع المهمة الثانية لوزارة الأعــلام التى كانت تتمثل فى مراقبة سياسة (غلق كل الأبواب والنوافذ). ربما تكون السرية قد أعاقت تطور وزارة الإعلام عن تلبية احتياجات الحرب المستقبلية أواخر عام ١٩٣٥ تحت رعاية اللجنة الفرعية الدائمة للدفاع الملكى، فقد كان من المقرر أن تكمن أعمال وزارة الإعلام فى العلاقات العامة وكان من المقرر أن يعين الموظف الحكومى البارع السير ستيفن تالنتس الذى كتب "إسقاط إنجلترا" – The Projection of (England)، الكتيب الذى أدى إلى تأسيس المجلس البريطانى إلا أن التعيين لم يتم إذ تم تعيين ماكميلان مكان تالنتس، وخرجت وزارة الإعلام إلى الوجود عليلة متعثرة. صدرت صفحات الجرائد بمطالب لتقييد هيئة الإذاعة البريطانية. وبعد أربعة أشهر تم تعيين السير جون ريث الرئيس السابق لهيئة الإذاعة البريطانية وشركة الخطوط الجوية الملكية بديلاً عن ماكميلان، حيث اكتشف أن [illegible] محاميًا فى وزارة الإعلام يتولى إدارة الرقابة وكان ذلك المحامى يرى أن مهمته تكمن فى تنفيذ اللوائح بحذافيرها بدلاً من السعى وراء المزيد من الأخبار من القوات المسلحة زيادة على ما يرغبون فى الإدلاء به. كان جون ريث، وفق ما ذكره فى مذكراته اليومية، يعتبر أن الحدث لا يعد خبرًا حتى تصل إليه الصحافة! حاول قسم الدعاية الداخلية بالوزارة رفع الروح المعنوية لكن محاولته باءت بالفشل، وكان عامود ملصقه الأول يقول: "شجاعتك سر سعادتك، وسيمنحنا عزمك النصر"، وسرعان ما أخذ المتشائمون والمستاءون من العامة يتساءلون من المقصود بالضبط فى هذه المعادلة بـ "أنت" و"نحن".

لا تعتبر وزارة الإعلام مسئولة عن منشورات الدعاية أو "الكتيبات" التى أسقطت من سماء ألمانيا فى بداية الحرب، حيث أعدت تلك المنشورات منظمة مجهولة فى لندن تسمى قسم بيت اليكترا، وهو مبنى شاهق فى هضبة فيكتوريا مقر رئيس المجلس الاستشارى للاتصالات الملكية السير كامبل ستيوارت الذى كان يعمل مدير كرو هاوس فى الحرب العالمية الأولى؛ وقد تم توجيه الدعوة له ليشغل الوظيفة نفسها فى الدعاية لصالح الدول المعادية عام ١٩٣٨. تمثلت مهمة بيت اليكترا الأولية خلال أزمة ميونخ،

فى المساعدة فى الحصول على ترجمة ألمانية للخطب التى يلقيها كل من تشامبرلين ودلادير وروزفلت بسرعة وبثها على المحطة التجارية القوية، راديو لوكسمبورج والتى كانت قريبة من ألمانيا ويسمعها العديد من الألمان، كان ذلك أمرًا حساسًا، حيث إن هيئة الإذاعة البريطانية نفسها كانت تحاول إغلاق لوكسمبورج لكونها محطة "قرصنة" يفضل الكثير من المستمعين الإنجليز الموسيقى التى تبثها على ما تقدمه هيئة الإذاعة البريطانية، لذا لم تسعد الهيئة كثيرًا عندما استخدمت الحكومة البريطانية على وجه السرعة طاقم عملها ومنشآتها فى هيئة الإذاعة لمساعدة إذاعة منافسة.

كان يشار إلى رئيس خدمة لاستخبارات السرية، والمعروفة أيضا بالاستخبارات العسكرية قسم ٦، عادة بالحرف "سى" مسبوقًا بالحرف الأول من لقبه وذلك عام ١٩١١، وقبل الحرب ذاع صيت جهاز الاستخبارات السرية فى مجال الجاسوسية أكثر مما كانت عليه حقيقته، ذلك أن العميد البحرى السير كيو سينكلير كان يحب السرية وكان الوحيد "الذى يملك المعلومات" بسبب الدواعى الأمنية. وبعد ذلك عمل معظم ضباط جهاز الاستخبارات السرية خارج البلاد كضباط مراقبة جوازات فى السفارات والقنصليات البريطانية، وفى أواخر عام ١٩٣٦ أدرك سينكلير أن الأمر قد تكشف لأعداء المملكة المتحدة فأنشأ منظمة بديلة تسمى "زد"؛ وهى عبارة عن شبكة تقوم بجمع المعلومات من ألمانيا النازية ومن إيطاليا الفاشية.

تولى كلود دانسى رئاسة "زد"؛ وكانت القصة التى تسببت فى إنهاء عمله فى خدمة الاستخبارات السرية قد أحدثت ضجة كبيرة حيث تورط فى سرقة خزينة روما. لم يكن أحد آخر فى خدمة الاستخبارات السرية غير العميد البحرى سينكلير يعلم شيئًا عن شبكة "زد" التى كانت تدار من شقة بالطابق الثامن بالجناح الشمالى الغربى من مبنى بوش هاوس، وتستخدم واجهات شركات مجاورة لها مثل شركة جوفرى دوفين شركة جول برازرز لتجارة الماس.

طلب سينكلير من الرائد لورنس جراند فى مارس عام ١٩٣٨؛ مجددًا إنشاء منظمة بريطانية لتغطية الأنشطة الهجومية من خلال البحث فى كل السبل الممكنة

لمهاجمة الأعداء عبر وسائل أخرى غير العمليات العسكرية؛ ومن ثم ترقى جراند إلى عقيد وأنشأ الأجهزة داخل الاستخبارات العسكرية ٦، القسم دى مستخدما اسمًا مستعارًا وهو قسم الأبحاث الإحصائية التابع لوزارة الحربية البريطانية، وبدأ فى إنشاء شبكة من العملاء فى مدن خارجية لا سيما فى منطقة البلقان، وبدأ فى دراسة أعمال التخريب السرية، وتدريب المخربين وطرق التصدى لأعمال التخريب، إضافة إلى إنتاج وتجريب الذخيرة والمتفجرات، ومن المفترض أن تلتزم الأجهزة السرية بالهدوء إزاء ما تقوم به من أعمال، لكن القسم دى تجاوز حتى تسبب فى إثارة الجلبة التى تتعارض مع طبيعته، علاوة على ذلك فقد رأى القسم دى أن التخريب المدمر ضد الأعداء المحتملين يجب ألا يقتصر على الجانب المادى فقط بل يجب أن يشمل الجوانب الأخلاقى والفكرى واللغوى، إلا أن هذا يعتبر من مجالات الدعاية التى تسببت فى وجود كم هائل من الاضطراب والفوضى فى بيت اليكترا، والقسم الخارجى بوزارة الإعلام والاستخبارات العسكرية ٧ فى وزارة الحربية البريطانية.

مع بداية من مارس ١٩٣٩، كانت تدفع أموال خدمة سينكلير السرية لوحدة أبحاث الاستخبارات العسكرية الصغيرة التابعة لوزارة الحربية البريطانية التى تسمى الاستخبارات العسكرية (آر) بقيادة الشهير العقيد جيه سى إف هولاند المعروف بولعه بالتدخين، والذى يتبع سلاح المهندسين الملكى.

كان جون هولاند مهتمًا بدراسة حرب العصابات، كما أعد بحثًا مشتركًا مع جراند عام ١٩٣٩ حول عمليات حرب العصابات التى يمكن القيام بها ضد ألمانيا، وطلبت منه الاستخبارات العسكرية (آر) الاستمرار فى دراسة الحرب غير التقليدية لصالح الخدمات الموحدة من أجل وضع دليل تعليمات للخدمة الميدانية لحرب العصابات والفرق غير النظامية؛ ومن أجل استقصاء أجهزة التخريب التى يمكن أن تنشأ لمساعدتهم. لذا عين هولاند ضابطى أركان لمساعدته، هما الرائد كولين جوبنس باحث المدفعية الملكية مؤلف كتابى "دليل قائد حرب العصابات" – (The Partisan Leader's "Handbook") الذى يذكر فيه "المفاجأة هى أهم العناصر التى يجب التأكيد عليها، كما شارك كولونيل هولاند

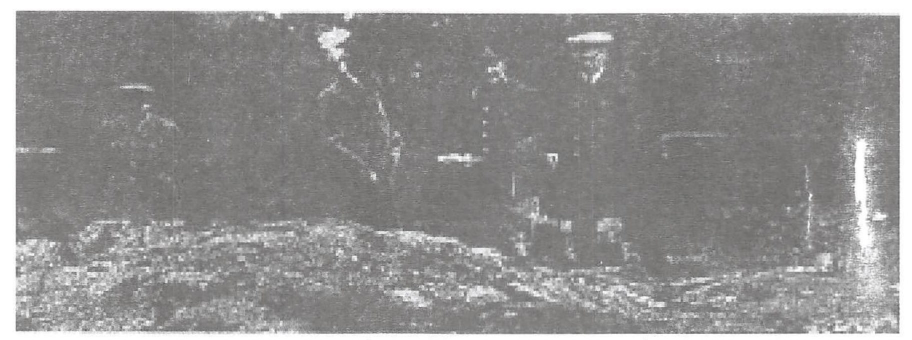
فى كتابة "فنون حرب العصابات" – (The Art of Guerrilla Warfare) الذى تناول بوجه خاص تى إى لورنس فى الحرب العالمية الأولى، والجيش الجمهورى الأيرلندى، والمتمردين العرب فى فلسطين والحدود الشمالية الغربية للهند. كان ضابط الأركان الثانى الذى عينه العقيد هولاند هو الرائد والمهندس العسكرى ذو الوجه البشوش ميليس جيفريس الذى اخترع فيما بعد "القنبلة اللاصقة"؛ كما ألف كتاب "طريقة استخدام المتفجرات القوية – "(How To Use High (Explosives)" ولو نشرت تلك الكتب اليوم، كما أشار باتريك هوارث فى كتابه "التجسس" – (Undercover) الصادر فى ١٩٨٠، لصنفت فى قائمة الكتب الإرهابية. ضمت الاستخبارات العسكرية (آر) المغامرين من اللغويين والمكتشفين والكتاب وكبار الموظفين الذين كان يرصدهم مدير الاستخبارات العسكرية، وبعد إجراء مقابلة شخصية مع الرائد جيرالد تمبلر من الاستخبارات العسكرية بوزارة الحربية البريطانية غرفة ٣٦٥، كان يتم إرسالهم فى ملابس مدنية إلى كامبريدج للحصول على دورة تدريبية (حيث كانوا يتعرفون فيما بعد بشكل غير رسمى على حكام المقاطعات). كانت محاضراتهم تتناول حرب العصابات، المقاومة، التخريب، التآمر والاتصالات اللا سلكية السرية.

تولى سينكلير رئاسة القسم "سى" منذ عام ١٩٢٣؛ إلا أن مهامه لم تقتصر على التحكم فى الجواسيس الذين يقومون بالتخابر، بل وكان يعمل أيضا مديراً للمدرسة الحكومية للكود والشفرة التى تعاملت مع استخبارات الإشارة والتى كان لها دور حيوى فى إحراز النصر فى الحرب العالمية الثانية. أنشأ سينكلير مدرسة عام ١٩١٩ عندما كان مديراً للاستخبارات البحرية من خلال دمج بقايا الغرفة ٤٠ من الأميرالية مع نظيرتها فى وزارة الحربية البريطانية. كانت تلك المدرسة، التى كانت نوعًا من التمويه؛ إذ لم تكن تدرس أى شىء، تخضع من حيث المسمى لوزارة الخارجية وكانت تأخذ الأموال من وزارة الخارجية. بينما واصلت المدرسة الحكومية للكود والشفرة استخبارات الإشارة وقت السلم من خلال اعتراض وفك شفرات الاتصالات السلكية واللا سلكية لكل من القوى الصديقة والمعادية، حيث ورد العديد من المواد بموجب قانون الأسرار الرسمية الذى ساعد سينكلير فى صياغته وبموجبه

كانت كل شركات السلكية العاملة فى بريطانيا ملزمة قانونيًا بتسليم نسخ من جميع البرقيات المرسلة أو المستلمة فى غضون عشرة أيام. كما كان هناك – إلى جانب ذلك – اعتراض للرسائل اللا سلكية أو محطات "واى" فى المناطق الرئيسية الداخلية والخارجية. وفى عام ١٩٢٠ عندما شكل التآمر الشيوعى تهديدًا كبيرًا، استطاعت المدرسة الحكومية للكود والشفرة تحت قيادة نائب مديرها أليستير دينستون فك كل رموز وشفرات الاتحاد السوفيتى، إلا أنه ولسوء الحظ لم يتمكن السياسيون فى حكومة ستانلى بولدوينز عام ١٩٢٧؛ من مقاومة رغبتهم فى إعلانهم الحصول على هذه المعلومات السرية، ومن ثم بدأ الاتحاد السوفيتى إرسال إشاراته اللا سلكية التجارية والدبلوماسية باستخدام نظام التشفير "OPT"؛ ما يمثل حيلة لا يمكن اختراقها، ومن هنا لقنت هذه الخسارة المفجعة الاستخبارات درسًا لا ينسى عن السرية فى الحرب العالمية الثانية: لا تدع عدوك يعرف أبدًا أنك حصلت على معلومات تخصه أو الطريقة التى استخدمتها فى سبيل ذلك.

كان دينستون اسكتلنديًا نحيف الجسم، تولى قيادة القسم خلال سنوات عجاف، فلم يكن يتجاوز عدد أفراد طاقم العمل ستة وستين فردًا عام ١٩١٩؛ وفى عام ١٩٣٥ لم يتجاوز عددهم ١٠٤ أفراد. وبعد مرور عامين طلب الأميرال سينكلير من دينستون أن يبدأ فى تعيين وتجنيد المزيد من أساتذة الجامعات ممن هم على استعداد لتحليل الرموز السرية إذا ما اندلعت الحرب، وقد كان من المحتمل أن تنتقل المدرسة الحكومية للكود والشفرة عدة أميال من مبنى برودواى فى لندن إلى مبنى كبير اشترته خدمة الاستخبارات السرية عام ١٩٣٨ فى مدينة بكنغهامشير حيث سمى ذلك المبنى بلتشلى بارك. وكان من بين ١٢٠٠٠ رجل وسيدة يتسمون بالعبقرية الفذة ممن يعملون فيما يسمى "المحطة إكس"، عضو شاب نحيل وهو زميل لكلية كينجز كامبريدج يدعى آلان إم تورينج. يوصف تورينج بأنه مؤسس علم الحاسوب الحديث، حيث قام تورينج بعمل أول حاسوب رقمى مبرمج يسمى كولوسوس الذى ساعد فى فك رموز أهم أسرار ألمانيا، كما أوجد أعلى مستوى فى قسم الاستخبارات الخاصة الذى عرف باسم الترا.

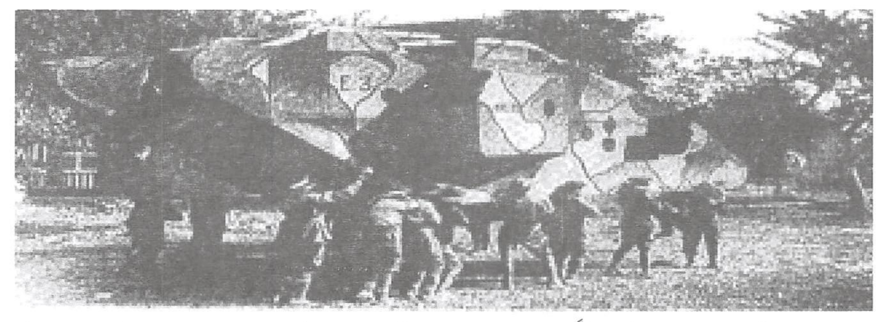
عندما انتشرت البحرية الألمانية فى مياه البحر الأبيض المتوسط بهدف الدعم العسكرى لقوات الجنرال فرانكو المتمردة أثناء الحرب الإسبانية الأهلية، كانوا يتناقلون الإشارات عبر رموز سرية والتى لم تتمكن بريطانيا من فكها، حيث كانوا يتواصلون من خلال ألغاز آلات التشفير الميكانيكية الكهربية انجيما التى كانت تشبه الآلة الكاتبة الموضوعة داخل صندوق خشبى، غير أنها كانت معقدة لتباين فتحاتها وأيادى تدويرها. وبحلول ١٩٣٧، كانت المدرسة الحكومية للكود والشفرة تقوم بتحليل الإشارات دون فهم رسائل قوات الشرطة وقوات الجيش والقوات الجوية الألمانية التى كانت تستخدم أيضًا رموز ألغاز انجيما، ومع اقتراب عام ١٩٣٩، اتصل مكتب الشفرة البولندى بنظيريه الفرنسى والبريطانى وطلب منهما الزيارة.



١- ونستون تشرشل (يمسك بسيجار وقت أن كان وزيراً للعتاد الحربى) فى خنادق تدريب تتبع مدرسة الجيش البريطانى للتمويه فى كنجستون جاردنز عام ١٩١٧، حيث يتفقد كتيبة مدرعة جديدة لنقطة مراقبة خاصة بالمدفعية الآلية، تتوارى فى قماش ملون.



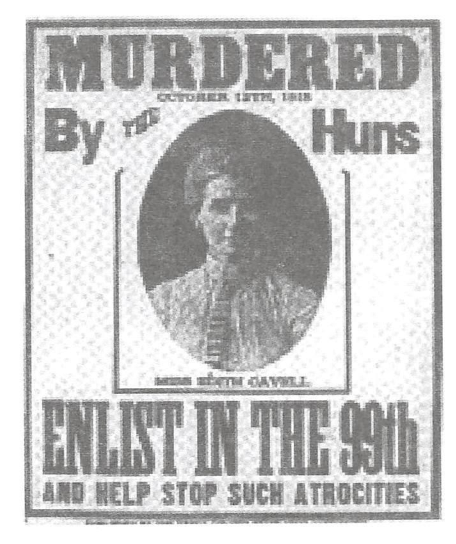
٢- دمية لجندى ألمانى متوفى أعدتها مدرسة التمويه، وقد استخدمت بعض الأشكال لتشبه القناصة المختبئين؛ بينما يتواجد آخرون فى زيهم الرسمى كأسرى تم وضعهم فى منطقة غير آهلة بالسكان مع تحريك أطرافهم بواسطة سلك، قد ينخدع بهذا المنظر أصدقاؤهم فيلجأون لمساعدتهم ومن ثم يسقطون فى الكمين.



٣- قوات أسترالية تحمل قطعاً خشبية إضافة إلى قماش كتانى مزيف يشبه النموذج ١ من الدبابة البريطانية فى فرنسا عام ١٩١٧، يستخدم كشراك لاستنزاف قذائف العدو أو لإحداث انطباع زائف بوجود هجوم مباغت.



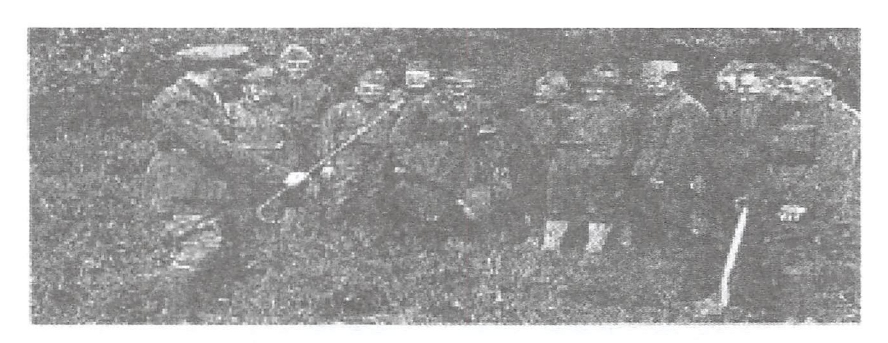
٤- الأسطورة "لورنس العرب"، النقيب تى إى لورنس فى صورة فوتوغرافية فوق معسكر فيصل فى مطلع عام ١٩١٧؛ مرتديًا زيًا عربيًا وساعة يد غربية. كان عالم الآثار وضابط الاستخبارات، لورنس، حلقة الاتصال الرئيسية بين القوات البريطانية والثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين مبتكرًا بذلك أنماطًا جديدة من حرب العصابات.



٥- الدعاية الحربية: استغل الإعدام الألمانى للممرضة إديث كافيل رميًا بالرصاص فى بلجيكا على يد فرقة الإعدام فى هذا الملصق الكندى الذى صدر عام ١٩١٦ كحافز للحث على التجنيد، حيث أعدمت بسبب مساعدتها لجنود فرنسيين وبلجيكيين وإنجليز فى الهروب إلى أراضى هولندا المحايدة. والسؤال: هل كانت نورفولك كما قيل، وهل كان قتلها جريمة بشعة؟

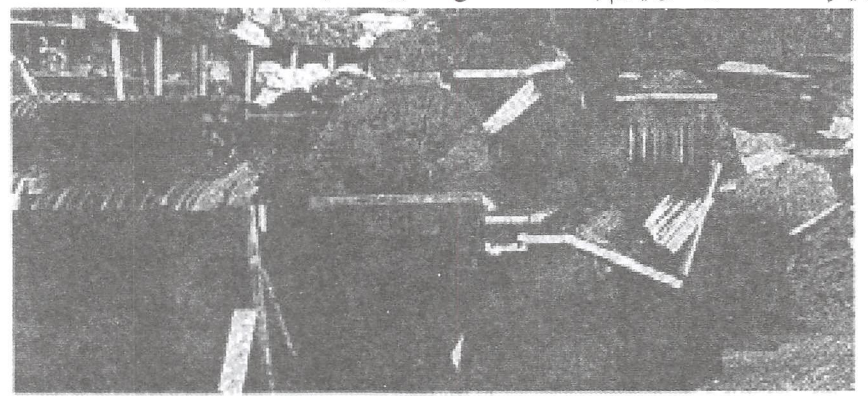
ملاحظة:

(بالملصق تاريخ تنفيذ حكم إعدام إديث كافيل، أعدمت على يد الألمان الأوغاد فى ١٢ أكتوبر ١٩١٥؛ وبه عنوان أسفل الملصق يقول: تطوع فى قائمة ٩٩ وساعد فى إيقاف هذه المجازر).

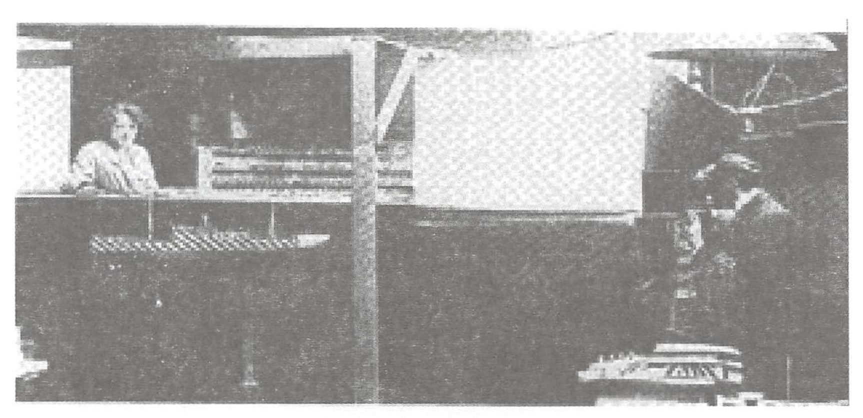




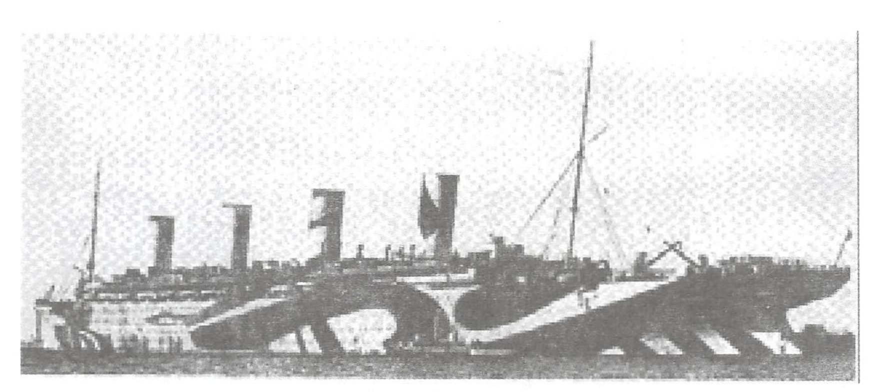
٦ و٧- جنود الفرقة ٧٧ الأمريكية يتعلمون التمويه فى إحدى مدارس المستطلعين البريطانية وفى مدرسة المراقبين والقناصين الفرنسية فى مايو ١٩١٨، حيث يقوم المعلم ممسكًا بعكازه بتعليمهم كيفية إخفاء القناص الذى يقوم بكشف نفسه فى الصورة الثانية.



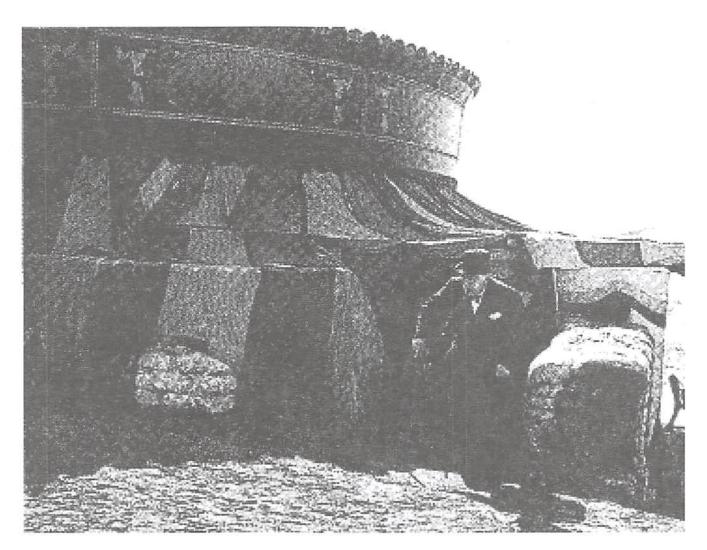
٨- مجموعة من الأشكال المضللة تستخدم فى التمويه أو فيما يعرف بالهجمات "الصينية" فى حرب الخندق وعندما تسحب بالبكرة فى منطقة معتمة؛ فإنها تلفت انتباه العدو وهذا يساعد فى استنزاف ذخيرته. بينما تم عمل رءوس مصنوعة من الورق تم طلاؤها وتلبيسها لتبدو حقيقية ثم يتم رفعها فوق متاريس الخندق لتضليل قناصة العدو حيث يقومون برصدها وإطلاق الرصاص عليها.



٩- مرسم خاص أنشأه المخادع البحرى نورمان ويلكنسون فى الأكاديمية الملكية للفنون فى بيرلينجتون هاوس فى لندن أثناء الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى وجود نماذج لسفن ذات "ألوان زاهية" موضوعة على أقراص دوارة يتم رصدها بعد ذلك من خلال منظار أفق غواصة لتحديد إذا ما كان تأثيرها يبدو حقيقياً أم لا، وفيما بعد يقوم ضباط فنانون بتحويل النماذج الناجحة منها إلى سفن حقيقية فى ترسانة السفن.



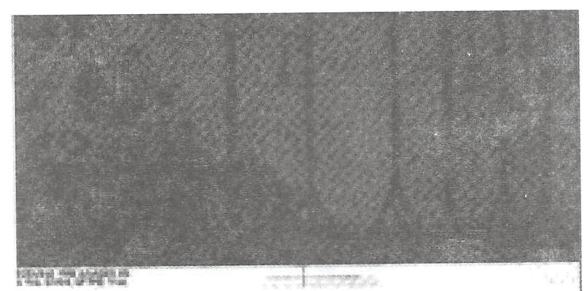
١٠- "يعتبر الهدف من التمويه هو أن تعطى انطباعًا خاطئًا بأن مقدمة السفينة هى مؤخرتها والعكس، لذا طليت إس إس أوليمبك بلون مبهرج يرى من خلال الربع الأيسر من مؤخرة السفينة"، حيث كانت تأخذ قوارب اليو الألمانية رسوماً على الشحن فى ١٩١٧ كما كان كل شىء قد يعيق هدف قائد الغواصة يتعرض لإطلاق القذائف.



١١- يتفقد رئيس الوزراء ونستون تشرشل ١٩٤٠ الدفاعات الساحلية المواجهة للغزو النازى بالقرب من هارتبول. أخذت أكياس الرمل المخصصة لإطلاق المدافع عن طريق التمويه شكل طريق ساحلى ملتوٍ.



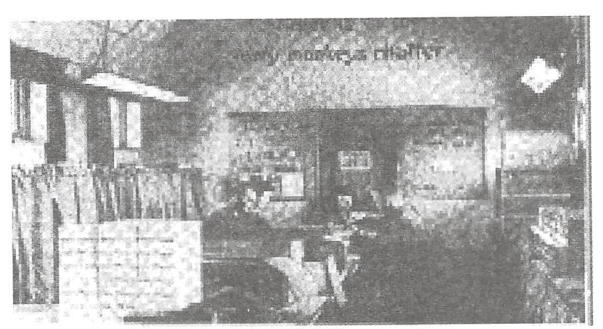
١٢- خروج متطوع محلى بريطانى فى الحرب العالمية الثانية من مخبأه ليكون بصدد إلقاء قنبلة، كان المدافعون الهواة سيبادون حال نجاح الجيش الألمانى فى الغزو عامى ١٩٤٠/١٩٤١.

١٣- أدولف هتلر يتراقص فرحًا بعد توقيع هدنة فى مدينة كومبيجن، حيث كان استسلام فرنسا الكامل أبلغ ثأر للهزيمة المذلة للألمان عام ١٩١٨.



١٤- كاريكاتير من جريدة سكيتش بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٤١، وفيه يقوم ويليام هيث روبنسون (١٨٧٢-١٩٤٤) بوضع مخططات تمويه وخداع غريبة ورائعة فى الحربين العالميتين.

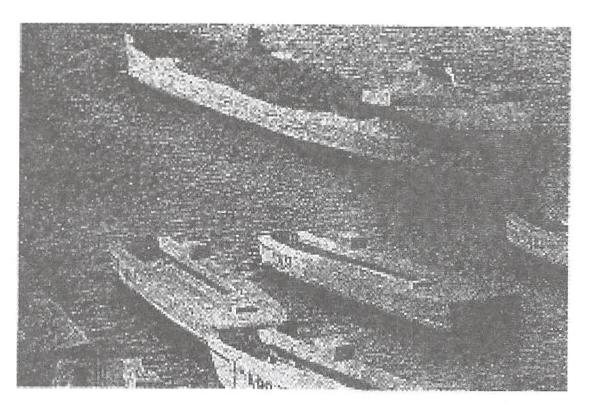


١٥- "متجر ملابس" فى المقر الإدارى الخامس عشر للعمليات الخاصة فى مبنى ثاتشد بارن بالقرب من استوديوهات أفلام إلسترى. قام هذا القسم بتجنيد عملائه السريين وعملاء الخدمات الخاصة للتخريب والتدمير فى أراضى دول المحور المحتلة.

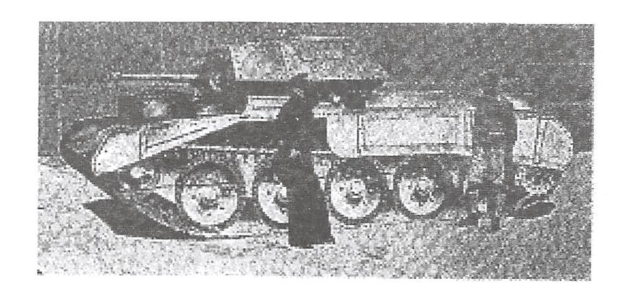
صمم بغرض الخداع.



١٦- نموذج طائرة بريطانية فى قاعدة "عدم" الجوية بالقرب من طبرق التى تعد جزءًا من خطة خداع القوة "أ" فى البحر الأبيض المتوسط.



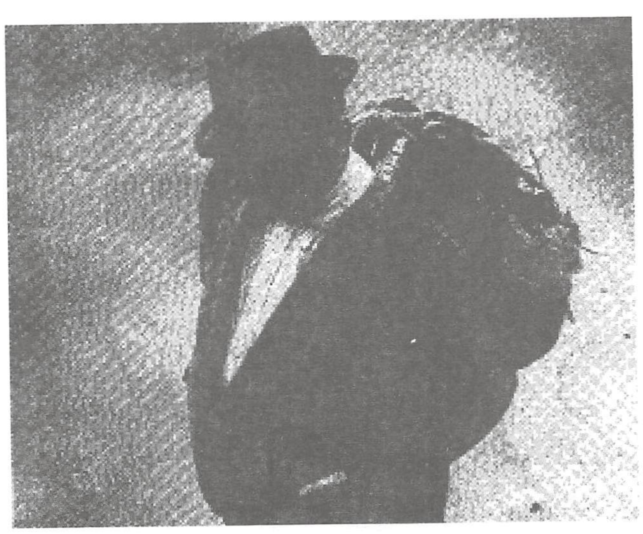
١٧- نموذج طائرة هبوط ترسو شمال إفريقيا تشير إلى غزو اليونان فى عام ١٩٤٣.



١٨- نموذج دبابة لخداع المراقبين الإيطاليين والألمان شمال إفريقيا عام ١٩٤٣؛ قام بتصميمه مهندسو الفيالق الملكية المدرعة من قماش ملون ممتدًا على هيكل معدنى وموضوع على هيكل شاحنة نقل.



١٩- المقدم ديفيد ستيرلينغ مؤسس القسم الجوى الخاص، إلى جانب قائد الدورية الملازم إدوارد ماكدونالد (بجانبهما خنجر الفدائى فيربيرن سايكس) والعريف بل كيندى. كان أشهر فوج فى جهاز الطيران الخاص فى بادئ الأمر محض وحدة خيالية، حيث أوهم خداع ديدلى كليرك بوجود وحدات مظلات بريطانية فى شمال إفريقيا عام ١٩٤١، فى حين أن ذلك لم يكن حقيقياً.



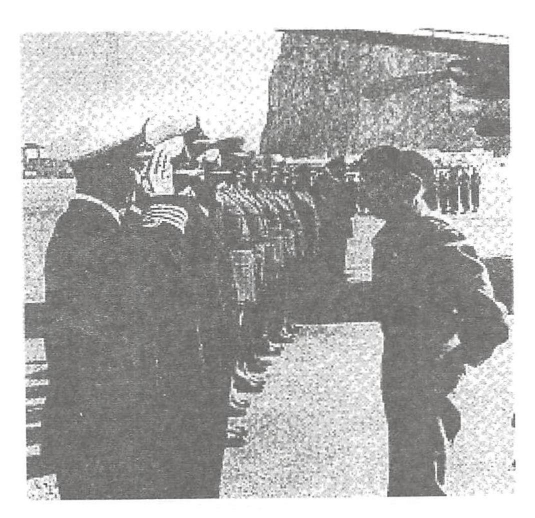
٢٠- المقدم ديدلى كليرك قائد القوة "أ" فى القاهرة وأهم مخادع بريطانى؛ حيث ألقى القبض عليه فى قطار شحن بمدريد فى أكتوبر ١٩٤١، عندما كان ينشر معلومات مغلوطة لتصل إلى عملاء ألمانيا السريين فى إسبانيا.



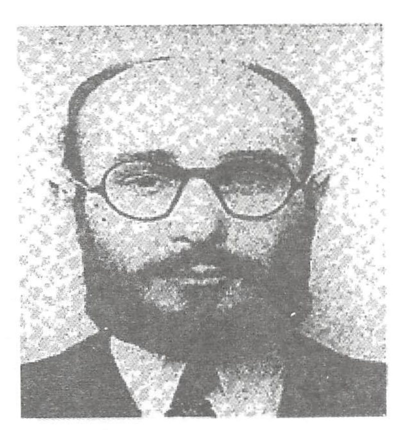
٢١- سيفتون ديلمر صحفية بصحيفة ديلى إكسبرس، أستاذة حملة الدعاية البريطانية السوداء ضد ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية وكانت تتحدث اللغة الألمانية بطلاقة.



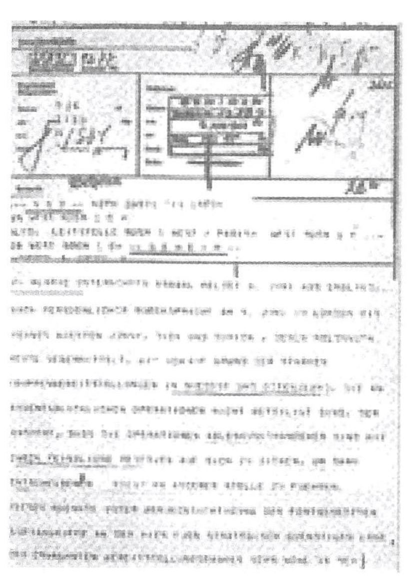
٢٢- جثة حقيقية لـ "رجل مجهول الهوية" قبل شحنها فى غواصة إلى إسبانيا فى شهر أبريل ١٩٤٣؛ بهوية ومحفظة جلدية مليئة بأوراق مزورة بهدف خداع الألمان عن الغزو المقبل من صقلية.



٢٣- لقطة من فيلم "كنت مونتى المزيف" (I Was Monty's Double) حيث يقوم فيها الممثل إم إى كليفتون جيمس بتجسيد شخصية المشير برنارد مونتغمرى فى جبل طارق كما فعل تماما فى أواخر مايو عام ١٩٤٤. وقد سمح بانتحال الشخصية لمونتى الحقيقى التجهيز لغزو نورماندى فى ٦ يونيو.



٢٤- خوان بويول غارسيا من مواليد مدينة برشلونة وأعظم عميل مزدوج ناجح خلال الحرب العالمية الثانية، أطلق عليه البريطانيون جاربو كاسم سرى.(ذلك لأنه كان ممثلاً جيداً) فيما قلدته ألمانيا وسام الصليب الحديدى (وهى ميدالية ألمانية كانت تمنح فى الحرب العالمية الثانية) لقيادة المجموعة الجاسوسية فى بريطانيا التى كانت فى الحقيقة محض خيال، يسير وفق خطة خداع التحالف استراتيجياً.



٢٥- رسالة حاسمة من خوان بويول تلقاها مقـر القيادة العامة الألمانى فى ٩ يونيو ١٩٤٤ عبر التلغراف. وبوصفه بطلاً قوميًا ألمانيًا أو عميل أرابال، أخبر بأن نزول سفن دى - داى كان تمويها عن الهجوم الحقيقى، مما أقنع هتلر بأن يتراجع عن إرسال تسع عشرة سفينة بحرية متوجهة نحو كاليه مما حال دون غزو نورماندى.



٢٦- رئيس الوزراء ونستون تشرشل يزور فرنسا الحرة فى ١٢ يونيو ١٩٤٤ بعد ستة أيام من بدء العمليات. لم تكن رأس جسر نورماندى الساحلى مؤمنة بالكامل وكان على عباقرته مواصلة فترة العمل لأسابيع إضافية لتحقيق أعظم انتصار للعسكرية البريطانية فى القرن العشرين.

في ٢٤ يوليو ١٩٣٩؛ وقبل شهر من قيام كلير هولينجورث برحلتها التى أشرنا إليها، سافر أليستير دينستون برفقة اثنين من زملائه هما ألفريد نوكس وهمفرى ساندويز من المدرسة الحكومية للكود والشفرة إلى وارسو. وفى اليوم التالى رحلوا إلى بيرى وهى قرية فى غابات جنوب وارسو حيث دخلوا غرفة بها أشياء بارزة على منضدة مغطاة بملاءة، ثم قام مضيفوهم البولنديون بكشف قطع المقاومة وهى عبارة عن: ثلاث آلات أنجيما صمموها بأنفسهم مع أذرع تحريك موصلة بشكل مضبوط وفق الطريقة الألمانية. وقد حصل كل من الإنجليز والفرنسيين على واحدة لإجراء مزيد من البحث التقنى ولشحنها إلى باريس.

وصلت آلة أنجيما البريطانية إلى محطة فيكتوريا فى قطار "جولدن آرو" نهاية ١٦ أغسطس ١٩٣٩ فى حقيبة دبلوماسية ضخمة أخفيت فى أمتعة للمطرب ساشا جيوترى وزوجته، حيث استقبله فى المساء مندوب سينكلير العقيد ستيوارت منزيس على رصيف محطة القطار مرتدياً زياً رسمياً تعلوه نجمة الجيش الشرفية معلقة بعروة سترته. وبعد مرور ثلاثة أشهر من وفاة سينكلير تقلد منزيس رئاسة "سى" ومنحه الملك جورج السادس شارة العاج لمنصبه وأصبح حارس الترا الذهبى.

أنقذت استخبارات الإشارة، جهاز الاستخبارات السرية من كارثة جهاز التخابر عن الأشخاص، ففى ٩ نوفمبر ١٩٣٩ تم القبض على اثنين من العملاء السريين فى فنلو على الحدود الألمانية - الهولندية. اعتقد الرائد ريتشارد ستيفنز ضابط مراقبة الجوازات والنقيب سيجسموند باين بست صاحب نظارة بعين واحدة، الذى عمل لدى شبكة "زد"، أنهما كانا فى مهمة لتجنيد منشق ضد النازية، وهو ألمانى ذو منصب عال فى القوات الجوية الألمانية تولى قيادة المقاومة ضد هتلر. إلا أن الأمر كان فى الحقيقة عملية تمويه قام بها التجسس الألمانى المضاد، مكتب الأمن الرئيسى الوطنى، لكشف جميع شبكات عمل الاستخبارات البريطانية فى هولندا. كان ألفريد ناوجوكس الذى قاد هجوماً مزيفاً على محطة إذاعة جلايفيتز على الحدود البولندية فى بداية الحرب من بين من ألقى القبض عليهم ضمن العصابة، وبسبب خدعته الجديدة هذه منحه هتلر بنفسه

ميدالية الصليب الحديدى، وفى أثناء التحقيقات أقر ستيفنز بست بكل شىء، ثم قام الجستابو بنشر الكثير من المعلومات التى أدلى بها حول الخدمات السرية البريطانية فى نشرته فيما عرف بمعلومات حول كبار الإنجليزيين وهو كتيب أعده جنرال الخدمة السرية والتر شلنبرج حول غزو القوات النازية التى كان من المقرر لها أن تجتاح وتحتل وتطهر بريطانيا العظمى بعد أن أحكمت قوة جورنج الجوية سيطرتها على القطاعات الجوية.

وفى صيف عام ١٩٣٩، طلبت وزارة الحربية البريطانية من رئيس مؤسسة الإذاعة فى بريطانيا العظمى آرثر واطس البحث عن مجموعة من الهواة المتحمسين للقيام بمهمة التنصت على إشارات العدو السرية التى يستخدم فيها شفرة مورس من خلال الموجات القصيرة. تقدم آلاف المتطوعين من "هواة البث" لاعتراض الإشارات، وتم إلحاقهم بمجموعات وأقسام خدمة أمن البث وهى إحدى الخدمات السرية الحربية التسع. بيد أنهم لم يتمكنوا من العثور على إشارات بث من قبل جواسيس داخل إنجلترا، لكنهم تمكنوا من رصد بعض إشارات مورس الضعيفة المقبلة من أوروبا التى أتت فى صيغة مجموعات مشفرة تحولت إلى رسائل نصية موجهة للعملاء السريين لألمانيا بالخارج. وفى مقر قيادتها الجديد فى أركلى فيو فى نورث بارنت قامت خدمة أمن البث التى ضمت أساتذة من كليات جامعة أكسفورد مثل: كيو تروفر - روبر، وستيوارت هامشير، وجلبيرت رايل؛ بتنقيح وتصنيف الإشارات قبل تمرير الرسائل إلى بلتشلى بارك لفك الشفرات، ومن هنا لعبت القدرة على قراء رسائل الاستخبارات الألمانية دوراً حاسماً فى عمليات الخداع فيما بعد.

بدأ الاتصال بين الإذاعة والعملاء المزدوجين قبل اندلاع الحرب، ومن بين هؤلاء مهندس كهربائى من ويلز يدعى آرثر أونس وكان المسمى الكودى له "سنو".. أجرى أونس اتصاله الأول بالاستخبارات العسكرية الألمانية عام ١٩٣٦، حيث قاموا بعد ذلك بإعطائه جهاز إرسال لا سلكى؛ وبهذا أصبح أونس أحد الجواسيس الألمانيين الستة فقط المعروفين فى بريطانيا، ومع ذلك فقد كان يرفع تقاريراً عن نشاطه إلى السلطات البريطانية.

وعندما اشتعل فتيل الحرب انتهى المطاف بآرثر أونس إلى سجن واندسوورث الذى يشرف عليه جهاز الأمن السرى البريطاني، والذى يقوم بالتجسس المضاد ويعرف أيضا باسم الاستخبارات العسكرية القسم الخامس، فيما طلب أونس من الرائد تى إيه روبرتسون من القسم "بى" الذى يتبع الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس السماح له ببث رسائل لا سلكية تتم مراقبتها إلى هامبورج، الأمر الذى بدأ فى ١٩٣٩، ولكن سنو كان يقوم فى بادئ الأمر بإرسال تقارير الحالة الجوية بشكل رئيسى.

ثم سمح لسنو فيما بعد بالسفر إلى بلجيكا برفقة زميله الجديد والوطنى جويليم ويليامز (مفتش الشرطة المتقاعد) وهو من مقاطعة ويلز، لمقابلة مراقب الاستخبارات العسكرية الألمانية؛ الرائد نيكولاس رايتر؛ وبداية من هذه البعثة علمت الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس بوجود ثلاثة جواسيس إضافيين كانت تخصصهم الشئون البحرية والعسكرية الألمانية، بتقنيات وخطط التخريب وباتصالاتها السرية عبر طوابع البريد والخطابات متناهية الصغر، لكن أهم ما فى هذه القصة يتمثل فى مساعدة المراقبة التى تقوم بها خدمة أمن البث على محطة التحكم فى رسائل سنو اللا سلكية، فى فك شفرات إشارات الاستخبارات العسكرية الألمانية فى أبريل ١٩٤٠، وأصبحت الشفرات التى تتداولها الأجهزة السرية معروفة باسم مجموعات أوليفر ستراتشى السرية، ذلك بعدما قام رئيس القسم فى بلتشلى بارك، شقيق ليتون ستراتشى، بفك الشفرات بما فى ذلك اليابانية منها منذ الحرب العالمية الأولى.

مكنت قراءة إشارات جهاز الاستخبارات الألمانية القسم الخامس للاستخبارات العسكرية، من إلقاء القبض على عشرين جاسوسًا من واقع واحد وعشرين جاسوسًا ألمانيًا قدموا إلى بريطانيا عبر المظلات والقوارب الصغيرة والطائرات البحرية وقوارب اليو بين شهرى سبتمبر ونوفمبر ١٩٤٠. (بينما أطلق الجاسوس الحادى والعشرين على نفسه الرصاص يأسًا، بعد أن نفدت مؤنه من الطعام ونقوده وهو فى ملجأ هربًا من الغارات الجوية فى كامبريدج)، فيما تم سجن اثنى عشر من الجواسيس حتى انتهاء الحرب وتم تنفيذ حكم الإعدام فى خمسة منهم؛ وتم تجنيد ثلاثة منهم ليكونوا

عملاء مزدوجين لتار روبرتسون وقسمه بى وان إيه، ما يعنى أنهم سيستمرون فى العمل لصالح الألمان ويتقاضون منهم المقابل، ولكن كل تحركاتهم وتقاريرهم تخضع لمراقبة البريطانيين المحكمة. قام بعض بعمل ذلك تطوعًا فيما اضطر الآخرون للقيام بذلك خوفًا من البديل القاسى. وتمكن جهاز الأمن السرى بفضل نجاحات سنو من مراقبة جميع الجواسيس الألمان فى بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، كما قام بتحديد هويتهم جميعًا ومكان وزمان وصول الجدد منهم، فمن خلال الحصول على كل المعلومات التى رفعها الجواسيس إلى ألمانيا، اكتسبت بريطانيا فرصًا عديدة لخداع وتضليل العدو(١).

بعد صراع بين قسمى الاستخبارات العسكرية الخامس والسادس حول من يملك السلطة والسيطرة على هذه القنوات، أنشئت لجنة تنسيق للتأكد من تحرى المصداقية وعدم اعتراض البرقيات. وتولى رئاسة أول مجلس لا سلكى العميد البحرى جون غودفرى ليكون رئيسًا لجميع أجهزة الاستخبارات. ثم انتقلت تلك المهمة فيما بعد إلى مستوى تنظيمى أقل حيث جرى إنشاء ما يسمى بلجنة توينتى كوميتى (لجنة العشرين) المعروفة بين العامة باسم توينتى كلب (نادى العشرين) أو "لجنة ثنائى x"؛ حيث إن الرقم عشرين فى الترقيم الرومتنى هو "xx". وجرى أول اجتماع لها فى سجن وورد سكربس ٢ يناير ١٩٤١ وانتظم بعد ذلك اللقاء كل أربعاء على مدار أربع سنوات وأربعة أشهر وهى الفترة التى استمرت فيها الحرب فى أوروبا.

كان ممثل الاستخبارات البحرية المعتاد فى لجنة توينتى كوميتى هو المحامى اليهودى، والرائد البحرى إيوان مونتاجيو، من احتياطى المتطوعين فى البحرية الملكية

---

(١) هذا ينطبق تمامًا على الألمان، فمنذ بداية ربيع ١٩٤٢ حتى خريف ١٩٤٣ تحكم الملازم إتش جيه جيسكى الذى يتبع الاستخبارات العسكرية الألمانية فى العملاء الذى يعملون فى هولندا المحتلة، حسبما أخبر البريطانيون ذلك بوضوح فى أبريل ١٩٤٤، تم نشر القصة الأليمة التى تحكى الكيفية التى تم بها خداع البريطانيين فى الرواية المعروفة باسم سلك آند سيانيد، ورواية كود ميكرز ستورى ١٩٤١-١٩٤٥ بقلم ليو ماركس ورواية لو كنتريز بقلم أن أر دى فوت.

وصـهر سولومون جوزيف سولومون. وقبل يوم من اجتماع لجنة توينتي كوميتي شوهد مونتـاجيو في زيه الرسمي بالحانة الأمريكية بفندق سافوي بلندن، يحتسي الخمر ويتحدث إلى شخص أنيق المظهر عن اليخوت، كان ذلك الشخص يوغسلافي الجنسية يدعى دوسكو بوبوف وقد خضع للتحقيق بعد اثنى عشر يومًا قضاها في إنجلترا من قبل قسمي الاستخبارات العسكرية الخامس والسادس؛ حيث تبين أنه عاد على متن أولى الرحلات المنتظمة إلى لشبونة لمقابلة مسئولة في الاستخبارات العسكرية الألمانية وكان متخفيًا تحت اسم لودفيكو فون كارتشوف. وفي حانة سافوي أعطى مونتاجيو إلى بوبوف بطاقة ودية يمكنه أن يظهرها كدليل للمعرفة الشخصية. وقد أدلى دوسكو بوبوف بكل تفاصيل الحوار الذي دار بينهما حيث بدأ بوبوف مهمته كواحد من أنجح العملاء المزدوجين في الحرب وكان اسمه السري لدى البريطانيين تريسايكل، بينما كان يعرفه الألمان باسمه السري إيفان. فضلاً عنه أنه كان يمد الألمان بالمعلومات الزائفة فيما كان يرجع بالمعلومات الحقيقية عن ترسانة صواريخ الألمان واستراتيجيتهم إلى البريطانيين.

عمل كل من العلماء الإنجليز والألمان بالموجات اللا سلكية الكهرومغناطيسية غير المرئية، إلا أن الباحثين الإنجليز قاموا تحت قيادة روبرت واطسون وات بتطوير نظام لا سلكي عام ١٩٣٥ يعكس ذبذبات الراديو كما استخداموا النقاط الضوئية لتحديد مدى ارتفاع وتحرك طائرات العدو، وعندما تم دمج أجهزة تحديد مصدر الترددات بأنظمة التحكم الأرضية ساعد هذا في انتصار بريطانيا عام ١٩٤٠. ساعدت أجهزة الرادار التي تم تركيبها في طائرات سلاح الطيران الملكي في إفشال الهجوم الليلي الخاطف عام ١٩٤١، كما ساعدت تلك الأجهزة عند تثبيتها على متن سفن البحرية الملكية في اكتشاف زوارق العدو البعيدة وأسهمت في الترتيب الدقيق لإطلاق القذائف من بعد، فيما أثبتت أجهزة الرادار قصيرة المدى فاعليتها في المساعدة في تدمير قوارب اليو في معارك الأطلسي عام ١٩٤٣.

ركزت الأبحاث الألمانية على بث الإشارات اللا سلكية التى تساعد قاذفات القنابل التابعة للبحرية الألمانية، واستخدام موجات متقطعة للإشارة إلى الهدف المطلوب. لكن الاستخبارات البريطانية أسرت طيارين ألمانيين استطاعا النجاة بعد تدمير طائرتيهما، بالإضافة إلى معدات تصوير جوى؛ مما ساعد العالم الصغير آر فى جونز فى استنتاج ما يقوم به الألمان، وإبلاغ مجلس وزراء تشرشل به، حيث تم إرسال طائرة إلى ديربى (مكان تصنيع محركات طائرات رولز - رويز التى كانت هدفًا رئيسيًا لسلاح الجو الألمانى) لتكشف أن الموجات الموجهة كانت موجتين لا سلكيتين إحداهما فى شكل نقاط والأخرى فى شكل قطاعات متداخلة، فتم اتخاذ الإجراءات اللا سلكية المضادة، وثبتت موجات التوجيه نيكبين وألغى جهاز إكس لضبط التوجيه، فضلاً عن أنه قد تم تطوير نظام التوجيه اللا سلكى البريطانى والمعروف باسم "غى" عام ١٩٤٢ لتوجيه قاذفات الأسطول البريطانى إلى منطقة رور. وبعد إرسال مجموعات فدائية للاستيلاء على أجزاء من رادار ورزبرج الألمانى فى برونيفال فى فرنسا عام ١٩٤٢، قام كل من آر. فى. جونز وجوان كوران بتصميم طريقة لخداع الرادار الألمانى من خلال سحابة دخانية لمواد عاكسة مضللة تسقطها الطائرات.

(١٥)

إخفاء الفضة

من بين الأمور التى أصابت سكان بريطانيا العظمى، فيلم الخيال العلمى الذى كتبه هربرت جورج ويلز بعنوان "ما يحمله الغد" – (Things to come) الذى يحكى عن تدمير أسطول من القاذفات لجميع المدن الإنجليزية، فبالنسبة إلى السكان فإن إعادة التسلح تعنى صناعة المزيد من المقاتلات والمدافع المضادة للطائرات، بينما يعنى الدفاع المدنى التدابير الوقائية ضد الغارات الجوية وعمليات الخداع والتمويه. وعلى النقيض من ذلك، اعتقد ونستون تشرشل أنه قد أثيرت حالة من القلق العام حول القصف الجوى، سواء من جانب دعاة السلام التواقين إلى ترويج الأسباب التى يرون أنها قد تحول دون وقوع الحرب، أو من جانب الموظفين فى وزارة الطيران بسبب مبالغتهم فى إحساسهم بكونهم أشخاصاً ذوى أهمية.

ففى ٣٠ مارس ١٩٣٩، وهو اليوم نفسه الذى تعهدت فيه الحكومة البريطانية بدفع ٨٪ من ميزانية الدفاع المدنى التى تبلغ ٢٥ مليون جنيه إسترلينى "لأغراض التمويه"، نشرت صحيفة التايمز مقالاً مطولاً حاز القبول حول ذلك الموضوع، وجاء فى ذلك المقال الذى كان بعنوان "التمويه: أثر الطبيعة على الإنسان، "بالنظر إلى الأساليب الثورية للحرب الجوية الحديثة، يفترض أن يكون لعمليات التخفى الآن دور جديد وأكثر حيوية". كان كاتب المقال هو الدكتور هيو كوت أستاذ علم الحيوان بجامعة كامبريدج وأحد "المؤلفين العلميين" المعتبرين حيث استطاع فيما بعد إكمال دراسته عن

"التلون التكيفى عند الحيوانات" – (Adaptive Coloration in Animals) والتى نشرت فى ميثون عام ١٩٤٠. قدم كوت نظرة عامة كعالم أحياء عن الظل المقابل "الانبهار"، وهو عبارة عن أنماط غير متناسقة تتناقض مع ملامح الشكل الأساسى وتشير إلى وجود بعض الأخطاء فى عمليات التمويه العسكرية الحديثة، حيث دعا كوت إلى تطبيق الجانب العلمى فى الوقت نفسه مع الجانب الفنى الذى كان "فى بداياته، كطفل يعانى من نمو متعثر".

وخلال شهر أبريل من عام ١٩٣٩؛ ورد إلى جريدة التايمز عدد وافر من الرسائل ردًا على المقال الذى كتبه كوت، ومنذ ذلك الحين لم يعد التمويه سرًا، فقد كان لدى من يرسلون هذه الخطابات إلى الجرائد العديد من وجهات النظر التى قدموها حول الاستفادة من التمويه وحول تاريخه القديم. كتب إيه جى أنسول من متحف الحرب الإمبراطورى: "صنعت نقاط القناصين المدرعة بطريقة تحاكى جذوع الأشجار الحقيقية"، كما جرى تطبيق العديد من "الأمثلة الرائعة" الأخرى الخاصة بمدارس القناصة فى عمليات التمويه خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أن الجدال أثار المنافسات القديمة، فكتب نورمان ويلكنسون مدافعًا عن ثقافة الرسومات الخلابة قائلاً: ليس الغرض منها "تقليل حدة الرؤية" كما ادعى كوت، مشيرًا إلى أنه تم طلاء نحو ٥٠٠٠ سفينة أثناء فترة الحرب، ثم كتب بعد ذلك الأستاذ الجامعى السير جون جراهام كير من ملتقى أثينوم موضحًا أن التمويه كان عملية بيولوجية وليست ثقافية، وكان كير أول من قام بمجهود للكشف عن الخصائص المناقضة "للرسوم الخلابة" فى مذكراته خلال سبتمبر ١٩١٤، حيث قال: تحتاج الحكومة الآن إلى وجود "قسم خاص يترأسه شخص يحمل مؤهلات علمية عالية"، لتوجيه أنشطة التمويه التى يقوم بها المدنيون والعسكريون برًا وبحرًا وجوًا، ما دفع ويلكنسون إلى تقرير أن عملية إخفاء السفن لم تكن عملية تمويه بيولوجى؛ مذكرًا "السير جراهام كير" أنه عندما كانت الهيئة الملكية لتكريم المخترعين تناقش تاريخ "الرسوم الخلابة"، كان ويلنكسون هو الشخص الوحيد الذى حصل على جائزة. (حيث كان ذلك حصيلة عشرين عامًا من العمل المضنى: وهنا وقعت أول مشاحنة بين ويلنكسون وكير على صفحات مجلة نيتشر عام ١٩١٩).

وظهر جراهام كير خلال شهر مايو ١٩٣٩؛ فى البرلمان وهو يوجه سؤالاً إلى وزير الدولة لشئون الطيران عما إذا كانت مبادئ التمويه البيولوجية تستخدم فى إخفاء الطائرات المقاتلة داخل المطارات، ثم كتب فى صحيفة التايمز يذكر القراء أن "جلد دب الباندا الذى يحتوى على بقع متباينة" يشكل نوعًا من "الرسم الخلاب" الذى يمكن الاستفادة منه فى عمليات التمويه خلال الحرب.

كان الجيش البريطانى يفكر فى الأمر بجدية، وفى ديسمبر ١٩٣٧ أنشئت مؤسسة أبحاث التمويه فى قاعدة الطيران الملكية فى فرنبروف، وتولى المقدم فرانسيس ويات، الذى كان يعمل فى السابق قائدًا لسلاح المهندسين الملكيين، إدارة تلك المؤسسة، ذلك الرجل الذى تولى قيادة "ميدان الأعمال الخاصة" فى ويميروكس عام ١٩١٦. جاء تعيين ويات من قبل ريجنالد سترلينج وهو أحد أفراد سلاح المهندسين الملكيين فى الحرب العالمية الأولى، وقد تم اختياره ليكون رئيس التشريفات. كان سترلينج مهندسًا مدنيًا حصل على درجة الدكتوراه فى مواد البناء، كما كان خبيرًا فى الإنشاءات الفولاذية، ثم أصبح بعد ذلك رئيسًا لأبحاث إيه آر بى داخل إدارة الدفاع المدنى التى تولاها السير جون أندرسون، ثم أخذ يبحث بشكل خاص كيفية الوقاية ضد الأضرار التى تسببها القنابل. واعتبارًا من أبريل ١٩٣٩؛ عندما تم تأسيس وزارة التموين بناءً على التماس تقدم به تشرشل، ساعدت سى آر إى عن طريق تقديم المشورة الفنية فى إخفاء المؤسسات العسكرية والدفاعات المستدامة التى تم إنشاؤها، ومصانع الذخيرة الملكية (ما عدا التوكيلات التى كانت تديرها شركات مدنية) ومؤسسات وزارة التموين. كانت لجنة "E" الخاصة بمجلس إدارة المهندسين الملكيين معنية أيضًا بشأن التمويه؛ وقد قامت بتطوير الصوف الفولاذى (المستخدم فى الصنفرة) حيث لا يتلف أو يحترق.

أخذت وزارة الطيران فى لندن على عاتقها حماية مصانع الطائرات والمطارات التابعة للمؤسسات المدنية المهمة من أى قصف محتمل، لذا تم افتتاح قسم لتصميم أشكال التمويه فى مكاتب الوزارة نهاية عام ١٩٣٨ فى أسترال هاوس شمال شرق ألدويش التى تواجه كنجسواى، ذلك المكتب الذى بنى قبالة مكتب بوش هاوس المصمم

على الطراز الأمريكى. كان المسئول فى ذلك المكان هو النقيب لانسلوت جلاسون قائد التشريفات وأحد خبراء التمويه الذى فقد أحد ساقيه عندما كان تحت قيادة ويات فى الحرب العالمية الأولى. بدأ جلاسون تجميع الفنانين التشكيليين الذين لديهم دراية بالطيران، وكان من بينهم النقيب جيلبرت سولومون الطيار السابق فى سلاح الجو الملكى الذى كان ابن أخ سولومون جوزيف سولومون (المتوفى عام ١٩٢٨) والذى كان أول عسكرى فى بريطانيا يقوم بعمليات التمويه. وكان من بينهم أيضاً ريتشارد كارلين الذى كان قد التحق هو وأخوه سيدنى بسلاح الجو الملكى وقاما بعمل رسوم تخطيطية من الجو لمنطقة الشرق الأوسط، ثم قاما فيما بعد بتحويلها إلى رسومات زيتية رائعة وضعت فى المتحف الحربى، (وتزوجت شقيقتهما هيلدا من الفنان ستانلى سبينسر). وفى مايو ١٩٣٩ قدم كل من تومونينجتون الذى أصبح فيما بعد رئيساً للأكاديمية الملكية وليون أندروود، أول من قام سولومون جوزيف سولومون فى ويميروكس بتجنيده، وقدما أفكاراً لنقوش ثلاثية الأبعاد. وبدأ المقدم سى إتش آر تشانسى الحاصل على وسام الخدمة المميزة، والذى سبق له العمل فى ويميروكس، كتابة كتاب بعنوان "فن التمويه" – (The Art of Camouflage) وفق ما يقوله (روبرت هيل، 1941)، وقد عارض جزئياً سولومون حول فاعلية الرسم فى التمويه وأكد أهمية الخداع، أما بقية الفريق القديم فقد تمت إعادة تجميعه من أجل مواجهة التهديد الجديد.

كان يوجد فى منطقة استرال هاوس مرسم كبير ومعرض يشبه مراسم ويلنكسون السابقة فى الأكاديمية الملكية؛ حيث كان يتم رسم نماذج لمئات "الأفكار الرئيسية" الخاصة بالبنية التحتية للصناعة البريطانية، من مصانع ومحطات توليد الطاقة الكهربائية وشبكات الغاز وخزانات البترول والمياه وأحواض إصلاح السفن والسكك الحديد... وخلافه، وتتم دراسة هذه النماذج من عدة زوايا مختلفة. كانت الرسومات ذات ملمس الخشن قد صيغت بأربعة عشر أسلوباً، ثم أوصى الكتيب الحادى عشر من سلسلة إيه آر بى فى شهر يوليو ١٩٣٩ باتباع تقنيتين من هذه الرسوم حتى يمكن تطبيقها على المبانى الضخمة؛ لتشويه الشكل و محاكاة الأشياء المحيطة، وبمساعدة منحة حكومية تقدر بنحو ٥٠٪، كان يشوه سطح المصنع ليحاكى الشوارع والبيوت

المجاورة والحدائق الخلفية التى يتم رسمها فوق ذلك السطح، ومن أجل ذلك نصت الفقرة ٣٦ من قانون الدفاع المدنى لسنة ١٩٣٩ على إعطاء الحكومة صلاحية المطالبة بإخفاء المصانع والمرافق العامة، وهنا نشأت صناعات جديدة لتلبية تلك الحاجة، كما بدأت وزارة التموين أيضًا فى تشجيع "مجموعات من الصيادين وذويهم" على نسج شباك صيد لأغراض التمويه: "كانت الحاجة إلى تلك الشباك ضرورية لإخفاء المدافع والعربات التى تحمل الذخيرة والدبابات والمبانى السكنية والمخازن والعديد من الأشياء الأخرى عن طائرات العدو". وعقد المجلس الاستشارى للتمويه الذى كان يضم الفنان بول ناش وعالم الأحياء هيو كوت فى ٢ أغسطس ١٩٣٩؛ للتعرف على الأماكن الرئيسية التى ينبغى تمويهها على الفور، (ذكر ذلك فى مقال كوت بجريدة التايمز).

شجع مصنعو الطلاء لمصلحتهم التجارية، الجميع على طلاء كل شىء فى أى مكان، بما فى ذلك المنظمات غير الحكومية والأفراد حيث واصلوا إمعان أفكارهم "لتضليل قاذفة القنابل"، وكانت وحدة أبحاث التمويه الصناعى من بين الهيئات الاستشارية التى عملت فى مكاتب المهندس المعمارى إرنو جولدفنجر فى منطقة بيدفورد سكوير.

وعلى الرغم من الشهرة الواسعة، فإنه كان يدور سباق بين الرسامين الشباب الذين حاولوا إنجاز شىء بعد نشوب الحرب، وكان من بين هؤلاء الشباب الفنان السريالى البريطانى والمراقب الكبير جولايان تريفيليان الذى تناول عقاقير الهلوسة ثلاث مرات تحت إشراف طبى حتى يحصل على إلهام الجمال الكونى حيث يقول: "أحببت تأثير العقار ميسكالين الذى يتناول مع لفات سجق الخنازير"، وشهد تريفيليان فى يونيو١٩٣٧ افتتاح جناح الجمهورية الإسبانية فى معرض باريس عندما عرضت للمرة الأولى اللوحة جورنيكا التى رسمها بيكاسو ورأى أنها تمثل قمة العبقرية الإسبانية، ثم خرج فى مسيرة مع السرياليين فى مايو ١٩٣٨ مرتديًا قبعة رأس وقناع نيفيل تشامبرلين رافعًا لوحة تقول: "يجب على نيفيل تشامبرلين أن يرحل"، كان تريفليان يعبر النهر فى آخر معدية من سانت مالو إلى ثاوثهامبتون بصحبة المصورة الفوتوغرافية الجميلة لى ميلر وزوجها، فيما بعد، الفنان السريالى والكاتب والصراف رونالد بنروس،

الذى أقام مع ماكس إرنست فى أفينون ومع بابلو بيكاسو فى أنتيب، حيث وصل قطارهم الذى كانوا يستقلونه إلى محطة وترلو صباح الأحد الموافق ٣ سبتمبر مع صوت صفارة إنذار أول غارة جوية على مرأى من حراس إيه آر بى وهم يرتدون خوذات بيضاء وكان معهم كرات خشبية تحدث صوتًا يشبه صوت قعقعة سيارات الغاز، وبينما كان تريفليان يشاهد عددًا كبيرًا من المناطيد الفضية كبيرة الحجم ترتفع فى السماء، تساءل إن كانت السريالية يمكنها أن تبرز غرائب الحرب؛ وفى الواقع استطاع الأدباء المجهولون والحركة الثقافية أن تحيا بصعوبة بالغة بعد اندلاع القتال.

التحق تريفليان وبنروس بالفنان بل هايتر والنحات بوكلاند رايت فى تقديم خدماتهم كخبراء فى عمليات التمويه، حيث كتب تريفليان: "فى تلك الأيام، كان من السهل أن تقوم ببيع أى شكل من أشكال التمويه". وأكمل بنروس: "كان كثير من الناس يعتقدون أن التمويه ببساطة ما هو إلا رسم خطوط فوق شىء ما".

كانت موجة نماذج الرسومات الخضراء التى عمت أرجاء الدولة، مشهد النخيل فى مصنع الغاز، أمرًا يثير الضحك. ورأى تريفليان أن ذلك كان يبدو مثل نوع من السحر، تدرأ به ما يلحق بك من أذى. وكان من بين طقوسهم آنذاك وضع قصاصات من الورق فى أشكال متقاطعة بالنوافذ لمنع انفجار الزجاج إلى شظايا، إضافة إلى وضع بقع من الروث فوق أسطح المنازل وأكواخ الحدائق وفوق السيارات لتضليل الطائرات، لكن تريفليان اعترف بأن معلومات أعضاء وحدة أبحاث التمويه الصناعى عن الطائرات التى يحاولون خداعها لا تتجاوز بكثير ما يعرفه معظم الهواة.

لم يكن هناك نقص فى عدد الفنانين الذين يقومون بعمل التمويه المدنى والصناعى. ويحلول ٥ أكتوبر ١٩٣٩، أعلنت جريدة التايمز أنه "ليست هناك حاجة إلى المزيد من خبراء التمويه". أما المرشحون الأكفاء فقد تم اختيارهم من قبل لجنة منتخبة، تتبع قسم السجل المركزى الذى يتم إعداده الآن للإشراف على قسم الخدمة الوطنية التابع لوزارة العمل". وفى جلسة مجلس العموم التى عقدت بتاريخ ٢٥ أكتوبر، طلب إيه بى هربرت من رئيس الوزراء إنشاء قسم للفنون، للحفاظ على ما تحقق ولتعليم

واستخدام الفنانين بشكل فعال "فى الأغراض الحربية". إلا أن نيفيل تشامبرلين لم يؤمن بأهمية ذلك، لكنه كان مسرورًا عندما لاحظ فيما بعد تأسيس المعهد المركزى للفن والتصميم من أجل إنجاز هذا الغرض.

تم إنشاء المعهد المركزى للفنون والتصميم من قبل لجنة من الخبراء تضمنت كينيث كليرك الذى كان مديرًا للمتحف الوطنى ومشرفًا على صور الملك منذ ١٩٣٤ إضافة إلى جاك بيدينجتون مدير الدعاية اليهودية بشركة شيل - مكس وبى بى المحدودة، وراعى صناعات الفنانين المرموقين أمثال إدوارد بادين وبول ناش وبن نيكولسن وجون بايير وجراهام سثرلاند وركس ويسلر فى الملصق الذى صممه وخلال حملاته الصحفية الخاصة بسوق النفط والبنزين، ومساعد المدير بول روتا كى يصبح أول صانع للأفلام الوثائقية. نجحت شركة شل نجاحًا منقطع النظير بتعيينها جاك بيدينجتون خلال فترة الثلاثينيات موظفًا لديها، حيث قرر عدم تشويه الريف بإعلانات ثابتة وبدلاً من ذلك، قام بطباعة الإعلانات والشعارات الملونة على الشاحنات وناقلات البترول وقد بلغ من الحكمة ما جعله يقوم بتنفيذ الفكرة التى أوحى له بها جون بيجمان وبدأ فى نشر كتيبات شل الإرشادية عن الأرياف فى عام ١٩٣٤.. وهكذا استطاعت شل - ميكس وبى بى أن تقوم بتقديم دور كبير كخبراء فى التمويه عن طريق عمل بيدينجتون فى العلاقات العامة.

أدى قرار إعلان الحرب إلى إجراء تغيير وزارى فأصبح السير جون أندرسون وزيرًا للأمن الداخلى ومسئولاً عن التمويه المدنى. وفى مارس ١٩٤٠؛ أعيد تشكيل وزارة الأمن الداخلى تحت مسمى إدارة التمويه، وكان مقرها فى "ليمنجتون سبا" تحت إشراف قائد جناح تى آر كيف - براون - كيف، وفى مايو ١٩٤٠ أنشأت وزارة الحرب البريطانية إدارة التمويه ومركز التدريب الذى صار فى النهاية المطاف قلعة فارنهام التى على مقربة من ألدرشوت وليست بعيدة عن مجموعة خبراء التمويه التى كان يقودها ويات فى فرنبروف. كان العقيد فريدريك بيدينجتون، شقيق جاك، وأحد القناصين خلال الحرب العالمية الأولى، قبل تلقيه تدريبًا فى سلاد، قائد مركز التمويه فى وزارة الحربية البريطانية، ومن بومتز فى فرنسا، كان يدير عمليات التمويه

لقوات الحملة البريطانية التى شكلت أول القوات التى أرسلت وفق ما أعلنه المراسل الحربى الذى أرسلته هيئة الإذاعة البريطانية ريتشارد ديمبلبى فى ١١ أكتوبر ١٩٣٩. كانت الأمور فى هذه الفترة تدار من خلال الاتصالات الشخصية، وكان المعلم الأساسى فى بيدينجتون هو العقيد ريتشارد ماكلين الذى عمل مع سولومون جوزيف سولومون خلال الحرب العالمية الأولى. كما عمل خبير التمويه جوفرى باركاس فى إنتاج الأفلام فى بريطانيا لسنوات، وقام بإعداد عروض مثل "المتملق" – (Palaver) و"سفن كيو" – (Q-Ships) و"أخبروا إنجلترا" – (Tell England) وأفلام وثائقية مثل "إطلالة على إفرست وروايات تمبر" – (Timber Tales Wings over Everest) فى إفريقيا والهند وكندا، قبل أن يتمكن من الحصول على وظيفة مع جاك بيدينجتون فى برنامجه الدعائى المتنقل الذى كان يسمى "كيف تسير سيارتك". عندما اتصل باركاس هاتفيًا ببيدينجتون وحاول تصوير الحرب، أوصاه جاك بالاهتمام بأخيه فريدى. لهذا تم اختيار جوفرى باركاس وجولايان تريفليان ليصبحا الضابطين المسئولين عن وحدة التمويه فى سلاح المهندسين الملكيين.

كان ذلك بمثابة نبذة مختصرة عن هؤلاء الشباب، الذى أنجزوا فى وقت مبكر أعمالاً كثيرة، لكنها لم تكن متقنة فى البداية. كان أكثر من كونوا فكرة عن سخافة عمليات التمويه البريطانية هو الرسام العبقرى ويليام هيث روبنسون، الذى قام ابنه أوليفر هيث روبنسون بتدريس فن التمويه فى فارنهام، ثم أعاد اندلاع الحرب العالمية الثانية هيث روبنسون الذى كان قد بلغ من العمر ٦٧ عامًا إلى نشر رسوماته فى مجلة ذا سكيتش التى كان قد نشر فيها لوحاته خلال فترة الحرب العالمية الأولى، إلا أن شغله الشاغل الآن هو دفاع الإنجليز عن تراب وطنهم من خلال التمويه الجاد وخداع الآخرين.

(١٦)

صفعة على الوجه

كتب الجنرال أرشيبالد ويفل: "دائمًا ما تتسم بدايات أى حرب تشترك فيها القوات البريطانية بسوء التقدير والهرجلة، وغالبًا ما يطلب من الجنود للأسف القيام بأعمال مستحيلة". سرعان ما تحولت الحرب الوهمية فى النرويج إلى حرب حقيقية وحشية سفك فيها الكثير من الدماء، لكنه لا يمكن لأحد التشكيك فى شجاعة ورباطة جأش القوات البريطانية وهو ما سماه تشرشل "المبادأة الحاسمة"، فقد أسهم الألمان فى خداع جهاز مخابراتهم، وفقدوا توازنهم الدبلوماسى ما أدى إلى هزيمتهم مع تفوقهم العسكرى، وقد انتهت حملتهم لغزو الأراضى النرويجية بالانسحاب والجلاء.

التزمت جميع الدول الاسكندينافية الحياد فى بداية الحرب العالمية الثانية، وفى يناير عام ١٩٤٠ بدأت بريطانيا تخطط سرًا لاختراق هذا الحياد باعتراض السفن الألمانية، ووضع الألغام فى المياه والاستيلاء على ميناء نارفيك فى النرويج لمنع تصدير خام الحديد السويدى الذى تستخدمه ألمانيا فى صناعاتها العسكرية أثناء فترة الشتاء، كما خططت بريطانيا لإرسال حملة عسكرية أنجلو - فرنسية لمساعدة أهالى فنلندا فى قتالهم ضد القوات الروسية. ولكن ألمانيا بدأت فى ٩ أبريل ١٩٤٠ بغزو الدنمارك والنرويج على نحو مفاجئ؛ واستولى الألمان على ميناء نارفيك باستخدام خدعة حصان طروادة؛ تنتظر السفن الألمانية المحملة بخام الحديد فى الميناء فتبدو كما لو كانت تقوم بمهمة سلمية، ثم تقوم فجأة بإفراغ حمولتها من الجنود.

(استخدم البريطانيون الأسلوب نفسه فيما بعد فى مدينة نامسوس فى النرويج؛ حيث قاموا بإنزال الجنود من السفن ليلاً وإخفاء جميع الآثار عن طائرات الاستطلاع نهارًا). ثم صرح جوزيف غوبلز بكلمات عذبة أن كلاً من الدنمارك والنرويج قد أصبحتا "تحت حماية ألمانيا لمنع قوات الحلفاء من احتلالهما"، وبعدها خرج وزير الخارجية الألمانى فون ريبنتروب ليضيف: "حافظت ألمانيا على اسكندنافيا من الدمار وسوف تكون مسئولة عن الحياد الحقيقى فى شمال أوروبا حتى نهاية الحرب".

فى منتصف أبريل ١٩٤٠، بدأ تشرشل يحث الجنرال بات ماكسى، قائد القوات البريطانية فى ذلك الوقت، على مهاجمة القوات الألمانية فى ميناء نارفيك على الفور، لكن ماكسى رأى أنه لن يستطيع أن يقوم بالانقضاض على القوات الألمانية مباشرة من البحر، فعليه أن يستولى على المضايق البحرية أولاً وهذا نظرًا لقلة عدد القوات المتاحة تحت قيادته والظروف المحيطة، وبعد شد وجذب مع تشرشل، قرر وبسرعة كتابة رسالة من سطر واحد تحمل نبرتها الغضب: "هل ستتحول الثلوج فى نارفيك إلى اللون الأحمر كما حدث للرمال فى جاليبولى؟"، وكان يمكن أن يتسبب هذا فى إقالته من وظيفته، لكن أحد الضباط الشبان النابهين فى هيئة الأركان قرأها وأجل إرسالها متظاهرًا أن الاتصالات اللا سلكية إلى كاتريك كانت "معطلة"، حتى يهدأ فيمكن تعديل الرسالة، إلا أن تشرشل قام بالفعل بإقالة ماكسى من منصبه فى الشهر التالى، ولكن هذه البرقية لم تكن سببًا فى الإقالة على الأرجح، كان ضابط الأركان الصغير هو النقيب جيه تى رانكين يعمل ضمن كتيبة المشير التابعة لفوجى يورك ولانكاستر العسكريين.

ونشر الألمان فى النرويج نوعًا جديدًا من جنود المشاة المتنقلين ممن تم إسقاطهم بوساطة المظلات وسيطرت القوات الجوية الألمانية على سماء المعركة، حيث استخدموا تكتيكات قتالية قاموا بتطويرها فى إسبانيا وقاموا بقذف القنابل الحارقة ذات التأثير المدمر من الجو لإيقاف هجوم المشاة، وحققت الحملة العسكرية على النرويج التى استمرت لشهرين أهدافها بنجاح على ما يبدو، لكن خسر الألمان ما يزيد على ٥٠٠٠ جندى

و٢٤٢ طائرة، وعانت البحرية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية أكثر مما عانت منه البحرية الملكية البريطانية، وفى غضون ذلك، توقف الملك هاكون السابع والحكومة النرويجية عن سياسة الحياد، وانتقل الجميع إلى لندن لينضموا إلى الحكومة والعائلة المالكة، وانضمت سفن الأسطول التجارى النرويجية التى تقدر حمولتها بثلاثة ملايين طن (وعد رابع أكبر أسطول فى العالم) إلى جانب قوات الحلفاء، وقامت بقية القوات البحرية والجوية بفعل الشىء نفسه، وحيث إن الجنرال النرويجى فيدكون كويسلينج قد قام بمساعدة ألمانيا فى غزو بلاده، فقد دخل لقبه القاموس الإنجليزى كمرادف لكلمة "خائن". وفى عام ١٩٤٣، نجحت المقاومة النرويجية التى قام البريطانيون بتدريبها فى منع العلماء النازيين من الحصول على أكسيد الدوتيريوم أو "الماء الثقيل" المستخدم فى أبحاث القنابل الذرية من مصنع نورسك الذى يعمل بالطاقة الكهرومائية فى فيمورك بإقليم تيلى مارك، أما مملكة النرويج ذات الطبيعة الجبلية والمضايق البحرية فقد أسهمت فى إيقاف تقدم اثنتى عشرة كتيبة ألمانية تتكون من نصف مليون رجل تقريبًا.

كان الأهم من ذلك كله هو حدوث مناقشات على مدار يومى ٧ و٨ مايو ١٩٤٠، فى مجلس العموم حول إدارة الحرب فى النرويج، وكان هذا هو نهاية عمل نيفيل تشامبرلين فى رئاسة الوزراء، حيث دعا ليو أمرى ولويد جورج علنًا إلى رحيل تشامبرلين وأحدث هذا الانقسام تراجعًا فى نسبة الأغلبية التى كان يمتلكها رئيس الوزراء بوصفه عضواً فى حزب المحافظين، فبلغت نسبة المؤيدين له ٨١ بدلاً من ٢٠٠، أدرك تشامبرلين الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ٧١ عامًا أنه كان عقبة رئيسية أمام تأسيس ائتلاف قوى يضم جميع الأحزاب، ومن هنا قدم استقالته بعد يومين. وفى ١٠ مايو ١٩٤٠، بدأ ونستون تشرشل البالغ من العمر ٦٥ عامًا حملة على النرويج واضطر إلى المضى فيها حتى النهاية ولكنه استطاع بأعجوبة تجنب فشل نتائج تلك الحملة؛ وأصبح الآن "القوة الرئيسية فى الدولة"، وأصبح تشرشل رئيس الوزراء خلال السنوات الخمس والأشهر الثلاثة اللاحقة، لكن تشرشل، الذى أصبح فيما بعد مؤرخًا، سعد بهذا:

لا أستطيع أن أخفى عن القارئ لهذا السرد الصادق أننى ذهبت إلى الفراش فى الثالثة فجراً، وكنت أشعر بالراحة العميقة، فأخيراً النهاية ستكون لدى سلطة إعطاء توجيهاتى على كل المستويات، شعرت وكأننى أسير نحو قدرى، وأن حياتى الماضية كلها لم تكن سوى استعداد لهذه اللحظة وهذه التجربة التى سأحاكم فيها، لقد حررتنى السنوات العشر التى قضيتها فى مشاحنات سياسية من الخصومات العادية داخل الحزب، وعلى مدار السنوات الست الماضية أصدرت تحذيرات عديدة، وسأدافع الآن عنها بشدة، ولن يستطيع شخص نقض أقوالى، ولا يمكن لأحد أن يلقى علىّ اللوم بسبب شن الحرب أو الاستعداد لها، كنت أعتقد أننى أعرف الكثير عن ذلك وعلىّ ألا أخفق.

نهاية "العاصفة المتجمعة" – (The Gathering Storm)، الجزء الأول من الحرب العالمية الثانية.

كان يومًا فاصلاً فى التاريخ الأوروبى، حيث أطلقت ألمانيا فى الثالثة صباحًا العملية الصفراء التى كانت تقصد بها شن هجوم على الجبهة الغربية، فشنت فى وقت واحد هجومًا بريًا وجويًا على هولندا وبلجيكا ولكسمبورج، ولم تكن سياسة الحياد ودبلوماسية التذلل سبيلها فى التصدى للانتهاك النازى للاتفاقية الموقعة، ولم توفر المياه والأسلاك أى حماية ضد الحرب الخاطفة؛ وهنا أعلنت سويسرا المعروفة بحيادها التعبئة العامة للجيش، وبدأت أيرلندا تصاب بالذعر، وقال إيمون دى فاليرا فى اجتماع الحزب الجمهورى: "نريد ألا ننخرط فى الحرب"، وأضاف: "قد لا يكون بمقدورنا توفير الحماية اللازمة لأنفسنا".

كان الهجوم ضاريًا، والتصدى له كان أمرًا صعبًا، وقد صرح تشرشل أمام مجلس العموم فى ١٣ مايو قائلاً: "ليس لدىّ ما أقدمه إلا الدماء والعناء والدموع والعرق"، وذكر تقريبًا ما ذكره فى الفصل الأول من الجزء الخامس من كتاب "الأزمة العالمية" – (The World Crisis)، مستعيداً ما ذكره من قبل بأن هذه الحرب هى "أعظم حرب فى التاريخ بلا منازع"؛ حيث دمرت الجبهة الشرقية من الحرب

العالمية الأولى ثلاث إمبراطوريات وجلبت "الدمار والعناء والآلام للملايين من الجنود الذين غطى عرقهم وسالت دموعهم وروت دماؤهم سهولاً لا نهاية لها...".

أثارت بريطانيا فكرة نزول الجنود من الجو وحثتها على التحرك، وبعد يوم من طلب أنتونى إيدن وزير الدولة لشئون الحرب متطوعين للاشتراك فى الدفاع المحلى، وهو شيء أشبه بـ "جيش أبى"[1]، وذلك لمنع هبوط مظلات العدو، فانضم له ربع مليون شخص، وفى ١٤ مايو ١٩٤٠ ظل إيدن يتحدث فى مقر هيئة الإذاعة البريطانية بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة قائلاً: "إنكم لن تدفعوا أى أموال وستحصلون على زى موحد وسلاح..."، فبدأ المستمعون بالاتصال بمراكز الشرطة المحلية التى يتبعون لها يسجلون أسماءهم فى "سلاح المظلات".

ومع تعبئة المملكة المتحدة للحرب عام ١٩٤٠، كانت الطبقات العاملة أسرع فى الاستجابة إلى ذلك من بعض الطبقات العليا، حيث كان الكثيرون منهم يكرهون تشرشل ويشكون فى نياته، وفى ١٣ مايو، دعم مؤتمر حزب العمال الحكومة الوطنية الجديدة، حيث كانت لدى حزب العمال حقائب وزارية فى مجلس الحرب، وفى اليوم التالى نشرت جريدة إيفننج ستاندرد صورة كاريكاتيرية لرسام نيوزيلندى يدعى ديفيد لو مكتوبا عليها: "الجميع خلفك يا ونستون"، يظهر فيها جيش مؤلف من رجال السياسة والشعب يمشون بخطوات سريعة مع تشرشل مشمرين عن سواعدهم، وفجأة بدأ تنظيم دخول البلاد إلى الاشتراكية وبدأ الجو العام يتجه نحو اليسارية.

كان وزير العمل والخدمة الوطنية الذى كان زعيم اتحاد النقل وعمال القطاع العام هو الدكتور السابق إيرنيست الذى جمع بعد فترة قصيرة بين رئاسة جمعية نقابة العمال واتحاد العمال.

عندما طلب وزير التموين هربت موريسون من جميع المقاولين "العمل بوتيرة الحرب نفسها" فى دوامات عمل متناوبة لتغطية ٢٤ ساعة فى اليوم وسبعة أيام فى الأسبوع،

---

(١) جيش أبى أو "Dad's Army": هى مسرحية هزلية بريطانية تناولت الحرس الوطنى خلال الحرب العالمية الثانية، كتبها جيمى بيرى وديفيد كروفت. (مترجم)

وتوفير "مزيد من القنابل والدبابات والمدافع"، أرسل مجلس اتحاد التجاريين رسالة يقول فيها: "إلى رجال القوات المسلحة، نقدم لكم التحية على شجاعتكم وعزيمتكم، ونحن مجمعون على أنه ينبغى استغلال جميع مواردنا لتوفير الأسلحة والذخائر التى تحتاجونها كافة"، وكانت ملصقات الوزارة تحمل عبارة "نحو الهدف".

نصب تشرشل نفسه وزيرًا للدفاع فى حكومة "الائتلاف الكبير"، وتم فصل وزارة الطيران عن وزارة إنتاج الطائرات التى أنشئت حديثًا، والتى كانت تحت رئاسة اللورد بيفربروك أحد أقطاب الصحافة آنذاك، والذى أثار تعيينه الجدال، فأرسل الملك جورج السادس رسالة إلى تشرشل تحمل فى طياتها الكثير من القلق؛ حيث سمع الملك أثناء جولته فى كندا عام ١٩٣٩ من جون بوشان الحاكم العام بأن هناك عددًا كبيرًا من المواطنين الكنديين لا يثقون فى بيفربروك، وسواء كان هذا حقدًا أم لا، كان ماكس شخصًا مفعمًا بالنشاط، وفى غضون أسبوع كان مصنع الطائرات نوفيلد وفيكرز سوبرماين تحت سيطرة إدارة واحدة تعمل باستمرار، وبصفته أحد رجال الصحافة، كان بيفربروك يدرك قوة الإيماءات الرمزية، وعندما طُلب من ربات البيوت فى بريطانيا فى شهر يوليو التبرع بآنية الطبخ المصنوعة من الألومنيوم للمساعدة فى بناء هياكل الطائرات، كانت الكمية الإجمالية تكفى كإمداد ليوم واحد فقط، وصارت كل امرأة أعطت مقلاة أو وعاءً من الأدوات الموجودة فى مطبخها تتخيل أن ما قدمته سيكون جزءًا من هذا الإعصار الذى سينطلق ليشعل السماء نارًا. أرهب إلقاء القنابل الحارقة على روتردام من الجو المدن الهولندية الأخرى؛ ما دفع هولندا إلى الاستسلام، وبغرابة شديدة، تم توقيف أحد ضباط سلاح الجو الألمانى بتهمة تحسين طرق التمويه الخاصة بمهبط الطائرات؛ ما أدى إلى كشف الخطط الألمانية التى أعدت سرًا لغزو هولندا وبلجيكا، وعندما ضل إريك هوينمانس طريقه فى الضباب وهو متجه إلى كولونيا، تحطمت طائرته عند هبوطها فى ١٠ يناير ١٩٤٠ بالقرب من ميشلين – سور – ميوز فى بلجيكا، وكانت تقل معه الرائد هيلموت راينبيرجر الذى كان يحمل معه حقيبة فيها أوراق لجميع خطط الغزو؛ حيث فشل فى تدمير تلك الحقيبة، لكن الحلفاء اعتقدوا أنها كانت بمثابة "خدعة حقيبة الظهر"، وظن جاى ليدل الضابط فى وحدة الاستخبارات

العسكرية أنها كانت جزءًا من خطة حرب الأعصاب، وسجل جون كولفيل - الذى كان يعمل سكرتيرًا بمقر الحكومة البريطانية فى ١٠ داوننج ستريت - فى مفكرته اليومية فى ١٥ يناير ما يلى: "كان الهبوط نفسه، إضافة إلى جهود الطيار غير المجدية والمبالغ فيها حرق الأوراق، وما عقب ذلك من إقدامه على الانتحار يشبه إلى حد بعيد خطة مدبرة، لكن فى الواقع كانوا كلهم على خطأ، إذ إن الحقيبة كانت تحمل الخطط الحقيقية آنذاك..".

وفى ١٠ مايو؛ قامت المجموعة "ب" من الجيش الألمانى (التى تضم جيشين من جيوش سلاح المشاة الخمسة) بغزو هولندا وبلجيكا، فيما يشبه خطة شليفين عام ١٩١٤، فتحرك الجيشان الفرنسى والبريطانى نحو ٧٥ ميلاً للأمام لإعاقة الجانب الأيمن، وكان هذا بالضبط ما أراده منهم الألمان لأن سلاحهم الرئيسى كان فى الجهة الأخرى، واعتقد الجيش الفرنسى أن خط ماجينو الحصين الذى يمتد من سويسرا إلى لوقانو لا يمكن اقتحامه، وكانت منطقة أردينيس سدًا منيعًا أمام الدبابات، لكن فى الواقع كانت هذه هى ذات المنطقة التى عبرت منها مجموعة فون روندستيد "أ" التابعة للجيش الألمانى، التى تتكون من أربعة جيوش تضم أربعة فيالق مدرعات مقسمة إلى ١٢ فرقة عسكرية، ووجهت ضربة عنيفة إلى فرنسا أو سيشيلشنت.

كانت فرنسا غير مستعدة فى ذلك الوقت، وأصيب الألوية الفرنسيون المسنون بفتور وارتضوا بمجرد الدفاع، فى حال انحسرت تحركات المشير فرديناند فوش الهجومية، وكانت الروح المعنوية لجنود الجنرال "جيملين" - الذى اشتهر فيما بعد باسم "بجاجالمين" - منخفضة وبدا عليهم الإرهاق. وفى غضون ذلك، تمكن رجال غويلز من إسقاط أوراق على خطوط القتال الفرنسية التى تشير إلى أن بريطانيا كانت مستعدة للقتال حتى آخر فرنسى، وأن أفراد الفرقة تومى وجميع الذين يقومون بأعمال النهب والتفجير كانوا منشغلين فى ذلك الحين فى منازلهم بزوجاتهم وعشيقاتهم، ومن خلال المذياع، أرسل الخائن فريدونت إلى الأسرة الفرنسية معلنًا العصيان، وكانت القوات على الجبهة الفرنسية تتحرك بخطى مدروسة مستخدمين الحيلة لتجنب الوقوع

فى المخاطر أو أن تلحق بها هزيمة أو تسرى الشيوعية بين أفرادها أو يصابون بالإحباط، وشعر تشرشل بأن الفرنسيين انهاروا من الداخل قبل انهيارهم من الخارج.

تركز الهجوم الألمانى على مدينة سيدان التى تبعد ١٢٠ ميلاً شمال شرق باريس، وشاهدت طائرة استطلاع تابعة لسلاح الجو الملكى تراجعًا فى صفوف مركبات العدو الممتدة لأميال، وهاجمت الفرق العسكرية الألمانية المدرعة دون توقف، عابرة نهرى ميوز وواز، وتمت قيادة المدرعات الألمانية إلى الساحل الفرنسى على طول نهر سومى، وعبرت من خلال مؤخرة الجيش البريطانى. يعتقد مارك بلوك مؤرخ الفترة الوسطى من القرن العشرين - الذى لقى حتفه فى يونيو سنة ١٩٤٤ على يد أحد أفراد (الشرطة السرية النازية)، واعتبر بطلاً من أبطال المقاومة الفرنسية - أن الهزيمة الغريبة التى لقيتها فرنسا عام ١٩٤٠ كانت فى جزء منها هزيمة فكرية، حيث لم تستطع القيادة الفرنسية العليا ببساطة تصور وجود نوع جديد من الحرب شنته القوات الألمانية بـ "استغلال منظم" والذى كان يختلف اختلافًا تامًا وله إيقاع أسرع.

"كان أكثر شىء رعبًا هو أن نجد أنفسنا فجأة فى صراع مع فرق من الدبابات فى أرض مكشوفة ولم يعر الألمان أى اهتمام بالطرق، حيث كانوا ينتشرون فى كل مكان"، ولاحظ بلوك كيف كان "الألمان يعتمدون على المبادأة والارتجال، ومن جهة أخرى، اعتقدنا أنه لا يمكننا فعل أى شىء، وأن نتصرف بالطريقة المعتادة التى كنا نتصرف دائمًا بها."

وبعيداً عن سلاح الطيران، لم يتفوق الألمان فى عدد الرجال أو المركبات إلا أن استخدامهم العنف والسرعة ساعدهم فى ذلك اليوم على تحقيق النصر، ولم يشن الفرنسيون أى هجوم مضاد من هول الصدمة والذهول، وانقطعت إمدادات الذخائر من قبل قوات الحملة البريطانية التى اضطرت إلى أن تعود أدراجها، حيث أُجبرت على الرجوع نحو ساحل فرنسا الشمالى، وأصبح الخيار الوحيد أمامها هو القتال فى المؤخرة قرب موانئ القناة للاستفادة من القنوات والأنهار المتعاقبة، وبدأ التراجع على مضض نحو "الحدود الخارجية" لمدينة دونكيرك.

وفى الوقت نفسه، كان ديدلى كليرك مشغولاً بإحدى المعارك، وكان قد أنهى بالفعل رحلته إلى إفريقيا التى استمرت أربعة أشهر لاستكشاف جميع الطرق البرية التى يمتد طولها نحو ٣٠٠٠ ميل من كينيا إلى مصر - التى تعتبر خط إمداد لتعزيز الشرق الأوسط حال دخول إيطاليا الحرب، وكان كليرك عائداً لتوه من مهمتين فى النرويج مستغرقًا ثلاثة أسابيع فى فصل الشتاء عندما أسندت إليه، وبشكل مفاجئ، وظيفة جديدة فى وزارة الحرب البريطانية فى مايو ١٩٤٠، وكانت المدرعات الألمانية قد وصلت قبل ثلاثة أيام إلى مدينة إبيڤلى عند مصب نهر السوم وفى هذه اللحظة كان سيشيلشنت يتحرك أعلى السواحل نحو ميناءى بولونى وكاليه لضرب قوات الحملة البريطانية، وقامت فرقة الحراس رقم ٢٠ بالدفاع عن بولونى؛ ثم تم إجلاؤها من قبل البحرية الملكية البريطانية.

كان الوضع فى كاليه مختلفًا، ففى يومى ٢٢ و٢٣ مايو نزلت قوة بريطانية صغيرة العدد إلى هناك، وكانت تعانى من نقص فى الأسلحة وتتلقى أوامر متناقضة من مصادر مختلفة، وسرعان ما وضح ما كان يجب على أفراد جنرال المشاة رقم ٣٠ القيام به؛ كانت مهمتهم هى التضحية بأنفسهم من أجل إنقاذ الآخرين، فأرسل ديدلى كليرك إشارة إلى كلود نيكولسن قائد الجنرال وقواته المكونة من ٣٠٠٠ جندى بريطانى من حاملى البنادق و٨٠٠ جندى فرنسى، وكان كليرك قد أملى الرسالة عبر الخط الهاتفى إلى نقيب فى سلاح البحرية، وأرسلت الإشارة عبر برج إشارات فى منطقة هورس جارد باراد إلى مدمرة كانت ترسو فى القنال الإنجليزى، ومن هناك حتى وصلت إلى نقطة تلقى الإشارة التى صممها نيكولسن فى كاليه، حيث أفادت تلك الإشارات بأنهم قد سيطروا على قلعة كاليه "من أجل إحداث التكافؤ بين صفوف الحلفاء" ومساعدة بقية قوات الحملات البريطانية فى الوصول بسلام إلى دونكيرك، حيث كان سيتم إجلاؤهم.

لم يصدق رجال نيكولسن الذين كانوا يعانون بالفعل من نقص فى الطعام والمياه والذخيرة فكرة إجلائهم، لكنهم رفضوا الاستسلام، وتصدوا ببسالة للطائرات والدبابات

والمدفعية وجنود المشاة لمدة ثلاثة أيام أخرى، واستطاع ٤٤٠ رجلاً فقط من قوات الحامية النجاة بحياتهم أو من الأسر، وهم الذين استطاعوا الوصول إلى كاسحة الألغام البريطانية جولزار، كما أصيب الملازم أول إيرى نيف فى نهاية الأمر:

كانت الوقفة الأخيرة فى عربات نقل المرضى، حيث أطلق رجل النار على نفسه من بندقيته الخاصة فى مدخل مبنى أعدٍ ليكون مركزًا لتلقى الإسعافات الأولية؛ ثم جلس بجوار جندى شاب ينتحب بصوت خافت، وهناك شخص آخر يصرخ ويلوح بمسدسه، وبعدها ظهر رجل ضخم الجثة فى زى الجنود الألمان وعلى ذراعه علامة الصليب الأحمر، فوضعنى برفق على نقالة، حينها أدركت أننى أسير حرب.

بعد ذلك تعهد ديدلى كليرك بالقيام بمهمة بالغة السرية فى أيرلندا التى أصرت على حيادها، ولكنها كانت قلقة من وضعها تحت "حماية" النازيين. (وصفت هذه المهمة التى تم القيام بها خلال الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ مايو ١٩٤٠ بشكل موجز فى كتاب كليرك الذى خضع للرقابة، واعتقد ديفيد مور الذى كتب سيرة كليرك الذاتية أنه ربما تكون إسبانيا هى الدولة المذكورة)، وفى رسالته الأولى إلى الرئيس الأمريكى روزفلت فى ١٥ مايو، كتب تشرشل يقول: "لدينا عدد كبير من التقارير تفيد باحتمال نزول عدد من رجال المظلات الألمان فى أيرلندا". سافر ديدلى كليرك من قاعدة هندن وهو يرتدى زيًا موحد اللون، وصاحبه رجلان أيرلنديان وموظف مدنى يدعى جوزيف وولش وضابط بالمخابرات الحربية العقيد ليام أركر ضابط الاستخبارات العسكرية؛ حيث استقلوا طائرة فلامنجو ذات محركين والتى كان بها كرسى بذراعين ومطفأة سجائر، والتى غالبًا ما كان يستخدمها تشرشل، هبط الجميع فى مطار مدينة بلفاست فى أيرلندا الشمالية وسافر كل منهم بالقطار على حدة فى اليوم التالى إلى دبلن. وفى فندق شيلبورن قام رجل غامض مجهول بتفتيش حقيبة كليرك وأزال منها أى شىء من شأنه أن يدينه حال قيام أى أحد بتفتيش تلك الحقيبة، ثم تم اقتياد كليرك إلى اجتماع فى المساء فى قاعة اجتماعات تحت الأرض، وهناك لقى رجالاً لم يصافحه منه أحد أو يقدم نفسه له، وكان من بين هؤلاء الرجال السياسى الأيرلندى فرانك أيكن والجنرال ماكينا

رئيس هيئة الأركان الأيرلندية، وهناك أخبرهم كليرك بأن الجنرال هدلستون القائد العام فى أيرلندا الشمالية على أهبة الاستعداد للسفر إلى جنوب الجمهورية ليساعد الأيرلنديين إذا تعرضت بلادهم لغزو الألمان، وعقد مزيداً من الاجتماعات فى اليوم التالى وصاحبته زيارات إلى أحواض إصلاح السفن وكذلك منتزه فونيكس والقاعدة الجوية فى بولدونيل، حيث تمت مناقشة سبل وقف جنود المظلات والطائرات الشراعية وكذلك المخاوف البريطانية من أن يتحول الجيش الأيرلندى (الذى كان يقوم بشن حملة قصف على إنجلترا منذ ١٩٣٩) إلى صف خامس من الجيش الألمانى.

عادت الطائرة فلامنجو إلى لندن مقبلة من بلفاست يوم الاثنين ٢٧ مايو، ومن خلف الكواليس تم تعزيز قوات الجيش الأيرلندى ووضعت فى حالة استنفار، كما تم استدعاء قوات الاحتياط والمتطوعين وتم إنشاء مجلس الدفاع الوطنى، وفى غضون أيام، وبإيماءة تتسم بالجرأة، عرض تشرشل على دى فاليرا توحيد أيرلندا كجائزة له على انضمامه إلى صفوف الحلفاء خلال فترة الحرب، ولكن إيمون دى فاليرا كان يرغب فى الحفاظ على سياسة الحياد أكثر من الوحدة وأن أيرلندا الشمالية لا ترى إلا مصلحتها ففوت على نفسه فرصة تاريخية.

بينما كان يصعد درجات وزارة الحربية البريطانية وقد عاد إلى زيه الرسمى اصطدم كليرك مع الجنرال هاينينج الذى أخبره بأن السير جون دل عين للتو رئيساً لهيئة الأركان العامة لجيش الإمبراطورية؛ حيث أصبح كليرك منذ ذلك الوقت عضواً بالمكتب الرئيسى للهيئة، كان كليرك معجبًا بـ "دل" عندما التقيا فى كلية الأركان وفى فلسطين وكان يعرف عنه أنه نشيط ومثقف، وحقق دل الطموح الذى كان يصبو إليه طوال عمره وهو أن يتولى قيادة الجيش البريطانى، ولكنه حقق ذلك فى ساعة مظلمة من تاريخ الدولة العسكرى عندما كانت البحرية الملكية بصدد إجلاء الجيش البريطانى من فرنسا، لقد شعر بأن كأس الانتصار مسمومة، وهناك وجهتان نظر تتعلقان بدل.. يرى بعض أنه كان مستنزفًا ولذلك ناسبه اللقب الذى منحه له تشرشل وهو لقب "المتسكع"، مع أن المؤرخ أليكس دانشيف حاول إقناع الناس بأن جون دل كان رجلاً صالحًا مهد

الطريق أمام الرئيس القادم لهيئة الأركان العامة بجيش الإمبراطورية آلان بورك لمواجهة تشرشل فى أسلوبه الذى يعبر عن البلطجة، وأنه عمل على توطيد العلاقات الأنجلو أمريكية وذلك عندما ذهب إلى واشنطن بصفته رئيسًا لبعثة هيئة الأركان المشتركة وعضواً بريطانيًا بارزًا ضمن رؤساء هيئة الأركان المشتركة؛ حيث توفى وهو لا يزال يشغل هذا المنصب.

تم تعيين كليرك ضابطًا بهيئة أركان شئون الضباط، فقام بوقف الأعمال غير الضرورية التى كان يقوم بها رئيسه المزعج، وفى تلك الليلة، تم إنشاء خط هاتف بين وزارة الحرب والمقر الجديد لقيادة قوات الحملة البريطانية المتمركزة على شاطئ لابانيه داخل بلجيكا وشرق كثبان براى ودونكيرك؛ حيث لم يكن أمام قوات الحملة البريطانية المرابطة على الحدود الخارجية سوى المقاومة أو الاستسلام أو الإجلاء، حدث ذلك عندما تلقى اللورد جورت القائد العام لقوات الحملة البريطانية خبراً فى ٢٧ مايو عن استسلام الملك ليوبولد عاهل بلجيكا للألمان دون إبلاغ حكومته أو حلفائه؛ وقصفت القوات الجوية الألمانية خزانات النفط وأرصفة ميناء السفن فى دونكيرك وشوهدت سحبًا من الدخان الأسود لعدة أميال، وفى ذلك اليوم تم إجلاء أكثر من ٧٥٠٠ جندى من الميناء، وفى اليوم الثامن والعشرين تم إجلاء أكثر من ٢٥٠٠٠ من الشواطئ؛ وفى ٢٩ مايو أمضى كليرك فترة طويلة على الهاتف؛ حيث كان من بين المهام المكلف بها الاستماع إلى جميع المحادثات بين دل وجورت كى يقوم بتسجيل القرارات وتقديم إشعار بها إلى هيئة العمليات والإدارات الأخرى، وقد عاش كليرك الحرب بالنيابة عن تشرشل وتخيل أن انكماش الحدود الخارجية سيؤدى إلى تراجع الجيش الذى ترجح أن تكون مهمته التالية هى الدفاع عن إنجلترا نفسها.

كانت ملحمتا دونكيرك و"محرك العمليات" اللتان قام بتنظيمهما العقيد برترام رامزى فى سلاح البحرية؛ إضافة إلى الانسحاب المعجز للجيش البريطانى الذى كان مدعومًا من قبل البحرية الملكية بين ٢٧ مايو و ٤ يونيو ١٩٤٠، وكذلك قيام القوات الجوية الملكية بالتصدى لطائرات العدو فى الجو، دعا كل هذا إلى تفاخر وتباهى البريطانيين، حيث كتب جون ماسفيلد فى "الأيام التسع" – (The Nine Days):

"يجب أن أقول: إن هذه العملية كانت أعظم شيء قام به هذا الوطن"، ولكن كما كانت الحال في كورونا وجاليبولي، حدثت الهزيمة الساحقة بسبب تساقط الجليد، وقد حذر تشرشل في خطاب ألقاه أمام مجلس العموم في ٤ يونيو قائلاً: "لا يمكن الانتصار في الحروب عن طريق عمليات الإجلاء، وما حل بفرنسا وبلجيكا لكارثة عسكرية مروعة".

أرسل الملك جورج السادس رسالة إلى جورت جاء فيها: "معك قلوب جميع المواطنين ومع جنودك الرائعين في ساعة الخطر"، وطلب جورت المزيد من المقاتلين لإبعاد قاذفات القنابل الألمانية وقاذفات الانقضاض عن الموانئ والشواطئ؛ بدأت المدفعية الألمانية في قصف دونكيرك وسرعان ما تواردت تقارير عن تراجع الوحدات الفرنسية من بلجيكا وتكدست طرق الساحل بالفارين إما بوسائل النقل وإما على أقدامهم.

كان الرائد جيفري بيج الحاصل على وسام دي إس؛ لا يبعد أكثر من عشرة أميال، وكان قد انسحب من مونس ولو كاتيو عام ١٩١٤، كان جيفري في هذا الوقت رائد سرية تتكون من سيارتين مع دراجتين بخاريتين وكانت حركتها بطيئة على طول الجانب الجنوبي من قناة دي برجوس على طريق ضيق مسدود بالمركبات والعربات الفرنسية التي تجرها الخيول، وحيث إن ذلك كان ضرورياً، فقد أمر الضباط بدفع السيارات والشاحنات في القناة. وعند أحد الجسور التي ترابط عنده مجموعة من الحراس تم السماح للمركبات ذوات العجلات بالمرور داخل الحدود الخارجية للقوات البريطانية مثلما الحال بالنسبة إلى سيارتهم وأسلحة المدفعية، بدت دونكيرك من على بعد ستة أميال بدخانها الكثيف الذي أخذ شكل الفطر، وتلقت الفرقة السادسة والأربعون التابعة للقيادة العامة سرية بيج الأوامر بالسيطرة على خط قناة دي موريس من تيتجيم إلى دونكيرك:

كانت مهمتنا الأولى تكمن في لم شتات فرقتنا من بين جموع القوات البريطانية التي كانت تحتشد جنوبياً باتجاه دونكيرك دون تنظيم أو استخدام وسائل النقل،

وبدأت قوات الحملة البريطانية التنكر ووقف الرجال يرتدون زيًا عسكريًا موحدًا؛ ما جعل من المستحيل التعرف على قواتنا، وقد وقفت عند مفترق الطريق بالقرب من تيتجيم وصرخت قائلاً: "الفرقة ١٣٨، إلى اليمين در!". إننى أتذكر حشدًا مكونًا من ٢٠٠ رجل تقريبًا يقودهم قسيس وهو يصرخ سائلاً: "أى الطرق تؤدى إلى دونكيرك؟".

وفى ٣٠ مايو، كتب تشرشل إلى جورت مخبرًا إياه بالاستمرار فى الدفاع عن حدود "خط كورونا" الخارجية، حيث كان يعلم أن جورت يريد البقاء حتى يرحل آخر رجل، ولذلك أعطاه تشرشل تعليمات بأن يتخلى عن قيادة الفيالق العسكرية ويعود إلى الوطن: "وعندما لا تتجاوز قوتك قوة ثلاث فرق عسكرية... فإن وقوعك فى الأسر يكون انتصارًا سهلاً بالنسبة إلى عدوك".

عندما اتصل جورت مرة أخرى ليحتج، وجد أن دل قد ذهب ليجتمع مع تشرشل فأمر بتحويل مكالمته، وسار كليرك بتهور إلى مقر القيادة البحرية لإجراء الاتصال حيث اجتمع قادة الأفرع الرئيسية مع بعض الوزراء، وأخذ رئيس الوزراء هنا وهناك وارتفع دخان السيجار وكان الجو متوترًا. شرح كليرك مهمته ولوح بيده نحو هاتف أحمر موضوع على مكتب قرب النافذة ونجح جورت فى الاتصال بدل هاتفيًا، ومن وقت لآخر عاد دل يكرر الأخبار: بلغ عدد الرجال المرئيين عند الشواطئ أكثر من ١٢٠٠٠٠، بينما عدد المنتظرين فى الأماكن المحيطة يقترب من ٨٠٠٠٠، ثم ناقش دل وجورت وضع مؤخرة الجيش؛ وتم الاتفاق على أن يبقى الجنرال هارولد ألكسندر الوحدة العسكرية الأولى حتى النهاية، وعندما أخذ الأميرال ديدلى باوند أمير البحرية الإنجليزية الهاتف ليتناقش مع جورت بشأن أمور البحرية، رجع دل إلى الوراء وفجأة شحب وجهه، فلاحظ تشرشل ذلك على الفور فتساءل بسرعة: "هل ثمة خطأ ما؟"؛ وأتى الجواب بهدوء: "ابنى موجود ضمن قوات الفيلق الأول"؛ ولم يقل شيئًا أكثر من هذا، فأمسك رئيس الوزراء رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية من ذراعه فى إشارة تلقائية إلى التعاطف الذى فاق أى كلام.

وفى النهاية، التقط الجنرال دل سماعة الهاتف مرة أخرى، لكن جورت احتج مجدداً على استدعائه، لكن رئيس الوزراء كان مصراً: "أخبره نيابة عنى، بأن عليه أن يعود وفقًا للأوامر الصادرة إليه، فهذا أمر غير قابل للنقاش، قرار حكومى!"، جلس تشرشل بعد ذلك على المقعد المجاور للهاتف الأحمر، وأخذ يبث الشجاعة فى الجنرال جورت بأن كليرك كان يتمنى أن تسجل هذه المحادثة لتكون إلهامًا فى المستقبل.

بدأ رئيس الوزراء يتحدث بحذر إلى جورت حول التعاون المستقبلى مع الفرنسيين، وكان يخطط فى حقيقة الأمر فى اليوم التالى للسفر إلى باريس لمقابلة رئيس الوزراء الفرنسى بول رينو، وكان كليرك يعلم أن الأجواء لم تكن آمنة بسبب الطيران الألمانى، ومع ذلك كان ونستون تشرشل يصر قائلاً: "سوف أسافر مع رئيس هيئة أركان الإمبراطورية مهما كان إلى....."، وهنا مد ديدلى يده وأنهى المكالمة وكان ذلك الأمر يتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة، فنظر رئيس الوزراء نظرة ساخطة تشبه نظرة كلب البلدغ فى الصورة الفوتوغرافية الشهيرة التى التقطها كارش مصور مدينة أوتوا! فقال كليرك: "من فضلك يا سيدى، ليس من المأمون أن نتحدث بشأن هذه الخطط خلال الهاتف"، فأحدق إليه تشرشل بغرابة شديدة فتتدخل دل بعد ذلك وعاد جورت إلى الجبهة بعد قليل، فتذمر رئيس الوزراء وغمز بعينه: "يوجد فى هذا الوجود من يمنعنى أن أقول ما أريد أن أقول"، ثم استمرت المحادثة بشكل أكثر تروٍ.

ثم تقدموا بعد ذلك بحراً عبر القنال الإنجليزى متجهين إلى دونكيرك فى فرنسا، وكان "أسطول موسكيتو الحربى يتكون تقريبًا من ٩٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة، حيث شمل بارجات، ومراكب صيد، وسفنًا تجارية حربية قديمة وقوارب ومدمرات ومراكب شراعية وكاسحات ألغام وجارفات محار ومراكب شراعية صغيرة وسلوبات "نوع من المراكب الشراعية" وشوتس وسماكات "نوع من السفن الشراعية" وسفن صيد وزوارق سحب ومراكب صيد الحيتان وويرات "نوع من المراكب الخفيفة" ويخوتًا ويولات "نوع من المراكب الشراعية"، لانتشال الجنود البريطانيين والفرنسيين من الموانئ المحطمة ومما قصف من الشواطئ بالقنابل وإعادتهم إلى إنجلترا سالمين.

في تمام السادسة مساءً يوم الجمعة الموافق ٣١ مايو، انتقل الجنرال جورت إلى الشاطئ على بعد نحو ميل غرب "لابانيه" وحاول استخدام كاسحة الألغام هيبى، وفى أثناء أعنف الغارات الجوية الألمانية جلس الجنرال فى هدوء عند إحدى زوايا الجسر، وكان يرتدى خوذة كان قد استعارها وهو ينظر من خلال المنظار على الشاطئ المحطم الذى كان يحترق، وكان الرجال يصرخون وكانت القنابل تنفجر فى الماء وعلى ارتفاع قدر بأربع بوصات أحدثت المدافع الموجودة أعلى مقدمة المركب وأسفل الجسر انفجاراً مدوياً: "ألن تذهب يا سيدى للأسفل لتكون فى مأمن؟ لا، شكراً لك، أنا سعيد بوجودى هنا".

وصل الرائد جيفرى ليلة السبت إلى رمال مالو ليبين، وأضاءت المركبات المحترقة الصفوف الستة الطويلة للجنود التى امتدت فى الظلام نحو حاجز الأمواج، وكان أمامهم البحر بأضوائه الشاحبة، فقرر رجال الفرقة السادسة والأربعون اختبار أقدارهم والسير فى المياه، حيث وصلت المياه أولاً إلى خصورهم ثم وصلت إلى صدورهم، وحاول بعض الرجال شرب جرعات من الماء المالح إلى أن حل الظلام وظهرت طلائع مراكب التجديف، كانت أمتعة الرائد بيج المكدسة بزجاجات الخمور والشطائر موضوعة خارج المركب البخارى، حيث ترك ملابسه لتجف فى غرفة المحرك حتى وصلوا إلى ميناء هارويتش ظهر الأحد ٢ يونيو الموافق ليوم عيد الميلاد الحادى والعشرين لابنه الوحيد، وبعدها بخمسة أيام نزح والدى الكابتن رانكين من مدينة هارستاد النرويجية.

سوف توضع مدينة دونكيرك على قائمة وسائل الدعاية، وهنا تعجب جيه بى بريستلى فقال وهو ممسك بجهازه اللا سلكى فى يده وكان هذا يوم الأربعاء: "ما هذا التخبط الذى يحدث؟ حالات من سوء الحظ والحسابات الخاطئة تنتهى وكأنها ملحمة بطولية، لدينا عادات غريبة الأطوار، كما تلاحظ على مدار التاريخ"، وتركز حديث بريستلى على مراكب النزهة صغيرة الحجم والسفن البخارية التى تم استدعاؤها من "عالمها البرىء" قرب سواحل بريطانيا، "من أجل الإبحار إلى ساحات القتال... لإنقاذ الجنود البريطانيين".

أرسلت بريطانيا العظمى ما يقرب من نصف مليون جندى إلى فرنسا بجميع تجهيزاتهم، وانتهى الأمر إلى إحداث حالة من الفوضى أدى إلى إخفاق فرنسا فى هذه الاستراتيجية، وكانت الخسائر المادية رهيبة، حيث خسر السلاح الجوى الملكى البريطانى ما يزيد على ١٥٠٠ من أطقم الطائرات، وما يزيد على ٩٠٠ طائرة كان نصفها من الطائرات المقاتلة، وخسرت البحرية الملكية ما يزيد على ٢٠٠ سفينة كان من بينها ست مدمرات وثمانى ناقلات للجند وسبع عشرة سفينة صيد، وفاقت خسائر الجيش البريطانى ٦٨٠٠٠ جندى ما تجاوز ١٢٠٠٠ قتيل وغيرهم من الجرحى والمفقودين أو قيد الأسر؛ وبالإضافة إلى ذلك، خلفت قوات الحملة البريطانية وراءها فى الشواطئ الفرنسية المحترقة والحقول المدمرة دبابات ومدرعات وناقلات للجند وجرارات وشاحنات وسيارات خاصة، فيما يقارب ١٢٠٠٠٠ مركبة، كما خسروا فى الواقع أغلب ما لديهم من مدفعية، فقد خسروا ٢٤٧٢ مدفعًا من أصل ٢٧٩٤، كما عرضت جريدة السينما الألمانية لقطات توضح اضطرار بريطانيا إلى التخلى عن أو تدمير نصف مليون من المواد التموينية و١٦٥٠٠٠ طن من الوقود و٢٠٠٠٠ من الدراجات البخارية إضافة إلى ٩٠٠٠٠ بندقية و٨٠٠٠ مدافع برين ومئات من البنادق المضادة للدبابات وتلال من القنابل وكمية مهولة من الأوراق والممتلكات والعدد وكميات مبعثرة من أمتعة الجنود.

حولت "روح دونكيرك" تلك الهزيمة إلى انتصار، لكن آثار وخسائر هذه الكارثة المادية؛ أوجدت حالة من الذهول ما دفع بريطانيا لإيجاد طرق جديدة للدفاع عن نفسها، دائمًا ما كانت الحاجة هى أم الاختراع، لذا تطلبت حالة الضعف التى ظهرت عام ١٩٤٠ المزيد من القوة، ومن ثم المزيد من التمويه والمزيد من الخداع والمزيد من الدعاية.

(١٧)

خناجر الكوماندوز

كتب عضو البرلمان هارولد نيكلسون إلى زوجته فيتا ساكفيل - ويست يوم الثلاثاء الموافق ٤ يونيو ١٩٤٠؛ يحثها على الشجاعة والأمل: "لقد ألقى ونستون تشرشل اليوم عصراً أروع خطاب سمعته فى حياتى، لقد تغيرت الأحوال فى مجلس العموم". بدأ خطاب تشرشل الشهير الموجه إلى مجلس العموم والذى دار حول مدينة دونكيرك كقصة تاريخية جرت أحداثها فى بولونى وكاليه ودونكيرك، حيث شكر تشرشل فيه الخدمات التى تقدمها القوات المسلحة وكل من شارك فى عملية إنقاذ ٣٣٥٠٠٠ شخص "من بين ثنايا الموت والعار"؛ وكان أمراً أشبه بالمعجزة، ثم تحول تشرشل إلى الحديث عن التهديد الذى صار وشيكاً بالتعرض للغزو العسكرى، تلك الحقيقة التى ظلت مجهولة لما يقرب من ألف سنة، واختتم تشرشل خطابه بقوله: "سنحارب فى البر والبحر وفى الحقول والشوارع وفوق التلال، ولن نستسلم أبداً ..."، وانتهى الخطاب بالتطلع إلى عالم جديد، إلا أن ذلك الخطاب كان يتضمن عناصر غامضة بعض الشىء، وعندما أخذ المواطنون البريطانيون فى الاستعداد للغزو النازى، قال تشرشل:

إذا أدركنا مدى الحقد والعدوان اللذين يكنهما لنا عدونا، فإنه يتحتم علينا أن نقوم بإعداد أنفسنا لكل أنواع الخدع الحربية والمناورات الوحشية الغادرة، ولا أظن أن هناك فكرة غريبة لا تستحق الدراسة أو النظر، ولكننى آمل فى الوقت نفسه أن يكون البحث بعين ثاقبة.

فور الانتهاء من حديثه؛ اقترح تشرشل على الجنرال اسماى رئيس الجناح المسلح بالأمانة العامة للحرب بمجلس الوزراء قائلاً: "علينا أن نبدأ فى العمل على تنظيم الغارات التى ستقوم بها قواتنا على هذه السواحل... سيكون من المثير أن نجعل الألمان يتساءلون: "أى البقاع سنهاجمهم فيها؟"، بدلاً من أن يقوموا هم بإجبارنا على الدفاع عن الجزيرة!".

وقفت بريطانيا على أعقابها، انشغل كل شخص بما كان ينبغى على بريطانيا أن تقوم به، بل ما ينبغى فعله بالنسبة إلى أمثال ديدلى كليرك الذى كان يعمل بالأمانة العامة لهيئة الأركان الإمبراطورية فى وزارة الدفاع، ويذكر كليرك فى كتابه "المهام السبع" - (Seven Assignments) أنه بدأ التفكير فى الأحداث التاريخية التى تشبه واقعنا الحالى مثل إسبانيا التى كانت تحت قيادة نابليون فى الفترة بين ١٨٠٨ و١٨١٤، عندما تم تنظيم حركة المقاومة التى كانت أشبه بقطاع الطرق وعن طريق هؤلاء ظهر مصطلح "guerrilla" - "حرب العصابات". وبعد تسعين عامًا، اتبع البوير الأسلوب نفسه؛ فشنوا هجمات على الجيش البريطانى مع مجموعات منظمة من الفرسان تعمل بشكل حر والتى سميت "قوات البوير الخاصة". أعادت فكرة العصابة المسلحة غير النظامية، التى كان يقودها رجل مثل سماوت، إلى أذهان كليرك خبرته الشخصية عام ١٩٣٦ خلال الحرب غير التقليدية فى فلسطين عندما قامت "مجموعة من المتعصبين قليلى التسليح" بفرض طوق حول أحد فيالق القوات النظامية. ربما يكون لدى الإسبان والبوير والعرب شىء يعلمونه للجيش البريطانى المسلح تسليحًا ثقيلاً، تحدث أرشيبالد ويفل عن هذا الأمر مشيرًا إلى أن شن هجوم من هذا النوع أصبح أسهل شكل من أشكال الحرب، وأن ذلك يدفعك لأن تكون أكثر عدوانية عندما تكون فى حالة ضعف، ويشكل التنقل عنصرًا حاسمًا لكل فرد من أفراد حرب العصابات، إلا أن البريطانيين يمتلكون ميزة تقليدية ألا وهى البحر الذى تنتشر عليه قوات العدو على امتداد آلاف الأميال من الساحل الأوروبى من مدينة بودو النرويجية إلى مدينة بيارتز الفرنسية. قدم كليرك تقريرًا مختصرًا وتصورًا عامًا فى البداية لفكرة "القوات الخاصة" البر مائية فى ثلاث ورقات مكتوبة بخط اليد ومؤرخة بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٤٠.

في يوم الأربعاء الموافق ٥ يونيو، تفقد الجنرال جون دل بعض الجنود الذين عادوا بحالة جيدة من دونكيرك، لكن ما يثير الدهشة هو أن معنوياتهم كانت عالية، وكان دل متحمسًا لرفع "روح الهجوم لديهم". يقول كليرك إنه اقترح عندئذ فكرة الكوماندوز "القوات الخاصة"، وصرحت مصادر من هيئة الأركان الإمبراطورية بأن كليرك كان سيقدم فكرته إلى رئيس الوزراء في اليوم التالي، إلا أن كليرك طلب من هيئة الأركان الإمبراطورية أن تعد تصورًا مبدئيًا على الأوراق؛ واضعًا في اعتباره نظامين: لا توجد وحدة يمكن نقلها من الدفاع الداخلي، واستخدامنا لمخزون ضئيل بعد تكبدنا الخسائر في فرنسا.

أخذ دل الفكرة التي طرحها كليرك إلى اجتماع رئيس الأركان مع مجلس الوزراء، وقبل تناول طعام الغداء يوم الخميس تم استدعاء كليرك ليتم إخباره: "تم التصديق على مشروع القوات الخاصة وعليك تنفيذها على الفور"، وكان ذلك اليوم "مفعما بروح الخلاص"، كما كتب ونستون تشرشل تقريرًا حاسمًا حول تنظيم السرايا بشكل لافت للنظر:

يجب أن يتم الإعداد للمشروعات باستخدام قوات من القناصة مدربة تدريبًا خاصًا تستطيع من خلال قوتها نشر الرعب عبر هذه السواحل، باستخدام "أسلوب الكر والفر"، في البداية... إنني أنتظر أن يقدم القادة في هيئة الأركان المشتركة إليّ الإجراءات للقيام بمغامرات كبيرة وهجوم متواصل ضد جميع السواحل التي يحتلها الألمان.

كان كليرك على وشك التخلي عن واجبات طاقمه، حيث كان المفترض أن يتولى قسمًا جديدًا في إدارة العمليات العسكرية المسئولة عن كل أنواع الغارات، وفي عصر ذلك اليوم، وتحت إشراف العميد أوتو لوند، بدأ كليرك في إقامة معسكر إم أو ٩، وبالنسبة إلى الأفراد الذين تم تجنيدهم، فقد بدأ يدرس "السرايا المستقلة" التي تم تكوينها في شهر أبريل ١٩٤٠ من متطوعي الجيش في الوحدات العسكرية الإقليمية والمزودين بأسلحة وعتاد خفيف للقيام بعمليات خلف خطوط العدو لأيام عديدة،

وكانت خمس سرايا مستقلة (تتكون كل واحدة من عشرين ضابطًا ومئتى وسبعين رتبة عسكرية أخرى) تحارب فى النرويج بقيادة كولين جوبنس، بينما كانت تواجه خمس سرايا أخرى محاولة حل البرلمان فى اسكتلندا، ومن بين هؤلاء، كان لكليرك الحرية فى اختيار من شاء.

تمثلت المشكلة التالية فى النقل، ففى السابع من يونيو، تحدث ديدلى كليرك إلى مساعد رئيس هيئة الأركان البحرية فى مقر قيادة القوات البحرية، والذى قام على حد قوله بـ"القفز من فوق كرسيه" بشكل يعبر عن حماسته لفكرة مشروع القرصنة، وقام بتقديم كليرك إلى الأمير الثانى للبحر، والذى قال إن لديه رجلاً بمعنى الكلمة، إنه جى إيه جارون ويليامز فى ذلك الوقت الذى كانت فيه السفن محاصرة فى ميناء زيبروج البلجيكى، واستقل كليرك قطار النوم إلى اسكتلندا، وهناك التقى ضابطين فى معسكر السرايا المستقلة خارج مدينة جلاسجو، وأمر كل منهما باختيار مئة متطوع للقيام بعمليات مستقلة ومتنقلة فيما عرف بوحدة "الكوماندو رقم ١١"، وأمر الضابطين بإحضار الجنود إلى الجنوب للقيام بغارات تستمر على مدار أسبوعين لاحقين.

أوضح كليرك فيما بعد وأثناء حديثه إلى بى بى سى فى برنامج خدمة الوطن فى نوفمبر ١٩٤٨، الهدف المرجو من "تكوين فرقة الكوماندوز" قائلاً:

من الطبيعى فى أى جيش نظامى، يبقى الجندى متسمًا بالعشوائية الشديدة تحت قيادة ضابط معين، والذى يجبره على طاعة الأوامر... وعلى الصعيد الآخر، يشارك رجال حرب العصابات غالبًا فى اختيار ضابطهم، فهم يلتحقون بالمجموعات التى يرون أن لها قائدًا جيدًا، والذى سيعطيه مالاً أكثر من غيره، كذلك يستطيع القائد انتقاء الرجال الذين يريدهم، والتخلص فى أقرب وقت من أولئك الذين يفشلون فى تنفيذ المعايير الخاصة به، لقد بدا من الأهمية بمكان أن يلقن هذا المبدأ من مبادئ القيادة للفدائيين، بشكل أو بآخر، من البداية.

وفى يوم الاثنين الموافق ١٠ يونيو، التقى كليرك مع جارون ويليامز الذى اقترح أن نهر همبل بالقرب من ساوثهامبتون مكان جيد لتجمع الرجال والقوارب ذات المحركات.

وفى اليوم الثانى عشر من الشهر نفسه، وصل الجنود من اسكتلندا لإجراء أول مجموعة من المناورات المتعددة، تمثلت فى غزو هامشير ضد كتيبة مشاة صديقة. ولم تكن القوارب فى حالة جيدة، لكن جارون ويليامز توصل إلى حل يتمثل فى: ستة "قوارب سريعة" من تلك التى تتبع سلاح الجو الملكى البريطانى، وهو ذلك النوع من القوارب الذى استخدمه توماس إدوارد لورنس من أجل إنقاذ الطيارين الذين سقطوا فى الماء، وتحدد يوم ٢٤ يونيو ١٩٤٠ موعد القيام بأول غارة، واعتباراً من ذلك الحين، انتشر مفهوم الإغارة كذلك فى كل مكان وتولى الجنرال آلان بورن من البحرية الملكية المسئولية فى مقر قيادة العمليات المشتركة الجديد، فظهر التذمر والسخط والتنافس بين المنظمات على المناوشات الأولية فى مضمار الحرب داخل الحكومة البريطانية.

أخذ ديدلى كليرك إذنًا بالمضى قدمًا فى الهجوم الأول، ولكنه كان ممنوعًا من استخدام القوات البرية، فانطلقت أربعة زوارق من دوفر ونيوهافن وفولكستون تقل ١٢٠ رجلاً قاموا بصبغ وجوههم باللون الأسود باستخدام أحد مساحيق التجميل التى اشتروها من متجر يقع قرب مسرح ويلى كلاركسون بشارع واردور وتوجهوا للانقضاض على العدو فى الساحل الجنوبى لبولونى، ولم يكن هؤلاء الجنود مجهزين للقيام بعمليات بحرية دقيقة، حيث توقفت بوصلتهم عن العمل بسبب أزيز مقاتلى سلاح الجو الملكى البريطانى الذين لم يكن لهم علم سابق بهم، وفى تمام الساعة الثانية من صباح يوم ٢٤ يونيو، تسللت قواربهم إلى الشاطئ واجتاز الرجال الماء بصعوبة واختفوا فى الكثبان الرملية.

اعتبر كليرك أن ما يثير القلق هو مجرد الانتظار فى طائرة بدائية، حلقت طائرة ألمانية مباشرة فوق الرءوس وحامت دورية من القوارب الألمانية بالقرب منا مما كان ينذر بعاقبة وخيمة. وحدث إطلاق للنار على بعد نحو ميل أسفل الساحل، واستخدمت المدافع الرشاشة والبنادق والقنابل، وعلى امتداد الشاطئ اصطفت دورية ألمانية من راكبى الدراجات، وقام الضابط رونى تود بإطلاق نيران نحو ٤٥ مدفعًا يدويًا وآليًا من

طراز طومسون غير المألوف، حيث دفعت هذه الضجة القوات الألمانية إلى فتح نيران أسلحتها بكثافة أثناء الظلام. شعر كليرك بضربة مدوية فى رأسه وسقط أرضًا يعانى من وجود تقرحات ورعشة، وأحس كليرك بوجود ألم فى وركه حيث سقط على علبة التبغ الخاصة به المصنوعة من الفضة، ما يعنى أنه قد أصيب برصاصة طائشة، لكن إرنست تشابيل – الذى كان فى المكان نفسه – قال: إنه لم يكن هناك أى إطلاق للنار ورجح أن يكون السبب فى الإصابة التى حدثت لكليرك سقوطه فى القارب أثناء الظلام.

غادرت الدورية الألمانية سريعًا، لكنه كان من الممكن أن تعود وبرفقتها الدعم العسكرى. ثم ظهرت أشكال سوداء مخيفة على الشاطئ وبدأت تتقدم نحو القارب وهى تبرز حرابها. وبصوت مفعم بالخوف، سأل كليرك عن كلمة السر فتلقى إجابة مبهمة، هل كان هذا هو العدو؟ ولكن الاسم الإنجليزى المألوف لأحد ضباط الصف بدد ذلك الخوف، فتراجعوا بحرص نحو المياه العميقة وابتعدوا رويدًا تجاه الشمال، وفى الوقت الذى بدأ فيه الضوء يسطع والطائرات الألمانية تعود؛ قاموا بإيقاف المحرك لإخفاء أى أثر للحركة. ثم أخذ القارب الألمانى الغامض يبتعد، وتوجه الجنود إلى بلادهم. لقد أظهر ضوء النهار الجانب الأيسر من رأس ديدلى كليرك ورقبته ومعطفه الملطخ بالدماء الجافة، وأوشكت أذنه اليسرى أن تقطع، فأجريت له عمليات ترقيع، وكان يعامل معاملة الأبطال عندما عادت القوة الخاصة إلى دوفر، وقام أحد أطقم القوارب الأربعة بعمل كل ما يلزم لدخول ميناء لو توكيه، لكنهم قاموا – بشكل أخرق – بقتل اثنين من الحراس وإلقاء بعض القنابل.

كانت أول محاولة من جانب القوات الخاصة شيئًا تافهًا، لكن وزارة الإعلام عمدت إلى إصدار بيان منمق فى اليوم التالى يشير إلى العلميات القوية التى تجرى على قدم وساق.

غارة بريطانية على الشريط الساحلى للعدو:

قامت المقاتلات البحرية والحربية، بالتعاون مع سلاح الجو الملكى البريطانى، بتنفيذ استطلاع ناجح على الشريط الساحلى للعدو، وتأثرت أرصفة الهبوط فى عدد من النقاط إضافة إلى تأثر عمليات اتصال القوات الألمانية، وتكبد العدو العديد من الخسائر ولم توجد إصابات فى الجانب البريطانى، كما تم الوصول إلى الكثير من المعلومات المفيدة.

لم تكن الغارة الثانية للقوات الخاصة التى تم شنها على جزيرة جيرنزى المحتلة فى ١٤ يوليو؛ ناجحة هى الأخرى، ويعود السبب مرة أخرى إلى وجود بوصلات معيبة وعدد غير كاف من القوارب، وهبطت إحدى الجماعات على جزيرة غير مقصودة كما ترك اثنين من السباحين الضعفاء حتى تم أسرهما فيما بعد، لكن تشرشل كان متحمساً للفكرة وبعد ذلك بثلاثة أيام قام بتعيين قائد الأسطول الذى احترقت سفنه، وهو العميد السير روجر كيز، والذى قاد الغارة الشهيرة على قوارب اليو فى زيبروج وأوستند خلال أبريل عام ١٩١٨، ليكون القائد الجديد للعمليات المشتركة، قام كيز بإلغاء أسلوب "الغارات القليلة والمتكررة" وأعد العدة لهجوم كبير لقوات الكوماندوز. وفى ٢٥ أغسطس ١٩٤٠، كتب تشرشل رسالة إلى أنتونى إيدن، وزير الدولة لشئون الحرب فى حكومته، يحثه فيها على تطوير "قوات العاصفة" المتواجدة على جبهات القتال الألمانية.

هزمت فرنسا على يد عدد قليل من القوات المجهزة بأفضل الوسائل، بينما ظل السواد الأعظم من القوات الألمانية فى المؤخرة، لإتمام عملية الاحتلال. إذا أردنا القيام بأى حملة عام ١٩٤١ فإنها ستكون ذات طابع بر مائى. وسوف تعتمد على عمليات إنزال مباغت لقوات ذكية وخفيفة التسليح اعتادت أن تعمل كمجموعات مع أشخاص مدربين على الهجوم... من أجل كل هذه الأسباب، يتعين علينا أن نقوم بتطوير قوات العاصفة أو فكرة قوات الكوماندوز، لقد طلبت خمسة آلاف من رجال المظلات حيث يجب أن يكون لدينا ما لا يقل عن عشرة آلاف من هذه الفرق الصغيرة التى ستكون قادرة على الأعمال الخاطفة.

مكث ديدلى كليرك مع فرقة إم أو ٩ بين شهرى يونيو ونوفمبر عام ١٩٤٠، وكانت إحدى أفكاره الرئيسية أن يبتعد عن وسائل الترفيه الأساسية فى الحياة العسكرية، فقد جعل الأفراد هم المسئولون عن طعامهم ونقلهم ومأواهم، بالإضافة إلى المكافأة، تم إعطاء كل فرد من أفراد الكوماندوز مبلغًا وقدره ستة شلنات وثمانية بنسات فى اليوم الواحد (كان الضابط يأخذ ضعف ذلك المقدار، أى ثلاثة عشر شلنًا وأربعة بنسات) ينفقها كيفما شاء، لكنه إذا صدرت الأوامر بـ "التجمع فى الغد على أرصفة ميناء دوفر فى العاشرة صباحًا"، فلم تكن هناك وسائل نقل بل على كل جندى أن يأتى بطريقته. كان هذا دافعًا لأفراد الكوماندوز للاعتماد والثقة بأنفسهم، والحرية فى ابتكار أى أساليب فنية جديدة. تم تدريب هؤلاء الأفراد على طريقة هجومية واحدة تسمى "أنا وزميلى"، وكان من الصعب أن تُؤدى بانفراد، وكان هؤلاء الرجال يتمتعون بلياقة بدنية عالية، حيث كانوا قادرين على السباحة والتسلق والتقدم، كما تم تدريبهم على جميع الأسلحة المحمولة بما فيها السكاكين ذات الحد المزدوج التى كانت تستخدمها سابقًا شرطة شنغهاى، وتم تعليمهم فن الدفاع عن النفس إضافة إلى تطوير الخناجر التى تستخدمها القوات الخاصة، ويذكر أن ويفل شاهد فى فترة الثلاثينيات جنديًا مثاليًا من جنود المشاة يعمل باعتباره لص البيوت وصيادًا غير شرعى وخفيرًا مسلحًا، وفى عام ١٩٤٠ أراد كليرك من جندى الكوماندوز أن يكون هجينًا بين قراصنة العصر الإليزابيثى، ورجال العصابات فى شيكاغو ورجال القبائل الحدودية، لكن هذه الأفكار السينمائية لا تتماشى مع السلطة التقليدية، إلا أنها كانت بمثابة الطعم الذى يغرى الأعضاء الجدد بشدة.

ومرة أخرى يقود الولع بالعروض الترفيهية والمسرحية كليرك إلى أداء عمله بشكل أفضل مما كان متوقعًا. تمكن كليرك من تجنيد الممثل ديفيد نيفن، الذى كان ضابطًا سابقًا فى فرقة المشاة فى منطقة الهضاب، والذى كان قد اضطر إلى الاستقالة بعد شعوره بالذل وذلك عندما رفع يده ليسأل فى نهاية محاضرة طويلة ومملة ألقاها أحد الجنرالات أثناء قيامه بتفقد الجند: "من فضلك، كم الساعة الآن؟، فعلىَّ أن ألحق بالقطار."، فصدر أمر باعتقاله فهرب وعمل بالتمثيل حتى أصبح ممثلاً مشهورًا

فى هوليوود. لقد كانت فكرة رائعة من كليرك أن يجعل النجم الذائع الصيت فى فيلم "دورية الفجر" – (The Dawn Patrol) بمثابة همزة وصل بين مكتب إم أو ٩ والمشكلات الكبيرة للقوات الخاصة، التى كانت تقوم بـ "خدماتها التى تتسم بالمخاطرة"، فبدت أكثر جاذبية وتسلية للرجال. وطبقًا لذكريات الممثل النابضة بالحيوية عام ١٩٧١ فى كتاب "بالون القمر" (The Moon's a Balloon)؛ توجه نيفن ذات مرة إلى لندن بعد قيام أحد أفراد القوات الخاصة السرية بإجراء تدريبات فى قلعة لوتشيلورت كاسل فى اسكتلندا وتم اعتقاله من قبل إحدى الفرق الخاصة والتحقيق معه بواسطة المخابرات الحربية البريطانية القسم الخامس بخصوص البرقية التى أرسلها إلى امرأة أجنبية: سأتوجه صباح الأربعاء مباشرة إلى الشقة ومعى سلاح سرى، فذكر أن مهمته الملحة كانت هى لأجل البغاء، وليست التجسس.

اقترح نيفن على كليرك أنه سيكون لبوب لايكوك، عم زوجته الجديدة، دور بارز إذا التحق بصفوف القوات الخاصة، وبعد أن كانوا يضمرون له الحقد؛ ترقى روبرت لايكوك ليصبح رئيسًا لهيئة العمليات المشتركة فى الفترة بين ١٩٤٣ و١٩٤٧، وفى طريقه للوصول إلى القمة وقيامه باختيار الجنود من وايت كلاب – White Club الذى يقع فى شارع سانت جيمس فى لندن، أنشأ لايكوك فرقة الكوماندوز رقم ٨، وانضم فيها ديفيد ستيرلنج وكذلك الكاتب إيفنى ويف، الذى كانت تجربته فى جزيرة كريت اليونانية مع قوات "لايفورس" محورًا لروايته "سيف الشرف" – (Sword of Honour) التى تتكون من ثلاثة أجزاء وتدور حول الحرب العالمية الثانية.

فى نوفمبر ١٩٤٠، كتب ويف إلى زوجته أنه ينبغى عليها عدم الشك فى المكانة التى يتبوأها، "فالجميع فى الجيش يتنافسون بشكل محموم للالتحاق بالقوة الخاصة... ويقسم الضباط فى الجيش إلى مجموعتين قد تزيد إحداهما على الأخرى". وذكر ويف فى روايته الهزلية "رفع المزيد من الأعلام" – (Put Out More Flags): لم تعد القوات الخاصة فى الجيش مقصد المغامر باسيل سيل، ولكن أيضًا صديقه المحترم السير أليستير ديجى – فان – ترمبيجتون:

ثم قال أليستير: "هل تعتقدين يا سونيا أننى سأكون إنسانًا متعطشًا للدماء إذا تطوعت من أجل الخدمة الوطنية؟".

فأجابت سونيا: "هل أنت جاد فى هذا الأمر؟".

"إننى لا أفترض ذلك، لكننى متحمس جداً، يُطلب من بعض الفرق الخاصة أن تكون مستعدة لشن الغارات، فيعبرون فرنسا ويتسللون إلى ألمانيا ويقاتلون خلال الظلام".

قالت سونيا: "أعتقد أنه لم يحن الوقت لتتركنى"، وأضافت: "لكننى أستطيع أن أدرك أنك تريد ذلك".

"لديهم سكاكين من نوع خاص ومدافع رشاشة ويلبسون أحذية ذات نعال مصنعة من الحبال... ويحملون سلالم مصنوعة من الحبال يطوونها حول خصورهم إضافة إلى ملفات مخيطة فى طبقات معاطفهم للهروب بها، فهل تمانعين بشدة إذا قبلت؟".

"لا يا حبيبى فأنا أفهم جيداً أننى لا أستطيع منعك من تسلق ذلك السلم المصنوع من الحبال".

انطلاقاً من هذه البداية التى اتسمت بالهواية، ازدادت سطوة القوات الخاصة حتى أصبحت قوة محترفة، وقامت بشن الغارات حتى وصلت إلى مدينة سبيتزبرجن فى النرويج شمالاً وحتى سواحل ليبيا جنوباً. وبعد الغارات التى تم شنها على فاجزو فى النرويج وبرونيفال وسانت نازاير وديبى فى فرنسا، أصبحت القوة الخاصة مثيرة لقلق الإمبراطورية الألمانية بزعامة أدولف هتلر الذى أصدر فى أكتوبر ١٩٤٢مرسوماً يأمر فيه بقتل جميع أفراد القوات الخاصة دون تفاوض أو طلب للعفو.

أصبح ديدلى كليرك مشغولاً بهذه الأحداث. وفى ١٣ نوفمبر ١٩٤٠، قام الجنرال هايننج باستدعاء كليرك ليخبره بأن هيئة الأركان الإمبراطورية تلقت إشارة شخصية من القائد العام فى منطقة الشرق الأوسط لجنرال السير أرشيبالد ويفل يخبره عن رغبته فى إنشاء "وحدة خاصة من وحدات المخابرات لخداع العدو" فى القاهرة تحت قيادة مساعد هيئة الأركان الأول المقدم ديدلى رانجل كليرك.

(١٨)

المقاومة البريطانية

تم حشد الشعب البريطانى للعمل، ليس فقط فى المناجم والحقول والمصانع أو من أجل حملة "ازرع لنحصل على النصر"، ولكن للقتال أيضًا؛ وفى هذا السياق كتب تشرشل: "كانت الرغبة الوحيدة لكل من الرجال والنساء تكمن فى الحصول على سلاح"، وبحلول نهاية مايو ١٩٤٠ كان يوجد نحو ٤٠٠٠٠٠ متطوع فى الدفاع المحلى، كما سجل نحو ١,٤ مليون شخص أسماءهم بنهاية شهر يونيو، وكان ما يقرب من نصف هذا العدد ممن خدموا فى الحرب العالمية الأولى، وانضم إلى أولئك أصحاب اليخوت والزوارق ذات المحركات، وقامت الدوريات التى تعمل فى صعيد نهر التايمز بحراسة مسافة ١٢٥ ميلاً من ذلك النهر، وانضم الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و١٩,٥، ممن لم يبلغوا السن القانونية للخدمة الوطنية، للعمل بسرايا الحراسة الداخلية. وكان هناك أيضًا فيالق غير مقاتلة (أطلق عليها "فيالق الهجانة النرويجية")؛ حيث أمكن لأولئك الذين تخاذلوا عن الانضمام إلى الجيش القيام بعمل ذى فائدة مستخدمين الملقط والمجرفة أو الفرشاة والمقلع، كما عمل بعض فى إزالة الألغام، لذا لم يكن المتخاذلون بالجبناء. فى الخامس من يونيو، تم ضم جميع القوات الداخلية معًا إضافة إلى الجيش الميدانى والوحدات المضادة للطائرات لتشكيل ما يعرف اختصارًا "أيرونسايدز" أو الرجال الأقوياء الذين استخدموا معدات كثيرة كان من بينها سيارات برين المدرعة الحاملة للمدافع المعدلة. ويرجح أن تعود تلك الفكرة إلى أوليفر كرومويل حامى إنجلترا الذى أُطلق عليه "أيرونسايد"؛ إضافة إلى القائد العام لقوات الحراسة الداخلية

السير إدموند أيرونسايد، وفى الخامس من يونيو ١٩٤٠ أصبح اسم كرومويل كلمة السر لجميع القوات عند تولى مراكزهم القتالية.

عندما كان نابليون يمثل تهديداً على إنجلترا، كانت ميليشيات المتطوعين بالقرب من الشاطئ هى التى تقوم بالتعبئة والاحتشاد، لكن ظهور رجال المظلات فى حرب هتلر كان يعنى وجود تهديد وخطر محتمل على كل قرية فى إنجلترا وأن على كل مواطن أن يأخذ حذره. ومع بداية شهر يونيو، ووفق تعليمات الجنرال أيرونسايد، انطلقت حملة خداع موسعة على المستوى المحلى، حيث تم تغيير كل إشارات وإرشادات المسارات والطرق؛ حتى لا تساعد قوات المشاة المحمولة جواً فى الوصول إلى أهدافها عند عمليات الإنزال، كما تم طمس لافتات الشاحنات ومحال التجار، وتم تقصير طول اللافتات التى تحمل أسماء المحطات على الأرصفة إلى ارتفاع ٣ بوصات؛ ما زاد من سوء وضع عمليات الوصول والسفر فى القطارات المزدحمة والتى ينبعث منها دخان كثيف. كما تعلم السائقون العسكريون المفقودون فتح صناديق هواتف جيلبرت سكوت الحمراء التى قد لا تزال عناوينها مسجلة فى الداخل بجوار تعليمات ٩٩٩؛ أو البحث عن طريق أسماء المؤسسات الموجودة على أغطية الفتحات.

بحلول شهر يونيو، أصبحت أجراس الكنائس تدق فقط للتحذير من قيام العدو بعملية إنزال، كما تم إلغاء جميع إجازات البنوك ومنع جميع عمليات السفر لمسافة عشرين ميلاً بداية من شاطئ ووش حتى بورتلاند؛ بينما قامت عمليات الإجلاء بنقل آلاف الأطفال إلى الداخل بعيداً عن الشواطئ، وبالنسبة إلى بعض من يمتلكون سيارات، فقد تم تقنيين استخدام البنزين للاستخدامات الضرورية فقط؛ حيث ظهرت ملصقات تحمل عبارات مثل: "هل أنت بحاجة ضرورية للقيام برحلتك هذه؟"، حتى استخدام الهواتف لم يكن محبذاً؛ كانت هناك عملية إخفاء للدولة.

كانت بريطانيا منغلقة على نفسها، وبداية من ١ سبتمبر ١٩٣٩ جرى استدعاء الذكور من الألمان والنمساويين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٦٠ عاماً والمقيمين فى بريطانيا ليتم تسجيلهم من قبل الشرطة بوصفهم حلفاء للعدو، وتم تصنيف أكثرهم

فى الفئة "سى" بوصفهم متعاطفين مع بريطانيا من أجل عدم التدخل فى حريتهم، إلا أنه فى الفترة بين ١٢ مايو حتى نهاية يوليو ١٩٤٠؛ تم تجميع نحو ٢٧٠٠٠ من الغرباء (بما فى ذلك ٤,٠٠٠ إيطالى بعد ١٠ يونيو) ليجرى اعتقالهم فى جزيرة مان أو ترحيلهم عن طريق البحر، وبعد أن تم نسف السفينة البريطانية أراندورا ستار من قبل قارب اليو ٤٧ فى الثانى من يونيو عندما كانت فى طريقها إلى كندا وقتل أكثر من ٧٠٠ فرد من المعتقلين الألمان والإيطاليين؛ وتمت إعادة نحو ٤٥٠ فرداً من الناجين المصابين إلى بريطانيا ثم ترحيلهم فورا إلى أستراليا على متن السفينة دونيرا، وحيث إن كثيراً من المعتقلين كانوا لاجئين يهوديين معادين للنازية؛ تحولت معسكرات الاعتقال إلى ما يشبه جامعات صغيرة ومراكز للفنون والموسيقى والتعلم وكان من بينهم علماء وباحثون ومفكرون هربوا من هتلر على مدار الأعوام السبعة الأخيرة.

كان السبب وراء اتخاذ كل هذه الإجراءات هو الخوف من إمكانية قيام العدو بعمليات خداع واسعة النطاق، فهل كان هناك "طابور خامس" من الخونة والجواسيس مندسين بين الناس ومستعدين لتوجيه ومساعدة جنود مظلات الأعداء؟ كان أول ظهور لمصطلح الطابور الخامس خلال الحرب الأهلية الإسبانية عندما كان قوميو فرانكو يتكونون من أربعة طوابير عسكرية تقوم بمحاصرة مدريد، إلا أنه تم ادعاء أن طابوراً خامساً يعمل سراً داخل دفاعات الجمهوريين، وادعت جريدتا ديلى إكسبرس وديلى تليغراف فى منتصف مايو أن أولئك العملاء السريين قد فتحوا بوابات النرويج وهولندا للغزاة النازيين؛ فهل كان يوجد من على شاكلة هؤلاء العملاء فى بريطانيا، من النساء الأجنبيات واللاجئين والمنشقين واليهود المبتزين ممن يرتدون لباس ضباط الشرطة أو القساوسة أو مراقبى الغارات الجوية، ينتظرون ليساعدوا الجنود الألمان عند الهبوط بمظلاتهم؟ لم يكن هيث روبنسون يعرف شيئاً من هذا القبيل، فقد جاء رسمه الكاريكاتورى فى جريدة ديلى سكيتش ٣ يوليو ١٩٤٠؛ تحت عنوان "الطابور السادس فى الخدمة: ها هم قد حضروا إلى هنا، جنود المظلات المتنكرين يَلقون الترحيب الحار"، ويوضح رسمه جموعاً من الرجال الإنجليز يرتدون قبعات مفلطحة يُعدون أحواض استحمام كبيرة بها مياه ساخنة على وضع لالتقاط رجال المظلات الألمان عند هبوطهم إلى الأرض.

جعلت لحظات الذعر والطوارئ الناس يسترجعون الظروف التى مروا بها عام ١٩١٤، فمن الطبيعى أن يتوجس العقلاء من الحمام الزاجل ورسومات الطباشير الغريبة على أعمدة البرقيات (التى تركها الكشافة المتجولون والمرشدون فى إشارة للأماكن التى زاروها) والأضواء الغامضة ورنين الأجهزة اللا سلكية والمحادثات المريبة والغرباء ذوى الأشكال المثيرة، كما ذكر الجنرال أيرونسايد فى مذكراته التى صدرت فى ٣١ مايو الطابور الخامس قائلاً: "إنه سيصل إلى هنا من كل مكان، حيث يقف رجل على ذراعه شريط يحمل رمز الحزب النازى الألمانى بالقرب من مطار المنطقة الجنوبية..."، وفى متابعة منه لذلك قام أيرونسايد بوضع حارس فى كل مكان "لعله يستطيع الإمساك بأحد هؤلاء". كان الجنرال أيرونسايد مصدر إنذار لكنه كان ضحية إثارة المخاوف التى ربطت بينه وبين الفاشيين البريطانيين، مما أوقع السلطات البريطانية فى مشكلة الفصل بين الأبرياء والمدانين وسط الخوف الشديد المتصاعد، وكانت وجهة نظر الجنرال السير فيرنون كيل المدير العام للخدمة السرية بالاستخبارات الحربية، القسم الخامس تتمثل فى "القبض على الجميع"؛ بينما كان يحاول كتم الأسرار عن الجواسيس الألمان من خلال توصيل معلومات خاطئة عن خلافات وشيكة يقوم بها الشيوعيون والفاشيون والقوميون الهنود وأفراد من الجيش الجمهورى الأيرلندى ودعاة السلام.

فى نهاية اليوم؛ كان الخداع الوحيد هو الخداع الذاتى، فلم يكن هناك دليل على أى خطط للتجسس والتخريب أو أنشطة "للطابور الخامس" بين المعتقلين الأجانب، فلو كان يوجد عدو بالداخل فسوف يكون من المواطنين ولن يكون أجنبيًا أو من النبلاء، وجذبت نظرية القوة التى يتمتع بها النازيون فكر الكثير من صفوة البريطانيين؛ حتى لو تنحى الملك إدوارد الثامن عن العرش فلم يعد دوق وندسور الحالى بمنأى عن تملق الحركة الهتلرية؛ حيث زار دوق وندسور ألمانيا النازية فى سبتمبر ١٩٣٧ والتقطت له صور وهو يبتسم بجانب هتلر.

أقر البرلمان فى مايو ١٩٤٠؛ قانون الخيانة الجديد الذى بموجبه يعاقب كل من يتهم فى قضايا كبيرة؛ مثل: قضايا الجاسوسية وقضايا التخريب بعقوبة الموت،

وبعد اكتشاف الجاسوس اليميني تايلور كنت داخل السفارة الأمريكية وهو يسرب وثائق سرية لكل من دولتي إيطاليا وألمانيا، تغلب وزير الداخلية السير جون أندرسون على تردده الليبرالي المتشكك واتخذ ذلك الإجراء. وفي ٢٣ مايو وتحت التعديلات المتسرعة للقانون ١، فقرة أ (تمت إضافة كلمة المتآمرين والمتعاطفين إلى جانب من ثبتت إدانتهم بموجب قانون ١٨ فقرة "ب" من لوائح الدفاع من أجل القضاء على تلك الأعمال التي من شأنها الإضرار بالأمن القومي)، ثم شنت شرطة العاصمة غارة على مقر الاتحاد الفاشي البريطاني في لندن وألقت القبض على أربعة وثلاثين عضواً، كان من بينهم قائد مجموعة القمصان السوداء السير أوسولد موزلي الذي كان يصر على كون تلك الحرب "حرباً يهودية"، كما وضع أيضاً اثنين من أكثر ممن اشتهروا بمعاداة السامية ومناصرة النازية وهما جون بيكيت من حزب الشعب البريطاني العنصري والنقيب مول رامساي رئيس نادي اليمين وعضو البرلمان المحافظ عن بيبلز في سجن بريكستون، إضافة إلى اعتقال نحو ٧٥٠ فاشياً. وتخلى الارستقراطيون الداعون للتهدئة أمثال لورد تافيستوك دوق بوكليتش ودوق ويستمنستر الذي اشترك لفترة في رابطة الشمال ورابطة الصداقة الأنجلو ألمانية، عن مواقعهم حيث ذهبوا ليعيشوا في المقاطعات الكبيرة، ثم عين تشرشل في ٢٨ مايو اللورد سونتون رئيساً تنفيذياً لأمن الدفاع الوطني من أجل تنسيق الجهود ضد "الطابور الخامس". وقد تقاعد الجنرال كيل الذي أسس وقاد الاستخبارات الحربية، القسم الخامس طيلة ٣٠ عاماً، وكان من بين ما قاله تشرشل في مجلس العموم في الرابع من يونيو:

وجدنا أنه من الضروري اتخاذ إجراءات صارمة ليس فقط ضد المتحالفين مع الأعداء والشخصيات المشكوك فيهم من القوميات الأخرى، ولكن ضد الرعايا البريطانيين الذين ربما يشكلون خطراً من شأنه أن يجلب الحرب إلى المملكة المتحدة أيضاً، وأعرف أن هناك أناساً كثيرين يكنون العداء لألمانيا النازية لكنهم مع هذا وقعوا تحت طائلة القوانين التي أصدرناها، فأنا أتأسف لهؤلاء، إلا أنه لا يمكننا في الوقت الحالي وفي ظل الضغوط الحالية أن نميز بين هؤلاء وغيرهم في تنفيذ الإجراءات التي نتخذها، إلا أنه توجد فئة أخرى لا أشعر تجاههم بأدنى درجات التعاطف، وقد خولنا

البرلمان السلطة لإحباط أنشطة الطابور الخامس، وسنستخدم تلك السلطات تحت رقابة وإشراف المجلس دون أدنى درجات التردد حتى نحقق المراد، فمن شأن ذلك أن نقضى على ذلك المرض العضال الذى تفشى بيننا.

فى ذلك اليوم، أنهى ثلاثة صحفيين هم مايكل فوت وفرانك أوين وبيتر هاوارد من جريدة إيفننج ستاندرد؛ كتابة نحو ٤٠٠٠٠ كلمة تهاجم الداعين إلى التهدئة ونزع السلاح منذ ثلاثينيات من القرن العشرين، والذين أدت حماقاتهم وتراخيهم إلى أزمة دونكيرك، ونشر تلك الكلمات فيكتور جولانى بعد شهر تحت عنوان "المذنبون" – (Guilty Men) تحت اسم مؤلف مستعار "كاتو"، وعلى الرغم من أنه لم تتوافر نسخ من تلك المقالات فى سلسلة محلات دبليو إتش سميث؛ فإن صيتها ذاع وبيع منها نحو ٢٠٠٠٠٠ نسخة.

وبحلول منتصف شهر أغسطس ١٩٤٠؛ أعلن تشرشل أمام مجلس العموم أنه "دائمًا ما كان يعتقد" أن خطر الطابور الخامس "كان مبالغًا فيه فى تلك الجزر"، ولو كان ذلك صوابًا لوضع "للطابور الخامس" خطة دعائية مؤثرة.

فى العاشر من يونيو، وبروح الفريسة الجريحة أعلنت إيطاليا الفاشية الحرب بجرأة على الجمهورية الفرنسية، وعلى الفور استولت على ٢٠٠ ياردة من شاطئ الريفييرا، وأعلنت باريس "مدينة مفتوحة" وهو ما يمثل إعلانًا رسميًا بعدم وجود دفاعات عن المدينة، وقد تحولت باريس فى ذلك الوقت إلى مدينة أشباح وأغلقت المحال والمكاتب والفنادق، واختفى الزحام وفرت الحكومة من أمام الألمان المتقدمين. وكان سيفتون ديلمر واحدًا من آخر الصحفيين الذين بقوا فى باريس مع إدوارد ورد من بى بى سى وروبرت كوبر من التايمز ووالتر فار من ديلى ميل، وفى ظهر يوم ١٤ يونيو كان علم الحزب النازى الألمانى يرفرف من سارية الإذاعة أعلى برج إيفيل وكان سلاح الفرسان يتهادى فى قصر الإليزيه، وهنا قدم رينو استقالته، وألقى رئيس الوزراء ذو الشارب الأبيض مارشال بيتان بيانًا فى ١٧ يونيو قال فيه: "أقول بقلب حزين يجب أن نوقف القتال"؛ مضيفًا فى حديث إذاعى بث بعد ثلاثة أيام: "لسنا أقوياء بالقوة نفسها التى كنا عليها خلال العشرين عامًا المنصرمة، ولدينا أصدقاء ضعفاء، ونعانى من ندرة

فى السلاح إضافة إلى قلة الحلفاء ما أدى إلى هزيمتنا"، حاربت فرنسا وخسرت حربها وفقدت نحو ١٠٠٠٠٠ قتيل، ونحو ١٢٠٠٠٠ جريح؛ فضلاً عما يتجاوز المليون ونصف المليون أسير.

فى الحادى عشر من يونيو فى غابة كومبين بفرنسا، استمتع هتلر فى زيه الرمادى بالانتقاص من الهيبة الفرنسية، وشاهد بل شير، من سى بى إس، القائد الألمانى يختال وسط بطانته: "ينطق وجهه بالازدراء والكره والانتقام وبفرحة النصر"، وقد قرأ الجنرال كيتل الدعائى الألمانى خطة الإصلاح التى خطها هتلر واضحة بيده:

وضعت قوات الدفاع الألمانية فى نوفمبر ١٩١٨ سلاحها، ثقة فى الأمان الذى أعطاه الرئيس الأمريكى ويلسون للقائد الألمانى وأكدته قوات التحالف، ومن ثم أنهت الحرب التى لم يرغب فيها كل من الحكومة والشعب الألمانى والتى لم تنجح فيها قوات العدو فى هزيمة الجيش الألمانى أو البحرية الألمانية أو القوات الجوية الألمانية على الرغم من التفوق الكبير الذى كانوا يتمتعون به... وأُخذت الوعود والعهود الكاذبة ضد أمة لم تظهر ضعفها قط إلا بعد أربعة أعوام من المقاومة البطولية، وأقصد بذلك ثقتها فى وعود السياسيين ورجال الدول الديمقراطيين.

فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩، أى بعد خمسة وعشرين عامًا من اندلاع الحرب العالمية، أعلنت المملكة المتحدة وفرنسا الحرب على ألمانيا دون مسوغ، فالأقوياء يقررون الحرب، والآن ها هى فرنسا قد لقيت هزيمتها.

قال تشرشل فى ١٨ يونيو: "انتهى عهد ما سماه الجنرال ويجند بمعركة فرنسا، أعتقد أن المعركة فى بريطانيا على وشك البداية... فهتلر يعرف أنه ما بين أن يضطر إلى هزيمتنا فى تلك الجزيرة أو أن يخسر الحرب"، ثم اشتد الوضع وضاق الناس ذرعًا حتى إن كلاً من هارولد نيكلسون وفيتا ساكفيل، ويست أعدا جرعات الانتحار، إلا أنه انتاب عوام الناس شعور غريب كما لو أنهم شعروا بالتحرر، بل يذكر الكاتب المسرحى والإذاعى جيه بى بريستلى أنه شعر بحالة غريبة من الشجاعة والأمل داخل البلاد حيث قال: "بدأ شعبنا يتباهى أمام العالم بأصله"، كما ظهرت تلك الحالة على أسلوب

تشرشل اللغوى: "دعونا الآن نلتزم بواجباتنا، ونوضح لأنفسنا أنه لو كتب للإمبراطورية البريطانية والكومنولث أن تستمر ألف عام، فإنهم سيظلون يقولون، كانت هذه هى أجمل ساعات الدهر.."، كانت بلاغة تشرشل مؤثرة للغاية، لكن كيف سمح لنفسه بأن يتصرف على هذا النحو؟ لقد كان يبدو فى أحيان كثيرة غير صبور، بعثت كليمنتين خطابًا واحدًا عام ١٩٤٠ لتشرشل بتاريخ ٢٧ يونيو، كان خطابًا جميلاً من زوجة لزوجها تخبره فيه بما تشعر به، فعليه أن يعرف: "أن هناك خطرًا يتهدده وهو أنه لا يلقى قبولاً بين زملائه ومساعديه بسبب سلوكه المتغطرس وتهكمه الفظ"، ومن الواضح أن كليمنتين قررت فى هذا الخطاب وجود "تدهور" فى سلوك تشرشل، فلم يعد عطوفًا كما عهدته من قبل، ومن جهتها لم تعد كليمنتين تتحمل ذلك.

"لا ينبغى لهؤلاء الذين يخدمون الوطن ويخدمونك أن يقعوا فى غرامك أو الإعجاب بك، كما أنك لن تجنى نتائج أفضل من خلال الغضب والبذاءة، وسيتولد لديهم إما كرهك وإما عقلية الخنوع، (أما التمرد وقت الحرب فليس موضع نقاش!)".

حان وقت الكُتاب والفنانين وصانعى الأفلام أن يكثروا من الحواجز الدعائية. كتب جورج أورويل لجريدة تايم آند تايد فى ٢٢ يونيو مستحثًا توزيع القنابل اليدوية والبنادق وكل الأسلحة عبر محال السلاح قائلاً: "سلحوا الناس"، كما التحق أورويل مؤلف رواية "تقديرًا لكاتالونيا" – (Homage to Catalonia) بفصيلة بريمروز هيل التى تنتمى إلى كتيبة متطوعى الدفاع المحلى الخامسة، لكن خطابه إلى جريدة تايم آند تايد لقى صداه كما لو كان لا يزال فى ميليشيات حزب العمال للتوحيد الماركسى التى حارب معها فى صفوف الجمهوريين أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، واعتبر أورويل شهر يونيو ١٩٤٠ شهرًا ثوريًا.

"بعد زوال القيادة اليسارية، لم يبق هناك أدنى شك فى أن عودة الجنود من دونكيرك يمكن أن تأذن بنهاية الرأسمالية البريطانية، كانت لحظة مليئة بالاستعداد من أجل التضحية وإحداث تغييرات كارثية تمتد ليس فقط للطبقة العاملة، ولكن لمعظم الطبقة المتوسطة التى لا تنظر إلى مصالحها عندما تتعارض مع واجبهم الوطنى،

كما كان هناك شعور بأن الأوضاع تنبئ بقرب ظهور مجتمع جديد يختفى فيه طمع وفتور وظلم وفساد الماضى...".

كان أورويل قد رأى فى منامه فى أغسطس ١٩٣٩؛ ما ساعده فى القناعة بمشاعره الحقيقية، حيث رأى أن الحرب قد بدأت وأن هذا يعطيه درسين، الأول: أن فى هذا ذهاب لخوفه من وقوع الحرب، والثاني: التأكد من صدق مشاعره الوطنية، وأنه لن يخرب وطنه، وأنه سيدعم الحرب والقتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فى اليوم التالى قرأ فى الصحف الإخبارية عن المعاهدة السوفيتية - الألمانية، وفى مارس ١٩٤٠ وصل أورويل إلى مكانة جورج برنارد شو:

عندما تبدأ الحرب لن يكون هناك مكان لما يسمى بالحياد، فكل ما تقوم به سيكون بمثابة أنشطة حربية، سواء أردت ذلك أم ترد، فأنت مضطر لتقديم المساعدة لوطنك أو لعدوك، ومن هنا سيعتبر الداعون إلى التهدئة والشيوعيون والفاشيون ومن شابههم ضمن من يقدمون المساعدة لهتلر.

فى أبريل ١٩٤٠؛ بعد مطالعة رواية مالكولم ماجردج "الثلاثينيات" - (The Thirties) وأثناء الفصول الأخيرة منه، أدرك أورويل شيئًا ما أكثر قربًا إليه من الإصلاح الذى يقدمه المفكرون اليساريون:

إنها عاطفة رجل من الطبقة الوسطى تربى على التقاليد العسكرية يجد نفسه لحظة الأزمة وطنيًا رغم كل شيء؛ من الجيد جدًا أن تكون "تقدميًا" أو "مستنيرًا"، أن تسخر من شخصية العقيد بليمب، أن تعلن تحررك من الانتماءات التقليدية، لكن عندما يحين الوقت الذى تتشبع فيه الرمال باللون الأحمر فستسأل نفسك ماذا قدمت لك بلدى الحبيب، إنجلترا؟

"جورج أورويل" هو اسم مستعار لكاتب غالبًا ما كان يبرز فى المناقشات التى تدور حول الماهية الإنجليزية، وكان ذلك الاسم تمويهًا لإيريك آرثر بلير الذى كان يسكن فى إيتون القديمة وهو ضابط الشرطة السابق فى بورما ضمن مجموعة تحمل

اسم القس المسيحى والمحارب الإنجليزى سانت جورج، والمرتبط باسم نهر أورويل الذى يجرى عبر سوفولك ويصب فى بحر الشمال. ومع أنه كان شخصية اجتماعية ديمقراطية يسارية (وفق ما أطلقه عليه تقرير المراقبة اسبيشيال برانش المسمى "وجهات نظر شيوعية تقدمية")، كتب أورويل بحرفية عن كيبلينغ، وفهم الحاجة لنشر روح الوطنية والقيم العسكرية بين الشعب الإنجليزى قائلاً: "الإنجليز ليسوا مفكرين" فقد ذكر فى "الأسد ووحيد القرن: الاشتراكية وعبقرية الإنجليز"؛ لكنهم يتمتعون بقوة خارقة فى التصرف دون تفكير... كما تستطيع الأمة كلها فى وقت الأزمات العامة المفاجئة أن تخطط معًا وتعمل فى تناغم فطرى، مثلما تتصرف قطعان الماشية عندما تواجه ذئبًا، ويقول أورويل: إن الانجليزى النبيل هو من يرتقى فوق مستوى النقد ويكون عسكريًا لكنه فى الوقت ذاته يكره الروح العسكرية، ويلفت أورويل الانتباه إلى أن الجيش الإنجليزى لم يعد يمشى مشية الأوزة؛ لأن الناس فى الشارع اعتادوا السخرية من ذلك.

كان الروائى جيه بى أحد المحاربين القدامى ممن يتطلعون إلى عالم أفضل، وعمل بريستلى مع متطوعى الدفاع المحلى وكان يقضى الليل كله مستيقظًا، وهو على مرتفع قريب من بيته فى جودشيل فى جزيرة وايت، ويصف هذه التجربة فى حديثه الإذاعى الثالث يوم الأحد الموافق ١٦ يونيو: وجدت نفسى فى عالم يخلو من خنادق فلاندرز وثوار إسبانيا، إنه عالم توماس هاردى أعيش بين أناس بلدة ويسكس، "من الفلاحين والقساوسة والرعاة والباعة"؛ وهم يتحدثون عما جرى لهم فى الحرب الماضية، وعن التبن والشعير ولحم البقر واللبن والجبن والتبغ، وهنا انتابنى شعور قوى بانتمائى للمجتمع وإرادتى اللحاق بمن رحلوا قبلى، من أولئك الرجال الذين استعدوا لمواجهة جيش نابليون الكبير. ثم سكنت بعد ذلك أصوات القنابل والبنادق والطائرات سكونًا تامًا، وانتهى الإنذار ولم يبق شىء سوى ليل بارد مظلم يخيم عليه الصمت، وهناك أناس من إخواننا على أعلى قمة التل، ثم تمنيت أن لو استطعنا أن نخرج أطفالنا من تلك الجزيرة، ولو استطعنا أن نخرج كل ابن وكل ابنة عبر البحر إلى المستعمرات الواسعة وتحويل بريطانيا إلى حصن كبير كما عرفها العالم، وعندئذ يكون بمقدورنا أن نقاتل هؤلاء النازيين بعقل أكثر تفتحًا حتى نكسر قلوبهم السوداء.

كان توم وينترينجهام، الأصلع ذو النظارة، الصحفى بجريدة ديلى وركر ومؤسس الألوية الدولية فى إسبانيا، مثل أورويل محاربًا عظيمًا أُصيب فى الحرب الأهلية الإسبانية؛ وكان يرى أن ١٩٤٠ هو أنسب عام لتكوين "جيش قوامه الشعب". ولد وينترينجهام لعائلة من الطبقة المتوسطة فى جريمسبى، وكان شيوعيًا متحمسًا فى فترة التعليم العام، وعمل قائد دراجة بخارية مع فرقة المناطيد المقيدة التى تتبع فيالق الطيران الملكى خلال الحرب العالمية الأولى، ثم تولى قيادة الكتيبة البريطانية التى تتبع الألوية الدولية أثناء معركة جاراما فى فبراير ١٩٣٧ عندما قتل من تلك الكتيبة ١٥٠ جنديا، وطرد وينترينجهام الذى كان مناصرًا للحركة الإستالينية للحزب الشيوعى فى أكتوبر ١٩٣٨ إثر علاقته الغرامية مع المراسلة الأمريكية كيتى باولر التى لم تكن تحظى بقبول، إلا أن بطاقته ظلت تحمل تأشيرة الاستخبارات الحربية، القسم الخامس، كما ربط أورويل بين جى إيه هينتى ووينترينجهام فيما يتعلق بالتدريب الماركسى.

بحلول مايو ١٩٤٠؛ كان وينترينجهام كاتبًا مشهورًا، فلم يقتصر على الكتابة فى صحيفتى تريبون ونيو ستيتسمان، بل كتب كذلك فى ديلى ميرور وبيكتشر بوست التى كان يقرأهما الملايين من القراء آنذاك.

كان شعاره فى أحد مقالاته الذى كتبه فى جريدة ديلى ميرور مخاطبًا إدموند أيرونسايد "الشعب الثائر والشعب الغاضب والشعب المسلح"، حيث كان يبشر بحرب عصابات كبيرة، وفى السابع من يونيو نشر له مقال بعنوان "كيف تتعامل مع رجال المظلات" فى جريدة ذا وور ويكلى وتبعه بعد ذلك نشر مقالين طويلين فى جريدة بيكتشر بوست كانا تحت عنوان "ضد الغزو" و "سلح المواطنين"، وطبعت وزارة الحربية البريطانية ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ نسخة من المقال الثانى ووزعته على وحدات متطوعى الدفاع المحلى، ويقول هوج بورسل كاتب سيرة وينترينجهام فى روايته "الثائر الإنجليزى الأخير" - (The Last English Revolutionary) عن هذين المقالين:

قدما إرشادات عملية للحرب الشعبية مستمدة من تجارب وينترينجهام فى إسبانيا تتضمن، كيفية تدمير الدبابات والجسور وأسر وقتل رجال المظلات الألمان وتحصين القرى وتصنيع وتفجير القنابل اليدوية وشن حرب الشوارع.

جمع كل مقالات وينترينجهام فى كتاب "أساليب جديدة للحرب" – (New Ways of War) والذى نشرته دار بينجوين سبيشال فى يوليو ١٩٤٠؛ وباعت منه ٧٥٠٠٠ نسخة فى أشهر قليلة، يشير وينترينجهام فى هذا الكتاب إلى أن خطة التقدم السريع للمدرعات الألمانية مع غطاء جوى شامل نجحت فى الهروب من الكمائن، موفرة قدراً كبيراً من الاستقلالية لجنود الصفوف الأمامية، وأن الخطة الألمانية فى التسلل نجحت من خلال المبادرة الفردية، وينتقد وينترينجهام الفكر البريطانى العسكرى المتعالى الذى لا يتسم بالمرونة، ويضيف قائلاً: إن ما كانت بريطانيا فى حاجة إليه هو "جيش قوامه رجال أحرار" يتخذون قرارهم من تلقاء أنفسهم، فإن من يستعرض صفحات التاريخ يجد القوات الديمقراطية قد بسطت سيطرتها فى مواجهة المجتمعات الأقوى والأكثر أرستقراطية، ويضرب وينترينجهام المثل باليونانيين القدامى فى منازلة الفرس إضافة إلى الجمهورية الرومانية ضد قرطاج ورماة كريسى وأجينكورت ضد نبلاء فرنسا. فى حالة "حرب الشعوب" يستشهد وينترينجهام بالجمهورية الهولندية وإيطاليا فى عهد جاريبالدى والاحتلال اليابانى للصين وتقاليد ميليشيات الأنجلو ساكسون المحلية القديمة وميليشيات مقاطعة الرجال الأحرار. ويعتبر كتاب "طرق جديدة للحرب" – (New Ways of War) نوعًا من الدعاية التى تخلط بين صناعة المفرقعات وخطط حرب العصابات والدراية بالمعارك وبين رأى وينترينجهام المتطرف فيما يخص "حرب الشعوب".

هناك من يقول: إن فكرة تسليح الشعب فكرة ثورية وهى بالتأكيد كذلك، وبعد ما رأيناه من كفاءة ووطنية من تولوا حكمنا، يستطيع معظمنا أن يجد منطلقًا فسيحًا فى هذا البلد لما يمكن أن يسمى بثورة التغيير التى تمحو آثار الماضى السيئ.

أيدت جريدة بيكتشر بوست، الرائدة منذ اللحظة الأولى لانطلاقتها فى ١ أكتوبر ١٩٣٨ فى مجال المجلات التصويرية، أفكار وينترينجهام تأييداً قويًا، وكانت جريدة بيكتشر بوست أفضل جريدة إخبارية والأكثر شهرة ونشراً فى بريطانيا، لذا حذت مجلات مثل سيجنال الألمانية ولايف الأمريكية وجريدة باريس ماتش الفرنسية ودرام الجنوب إفريقية حذو بيكتشر بوست. وكان مالك جريدة بيكتشر بوست هو إدوارد

هولتون العضو المحافظ ومن سلالة ملاك الصحف الإخبارية، وقد تولى توم هوبكينسون اليسارى منصب رئيس تحرير بيكتشر بوست فى يونيو ١٩٤٠، وفى ليلة من أواخر يونيو كان هوبكينسون يتناول العشاء مع وينترينجهام فى ضيافة هولتون، ودار حديثهما حول حالات الإحباط التى أصابت متطوعى الدفاع المحلى الذين اضطروا للتدريب بعصى المكانس مع حاجتهم الملحة للتدريب على القتال: "ألم يقل ونستون تشرشل فى الجلسة السرية لمجلس العموم فى ٢٠ يونيو أن السبب وراء دفاع بريطانيا هو مهاجمة القوات التى من المحتمل أن ينزلها العدو بغتة، وقتل جنود العدو جميعا؟"، وهنا جاءت الفكرة، لماذا لا تساعد جريدة بيكتشر بوست فى التدريب؟

بحلول منتصف الليل كان كل شىء يجرى على ما يرام، حيث اتصل هولتون بصديقه إيرل جيرسى الذى حضر على الفور؛ كان جيرسى يمتلك مزرعة واسعة غرب لندن قرب أراضى أوسترلى بارك، وكانت مزرعته تُستخدم فى عمليات التدريب وكان سعيداً بذلك، لكنه أعرب عن قلقه من أن يتسبب ذلك فى تدمير المنزل المتواجد بها الذى كان جزءاً من تراث العائلة لفترة طويلة من الزمن، وكان من بين الأسئلة التى سألها وينترينجهام لإيرل جيرسى: "هل يمكننا أن نحفر مخابئ للأسلحة؟ ونقوم بتفكيك الألغام؟ ونتدرب على رمى القنابل اليدوية؟ ونشعل الحرائق فى الشاحنات القديمة داخل الأراضى؟"، فكان جواب جيرسى "بالتأكيد، افعلوا كل ما ترونه مفيداً".

أصبح وينترينجهام مديراً للتدريب فى مدرسة أوسترلى بارك التى بدأت أولى دوراتها فى العاشر من يوليو، وحتى تلك اللحظة كان تشرشل صاحب عدن يصر على تغيير اسم "متطوعو الدفاع المحلى" إلى اسم "الحرس الوطنى"، حيث وجد تشرشل أن كلمة "محلى" الشبيهة بكلمة محلية فى عبارة "الحكومة المحلية" غير محفزة، كما كره اسم "مراكز إطعام الاشتراكيين" مبلغاً وزارة الأغذية: "بأن ذلك التعبير يعتبر تعبيراً بغيضاً يوحى بالاشتراكية وملاجئ الفقراء، واقترح أن يطلق على تلك المراكز "المطاعم الإنجليزية"، حيث يرتبط معنى كلمة "مطعم" فى ذهن كل فرد بالوجبة الجيدة، فيكفيهم ذلك الاسم الجيد إن لم يستطيعوا الحصول على أى شىء آخر.

وفد أعضاء الحرس الوطنى إلى أوسترلى من جميع أنحاء الدولة لحضور تدريبات عسكرية على الحرب غير النظامية وتستغرق الدورة يومين على نفقة هولتون، وكانت تعقد ثلاث دورات تدريبية كل أسبوع تستوعب الدورة الواحدة ٦٠ رجلاً، وبنهاية شهر يوليو تم توسيع نطاق الدورة لتسع مئة رجل، وزاد الطلب على الالتحاق بتلك الدورات، كما زاد عدد الرجال الذين حضروا تلك الدورات خلال شهر أغسطس ١٩٤٠ إلى ألفى رجل، ثم ناشدت جريدة بيكتشر بوست الولايات المتحدة الأمريكية السماح لمواطنيها بالتبرع بالأسلحة، فأرسلوا سفينة محملة بالأسلحة وصلت ليفربول وعلى متنها مسدسات من نوع ست طلقات، وبنادق صيد الجاموس الأمريكى إضافة إلى بنادق قنص، وبنادق عيار ٤٥ من بنادق قطاع الطرق، "ومدافع رشاشة" والتى تم توزيعها على الحرس الوطنى فور وصولها، وأوضحت جريدة بيكتشر بوست كيفية صناعة الأسلحة الثقيلة يدويًا، حيث نشرت مقالاً بعنوان "اصنع مدفع الهاون ٦/٣٨ د الخاص بك"، واحتوى ذلك المقال على إرشادات تتعلق بتصنيع البارود الأسود محلى الصنع، إلا أنه كان من شأن هذا العمل أن يقلق السلطات الرسمية.

لم يكن تجريم عمل الحزب الاشتراكى قد صدر بعد فى بريطانيا فى ذلك الحين، ولم يصدر حظر إصدار جريدة ديلى وركر كذلك، وكانت خططهم "الانهزامية الثورية" التى ظهرت من خلال الأساليب الخاصة عند شرح المعاهدة السوفيتية النازية فى مصطلحات لينينية ماركسية قد تطورت إلى المطالبة علنًا بالتجنيد الإلزامى لكل الثروات وتسليح كل العمال والمطالبة بحكومة جديدة، وكانت السلطة المنتخبة قلقة بشأن حملة الحزب الشيوعى البريطانى الدعائية؛ واقترحت فى يوليو أن تقوم وزارة الداخلية بصياغة لائحة دفاع جديدة تجرم "محاولة الانقلاب على السلطات المنتخبة". وقد تصدى الوكيل الدائم لوزارة الداخلية السير الكسندر ماكسويل لهذا الأمر فى محضر جلسة بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٤٠:

ستكون هناك معارضة كبيرة لتلك اللائحة؛ حيث إنها تتعارض مع الحرية بإنجلترا، لكن تقاليدنا تقضى بأن تتبع الأوامر التى تصدرها السلطات المنتخبة، ولكل مواطن

الحرية فى أن يوضح، إذا كان يستطيع، ما إذا كانت تلك الأوامر ضارة وأن السلطات المنتخبة تتألف من حمقى، وعليه فإننا لا نعتبر الأنشطة التى تدعو إلى ازدراء السلطات المنتخبة ضرورية، فهى مفسدة وتحث الأشخاص على التمرد على القانون أو تغيير الحكومة بالسبل غير الشرعية، وهذا المبدأ يعطى حرية عظيمة؛ لكنها خطيرة فى الوقت نفسه، لأشخاص يرغبون فى الثورة أو إعاقة جهود الحرب... لكن الاستعداد لمواجهة مثل هذه المخاطر يعتبر تمييزًا رئيسيًا بين الديمقراطية والحكم الشمولى.

نشرت صفحات بيكتشر بوست مقال وينترينجهام فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٠ الذى يحمل عنوان "الحرس الوطنى قادر على الحرب"، والذى من المحتمل أن يكون نقطة انطلاق لفكرة الميليشيات الثورية قبل أن تبدأ وزارة الحربية البريطانية ومركز القيادة العامة للقوات الوطنية فى ضم المنشآت والعاملين فى أوسترلى بارك تحت سيطرتهم، ويصور المقال الحرس الوطنى وهم يقومون بعمليات تصويب نيرانهم تجاه نموذج طائرة، والمطاردة، والقنص، والهجوم من خلف سواتر دخانية، ونسف شاحنات بالألغام، كما اشتملت صور طاقم العمل فى أوسترلى على صورة الشاعر السريالى، ذى الشارب، والرسام والجامع بين الفنون الذى كان يعلم فنون التمويه والتخفى النقيب رونالد بينروز.

عندما نشرت دار روتليدج للنشر كتاب بينروز "دليل الحرس الوطنى للتمويه" – (Home Guard Manual of Camouflage) فى أكتوبر ١٩٤١، وصف بينروز بأنه كان "محاضرًا لمدربى مدرسة الحرس الوطنى بوزارة الحربية البريطانية، إضافة إلى كونه محاضرًا سابقًا فى مدرسة أوسترلى بارك لتدريب الحرس الوطنى"، ثم عمل القائد السابق المشهور فى الحركة السريالية البريطانية بنظام الدوام الكامل فى مدرسة ساوث إيسترن كوماند فيلدكرافت فى بورواش فى ساسكس، وكانت الدورة التى تعطى بالقرب من منزل كيبلينج وباتمان فى بورواش تعلم الرجال كيفية استغلال الطبيعة فى التمويه عند التعامل مع قوات المظلات الألمانية:

يتلخص التدريب الميدانى الذى نقدمه لكم فى كونه أسلوبًا للتعلم من خلال ممارسة العديد من الأشياء التى تقوم بها الحيوانات فطريًا... إلا أننا لم نعتاد فعل تلك الأشياء بسبب معيشتنا داخل مدن ومجتمعات متحضرة يسود فيها العرف والقانون ورجال الشرطة؛ ما جعلنا فى عزلة عن الكفاح الفطرى من أجل البقاء، لكن مع مجىء النازيين ينبغى أن تزول تلك العزلة، وكلما كنا أقرب إلى حياة تلك الحيوانات، أسهم ذلك فى إعدادنا بشكل أفضل، ويمكننا أن ننجح فى الحصول على حكمة الحيوانات فقط باستعمال عقولنا والتعلم والممارسة. تمت دراسة عمل السياج، الخنادق، الغابات، الطرق، الحقول، جداول الأنهار، وسلوك المواشى عند اقتراب شخص ما منها، إضافة إلى ما يفعله طائر الطاووس، والحمام، وطائر العقق، وطائر أبو زريق، وطائر أبو طيط، وطائر الشحرور عندما يزعجهم كائن ما؛ كما تمت دراسة الكيفية التى يتحركون بها فى سكينة تحت وطأة النيران وكيف ينكمشون ويتخفون ويقيمون فى العراء وتحت الأضواء الساطعة والظل وقوة المناظير الميدانية النازية وأفضل الطرق فى استخدام الآذان والعيون والأنف ليلاً فى عمليات الاستطلاع وعمليات حمل الرسائل، كان كل ذلك جزءًا من المنهج الدراسى فى بورواش، وأصبحت بورواش مثل أوسترلى رائدة فى بعض السبل التى اتبعتها المدارس العسكرية فيما بعد لتعلم مهارات المناورة التى أفادت البريطانيين فى حربهم داخل سياج أشجار نورماندى عام ١٩٤٤.

وفى بورواش أسرت أشعة مصباح رونالد بينروز عيون طلابه من أفراد الحرس الوطنى، حيث كان بعض منهم ينتمى إلى مجموعة كوت التى تدرس تلاؤم الألوان فى الحيوانات، لكن الصورة التى تبدو أمامهم هى صورة ملونة لزوجته الجميلة لى ميلر فى رسم تمويهى أخضر تجلس عارية على مرج أسفل سلة فواكه وحزمة من ألياف النخيل. أبدى سولومون جوزيف سولومون إعجابه بـ "دليل التمويه" – (Manual of Camouflage) الذى ألفه بينروز والذى استوعب دروس الحرب العالمية الأولى وبدأ فى إبراز الحاجة إلى المفاجئة بوصفه عنصرًا مهمًا فى الدفاع عن بريطانيا.

ربما تكون فكرة التخفى عن عدوك واستخدام الخداع فكرة ممقوتة بالنسبة إلى الجنود القدامى، فربما يشعر عدوك بعدم شجاعتك أو عدم تمتعك بالروح القتالية، إلا أن ذلك لا يمثل أى أهمية بالنسبة إلى عدونا؛ حيث يفتقدون الرحمة ويستغلون جميع وسائل الخداع لتحقيق الانتصار المذهل، ولا يمكننا إيقاف انتصاراتهم إلا من خلال التمويه والأساليب الجديدة والمبتكرة، فيا لها من فكرة ثورية.

كانت وجهة بينروز الأولى هى الحاجة إلى التخفى من المراقبين بشتى السبل، حيث يمكن لجندى المظلات أن يهبط خلفك، كما يمكن لطيار العدو أن يحدد موقعك من الجو، فمن الأعلى لا يمكن التمييز بين الأرض الموات والخنادق والأسلاك الشائكة والممرات كما هى مرسومة على الخريطة، ومن هنا يكون على الحرس الوطنى تعلم التخفى فى المواقع والميادين الثابتة والتنقل وفق نماذج المناظر الطبيعية مستخدمين الحواجز أو أكياس الرمل المغطاة بالتراب والنفايات، حيث يبدو كل ذلك واضحًا فى تعاليم هيسكث بريتشارد لتمويه فتحات إطلاق النيران وسترات القناصين المخيطة من قطع الخيش خلال الحرب العالمية الأولى، لكن ما كان فنًا مستهجنًا حينذاك صار جزءًا من التفكير العسكرى المقبول اليوم، حيث جعل بينروز الحرس الوطنى ينتبهون لظلهم الأسود ووجوههم البيضاء عند اتخاذ ساتر، فليس الهدف هو مجرد التخفى:

ينال التخفى أهمية قصوى فى حرب العصابات والهجمات المضادة... فباستخدام الشرك والدمى؛ سنكون قادرين على تشتيت انتباه العدو بعيدًا عن نقاطنا الحيوية... وباستخدام التمويه والحواجز الدخانية نكون قادرين على إخفاء مواقعنا وتحركاتنا الحقيقية.

وبعد أن حقق الألمان انتصارات متتالية عبر أوروبا، أخذ البريطانيون يستجمعون قواهم حيث كانوا على دراية أنهم سيواجهون المصير نفسه، وأدرك بينروز أن النقطة الرئيسية فى التمويه تكمن فى جعل الطرف الأضعف هو الطرف الأقوى، فلا جدوى من الشجاعة فى الحرب إذا كان الغرض من الشجاعة تقديم المرء نفسه هدفًا للعدو بلا جدوى، فمن الأفضل كثيرًا استغلال الذكاء واستخدام التخفى لدفع العدو إلى تقديم نفسه بوصفه هدفًا.

خطى خبراء التمويه خطوات كبيرة نحو التخفى فى كل أنحاء بريطانيا لإيقاف الجيش المعتدى من الحصول على موضع قدم، ونظمت صفوف المدافعين حول الساحل الجنوبى الشرقى لبريطانيا، حيث احتمى معظم هؤلاء بالمدفعيات المواجهة للبحر من السفن القديمة المدمرة والدبابات المتهالكة، ولغمت الشواطئ بالمئات من الألغام، وكانت هناك أميال وأميال من الأسلاك الشائكة الملفوفة، وآلاف المنصات الخرسانية الخاصة بالمدافع الآلية، وكتل صخرية مضادة للدبابات الثقيلة. وتم تشييد الكثير من الدفاعات على اليابسة بطول خطوط الصد والتى كانت مصممة لإعاقة قوات العدو المدرعة من التقدم نحو لندن، وفى نورفولك أنشأت خطوط للصد بطول أنهار أنت وبيور ووينسام ويار وأوس التى لغمت جسورها، وكان هناك ٣٠ ألف رجل يرتدون الدروع العسكرية من متطوعى الدفاع المحلى، وكانت لدى معظمهم دراجات نارية وكان دورهم يتمثل فى المراقبة والحراسة إضافة إلى إعاقة تقدم القوات المعادية، وشملت الحواجز التى أعاقت تقدم الدبابات المصارف والقنوات المائية وإنشاء حفر فى الطرق والتى كانت تغرس فيها العوارض الحديدية والحواجز الأسمنتية التى بلغ ارتفاعها خمسة أقدام على أقل تقدير، كما تركت العربات الخشبية فى الأماكن المكشوفة حتى تمنع هبوط الطائرات ونصبت الأعمدة بغرض تمزيق أجنحة الطائرات الشراعية.

تم إنشاء نقطة دفاع قوية فى كل قرية، وثمانية أنواع مختلفة من المنصات الأسمنتية جرى نصبها فى المواقع الرئيسية، بعضها كان سيئ التصميم وبعض آخر كان متسقًا اتساقًا جيدًا مع المنحدرات والحقول والحدائق والتى خضعت للتمويه فيما بعد لتتناسق مع الأرض وأحيطت بشجيرات صغيرة، وتم تشييد أفضل تلك المنصات فى أبنية الحظائر وأكوام القش والمنارات القائمة، كما تم نصبها فى حطام وأكواخ وطواحين تعود للعصور الوسطى، لتكون بعيدة عن المراقبة المباشرة، وحيث إن الحرب كانت مستمرة؛ تنافس خبراء التمويه فى إخفاء وتنكير المعاقل مثل البنايات الساحلية، وأكشاك بيع الكتب والأبنية ذات الطابق الواحد ومحطات الحافلات، والمقاهى، والشاليهات، وأماكن بيع المثلجات، ولوحات إشارة محطات القطارات، والمراحيض، ومحال تيودر نصف المظللة لتقديم الشاى، والبيوت المصنوعة من الخوص، وقد بذل

أفراد التمويه أقصى جهدهم؛ لكن لم يغير ذلك من حقيقة الأمر شيئًا؛ بسبب عدم وجود وفرة فى الدبابات للتصدى للألمان إذا ما أقدموا على غزو البلاد، إضافة إلى عدم وجود أسلحة مضادة للدبابات المدرعة، حيث كانت خطة أيرونسايد قائمة على قيام السكان بإسقاط قنابل المولوتوف محلية الصنع من النوافذ على مركبات العدو.

كان السكان مستعدين للقيام بذلك، وقام متطوعو الدفاع المحلى بالتخطيط لقتل أول أربعة سائقين فى مواقع مختلفة فى الليلتين الأولى والثانية من شهر يونيو على الرغم من أنهم جميعًا لم يكونوا ألمانيين ما كان سيتسبب فى وقوع حوادث كبيرة، كما واجه طيارو بريطانيا الذين حلقوا بطائراتهم فى سماء إنجلترا خطرًا حقيقيًا عندما تم استهدافهم برصاص أبناء وطنهم ظنًا أنهم جنود مظلات ألمان. وفى صيف عام ١٩٤١ تم تنظيم الحرس الوطنى فى كتائب تابعة لأفواج المقاطعة وتم منحهم رتبًا عسكرية، إلا أن بعضًا من هؤلاء لم يأخذ الأمر على محمل الجد وهنا كتب إيه جيه بى تايلور فى "تاريخ إنجلترا فى الفترة ١٩١٤-١٩٤٥" - (English History 1914-1945):

تسبب طلب أفراد الحرس الوطنى من المواطنين الأبرياء إبراز بطاقات هويتهم ضجر المواطنين، حيث شيدوا حواجز على الطرق، يبتهج لرسوماتها علماء الآثار الذين سيأتون فى المستقبل، واستخدموا صفائح البنزين فى صناعة المفرقعات، لكنه كان من المتوقع أن يخسر الحرس الوطنى أرواح العديد من أفراده حال وقوع غزو حقيقى، فقد حملوا أرواحهم على أكفهم على الرغم من عدم كفاية معداتهم.

كان ذلك هو المخطط الذى تبعه نشر المسلسل الكوميدى الشهير "جيش أبى" - (Dad's Army) الذى عرضه تلفاز بى بى سى واستمر عرضه عشر سنوات بداية من عام ١٩٦٨، وكتب حلقاته ديفيد كروفت وجيمى بيرى. كان ذلك المسلسل متماشيًا مع القصص الهزلية وقت الحرب للممثلين الكوميديين أمثال روب ويلتون وغيرها من النكات المعاصرة، وكان من بين ما جاء فى تلك الدعابات سؤال ضابط تفتيش لرجل: "ما الخطوات التى كنت ستتخذها لو غزوك الألمان؟"، فكان الجواب "كثيرة جدًا سيدى".

من هنا يتبين أن الحرس الوطنى وخبراء التمويه فى محاولاتهم الصميمة، لعبوا دورًا كبيرًا فى الحرب النفسية ضد الأعداء، ويشير جون كولفيليه فى مذكراته "على هامش السلطة" – (The Fringes of Power) إلى حضور القادة باجيت وأوشينلك واسماى ودنكان سانديز مائدة عشاء فى تشيكر يوم الجمعة الموافق الثانى عشر من يوليو، وفى اليوم السابق لتاريخ هذا العشاء كان تشرشل قد قام بجولة فى دفاعات كينت لتفقد المنصات والجنود من دوفر إلى ويتستابل، ودار النقاش حول الغزو، واشتد الجدال حول دعم عامة الشعب عند الحرب، فلو قام العامة بمواجهة الغزاة بالمناجل والأحجار فستكون هناك مجزرة، وقال تشرشل: "نريد من كل مواطن أن يحارب باذلاً قصارى جهده، لأن انتصار الألمان يعنى وقوع مذابح للبريطانيين، فيجب على متطوعى الدفاع المحلى أن يتسلحوا ويستعدوا". ووفقًا لما ذكره كولفيليه، ظن تشرشل أن التخويف من الحرب سيحافظ على وجود درجة استعداد قصوى عند كل فرد، فلم يكن يتمنى أن تزول حالة الخوف هذه وقتها، ومع أن تشرشل لم يكن يوقن أن الغزو كان يمثل خطرًا كبيرًا، إلا أنه قصد إعطاء هذا الانطباع، وأن يتحدث عن مخاطر الغزو عند إلقائه حديثه الإذاعى الذى كان يبث يوم الأحد.

ذكر تشرشل فى حديثه هذا فى ١٤ يوليو ١٩٤٠، أن الحرب ستطول وستكون قاسية لكنه ألقى نصًا بلاغيًا رائعًا لرفع الروح المعنوية، أثنى فيه على كل من القوات المسلحة والحرس الوطنى البريطانيين:

خلف هؤلاء الجنود فى الجيش النظامى المستعدين لمنازلة جنود مظلات وقوات الغزاة المحمولة جوًا، وبعيدًا عن الخونة المندسين بيننا، يقف أكثر من مليون متطوع فى الدفاع المحلى أو كما نحب أن نسميهم "الحرس الوطنى"، فهؤلاء الضباط وهؤلاء الرجال الذين خاض عدد كبير منهم الحرب الأخيرة لديهم رغبة عارمة فى منازلة العدو متى ظهر، فلو قدم الغزاة إلى بريطانيا؛ لن نجد من بين الشعب خانعًا أو جبانًا فى مواجهة العدو كما رأينا للأسف فى بلدان أخرى، علينا أن ندافع عن كل قرية وكل مدينة... إننا نفضل أن نرى لندن أنقاضًا ورمادًا على أن نراها مستعبدة ذليلة.

لا تعتبر هذه الحرب حرب رؤساء أو أمراء أو أسر مالكة أو حرب أطماع، إنها حرب شعوب وقضايا وطنية، أعرف أن هناك أعدادًا كبيرة ليس فقط فى هذه الجزيرة بل فى كل مكان ممن سيبذلون أقصى جهدهم من أجل انتصارنا فى هذه الحرب إلا أنه لن تذكر أسماؤهم ولن تسجل أعمالهم؛ فتلك هى حرب الجندى المجهول.

لم يكن الحرس الوطنى مثل العديد من الأشياء فى الحرب العالمية الثانية فى حقيقته كما هو ظاهر، بل كان سره العظيم يكمن فى تمويه الوحدات المساعدة التى تعتبر واحدة من الخدمات العسكرية السرية البريطانية التسع فى فترة الحرب، وكانت الوحدات المساعدة ترتدى زى الحرس الوطنى العادى لكنها كانت فى حقيقة الأمر تمثل خلايا حرب العصابات. كان القسم دى التابع لمنظمة جراند لورنس السرية هو من أسس تلك الوحدات المساعدة، وقد أمدهم بالسلاح والمتفجرات وربطها بالاستخبارات الحربية القسم آر والتى كانت تختص بحرب العصابات، كان عمل الوحدات الخاصة يبدأ من بعد خطوط الصد عندما يتم اجتياح المواقع الثابتة، فكانوا بمثابة "جماعات الانتظار الخلفية" التى طلبها الجنرال ثيرون من وزارة الحربية البريطانية عندما كان قائدًا لفيالق الفرقة الثانية عشرة والتى كانت مهمتها تتمثل فى الدفاع عن ساسكس وكينت ضد الهجوم الألمانى الأول المتوقع، وكانت كلمة السر المتبادلة بينهم "أسد البحر". وكان الجنرال أيرونسايد قد أسند قيادة السرايا المستقلة إلى العسكرى النظامى العقيد كولين جوبنس الذى عاد لتوه من النرويج ليقود المقاومة، وقد اختار جوبنس ضباطًا مغامرين آخرين لتأسيس الوحدات المساعدة على امتداد الساحل البريطانى.

كان أخو إيان فليمينج الأكبر الكاتب والمستكشف بيتر فليمينج مثل ثيرون؛ يتبع رماة القنابل اليدوية وكان عمره آنذاك ٣٣ عامًا عندما ذهب لمساعدته فى تأسيس وحدة المراقبة الخاصة بالفيالق الثانية عشرة فى كينت، وكان الكاتب والصحفى الوسيم مؤلف "الرفقة: السفر إلى تارترى والمغامرة البرازيلية" (One's Company Travels in Tartary and Brazilian Adventure)، قد كتب مقالاً أرسله للاستخبارات الحربية القسم آر يتحدث فيه عن إجراء قتال باستخدام حرب العصابات مع سلاح الفرسان غير

النظاميين فى الصين، كما أظهر موهبة فى الخداع؛ واعتزم تزييف وثيقة يحذر فيها الولايات الأمريكية من أطماع اليابانيين فى المحيط الهادئ وفى جنوب شرق آسيا، والآن وبعد عودته فى مايو ١٩٤٠ من أنشطة استطلاعية فى النرويج، يساعد بيتر فليمينج فى تكوين قوة غير نظامية حقيقية.

أقام فليمينج فى مزرعة بالقرب من بيلتينج شمال أشفورد فى كينت، وساعده مستطلعو لوفات أصحاب الشهرة فى الحرب العالمية الأولى إضافة إلى المهندس العسكرى الكبير مايكل كالفيرت (الذى اكتسب فيما بعد شهرة مع وينجيت فى القوات الخاصة الهندية - الإنجليزية فى بورما والخدمة الجوية الخاصة فى شمال غرب أوروبا)، حيث جمع فليمينج رجال الريف وخبراء الغابات والصيادين وقطاعى الطرق الذين يعرفون دروب الأرض وقام بتدريبهم على الاختباء فى النهار والبدء فى عمليات التخريب ليلاً. كانت تلك وظيفة فليمينج المغامر الذى أنهى أيامه بوصفه واحداً من الإقطاعيين فى أكسفوردشير وكان محبًا للصيد.

حفرت الوحدات المساعدة ملاجئ تحت الأرض فى الغابات، كان أحدها يشبه بيت حيوان الغرير؛ حيث أخفوا بمهارة كل ما يستدل به عليهم، وكانت تلك المخابئ تشبه الوكر الذى صنعه القناص البطل جوفرى هاوسهولد الذى يصفه فى روايته التى صدرت عام ١٩٣٩ "الرجل الهارب" - (Rogue Male)، أو كما كتب فليمينج نفسه فى كتابه "غزو ١٩٤٠" - (Invasion 1940) الذى أعيد إصداره تحت عنوان "عملية أسد البحر" - (Operation Sea Lion). كان فليمينج يستوحى أفكاره من روبن هود بطل الأسطورة الإنجليزية وكان قد حصل على عدد من الأقواس الطويلة وشجع الرجال على استخدامها، ليس فقط لأغراض القتل الصامت وهو ما لم يكن ممكنًا بالبنادق العادية، ولكن لاستخدامها فى قذف النيران على العدو من خلال رمى سهام نارية وفتائل المتفجرات. وفكر فليمينج فى إمكانية ممارسة لعبة جرين وود التى يمكن أن تكون مجدية فى الصيف باستخدام أوراق الشجر، فالمقاومة الإنجليزية الخارجة عن القانون يمكن أن تتعرض للإبادة على أيدى فرق القتل الألمانية، ودلت خطط الألمان عن أنهم

سيطلقون النار على المتمردين فى بريطانيا المحتلة وسينتقمون بلا رحمة من المدنيين، مما يسهم فى الحصول على معلومات حيوية منهم مقابل افتداء أرواحهم، ومن هنا فكرت الوحدات المساعدة بجدية فى اغتيال عملائهم فى حالة الهزيمة.

اختار العقيد جوبنس المستكشف القطبى الشاب أندرو كروفت الذى عمل فى الاستخبارات الحربية القسم أر وفى النرويج لينظم سوفولك وإسيكس. كان كروفت، الذى قدم من ستو مع ديفيد نيفن، ابن القس كيلفيدون، وكان يقيم فى بيت به مخزون من المتفجرات والأسلحة، بدأ فى تسجيل قوائم المحليين من المزارعين، وحراس الطرائد وكلاب صيد الثعالب المدربة، والجزارين، وقطاع الطرق، ومهربى البضائع، ليكونوا دورتين، كل دورية تتكون من اثنى عشر فرداً تنطلقان من قاعدة عمليات خفية عن العيون تماماً.

مع نهاية عام ١٩٤١، أخفت الوحدات المساعدة ما يقرب من ٥٣٤ قاعدة عمليات فى المملكة المتحدة كان من بينها ما يقرب من ١٣٨ قاعدة علميات على الطريق السريع، وقد خدم ما يزيد على ٣٥٠٠ رجل فى الوحدات المساعدة وذهب بعضهم للتدريب على المقاومة فى كولشيل هاوس، حيث وضع أنيجو جونز تصميماً لبيت إيرل رادنور الذى يقع شمال شرقى سويندون، وكان عنوانه "مراكز القيادة العامة للوحدات المساعدة، سى/أو، مكتب البريد العام، هيوارث، ويلتشاير" وقد عمل مابل سترانكس مسئول مكتب البريد المحلى حارساً على المكان، وظهر كولشيل كنسخة رائعة من أوسترلى بارك، وقد كان يحضر فى نهاية كل أسبوع أفراد مجموعتين من الوحدات المساعدة الدورات التى يتم تنظيمها حول: القتال المتلاحم والأسلحة والمتفجرات، وكانوا يتلقون تدريبات على حرف الميدان نهاراً وأخرى صامتة بالليل. وقد حصلت الوحدات المساعدة على أسلحة نادرة من الولايات المتحدة مثل مدافع طومسون الرشاشة، والبنادق نصف الآلية، وبنادق سبرينجفيلد كما أمدت المؤسسة التقنية بالقسم دى المتواجدة بالقرب من ستيفنيج الوحدات المساعدة بقذائف الهاون، وقنابل حارقة ومجموعات من المتفجرات البلاستيكية الصفراء الجديدة.

تعلم رجال المقاومة عدم التسرع، فقد شاهدت إحدى المجموعات فى دهشة السيارة التى أرادوا إعاقتها ترتفع عاليًا فى الهواء وتتحطم فى الحقل المجاور. ومن أجل وضع كينت على أهبة الاستعداد، قاموا بدفن متفجرات تحت الجسور ونصبوا شراكًا فى القصور الكبيرة التى ربما يتخذها الألمان مراكز للقيادة. ونسف "ماد مايك" كالفيرت الأجزاء الرئيسية لدعامات الجسور فى برايتون وويرثينج وايستبورن.

يقدم أدرين هور فى كتابه "التصدى لهتلر" – (Standing up to Hitler) الصادر عام ٢٠٠٢؛ تفاصيل بعض الوحدات المساعدة الخمس والأربعين فى نورفولك خلال الفترة بين ١٩٤٠ و١٩٤٤، فقد تم تجنيد ما يقرب من ٣٠٠ جندى بحذر وحيطة ليوقعوا على قانون الأسرار الرسمية، ولم يحصل هؤلاء على ميداليات، بل كل ما حصلوا عليه كان شارة صغيرة تحمل الرقم ٢٠٢، وهو رقم كتيبتهم، وقام المهندسون الملكيون بحفر العديد من قواعد عمليات الوحدات المساعدة، إضافة إلى قواعد أخرى من أجل عطلاتهم الأسبوعية، وقاموا بإخفاء مداخل ومخارج القواعد ونصبوا فى بعضها شراكًا، و تم توزيع مسدسات سميث ويسون على رجال نورفولك، وكذلك تم توزيع مسدسات عيار ٣٨ وثلاث جرعات من المورفين لكل جندى، واحدة فى حال الشعور بالألم الشديد، واثنتين عند فقدان الوعى وثلاث جرعات عند الإقدام على الانتحار، وأخفيت نسخة من "تقويم نورفولك عام ١٩٣٨ – (Norfolk Calendar ١٩٣٨)؛ فى كتيب المحارب الذى يشتمل على تعليمات تتعلق بطريقة نسف الدبابات والطائرات والشاحنات والعربات المدرعة وخطوط السكك الحديد ومخازن الذخيرة... وغيرها، كما كانوا يحملون مواد ممغنطة لتثبيت المتفجرات فى المواد المعدنية وأسلاكًا لتفجير الألغام ولتعطيل الدراجات البخارية، وتدرب هؤلاء الجنود فى كولشيل وفى ليستر سكوير فارم وفى سدرستون ونورث كريك حيث كانوا يطلقون النيران مرتدين أقنعة مضادة للغاز، كما اضطروا للزحف تحت نيران المدافع الآلية الحية التى تطلق فوق الرءوس مباشرة، بينما يقوم المعلمون بإلقاء قنابل صوتية عليهم، ودرسوا خطط وبرامج القتال الألمانى وإجراءات الحراسة وتعلموا المطاردات من مستكشفى لوفات وتعلموا القتال المتلاحم على أيدى مغاوير أشداء، وكانت معظم تدريباتهم تجرى ليلاً.

كانت المقاومة الإنجليزية جيدة فى سريتها وتسللها، فلم يعرف بها إلا القليل، ولم يرهم أحد فى مناورات الليل المظلم عندما كانوا يتسللون حول القوات النظامية للاستكشاف وهم منخرطون فى دفاعاتهم. فعندما تولى الجنرال برنارد مونتجمرى قيادة الفيالق التى كانت تدافع عن كينت وساسكس عام ١٩٤١؛ خرج مع خليفة فليمينج الرائد نورمان فيلد إلى مرعى منحدر فوق قرية تشارينج ذات المنظر الخلاب جنوب القنال الإنجليزى.

واقترح فيلد أن يجلس الجنرال لفترة فى حظيرة أغنام مكشوفة، إلا أن مونتجمرى القائد المظفر فى منطقة العلمين فيما بعد، صوب نظره تجاه فرنسا المحتلة وكله غضب ثم استدار ليحدث فيلد فوجد نفسه وحيداً مع أغنام تلوك طعامها، ثم سمع صوتًا فى الأسفل؛ حيث رأى رأس فيلد تبرز من فتحة مستطيلة مفتوحة فى المعلف، كان السلم يقود إلى نقطة مراقبة زوجية مكتظة بالطعام والمياه، تشبه نوافذها جحر أرنب فريد من نوعه مزجج ومعد لمقاومة الطقس، وقد قامت الوحدات الخاصة بإعداد المخابئ ووضع مدافع مضادة للطائرات أعلى كل مخبأ، كما قام طاقم كل مخبأ بملء أكياس من الرمل وضعها حوله إلى جانب نفايات الطباشير التى أخروجها وقت الحفر.

كان ديفيد لامب أول من أشار فى تحرياته لكشف الحقائق الصادرة عام ١٩٦٨ والمسماة "الخندق الأخير" – (The Last Ditch)؛ إلى تراث الوحدات المساعدة، وكانت تجربة عملية أسندت الفضل للقائد الأعلى العقيد كولين جوبنس فى تنظيم وإعداد وإمداد وتعليم فنون التخفى وبث روح المقاومة والتحرر فى الجيوش. فى الثانى والعشرين من شهر يوليو ١٩٤٠؛ كانت وزارة اقتصاد الحرب التى يتولاها كيو دالتون قد حصلت على تعليمات لـ "تنسيق وإدارة أعمال التخريب والنهب ضد الأعداء عبر البحار" فيما يسمى بالسلطة التنفيذية للعمليات الخاصة المكلفة بصفة غير رسمية عبر ما جاء على لسان تشرشل إلى جوبنس: "أشعل النار فى أوروبا"، ومنذ ذلك الحين أصبح جوبنس رئيس السلطة التنفيذية للعمليات الخاصة والتدريب بداية من ١٨ نوفمبر ١٩٤٠ وحتى أنهت حكومة حزب العمال عملياتها الواسعة فى اليوم الأخير من عام ١٩٤٥.

كـان الروائى جـراهام جـرين يعـمـل فى وزارة الإعــلام وحـاول إقنــاع مـؤلفـين آخرين بتـأييد جـهـود الحـرب عندما كتب قصة قصـيرة حـول المقاومة الإنجليزية التى نشرت فى مـجلة كولير فى يونيو ١٩٤٠. فى تلك القصـة المسماة "النقيب آخر الموتى" – (The Lieutenant Died Last) هبطت فـرقـة مظلات ألمـانيـة بالقـرب من قـرية إنجليـزية تدعى بوتر ثم قامـوا باحتجاز السكان فى حانة واحدة، ثم انطلقوا ينسفون أحياء لندن المجاورة والممتدة حتى خط سكك حديد إدنبرة، ثم اعترضت الألمـان مركبة بالية وقاطع طريق على دراية جيدة بالتضاريس يحمل بندقية مـوسر حصل عليها عندما كان يحارب البوير. وبحلول عام ١٩٤٣؛ كانت أفلام إيلينج التابعة لماك بالكون، وكان كتاب الحوارات فيها أنجوس فيل وجون ديجتون وديانا مـورجان، قد حولت قصة جرين إلى فيلم "هل مضـى اليوم على خير؟" – (Went the Day Well?)، كان ذلك الفيلم واحداً من الأفلام الإنجليـزية الشيقة التى تناولت فترة الحـرب وكان من إخراج المخـرج البيترو كافلكانتى صديق جرين، وهو منشق برازيلى ظريف ووثائقى مبدع أسهم فى إنتاج فيلم "بريد الليل" – (Night Mail) لصـالح أفلام مكتب البريد العام لجون جريرسون.

وفى فيلمه "هل مضـى اليوم على خير؟" – (Went the Day Well?) وصلت جماعة من المهندسين الملكيين قرية إنجليزية تسمى براملى جرين، لكنه سريعًا ما تم كشف خداعهم، حيث كانوا فى واقـع الأمر جنود مظلات ألمـان متنكرين يتـحـدثون اللغة الإنجليزية، وقد تلقوا مسـاعدة من الطابور الخـامس من أصحـاب الأراضـى المحليين، ويقوم أولئك الألمان المتنكرين بقتل القس فى كنيسته عندما يبدأ قرع جرس الكنيسة، ويقومون بقتل الحرس الوطنى وهـم على درجاتهم. وينقذ الموقف طفل مطرود وبحار كان فى عطلة له.

وتتـحـول النسـوة إلى قتـال العـدو، وتسـتـخـدم سيـدات البريد الفئوس وتطلق ابنة القس النار على أصحـاب الأراضـى الخـونة فترديهم قتلى، وتقوم فتاة من البلدة باقتناص جنود العدو باستخدام مسدس من نوع لى ابنفيليد عيار ٣٠٢، وتقوم سيدة عجوز تتبع قصـر مـالك البلدة، وكانت قد بدت فى صـورة المرأة الثرثارة، ببسـالة بـأخذ قنبلة يدوية ألمـانية بيديها لتقذفها بعيداً حماية للأطفال وليس لحماية نفسـها.

هل مضـى اليوم على خير؟

متنا دون أن نعرف

لكن مهما يكن

فمن أجلك يا حرية متنا!

فى أوائل يناير عـام ١٩٣٧، أدركت وزارة الطيـران الملكى أن صناعـة الأفـلام البريطانية قد تجدى فى الحرب، فبعد تقارب الكسندر كوردا من شركة إنتاج أفلام لندن، أدرك ضبـاط سلاح الجو الملكى البريطانى فاعليـة ورش وأجـهزة إنارة وعمـال استوديوهات دينهام.

فهؤلاء الرجال متخصصون فى ترسيخ فكرة معينة وفى خداع العيون والكاميرات، حيث تتوافر لديهم الأماكن والعمال والمواد التى تمكنهم من الخداع.

كان اسم الكسندر كوردا عندما ولد فى المجر هو ساندور لازلو كيلمان، ثم هرب من الفقر ومعاداة السامية المنتشرة فى تلك السهول الواسعة؛ حيث كان يحلم بالعيش فى رغد وترف، كان كوردا يرى وهو فى مقتبل عمره أن منح النادل والحاجب إكرامية بسخاء فى المطاعم والفنادق الكبيرة يجنب دفع فواتير باهظة، لكن اعتقاده ذلك تغير بعد انخراطه فى الأعمال التجارية. قدم كوردا إلى إنجلترا عام ١٩٣١ بعد إنتاج أفلام فى بودابست وفيينا وبرلين وهوليوود وباريس، وأنتج أول أفلامه مع رجل آخر مجرى الجنسية يسمى (ليسلى هوارد) الذى استطاع لاحقًا أن يكون نجمًا فى "العشب القرمزى" – (The Scarlet Pimpernel).

صار كوردا بريطانيًا أكثر من البريطانيين أنفسهم، يعيش شمال ريجنت بارك فى أفينيو رود (مع قائد معسكر يدعى بنيامين)، وكان يمتلك سيارة من نوع رولز رويس، وينتعل أحذية لقدميه الصغيرتين الأنيقتين من محلات لوب، ويرتدى قبعات هامبورج من محال لوك، ويرتدى بدلات من محلات سافيل رو، ونال الجنسية البريطانية عام ١٩٣٦ كما صار فارسًا عام ١٩٤٢، وأسس كوردا شركة إنتاج الأفلام المسماة لندن فيلم برواداكشن عام ١٩٣٢ (كان شعارها ساعة بيج بن) وحقق شهرة عالمية عام ١٩٣٣ بعد نجاح أول أفلامه "حياة هنرى الثامن الشخصية" – (The Private Life of Henry VIII)

بطولة تشارلز لوتون (الذى حصل على جائزة أكاديمى لأفضل ممثل) والممثلة ميريل أوبيرون التى كانت من اكتشاف كوردا، وزوجته فيما بعد. كان ذلك الفيلم أول فيلم بريطانى يغزو الأسواق العالمية، وهنا أدرك الناس أنه يمكن جنى المال من السينما، فاندفعوا نحو تمويل المزيد من الأفلام وإنشاء الاستوديوهات، كما شجع السير روبرت فانيسارت أحد أعضاء الحكومة البريطانية آنذاك السير كونوب جوثرى مدير شركة التأمين "برودينتال انشورانس" الثرية على إتاحة الفرصة إلى كوردا من أجل إنشاء استوديوهات دينهام التى أراد لها أن تكون الأفضل بعد استوديوهات هوليوود.

كان كوردا يرى فى ونستون تشرشل مخرجًا للعروض المسرحية. وفى سبتمبر عام ١٩٣٤ عرض كوردا على تشرشل مبلغ ١٠٠٠٠ جنيه إسترلينى لكتابة نص فيلم عن حياة الملك جورج الخامس ليعرض فى اليوبيل الفضى عام ١٩٣٥، وعلى الرغم من أن هذا الفيلم لم يخرج للنور، فإن كوردا كان يطلب من تشرشل النصيحة فيما يتعلق بالعديد من الأفلام الملكية والتاريخية التى كان يخطط لإنتاجها بما فى ذلك فيلمه عن لورنس العرب الذى تراجع كوردا عن فكرة إنتاجه، وبعد ذلك بعشر سنوات عرض كوردا مبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى مقابل الحصول على حقوق إنتاج فيلم عن قصة تشرشل "حياة مارلبورو" – (Life of Marlborough)، كما دفع مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه إسترلينى فى قصة "تاريخ الشعوب الناطقة بالانجليزية" (A History of the English-Speaking Peoples)، ووفقا لما ذكره مايكل ابن أخ كوردا؛ فإن تشرشل هو من ملأ حوض السباحة المتواجد خارج مكتب كوردا فى استوديوهات دينهام بالبجع (بعد حصوله على إذن ملكى).

كانت خدمة الاستخبارات السرية البريطانية أيضًا من بين الأجهزة التى أعجبت بصناعة الأفلام البريطانية خاصة كلود دانسى الذى رأى أن أفلام لندن يمكن أن تكون ذات جدوى فى توفير الغطاء لأفراد شبكته "زد" للسفر إلى البلدان الأجنبية. كان كوردا مدينًا بالشرف إلى بريطانيا ليس فقط بسبب تلقيه تمويلاً من أصدقاء دانسى الأثرياء، بل قام عدد من أفراد الخدمة السرية البريطانية ينتمون إلى بريجادير موريس بإنقاذ حياته ذات مرة. أنتج كوردا قبل الحرب العالمية الثانية فيلمًا من أفلام الجاسوسية الوطنية يسمى "طائرات كيو" – (Q Planes)، وفى بداية الحرب العالمية الثانية

أنتج في عجالة فيلمه الدعائي الأول حول سلاح الجو الملكي البريطاني والمسمى "أجنحة الأسد" (The Lion Has Wings)؛ بالاشتراك مع رالف ريتشاردسون والذي عُرض في السينما في نوفمبر عام ١٩٣٩، كما ساعد كوردا أيضًا البلد الذي تبناه بصناعة أفلام عزز من مكانته سواء ما كان منها متعلقًا بالماضي الملكي مثل "صواريخ النهر" – (Sanders of the River)، و"ولد الأفيال" – (Elephants Boy)، و"الطبلة" – (The Drum)، و"الريشات الأربعة" – (The Four Feathers)، أو ما كان يتعلق من تلك الأفلام بالمستقبل المثالي مثل "ما هو آت" – (Things to Come) و"رجل المعجزات" – (The Man Who Could Work Miracles)، كما أرسل تشرشل كوردا إلى هوليوود خلال فترة الحرب ليستمر في عمل أفلام الدعاية التي احتوت أيضًا على التسلية الرومانسية. في ١٩٤١ عُرض فيلم "السيدة هاميلتون" – (Lady Hamilton) الذي كان معروفًا في الأوساط الأمريكية باسم (That Hamilton Woman) وقام ببطولته لورنس أوليفير وفيفان ليج، وقد أعجب ونستون تشرشل بالفيلم، ولما لا وهو نفسه من كتب حديث نيلسون المثير الذي تناول أسباب وجوب مقاومة نابليون بونابرت.

بدأ طاقم الفيلم في شيبرتون بناء مصانع طائرات زائفة؛ ليصرفوا أنظار القاذفات عن المواقع الحقيقية التي كان منها مصنع شورت في روشتسر، ودو هافيلاند في هاتفيلد، وبولتون وبول في وولفر هامبتون، وشركة طيران بريستول في فيلتون، كما بدأ فنيون من استوديوهات أفلام بريطانية عديدة مثل: جاومونت بريتش، ساوند سيتي، وجرين بروس في إنشاء نماذج طائرات مزيفة لسلاح الجو الملكي البريطاني مثل: باتلز، بلينهايمز، هاريكانز، ويلنجتونز، وايتليز من أجل تشتيت النظر عن ميادين الطيران الحقيقية. أُطلق على المطارات المزيفة التي كانت تنار مدارج الهبوط بها ليلاً مواقع كيو على اسم سفن كيو في الحرب العالمية الأولى، ويتذكر أحد خبراء سلاح الجو الملكي البريطاني تلك الأمور المثيرة، فلم يكن يوجد بالنهار سوى بعض الأعمدة والأسلاك واللمبات، إلا أنه كان لذلك الوضع بالليل تأثير مدهش، كان من المستحيل تزييف شيء حقيقي. يذكر كل من مارتن يانج وروبي ستامب في كتابهما "خيول طروادة: عمليات الخداع في الحرب العالمية الثانية "١٩٨٩" (Trojan Horses: Deception Operations in the Second World War '1989') – وصف السير جيوف سيلوود فني الكهرباء لكيفية معاناة

وحدته فى أمر المؤثرات البصرية حتى تصنع صوراً زائفة لمطارات، فقد عملوا ما سموه "الأرنب العداء" من خلال قيامهم ببناء خط سكك حديدى وسلسلة من الأبراج الفولاذية الصغيرة لحمل كشافات إنارة على عربة بمحرك صاروخى صغير.

هذا هو ما حدث، فقد زودنا هذه العربة وخط السكك الحديدى بمحرك صاروخ ثم أشعلنا الأضواء وتولى الأرنب العداء مهام مسئوليته، فكان المنظر يشبه طائرة مقبلة للهبوط بسرعة شديدة ثم تُبطئ الطائرة، وهو ما رآه العالم أجمع كأن طائرة تهبط، وبعدها تطفأ أنوار مدرج الطيران حتى تخفى معالم المنطقة عن الأنظار.

فى تطور عبقرى أوسع، "أُنشئت مواقع كيه" وهى أكثر وضوحًا من مواقع كيو، فقد استحدثت مطارات صغيرة مقلدة من أجل تشتيت أنظار العدو عن المطارات الحقيقية وحتى تبدو تلك المطارات حقيقية فى ضوء النهار، ومن هنا تتطلب مواقع كيه فريق عمل أكثر مما تتطلبه مواقع كيو ليحركوا الطائرات المقلدة من مكانها ولتقليد مسارات الطائرات ويعيدوا ترتيب الإمدادات والمدافع الأرضية. كانت مواقع كيه تبنى عادة على خط التقارب مع العدو شرق الهدف الحقيقى وتتصل به عبر الهاتف. سجل سيمور ريت فى كتابه "التنكر: خداع التمويه المدهش فى الحرب العالمية الثانية" (Masquerade: The Amazing Camouflage Deceptions of World War II) الذى صدر عام ١٩٧٨، اتصالاً من منطقة كيه التقطه صدفة خلال حرب بريطانيا وهو واضح جداً.

الرقيب: (يقول بصوت منزعج) سيدى، لقد هوجمنا!

الضابط الطيار: رائع، أيها الرقيب. عرض جيد.

الرقيب: دمروا المكان.

الضابط الطيار: أجل، ممتاز، استمر.

الرقيب: لكن سيدى، نحتاج إلى تغطية من طائرة مقاتلة! فقد حطموا أفضل مواقع التمويه عندى.

(١٩)

نيران تملأ سماء إنجلترا

أصدرت وزارة الإعلام بالتعاون مع وزارة الحربية البريطانية ووزارة الأمن القومي منشوراً حكومياً عام ١٩٤٠ تحت عنوان "في حالة قدوم الغزاة" – (If the Invader Comes)، قصد مؤلفوه تنبيه الشعب البريطاني حتى لا يؤخذ على غرة كما كانت الحال في بولندا وهولندا وبلجيكا، وتم وضع سبع قواعد يجب اتباعها حالة وقوع الغزو. كانت أولى هذه القواعد تتمثل في ملازمة مكان ما وعدم التنقل من مكان إلى آخر، فقد يصاب من يحاول الفرار... بقذائف المدفعية الآلية الساقطة من السماء... وسوف يكون ذلك سبباً في قطع الطرق، بينما تحث القاعدة السابعة على التفكر قبل التصرف: "فكر دائماً في وطنك قبل أن تفكر في نفسك".

هناك أسلوب آخر يتبعه الألمان عند قيامهم بالغزو؛ حيث يستخدمون المدنيين لإحداث حالة من الاضطرابات والذعر، وينشرون الشائعات المغرضة إضافة إلى إصدار تعليمات خادعة، ولتجنب ذلك يجب اتباع القاعدة الثانية التي تنص على ما يلي:

لا تصدق الشائعات ولا تنشرها، وعند تلقيك أمراً تأكد جيداً أنه صحيح وليس خدعة، فمعظمكم يعرف أفراد الشرطة والحراسة البريطانيين بمجرد النظر إليهم، وهؤلاء يمكنك الوثوق بهم، وإذا أعملت التفكير ملياً، فستعرف ما إذا كان الضابط العسكري بريطانياً حقيقة أم أنه يدعي ذلك، فإذا التبس الأمر عليك فاسأل الشرطي

أو فرد الحراسة، فإنه يجب عليك التفكير المنطقى. وبالنسبة إلى تشرشل، تعتبر كل السبل مشروعة عند الدفاع عن النفس، فذلك الرجل الذى كان مستعداً لإلقاء غاز الخردل على القوات الألمانية باستخدام عدة طائرات إذا قدموا إلى شواطئ بريطانيا، ورأى أن الشائعات سلاح آخر مفيد ضد الألمان. ألف جون باكر وايت وهو ضابط فى المنطقة الواقعة بين آى إتش والقسم دى، والذى أصبح فيما بعد الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية، كتاباً عام ١٩٥٥ يدور حول الحرب النفسية البريطانية سماه "الكذبة الكبرى" – (The Big Lie)، ذكر فيه: "استخدمنا الكذبة الكبرى عندما كنا ضعفاءً واستخدمنا الحقيقة الكبرى عندما أصبحنا أقوياء"، وأوضح قائلاً: "باستخدام الخداع ونشر الشائعات استطعنا بناء أسوار حول بريطانيا فى الوقت الذى كنا نقف فيه دون مساندة من أحد"، جاء ذلك نتيجة مباشرة لخطب تشرشل التى كان يستخدم فيها كلمات يقوى فيها من روح شعبه المعنوية ويشحذ همته، ويثبط همة العدو فى الوقت نفسه.

سجل باكر وايت جهوده فى حرب عام ١٩٤٠؛ فى الفصل الأول من كتابه "البحر يشتعل" – (The Sea Is On Fire!)، إذا لم يستعن الجيش الألمانى بعمليات برمائية فى غزو بريطانيا، فعليه أن يعبر القنال الإنجليزى باستخدام سفن إنزال، ما جعل الألمان يوقنون بإمكانية وقوعهم فى ورطة إذا قاموا بمثل هذا العمل، حيث أرادهم أن يتخيلوا موتًا مخيفًا، كمن يتم حرقه بالنار ثم يتم إغراقه فى الماء، ولم تكن فكرته جديدة فى مجملها؛ حيث أشعلت "النار الإغريقية" وهى نوع من النابالم خلال العصور البيزنطية، وجرى استخدامها فى حرق السفن كما أحرق بها البريطانيون الأسطول الإسبانى وأسطول نابليون.

قد يكون باكر وايت قد استقى أفكاره من دينيس ويتلى. فلم يجد مؤلف أفضل الروايات مبيعًا مثل ""نجاة الشيطان" – (The Devil Rides Out)، و"العثور على أطلانطس" – (They Found Atlantis) وظيفة يقوم بها فى الحرب سوى الكتابة عن المغامرات المرعبة والمثيرة لعميله السرى البطل جريجورى سالست، ذلك الرجل الذى كان يشبه الشيطان

والذى لم يستطع النازيون أن يقتلوه!"، وذلك من خلال مسرحياته المثيرة مثل "المحتال الفاسق" - (The Scarlet Imposter) و"جوازات السفر المزورة" - (Faked Passports) و"البارونة السوداء" (The Black Baroness). كان ويتلى مقربًا من جهاز الأمن، وكانت زوجته الثانية تعمل سائقة فى الاستخبارات الحربية، القسم الخامس فى مايو عام ١٩٤٠، وعندما أخبرها أحد المسافرين من فرقة مكافحة التجسس بعدم قدرته على ابتكار أفكار لمقاومة الغزاة، اقترحت جوان ويتلى أن عليه الاستعانة بزوجها المبدع، وفى غضون أربع وعشرين ساعة بين يومى ٢٧ و٢٨ مايو ١٩٤٠، نشر ويتلى مقالاً يتألف من ٧٠٠٠ كلمة سميت "مقاومة الغزو" (Resistance to Invasion)، والذى احتوى على ما يقرب من خمس وأربعين فكرة مبتكرة حول كيفية "تثبيط روح العدو المعنوية"، وقد تداولتها الأيدى فى مقر الحكومة البريطانية. كان من بين تلك الأفكار واحدة تقضى بتفجير ناقلة نفط قرب الشاطئ، ما يتسبب فى انتشار الزيت المشتعل فوق سطح الماء فيحرق سفن العدو.

بمجرد انتشار هذا المقال، جرت مساع لتوفير فائض من المنتجات البترولية فى بريطانيا؛ خشية تعطل تجارة شركتى شل وبى بى فى دول اسكندينافيا وأوروبا، حيث أشار الجنرال أيرونسايد فى ٢٧ مايو إلى ذلك قائلاً: "يوجد نفط كثير على طول المناطق الساحلية، ومعظمه دون حراسة"، إلا أن موريس هانكى، وزير بلا حقيبة وزارية، رأى أنه يتعذر استخدام ذلك الوقود الحفرى فى "أغراض دفاعية"، لذا أجرى العديد من التجارب على قاذفات اللهب على طول الساحل الجنوبى فى أماكن مثل ديمبتون جاب ودانجينيس التى كانت تطل مباشرة على فرنسا المحتلة وتمر بها الطائرات الألمانية. شاهد جون باكر وايت تجربة فى خليج سانت مارجريت بمدينة كينت عندما ضخ النفط من مضخات أسفل الجرف بطول أنابيب مدفونة فى الشاطئ إلى بؤر مشتعلة، فلاحظ وابلاً من اللهب الأحمر فى سحب من الدخان الأسود فى "مشهد مخيف". لكن وايت سرعان ما اكتشف أنه يستحيل إشعال نيران فوق سطح البحر، وعلى الرغم من هذه الحقيقة، كان باكر وايت عازما على استخدام فكرة إشعال المحيط لإرهاب العدو.

كانت الشائعات جزءًا من الحرب النفسية، حيث أطلق عليها البريطانيون "Sibs"؛ وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية "sibilare" التى تعنى "صفير"، وكان غرضهم فى ذلك هو إشاعة الخوف بين جنود العدو، وفى سبتمبر ١٩٤٠ صاغ باكر فكرته التى تقضى بإشعال البحر من خلال ثلاث لجان كانت قد عاينت العمل قبل الشروع فى التنفيذ للتأكد صحة فرضيتها أو أنها تشكل خطرًا فعليًا.

كانت هناك بيروقراطية كبيرة فى عمليات التفاوض، وفى يوليو ١٩٤٠ تم تأسيس الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة مع نشوب الحرب تحت قيادة كيو دالتون الذى كان يشغل فى الوقت ذاته منصب وزارة اقتصاد الحرب. تولى الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة التنسيق بين الفرقة دى (جهاز التخريب، الذى كان يتبع فى السابق وزارة الخارجية)، والاستخبارات العسكرية القسم أر (الفدائيون الذين كانوا فى السابق تحت قيادة وزارة الدفاع) و(بيت اليكترا، الدعاية الموجهة ضد الدول المعادية، والذى كان فى السابق يندرج تحت القيادة المشتركة لوزارة الخارجية البريطانية ووزارة الإعلام). وبصفة مبدئية، كانت الفكرة تتمثل فى تحويل الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة بقسميه العمليات الخاصة رقم ١ (الإشراف والدعاية) والعمليات الخاصة رقم ٢ (التخريب والعمليات) إلى الجانب العملى. كان تقسيم الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة إلى قسمين أمرًا كارثيًا، حيث أخذت الوزارات تتصارع مع بعضها، وبعد مرور عدة أشهر على الانقسام الممل داخل الحكومة البريطانية، انبثقت خدمة سرية جديدة منفصلة من العمليات الخاصة رقم ١، وكان ذلك الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية والذى تم اعتماده فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤١؛ لكنه لم يعد يعمل تحت قيادة وزارة اقتصاد الحرب، وكان هذا الجهاز يحمل اسم قسم الاستخبارات السياسية ويتبع وزارة الخارجية، وكان مكلفًا بعمل كل أنواع الدعاية ضد العدو، بما فى ذلك التحكم الكامل فيما تبثه هيئة الإذاعة البريطانية. وكما ذكر جون باكر وايت: كان الخداع، الكذب الكبير، عملية عسكرية، وكانت الحرب السياسية عبارة عن آلة تستخدم للنيل من العدو.

الكذبة الكبيرة لا بد أن تقوم على رفات من الحقيقة. فى الوقت الذى صرح فيه البريطانيون بأنهم أحضروا ٢٠٠ سمكة قرش آكلة لحوم البشر من أستراليا وأطلقوها فى القنال الإنجليزى، لم تكن هناك أدلة على ذلك لكن الأمر كان مثيراً. كان هناك بعض الألمان المحترقين مما يدعم عمل باكر وايت حول فكرة إشعال البحر. وفى جلسة سرية بمجلس العموم البريطانى، صرح تشرشل بأن الألمان قد حشدوا "ما يزيد على ١٧٠٠ بارجة ذاتية الدفع وأكثر من ٢٠٠ سفينة فى الموانئ المحتلة متأهبة للغزو، وعندما هاجم سلاح الجو الملكى البريطانى السفن الألمانية فى الموانئ الممتدة من أيمدن إلى لو هافر بالمواد الحارقة والمواد شديدة الانفجار فى سبتمبر؛ حيث شوهدت ألسنة اللهب فى كنت، ونقل الجنود الألمان المصابون إلى مستشفيات باريس وانتشرت قصص توحى بأنهم قد أحرقوا فى غزو فاشل، وذكر البلجيكيون أنهم علموا بوجود ممرضات يساعدن مئات الألمان ممن كانوا يئنون من الحروق.

ألقى سلاح الجو الملكى البريطانى منشورات وكتيب "تعبيرات عملية الغزو القصيرة" – (Short Invasion Phrase-book) باللغات الألمانية والفرنسية والهولندية والتى تتناول عملية إحراق المياه! وألقى سيفتون ديملر دروساً إنجليزية ساخرة فى القسم الألمانى بهيئة الإذاعة البريطانية: "القارب يغرق" من خلال عبارات تحتوى على أفعال مثل: "أنا أحترق، وأنت تحترق، وهو يحترق ونقيب جهاز الأمن يحترق"، وذكرت نشرات ألمانية أخرى أسماء عدد من البحارة الألمان؛ مشيرة إلى أنه تم انتشالهم من البحر بينما لا يزال مصير زملائهم التعساء غير معلوم.

سجل الجنود الألمان ما لاحظوه على طول ساحل المحيط الأطلنطى، وقد وصلت الملاحظات إلى أربعمئة ملاحظة، وسمع طيارو القوات الجوية الألمانية المأسورون القصة، وكتب أفراد القوات المسلحة النازية رسائل مثيرة إلى وطنهم، كما انتشرت قصة البحر المحترق فى مختلف أنحاء بريطانيا (عمداً أو عن طريق الصدفة)، بالسرعة التى نشر بها الروس قصة "الجليد يعلو قوارب الروس" – (Russians-with-snow-on-their-boots) خلال الحرب العالمية الأولى. ومن دورست إلى دوفر ومن جزر الساندويتش إلى شارع

شينجل فى سوفولك؛ انتشرت قصص تدور حول احتراق وتفحم عشرات ومئات بل وآلاف الجنود الألمان بصورة بشعة حتى تحولوا إلى رماد فى غزو بحرى باء بالفشل الذريع يومى ١٤-١٥ سبتمبر ١٩٤٠ فى عطلة نهاية الأسبوع.

فى واقع الأمر، لم تدفع المياه إلى شواطئ بريطانيا فى تلك السنة سوى ست وثلاثين جثة ألمانية كان أغلبها من طيارى وأطقم القوات الجوية الألمانية، وإذا كانت تلك الجثث قد احترقت، فإن ذلك يرجع إلى ألسنة اللهب التى أطلقت عليها، ومع ذلك أحرزت هذه "الأكذوبة الكبيرة" نجاحًا مثيرًا. كان هتلر محقًا عندما تحدث بسخرية فى ٤ سبتمبر ١٩٤٠ قائلا: "يجب ألا ينسى الإنجليز ترقية أهم جنرالاتهم إلى رتبة مارشال"، وكان يقصد هتلر الجنرال بلوف، حليفهم الموثوق به الوحيد (استفاد هتلر من الخديعة بإبقاء تهديد الغزو مستمرًا بعد أن اتخذ قرارًا بالتوجه إلى روسيا).

لم يبدأ الغزو الألمانى باستخدام القوات البحرية وإنما باستخدام القوات الجوية، حيث وعد هيرمان جورنج أدولف هتلر أن يبسط طياروه هيمنتهم على المجال الجوى قبل أن يتحرك الجيش أو تعبر القوات البحرية. وفى عام ١٩٣٧، وبينما كان اللورد ترينشيرد يتباهى بقوته الخارقة فى إعادة بنائه السرى للقوات الجوية النازية، اصطحب ضيفه إلى الخارج ليشاهد فى ليلة باردة عرضًا رائعًا للألعاب النارية، وعندئذ أذاعت مكبرات الصوت تسجيلاً لقصف مدفعى رهيب يختلط بصوت قاذفات تهاجم لتفريغ حمولتها من القنابل، كان ذلك بعد شهرين فقط من تدمير جورنيكا، حيث صاح جورنج: "هذه هى قوات الألمان، "إنى أراك مضطربًا، فيومًا ما ستجعل قوات الألمان العالم بأسره يرتعد"، فرد عليه مؤسس سلاح الجو الملكى البريطانى غاضبًا: "يبدو أنك لست فى وعيك، احذر يا جورنج، من أن تقلل من شأن سلاح الجو الملكى البريطانى".

اشتبكت القوات الجوية الألمانية مع سلاح الجو الملكى البريطانى فى الفترة ما بين يوليو وأكتوبر ١٩٤٠؛ جنوب إنجلترا فى سلسلة من المعارك الجوية عرفت باسم

"معركة بريطانيا". شكك بعض فى وجود خطة ألمانية مناسبة؛ حيث اعتقدوا أن قاذفات القنابل ستسحق بريطانيا ببساطة حتى تستسلم، إلا أن الإنجليز رفضوا الاستسلام بعناد كبير، وكانت المعركة الأسطورية التى جرت فى أغسطس ١٩٤٠ والتى قال فيها تشرشل: "لم يحدث فى تاريخ الصراع البشرى أن سُحقت القوات الكثيرة التى تمتلك المعدات الكثيرة أمام القوات القليلة".

هوجم مطار كرويدن بلندن فى ١٨ أغسطس، عندما نجح الحرس الملكى فى إسقاط مقاتلة من نوع دورنير بعد إطلاق ١٨٠ طلقة مدفعية، وهاجمت القوات الجوية الألمانية وسط لندن وسيتى للمرة الأولى ليلة الرابع والعشرين من أغسطس، ثم أصبحت الحرب سجالاً ففجرت قاذفات سلاح الجو الملكى البريطانى"أهدافًا عسكرية" فى العاصمة الألمانية برلين.

وفى صباح السبت الموافق ٧ سبتمبر ١٩٤٠؛ بدأ القصف النازى الكبير ثأرًا لما حدث، حيث حلق أسطول كبير من طائرات العدو يضم ما يزيد على ٣٠٠ قاذفة ترافقها ٦٠٠ مقاتلة بقصد الحماية فوق مصب نهر التايمز فى وضح النهار. وشاهدت الصحفية فيرجينيا كاولز، التى كانت تقضى عطلة نهاية الأسبوع فى الريف، الطائرات وهى تحلق على ارتفاع كسرب من الحشرات، كانت تلك الطائرات تتجه إلى الميناء والمستودعات الواقعة أقصى شرق مدينة لندن؛ حيث كانت أحواض هيئة موانئ لندن تمتلك خمسة وأربعين ميلاً من الأرصفة تحتوى على ثلث واردات المملكة المتحدة وربع صادرتها، وتم قصف ثلاث محطات كبيرة للسكك الحديد هى لندن بريدج، وواترلو، وتشارنج كروس، وحطمت أنابيب المياه الرئيسية وأنابيب الصرف الصحى وانقطعت إمدادات الغاز والكهرباء، ثم عادت بعد ساعتين من انتهاء حالة الحذر ليلاً ٢٥٠ قاذفة، حيث ألقت أطنان المتفجرات والمواد الحارقة ليشتعل أكثر من ستين حريقًا كبيرًا وأكثر من ألف حريق صغير كانت هى الأسوأ منذ حريق لندن. كان يمكن للمرء أن يقرأ إيفنين ستاندرد على ضوء تلك الحرائق فى ظل إطفاء الأنوار.

يذكر العقيد جون فيشر تيرنر، المسئول عن إنشاء المطارات الوهمية أنه بذل قصارى جهده من أجل إنجاز مهمته التى كانت تتمثل فى تنمية وتنسيق أنظمة إطلاق النيران العسكرية والمدنية الوهمية من مكتبه فى استوديوهات شيبرتون، وبداية من شهر نوفمبر ١٩٤٠ تم تنفيذ عمليات إطلاق نيران من تلك المواقع الوهمية أو ما يطلق عليه مواقع نجم البحر. ووفقًا لما أوضحه كولين دوبينسون فى "ميادين الخداع: المواقع البريطانية الوهمية لإطلاق النيران خلال الحرب العالمية الثانية" (Field of Deception: Britain's Bombing Decoy of World War II) (دار نشر ميثوين، ٢٠٠٠)، أقيمت المواقع الوهمية فى الريف خارج المناطق الحضرية حتى لا تتسبب القنابل فى إحداث أضرار.

كانت الفكرة من وراء ذلك تكمن فى محاكاة المؤثرات البصرية الناتجة عن حرق المبانى، وكان الهدف من استخدام الدرجة الثانية من الشراك هو جذب انتباه السربين الثانى والثالث من قاذفات قنابل القوات الجوية الألمانية ليقومان بتفريغ قنابلهما هدرًا إذا ما اعتقدا أن تلك الشراك أهدافًا حقيقية. واستخدمت علب الكريوسوت والورق المقير فى إشعال ما يطلق عليه "الحريق الكبير"، بينما أحدثت براميل الكريوسوت بما احتوت عليه من لفائف الورق المقير نيرانًا كثيفة الدخان. وكانت النيران الأساسية الكثيفة توقد بمشاعل من الفحم، إضافة إلى وجود خزان زيت وشبكة أنابيب ما يجعل تلك النيران تشبه "حرائق تقطير الفحم" التى تشتعل بشكل هائل عند سكب الوقود عليها، وتوجد فى اثنين وأربعين مدينة بريطانية ما يقرب من مئة وثلاثين من أنظمة "نجم البحر" للمساعدة فى حماية تلك المدن. ومع تزايد استخدام الألمان للمواد الحارقة عام ١٩٤١، تم تطوير حرائق وهمية خاصة تحاكى ما سماه الألمان "ميادين القنابل الحارقة". انقسمت أنظمة "نجم البحر" إلى مجموعات تعمل بالتناوب، وكانت تحتوى على ما يسمى حقل قنابل النار" وهى عبارة عن صناديق من خشب ملفوف فى خيش أو شبكات من السلك يوضع بداخلها نشارة خشب ونفايات قابلة للاشتعال منقوعة فى طبقات من الكريوسوت تبقى مشتعلة لما يقرب من ساعة ويذر فيها الحطب والفحم

والزيت. لم تنخدع القوات الجوية الألمانية فى تلك الأنظمة بشكل دائم؛ فقد كان لديهم شراك تمويه أيضًا، لكنهم كانوا فى بعض الأحيان يخدعون بتلك الشراك، حيث لم تتسم الملاحة الجوية فى تلك الأيام بالدقة الكبيرة. وقد استنتج دوبينسون أن الشراك الخداعية التى صممها العقيد تيرنر من المحتمل أن تكون قد أهدرت نحو خمسة بالمئة من أعمال القصف التى قامت بها القوات الألمانية، كما قد تكون خلفت ما يقرب من ٢٦٠٠ قتيل من المدنيين وما يتجاوز ٣١٠٠ من المصابين بإصابات بالغة.

(٢٠)

الدعاية عبر الأثير

تحدث السير صمويل هور إلى أعضاء مجلس العموم؛ بحكم وظيفته حامل الختم الملكى فى ١١ أكتوبر ١٩٣٩ قائلاً: "ليس ثمة دعاية الآن، إنما هو الإعلان العام، أعنى أنه لا بد أن تكون الأخبار جادة."، كانت كلمة "دعاية" غير مستساغة بالنسبة لآذان البريطانيين فى ذلك الوقت. ففى ١٩٢٨، كان كتاب "الكذب فى وقت الحرب" – (Falsehood in War-Time) الذى ألفه أرثر بونسونبى يعرض العديد من أساطير الحرب العالمية الأولى، ويظهر كيف كانت "الدعاية" فى تلك الحرب تعنى التفسير الخاطئ للأحداث والمناورات، ظلت المفاهيم تحمل معانى سلبية فى مجملها باستثناء ما تيقن أنه تم نشره واشتهر.

كان منتجو الأفلام الوثائقية أحد تلك المجموعات التى تؤمن بذلك، وكان جون جريرسون أول من استخدم كلمة "وثائقية" فى إحدى الصحف عام ١٩٢٦؛ حيث كتب عن فيلم الأنثربولوجيا المسمى "موانا" – (Moana) الذى أخرجه روبرت فلاهيرتى، وتدور أحداثه حول مقاطعة سامو الغربية الساحلية قائلاً: "إنه ذو قيمة وثائقية". واعتباراً من عام ١٩٢٩ أصبح مصطلح "وثائقى" معروفاً بذاته بين مجموعة من منتجى الأفلام البريطانيين الذين كانوا على صلة بجريرسون ومهتمين بمعالجة الحقيقة بطريقة إبداعية. عمل جريرسون بكل دقة مع رجل العلاقات العامة العبقرى الذى كان أحد أفراد الخدمة المدنية البارزين فى الجيش البريطانى، وهو السير ستيفن تالنتس الذى

أصيب بجراح فى أثناء حرب الخنادق التى خاضها مع الحراس الأيرلنديين، وقام بتنفيذ إصلاحات اجتماعية مع وليام بيفريدج. وفى عام ١٩٢٦ أصبح تالنتس سكرتيراً للجنة التسويق بالإمبراطورية.

استغل جون جريرسون ميول تالنتس الدولية وأقنعه بأن السينما يمكن أن تساعد فى "انتعاش" الإمبراطورية البريطانية، وبعد حصوله على بعض الأفكار من روديارد كيبلنج فى بورووش، حصل تالنتس على تخويل من والتر كرايتون بعرض فيلمه المسمى "عائلة واحدة" – (One Family) – والذى يحكى قصة صبى صغير يغلبه النوم أثناء تلقيه درساً فى مادة الجغرافيا ويرى فى منامه حلمًا عن الإمبراطورية البريطانية. وفى عام ١٩٣٠ نُشرت هذه الصورة فى إحدى الدوريات باعتبارها "أفضل صورة أنتجتها شركة بريطانية بلا منازع.

تناولت أجزاء الفيلم الناس وهم يؤدون أعمالهم بكل قوة وأمانة؛ وهو ما لم يشاهد فى الأفلام البريطانية على نطاق واسع، بل تكاد الأفلام المنتجة فى الاتحاد السوفيتى تضاهيه.

شجع تالنتس منتجى الأفلام الوثائقية البريطانيين على الدعاية للخدمة العامة، فهذه الأفلام غير التجارية كانت تهتم بالخدمات الاجتماعية التى تمس سائر الناس، مثل: الكهرباء والغاز والبريد والسكك الحديد وشحن البضائع بحراً وأجهزة الهاتف والخدمة اللا سلكية... وكان يسمح للأشخاص العاديين بالحديث أمام الكاميرات، وهنا لم يعد منتجو الأفلام الوثائقية يشعرون بالحرج من كلمة "دعاية"، حيث وردت فى عبارة جون جريرسون المقتبسة فى فيلم بول روتا الوثائقى الذى أنتجته شركة فابر فى يناير ١٩٣٦: "أنظر إلى السينما كأحد المنابر وأستخدمها بصفتى أحد العاملين فى حقل الدعاية"؛ وهذا ما تم التأكيد عليه فى مقدمة الكتاب:

تعتبر علاقتنا بالدعاية سطحية للغاية، لكننا حصلنا على التمويل اللازم للخدمة الدعائية من الإدارات الحكومية والمنظمات الوطنية... حيث تمنح الأفلام الوثائقية للدعاية الأدوات التى تحتاجها، وتضيف الدعاية للأفلام الوثائقية البعد الذى ينقصها، ومن هنا،

كان هناك تأثير كبير لـ "الدعاية"؛ ولذا فإنها ستستمر ما ظلت خدمة اجتماعية تقدم معلومات حقيقية للجمهور، وإذا تحولت الدعاية لتحمل، على الرغم من ذلك، معنى سياسيًا، فسوف يكون للوثائقية وقع أفضل.

يتنصل معظم الصحفيين البريطانيين من كلمة "دعاية"؛ وكأنها ثعابين سامة على الرغم من أنها فى الحقيقة حيوان أليف يجلس فى مكاتبهم. تعتبر كل أشكال الصحافة مواد دعائية فإنها تسعى لإقناع الجمهور، فتقدير "قيمة الأخبار" ونظام الحوار يرتبط بالاعتقاد السائد لدى الناس، وهذا ما يؤمن به أغلب الصحفيين؛ كتب آلان مورهيد ذات مرة، وهو أحد أفضل الصحفيين خلال الحرب العالمية الثانية: " كنت مسجلاً محترفًا للأحداث، وأحد أخصائيى الدعاية، ولم أكن جنديًا"، جرد كلمة "الدعاية" من المعانى السلبية وانظر إليها على أنها فرع من فروع الخطابة وتوجيه المعلومات إلى العامة، ربما نقترب من الطريقة التى كان البريطانيون يرون بها الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية، ففى عام ١٩٣٦، كان السير ستيفن تالنتس هو المشرف على العلاقات العامة بهيئة الإذاعة البريطانية، بينما جرت عملية جريرسون الموازية التى أطلق عليها "التفسير الخيالى للحياة اليومية"، حيث كان جريرسون فى طليعة من قاموا بإخراج الأفلام الوثائقية الإذاعية، مثل جون بادنى وستيفن بوتر.

فى مايو ١٩٤٠، دق جرس الهاتف فى سيسنجهورست كاسل فى مدينة كينت، وبعد توقف طويل، طلب من هارولد نيكلسون عضو البرلمان عن حزب العمل القومى عن ويست ليسيستر الاستمرار فى العمل حتى قدوم رئيس الوزراء الجديد. وفى أكتوبر ١٩٣٩، وخلال ثلاثة أسابيع، كتب نيكلسون كتابًا عنوانه "لماذا دخلت بريطانيا الحرب" – (Why Britain is at War)، وتم بيع ١٠٠٠٠٠ نسخة منه، ما جعل تشرشل يدعوه للعمل بوزارة الإعلام بوصفه سكرتيرًا للوزير دوف كوبر فى البرلمان.

وجد نيكلسون نفسه فى "أكثر الإدارات التى لا تحظى بالشعبية فى دول الكومنولث البريطانى بأسرها"، (وكان يطلق على العاملين فى وزارة الإعلام "متلصصى كوبر")، لكن نيكلسون عبر عن استحسانه لكل أشكال الدعاية الحكومية التى ربما يبغضها بعض؛

وتعاطفه مع "العقول التى لا تقهر" من المواطنين والصحفيين الذين أصابتهم القيود فى زمن الحرب بالإحباط، فليست بريطانيا هى ألمانيا ولن يقوم نيكلسون بتقليد أسلوب الطبيب جوزيف جوبلز، وفى مقال كتبه نهاية ١٩٤٠ لوضعه فى "دليل هيئة الإذاعة البريطانية لسنة ١٩٤١" - (BBC Handbook 1941) يشرح نيكلسون "الاختلاف الأساسى بين النظرية والتطبيق عند الألمان، أو بين الدعاية الخاصة بالحكومات الاستبدادية والدعاية الديمقراطية عند البريطانيين"، وكان الاختلاف الأول يتمثل فى "تحطيم عواطف الأميين"، بينما يتمثل الثانى فى اجتذاب اهتمام الأذكياء وذوى العقول الواعية، فالدعاية الألمانية تشبه الترويج، بينما تكون الدعاية الديمقراطية أقرب ما يمكن إلى التعليم، وكان نيكلسون يلقى تشجيعًا فى بعض الأحيان نتيجة ارتفاع الروح المعنوية لأفراد الشعب البريطانى، وفى أحيان أخرى كان يصيبه اليأس حيث قال:

أشعر باكتئاب شديد جراء الهجمات التى تتعرض لها وزارة الإعلام... قد يكون من الصحيح أنه إذا كان على وسائل الدعاية الخاصة بنا أن تكون فعالة كتلك التى يملكها الأعداء، فعلينا أن نبحث عن أناس يتعاملون بمنتهى بالخسة لنشر أكاذيب فعالة، فما زالت وزارة الإعلام فى الوقت الحالى موقرة للغاية... لكننا فى حاجة إلى محتالين.

استطاع دوف كوبر بالفعل أن يجد واحدًا من هؤلاء؛ إنه سيفتون ديملر الذى قال فى ذلك الوقت للصحفيين الذين فروا مؤخرًا أثناء سقوط فرنسا، مع جميع الصحفيين الآخرين: "لا تقم بإرسال تقريرك إلى صحيفة ديلى إكسبرس"، وأضاف: "لكنك إذا استطعت عرضه باللغة الألمانية فى هيئة الإذاعة البريطانية، فسأكون شاكرًا".

كان سيفتون ديلمر يعمل فى الإذاعة، عندما عمد إلى كتابة المجلد الأول من سيرته الذاتية، فتذكر عندما كان مع والدته وأخته صيف عام ١٩١٤ فى منتجع باد ساشسا الألمانى؛ حيث شاهدوا فيلمًا سينمائيًا لعملية اغتيال أرشيدوق النمسا، وبعد مرور بضعة أيام، قامت قوات يرتدى أفرادها زيًا رماديًا بإقامة معسكر لهم فى الروضات وقاموا بتركيب محطة لا سلكية من نوع جديد وشيدوا سارية ضخمة

وثبتوا عليها الهوائيات، وقاموا بتشغيل محرك المولد الكهربائى الخاص بهم، ما ينذر ببداية "أول حرب فى القرن العشرين" عند صبى يبلغ من العمر وقتها عشر سنوات.

كان أشهر ما بثه ديلمر عبر القسم الألمانى بهيئة الإذاعة البريطانية فى ١٩ يوليو ١٩٤٠، بعد ساعة من الخطبة التى ألقاها أدولف هتلر فى مقر برلمان الرايخ ومدح فيها القوات المسلحة الألمانية على انتصاراتها الرائعة فى أنحاء أوروبا كما تفاخر بمهارته الاستراتيجية قبل عرض السلام على إنجلترا، حيث قال هتلر:

كان على السير تشرشل أن يصدقنى ولو لمرة واحدة عندما تنبأت أن تلك الإمبراطورية العظيمة سوف يلحق بها الدمار، تلك الإمبراطورية التى لم يكن فى نيتى أبداً أن أؤذيها، وأضاف قائلاً: إذا استمر هذا الصراع فإنه سيؤدى إلى إبادة إحدى الإمبراطوريتين، الألمانية أو البريطانية، ثم واصل قائلاً: يعتقد السير تشرشل أن الهلاك سوف يكون من نصيب ألمانيا، لكننى أوقن أنه سوف يلحق ببريطانيا، إننى أشعر فى هذه الساعة بأن واجبى، قبل ضميرى، يملى علىَّ أن ألتمس المنطق السليم وأن على بريطانيا أيضًا فعل ذلك... إننى لا أرى سببًا واحدًا لتستمر الحرب من أجله، فينبغى علينا أن نتحاشى التضحية بالملايين من أبنائنا.

استمر توم ديلمر فى هذا البث المهم خلف المذياع داخل هيئة الإذاعة البريطانية؛ دون أخذ الوقت الكافى لدراسة الموضوع والتشاور مع مسئولى الدعاية والدبلوماسيين فى وزارة الخارجية، ففى سيرته الذاتية التى كتبها بيده، يذكر ديلمر أن هذه كانت هى المرة الأولى على الإطلاق التى يُسمح فيها بالبث فى أى قسم على الإطلاق دون دراسة وتروٍ. واتباعًا لسياسة "الوجه الوقح"، اعتبر هذا واحدًا من أعظم ساعات البث فى التاريخ، حيث وجه ديلمر خطابه إلى القائد الألمانى قائلاً وبلغة ألمانية هادئة وتراعى مشاعر الآخرين: "سيدى هتلر، لقد قمتم فى إحدى المناسبات فى الماضى باستشارتى حول البث الإذاعى للشعب البريطانى، أرجو منكم أن تسمحوا لى بأن أقدم هذه الخدمة المتواضعة إلى سيادتكم مرة أخرى هذه الليلة، دعنى أخبرك بالطريقة التى فهمنا بها هنا فى بريطانيا مناشدتك الكريمة التى أطلقتها الليلة والتى سررت فيها بمخاطبة

ضمائرنا. سيدى القائد والمستشار الألمانى، إننا نحيل الأمر مرة أخرى إليكم ونعيده تجاه نواياكم الخبيثة..."، أصاب هذا البث الألمان بالصدمة، فلم يكونوا يدركون أنه سيسمح بمثل هذه الوقاحة بها دون توقيع أقصى عقوبة ممكنة، وجاء التأكيد على ذلك يوم الاثنين عندما رفض لورد هاليفاكس المتحدث السابق باسم الحكومة البريطانية، الذى عرف عنه النبرة الهادئة، إجراء مفاوضات مع ألمانيا.

كان من الواضح أن ديلمر لم يكن بالشخص الذى يمكنه أن يعمل طيلة الوقت بأسلوب هيئة الإذاعة البريطانية مع التزامها الجاد وواقعيتها الصادقة، لكنه استمر فى الإذاعة خلال المناسبات؛ لأنه كان يتمتع بالسرعة والجدية، وفيما بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٢، اضطر هيو جرين المسئول عن القسم الألمانى إلى الاستجابة خلال ساعات إلى هانز فريتزيش المعلق الرئيسى بالبث المحلى فى وزارة الدعاية التى كان يتولاها جوبلز، حيث طالبوا سيفتون ديلمر بأن يقوم بتفنيد البث الذى كان يذيعه نقطة تلو الأخرى، لكن عبقرية ديلمر مكنته من تنفيذ "الدعاية البيضاء" بهيئة الإذاعة البريطانية إضافة إلى "الدعاية السوداء".

وقبل أن يصبح رئيس إذاعة آى إم، دخل ديلمر فى فترة تدريب وتحالف مع ليونارد إنجرامز، حيث كانا على معرفة ببعض قبل نشوب الحرب عندما كان يطلق على إنجرامز لقب "المصرفى الطائر" فهو الذى حلق بطائرته من نوع بوس موث حول أوروبا.

تصور ديلمر أن إنجرامز (والد ريتشارد، محرر ومؤسس مجلة برايفت آى) كان أحد الجواسيس، لكنه أدرك فى النهاية أنه كان "أحد النجوم البارزين فى الحرب السرية البريطانية"، ففى حقيقة الأمر، كان إنجرامز وكيلاً لوزارة اقتصاد الحرب وكانت تربطه علاقات بمركز إليكترا هاوس وخدمة الاستخبارات السرية والجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة ثم بالجهاز المسئول عن المنازعات السياسية.

فى نوفمبر عام ١٩٤٠، أرسل آرثر كريستيانسن، رئيس تحرير صحيفة ديلى إكسبرس، ديلمر إلى العاصمة البرتغالية لشبونة؛ حيث أقحم المراسل نفسه مرة أخرى

لفترة تزيد على ثلاثة أشهر فى القضايا التى تتعلق بألمانيا النازية عن طريق عقد لقاءات مع مئات اللاجئين الذين هربوا أو دفعوا رشاوى مقابل تهريبهم، وكانوا إما مستقرين فى ظل الحكم الاستبدادى لرئيس الوزراء سالازار المتعاطف مع اليهود، وإما كانوا يعدون العدة للإبحار نحو العالم الجديد. فى فبراير عام ١٩٤١، حصل إنجرامز على تصريح أمنى من كل من خدمة الاستخبارات السرية والاستخبارات العسكرية، القسم الخامس فى بريطانيا من أجل ضم ديلمر إلى قسم المخابرات السياسية التابع لوزارة الخارجية ليعمل على توجيه إذاعة باللغة الألمانية إلى ألمانيا.

قامت هيئة الإذاعة البريطانية بتوظيف ما يقرب من خمسة آلاف شخص فى بداية الحرب العالمية الثانية؛ لكنهم سرعان ما أصابهم الارتباك، وفى يوم الجمعة الموافق الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩، كان فال جيلجود (وهو شقيق الممثل المشهور جون جيلجود)، رئيس قسم الدراما والعروض بهيئة الإذاعة البريطانية جالسًا فى غرفة المراجعة فى مارليبون هاى ستريت يقوم بالتحضير لإخراج أول مسرحية له تبث على شاشة التلفاز، وكانت بعنوان "الدائرة" – (The Circle)؛ وهى من تأليف وليام سومرست موغام، إلا أن التلفاز الذى يبث إرساله من قصر ألكسندرا أغلق أبوابه عندما أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية "حالة الطوارئ"، وتم الاتفاق على شفرة مسبقة؛ تقضى باستبدال المذيعين عبارة "هنا البرنامج العام" بعبارة "هنا لندن".

اتبعت كل الأقسام فى مقر الإذاعة، باستثناء قسم الأخبار، إجراءات الإخلاء فارين إلى الأقاليم من القصف الوشيك المتوقع على لندن، ولأن هذه القاذفات كان يمكنها استخدام أجهزة البث البريطانى ذات الموجات المتوسطة فى عمليات التتبع. تم دمج البرامج الإقليمية والبرنامج الوطنى فى برنامج واحد سمى "الخدمة الوطنية"، واقتصر على تقديم ثمانى نشرات إخبارية فى اليوم إضافة إلى بيانات الحكومة وساعات من عزف ساندى ماكفرسون فى مسرح أورجان التابع لهيئة الإذاعة البريطانية.

وحيث إن جميع المسارح ودور السينما وصالات الرقص وأماكن التسلية العامة؛ كانت مغلقة بأمر من الحكومة بسبب الخوف من مقتل عدد كبير من الناس فى القصف المتوقع، فليس من المستغرب أن يقوم المستمعون الذين أصابهم الملل بتحريك مؤشرات

أجهزة المذياع التى معهم لمتابعة الأحداث على خلفية التشويش المقبل من وسائل الدعاية الإذاعية التى يقوم الألمان بإرسالها إلى بريطانيا من مدينة هامبورج، وفى ١٨ سبتمبر ١٩٣٩، سمع جونا بارينجتون، الناقد الإذاعى لصحيفة ديلى إكسبرس، صوتًا عبر الموجات قصيرة التردد عرف فى نهاية المطاف أنه "اللورد هاو - هاو حاكم مدينة زيسن الألمانية" حيث يقول بارينجتون:

تخيلت من خلال لهجته وشخصيته أنه رجل خفيف شعر الذقن، عريض الأنف، أشقر الشعر الممشط إلى الوراء، ويرتدى نظارة بعدسة واحدة؛ لأنه أعور وهو يشبه إلى حد كبير شخصية بيرتى ووستر الذى ورد فى رواية بى جى وودهاوس.

يبدو من المؤكد أن هذا الصوت المميز الذى سمعه، هو صوت رجل بولندى فظ غلبت اللغة الألمانية على لغته، كان هذا الشخص يدعى وولف ميتلر، وإن كان لقب "اللورد هاو هاو" قد ارتبط بمذيع آخر فى جهاز الدعاية الألمانى وهو الأيرلندى الفاشى وليام جويس الذى كان مميزًا بأثر جرح فى وجهه يبدو ناتجًا من أثر شفرة الحلاقة. كان جويس مندوبًا عن أوسولد موزلى فى اتحاد الفاشيين البريطانيين، وكان يبدو كما لو كان شخصًا أحمقًا أكثر منه ساخرًا، (وقد سماه رئيس المراقبة بهيئة الإذاعة البريطانية "سام المنحوس"). وفى عام ١٩٣٩، أصبحت معظم الأسر البريطانية لديها رخصة امتلاك أجهزة اللا سلكى، وكان جمهور هيئة الإذاعة البريطانية يُقدرون بثمانية وعشرين مليون مستمع، سمع أكثر من نصفهم هاو هاو؛ وهو يتشدق بعبارته: "ألمانيا تنادى... ألمانيا تنادى..." من وقت لآخر خلال الحرب المزيفة، وكان أغلب من استمعوا له ممن كان يحرصون بشدة على متابعة برامج هيئة الإذاعة البريطانية. كانت الحكومة منزعجة من ذلك الشخص لأنه يتحدث عن أشياء لا تسمعها فى هيئة الإذاعة البريطانية حيث انتقد بشكل ساخر حالة الفقر، والأحياء الفقيرة، والبطالة كما هاجم الأغنياء وأصحاب النفوذ الذين تجاهلوا تلك المشكلات.

دفع تعليق هاو هاو الخداعى أثناء الحرب المزيفة هيئة الإذاعة البريطانية إلى البحث عن أصوات جديدة لتتحدث بحرية أكبر. وفى أوائل شهر يونيو ١٩٤٠،

عقد هارولد نيكلسون الذى يعمل بوزارة الإعلام محادثات مع السكرتير البرلمانى الخاص لكليمنت أتلى وزعيم حزب العمال، والذى كان بصفته وزير الأختام الملكية نائبًا مؤثرًا لرئيس الوزراء ونستون تشرشل، حيث ذكر نيكلسون:

إن أتلى كان قلقًا من امتناع هيئة الإذاعة البريطانية والعاملين بها عن التحدث بنبرة تناسب الطبقة الراقية وتطلعها إلى انتقاء عدد أكبر من المتحدثين باسم الطبقة الكادحة... كان الألمان يخوضون حربًا ثورية من أجل أهداف محددة للغاية، بينما نخوض نحن حربًا وقائية بأهداف سلبية محضة، يجب أن نضع نصب أعيننا الهدف الإيجابى والثورى وأن نقر أن النظام القديم قد انهار ونطلب من الناس القتال من أجل نظام جديد.

كان هذا هو ما بدأ الكاتب الروائى والمسرحى جيه بى بريستلى تنفيذه، فقد أحدثت حواراته التى كان يجريها بعد نشرة أخبار التاسعة مساء أيام الأحد فى الفترة بين شهرى يونيو وأكتوبر عام ١٩٤٠؛ تأثيرًا هائلاً فى تلك السنة الحاسمة (لكن هيئة الإذاعة البريطانية لم تكن ترغب فى تلك الحوارات)، فلم يكن يبدو على بريستلى أنه ينتمى إلى الطبقة الراقية فى أكسفورد أو كامبريدج، فهو شاب فتى قوى البنية من يورك شاير يناقش قضية أو قضيتين، وكانت لديه أفكار محددة عن العمل الإذاعى الذى يقوم به.

كل من استمع إلى بريستلى أدرك أن تومى هاندلى الذى عاش فى الفترة (من ١٨٩٤ إلى ١٩٤٩) كان محقًا فى أفكاره، فقد كان هاندلى أول نجم بارز فى تاريخ الإذاعة البريطانية استطاع أن يمثل دور الرجل المستقيم أو من يقوم بأدوار كوميدية مع الاحتفاظ بوقاره. حصل هاندلى على جائزة ليفربول لحواراته المنمقة المدعمة بالحجج المقنعة وخياله الراقى. خلال فترة دراسته أنفق هاندلى مصروف جيبه على شراء الباروكات والأقنعة والشوارب المزيفة، وأحب الشعوذة، والدراما، والمسرحيات الإيمائية، والعروض، وأثناء فترة خدمته فى قسم معدات البالونات بالخدمات الجوية التابعة للبحرية الملكية فى نهاية الحرب العالمية الأولى، طاف مع أعضاء الفرقة الغنائية

وقدموا ثلاثة عروض فى ليلة واحدة للقوات والمصابين، كان تومى هاندلى يتمتع بصوت غنائى جميل، لذا تجول بعد انتهاء الحرب فى أرجاء البلاد وقدم عروض الكوميديا الموسيقية، وفى عام ١٩٢٤، ألقى هاندلى بيانه الإذاعى الأول من استوديوهات هيئة الإذاعة البريطانية فى سافوى هيل، كما كان حاضراً عندما تم بث الإذاعة للمرة الأولى، حيث كانت الإذاعة هى أفضل وسيلة للثرثرة التى كان يلقيها. باع تيد كافانا (والد الشاعر بى جيه كافانا) النيوزيلندى البدين قوى البنية ذو الشعر البرتقالى أول مسرحية هزلية له إلى هيئة الإذاعة البريطانية مقابل ثلاثة جنيهات؛ إلا أنه شعر بسعادة غامرة عندما سمع تومى هاندلى يقوم بتقديمها؛ طلب هاندلى من كافانا كتابة المزيد إن استطاع، ثم عملا معًا طيلة ثلاثة وعشرين عامًا.

كان هناك منتج بهيئة الإذاعة البريطانية فى مدينة بريستول يسمى فرانسيس ورسلى، وكان هذا الرجل يعتاد لبس السترة والسراويل القصيرة (عمل فى السابق معلمًا وخدم فى جيوش الاستعمار)، وخلال شهر أغسطس ١٩٣٧؛ كان عليه الاتحاد مع هاندلى فى رسم صورة واقعية تسمى "المساء فى شيدر" نسبة لأشهر كهوف شيدر جورج. أثار ورسلى الأحداث بضمه تومى هاندلى إلى مجموعة من السائحين الذين ظهروا وهم يتجمعون حول الحليمات، وبإضافة بعض القصص القصيرة المضحكة التى كتبها كافانا، لكن وجهت انتقادات إلى هيئة الإذاعة البريطانية من قبل العلماء بسبب سماحها "لمهرج كهذا" أن يقوم بالخلط بين المعرفة والهزل.

وفى شهر يونيو ١٩٣٩، كان فرانسيس ورسلى يعمل فى أقسام متنوعة بهيئة الإذاعة البريطانية فى لندن، وأخذ يبحث عن فقرة كوميدية إذاعية جديدة، واقترح توم هاندلى أن يقوم تيد كافانا بكتابتها، وأثناء إقامتهم فى فندق لانجهام، توصل الثلاثة إلى مكان خيالى لإقامة العرض؛ إنه محطة إذاعة بحرية على سفينة سياحية؛ كان حفلاً غريبًا مع هاندلى المسئول عن البث.

كانت لحظة حاسمة قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، فما كادت الحرب الأهلية الإسبانية تنتهى حتى أصبح اسم أدولف هتلر يتصدر كل الأخبار، وكان يطلب فى كل

وقت المزيد من الامتيازات من الدول الديمقراطية، واعتادت جريدة ديلى إكسبرس على استخدام عنوان رئيسى يقول: "إنه ذلك الرجل مرة أخرى!" – (It's That Man Again!)، واعتقد الرجال الثلاثة أنه عنوان جيد للعرض، فاستأجروا فرقة جاك هاريس التى تعمل فى مقمر لندن وأذيع أول برنامج على الهواء مباشرة من استوديو هيئة الإذاعة البريطانية الكبير فى مايدا فالى من الساعة الثامنة والربع مساءً إلى الساعة التاسعة مساءً يوم الأربعاء الموافق ١٢ يوليو ١٩٣٩.

فى أعقاب "فترة الطوارئ"، كانت برامج المنوعات فى هيئة الإذاعة البريطانية وشركات العروض المسرحية الخاصة بها قد أجليت إلى بريستول. أخذ كل من ورسلى، الذى تعلم فى مدرسة حكومية واعتاد قراءة مجلة نيو ستيتمان، وهاندلى المحافظ المنشق والمحب للحيوانات، إضافة إلى كافانا وجيه كيه تشيسترتون الكاثوليكى، يفكرون جميعًا فى الحلقة الجديدة من البرنامج الجديد الذى سمى "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" والذى تأجل بثه مدة أسبوعين.

ماذا عليهم أن يفعلوا الآن بعد اندلاع الحرب؟ كانت فكرة سفينتهم السياحية مرهونة بالسلام، وكان كل ما حولهم يشير إلى تصاعد الإجراءات الأمنية، حيث أخذت الوزارات الجديدة تصدر الأوامر والمطبوعات الحكومية والتعبيرات المختصرة اللازمة فى حالة الطوارئ. وكعادته كان هاندلى يعبث بملفات الأوراق، عندما توصل لاستخدام الأحرف الأولى من جملة "إنه ذلك الرجل مرة أخرى!"، وهكذا أصبح برنامج آى تى إم إيه جاهزًا للانضمام إلى إيه آر بى، وإف إيه إن واى، وإم إى دبليو، وإم أو آى، وآر إيه إف، ودبليو فى إس، وبقية الحروف الأولى المحيرة أثناء فترة الحرب، كان كافانا يهدف من كتاباته الإذاعية استخدام صوته فى الدفاع عن كل ما يستحق، فاستخدام الأصوات واللهجات المختلفة، والعبارات المثيرة للاهتمام والأصوات خفيفة الظل مع الكلمات ذات التأثير الغريب يضفى جوًا على كل ما يستخدم لتقديم الحقائق فى صورة بديعة، احتوى هذا العرض المكون من حلقات، مدة كل منها نصف ساعة، على أكثر من ثمانى عشرة دقيقة من الحوار وكان يهدف إلى دفع المستمعين إلى الضحك عند سماعهم للمزح أو التلاعب بالألفاظ أو زلات الألسن كل ثمانى ثوان.

تومى: "تحياتى إليكم يا رفاق، إنه كفاحى (باللغة الأمانية) مرة أخرى، معذرة، كان يجب علىَّ أن أقول: مرحبًا بكم يا رفاقى الأعزاء (باللغة الإنجليزية) إنه ذلك الرجل مرة أخرى، إنها رواية جوبلز.

كان تومى هاندلى صاحب الصوت المبتهج يقوم بتنسيق ذلك البرنامج الساخر الذى يشبه مسلسلات الكارتون المضحكة. كان هاندلى يلعب شخصية الفضولى فى إحدى المصالح الحكومية ويتعامل مع المواقف الشاذة والغريبة، وخضعت الحلقات الأولى من برنامج "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" للرقابة والتدقيق الأمنى؛ وتم بثه إذاعيًا من قاعة كليفتون باريش هول لمدة ثلاثة أسابيع خلال فترة الحرب اعتبارًا من يوم الثلاثاء الموافق ١٩ سبتمبر ١٩٣٩، ولم يكن به معظم الشخصيات والعبارات اللافتة للاهتمام التى تم تطويرها فيما يزيد على ثلاثمئة حلقة فى السنوات العشر التى تبعت ذلك، لكن تلك الحلقات كانت تسخر من عدم مبالاة المسئولين، الوضع الذى كان على الجميع التعايش معه.

تومى: ما هذا؟ أهو أمر بمنع تناول الفول السودانى فى الأماكن العامة؟ سأوقع على كل شىء يمنع أى شىء، قم بطباعة خمسين مليون منشور من هذا.

فوسبوت: أطبع خمسين مليون منشور يا سيدى؟!

توم: نعم، قم بإلغاء جميع المنشورات الصادرة بالفعل، واتصل بهيئة الإذاعة البريطانية وأخبرهم بأننى أصبحت رشيقًا وسأكون واحدًا من بين موظفيها، وإذا كان أى منهم يقوم بعمل أى شىء فأخبره بأن يتوقف فى الحال.

عرف العرض التالى باسم فونف (خمسة بالألمانية)؛ وهى قصة تجمع بين الجد والهزل تحكى حياة جاسوس ألمانى، وهى عبارة عن سخرية من أدولف هتلر. صارت عبارة "هذا هو فونف يتحدث إليكم" شعار الحرب الزائفة، وساعدت فى تقليل السخرية من القائد والاستخبارات العسكرية الألمانية، أما حلقة "ليلة الاعتقال" – (Interned Tonight) فكانت شخصياته بريئة مثل الحلاق السير كت، وبحلول شهر نوفمبر كان العرض

مستمراً دون أى معوقات. فى هذا السياق كانت وحدة التمويه الخيالية قد أخفت كل شىء عن الأنظار حتى إن تومى هاندلى، الذى كان وقتها يؤدى دور وزير الأزمات والغموض فى مكتب الأغبياء كإحدى حلقات البرنامج، لم يستطع الوصول لمكتبه الخاص وتم إبعاده إلى "مكان ما فى إنجلترا" ليقوم بإنشاء محطة إذاعية سرية.

كان الشعب كله يستمع إلى برنامج "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" أثناء فترة الحرب وأحبوا تتابع شخصياته الخيالية وطرائفه الموضوعية، وكان كل من ملك وملكة إنجلترا يستمعان إلى ذلك البرنامج أيام الخميس فى الفترة بين الساعة الثامنة والنصف مساءً والساعة التاسعة مساءً، كما تمثلت هدية عيد ميلاد الأميرة إليزابيث السادس عشر فى شهر أبريل عام ١٩٤٢؛ فى الأمر فى بث برنامج "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" لمدة ساعتين فى قلعة وندسور.

سبَّب برنامج "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" ارتياحًا بين أفراد الشعب بتسليط الضوء على تلك اللحظات المظلمة؛ مظهراً قدرة البريطانيين على السخرية من أنفسهم. كانت روحه تشبه إلى حد كبير روح مسلسلات هيث روبنسون التى كانت تنتقد بشكل لاذع التباهى الحكومى وعدم ظهور القدرات الإبداعية، وتضمنت مسلسلات هيث روبنسون الكارتونية التى صممها لشخصية ونستون تشرشل عام ١٩٤٠؛ فيلمًا لأول قائد للأدميرالية وهو متنكر فى شكل رجل وسيم يضع الألغام المغناطيسية فى نهر التايمز لتشويه سمعة النازيين وإضعاف الثقة فيهم، كانت أعمال هيث روبنسون الساخرة، مثلما الحال مع "إنه ذلك الرجل مرة أخرى"، تجعل الناس يخرون ضحكًا. كان مقصد السير هاو هاو على النقيض من ذلك، فكان يروى بسخرية السوء الذى كانت عليه الأمور فى بريطانيا والانقسام الذى كانت تعانى منه، وكيف أضحت هزيمتهم حتمية، بل إن إقدام السيدة بيلامى التى كانت تعيش فى مدينة شفيلد على الانتحار بعد استماعها إلى هاو هاو هو نوع من الانتصار للنازية غير الأخلاقية، وإن كان نسبيًا. لعبت العبارات الشهيرة والمثيرة للاهتمام فى برنامج "إنه ذلك الرجل مرة أخرى" دوراً مهمًا خلال الحرب، كانت إحدى هذه العبارات: "أنا نازل الآن"،

والتى ظهرت بصوت حزين لأحد الغواصين، ترددت تلك العبارة فى كل أواسط سلاح الجو الملكى البريطانى حتى عندما كان ينقض الطيارون الذين يهاجمون الأهداف الأرضية؛ وكذلك عندما حددت إحدى فرق الإنقاذ موقع طفل فى المرحلة الابتدائية تحت أنقاض منزل تعرض لقصف جوى كانت عبارة الطفل وهو يشير للسيدة موب من تحت الأنقاض والتى اشتهرت بعد ذلك: "هل تستطيع إنقاذى يا سيدى؟".

عندما ألقى المنطاد الألمانى هيندينبيرج بحممه يوم ٦ مايو ١٩٣٧؛ انهار المذيع هربت موريسون على الهواء باكيًا وهوى يقول: "يا لهول الموقف"، ولم يتوقف عن التسجيل وإجراء المقابلات حول ذلك المشهد. خلال ذلك الصيف سافر إدوارد آر مورو إلى لندن بصفته مدير القسم الأوروبى فى شبكة الإذاعات الأمريكية المعروفة باسم (سى بى إس "نظام البث الكولومبى")، ثم قام بتعيين ويليام إل شير مراسلاً للشبكة فى برلين وقام بأول بث له من العاصمة النمساوية فيينا بعد ضمها إلى ألمانيا فى شهر مارس ١٩٣٨.

وسرعان ما أصبح مورو مراسلاً صحفيًا جديرًا بالثقة؛ استطاع أن يتحدث مباشرة وبشكل طبيعى إلى الشعب الأمريكى من خلال مجموعة مقالات قصيرة، وأثناء الأزمة بين ميونيخ وتشيكوسلوفاكيا، اعتاد الأمريكيون الاستماع إلى التقارير الإخبارية التى تبثها شبكة سى بى إس التى كان يقدمها مذيعون أمثال بل شير وإد مورو؛ فأدى ذلك توقف البرامج التى كان مقررًا أن تُبث لمدد طويلة؛ حيث جرى بث كل الأخبار على الهواء مباشرة.

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٣٨؛ كشف أورسون ويلز النقاب عن وجهه فى محطة سى بى إس الإذاعية فى عيد الهالوين، مقدمًا تقارير إذاعية تبث على الهواء من مدينة نيوجيرسى للترويج لكتاب إتش جى ويلز حرب الأمم (The War of the Worlds)، كانت الحقائق المزيفة التى كانت تبثها الإذاعة التى قام بإلقائها أحد الممثلين بعد أن دفعه ويلز إلى الاستماع بشكل متكرر إلى صوت موريسون عبر إذاعة هيندينبيرج

وتقليد حديثه المتشنج بطريقة ساخرة وانفعالاته العاطفية، كانت مؤثرة لدرجة أن المستمعين اتصلوا بالشرطة وهرب الناس من بيوتهم قبل غزو الكائنات المقبلة من كوكب المريخ.

وفي الوقت الذى اندلعت فيه الحرب فى شهر سبتمبر ١٩٣٩، شكل مورو فريقًا جيدًا من المراسلين، لكن على النقيض مما قامت به وزارة الدعاية التى كان يتولاها جويلز والتى حصل أفرادها على تسهيلات سريعة للعمل مذيعين فأخذوا يجرون المقابلات مع من أرادوا، وقطعت بريطانيا فى أول الأمر علاقاتها مع العاملين بالبث الإذاعى الأمريكى خلال السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية، ولم تكن وزارة الحربية البريطانية والأدميرالية متعاونتين، كما قامت وزارة الإعلام بتقييد نشاطيهما عن طريق الإجراءات الروتينية وعرقل الأمن القومى تحركاتهما، إلا أن كل ذلك تغير مع أول هجوم عسكرى كبير ومركز.

فى تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء السبت الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٤٠ وخلال أول هجوم ليلى على مدينة لندن؛ كان إدوارد آر مورو يقف عند عتبات منطقة الحقول فى سانت مارتن وهو ينظر إلى تمثال نيلسون ويحمل مكبر صوت وأخذ يقول: "هذه الضوضاء التى تسمعونها، هى صافرة إنذار تطلق عند حدوث غارات جوية... لكن الناس كانوا يسيرون بكل هدوء، ثم وصلنا إلى مدخل أحد المخابئ التى أعدت للوقاية من الغارات الجوية، وكان علىَّ أن أحرك السلك إلى الأعلى قليلاً ليتمكن الناس من التقدم إلى الداخل".

جثى إدوارد آر مورو على ركبتيه ليقوم بتسجيل وقع الأقدام وأصوات باب المخبأ والحافلات الحمراء ذات الطابقين وصافرات الإنذار فى الخلفية، كان مورو يستخدم معدات البث الخاصة بهيئة الإذاعة البريطانية؛ وبالفعل كان ينقل كل ما يجرى على الهواء مباشرة، فلم يكن يسمح للمستمعين البريطانيين بالاستماع إلى مثل ذلك عام ١٩٤٠، حيث كان يجرى وضع سيناريو لكل شىء ليخضع للرقابة ثم يخضع ما تم بثه للفحص.

صارت أصوات الانفجارات الطفيفة التى كانت تسمع أثناء قيام مورو بالبث أسوأ ما يكون فى شهرى سبتمبر وأكتوبر مع بدء شن غارات جوية كل ليلة، وألقيت أول نشرة إذاعية بطريقة مرتجلة من فوق سطح مبنى الإذاعة أثناء غارة جوية فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٠؛ ومن داخلها عند شن غارة أكبر فى ١٥ أكتوبر عندما ألقيت قذيفة تزن ٥٠٠ رطل على المبنى بينما كان المذيع بروس بيلفراج يقرأ نشرة أخبار التاسعة مساءً، وأخيراً انفجرت قنبلة موقوتة داخل المكتبة الموسيقية، الأمر الذى أسفر عن مقتل أربعة رجال وثلاث نساء وجرح الكثيرين وتم نسف القاعة اليمنى أو الجناح الغربى، كما رأى مورو حانة على ناصية الشارع الذى كان يسكن فيه فى ديفونشير منسوفة وقد أسفر ذلك الحادث عن مقتل ثلاثين شخصاً، كما قتل أصدقاؤه وجيرانه الذين كان من بينهم كلير وألان ويلز جراء شظايا القنابل التى أسقطت فى بورتلاند، وخرج مورو ليلاً وتحدث إلى الفقراء فى أنفاق المخابئ التى كانوا يحتمون بها؛ بينما كان الأغنياء يختبئون فى الفنادق، فى حين كان الحراس وأخصائيو الإسعافات الأولية، ورجال إطفاء الحرائق والإنقاذ، وأفراد الدفاع المدنى يقومون بواجبهم على أكمل وجه؛ ذكر مورو كل ذلك فى تقاريره بأسلوب محكم، ليجعل الولايات المتحدة الأمريكية التى أعلنت حيادها ترى القتلى فى لندن.

اكتسب ما يقوم به مورو أهمية خاصة فى الوقت الذى ظهرت فيه حركة "أمريكا أولا"، والتى كان يقودها الطيار الانعزالى تشارلز ليندبيرج ودعمه فيما بعد سفير الولايات المتحدة فى لندن جوزيف كيندى الذى زعم أن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تبقى بعيدة عن الصراع الذى يدور فى أوروبا والحروب الخارجية، لكن بريطانيا كانت فى حاجة ملحة لمساعدة الولايات المتحدة؛ وعندما استعرض تشرشل قوات الدفاع المدنى فى مدينة جلاسجو برفقة مبعوث الرئيس الأمريكى روزفلت. السير هارى هوبكنز فى ١٧ يناير ١٩٤١، لم يطلب تشرشل من الولايات المتحدة أن تتدخل بشكل مباشر قائلاً: "إننا لا نطلب فى عام ١٩٤١ بأن تأتينا جيوش جرارة من الخارج، لكن ما نطالب به هو إمدادنا بالأسلحة والسفن والطائرات، وما يمكننا أن ندفع ثمنه سندفع ثمنه، لكننا نريد أسلحة أكثر مما نستطيع تحمل ثمنه".

أثناء الدعاية لإقناع الأمريكيين بضرورة تقديم العون، عرف البريطانيون أن الأمريكيين سيقومون بدور أفضل من البريطانيين للحفاظ على بلادهم. يتجلى الارتباط بين الدولتين فى أجمل صوره فى رواية أليس ديور ميلر "الشواطئ البيضاء" – (The White Cliffs) التى هى عبارة عن نموذج رائع للدعاية المؤثرة التى انتشرت فى الولايات المتحدة، وصدرت منها إحدى عشرة طبعة فى مدة ثلاثة أشهر من أواخر عام ١٩٤٠، أما الطبعات البريطانية الثمانى فقد صدرت فى وقت مبكر من عام ١٩٤١.

تحكى رواية "الشواطئ البيضاء" قصة عن فتاة عاشقة لإنجلترا تدعى سوزان دان، أحبت وتزوجت رجلاً إنجليزيًا وسيمًا من منطقة ديفون صيف ١٩١٤، وأصبحت فى فترة قصيرة "سيدة إنجليزية"، لكن زوجها وأخاها الأكبر قتلا فى الحرب العالمية الأولى، ورأت سوزان أن من واجبها أن تربى ابنها على التقاليد الإنجليزية فى قصرهم الذى ورثوه، إلا أن والدها الأمريكى كان يرى أن "الجندى البريطانى، هو عدو الولايات المتحدة القديم"، وعندما بدأت أحداث الحرب العالمية الثانية؛ أحست سوزان بالخوف من أن يقتل ابنها الوحيد مثل أبيه وخاله، وأخذت تتساءل فى ذهول: هل هكذا أصبح حال إنجلترا اليوم؟

فكرت مليًا فى هذه السنوات التى خلت مظلمة ومرعبة،

عندما يتحايل القادة على شعب إنجلترا ليصدق

أن هذا الخوف وتلك الأكاذيب هما ثمن السلام،

تلك الأكاذيب التى تفسد والخوف الذى يغرى ويخدع.

ثم تستطرد فى التفكير لتعود إلى الملكة إليزابيث الأولى وكرومويل: "وفى تجهم الشعب الإنجليزى عند الوقوف أمامهم مطالبهم بالحقوق"؛ وفهمت أن عملية بحث الأمريكيين عن الحرية كانت تعود جذورها إلى الفكر الإنجليزى.

أنا أمريكيه الموطن،

رأيت هنا الكثير من الكراهية والكثير من السماحة؛

ولكن فى عالم تختفى فيه إنجلترا وتتلاشى

فلن تكون لى رغبة فى الحياة.

أسهم أمريكيون آخرون فى نقل الرسالة إلى غيرهم. كان كوينتن راينولدز أشهر صحفى أمريكى فى تاريخ الصحافة المطبوعة داخل بريطانيا، لكنه كان عليه العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد وقت قصير من بدء تفجيرات لندن فى سبتمبر ١٩٤٠، حيث طلبت وحدة كراون لإنتاج الأفلام التابعة لوزارة الإعلام منه تصوير فيلم عن الحرب الخاطفة أثناء فترة خدمته العسكرية، فقام همفرى جينينجز وهارى وات والمحرر الصحفى ستيوارات ماكليستر بإنتاج وإخراج فيلم "تستطيع لندن أن تكسبها" - (London Can Take it) وهو فيلم قصير تدور أحداثه فى مدة عشرة أيام تحكى وبشكل مركز عن حكمة الشعب البريطانى وسط الخراب والدمار، حيث كتب كوينتن راينولدز سيناريو الفيلم قائلاً: "بصفتى صحفيًا محايداً... يمكننى أن أؤكد أنه ليس هناك ذعر أو خوف أو يأس بالنسبة لسكان لندن.... يمكن للقنابل فقط أن تدمر المبانى وتقتل المواطنين إلا أنها لن تقتل الروح التى لا تقهر وشجاعة سكان لندن الكبيرة... ومن هنا تستطيع لندن الفوز بها"، وقام كوينتن راينولدز بعرض الفيلم أمام الرئيس روزفلت.

وإذا كان الممثلون الأمريكيون قد اجتذبوا الشعب البريطانى إلى استماع أعمالهم الإذاعية مثل: "مرحبًا بأفراد العصابة!" - (HI Gang)؛ فإن هيئة الإذاعة البريطانية قد دشنت فى مقرها خدمة موجهة إلى أمريكا الشمالية فى يوليو ١٩٤٠، وكان طاقم العمل فيها من الكنديين.

كان البرنامج الإذاعى المسمى راديو نيوزيل الذى يذاع لمدة نصف ساعة؛ يمزج بين الحقائق وتقارير شهود العيان والمحادثات القصيرة التى تجرى مع أفراد القوات المسلحة والخدمات المدنية، وكان الوصف الحى الذى قدمه تشارلز جارنر عن الهجوم الجوى الألمانى على قافلة سفن بريطانية أثناء عبورها مضيق دوفر فى ١٤ يوليو عام ١٩٤٠،

والذى أوجد حالة كبيرة من الحزن فى إنجلترا؛ لأنه كان أشبه بتعليق على مباراة رياضية لرجال ينتظرهم الموت، ولقى إعجاباً فى أمريكا الشمالية؛ لأن أسلوبه العفوى جعل الجميع يشعرون بخطر محدق. فيما بين عامى ١٩٤٠ و١٩٤١، كان المراسلون لا يزالون يدعون "مراقبى هيئة الإذاعة البريطانية"، وبحلول عام ١٩٤٤ ترسخت العلاقة بينهم، وفى اليوم الأول من غزو نورماندى الموافق ٦ يونيو ١٩٤٤، تم بث برنامج "تقرير الحرب" – (War Report) للمرة الأولى على الهواء وتحولت المقطوعات الرائعة التى كانت تبثها وحدة تقارير الحرب بهيئة الإذاعة البريطانية لتصبح العرض المعتاد.

بدأت الحرب الخاطفة فى شهر سبتمبر ١٩٤٠، حيث كانت هيئة الإذاعة البريطانية تستقى المزيد من أنبائها من مصادر غير بريطانية وتبث برامجها بسبع عشرة لغة أوروبية مختلفة، وكان السير ستيفن تالنتس هو المشرف على قسم (البث الخارجى) وكان جون سولت هو المخرج بالقسم الأوروبى. قدم سولت من جهاز المخابرات البريطانية فى الخارج، حيث كان من بين زملائه إيميلى ديلافينى (والد كاتبة السير الذاتية كلير تومالين) الذى كتب دراسة ثاقبة حول الكيفية التى حطت بها الدعاية الألمانية من الروح المعنوية للفرنسيين فى النصف الأول من عام ١٩٤٠، وكان من بين زملاء سولت أيضاً الشاعر والمترجم جوناثان جريفن الذى كتب فى "التقرير الشهرى للمخابرات: أوروبا" داعياً إلى القيام بحملة "لقيادة الناس إلى ثورة ضد النازية"؛ مستخدماً فى ذلك "الحقائق العينية والشعارات والرموز والإشارات والشهداء"، وكان لأفكار هؤلاء تأثير قوى على فيكتور دى لايفلاى، منظم البرامج فى القسم البلجيكى بهيئة الإذاعة البريطانية، الذى ظهر للمرة الأولى على الهواء مباشرة فى ٢٨ سبتمبر، وفى ١٤ يناير ١٩٤١. اقترح دى لايفلاى الحرف (v) ليكون رمزاً لتوحيد مستمعيه ضد النازية، لقد كان للحرف (v) جاذبية عالمية؛ لأنه كان الحرف الأول من الكلمة الإنجليزية (victory) التى تعنى "النصر" والحرف الأول من كلمة (Victoire) الفرنسية التى تعنى النصر أيضاً، والحرف الأول من كلمة (Vrijheid) الفلمنكية التى تعنى الحرية.. وفى غضون أسابيع، ظهر حروف (v) وهو مرسوم بالطباشير فوق الجدران فى بلجيكا وهولندا وشمال فرنسا، لكن ديلافينى كان يريد المزيد.

وفى ٢٢ مارس، كرست خدمة البث المباشر بالقسم الفرنسى نسخة خاصة من برنامجها (les Frangais pailent aux Frangais) حول الرمز (v)، وقام العاملون بالقسم الهولندى بعمل الشيء نفسه فى ٩ أبريل، وكتب مساعد محرر الأخبار فى هيئة الإذاعة البريطانية دوجلاس ريتشى فى ٤ مايو فى إحدى الصحف تحت عنوان: "الإذاعة: سلاح جديد للحرب" الذى أكد بصراحة شديدة أنه "إذا أعطت الحكومة البريطانية الأمر؛ فإن هيئة الإذاعة البريطانية ستكون قادرة على إحداث الشغب والدمار فى كل مدن أوروبا"، وفى ٢٦ مايو، ترأس ريتشى أول اجتماع للجنة (v)، حيث لم يكن يعرف شيئًا عن عمل الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة، لكنه كان مشغولاً بفكرة جيدة يدعمها رئيسه فى العمل نويل نيوسوم وهو زميل سابق كان يعمل معه فى صحيفة ديلى تلجراف، وأصبح الآن محرر الأخبار بالقسم الأوروبى بهيئة الإذاعة البريطانية، قامت دول أخرى برفع الشعار (v)؛ حيث كان يرمز إلى (النصر) فى اللغات التشيكية والنرويجية ويرمز إلى (البطولة) فى اللغة الصربية، حتى فى البلاد النائية مثل بوليفيا التى تدرب جيشها المكون من الهنود الحمر فى جبال الأنديز على يد الألمان، فإنهم قضوا الليل وهم يضعون شعار الحرف (v) بكل شجاعة على العمارات فى العاصمة لاباز التى يساند سكانها نظام الحكم النازى.

ظهر لـ "الكولونيل بريتون" فى ٦ يونيو ١٩٤١؛ أول عمل إذاعى له على شبكة الإذاعة الإنجليزية لندن تنادى أوروبا، كان اسم الكولونيل فى الواقع هو ريتشى، وكان يتحدث بنبرة هادئة وتآمرية توحى بشخص محرض مهذب يشجع على إحداث حالة من الثوران فى القارة الأوروبية المحتلة. كان هذا الشخص مرهف الحس (والذى كان يتلقى كمية كبيرة من رسائل المعجبين) يجيد التحدث بالفرنسية بلكنة بولندية إضافة إلى اللغات الألمانية والهولندية والبولندية والتشيكية والنرويجية، كما قال العقيد بريتون: إن هناك طرقًا بسيطة تحصى ولا تعد لجعل الأمور أكثر صعوبة أمام الألمان، حيث يمكن البصق فى مشروب الجعة الذى يحتسونه أو أن تضع الرمال فى صناديق التروس الخاصة بهم، يمكنك أن تقوم أيضًا بوضع الملصقات على القطارات أو من خلال لتباطؤ فى العمل فى مصانعهم.

طبقًا لما ورد فى أحد التقارير، فى الاجتماع الثالث للجنة (v) فى يونيو ١٩٤١، أشار أديب أكسفورد ودارس الأدب الإغريقى والرومانى المبدع توم ستيفنز إلى أن حرف (V) فى شفرة مورس كان عبارة عن ثلاث نقاط وشرطة. وعندما أخذ يطرق على الطاولة، استوحى جوناثان جريفن إيقاع افتتاح السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وأيًا كانت الفكرة، فإن شفرة مورس والموسيقى قد تمت إذاعتهما معًا للمرة الأولى فى ٢٧ يونيو ١٩٤١، واعتبارًا من اليوم التالى فصاعدًا، فإن الألحان الأربعة نفسها تم عزفها على طبول إفريقية بواسطة شخص يدعى جيمس بليدز فى استوديو يقع بالطابق الأرضى بمبنى هيئة الإذاعة البريطانية بوش هاوس، وأصبح لحنًا معروفًا لمحطة لهيئة الإذاعة البريطانية فى أوروبا، ليوقظ نبض المقاومة، وعندئذ طرق الحلفاء أبواب ألمانيا.

أعطى رئيس الوزراء أوامره لتقوم هيئة الإذاعة البريطانية بحملة تستخدم فيها حرف (v) ليرمز لكلمة (Victory) التى تعنى النصر والتى يشار إليها بإصبعين، ويجب التوضيح إلى أنها كانت تعنى الكثير بالنسبة إلى تشرشل الذى كان ينتمى إلى الطبقة الارستقراطية وكان يتحاشى انتشار الإيماءات السوقية بين معظم أفراد الشعب البريطانى(١).

فى ١٩ يوليو ١٩٤١، بث تشرشل رسالة إذاعية إلى أوروبا جاء فيها: "يعتبر الحرف (V) هو رمز للقوة التى لا تقهر لشعوب الأراضى المحتلة وهو نذير شؤم يترقب النازيين الطغاة"؛ فاستجاب جوبلز لذلك بالإشارة بهذا الشعار على وجه السرعة.

وظهرت ادعاءات تقول إن الحرف (V) يرمز للكلمة الألمانية (Viktoria)، كما بدأت محطات الإذاعة الألمانية فى عزف سيمفونية بيتهوفن الخامسة (الكلمة الألمانية التى

---

(١) ثمة أسطورة بريطانية تخبرنا بأن هذه الإشارة المهينة استخدمت للمرة الأولى من قبل الرماة الذين كانوا يستخدمون الأقواس والسهام، وكان ذلك فى معركة أجينكورت عام ١٤١٥ وقت أن كان البريطانيون يحاربون الجنود الفرنسيين؛ حيث وجهت تهديدات إلى الفرنسيين بقطع أوتار أصابعهم، إلا أنه ليس هناك دليل فى وثائق العصور الوسطى على حدوث ذلك، وقتل الرماة بدلاً من أن يمثل بهم، وقد اقتبست هذه القصة الدعائية أول الأمر من رواية كونان دويل "الرفاق البيض" – (The White Company) التى ذاع صيتها فى عهد السيدة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء.

تشير إلى "النصر" هى كلمة (Sieg) والتى جاءت منها التحية الألمانية (!Sieg heil)، وقام الألمان بتعليق حرف (V) ضخم من فوق برج إيفل، وفى هولندا المحتلة، قامت محطة هيلفرسوم الإذاعية التى يشرف الألمان عليها ببث الحرف (V) من خلال شفرة مورس، كما ارتدت الجماعات المؤيدة لبريطانيا فى شوارع هولندا قمصانا بيضاء مرسوم عليها حرف (V)، وارتدت الجماعات المؤيدة لألمانيا قمصانًا برتقالية عليها الحرف نفسه، وعبر العديد من الناس عن ولائهم برسم الحرف نفسه على الحائط باستخدام الطباشير مضيفين إليه حروفًا مثل (RAF) التى ترمز لسلاح الجو الملكى البريطانى، أو بإضافة (H7) إليه دلالة على اسم جلالة ملك النرويج هاكون السابع.

بدأ التيار يتصاعد ضد حملة (V) بعد أن حل بريندان براكين محل دوف كوبر فى منصب وزير الإعلام فى شهر يوليو عام ١٩٤١، كانت هناك مخاوف من أن تتحول حملة هيئة الإذاعة البريطانية إلى حملة ضارة أكثر منها نافعة، حيث كره "محترفو" الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية، الذى تم تأسيسه للمرة الأولى فى شهر أغسطس، حملة (V) "التى يقوم عليها هواة"، وعلى الرغم من أن الحملة لاقت قبولاً شعبيًا، فإنها لم تكن متوافقة مع الأهداف السياسية والعسكرية الحقيقية، كما أن تلك الحملة ما هى إلا كلام ولا تستطيع أن تجلب مقاومة حقيقية على المستوى المحلى مثلما بدأ يفعل الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة، واجتمع أعضاء لجنة (V) لآخر مرة فى شهر أكتوبر وتوقفت حملة (V) الباسلة نهائيًا عام ١٩٤٢؛ لكن يجب النظر إلى هذه الحملة على أنها نصر أسطورى أحيا القلوب وبعث الأمل فى نفوس الشعوب المحتلة، كما أطلقت مجلة تايم الأمريكية على تلك الحملة "الدواء الأول لحالة اللا مبالاة فى أوروبا"، وقد أخبر العقيد بريتون مستمعيه الكثيرين "بأن حرف (V) هو الإشارة الخاصة، بهم وأن الليل سيساعدهم فى تحقيق أهدافهم". كان لحملة (V) جيش قوى الدلالة مختفٍ عن الأنظار، "إنه جيش غريب يتشرف أى أحد بالانتماء إليه، إنه الجيش الذى يخشاه الألمان".

بدأت خدمة الاستخبارات السرية فى استخدام أجهزة لا سلكية بفاعلية عام ١٩٣٨، عندما قام الأدميرال السير سنكلير بتعيين ريتشارد جامبر بارى ليقوم بتنظيم شبكة اتصالات لا سلكية سرية ثنائية الاتجاه بعيداً عن النظام الموجود بوزارة الخارجية، (وفى النهاية تم ربط الاثنين عن طريق خدمة اللا سلكى الدبلوماسية فى عام ١٩٤٦).

كان جامبر بارى أحد موظفى العلاقات العامة بهيئة الإذاعة البريطانية ومديراً عاماً للمبيعات بشركة فيلكو الأمريكية لتصنيع أجهزة المذياع داخل المملكة المتحدة. جلب جامبر أفضل الفنيين الذين عملوا بالاتصالات اللا سلكية القديمة، وفى البحرية الملكية وذلك لتأسيس وحدات اتصال خاصة للتعامل مع حركة المرور من وإلى السفارات والموظفين بالخارج إضافة إلى نقل المعلومات من المدرسة الحكومية للكود والشفرة فى بلتشلى بارك إلى أفراد القوات الخاصة العسكرية.. وفى النهاية، تولت الفرقة الثامنة من وحدة جامبر بارى فى عام ١٩٤٠ مهام الأمن بالإذاعة، حيث كانوا يتميزون عن الفيالق الملكية إضافة إلى خفة التحرك التى كانوا يتمتعون بها عبر استخدام مجموعات من سيارات باكارد وسيارات إسعاف المحولة لتستعمل فى هذا الغرض.

قامت فرقة جامبر أثناء الحرب، بتركيب وتشغيل محطات إذاعية سرية تعمل بالموجات القصيرة للمرة الأولى فى بريطانيا، وبشكل عام، كانت هناك ثمانية وأربعين من هذه المحطات السرية وكانت تذيع برامجها بأربع عشرة لغة أجنبية، وكان يشار إلى محطات البث رسمياً باسم "وحدات البحث"، كما كان يشار إليها أحياناً بـ "محطات الحرية"، وكان يرمز لأولى هذه المحطات "جى ١"؛ حيث بدأ بثها على الهواء فى مايو ١٩٤٠ قبل أن تبدأ القوات البريطانية بالجلاء من ميناء دونكيرك، كانت "جى ١" عبارة عن محاولة يائسة للرد على المحطات السرية التى كان يديرها جوبلز فى منطقة "بورو كونكورديا" فى برلين، وشملت هذه التجهيزات الألمانية محطة الإذاعة البريطانية الجديدة التى بدأت بالتحدث بحماسة فى فبراير عام ١٩٤٠، وتبعتها فى يونيو ويوليو محطات ألمانية بديلة أخرى وإذاعة كالاندونيا وحركة السلام المسيحى وإذاعة ويلز الوطنية.

كان الإذاعى الألمانى الذى يقوم بالإشراف على المحطة البريطانية السرية "إذاعة الحرية" التى كانت تبث برامجها على الهواء فى الفترة بين ٢٦ مايو ١٩٤٠ و ١٥ مارس ١٩٤١؛ هو الدكتور كارل سبيكير الذى كان له تاريخ طويل مع الإذاعات التى كانت لها أهداف تخريبية، وكان يدير محطة سرية للإرسال البحرى تبث من ضواحى العاصمة الفرنسية باريس، وقام ببث مناشدة إلى ألمانيا النازية نيابة عن حزب الحرية الديمقراطى الاجتماعى المعادى للنازية، كان يجرى تسجيل برامج سبيكير، فى ويفندون الذى يعد واحداً من بين العديد من البيوت الريفية الضخمة على حدود باكينجهام شاير وبدفورد شاير إذ قامت الوكالات الحكومية بالاستيلاء عليهما، انحصر كل ذلك فى نطاق دائرة يبلغ نصف قطرها عشرة أميال تبدأ من منتزه بلتشلى بارك؛ حيث كانت توجد المدرسة الحكومية للكود والشفرة. انتقلت مؤسسة كامبل ستيوارت للدعاية الموجهة للأعداء إلى اسطبلات الخيول فى منطقة وبرين إيبى، وبعد وفاة دوق بيدفورد عام ١٩٤٠ استولت على مقر الحكم بشكل كامل، وكانت الأراضى الضخمة وحديقة الحيوانات وجالونات المشروبات رخيصة الثمن متاحة لطاقم العمل المعزولين ما أضاف ما سماه ديفيد جارنت "أكثر من مجرد إحساس بالجنون" بالجو المحيط.

كان البريطانيون هم من أداروا "وحدة البحث" الثانية الناطقة بالألمانية أو المحطة السرية، بينما كانت المحطة التى يرمز لها بالرمز جى ٢ (إذاعة الثورة الأوروبية) تتبع فكرًا يساريًا خلال الفترة بين نوفمبر ١٩٤٠ ويونيو ١٩٤٢، وتلتها محطات سرية ناطقة باللغات الرومانية والفرنسية والإيطالية والنرويجية والتشيكية، وكان طاقم العاملين فى المحطة "جى ٢" يتكون من العلماء الألمان الذين تم نفيهم والمؤيدين للسياسة الماركسية. انتهج هؤلاء خطًا اجتماعيًا ثوريًا؛ يجب على العمال بث روح التمرد على نظام الحكم النازى فى المجتمع الأوروبى.

قام بإدارة المحطة جى ٢ الاشتراكى الذكى ريتشارد كروسمان، والذى كان، رغم عبقريته وما يتمتع به من جاذبية، متمرداً ومنشقًا (وكان قد تزوج ثلاث مرات)، حتى إن زميله الذى تولى منصب وزير الحرب الاقتصادية، هيو دالتون، وهو أول من

عين كروسمان فى أعمال الدعاية، كان يخشى من ضعف كفاءته فى القتال. اعتقد سيفتون ديلمر أن إذاعة الثورة الأوروبية كانت إذاعة سطحية؛ لأن كروسمان لم يتدرب على أعمال المراقبة السياسية ومراقبة المقالات، وبسبب أسلوبه الحكيم لم يشتبك ديلمر أبدًا مع كروسمان، ومع ذلك حافظ كل منهما على مناطق نفوذه. وترقى كروسمان فى النهاية حتى تولى منصب مدير الحرب السياسية ضد العدو والدول الموالية له، فى حين أصبح ديلمر قائدًا للعمليات الخاصة ضد العدو والدول الموالية له، واستخدم كروسمان أسلوب "الدعاية البيضاء"، بينما استخدم ديلمر "الدعاية السوداء".

عندما أسس ديلمر المحطة السرية الحادية عشرة فى أبريل ١٩٤١، كان هو أول من سماها فى بادئ الأمر "وحدات البحث" و"المحطات السوداء". يتمثل أبسط فرق بين "الدعاية البيضاء" و"الدعاية السوداء" فى أصل كل منهما وليس مجرد المحتوى، كان شعار هيئة الإذاعة البريطانية "أبيض اللون" ومميزًا بالنسبة إلى الجميع، كما كانت دعايتها معروفة بـ "الإذاعة البريطانية"، وتقوم استراتيجية الدعاية "البيضاء" على أساس الإخبار بالحقيقة طوال الوقت، وإذا كنت صريحًا فى بث التقارير السليمة حول الهزائم التى تلحق بجيشك، فإن مستمعيك سيميلون إلى تصديقك عند تحقيقك انتصارات. ومن ناحية أخرى، فإننا نقصد بالدعاية الإذاعية "السوداء" بث الشائعات والخداع على المدى الزمنى القصير، فإذا كنت تستمع إلى محطة تسمى نفسها على سبيل المثال إذاعة جوستاف سيجفريد إينز وتقوم بإذاعة برامجها باللغة الألمانية، وموجهة من داخل الأراضى الألمانية ولم تكن متأكدًا من مصدرها أو جدول أعمالها أو الأشخاص الذين يقفون وراءها؛ فإنك تستمع إلى محطة إذاعية تقوم بـ "دعاية سوداء" يقف وراءها البريطانيون.

لا يكمن التفريق بين الدعاية "البيضاء" والدعاية "السوداء" من حيث الصدق والكذب، ففى إحدى محطات الدعاية "السوداء" التى كان ديلمر مسئولاً عنها وكانت تسمى "كريست ذا كنج"، أخبر نيافة القس الأب أندرياس وهو من طائفة الروم الكاثوليك فى النمسا المستمعين الألمان بما يفعله النازيون فى اليهود والشعوب السلافية (شعوب شرق أوروبا) فى معسكرات الإبادة مثل معسكر أوشفيتز، كان الأمر حقيقيًا وصادقًا،

لكنه كان يندرج تحت إطار "الدعاية السوداء"، حيث لا يعرف أحد بالضبط الوجهة التى ينتمى إليها هؤلاء المذيعون، ولإعطاء إذاعة "كريست ذا كنج" المزيد من القوة والمصداقية، طلب ديلمر من الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة القيام بنشر شائعات فى أوروبا عبر "محطة إذاعية سوداء" تابعة للفاتيكان.

فى ظل قيادة ديلمر، تغير فحوى الدعاية، حيث بدأت عمليات بث "الدعاية السوداء" تتشعب بشكل كبير بخلاف "الدعاية البيضاء"؛ فقد منح التمويه السرى لـ "الدعاية السوداء" الحق فى الخداع وهو ما لم يكن متاحًا لـ "وسائل الدعاية البيضاء"، ويقول ديلمر: يمكن أن يكون الخداع أمرًا بسيطًا أو رسالة مثيرة للارتباك، مثل البصق فى حساء أحد أفراد القوات الألمانية قبل أن تصيح بعبارة "يعيش هتلر!"، وعلى الرغم من أنها موجهة لهدف واحد وهو هزيمة العدو، فإن الدعاية " البيضاء" أصبحت اليد اليمنى التى تمتد كى تدعم حكومة جلالة الملك والاعتراف بها أمام العامة، وكانت "الدعاية السوداء" فى أقصى اليسار تقوم بالخداع مهما تكبدت فى ذلك من مشقة.

أما جى ٣، فقد بدأت البث الإذاعى الخاص بها فى ٢٣ مايو ١٩٤١، وكانت أول محطة دعاية "سوداء" وبمثابة طفل ديلمر المدلل، كما كانت محطة جوستاف سيجفريد إينز أو جى إس ١ محطة يمينية أعطيت لها حرية استخدام نمط من اللغة الرديئة التى تجتذب طبقة العمال الألمان المعدومين، كانت محطة جوستاف سيجفريد إينز تختلف عن المحطات الإذاعية السرية الأخرى؛ حيث كان يتظاهر العاملون بها أنهم خاضعون بشكل تام لنفوذ الزعيم الألمانى هتلر، كما كانت تهدف إلى "بث شائعات مدمرة تحت غطاء من أفكار القومية والوطنية". ساند ليونارد إنجرامز مستشار ديلمر فكرة "دعاية العمليات" أو ما يعرف بدفع الناس إلى فعل شىء معين، وفى مذكرات إنجرامز التى كتبها بعد خمسة عشر يومًا من بداية إرسال المحطة السرية الإذاعية يقول ديلمر: "إننا نريد أن ننشر الأنباء التى تؤدى إلى حدوث خلل وتمزق فى صفوف القوات الألمانية والتى تفقدهم الثقة فى حكومتهم وتدعوهم لعدم الإذعان لها"، وأضاف: "إننا لا نسعى

لبناء نفوذ سياسي داخل ألمانيا، ولا نحاول اجتذاب الأشخاص المثاليين داخلها، فسياستنا معقدة للغاية...".

بدأت إذاعة جوستاف سيجفريد إينز إرسالها على الهواء مباشرة يوم احتفال ديلمر بعيد ميلاده السابع والثلاثين، وقبل أسبوعين، كانت هناك حلقة غريبة من الأحداث العجيبة عندما تم القبض على نائب القائد الألماني وذراعه الأيمن صاحب الحاجبين الكثيفين، رودولف هس وذلك بعد توجهه عبر مظلة نحو اسكتلندا لمحاولته القيام بمفاوضات سلام مع دوق مدينة هاميلتون، وبالطبع استحوذ هذا الموضوع على البث مدة الدقائق السبع الأولى من نشرة الأنباء التى تبثها محطة جوستاف سيجفريد، لكن در شيف، الشخصية المعروفة والمذيع فى تلك المحطة، (وهو الاسم المستعار لهتلر فى جولة الانتخابات التى كان يغطيها ديلمر) نفى تلك الشائعة التى تفيد بأن هتلر كان له دور فى مهمة هس داخل إنجلترا، ومن ثم عملت المحطة سرًا على انتشار هذا الخبر، تمت إذاعة ما يقرب من ٧٠٠ فترة بث قبل أن تغلق المحطة أبوابها بشكل مثير للإعجاب إثر القصف الذى أوقف إرسالها فى ١٨ نوفمبر عام ١٩٤٣، وكانت هناك فكرة تهدف إلى جعل الناس يعتقدون أن البوليس السرى النازى قام فى نهاية المطاف بإغلاق إذاعة در شيف، وبالطبع، كانت تلك إحدى طرق الخداع التى يقوم بها البريطانيون تحت مسمى "الدعاية السوداء". وإذا كانت الدعاية "السوداء" بمثابة بث "يتذرع بالحجج"، فإنه على المتحدث أن يكون مقنعًا للجميع، كانت إذاعة در شيف تمتلك كل هذه الشروط؛ فعلى المتحدث أن يبدى أنه مواطن ألمانى يمينى التوجه يتصف بالوطنية، قد يكون فى بعض الأحيان متشددًا لكن عليه أن يبدو كأحد ملاك الأراضى فى بروسيا ويثور فى وجه الفساد والانحراف، ذلك الرجل ذو الشأن العظيم الذى ينتمى إلى النازية وسبق له أن تدرج فى المناصب والذى استفاد داخل دولته من تضحيات القوات المسلحة الألمانية بالخارج، كان أسلوب إذاعة در شيف كأسلوب جندى يتميز بالشدة لتأنيب وتوبيخ أعدائه، فبعد أن ألقى رئيس الوزراء البريطانى أول حديث له؛ وصف بأنه "وغد يهودى سكير طاعن فى السن ذو قدمين مفلطحتين"؛ ما يعطى انطباعًا أن المتحدث ألمانى.

عملت الدعاية الإذاعية "السوداء" بحذر؛ إذ إنها كانت تعمل على ما يبدو دون ترخيص. فمثلاً التقط أحد العاملين بالإذاعة الألمانية - والذى من المحتمل أن يكون عسكريًا لأن الجنود كانت لديهم أجهزة استقبال للموجات القصيرة - صوتًا ألمانيًا يتحدث بلغة غير فظة كالتى يتم التخاطب بها فى الثكنات العسكرية، وذلك عندما كان يتجول فى قنوات الاتصال. تعلم ديلمر من استماعه إلى حديث قباطنة السفن الحقيقية مع بعضهم بعض، حيث يقول: إنه كان يشعر من خلال تجربة الدعاية الإذاعية "السوداء" أنها تشبه "التنصت على الأجهزة اللا سلكية لإحدى المنظمات السرية"، فإذا نفذ بعض ما ذكرته إذاعة در شيف إلى أذهان أحد المستمعين أو وجد المستمع أن الأخبار البذيئة كانت مضحكة؛ فإنه سيخبر زملاءه بها. وبهذه الطريقة، انتشرت إذاعة جوستاف سيجفريد إينز ببطء.

استنبط سيفتون ديلمر تعبير در شيف من التحية العسكرية الألمانية القوية التى تعلمها فى برلين قبل الحرب، كما كان قادرًا على أن يكتب سيناريوهات خاصة بها؛ لأنه كان مقلدًا ممتازًا ومتمكنًا من اللغة، وكى تجذب انتباه من يجلس أمام المذياع، فإنك تحتاج إلى صوت مناسب. وجد ديلمر ضالته المنشودة فى بيتر سكيلمان وهو صحفى سابق وكاتب قصص بوليسية فى برلين كان يعيش فى بريطانيا منذ عام ١٩٣٧، وتطوع للعمل بالجيش البريطانى وأنهى حياته العسكرية بوصفه "عريف" فى وحدة تفكيك المتفجرات، وبعد أن تم التأكد من شخصيته من قبل الاستخبارات العسكرية القسم الخامس، جاء سكيلمان ليعيش مع ديلمر وزوجته فى منزلهما بقرية أسبلى جويز قرب بلتشلى، كما عثر ديلمر أيضًا على صحفى ألمانى يدعى جوناس راينولدز، ليقوم بدور مساعد سكيلمان المتغطرس الذى كان يختال فى مشيته.

يعتبر الجنس دائمًا وسيلة جيدة لجذب الانتباه؛ لذا عملت الصحف الصفراء على تزيين الرذيلة؛ بينما كانت الإذاعة تقوم بنشر تفاصيلها الدقيقة لجذب انتباه المستمعين، وكانت هناك مواد إذاعية مثيرة فى أعمال المتخصص فى علم الجنس والمدافع عن حقوق الشواذ الدكتور الألمانى ماغنوس هيرشفيلد "الذى كانت له سمعة واسعة فى الجنس"،

لكن الصور الإباحية التى ذكرتها إذاعة در شيف فى الحوارات بشأن النخبة الفاسدة سببت بعض المشكلات بالنسبة لديلمر. كان المذيعون "الثوريون" الذين يتبعون كروسمان؛ غيورين من نجاح ديلمر الذى ذاع صيته عند ترجمة أحد أحاديث در شيف الذى كان يدور حول أحد ضباط البحرية الألمان أثناء فترة القصف، عندما وصل السيناريو إلى المحامى المتزمت واليسارى المتطرف السير ستافورد كريبس، أرسل رسالة خطية إلى وزير الخارجية أنتونى إيدن فى ١٢ يونيو ١٩٤٢؛ يبدى فيها احتجاجه الشديد عن هذا الفحش الذى سمح بانتشاره خارج البلاد. وطبقًا لما قاله ديلمر، وكريبس لإيدن فى اجتماع منفرد بينهما: "إذا كان هذا نوع من المساعدة التى نحتاجها للانتصار فى المعركة، فإنه من الأفضل لنا أن نخسرها!".

اضطر روبرت بروس لوكهارت القائد العام للجهاز المسئول عن المنازعات السياسية الذى تولى منصبه فى شهر مارس عام ١٩٤٢، إلى أن يدافع عن ديلمر ويعمل على استرضاء كريبس عندما كانا يتناولان الغداء معًا، حيث شرح لماذا كان ذلك الأدميرال الألمانى المنحط أخلاقيًا مستهدفًا؛ لقد كانت العمليات الفاشلة التى قام بها ذلك الرجل لتأمين موارد قوارب اليو سببًا فى جعله شخصية ممقوتة، ومن ثم أسهم نشر مزيد من الاستياء ضد الأدميرال فى غرس بذور الخلاف فى صفوف جنود الغواصات فى جيش العدو، وهنا كتب ديلمر: "نحن بالطبع لا نحاول أن نكسب الألمان إلى صفوفنا بهذه الطريقة؛ إننا نحاول أن نجعل الألمان ينقسمون على أنفسهم لإضعاف آلة الحرب التى لديهم"، كما برر ديلمر لغة المبالغة والمجاز التى كانت تستخدم فى در شيف بإحكام عبر تحويل الجدال إلى إدعائه بتميز البريطانيين أخلاقيًا: "فالسادية الموجودة فى طبيعة الشعب الألمانى دخيلة على طبيعة الشعب البريطانى حيث لم يعتاد الشعب عليها، لكن المستمعين الألمان بعيدون كل البعد من أن تثيرهم نعرة بعض المذيعين السادية".

وسرعان ما أدرك ديلمر ومجموعته الصغيرة فى إذاعة جوستاف سيجفريد إينز أن هذا الاختراع له تأثير كبير، فالشائعات والخداع كانا أفضل ركيزة للاستخبارات البارعة، وذات مرة أسر تشرشل إلى ستالين قائلاً: "فى أوقات الحرب، تكون الحقيقة

ذات قيمة كبيرة، لكن يجب أن يصاحبها سياج من الأكاذيب"، ولكن سيفتون ديلمر ودودلى كليرك أدركا أن قيامهما بالخداع قد قلب هذا المبدأ رأسًا على عقب، فالخديعة الكبرى كانت هى الموضوع القيم وكانت تحتاج إلى سياج من الحقيقة. عندما وضع ماكس براون فى فترة سابقة رهن الإقامة الجبرية باعتبار أنه "حليف للأعداء" فى جزيرة مان، انضم إلى الفريق وبدأ بفهرسة كمية ضخمة من البطاقات للدخول إلى التفاصيل الشخصية لجميع موظفى الحزب النازى والشخصيات الألمانية المرموقة والتفتيش بدقة فى الصحف المحلية الألمانية عن حوادث واقعية لدعم البريطانيين فى التغلب على نزواتهم وسوء الحظ الذى يلازمهم، فقام ديلمر بقلب خبر نشر فى الصفحة الأولى بإحدى الجرائد حول تجاحات الألمان فى خدمات نقل الدم، عن طريق إشاعته أنه ينبغى فحص أولئك المتبرعين للتأكد من خلوهم من الأمراض التناسلية وإذا كان ذلك الفحص لم يتم، فإن هنا احتمالية بانتشار مرض الزهرى بين الجرحى من الجنود الألمان.

جمع ديلمر معلومات من مصادر عديدة، بما فى ذلك برقيات وزارة الخارجية وتقارير خدمة لاستخبارات السرية، وكانت هناك مخطوطات من المحادثات التى تم التنصت عليها والتى دارت بين أسرى الحرب الألمان الذين تم إحضارهم من الخدمات المشتركة لمركز الاستجواب التفصيلى، وتم تغيير هذه الحوارات بكلمات عامية، وطرف وشائعات وقصص تسلط الضوء يوميًا على المخاوف الألمانية، ومن خلال مكاتب ليونارد إنجرامز، استطاع ديلمر الحصول على أحراز من الرسائل الشخصية التى أرسلها بعض الأشخاص من ألمانيا إلى عائلاتهم وأصدقائهم فى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، كما اعترضت رسائل البريد جهة رقابية فى ليفربول وتم فتح الرسائل بواسطة البخار ثم نسخها قبل إرسالها، وأمكن استخدام تفاصيل المراسلين بعد تعديلها وإضافة ملاحظات واضحة عليها لتبث على الهواء لتوضح تباين قوة الألمان أثناء فترات الحرب، وذلك حتى يدرك المستمعون الألمان قيام الأثرياء بالتوجه إلى المناطق البعيدة عن مناطق القصف.

وجد ديلمر أنه من السهل فتنة الناس لتحويل انتباههم عن أشياء معينة، وفى محاضرة عن الحرب النفسية ألقاها السير هيو جرين أمام كلية دفاع حلف شمال الأطلسى فى باريس، وقبل وقت قليل من توليه منصب مدير عام هيئة الإذاعة البريطانية كما أشاد جرين بالأعمال التى قام بها ديلمر قائلاً:

يبدو أن الدعاية "السوداء" لها جاذبية لا تقاوم لمن يتولون مقاليد الأمور وأن مجرد ذكر كلمة "السوداء"؛ سوف يفتح المجال فى بعض الأحيان أمام المصادر التى يمكن الحصول منها على معلومات قيمة التى قد تكون مستترة بشكل أو بآخر، لقد بدا الأمر أكثر جاذبية ورومانسية مما يحدث فى الدعاية التقليدية، حيث استحوذت هذه الدعاية على قلوب الجميع بمن فيهم الصبى الصغير.

كانت الجماهير تثق فى ديلمر صاحب الأسرار؛ لأنه لم يسبق أن استخدم استخباراته "بشكل ساذج"، بل كان دائمًا يُحِيك الأكاذيب حتى لا يخون المصدر الذى استقاها منه، فكانت أول جهة تقوم بتغذية ديلمر بالمعلومات هى قسم الاستخبارات بالبحرية البريطانية، ثم تلتها استخبارات وزارة الطيران ووزارة الحربية البريطانية، عندما قام إيان فليمينج بتقديم ديلمر إلى رئيسه فى الاستخبارات البحرية الأدميرال جون جودفرى، استنتج جودفرى بشكل مباشر ما يمكن للإذاعة أن تقوم به وأنشأ وحدة إذاعية جديدة أطلق عليها (NID 17 Z) تحت إشراف دونالد ماكلشلان الصحفى السابق فى جريدة تايمز الذى كان وثيق الصلة بفليمينج.

قبيل عيد الميلاد عام ١٩٤٢، وفى حفل غداء قدمت خلاله الشامبانيا؛ تحدث ماكلشلان مع ديلمر عن معركة الأطلنطى التى حدثت منذ زمن بعيد، كان أحد أسباب هذا الاحتفال هو أن مشكلة فك الشفرة انتهت، فخلال الفترة بين شهرى فبراير ونوفمبر ١٩٤٢، لم تكن الاستخبارات الحربية البريطانية قادرة على قراءة شفرة رسالة واحدة من التى يتم إرسالها عبر قوارب اليو من قيادتها ومركز التحكم الخاص بها إلى مركز قيادة الغواصات؛ كما لم تستطع قراءة أى رد على تلك الرسائل، حيث استخدم الألمان شفرات رباعية تاركين الشفرات الثلاثية التى كانوا يستخدمونها سابقا، إلا أنه تم فك

الحل الرئيسى للشفرة فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٢، واعتباراً من ذلك الوقت أصبح بالإمكان قراءة كل الرسائل، وكان الشيء الذى أثار الدهشة هو أن الاستخبارات البحرية الألمانية لم يكن لديها أدنى فكرة عن إمكانية التنصت على الاتصالات الخاصة بهم، ولم تغادر معظم قوارب اليو الميناء وفق ما تلقته من أوامر؛ إلا أن تلك الأوامر أرسلت عبر محطة لا سلكية فى البحر واستطاع البريطانيون والأمريكيون قراءتها بشكل أفضل.

كانت قيادة العمليات البحرية حريصة على مضاعفة التأثيرات النفسية للحرب فى الجنود الألمان، لذا اقترحت أن يقوم ديلمر بإطلاق محطة إذاعية جديدة تعمل بنظام الموجة القصيرة لتوجه بثها إلى أطقم الغواصات الألمانية وتقدم نشرات الأخبار المحبطة "السوداء" على الهواء مباشرة ما أثار حفيظة ديلمر الذى فشلت محاولته السابقة لتقديم الأخبار "السوداء" من خلال المحطة التى سماها محطة إرسال فيرماختسندر نورد؛ لأن البرامج التى تبث كان يجب تسجيلها مسبقًا؛ ولهذا السبب كان يتم قطع نشرات الأخبار عند الضرورة. كان ديلمر مقتنعًا بأن لديه أفضل طريقة لإذاعة الأخبار مباشرة فى كل ليلة؛ حيث إن لديه أقوى أجهزة بث على مستوى العالم.

ولتحقيق الأفضلية فى حرب البث الإذاعى؛ وافق تشرشل فى مايو عام ١٩٤١ على شراء محطة بث إذاعى ضخمة من الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت الانتصارات التى تحققها القوات النازية فى أوروبا تعنى أن الألمان لديهم العديد من أجهزة البث التى يزيد عددها على نظيراتها فى بريطانيا، وكان بعضها يستخدم فى التشويش على محطات الإذاعة الإنجليزية، كما كانت وحدة البث الإذاعى التى تعمل بنظام الموجة المتوسطة بتردد يقدر بنحو ٥٠٠ كيلو هيرتز، والتى أطلق عليها جامبر بارى "مدرعة الأثير" وحدة ذات قوة هائلة، وهو ما يتلاءم مع البث الدولى المتواصل (أطلق على تلك المحطة اسم مستعار هو "أسبدسترا"؛ بسبب حجمها المتناهى فى الصغر وذلك على اسم أغنية: "أكبر أسبدسترا فى" للممثلة الإنجليزية المولد الإيطالية النشأة جريسى فيلدز). كانت الوحدة أسبدسترا مصنعة فى الأساس للمحطة الأمريكية دبليو جيه زد،

لكن لجنة الاتصالات الفيدرالية رفضت منحها ترخيصًا؛ حيث تجاوز ترددها الحد المسموح به لمحطات الإذاعة التجارية والمقدر بنحو ٥٠ كيلو هيرتز، واستطاع القسم الثامن من الخدمات السرية البريطانية الحصول على المناقصة قبل أن تتمكن الحكومة الصينية من الفوز بها ودفع نظير ذلك نحو ١٦٥٠٠٠ جنيه إسترليني.

كان من المفترض أن توضع المحطة أسبدسترا في بادئ الأمر في بدفورد شاير، لكن هارولد روبين كبير مهندسي القسم الثامن التابع للخدمات السرية أصر على وضعها قريبًا من أوروبا، وفي نهاية الأمر، تم وضعها قرب كروبورو في ساسكس في غابة مرتفعة تبلغ مساحتها ٦٤٠٠ فدان تسمى أشدون؛ وهي أكبر منطقة مستنقعات جنوب شرق إنجلترا، وقامت كتيبة من المهندسين الكنديين مجهزة بمعدات إنشاء الطرق بالمساعدة في حفر حفرة عمقها خمسون قدمًا، وواصل نحو ٦٠٠ رجل عملهم ليلاً ونهارًا أثناء صيف ١٩٤٢؛ لإنشاء هيكل من الخرسانة المسلحة، وأشرف روبين على تركيب مولد كهربي يعمل بالبترول تبلغ قوته ٣٠٠٠ حصان إضافة إلى برج تبريد ومكاتب، وبثت محطة أسبدسترا الإذاعية برامجها للمرة الأولى في بداية نوفمبر ١٩٤٢، كما أسهمت في عملية الإنزال بشمال إفريقيا المسماة تورش، وقسمت أرباحها بين الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية وهيئة الإذاعة البريطانية وسلاح الجو الملكي البريطاني.

كانت قدرة المحطة أسبدسترا ومداها غير عاديين، فعلى سبيل المثال، في ١٧ نوفمبر ١٩٤٣ وأثناء الغارات التي قام بها سلاح الجو الملكي البريطاني على لودفيجشافين، قام أحد خبراء الأصوات في سلاح الجو الملكي بتقليد صوت المشرف على المقاتلات الألمانية التي تحارب في أثناء الليل؛ وحذرها طالبًا منها جميعًا الهبوط بسبب مخاطر الضباب، وطبقًا لما يذكره البروفيسور آر في جونز، عندما اكتشف الألمان ذلك، عينوا مشرفات من النساء. وهنا اكتشف سلاح الجو الملكي البريطاني أصوات نسوة ألمانيات في القوات الجوية الألمانية المساعدة؛ حيث استخدم الألمان رجلاً وامرأة لإعطاء الأوامر، وعندئذ فعل البريطانيون الشيء نفسه؛ وفي النهاية كان على الألمان تكملة الأوامر الشفهية بالموسيقى؛ موسيقى الفالز في ميونخ والجاز في برلين.

أطلق ديلمر على إذاعته الجديدة التى تبث برامجها عبر الهواء اسم الموجات القصيرة الألمانية، إذاعة الأطلسى، والتى أصبحت لاحقًا تعرف باسم مألوف هو أطلنتكسندر. وانتقل فريق ديلمر لحراسة وحماية ما يقرب من خمسة أفدنة بقرية ميلتون بريان فى بكنغهامشير، واستعد لبدء الإرسال فى شهر مارس عام ١٩٤٣، كان المجتمع الذى عمل فيه ديلمر مجتمعًا غريبًا وكان بعض أفراده لا يزالون من أسرى الحرب، وكان من بين مساعدى ديلمر المقربين دارس الأدب الإغريقى والرومانى توم ستيفنز الذى اشترك معه فى حملة (V)؛ وتميز بالنبوغ وقدرته على حل الألغاز البوليسية، وكما يشير هيو جرين، فإن أفضل ممارسى الحروب النفسية كانوا فى الغالب إما صحفيين وإما أساتذة فى الجامعات.

كان ديلمر يتخيل أطلنتكسندر فى صورة برنامج مسليًا يجتذب الجماهير عن طريق الاستماع إلى فقرات مطولة من الموسيقى الراقصة. وبصفته المسئول عن تشغيل الأسطوانات، استعان بألكسندر ماس الذى سبق أن تعرف عليه فى العاصمة الألمانية برلين والتقى معه مرة أخرى فى العاصمة الإسبانية مدريد، حيث حصلا على أحدث تسجيلات الموسيقى الألمانية الراقصة تم نقلها على متن طائرة نفاثة كانت مقبلة من العاصمة السويدية ستوكهولم، كما ساعدهم المكتب الأمريكى للخدمات الاستراتيجية (مكتب الخدمات الاستراتيجية و الجهاز التنفيذى الأمريكى للعمليات الخاصة) فى الحصول على موسيقى أمريكية جديدة، وجرى إقناع مارلين ديتريش بالغناء باللغة الألمانية فى الإذاعة التى قيل لمارلين إنها صوت أمريكا الموجه إلى ألمانيا، ثم تم اعتقال فرقة أطلنتكسندر المكونة من موسيقيين ألمانيين تحت قيادة هنرى زايسل الضابط فى الجيش البريطانى الثامن وذلك عندما كانوا فى رحلتهم لتسلية فيالق روميل الألمانية التى تعمل فى إفريقيا، كما بحث ديلمر عن مساعدين آخرين فى معسكرات الاعتقال إضافة إلى معارضى نظام حكم النازى أو هاربين من الخدمة العسكرية الألمانية، وبحث بدقة عن رجال البحرية الذين كانوا على دراية بالمصطلحات الفنية الحديثة والإجراءات الحقيقية، وأسلوب ولهجة صغار الضباط ومعاونيهم. كان فرانك ليندنر،

الذى عَمل فى السابق بائع كتب وقد قدسها والذى اعتقد أن ديلمر كان بمثابة "إله"، يحتفظ بالملفات الخاصة بالبحرية الألمانية، وعلى تفاصيل شخصية استخلصها من رسائل أرسلت من وإلى أفراد طاقم قارب اليو فى معسكرات الاعتقال فى بريطانيا وكندا من الصحف المحلية الألمانية، تمامًا مثل ماكس براون الذى كان يقوم بالشىء نفسه فى إذاعة جى إس ١ التى أنشأها ديلمر فى وقت سابق، لكن ليندنر كان يبحث هذه المرة عن تواريخ الميلاد والزواج والوفاة والسفر والترقيات والحصول على الأوسمة وخلافه، بغرض إرسال التهانى الشخصية التى تتعلق بهذه المناسبات عبر موجات الأثير.

ظن غالبية المستمعين من جنود البحرية الألمانية أن محطة أطلنتكسندر الإذاعية هى محطة معادية، لكنهم واصلوا الاستماع إليها على الرغم من ذلك؛ لأنها كانت محطة جيدة، وعندما أذاعت محطة أطلنتكسندر تقارير حول نتائج مباريات كرة القدم بين أطقم قوارب اليو المتواجدين فى سانت نازير بفرنسا، مع ذكر ألقاب محرزى أهداف تلك المباريات مع قليل من التفاصيل الشخصية المتعلقة بهم، وعندما أذاعت المحطة مقطوعات موسيقية بناء على "إهداء خاص" إلى أطقم قوارب اليو الذين ظنوا أن مواقعهم كانت سرية للغاية، جعل ذلك البحرية الألمانية تشعر بأنها تحت المراقبة البريطانية المستمرة، "فالبريطانيون يعرفون كل شىء بغض النظر عن مكانه" ولم يمض سوى وقت قصير حتى سئم بحارة قوارب اليو الواقعين فى الأسر مقاومة التحقيقات التى تجرى معهم؛ وزاد حديث السجناء، مما زاد المعلومات التى كان بمقدور العاملين فى مجال الدعاية "السوداء" استخدامها، وكان مذيع هيئة الإذاعة البريطانية تشارلز ويلر أحد المحققين الذين عملوا فى الخدمات المشتركة لمركز الاستجواب التفصيلى؛ ثم عمل بعد ذلك نقيبًا بمشاة البحرية الملكية وكان يتحدث الألمانية؛ حيث إنه ولد فى مدينة بريمن، ثم تغير حال ويلر بعد حصوله على المعلومات التقنية، وفى أثناء محادثاته الودية مع الأسرى كان يقدم لهم السجائر، فحصل على قصص حانات ومواخير بريست ولورينت وسانت نازير التى ساعدت فى إضفاء رونق خاص على الأحاديث

الإذاعة وتعزيز اضطرابات الجواسيس الحاليين وعمليات التنصت على أجهزة الهاتف والرادارات.

أصبح برنامج أطلنتكسندر للموسيقى العاطفية أكثر إثارة بسبب صوت "فيكى" المغرى، "فيكى" هو الاسم المستعار للمذيعة أجنس برنيل التى كانت تقوم بإذاعة نشرات الأخبار والقصص التى تجذب الاهتمام، وكان الانتصار فى "المعركة التى خاضها الأطباء الشرفاء لمحاربة الديفتريا فى مخيمات الأطفال الألمان"، سببًا فى ظهور السعادة عليهم حيث استطاعوا التغلب على كارثة كانت تسبب الأرق لأولياء الأمور فى ألمانيا.

أكد ديلمر أن الدقة المتناهية فى تناول العمليات البحرية والعسكرية؛ ستجعل المستمعين يميلون لقبول القصص المختلقة أو نصف الحقيقية بخصوص الموقف الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى فى الوطن الأم، ألمانيا، وقد أسهم تطبيق القرارات اليومية الخاصة بالمراقبة على خدمة البث الألمانى واقتناء ديلمر لنسخ هيللشرايبر مراسل الوكالة الإخبارية الرسمية الألمانية التى تركها عندما فر إلى بلاده فى بداية الحرب، فى مصداقية الأخبار التى كانت تبث، وكانت الأنباء لا تزال تستقبل بشكل مباشر من نظام جوبلز المركزى، لذا استطاع فريق الدعاية "السوداء" أن يذيع - على وجه السرعة - الخطب السياسية والبيانات الرسمية للحزب النازى بشكل تغطية كاملة أو وفقًا لأغراض تخريبية. (وفى شهر يوليو عام ١٩٤٢، ابتكر ديلمر خطة دقيقة أطلق عليها هيلجا لشن هجوم عكسى ضد العملية التى يقوم بها هيللشرايبر، وبدلاً من تلقى الأنباء من المركز، أراد ديلمر تقديم أنباء خاطئة لا يمكن تمييزها عن الحقيقية للنظام الألمانى الذى كان متعطلاً عن العمل، تمت مناقشة اقتراح ديلمر بشأن ما يمكن أن يطلق عليه الآن "قرصنة" الأخبار الألمانية وإضافة القصص الملفقة لتتم على مستوى عالٍ، لكنها لم تنفذ ذلك مطلقًا).

عندما اشتركت استخبارات وزارة الطيران فى تلك العمليات، حصل ديلمر على تقارير مفصلة بالغارات التى قام بها سلاح الجو الملكى البريطانى وسلاح الجو الأمريكى على ألمانيا بما فى ذلك الصور الملتقطة من الجو. كما أدت التقارير الدقيقة التى كانت تقدم حول ما لحق بشوارع معينة والمناطق المجاورة لها من دمار وحالات النساء والأطفال الذين كانوا يعانون من الحروق إضافة إلى وصف القصف المكثف من جانب قوات الحلفاء والذى أطلق عليه "غارات الرعب" وسوء التغذية وانتشار الأمراض والفئران ومجامعة الأموات، إلى شيوع الحزن وانفطار القلوب.

كانت الأنباء المحبطة التى تأتى من الجبهة المدنية والتى تدور حول الوضع الداخلى المدنى الألمانى؛ يليها خيال جذاب يدور حول الحياة الرائعة التى يعيشها الجنود الألمان الذين استسلموا أو فروا من أداء الخدمة العسكرية الألمانية، وروجت منظمة الصليب الأحمر الدولية قصصاً تدور حول اكتساب الهاربين من ألمانيا الكثير من الأموال فى السويد أو سويسرا أو إسبانيا وروجت شائعات تدور حول حصول الهاربين من الخدمة العسكرية الألمانية على قطع من الأرض فى كندا والولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل، فجاء ما ذكرته المحطة كانتقام من السلطات الألمانية الذين لم يكونوا يعرفون هل فر هؤلاء المفقودون أم إنهم لقوا حتفهم أثناء المعارك.

وفى ٢٤ أكتوبر١٩٤٢، بدأ إرسال محطة إذاعية بريطانية "سوداء" جديدة تعمل على الموجات المتوسطة بالتردد نفسه تحت اسم الإذاعة الرسمية الألمانية دويتشلاند من مدينة ميونخ، أما إذاعة سولداتنسندر كاليه (والتى سميت فيما بعد إذاعة الجنود العاملين غرباً) فاتبعت النمط نفسه من الموسيقى والأخبار التى جرى اختبارها، وعلى الرغم من أنها كانت توجه إرسالها للقوات الألمانية التى كانت تحتل فرنسا وبلجيكا وهولندا، أصبحت سولداتنسندر كاليه تصل إلى المدنيين الألمان الذين أحبوا أسلوبها المؤثر، واعتقدوا أنها إذاعة ألمانية حقيقية مهداة إلى قوات الجيش على خلفية أن "جنود الجبهة" ينبغى أن توصل إليهم حقائق أكثر قسوة مما كان يتلقاه المدنيون العاديون؛

ولهذا اعترف جوبلز بأن إذاعة سولداتنسندر قامت بدور كبير فى مجال الدعاية، أما إذاعة در شيف فقد انقطع إرسالها بعد ثلاثة أسابيع من بداية إرسال المحطة الإذاعية الجديدة.

انطلقت إذاعة سولداتنسندر بقوة على الموجة المتوسطة؛ حيث استطاع ديلمر فى النهاية استرداد محطة البث أسبدسترا مرة أخرى من قبضة هيئة الإذاعة البريطانية، ولم يستطع السير إيفون كيركباتريك المشرف على القسم الأوروبى بهيئة الإذاعة البريطانية الصمود فى مواجهة الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية والوزارات ورؤساء الأركان، فقد كانت حججهم قوية جلية لا لبس فيها؛ تتمثل فى الحاجة لدعاية إذاعية "سوداء" لإضعاف نظام الحصون الألمانية المقامة على السواحل الأوروبية ضد الغزو الذى بات وشيكًا فى يونيو ١٩٤٤ والذى سيمهد الطريق لانتصار قوات الحلفاء.

(٢١)

الفرقة العسكرية "إيه" بشمال إفريقيا

"الصحراء الغربية مكان لا يناسب سوى الحرب"... هكذا افتتح جيمس لانسدال هودسون، الصحفى بصحيفة صنداى تايمز فيلمه الوثائقى الدعائى "انتصار الصحراء" - (Desert Victory) عام ١٩٤٣:

تخلو آلاف الأميال المربعة من تلك الصحراء من أى شىء؛ فلا ترى سوى الرمال والحجارة، لذا لا بد من أن تكون معك بوصلة فى مثل هذه الأماكن لتعتمد عليها إذا ما ضللت الطريق كاعتماد الملاح عليها عند الإبحار، ولا توجد مياه إلا إذا حفرت فى أعماق الأرض فلا تجد إلا ما يملأ كوبًا تستطيع بالكاد تغتسل أو حتى تحلق ذقنك، لكنك تشعر بالتعب السريع من قسوة الصحراء فى النهار شديد الحرارة والليل قارص البرودة، ولا تطاق الحياة عندما تهب رياح الخماسين المحملة بالعواصف الرملية، حيث يقول العرب: إذا هبت رياح الخماسين خمسة أيام متتالية فلا يمكن مواصلة القتال.

فى ميادين المناورات كان الجنرال أرشيبالد ويفل ذلك الجندى الذى فقد إحدى عينيه بالقرب من إيبرس ودخل القدس عبر بوابة يافا مع لورنس عام ١٩١٧، يعيد التدريب على أساليب حرب العصابات من الاحتيال الخداع والحركة، وتم تعيين ويفل قائدًا عامًا مسئولاً عن القيادة بالشرق الأوسط قبل شهر من اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث تولى ويفل المنصب نفسه الذى تولاه الجنرال ألنبى من قبل والذى كان

ويفل يكتب سيرته الذاتية، وكان يواجه أعداء أكثر نفوذًا؛ مثلما واجه ألنبى الأتراك العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى.

كان ويفل موهوبًا فى القدرة على انتقاء الرجال الأخيار، وكان الرائد رالف باجنولد، ضابطًا فى سلاح الإشارات الملكى وواحدًا من الفرقة التى تم اختيارها وكان قد درس الصحراء الكبرى التى تقع بعيدًا عن سواحل شمال إفريقيا الزراعية، كان باجنولد يستكشف الصحراء الكبرى منذ عام ١٩٢٦، وطور البوصلة الشمسية التى تستخدم فى الملاحة الصحراوية، كما اكتشف أفضل طريقة للسير عبر الكثبان (بأقصى سرعة) واخترع سلالم الحبال والقنوات الفولاذية التى تستخدم للسير على الرمال الناعمة المتحركة، وأعد بحثًا عن "ظواهر العواصف الرملية" والذى أدى إلى ترشيحه للجمعية الملكية فى لندن. توقع باجنولد أن يرسل الإيطاليون جنود استطلاع لشن غارات وسط الصحراء الليبية الشاسعة وقطع الاتصالات العسكرية البريطانية بين القاهرة والخرطوم، وعندما أعلنت إيطاليا الفاشية الحرب على الحلفاء فى يونيو ١٩٤٠؛ حصل باجنولد على تفويض من ويفل لترتيب وتجهيز ودعم وإعداد مجموعة الصحراء الجديدة طويلة المدى (إل آر دى جى).

انتقى باجنولد رفاقه القدامى فى فترة استكشافات الصحراء قبل الحرب والذين كان من بينهم الجندى الشجاع بات كلايتون وهو من إقليم تنجانيقا، وبيل كينيدى شو من فلسطين ثم عينهم مسئولين عن شباب المناطق الريفية فى نيوزيلندا الذين فقدوا جميع أسلحتهم ومعداتهم فى هجوم بحرى. وكان قائدهم الرائد بيرنارد فريبرج (الرجل الذى سبح على الشاطئ قبل إنزال جزيرة جاليبولى) معارضًا لذهابهم. لكن النيوزلنديين الذين عُرف عنهم أنهم أفضل الجنود فى القيادة، استحوذوا على الصحراء حيث نشئوا فيها، وأصبحوا دعامات أساسية لمجموعة الصحراء الجديدة طويلة المدى وقاموا بما سماه ويفل "الخدمة المجهولة التى لا تقدر بمال".

عمل ويفل منذ البداية على خداع الإيطاليين بشكل أقوى وأفضل من الخداع الذى قام به من قبل. وفى يونيو ١٩٤٠، تمكن مراسل جريدة ديلى ميل ألكسندر كليفورد من

تتبع روتين الخداع من خلال القوات البريطانية المتواجدة على الحدود المصرية - الليبية على بعد ٣٠٠٠ ميل غرب القاهرة، وأعد أحد المراجع فيما يتعلق باستخدام الدبابات الزائفة:

رأيت خطوة بخطوة ما كان يحدث، كان ويفل يجرى حساباته بطريقة منظمة وقام بتمويه الأشكال، حيث كانت الدوريات البريطانية مقدمة على عروض كبيرة؛ جعلت الجنود يتحركون تدريجيًا من مكان إلى آخر بسرعة ويقيمون الحراسات والكمائن عبر الطرق ويهاجمون الحصون والمواقع، ويتظاهرون دائمًا بأن قوتهم أكبر بكثير من حجمها الحقيقى، وحملت الدبابات الوهمية لتعطى انطباعًا عن امتلاك وحدات مدرعة قوية، أعد هذا الجيش الصغير نفسه بجميع الطرق المتاحة ليكتسب الوقت بإرهاب العدو.

كانت مسئولية الدبابات الوهمية تقع على عاتق فوج الدبابات الملكى، الكتيبة العاشرة تحت قيادة الرائد جونستون، وتشكلت الوحدة من جنود كتيبة مشاة درهام خفيف الحركة التى انتشرت ونصبت دبابات وشاحنات وهمية بدائية مصنوعة من الخشب والخيش التى حملت مطوية مع الوحدة.

فى أواخر أكتوبر ١٩٤٠، كان ويفل فى الخرطوم مع السير أنتونى إيدن، وزير الدولة لشئون الحرب فى صحبة عدد من الجنرالات للتخطيط للهجوم على الإمبراطورية الإيطالية شرق إفريقيا، حيث بقى الإنجليز يراقبون القوات الإيطالية فى ليبيا عن قرب من خلال فك شفرات اتصالات القوات الجوية الإيطالية وقراءة ما وقع فى أيديهم من وثائق ورسائل واستجواب أسرى الحرب والقيام بالتصوير عن طريق الاستطلاع الجوى، وفوق كل ذلك أرسل البريطانيون دوريات رولز رويس المدرعة لمعرفة نقاط الضعف فى المواقع الأمامية المنتشرة وحقول الألغام التى أقامها الإيطاليون على امتداد خطوط المواجهة.

وبداية من نوفمبر ١٩٤٠؛ بادر ويفل بعملية تضليل وخداع لحمل الإيطاليين على الاعتقاد بأنها تعد، فى واقع الأمر، حملة عسكرية على اليونان أو لشن هجوم عليهم،

كما حرك مركز مخابرات الشرق الأوسط الذى يقع تحت قيادة ويفل ورقة لتحقيق هذا التأثير من خلال نشر الشائعات، وتوصيل معلومات خاطئة حول وجود مصدر يابانى فى مصر (انضمت اليابان لدول المحور مع ألمانيا وإيطاليا أواخر عام ١٩٣٧)، وبمقارنة هذه العملية بعمليات التمويه الأخيرة، نجد أنها كانت بالكاد مجرد أساس إلا أنها مهدت لها الطريق، كما كان ويفل يمتلك العديد من عمليات التمويه، لكنه كان فى حاجة إلى رجل جيد ليشرف على تلك العمليات، لذا استدع دودلى كليرك إلى القاهرة.

وفى الثامن عشر من ديسمبر ١٩٤٠، كان تونى سيموندس الذى يتبع المخابرات الحربية البريطانية قد أخذ تعليمات بالذهاب مرتدياً ملابس متواضعة للقاء صديق قديم قادم على متن طائرة مدنية هبطت قبل منتصف النهار فى مطار القاهرة، وأعطيت له تعليمات بتقديم التحية دون إبداء دهشة أو استغراب، وكان عدم إبداء الدهشة والاستغراب يمثل تحدياً أمام تونى؛ حيث وصل كليرك فى صورة لاعب جولف من شيكاغو مرتدياً سروالاً واسعاً ملون باللونين الأبيض والأسود الصارخين، إضافة إلى قبعة ونظارة سوداء مدعياً أنه صحفى أمريكى اسمه رانجل، كان ذلك يبدو استعراضاً للملابس أكثر من كونه زياً تنكرياً، وكانت هذه هى النقطة التى أحدثت مشكلة. أما كليرك، فقد استغرقت رحلة سفره من إنجلترا إلى مصر عشرة أيام وتعقدت بسبب الحاجة إلى تجنب المرور بمناطق العدو.

فى تمام الساعة التاسعة من صباح ٩ ديسمبر ١٩٤٠؛ وما أن غادر كليرك لشبونة متوجهاً ناحية غرب إفريقيا؛ حتى تم استدعاء مراسلى الحرب السبعة أو الثمانية فى القاهرة إلى مكتب الجنرال والواقع فى الرواق العلوى فى "جراى بيلارز" الذى كان مقراً للقيادة العامة بالشرق الأوسط فى جاردن سيتى.

ووفقاً لما كان عليه مكتب القائد العام، كانت أمامه على الحائط خريطة بارتفاع عشرة أقدام، وابتسم القائد بلطف معلناً وقوع "غارة مهمة" سميت البوصلة، قام بها جنود إنجليز وهنود وأنزاك تحت قيادة فرقة الجنرال ريتشارد أوكونور العاملة بالصحراء الغربية، واستهدفت الجيش العاشر الإيطالى. يسأل تاسيتيرن ويفل،

الذى وصفه آلان مورهيد الصحفى فى صحيفة ديلى إكسبرس: "بأنه جزيرة فى بحر من الزبد"، الصحفيين: "أمنكم من يعرف شيئًا عن القيام بعمليات وشيكة؟ إلا أن أحدًا من الصحفيين لم يسمع بشىء كهذا؟".

ارتدى عدد من المراسلين وضباط الشرف الزى الكاكى وشارة تعلق على الكتف مكتوب عليها بحروف ذهبية "مراسل حرب بريطانى"، واستعدوا فى الحال للتوجه نحو الجبهة التى تبعد مسيرة يوم ونصف اليوم ناحية الغرب، ولم تكن وحدة العلاقات العامة قد رتبت لتلك الرحلات، لذا عندما تعطلت سياراتهم، ساروا على الأقدام وأكلوا ما استطاعوا الحصول عليه من طعام وناموا حيثما تسنى لهم، ما جعل الأمر يستغرق أيامًا للوصول إلى الجبهة؛ حيث أسرعت قوات الإمبراطورية البريطانية مع فرقة مشاة تعمل كقوة هجومية ودبابات فرقة المدرعات إلى استقبالهم، وشبه ريتشارد ديمبلبى من بى بى سى هذا الأسلوب بمن أحضر رجلاً ممسكًا بتلابيبه بيد ويلكمه فى فكه بالأخرى مرة تلى مرة. واستولوا فى السادس عشر من ديسمبر على طريق السلوم ووادى حلفا والمنحدرات الليبية، حيث ألقى هنا الجنود الإنجليز ما لديهم من شاى وبسكويت ولحوم بقر المعلبة ليأكلوا حتى التخمة من تعيينات الإعاشة الإيطالية ما لذ منها وطاب من لحم خنزير وجبن بأنواعه وخبز وفاكهة وخضروات طازجة؛ وقد غسلوها بالخمور والمياه العذبة. كانوا مندهشين عندما وجدوا أن كل جندى إيطالى كان يمتلك قِدرًا صغيرًا لإعداد القهوة، وبلغ عدد من أسر من الإيطاليين ٣٨٠٠٠، كان من بينهم خمسة جنرالات.

عندما قدم دودلى كليرك نفسه فى زيه الموحد إلى قائده القديم صباح الثلاثاء الموافق ١٩ ديسمبر عام ١٩٤٠، كان جيش جراتسيانى كان قد أجلى عن مصر، وللمرة الأولى على مدار عام فائت من الحرب لم يتقهقر الجيش البريطانى للخلف كما كان حالهم فى فرنسا والنرويج والأراضى الصومالية ليس هذا فحسب بل وتقدموا للأمام، وانتهى عمل كليرك كضابط أركان مستقل، حيث كلفه ويفل بـ "المهمة الثامنة السرية المرضية جدًا" التى استمرت لخمس سنوات تالية، وأخفى كليرك دوره كما لو كان جزءًا خفيًا

يعمل داخل محرك مراكز القيادة العامة وقت الحرب، لأنه لم يكن مسموحًا له بالحديث حول عن مهمته. ولى ويفل الضابط كليرك مهمة المسئولية عن خطط وعمليات التمويه والتخفى والخداع للعمليات العسكرية. وظل كليرك قائد قادة التمويه العاملين فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، مثل ويفل وأوشينلك وألكسندر وويلسون، خلال عمليات الشمال الإفريقى فى الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٢، كما أدى المهمة ذاتها فى مراكز قيادة قوات التحالف تحت قيادة فى أيزنهاور فى الجزائر بدءًا من عام ١٩٤٢ حتى أنهى خدمته العسكرية شمال إيطاليا. وساعدت أفكار كليرك عن الخداع الاستراتيجى والتقنى فى خروج دول المحور من إفريقيا، كما ساعدت فى إيجاد موانئ بحرية أسهمت فى عودة دول الحلفاء إلى جنوب ومن ثم شمال غرب أوروبا. مارس بعض الضباط الذين يحملون نفس رتبة كليرك؛ نفوذه خلف الكواليس فى القاهرة والجزائر ولندن وواشنطن ونيودلهى، وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ اعتبر المشير هارولد ألكسندر أن دودلى كليرك فعل أكثر مما يفعله أى ضابط لنكسب الحرب.

وقف كل من ويفل وكليرك أمام خريطة معلقة على الحائط فى القاهرة، حيث استردت فرقة المشاة الهندية الرابعة بقيادة ويفل منطقة سيدى برانى فى مصر، ثم خطط ويفل وقتها لسحب تلك الفرقة جهة الجنوب وشحنها جنبًا إلى جنب مع فرقة المشاة الهندية الخامسة إلى مدينة القضارف وبورسودان للهجوم على شرق إفريقيا الخاضع للسيطرة الإيطالية. وكان من بين ما خطط له ويفل استخدام أورد وينجيت ليقود العصابات الوطنية الإثيوبية التى تتبع قوات جدعون ليعود بها إلى إثيوبيا من منفاها فى السودان.

كانت القوات الإيطالية تفوق قوات ويفل عددًا، لكن ويفل كان يعرف أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، وكانت مهمة كليرك الجديدة بشأن خداع العدو فيما يتعلق بالأهداف والمقاصد والقدرات الإنجليزية ما زالت مستمرة، ولأن كليرك كان ضابط مخابرات - يقوم بمهام خاصة - يتبع القائد العام للعمليات العسكرية، كان يرسل تقاريره إلى ويفل مباشرة ويحصل على المساعدة من مساعده الخاص فى الوقت الذى لم يكن لديه فريق

من الموظفين ولا مؤسسة يديرها. كان العمل "سرياً للغاية" لذا كانت قصته الرئيسية ومهمته الإضافية التى بدأت منذ ٥ يناير ١٩٤١ تكمن فى دوره فى القسم التاسع من المخابرات العسكرية البريطانية، هروب ومراوغة رجال الخدمات فى التحالفات السرية، ثم أعيد كليرك إلى مكتبه الذى كان به باب يؤدى إلى حمام صغير، جاء هذا فى مذكرة "أحداثِ اليوم" - (Action This Day).

كان هجوم ويفل على الإمبراطورية الإيطالية فى إيطاليا بمثابة أول عملية خداع دقيقة يقوم بها كليرك؛ حيث ركز جهده على الجزء الصومالى الخاضع لسيطرة الإنجليز؛ وقد أطلق على العلمية اسم "كاميليا". وأخليت تلك المحمية البريطانية الواقعة أقصى القرن الإفريقى فى أغسطس على يد حامية بريطانية صغيرة واجهت قوات إيطالية كثيرة العدد. وعلى الرغم من انعدام الأهمية الاستراتيجية للصومال بالنسبة إلى الإنجليز؛ فإن ويفل أراد أن يوهم الإيطاليين بأن قوات التحالف فى مصر كانت ستتحرك لاسترداد الصومال، وكانت الفيالق الهندية تتحرك بالفعل نحو الجنوب إلا أنها كانت متوجهة إلى إريتريا على البحر الأحمر.

جلس كليرك يخطط لأعمال نقل الجنود وإمدادات التموين والاتصالات كما لو كانت القوات البريطانية ستذهب بالفعل لاسترداد الصومال، ثم أعدّ عملية للنيل من استخبارات العدو، وهذا ما يوضح بالفعل الخداع الذى انطوت عليه الإدارة المزيفة المتواجدة فى مكاتب عدن (التى عرفها جيداً منذ أن عمل بها عام ١٩٣٥)، حيث شن كليرك غارات بحرية وجوية عبر خليج عدن ليضعف الأهداف البحرية والعسكرية حول منطقة بربرة التى تصدر خرائط الحملة والنشرات التى تتناول مناخ وثقافة وعشائر وعادات الجزء الصومالى الواقع تحت سيطرة بريطانيا وليشيع المعلومات المغلوطة بين المدنيين المصريين وأفراد القوات المسلحة، بالإضافة للمعلومات الخاطئة الكثيرة التى تسربت إلى القنصل اليابانى فى بورسعيد والبرقيات المزيفة غير المحققة والبرقيات اللا سلكى. وبداية من ١٩ ديسمبر، عمدت الخطة إلى تحقيق الانتصار فى مطلع يناير ١٩٤١.

نجح كليرك نجاحًا واضحًا، فقد ابتلع القائد الإيطالى صنارة الطعم بخيطها وغمازها وبدأ فى إخلاء الصومال الذى كان يقع تحت سيطرة الإنجليز، إلا أنه ولسوء الحظ كان ذلك عكس ما قصدته خطة الخداع الاستراتيجى التى أسندت إلى كليرك. فقد كان من المفترض أن يعزز جبهته الشرقية، لكنه حرك بدلاً من ذلك المزيد من القوات إلى شمال إريتريا التى كانت بالفعل ذات قيمة كبيرة وسيستهدفها الهجوم البريطانى الحقيقى، وهنا تعلم كليرك أول دروسه القاسية؛ فموضوع الخداع هو ألا تجعل عدوك يفكر فيما تفضله بل تجعله يفعل ما تريده.

نجح بعض حيل كليرك الأخرى مثل ادعائه إنشاء محطة اتصال لا سلكى، كما نجح فى حشد الجنود الإيطاليين فى المكان الخطأ؛ بينما بدأت جيوش متعددة الجنسيات تابعة للإمبراطورية البريطانية فى شن ثلاث هجمات منسقة لتحرير إثيوبيا من الاحتلال الفاشستى الذى استمر خمسة أعوام، وعاد الإمبراطور هيلا سيلاسى لشعبه فى أديس أبابا ٥ يونيو ١٩٤١.

كانت لأفكار كليرك الأخرى فوائد كبيرة، ففى ١٤ يناير ١٩٤١ التقى كليرك مع العقيد وليام جيه "وايلد بل" المبعوث العسكرى الشخصى للرئيس روزفلت ومؤسس مكتب الخدمات الاستراتيجية فيما بعد (وكالة المخابرات المركزية سابقًا) خلال جولته الاستراتيجية فى منطقة البحر المتوسط التى استمرت ستة أسابيع، حيث أخبر كليرك العقيد وليام جيه بشأن القوات الخاصة وكتب وثيقة إلى دونوفان يقترح عليه تشكيل قوات أمريكية خاصة، وساعد حب كليرك للأفلام فى إحكام هذا الأمر، فبعد أن شاهد الفيلم الغربى "الممر الشمالى الغربى" – (The North-West Passage) الذى قاد فيه سبنسر تراسى قوة من مقاتلى الجبهة يرتدون ملابس مصنوعة من جلد الغزلان يسمون "مغامرو روجرز" – (Rogers' Rangers)، واقترح كليرك كلمة مغامرون (Rangers) كاسم مناسب للقوات الخاصة الأمريكية (American commandos)؛ وقد تأسست مجموعة مغامرو أمريكا (U.S. Rangers) فى مايو ١٩٤٢.

بعد مرور عدة سنوات، وفى عام ١٩٥٣ عندما كتب كليرك مقترحًا بشأن إكمال كتاب "المهمات السبع" (Seven Assignments) الذى رغب فى تسميته "الحرب السرية" – (The Secret War)، وصف كليرك عمله فى الخداع وقت الحرب بـ "حرب الذكاء والخيال"، حيث اعتبر كليرك هذا تنافسًا خاصًا مع العقول المدبرة لمخابرات هتلر و(موسولينى) والفرق الصغيرة، فرق تتكون من رجال ونساء إنجليز وفرنسيين وأمريكيين التى عملت بالشواطئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط، لم يحصل كليرك على إذن رسمى بكتابة هذا الكتاب، ولم ينل خداعه سوى إعجاب القليل من الناس على عكس الحرب النفسية التى تبناها ديملر والتى كانت موجهة ضد الروح القتالية للكثيرين.

فى عيد رأس السنة عام ١٩٤١، نزل إلى بورسعيد أول أربعة خبراء بريطانيين فى مجال التمويه يزورون الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية تحت قيادة النقيب جوفرى باركاس، وعندما عبروا قناة السويس على متن السفينة أنديز لمتابعة مهمتهم بقلوب منهكة قالوا: "هذا هو الجيش الذى كان ينبغى أن نخدعه، كل تلك الورش والمحطات، والمخازن الضخمة والمعسكرات والخيام والأكواخ، والبطاريات المضادة للطائرات وأعمال الدفاع؛ ورجال ومركبات طرق التمويه رست السفينة فى مكان قريب. بدت السفينة الحربية الضخمة إتش إم إس سسنتيوريون وكأنها سفينة منيعة؛ لكنها كانت سفينة تمويه وكانت مدفعها عيار ١٣,٥ بوصة مصنوعًا من الخشب المطلى.

هناك مقولة عسكرية مشهورة "الوقت الذى يمضى فى الاستطلاع والاستكشاف لا يضيع سدى"، وهنا رتب خبراء التمويه على الفور رحلة جوية فوق الصحراء الغربية، حيث وجدوا عندما كانوا ينظرون إلى أسفل أن تضاريس الصحراء لم تكن ذات وتيرة واحدة، فهناك مناطق رملية لها أنماطها المميزة ومن ثم بدءوا يطلقون عليها الوادى مرة ثم بولكا دوت مرة، وفجورد فالقيب مرة أخرى، وما إلى ذلك من تسميات، كما لاحظوا أيضا أن الدبابات والشاحنات تترك عند السير فى الصحراء آثارًا ومسارات مميزة خلفها، ثم أرسل باركاس الخبير جون هوتن إلى السودان وأرسل بارتريك فيليبس لتمويه الدفاعات فى فلسطين وأبقى معه بلير هوفيسانتون فى مصر وليبيا،

انطلق الضابطان وسائقيهما فى الرابع عشر من ينـاير ١٩٤١؛ فغادرا القاهرة فى سيارة شيفروليه ذات الإطارات الصحراوية ليجدا ما أحب تشرشل تسميته بـ "جيش النيل" فى مكان على طول السهل الساحلى. كانت سيارتهما الأخرى التى هى من نوع فوردسون تزن ما يعادل طنًا ونصف الطن وتحمل الماء والبنزين والتعيينات التموينية والخيام والمواقد والأدوات والخيش والحبال وأسلاك وشباك التمويه ولفافات الزينة، والألوان وعدة تجارب التمويه.

اتبع خبراء التمويه الحملة المتجهة نفسها غربًا والتى تبعها آلان مورهيد ومراسلون آخرون. كان عليهم القيام ببعض الملاحقات؛ حيث إن هجمات الجنرال أوكونور الناجحة تتركز الآن غربًا على التراب الليبى حيث احتلوا بلدة بارديا وقاموا بأسر ٤٠٠٠٠ فرد فى أوائل يناير، كما قاموا بملاحقات مع المشاة الأستراليين (الذين حلوا محل الفرق الهندية)، وكذلك مع قائد الفرقة هوراس روبرتسون الشجاع النشط من مدينة ملبورن الذى كان يصطحب فرسه فى جاليبولى وفلسطين خلال الحرب العالمية الأولى والذى لقبه خبراء التمويه بـ "كرة النار"، وبعد الحصول على إذن من بعض المدفعيين العاملين فى الوادى، واصل خبراء التمويه تجاربهم باستخدام شباك التمويه.

كانت الأمور تسير كما ينبغى حتى تحطمت سيارتيهما فى تصادم عنيف؛ ما نتج عنه جروح وكدمات فى وجهيهما، لكنهما واصلا السير فى شاحنة نقل المواد التى كانت معهما حتى وصلا إلى بلدة ديرنا الساحرة التى هجرها الإيطاليون فقام العرب المحليون بنهبها. وفى ديرنا استراح الصحفيون آلان مورهيد من جريدة ديلى إكسبرس وألكسندر كليفورد من جريدة ديلى ميل إضافة إلى بعض الضباط من بينهم جوفرى كيتنج من فرقة بنادق الملك الإمبريالية. تجرد مورهيد من ملابسه بعد حمام طويل؛ لكنه أصيب بالإحباط بعد أن لاحظ عبارة مدونة على قاعدة الهاتف تشير إلى اسم مالكه "سيادة المشير جراتسيانى"، وبعد مرور يومين لاقى الصحفيون الثلاثة ترحيبًا غير متوقع من كامل حصن عين مارا المحيط بسبب زيهم الموحد وسياراتهم البريطانية.

ومن فوق هذا المرتفع الشاهق؛ شعر الجميع بما أطلق عليه مورهيد "تحرك الحافة"، حيث أقام الإيطاليون كمينًا قرب جيوفاني بريتا فى الجبل الأخضر؛ ما أدى إلى مقتل ثلاثة جنود بريطانيين إضافة إلى مقتل كليفورد كيتنج وجرح السائق، وهنا أدرك خبراء التمويه أن مهمتهم تكمن فى محاولة إنقاذ أرواح الجنود البريطانيين، فقاموا بمباشرة تجاربهم التى كانوا يقومون بها من شبكات تمويه المركبات ومحاولة إيجاد مرتفعات لأخذ صور فوتوغرافية؛ كى يستطيعوا تمييز ما إذا كان أثر التنكر سيظهر من الجو أم لا؟ كما شهدوا استسلام بنغازى فى ٧ فبراير ١٩٤١.

قصفت الفرقة المدرعة السابعة بقيادة الجنرال أوكونور بقايا الجيش العاشر الإيطالى فى بيدا فوم على بعد خمسين ميلاً ناحية الجنوب، وأسر الجنرال الإيطالى بيرجونزولى (المعروف "بصاحب السوالف العجيبة" نظرًا للحيته المريعة)، وانتهت الحملة بنجاح كبير، وفر المشير رودولفو جراتسيانى الذى عُرف باسم "الجزار"؛ نظرًا لأعماله الوحشية فى ليبيا وإثيوبيا تجاه الغرب ناحية سرت، واستطاعت القوات البريطانية بقيادة أوكونور مطاردته على طريق طرابلس باستخدام شاحنات قديمة مصادرة لاستخدامها فى طرد الإيطاليين من ليبيا، لكن تشرشل غير رؤيته الاستراتيجية، فقد كان قلقًا بشأن الوضع فى البلقان فأصدر أوامره فى ١٢ فبراير إلى ويفل بالتوقف وتغيير المسار، وأن يرسل له أفضل جنوده عبر البحر المتوسط ليساعدوا اليونانيين المحاصرين.

قطع خبراء التمويه ما يقرب من ٩٠٠ ميل؛ عائدين إلى للقاهرة فى صحبة الفرقة المدرعة السابعة، وعلى الرغم من عدم وجود أعلام معهم فإن باركاس و هوفز - سانتون اكتسبا معرفة عملية فيما يتعلق بتحسين دور التخفى فى الميدان فى كل فروع الجيش، تذكر باركاس أيضًا تجربته عندما كان جنديًا نظاميًا فى الحرب العالمية الأولى وكيف كان يشعر بخطر تعرضه للإصابة وهو يتحرك صوب الخنادق؛ حيث كان يعرف أن العدو يراقبه، وأيقن باركاس بضرورة "تمويه المواقع" حتى فى البيئات غير المناسبة مثل البيئة الصحراوية بقصد تشويش مراقبة الأعداء، ورويدًا بعد خروج المبدأ التجارى للنور كتب باركاس قائلاً:

دائمًا ما يحلم كل قائد بتحقيق المفاجأة الكاملة لعدوه... والتمويه هو عامل من عوامل تلك المفاجأة، فهو يعنى خداع استطلاعات العدو.

اعتقد آلان مورهيد أن مراسلى الحرب يستطيعون أداء دورهم بصورة جيدة فى الصحراء؛ حيث إن الأمور تكون أقل تعقيدًا، وليس هناك ما يشتت الأذهان من مدن أو سكك حديد أو محال أو دور عرض أو أسواق أو مزارع أو أطفال أو نساء... يقول آلان: ليس بالصحراء عقارات، ولا زحام، ولا حيوانات، ولا تلال، ولا أودية، رأينا السماء فى شكلها المقوس والصحراء الواسعة الممتدة فى جميع الاتجاهات، ففى الصحراء يكون للحدث الصغير مغزى ومعنى كبير غير ما يحققه فى أى مكان آخر، حيث يرى المراسلون الأحداث واضحة جلية، كما مثلت الصحراء الشاسعة الخالية من الضجيج خلف الشريط الساحلى لخبراء التمويه أيضًا مسرحًا جليًا يمكن رؤية كل شىء على خشبته ما يجعلها أفضل ميدان... تستبدل فى الحقيقة بغيرها والعكس بالعكس.

عندما وصل الجنرال الألمانى إيرفين روميل إلى ليبيا لينقذ القوات الإيطالية من الانهيار الكامل، كان أول شىء فعله فى ١٢فبراير ١٩٤١ أن سير جنوده ثلاث مرات متتالية حول القصر نفسه فى طرابلس حتى تستطيع قوته المحدودة عمل استعراض أكبر أمام كاميرات شركات الدعاية الإخبارية.

لقب البريطانيون إيرفين روميل لاحقًا "ثعلب الصحراء" إعجابًا به، حيث استخدم عمالاً إيطاليين لإنشاء وتصميم نحو ٢٠٠ دبابة وهمية على هياكل معدنية لسيارات قديمة ليضاعف عدد الدبابات فى حوزته، كان روميل أحد محبى الخداع والتضليل فأتقن فن العروض والتقديم، وعرف كيف يشكل أسرابًا من الرجال فى الميدان. شبه باسيل ليدل هارت كاتب رواية "أوراق روميل" – (The Rommel Papers) المارشال إيرفين روميل بلورنس العرب فى طريقة التفكير فيما يخص الحرب غير التقليدية، فقد كان روميل نافذ البصيرة، أحب أن يرسم خطط حربه بأصابع الطباشير الملونة واعتاد أن يحلق فى طائرة ليدرس تضاريس الأرض ويلتقط صورًا فوتوغرافية لها.

كان باركاس واثقًا فى أن المخابرات الألمانية منظمة تنظيمًا جيدًا ومعدة إعدادًا كبيرًا من الناحية العلمية مثل نظيرتها البريطانية، حيث يستخدم الألمان قواتهم الجوية فى الاستطلاع ويقومون بتحليل الصور الفوتوغرافية إضافة إلى استخدام كل سبل المراقبة المعتادة. تدرب خبراء التمويه البريطانيين فى فارنهام على تحليل الصور تحت الحمراء الملتقطة من أعلى ستونهنج، كما أخذوا فى اعتبارهم الدروس المستفادة من الحرب العالمية الأولى؛ فقد تركت الجيوش ركامًا مميزًا فى كل مكان مضوا إليه، وكان محللو صور الاستطلاع الفوتوغرافى الجوى يرون الآثار التى أحدثتها الجيوش على الأرض مثل آثار تقفى الحيوانات، وكان باركاس يعرف أنه من الممكن إخفاء بعض تلك الآثار وتمويه بعض آخر إذا عدلت الوحدات من سلوكها، لكن ما يطلب من باركاس الآن يكمن فى "استخدام التمويه فى الهجوم كجزء من الخطة الأساسية للمعركة"، وأثناء العودة من الساحل بدأ باركاس يفكر فى استخدام التمويه ليس فقط كأسلوب للتخفى السلبى بل كمعالجة فعالة فى التضليل حيث قال:

كان أعظم القادة العسكريين وأكثرهم احترامًا هم أساتذة الخداع... حيث يبذل الجنرالات قصارى جهدهم لإرباك العدو عبر تحركات وهمية، وإذا لم يكن بوسعهم فعل ما يشبه السيرك المتنقل فإنه ينبغى أن تقوم وحدات حقيقية معدة جيدًا بتنفيذ مناورات الخداع.

كان باركاس يرى وحدة التمويه التابعة له به "السيرك المتنقل": ٥٪ من قوامه من قوة الجيش وهم مستعدون لعمل أى انطباع يطلب القائد تقديمه، ويستطيع المهندسون محاكاة الركام الذى تتركه الجيوش الحقيقية كمن يقوم بإنتاج فيلم على نحو رائع، وفى الأماكن شديدة الإضاءة التى يمكن أن تنتج عنها ظلال طويلة كانت الدمى ثلاثية الأبعاد والشراك تعمل بشكل جيد.

بدأ جوفرى باركاس عمله على نصف منضدة خشبية ذات حاملين فى حجرة الرسائل العسكرية، تلك المساحة التى كانت أقل من الحمام الصغير الذى يخص دودلى كليرك، لكن من خلال هذه البداية الصغيرة أصبح التمويه والخداع يحققان أشياء عظيمة فى الشرق الأوسط، وعندئذ كون أفراد باركاس وكليرك ما يشبه الفريق.

كتب الشاعر أرثر هوج كلوف: "إذا ضاعت الآمال فلا بد أن تكذب المخاوف"، لكن كليرك سريعًا ما استغل مخاوف العدو من المظليين والتى قرأ عنها فى مذكرات أحد الضابط الإيطاليين الأسرى، وفى يناير ١٩٤١ بدأ كليرك العملية "أبيم" التى كان الهدف منها هو إقناع الإيطاليين أن البريطانيين يملكون رجال مظلات فى الشرق الأوسط على أهبة الاستعداد للهبوط خلف خطوطهم، وعلى الرغم من أنه لا يتوافر مثل هذا الأمر؛ فإن ويفل كان واحدًا من الجنود الإنجليز الأوائل الذين قدروا قيمة الأساليب الجوية بعدما شاهد ١٢٠٠ جندى مظلات يقفزون خلال المناورات السوفيتية عام ١٩٣٦، وشجع ذلك كليرك على خدعه الجديدة.

قبل عامين من وجود رجال مظلات بريطانيين حقيقيين فى الشرق الأوسط، صاغ كليرك اسم "قوات الخدمة الجوية الخاصة" لتلك الوحدة الخيالية واختلق قصة لها، وكانت أول كتيبة من قوات الخدمة الجوية الخاصة من جنود المظلات وانتشرت الكتيبتان الثانية والثالثة على متن طائرات شراعية، حيث كان من المقرر أن يتلقان تدريبهما جنوب عمان فى الأردن فى معسكر بير ويلز (ذلك المكان الذى تعرف عليه دودلى كليرك فى الفترة التى قضاها فى قوات ما وراء الجبهة الأردنية) الذى يحرسه الفيلق العربى بقيادة جلوب، وتألفت قوات الخدمة الجوية الخاصة الأولى التى تتبع كليرك (غير الموجودة أصلاً) من ٥٠٠ جندى مظلات فى عشرة فصائل أخذت الحروف (إيه وحتى الحرف كيه) وكانوا مسلحين بالبنادق القصيرة والقنابل اليدوية، وانتاب الإيطاليين اعتقاد أن هؤلاء الجنود سيهبطون وبحوزتهم صناديق مليئة بمدافع برن ومدافع الهاون ومتفجرات وألغام وذخائر أسلحة صغيرة مثل جنود المظلات الألمان.

وفى ٢ أبريل ١٩٤١؛ تضمنت مجلة باراد المصورة فى القاهرة صورة لجندى مظلات أسود مدثر يكشر عن وجهه أمام طائرة النقل العسكرى الضخمة بريستول بومباى، (لكنه كان فى حقيقة الأمر، لواء مصرى يرتدى زيًا مموهًا) وبعد مرور يومين، أصدر مركز قيادة سلاح الجو الملكى تعليمات سرية إلى وحداته المتواجدة فى الشرق الأوسط بكتابة تقارير حول القصص التى نشرها كليرك فيما يتعلق بوجود مظليين

بريطانيين وطائرات شراعية، ثم نشر المزيد من الوثائق والمعلومات حول هذا الشأن في مصر وفلسطين، وفي أوائل أبريل وجه كليرك اثنين من المساعدين بالمدفعية إلى الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد مرتدين زى شارات الوحدة الأولى من قوات الخدمة الجوية الخاصة؛ الأمر الذى أثار أسئلة فضولية من رجال الخدمة البريطانية الآخرين، وتظاهر المساعدان أنهما ممنوعان من الكلام، لكنهما ألمحا بتوجههما إما إلى جزيرة كريت وإما للإغارة على خطوط اتصالات العدو في ليبيا، وتسربت تلك المعلومات إلى مخابرات دول المحور مما أوهن عزيمة العدو.

وفي أبريل ١٩٤١، نجح كليرك في أن تكون له مؤسسة حربية (المؤسسة العسكرية ١٩٤١/١٠/١) وحملت وحدته اسمها الخاص للمرة الأولى في اعتراف مؤسسي وصار لها مكاتبها الخاصة، ونقل كليرك من حمامه في جراى بيلارز إلى الشمال في مبنى سكنى أصبح الآن مركز قيادة متقدم للفرقة العسكرية "أ".

كان اسم الفرقة العسكرية "إيه" مبهمًا عن قصد، فقد يرمز لأى شيء، لكن كليرك ادعى أنه يرمز لـ "القوة المحمولة جوًا"، حيث كان يبتدع قصصًا في ذلك الوقت لم تكن موجودة أصلاً عن القوات الجوية البريطانية في الشرق الأوسط، إلا أنه وبحلول نهاية أبريل؛ ظهرت طائرات شراعية وهمية (للكتيبة كيه الخيالية التي تتبع قوات الخدمة الجوية الخاصة) في القاعدة الجوية بحلوان بالقرب من القاهرة والتي اجتذبت لها الأنظار على المستوى المحلي، وصمم سبعة وخمسون مهندسًا عسكريًا ممن يعملون تحت قيادة الملازم روبرتسون أحد الضباط العشرة الذين يعملون تحت قيادة كليرك، مجسمات مزيفة بمهارة كبيرة، وفي بداية شهر مايو، كان مهندسو روبرتسون قد حولوا هذه الطائرات الشراعية الوهمية إلى قاذفات قنابل وهمية تتبع "القوات الجوية الصحراوية" في فوكا بالقرب من مرسى مطروح، وفي شهر يونيو نظم كليرك طلعات لسلاح الجو الملكي تقلع من هليوبوليس لتقوم بإسقاط دمى بالمظلات فوق حلوان؛ ما يصب في صالح الجواسيس والأسرى الإيطاليين في سجون الحرب القريبة، وأرسلت بعض المظلات النادرة إلى القوة الخاصة رقم ٨ كتيبة بى، جوك لوز في ليتدربوا بها في فوكا.

كانت لتلك القوة - التى بدأت كجزء من مخطط خداعى تبعات كبيرة (غير متوقعة) على أرض الواقع، فكان من بين رجال جوك لوز فى فوكا ضابط أصيب فى قفزة بالمظلة. كان ذلك الرجل يدعى ديفيد ستيرلنج وكان والده جنرالاً كما كانت أمه من مستطلعى لوفات، وبعد أن استعاد ديفيد عافيته فى المستشفى أعاد التفكير فى مفهوم الفدائية، وتوصل إلى أنها تطورت تطوراً غير صحيح، وتوصل إلى أن البديل لذلك يتمثل فى وضع خطة لتقليل عدد الفدائيين إلى أربع فرق متحركة، إلا أن ستيرلنج كان لا يزال ملازمًا فاضطر إلى رفع تلك الفكرة إلى قادته فى مراكز قيادة بالشرق الأوسط؛ لكنه وجه ببيروقراطية شديد وصفها فيما بعد بـ "طبقات الغائط المتحجرة"؛ لكنه صابر مواصلاً سعيه حتى أثمرت فكرته فى النهاية عن أهم وأشهر فيلق إغارة بريطانى كان شعاره خنجر ذى أجنحة مكتوب فوقه "النصر للشجعان". وفى عام ١٩٨٥، صرح العقيد ديفيد ستيرلنج للمذيع التليفزيونى جوردان ستيفنز:

نبع اسم قوات الخدمة الجوية الخاصة من حقيقة اشتياقى إلى العمل مع العبقرى دودلى كليرك المسئول عن إدارة معدات الخداع فى القاهرة... كان كليرك رجلاً مؤثراً؛ وعدنى أن يساعدنى كيفما أمكنه لو أننى استخدمت الاسم المستعار لفرقة المظلات التى تتبعه: قوات الخدمة الجوية الخاصة إس إيه س.

"المبدعون" - (The Originals in Their Own Words).

قال ستيرلنج إنه عندما استقر على اختيار اسم، كتيبة إل من قوات الخدمة الجوية الخاصة... سعد دودلى كليرك أن يكون لديه بعض رجال المظلات الحقيقيين بدلاً من الوهميين، ما يكمل أسلوب انتصاره الثلاثى، وبهذا يكون كليرك قد ساعد فى تأسيس وتسمية ثلاث فرق هجومية شهيرة هم الفدائيون البريطانيون والمغامرون الأمريكيون وقوات الخدمة الجوية الخاصة.

كان الهدف الذى يكمن وراء ما فعله دودلى كليرك من وجود قوات خدمة جوية خاصة حقيقية وأخرى وهمية فى غاية الأهمية، حيث إن جوهر الاستخبارات الحربية يتمثل فى التقاط أنظمة المعارك المتعارضة ثم العمل على تحليلها، فتقوم الاستخبارات

بجمع وتصنيف كل المعلومات المتاحة فى صورة متناسقة ومرتبة، فكل المعلومات المتمثلة فى شائعات الجواسيس والإشارات اللا سلكية الملتقطة والقصص ذات الصلة المنشورة فى الصحف والوثائق المهربة وتقارير الجبهات الأمامية والاستطلاع الجوى وشارات الأسرى واستجواباتهم وعلامات تعريف هوية المركبات ومعالم المعسكرات والرايات الصغيرة وما شابهها، تمثل جزءًا من الألغاز التى يوضع جميعها معًا كى أستطيع أنا أو تستطيع الاستخبارات أن تخبر هيئة العمليات بطبيعة وحدات العدو وأماكن تواجدها والأعمال التى ستقوم بها، كان دودلى كليرك يعرف جيدًا كيف كان العدو دقيقًا ومرتبًا؛ فقد كان ذا عقل راجح ومتفهمًا للأشياء المرتبطة بالمكان، وكان من بين ما فعله إطعام جوعى العدو من أجل الحصول على معلوماتهم الدقيقة.

كان ابتكار قوات وهمية جزءًا من لعبة ممتدة تتطلب ذاكرة قوية ونظام تخزين ملفات جيد وترابطًا عسكريًا واقعيًا على مدار شهور وسنوات، ففى الفترة بين ١٩٤١ و١٩٤٥ ابتكر كليرك سبع فرق، واثنين وثلاثين قسمًا وعشرة فيالق وثلاثة جيوش "وهمية" كاملة، وكانت قوات الخدمة الجوية الخاصة حيلة صغيرة تحولت إلى إنجاز كبير، شكلت فيه تلك القوة الخيالية نجاحًا خاصًا لعدة أسباب، أولاً: حول ستيرلنج حلم كليرك إلى حقيقة ذات فعالية كبيرة فى الإغارة خلف خطوط العدو، ثانيًا: سيؤكد اكتشاف الألمان والإيطاليين الوجود الفعلى لقوات الخدمة الجوية الخاصة ثقتهم فى استخباراتهم مما يزيد من سعادتهم التى ستساعد فى كف بصرهم عن حقيقة وجود دُمى وهمية لفترة طويلة من الوقت.

بدأ كليرك مع بداية عام ١٩٤٢؛ جمع كل وحداته الوهمية فى خطة خداع شاملة تحت اسم كاسكاد، ورتب المراجع التى تحتوى على كل الوحدات الوهمية والحقيقية وأعطيت إلى كل من كان فى حاجة لمعرفة ذلك، وأصبح لكل شىء وهمى تاريخ وغرض ودليل مادى مثل الشارات التى تظهر على شاحنات الوحدات (الحقيقية) الأخرى التى يلتقطها الجواسيس، كما أصبحت هناك حركة لا سلكية ورسائل ورقية وفق ما تقتضيه الحاجة. انتشرت المعلومات الخاطئة عن هذه الوثائق السليمة وصار هذا بمثابة صداع إدارى؛

لأنه متى اقحمت هذه البيانات لا يمكن تجاهلها على الإطلاق لكن التفاصيل الدقيقة، كان نظام معارك كليرك الوهمية الذى جعل العدو يبالغ بشكل كبير فى تقدير وعدم حساب المقاومة بشكل دقيق؛ ومن ثم قاموا بنشر قواتهم ضد كل التهديدات المحتملة، يشبه تماماً رسالة "فن الحرب" لـ "سن تسو":

فلو أعد العدو نفسه للمواجهة من ناحية المقدمة؛ فإن المؤخرة ستضعف، ولو أعد نفسه للمواجهة من ناحية المؤخرة فسيسهل ضرب المقدمة، ولو أعد نفسه للميسرة فإن الميمنة ستستهدف ولو أعد نفسه للميمنة؛ فإن عدد الجند فى الميسرة سيقل ولو أعد نفسه فى كل الجهات فإنه سيضعف فى الكل.

وبنهاية الحرب العالمية الثانية كان كليرك ومساعدوه واسعى الخيال؛ قد سيطروا على كل القوات الوهمية ليس لبريطانيا فحسب بل وكل قوات الحلفاء أيضاً، وكان أهم تلك القوات "جيش الولايات المتحدة الأول" الذى لعب دورا حاسماً فيما يتعلق بالهبوط الفعلى عام ١٩٤٤.

نعود إلى أواخر فبراير ١٩٤١؛ عندما كان كليرك لا يزال بلا فريق عمل ولا مكتب وكان مريضاً باليرقان، كان له صديق وزميل مخلص يزوره يومياً فى مستشفى العميد ريموند مونصل الذى كان يرأس الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط فى القاهرة على غرار الاستخبارات العسكرية القسم الخامس. كانت تلك الصداقة هى القوة الحقيقية للفرقة العسكرية "إيه".

لم تمتلك أى مؤسسة مجالاً واسعاً من الاتصالات مثلما كانت مؤسسة الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط التى استخدمت هذا المجال فى نشر أفرع الاستقصاء الخاص وترسيخ معلومات تفيد فى عمل الخداع الاستراتيجى، وكانت لدى الشرطة ورجال الأمن منظماتهم السرية، كما كان مونصل الذى ينادى آر.جيه على اتصال بمسئولين من مصر والهند وإيران وتركيا مثلما كان يفعل المركز البريطانى للتجسس المضاد فى عدن والسودان وفلسطين، كما راقب مونصل عن كثب القنصليات الإسبانية والبلغارية واليابانية، وجند عملاء من اليهود فى القاهرة وقدم الرشاوى لرجال

الشرطة المصرية والحجاب من أجل الحصول على معلومات مفيدة، واستطاع مونصل أيضًا الوصول من خلال قسم الأمن الميدانى التابع للشرطة العسكرية (الذى صارت فيما بعد جزءًا فى فيالق الاستخبارات) لجواسيس دول المحور المأسورين الذين يمكنهم نشر معلومات خاطئة مضللة.

ألقى الملازم إيه دبليو سانسوم القبض على البدوى أحمد سيف، على الحدود المصرية - الليبية الذى كان واحدًا من هؤلاء العملاء المزدوجين. ولد أحمد سيف الذى كان بدين الجسد فى القاهرة لأب إنجليزى ولد فى العراق، لكنه كان مفتونًا بعلم المصريات، وكان يتحدث اللغات العربية والفرنسية واليونانية والإيطالية بطلاقة، وكان سيف الذى أسر يعمل لدى الشيخ مصطفى بن هارون الذى كان يشرف على الجواسيس المتحدثين بالعربية لصالح الاستخبارات الإيطالية.

أخبر سانسوم، مونصل بوجود سيف وعلى الفور أخبر البدوى بأنه سيدفع له أجرًا مضاعفًا إذا قام بتمرير معلومات معينة إلى الإيطاليين، وعاد سيف من الحدود إلى ليبيا الخاضعة لسيطرة الإيطاليين بمعلومات غير حقيقية، وسرعان ما اكتشف الإيطاليون بكل وضوح أن سيف أصبح عميلاً مزدوجًا يحركه البريطانيون وفق ما يريدون.

ثم طلب مونصل الذى يعمل فى الاستخبارات من سانسوم الذى يعمل فى الأمن الميدانى ألا يطلع سيف على أى شىء؛ حيث يمكن أن تصبح المعلومات الخاطئة ذات قيمة فى حال ما عرف أنها كانت خاطئة، فإدراك ما يريد العدو منك أن تفكر فيه، ربما يكون مفيدا فى معرفة ما لا يريد عدوك أن تعرفه، واعتقد سانسوم أن البريطانيين هم الرابحون ما دمنا نحتفظ بعدة نقاط من بينها: (أ) عدم معرفة عدونا أن معلوماتنا خاطئة، (ب) عدم إدراك عدونا أننا نعرف أن معلوماتهم خاطئة.

تم تعيين سانسوم كضابط مسئول عن الأمن الميدانى بمنطقة القاهرة، وجند عملاءً من كل الفصائل المجتمعية مثل: اليهود الفلسطينيين والقبارصة اليونانيين والمسيحيين اللبنانيين؛ إضافة إلى السودانيين ومن شابههم، وراقب المدنيون دول المحور والقوميين العرب،

واحترس من الجواسيس والتسريبات الأمنية بين المحتالين الذين يعيشون فى المدنية الكبيرة من المهجرين وقطاعى الطريق والمهربين وتجار الأسلحة والحشيش، وكان خادم سانسوم فى الموقع المركزى للاتصالات يكشف له عن أى مكالمات هاتفية مهمة، وكان "ماك" (أو محمود) النادل فى مرقص الكت كات ممن يتقاضون راتبًا فى هذا الشأن، بينما كان يعتقد أن جو السويسرى الموظف فى لونج بار بفندق شيبرد كان يعمل لصالح العدو.

وكانت الداعرات يطلعن سانسوم على أسرارهن، وكانت أخبار خيانات الضباط تصل إليه، لكن سانسوم لم يكن رجلاً يخلط الأخلاق بالمعنويات. وكان يفهم أن كثرة المومسات تمثل سعادة للمحاربين بغض النظر عما تراه أو تعتقده السلطات المتزمتة، وكانت القاهرة فى ذلك التوقيت تمتلئ ببيوت الدعارة، حيث كتب سانسوم فى مذكراته المسماة "أراقب الجواسيس" – (I Spied Spies): تحولت العديد من المنازل والشقق إلى شقق مفروشة يمكن استئجارها مدة شهر أو أسبوع أو يوم أو ليلة أو ساعة من الزمن.

كانت هناك خصوصية كبيرة حيث أبقى سانسوم على ثلاث شقق فى أطراف المدينة يلتقى فيها المخبرين، ثم بعد ذلك فى أبريل ١٩٤١، استخدم دودلى كليرك شقتين بالطابق الذى فى أسفل بيت الدعارة ذلك فى ٦ شارع قصر النيل لمكاتبه الجديدة، حيث لن يعير أحد اهتمامًا للضباط الذين يترددون على هذا المكان.

وفى العاشر من مارس ١٩٤١؛ وصلت إلى القاهرة دفعة تتكون من اثنى عشر رائدًا من فريق التمويه الذين تلقوا تدريبهم على يد العقيد باكلى فى إنجلترا؛ بعد رحلة بحرية استمرت شهرين فى طريق رأس الرجاء الصالح. وكان من بين هؤلاء جون كودنر وإدوين جاليجان وروبرت ميدلى وبيتر براود وستيفن سايكس وجاسبر ماسكلين، وكانوا قد نفد ما معهم من مال، لذا أجرى ماسكلين، ساحر المسرح، مكالمة هاتفية بباركاس يطلب منه المال، إلا أن قدرة ماسكلين المسرحية منحته ثقة أكثر مما يستحقه مقارنة بخبراء التمويه. كتب جولايان تريفليان عن ماسكلين: "فى البداية كان يبدو بريئًا ومتحضرًا... ثم انتهى به الأمر أن يكون ضابط ترفيه فى الشرق الأوسط..".

نجح كبار رجال المسرح والمخادعون فى أسر خيال الناس، وهذا هو السبب الوحيد الذى جعل دودلى كليرك يوظف ماسكلين فى الفرقة العسكرية "إيه"، حيث كانت ألعابه الترفيهية عبارة عن محاضرات فى الهروب والمراوغة درست لنحو ٢٠٠٠٠٠ من أعضاء الأطقم الجوية عبر الشرق الأوسط؛ كما ساعدت تلك المحاضرات الاستخبارات الحربية البريطانية القسم التاسع فى ابتكار عبوات المظلات والأجهزة والأدوات الصغيرة التى يستطيع الجنود تخبئتها عندما يقعون فى الأسر.

جسد حضور ماسكلين بين العسكريين قوة خداع القادة القدامى الذين تذكروا صالة جده ماسكلين للسحر فى الصالة المصرية فى بيكاديللى، حتى فهم بعض ضباط الأركان أن المشعوذين يفعلون أشياء تظهر ثم تختفى؛ ومن هنا يكون سحر ماسكلين قد طغى على أعمال التمويه وقوة كليرك فى مقر القيادة العامة.

بعد أن قام ويفل، بناءً على تعليمات تشرشل، باستدعاء وحل فرقة الصحراء الغربية بقيادة الجنرال أوكونور حتى يتمكن من إرسال ٥٠٠٠٠ جندى و٨٠٠٠ شاحنة لليونان وتكريت، قام روميل بشن هجوم خاطف على قوة عظيمة تركت خلف سيرنيكا كوماند شرق ليبيا، ولم يكن ويفل يتوقع حدوث ذلك الهجوم، حيث فقد ويفل إشارات الإنذار المقبلة من موقع ألترا؛ ولم يكن يعتقد أن روميل كان مستعداً للهجوم. كان ويفل مكلفًا بالكثير من المهام؛ فهناك قتال دائر فى منطقة البلقان وآخر ممتد فى شمال وشرق إفريقيا حتى جنوبها، فعلى الرغم من مهاجمة روميل من الغرب كان هناك إزعاج لجبهة ويفل الشرقية.

تصادف هجوم روميل مع انقلاب رشيد على الكيلانى، من دعاة القومية العربية فى العراق، مع مجموعة من العقداء ما هدد أنابيب البترول الحيوية العسكرية المتجهة من العراق إلى فلسطين والواقعة تحت السيطرة البريطانية؛ كان التوتر فى العراق امتداداً نسبياً للتمرد العربى الذى ساعد كليرك فى قمعه فى فلسطين عام ١٩٣٦؛ حيث قام كل من المفتى الأكبر وقائد أكبر حرب العصابات بالتحرك صوب العراق ليشعل هذا التوتر.

نجح انقلاب الكيلانى فى الإطاحة بنصير المملكة البريطانية، لكن أهمية البترول العراقى للبريطانيين لا تسمح باستمرار هذا الوضع لفترة طويلة، فكان الأمر بالنسبة إلى ويفل أكثر من صداع فى الرأس فى وقت أحرز فيه الألمان بقيادة روميل نجاحًا عظيمًا.

أجبرت الدبابات الألمانية خلال شهر أبريل عام ١٩٤١؛ البريطانيين على التراجع حتى الحدود المصرية لتفقدهم كل مكاسب الغارة التى كان يطلق عليها اسم "البوصلة"؛ وتم أسر الجنرالات البريطانيين جامبر بارى وناعوم و أوكونور خلال تلك الأحداث، ولم ينجحوا فى الصمود ضد الهجوم الألمانى البرى المنظم والقصف الجوى المستمر للقنابل الذى استخدمت فيه قاعدة العادم الجوية القريبة إلا ميناء طبرق، كما وجد بيتر براود أحد خبراء التمويه الذين قدموا مع ماسكلين نفسه فى شرك داخل طبرق المحاصرة مع مجموعة كبيرة من جنود المشاة الأسترالية وجنود المدفعية البريطانية. كان براود على طريقة جوفرى باركاس قد عمل فى إنتاج الأفلام وهو الآن يُسخّر كل مهاراته كمخرج فنى من أجل عمل تمويهى جيد للتعتيم على المواقع والمساعدة فى الدفاع عن طبرق مستخدمًا بنايات مزيفة، ومخفيًا سلاح المدفعية الحقيقى، ومن ناحية أخرى شكلت أسلحة وشاحنات ودبابات بالية كأهداف تمويهية لتشتيت نيران العدو. ووضعت رقع من القماش بشكل غير منتظم على شبكات معلقة لتعطى انطباعًا بوجود قاعدة مدمرة، فلم يكن هناك شىء سليم فى المدينة المتصدعة التى تحولت إلى ركام، لكنه تم وضع ألغام حول محيط تلك القاعدة بطول خمسة وثلاثين ميلاً، وشن الجنود الذين يرتدون نعالاً مطاطية - لتخفى وقع أقدامهم - هجومًا عنيفًا على الجبهة الألمانية، وتم تحريك عدد من الشاحنات لتذر الغبار فى الجو من أجل التخفى وتشتيت الأنظار عنهم؛ وقامت الحامية بتغيير المعالم الرئيسية بالمنطقة من أجل تشتيت سلاح المدفعية الألمانى بعيد المدى ليختلط الأمر عليهم فى التمييز بين مواقع المراقبة الحقيقية ومواقع المراقبة المزيفة، كما أعيد طلاء بعض شاحنات الجيش لتبدو مختلفة. ومن ثم متعددة؛ حيث ابتكر براود طلاءً مصنوعًا من المواد الغذائية المصادرة بعد مزجها بملح البحر، كانت الحياة خلال فترة الحصار التى دامت ٢٤٦ يومًا يشبه

نصفها حياة الكهوف ونصفها الآخر حياة العطلات، حيث كان الجنود ينامون فى الكهوف تحت الأنقاض، يتنفسون الهواء خلال الهوايات المزروعة داخل الكهوف، لكنهم أثناء النهار كانوا يمارسون السباحة والاستجمام فى الشمس فى سراويلهم وأحذيتهم خلف مدافع بوفورز أو برن أو لويس خلال الغارات الجوية المتكررة. فى هذا الوقت صدرت الجريدة اليومية "حقيقة طبرق" – (The Tobruk Truth) وبدأ توزيعها.

كان ميناء طبرق يمثل الباب الخلفى للإمداد والإغاثة، وتم شحن ما يقرب من ٢٧٠٠٠ رجل خلال الحصار الذى دام ثمانية أشهر إلى القاعدة العسكرية بطبرق واستدعاء نحو ٢٩٠٠٠ رجل آخر، وكان من بين هؤلاء جنود من الهند، وبولندا، وجنوب إفريقيا، فإن معظم التحركات كانت تتم بالليل وكان براود يقوم بإخفاء الزوارق البحرية وسفن المدفعية أثناء النهار بين حطام السفن فى الميناء أو فى الكهوف المعدة لهذا الغرض، وتم إخفاء آخر ثلاث مقاتلات من نوع هوريكان تحت الأرض، بينما تم عمل مدارج ونماذج لطائرات مزيفة لتشتيت الهجمات الجوية الألمانية، إضافة إلى ذلك ساعدت عمليات التمويه فى حماية مصنع تقطير المياه الحيوى الذى كان بارزًا مما يصعب من عملية الإخفاء، لكن التركيز تمحور على أن يبدو المصنع وكأنه حطام، وبعد وقوع هجوم بالقنابل من قبل دول المحور قرب مصنع تقطير المياه تدافعت فرقة التمويه البريطانية لتحفر حفرًا تشبه تلك التى تنتج عن انفجار القنابل لتبعثر فيها الحطام المعد مسبقًا، كما قام فريق الطلاء والأسمنت برسم حفرة سوداء مشتتة فوق سقف المبنى وأخرى بجداره. وقام فريق التدمير بنسف برج مياه مهجور، ما شكل صورة كاملة أمام طائرة الاستطلاع الإيطالية المحلقة فى الجو، الأمر الذى جعل خبراء روما يجزمون أن المصنع قد تعرض لضربة قوية، لكنه كان ما زال فى واقع الأمر يواصل عمله فى إنتاج مياه للشرب.

لعبت فرقة كليرك العسكرية "إيه" دورًا كبيرًا فى عملية الدفاع البريطانية التى كانت تسمى كروسيدر. قدم خبير التمويه ستيفن سايكس إلى الصحراء الغربية فى ١٩٤١ لينشئ خط سكك حديدى وهميًا بطول تسعة أميال يمتد غرب ميشيفا

إلى "المستودع رقم ٢" الوهمى، حيث تم بناؤه بعمل أرصفة منحدرة ومسارات جانبية، وكان الهدف من وراء ذلك يتمثل فى جذب هجمات العدو بعيداً عن السكك الحديد الحقيقية التى ستستخدم فى العملية "كروسيدر" التى ستمتد لتصل إلى المستودع رقم ١؛ إضافة إلى إقناع العدو أن البريطانيين لم يتموا استعداداتهم للهجوم.

بدأ البريطانيون فى عمل سكك حديد حقيقية مستخدمين القليل من العارضات الخشبية، إلا أن قضبان السكك الحديد نفدت فى النهاية؛ فاستخدموا مسارات مصنوعة من صفائح البترول المسطحة المطلية باللون الأسود، ثم شيدت ثمانى عشرة عربة مسطحة وثلاث وثلاثين عربة بضاعة من جريد النخيل ثم غطيت بنسيج من الخيش، وكان سايكس فخورا نوعًا ما بقاطرته التى تصاعد منها دخان حقيقى من موقد سوير من داخل مطبخ عسكرى قديم. وعندما تناقصت المواد اضطروا إلى تصغير حجم الأشياء المصنعة إلى نحو ثلثى الحجم الأصلى، كما استخدم سايكس أيضًا معدات تعرف "شبكات حفر المدفعية" تلك التى ابتكرها بيتر براود؛ حيث تم حمل ستة منها على كل شاحنة، وكانت مصنوعة من الخيش ومغطاة بشبكات تمويهية وعندما رفعت على الأعمدة ظهرت كل شبكة وكأنها مدفع حفر له حفرة، ثم فجر العدو "المستودع رقم ٢" فحصل خبير التمويه على وسام الشرف الأعلى، (يذكر باركاس أنه تم إسقاط ١٠٠ قنبلة على الأشكال الوهمية لكنه عاد وأقر بتواضع منه أن هذا الرقم كان "مبالغًا فيه")، أمضى سايكس الكثير من الوقت يقود سيارته داخل الصحراء وكان يلتقط قطع الخيش والخشب الموضوعة كأغطية تكسو الدبابات؛ ما جعلها تبدو كما لو كانت شاحنات تبلغ حمولتها ثلاثة أطنان، كانت تلك الأغطية صممها فيكتور جونز أحد أفراد الفرقة العسكرية "أ"، خصيصًا لويفل.

كان رجال كليرك يؤدون حتى تلك اللحظة عملاً فعالاً على جميع الجبهات، ففى صيف ١٩٤١ نشر الرائد أوجليفى جرانت من الفرقة العسكرية "إيه" دبابات وهمية والتى كان لها دور حاسم فى الدفاع عن قبرص، تلك الجزيرة لم تكن قد تعرضت للاجتياح الألمانى أو الإيطالى حيث كانوا يعتقدون أنها ذات تعزيزات قوية.

وقبل وصول الفرقة "٥٠" الحقيقية، أشيع نشر الفرقة ٧ "الوهمية"؛ على أنها تتكون من ثلاثة جنرالات من سلاح المشاة إضافة إلى قوات مقسمة، وأربعة أسراب من الدبابات وكتيبة "الخدمات الخاصة" والكثير من المدافع المضادة للطائرات، لكن فى واقع الأمر كان عدد الرجال قليلاً وكانوا مشغولين بإعداد وإعادة ترتيب عمليات التمويه.

فى غضون ذلك انطلق كليرك إلى تركيا المحايدة فى ٢٦ أبريل عام ١٩٤١، حاملاً رسالة شخصية من ويفل إلى السير هوج كنتشبول هوجسن سفير بريطانيا صاحب المصير المشئوم فى تركيا، (وبعد مضى بضعة أشهر فقط، كان كبير خدم هوجسن الألبانى الجنسية - الذى أطلق عليه الألمان سيسرو - قد بدأ فى تصوير منتظم لوثائق سرية فى خزينة السفير)، وكان تشرشل حريصاً على دخول تركيا إلى جانب الحلفاء فأرسل وزير خارجيته أنتونى إيدن لتحفيزهم على الانضمام للحلفاء، لكن الأتراك أصروا على عدم خوض الحرب، حتى فبراير ١٩٤٥ عندما تأكدوا أن ألمانيا النازية فى تراجع مستمر.

تركزت مهمة كليرك الحقيقية فى اسطنبول. التقى هناك سراً مع الملحق المساعد بالبحرية والضابط البريطانى فلاديمير ويلفسون أحد الرجال المتازين الذين انتقاهم الأدميرال جون غودفرى مدير الاستخبارات البحرية. وبعد تعاون ويلفسون وكليرك على مدار ثلاثة أسابيع تالية، ابتداءً مما سماه كليرك "الشراكة المثمرة بعيدة المدى" والتى استمرت حتى نهاية الحرب.

بدأ الرجلان فى صياغة قصص حول قوات الخدمة الجوية الخاصة والفرنسيين الأحرار المهاجمين لروميل من الخلف، إضافة إلى تدشين عشرات القنوات الجديدة لتستخدم فى خداع جواسيس ألمانيا، حيث كانت تلك القنوات تتلقى المواد عبر رسائل سرية يرسلها كليرك إلى ويلفسون من خلال السفارة البريطانية، وضمت تلك القنوات يونانيين ومجريين وعراقيين وروسا وسويديين وأتراكًا يعملون فى مجالات الصرافة وبيع السجاد بالإضافة إلى الجهات الدبلوماسية والصحافة. وقد هيكل الرجلان نظام الاستخبارات الحربية البريطانية، القسم التاسع فى المنطقة لمساعدة جنود دول الحلفاء الفارين من اليونان وبلغاريا ورومانيا فى السفر عبر تركيا للعودة إلى الشرق الأوسط.

سافر كليرك فى قطار سريع من جنوب شرق أنقرة تجاه أضنة والحدود السورية التركية ليلة ١٧ مايو، تلك اللحظة التى كانت لحظة حاسمة فى التاريخ، فبعد يومين من سفره بدأت الطائرات الألمانية فى الهبوط فى سوريا فى طريقها لمساعدة رشيد على قائد التمرد المعارض للوجود للبريطانى فى العراق، وكان ويفل قد أسر إلى كليرك قبل مغادرته بأنه سيهاجم سوريا الخائنة بسبب هذا الحادث، وبالفعل بدأ سلاح الجو الملكى على الفور فى تفجير مهابط الطيران السورية فى حلب ودمشق ورياق وبالميرا، كانت خطوط أنابيب البترول التى تمد شمال العراق بنحو ٢,٥ مليون طن من البترول كل عام؛ تنتشر من حقول الموصل وكركوك حتى مدينة حديثة على نهر الفرات ثم تتفرع إلى فرعين، يؤدى القسم الشمالى من خط الأنابيب إلى ميناء طرابلس فى لبنان ثم يتفرع جزء إلى سوريا الخائنة ويمتد القسم الجنوبى من خط الأنابيب إلى شرق الأردن حتى ميناء حيفا فى فلسطين الواقع تحت السيطرة البريطانية؛ وأغلق البريطانيون مبدئيًا تدفق الخط إلى سوريا إلا أن القوات العراقية الموالية لرشيد على أحكمت الحصار فى أبريل ١٩٤١، على حقول البترول التابعة لشركة البترول الأنجلو عراقية وأعادوا تدفق البترول إلى سوريا وأغلقوا أنابيب البترول المتجهة إلى فلسطين الواقعة تحت السيطرة البريطانية، لكن القائد العام الجديد فى الهند الجنرال كلود أوشينلك أرسل إلى البصرة فرقة من الجنود من الهنود والسيخ وجنود الجوركا ممن كانوا متجهين إلى الملايو، كما أرسل ويفل فى مايو حملة من ٦٠٠٠ جندى عبر صحراء فلسطين، وانتهت حملة الحلفاء القصيرة والقاسية أوائل شهر يونيو وفشل الانقلاب ونفى رشيد على والمفتى والعصابات القومية العربية إلى الحدود داخل إيران.

وعلى خلفية هذه الأحداث، اختلف كليرك مع مسئولى القنصلية البريطانية فى أضنة على الحدود التركية والذين حاولوا منع المواطنين البريطانيين من دخول سوريا، ووصل كليرك إلى ميناء طرابلس اللبنانى فى الثامن عشر من مايو؛ ثم اتجه إلى بيروت ليحصل على معلومات عن آخر مستجدات موقف ويفل العسكرى؛ وبعد ذلك بيوم استقل سيارة مع أسرة يهودية لاجئة مسافرة جنوب الطريق الساحلى من بيروت

إلى فلسطين، وما بين مدينتى صيدا وصور نجح كليرك فى توقيف السيارة من خلال ما سماه "الحيلة المواتية" عند "النقطة الرئيسية على معبر نهر الليطانى"، وقام بدراسة المنطقة؛ حيث إنها المنطقة التى يجب على الفرقة السابعة البريطانية الاستيلاء عليها عند غزو لبنان من جهة فلسطين، وبعد السير على طريق مستوية عند حافة تل يقع على بعد نحو ١٠٠٠ ياردة من البحر، عبر كليرك النهر على أحجار جسر القواسمية الحيوى، كان عرض نهر الليطانى يبلغ نحو ٤٠ ياردة، وكان يجرى بين ضفاف شديدة الانحدار وعلى جانبيه شجر الحور، ويقع على شمال النهر تل بمساحة ٥٠٠ قدم وكان قد أنشأ عليه معقلاً به مدافع منتصبة تطل على الجسر وتتجه نحو البساتين وحقول الحنطة، وهنا أدرك كليرك أنه ينبغى التعامل مع هذا الحصن حتى يتحقق نجاح أى غزو.

وبعد ثلاثة أسابيع؛ هبط ٤٠٠ جندى من قوات الفرقة الاسكتلندية الحادية عشرة الخاصة من البحر للهجوم على المعقل ومحاصرة الجسر، إلا أن القوات الفرنسية الخائنة قامت بنسف الجسر على الفور وبسبب أن العديد من الفرقة الخاصة لزموا الضفة الخطأ من النهر بأمر من البحرية الملكية؛ فقد تكبدوا خسائر فى الأرواح بمقتل أربعة وخمسين جنديًا وإصابة خمسين آخرين كان من بينهم القائد العقيد قبل أن يؤمنوا العبور.

عاد كليرك إلى القاهرة فى الحادى عشر من مايو؛ ليطلع ويفل على كل ما فعله، كما أعد خطط تضليل وخداع عالية المستوى تساعد فى غزو سوريا الخائنة وفق ما هو مخطط له فى ٧ يونيو، وقصد كليرك نشر قصة توحى بإلغاء هذا الهجوم بسبب الخلاف الملتهب بين دول الحلفاء، وكان من بين ما دونه تشرشل عام ١٩٤١ (هناك شىء واحد أسوأ من القتال مع دول الحلفاء هو أن تقاتل دونهم). وكان مضمون القصة هو أن مقر القيادة العامة بالشرق الأوسط قد اختلف مع مقر القيادة فى فرنسا التى فشلت فى إقناع ويفل بضرورة غزو سوريا الخائنة، وقد تبادل الطرفان التجريح

والسباب حتى قيل إن الجنرال ديجول زار القاهرة على متن طائرة لتلطيف الأجواء فلقى معاملة غير لائقة؛ فحزم حقائبه وغادر على الفور، وفى الرابع من يونيو نقل عميل عربى عبر حدود المواجهة من سوريا أخبارًا إلى دودلى كليرك؛ تفيد بأن الجنرال ديجول سافر إلى الخرطوم فى حالة من الاستياء والامتعاض، ولم يكن من الواضح أن نجحت القصة أم لا! لكن الحملة قد نجحت على أى حال، ففى الاحتفال بيوم سقوط الباستيل (عيد فرنسا القومى) كانت سوريا قد سقطت فى يد الحلفاء.

وفى تلك الأثناء، صرف تشرشل ويفل عن الخدمة بعد قتال كبير على خمس جبهات، حيث استبدل ويفل فى ١١ يونيو – وهو اليوم الذى تعرضت فيه روسيا للغزو على يد ألمانيا، كان تشرشل رئيس الوزراء قد أبعد ويفل وعين مكانه أوشينلك الذى كان يعمل فى الهند فاحتفظ أوشينلك الذى كان يلقب بطائر "الأوك" بالفريق الذى كان يعمل فى مقر القيادة العامة فى القاهرة، كما أبقى أوشينلك، دودلى كليرك فى موقعه كقائد للفرقة العسكرية "إيه".

كان الشرق الأوسط موطنًا حقيقيًا لخطط التضليل والخداع الناجحة وفق ما ذكره جيه سى مسترمان فى كتابه "التجسس المضاد خلال الحرب العالمية الثانية" – (The Double - Cross System of WW2)، كما يشير كتاب "التاريخ الرسمى للخدمة السرية فى الفترة بين ١٩٠٨ و١٩٤٥" (The Official History of the Security Service 1908-1945) والذى أتمه جون كيرى عام ١٩٤٦ إلى أن جهاز الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط كان جهازًا رائعًا ومستقلاً عن الاستخبارات الحربية البريطانية، القسم الخامس.

ويضيف كيرى قائلاً: "فى الوقت الذى تزايدت فيه نفوذ المنظمات الأمنية فى الشرق الأوسط بشكل كبير، تضاءل فيه اتصالهم بالأحداث والتطورات الجارية فى لندن، إلا أنه خلال الفترة بين ١٩٤٠ و١٩٤١... استفادت المنظمات الأمنية بالشرق الأوسط من خبرة نظرائها فى لندن ومن علوم الاستخبارات العسكرية الألمانية وفروعها"، كما استخدم ريموند مونصل من الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط؛ عميلاً ألمانيًا

منقلبًا يدعى دورينت فى ربيع ١٩٤٠، بعد أن بدأ عمل الاستخبارات الحربية البريطانية القسم الخامس فى لندن، إلا أن الاستخدام الفعال للعملاء المزدوجين تطور تطورًا مستقلاً فى الشرق الأوسط بعد ذلك.

كان أفضل عميل مزدوج استخدمه دودلى كليرك فى القاهرة، هو شخص يهودى وسيم، يحمل الجنسية الإيطالية فى منتصف الثلاثينات من عمره، وكان يسمى ريناتو ليفى، كان ريناتو أحد مصادر معلومات خدمة الاستخبارات السرية الوثيقة فى فرنسا قبل أن تجنده خدمة الاستخبارات العسكرية التى تتبع موسولينى، حيث ظل على اتصال بخدمة الاستخبارات السرية البريطانية فى الوقت الذى كان يحاول فيه إقناع الإيطاليين بقدرته على تأسيس شبكة تجسس فى القاهرة تعمل لصالحهم ثم وصل إلى القاهرة أوائل عام ١٩٤١، وجرى أول اتصال له مع البريطانيين فى القاهرة عن طريق كينيون جونز الذى كان، لاعب الرجبى السابق قوى البنيان، والذى كان يتبع الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط، حيث كلفه مونصل بهذا لإلمامه باللغة الألمانية.

كان ليفى قد تعلم قدرًا معقولاً من الإنجليزية فى أستراليا، وكان شخصًا مترفًا ذكيًا مولع بالنساء والحياة الرغدة، أكد ليفى مسرورًا لكينيون جونز أنه سيحصل على جهاز إرسال لا سلكى يأتيه فى حقيبة دبلوماسية من سفارة إحدى دول البلقان المحايدة، وسأل ليفى عن مكان للإقامة والعمل. قضى ريناتو وقته فى مطاردة النساء، بينما كان الجميع ينتظر الجهاز الذى لم يصل مطلقًا، لكن كينيون جونز اقترح عليه استخدام جهاز إرسال لا سلكى مدنى بدلاً من ذلك الجهاز.

وخلال أسبوعين قام متخصص فى صناعة الأجهزة اللا سلكية بصناعة جهاز من نوع جيد لهذا الغرض، واستخدم جونز شفرة بسيطة وفعالة تقوم على أساس شبكة مربعة مرتبة ترتيبًا هجائيًا، يعتمد على تغيير الكلمات الرئيسية. أخذ ليفى الجهاز وعاد به إلى الاستخبارات العسكرية الإيطالية فى روما، حيث أخبرهم بأنه قد جند عميلاً رائعًا يدعى بول نيكوسوف والذى ستكمن مهمته فى تلقى الرسائل فى القاهرة، وبعد

تشويش الترددات استطاع نيكوسوف أن يجرى أول مراسلة ناجحة ظهيرة أحد أيام شهر يوليو ١٩٤١ من محطة الإذاعة البريطانية بالعباسية بالقاهرة، وفك جونز شفرة رسالة نيكوسوف القصيرة التى يخبرهم فيها بأنه أجرى بعض الاتصالات المفيدة، ثم التقط الجهاز بعد ذلك رسائل مشفرة بطريقة موريس إضافة إلى رسالة مشفرة مقبلة من روما.

ذكر جونز فيما بعد أن ذلك "كان أفضل إنجاز فى تلك الحرب"، وعندما أخبر جونز قائده مونصل صباح اليوم التالى بما حدث أجاب: "يجب أن نحضر دودلى كليرك فى الحال، أما أنت فقد أبليت بلاء حسنًا فى خدمة الاستخبارات السرية"، وفى سيرته الذاتية التى كتبها بقلمه "طريق صعب" – (The Road Uphill)؛ يصف جونز كليرك بأنه "شخص نحيل الجسم، خفيف الظل، حاد الذكاء، سريع الفهم" ويضيف قائلاً: لقد أحببته وأعجبت به، وكان من بين أكثر الأمور التى أثرت فى جونز هى قدرة كليرك المدهشة على تحقيق أهدافه، فقد كان يستطيع الدخول فى أى وقت إلى رئيس الأركان أرثر سميث وإلى القائد العام ويفل كما كان له نفوذ كبير فى مقر القيادة العامة.

زود كليرك كينيون جونز برسائل تفيد بأن هذه القناة، والتى أطلق عليها تشيز كاسم حركى، سترسل رسائل إلى الإيطاليين، وبعد أن أصبح جونز مصدر ثقة، بدأت رسائله تذهب مباشرة إلى الاستخبارات العسكرية الألمانية وإلى مقر قيادة روميل، وبعد أن كون مجموعة كبيرة من أعضاء تشيز فى القاهرة ودول الشرق الأوسط خلال اتصالات وهمية سلم جونز المهمة إلى الكاتب الكبير والفنان القدير إيفان جون الذى انضم إلى القوات الخاصة والتحق بالاستخبارات؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى الاستخبارات والأمن بالشرق الأوسط عام ١٩٤١ بعد أن ذكر على سبيل الصدفة "فى حضور شخصية مرموقة" أنه تحدث ذات مرة مع تى إى لورنس فى أكسفورد.

وصف إيفان جون فى مذاكرات سيرته الذاتية "ذكريات الشرق" (Time in the East) السير كليرك، الذى لم يكن يناديه إلا بالعقيد: "إنه كان جنديًا محترفًا يحب اللغة الإنجليزية... ذا قراءة واسعة لكل أنواع الأدب الإنجليزى خاصة أدب التحريض، فأحبه لوجود

أسلوبى الحقد والخير اللذين كان يذكرانه بأحداث القرن الثامن عشر، وكان ذا معرفة عميقة بكتابات جونيوس أكثر من معرفته بالإنجيل، خاصة باعتباره ملحداً. كان جون يرى أن شخصية كليرك شخصية شيقة، فأنت تحتاج إلى مثل هذا العقل القوى لتكون بارعًا فى التضليل والخداع، كما ساعد كليرك وعيه وإدراكه بطبائع البشر، وساعده شعوره بالغضب فى محاولات التضليل والخداع، لكنه كان يدرك أن وسائل الخداع لها فوائد مجدية، وكانت فرحة كليرك تغلبه عندما تنجح خدعه وتؤدى دورها المنوط بها".

(٢٢)

انتحال شخصية

عندما وصل كليرك إلى لشبونة فى ٢٢ أغسطس ١٩٤١؛ لنشر الأساليب الخداعية التى جلبها معه من الشرق الأوسط، انتحل، كما فعل من قبل، شخصية صحفى وهمى، وكان يرتدى قميصًا صيفيًا زاهى اللون. كانت لشبونة فى ذلك الوقت مسرح أشباح يعج بالجواسيس والعملاء المزدوجين من كلا الطرفين؛ وتمثل محورًا طبيعيًا لتناقل الشائعات، حيث إن الرحلات بين إنجلترا والشرق الأوسط كانت تتوقف بها للراحة؛ كما كانت تربطها علاقات بالولايات المتحدة الأمريكية، وقبل وصول كليرك بعشرة أيام غادر العميل المزدوج دوسكو بوبوف على متن الطائرة المائية "بان أم" متجهًا إلى مدينة نيويورك؛ حاملاً معه ملفًا دقيق الحجم عن استطلاع أجرته الاستخبارات العسكرية الألمانية متضمنًا عشرات القضايا حول دفاعات ميناء بيرل هاربور بهاواى، كان ذلك بمثابة تحذير للأمريكيين من أن دول المحور يعدون لشن هجوم عليهم، وعلى الرغم من قيام مكتب التحقيقات الفيدرالية بإبلاغ المعلومات التى حصل عليها بوبوف إلى الجيش والبحرية، فإن أمريكا وبعد أربعة أشهر، لم تكن قد استعدت حينما شنت الطائرات الحربية اليابانية هجومًا على سفن وطائرات الولايات المتحدة فى ميناء بيرل هاربور فى ٧ ديسمبر ١٩٤١.

عمل كليرك على ذرع ستة عشر مصدرًا لمعلوماته المضللة، كان بعضهم من الألمانيين والبرتغاليين الذين استطاعوا نقل الوثائق والمعلومات بشكل مباشر؛ بينما كان

بعض آخر من أتباع دول المحور؛ وقام ببث الشائعات من هنا أو هناك والتى كانت تصدرها الجاليات الأجنبية التى تضم الأمريكيين والفرنسيين والأسبان والسويسريين رجالاً ونساء الذين غالبًا ما كانوا يشغلون مهنًا مجهولة، لكن هؤلاء الأشخاص كانوا مجرد أشخاص مسافرين يستقرون بعض الوقت فى لشبونة، وعلى الرغم من ذلك افتقد كليرك فلاديمير ويلفسون الذى دعمه فى اسطنبول قبل بضعة أشهر؛ حينما كانوا يؤدون المهمة نفسها، والذى ما زال على اطلاع بالاتصالات الجارية.

ومع تنقل كليرك بين مدينتى لشبونة وإستروبل على مدار شهر خلال ذلك الصيف كان لا بد له أن يعبر بعض المسارات فى مناطق معينة برفقة شاب من المدينة نفسها. كان هذا الشاب محبطًا من الصراع الدائر بين بريطانيا وروسيا. كان كليرك وهذا الشاب يجلسان فى دار العرض نفسه يشاهدان الأخبار التى تعرض، لكن قراءتهما لتلك الأخبار كانت مختلفة، ونادراً ما كانا يتفقان ولو حدث فسيكون ذلك بمثابة صدفة محضة.

هذا الشاب هو خوان بويول غارسيا، كان وقتها فى التاسعة والعشرين من عمره، ويقيم فى مدينة برشلونة، وكان يكره الخدمة العسكرية، وكان والده "القطالونى" الأصل على قدر كبير من الرفق والأخلاق وليست له صلة بالسياسة، وهو من ربى ابنه على كره الظلم والحرب، وأن القلم أعظم من السيف. افتخر بويول بعدم إطلاقه طلقة واحدة فى الحرب الأهلية الإسبانية؛ حيث هرب من التجنيد فأدخل السجن ثم أطلق صراحه، وعندما دارت رحى الحرب العالمية الثانية قرر بويول الانخراط فى عمل إنسانى غير قتالى، فلم يكن عميلاً مأجوراً (على نقيض دوسكو بوبوف الذى دائمًا ما كان يعقد صفقاته التجارية فى الخفاء)، بل كان بويول مثاليًا وصاحب رسالة ومولعًا بالقراءة متنقلاً بين الوظائف من تربية الدواجن حتى صار مدير فندق. عمل بويول بجد وحقق ذاته فكان يقدر قيمة الأشياء أكثر مما يقدر المال، حتى إنه قد عالج رجلى حمار خلفيتين.

يذكر أن مكتبة والده ملئت وجدانه، وباعتباره واحداً من الإسبان، وعلى الرغم من الرقابة والدعاية المكثفة لدول المحور وصحافة مدريد التى تبارك تقدم هتلر فى أوروبا، ورد إلى مسامعه القصص المرعبة لما يفعله النازيون بالناس فى معسكرات الإبادة بألمانيا وبولندا، ومثله مثل كل ناطق بالأسبانية ألقى القبض عليه أثناء الحرب العالمية الثانية.

ذهب بويول فى يناير ١٩٤١؛ إلى السفارة البريطانية ليعرض عليهم العمل لصالحهم فى ألمانيا أو إيطاليا كعميل سرى فأغلقوا فى وجهه الأبواب، فذهب إلى السفارة الألمانية مقدمًا الأوراق التى تثبت انتماءه إلى اليمين ومقدمًا العرض نفسه للعمل فى لشبونة أو بريطانيا العظمى فأغلقت أيضًا فى وجهه الأبواب. ولكنه أصر على ذلك، فأخبره الألمان إنهم سيفكرون فى ذلك إذا استطاع الوصول إلى بريطانيا، فذهب بويول إلى لشبونة محاولاً الحصول على تصريح كصحفى، ولكنه فى النهاية قام بتزوير جواز سفر دبلوماسى إسبانى عن طريق خداعه لرسام برتغالى؛ حيث أقنعه بأنه يعمل لدى السفارة الإسبانية، وعند عودته لمدريد صور الوثيقة واستطاع خداع ضابطى استخبارات ألمانيين؛ حيث أقنعهما أنه كان يعمل مع قوات الأمن الإسبانية وسيذهب عما قريب إلى بريطانيا ليبحث عن أموال له مفقودة، فصدقه الضابطان لما بدا عليه من سرعة حديثه وأوراقه التى تبدو أنها موثقة، فأعطوه ٣٠٠٠ دولار أمريكى ودربوه على الكتابة بالحبر السرى، ثم وجهه فريدز كناب راتى، أحد ضباط الاستخبارات الألمانية، إلى أن يتواصل مع المراسل العسكرى للجريدة اليمينية إيه بى سى فى لندن وهو لويس كالفو العميل السرى الثابت لألمانيا هناك؛ وأخبراه بأنه يمكنه استخدام الحقيبة الدبلوماسية الإسبانية فى إرسال الرسائل، وقال بويول إنه يأمل فى ألا تحاول الاستخبارات العسكرية الألمانية ذكر اسمه مثل ما فعلوا مع كالفو، وأصر على تفضيل العمل منفرداً.

قام بويول بتغليف حزمة الدولارات فى كيس واقٍ وخبأها فى أنبوب معجون الأسنان وعبر الحدود إلى البرتغال فى يوليو من عام ١٩٤١، وهناك ذهب إلى السفارة

البريطانية وأراهم الحبر السرى وقائمة بالأسئلة التى أرادت الاستخبارات العسكرية الألمانية منه الإجابة عنها، إلا أن كل ذلك ذهب دون جدوى؛ فعاود المحاولة مرة ثانية. أرسل بويول على عجلة من الأمر رسالة إلى مدريد - أكبر مركز للاستخبارات العسكرية الألمانية خارج البلاد - يعلن فيها زيفًا أنه وصل إلى إنجلترا، والآن أضحت لديه مهمة مثيرة هى أن يثبت للألمان أنه أصبح عميلاً سريًا يتجسس لصالحهم فى بلد لم يسبق له زيارته ويتحدث لغتها بشق الأنفس، وصل بويول "رجلنا" إلى لندن، لكنه ما هو إلا رجل بمفرده يعيش فى لشبونة وعليه أن يبدأ من نقطة الصفر.

ومثل ما يفعله كتاب القصص، تردد بويول على مكتبات لشبونة ومحلات بيع الكتب يغوص فى مراجع مثل كتاب: باديكار "بريطانيا العظمى: دليل المسافرين" - (Great Britain: Handbook for TRavellers) - (١٩٧٣) ويحتوى على خرائط للشوارع، إضافة إلى كتاب برادشو "دليل السكك الحديدية البريطانية" (Guide to the British Railways)، كما انكب على قراءة الصحف والمجلات البريطانية وسجل أسماء الشركات من خلال الإعلانات وأمعن النظر فى كل دور العرض الإخبارية التى تعرض أى شىء يخص بريطانيا، وابتاع خريطة كبيرة لبريطانيا العظمى تسمى "الدليل الأزرق إلى انجلترا" - (Blue Guide to England)؛ إضافة إلى قاموس إنجليزى - فرنسى للمصطلحات العسكرية، ودليل الأسطول البريطانى المكتوب باللغة البرتغالية، ثم عكف فى غرفته التى استأجرها فى مدينة كاسياس ثم فى مدينة إستروويل ليؤلف القصص الخيالية المفصلة لقادته الألمان فى مدريد.

من العجيب أن تنطلى على ضباط الاستخبارات الألمان الذين هم على درجة عالية من التدريب والاحترافية هذه التلفيقات! ويتعاملون معها على أنها حقيقية، هناك قدرة بشرية غير محدودة لخداع الذات يتمتع بها هذا الرجل، إننا نحب سماع ما يتفق معنا، وأكثر الأمور تصديقًا هو ما يوافق أهواءنا إننا نرى ما نحب أن نراه؛ وهم العراق وسراب أفغانستان وعملاء لندن السريين.

فى سبتمبر عام ١٩٤١؛ لبى كليرك استدعاء هيئة الأركان الإمبراطورية، وهى أعلى قيادة للدفاع البريطانى، عائداً من لشبونة إلى لندن الكئيبة، وبعد مضى أربعة أشهر كانت شقته الجميلة بشارع ستراتون قد دمرت بلغم قوات المظلات أثناء الهجوم الجوى الأخير والكبير للقوات الألمانية، ثم عاد إلى شمال إفريقيا، ليلتحق بالقوة التى أطلق عليها كليرك "فرقة الصحراء الغربية" أو "جيش النيل" والتى ستشكل نواة للجيش الثامن الإنجليزى؛ وكانوا يستعدون لتنفيذ العملية المسماة "كروسيدر" أو هجوم أوشينلك على رومل فى سيرنيكا، حيث كان رئيس الوزراء يتطلع باشتياق إلى تدمير قوات رومل فى إفريقيا، وفى تلك اللحظات الحاسمة طُلب من كليرك كتابة مذكرات حول خبرته فى مجال الخداع الاستراتيجى فى الشرق الأوسط.

فى ٢٩ سبتمبر؛ تعرف كليرك على جاى ليدل مدير التجسس المضاد بالاستخبارات العسكرية بالقسم الخامس والذى سجل فى يومياته: "إن كليرك كان لديه العديد من مخططات الخداع وأنه يتحكم فى تقديم الشائعات والمعلومات المضللة مستخدماً مصادر مونصل، ما أسهم فى نجاح العمليات التى قام بها نجاحاً منقطع النظير".

ذكر كليرك لـ "ليدل" الدروس التى استفادها من إخفاق سياسته الخداعية فى إثيوبيا، لكنه وصف أيضاً فعالية إعادة التعزيز فى قبرص، حيث ساعدته شفرة رسائل الفرقة العسكرية "إيه" والدبابات الزائفة فى حماية الجزيرة من الهجمات، ورأى ليدل أن عجلة الأحداث تسارعت فى الشرق الأوسط بعد أن أكد ويقل أن الخداع كان جزءاً من العمليات بدلاً عن الدخول فى دوامة التخطيط أو الاستخبارات.

فى الأول من أكتوبر؛ حضر كليرك الاجتماع الأسبوعى، اجتماع الأربعاء، للجنة الاستخبارات العسكرية القسم الخامس إكس إكس، وفى اليوم التالى تقابل مع المؤيدين لقادة الأركان فى مجلس وزراء الحرب الذين يقدمون أوراق اعتمادهم الجديدة، حيث تأثرت كل من لجنة الاستخبارات المشتركة الفرعية (والتى يترأسها بل كافنديش بينتينك، وتضم قادة الاستخبارات البحرية والعسكرية والجوية) وهيئة التخطيط المشترك (والتى يدير قادتها أقسام تخطيط العمليات المستقبلية والاستراتيجية والتنفيذية)

بما كتبه كليرك، كما تحدث كليرك مع ليدل مرة ثانية ورتب معه تزويد الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس، بجميع خططه الخداعية وبالدعم الذى يحتاجه، ومن تلك اللحظة تعين على لندن والشرق الأوسط أن يتشاركا فى جميع المعلومات مستخدمين "شفرة من نوع خاص؛ تحتوى على رموز لضمان السرية" والتى دار الحديث عنها من قبل، (فعلى سبيل المثال عندما يذكر كليرك كلمـــة "مضـــاد" فإنه سيعنى "تشجيع") وفى سياق الحديث عن الخداع، حذر ليدل تحذيراً بالغ الشدة من أن القسم الخامس من الاستخبارات العسكرية لا يمكن له أن يعتمد على الكذب الصريح، بل علينا غرس بعض أشجار الحقيقة.

وفى يوم الثلاثاء؛ قابل كليرك رؤساء هيئة الأركان المشتركة شخصيًا، وكان الرئيس، رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية، ورئيسه السابق فى وزارة الحرب جون ديل الأرمل يستعد لحفل زواجه، الثانى، فى اليوم التالى.

كان كليرك قد تعرف بالفعل على قائد أركان القوات الجوية المارشال السير تشارلز بورتال من عدن، وقائد البحرية السير روجر كيز، ورئيس العمليات المشتركة منذ أن كان فى صفوف القوات الخاصة، وفى اليوم التالى كانت هيئة التخطيط المشترك؛ قد اطلعت على أوراق كليرك وأصدرت توصية إلى قادة الأركان أن فصيلة مثل الفرقة العسكرية "إيه" ليس لها إلا أن تزرع فى قلب مجلس وزارة الحرب؛ حيث إن مهمتها تكمن فى التحكم فى عملية الخداع على مستوى العالم، فكان ذلك تأييداً غير متوقع لأفكار كليرك ويفل، فكان لهذه الفصيلة أن تكون فى قلب العمليات وتتلقى الأوامر مباشرة من أحد القادة لتخطيط وتنفيذ المكائد وأن تكون قادرة على استقطاب المصادر من جميع الفروع الأخرى، وقد وافق قادة الأركان على الخطة، وسأل دودلى باوند القائد البحرى الأول كليرك عما إذا كان يرغب فى تولى منصب الضابط قائد أول هذه الفصيلة.

كانت هذه الوظيفة هى الأمثل بالنسبة إلى كليرك؛ فهو أفضل من تلقوا التدريب اللازم لتوليها، لكنها كانت من قبيل دس السم فى العسل، فقد كان كليرك على قدر من

الخبرة الصادقة كى يدرك أن عليه - أنه من الأفضل - أن يكون سمكة كبيرة فى مستنقع صغير، ففى قلب الشرق الأوسط كان يتمتع بسلطة مباشرة وحرية أكبر فى إدارة العمليات، بل ربما قد تمتع بحرية شخصية أكبر أيضًا، وكما سيتضح لاحقًا فقد كان يقوم أحيانًا ببعض المغامرات؛ فقد كانوا يحسنون معاملته حتى عندما يصل متأخراً نصف ساعة إلى اجتماع القائد العام، أما هنا فى لندن فالجميع يعرف ما يفعله كليرك جيداً ومن السهل أن يجهل أحد عليه أو يصمه بأنه من طبقة دنيئة أو يعلوه فى الرتبة، فرفض الوظيفة بحجة ولائه للعمل حيث ادعى: إنه كان ضابط أركان تحت إمرة الجنرال أوشينلك وأنهما لم يكملا العمليات بعد، وأضاف: إنه ليس من العدل أن تأخذوا مساعد الرجل بعد أن أعاره لكم ليلة، الأمر الذى أثار ضحك بول.

قرر المجلس تعيين الكولونيل أوليفر ستانلى مدير قسم تخطيط العمليات المستقبلية فى هذه الوظيفة بدلاً من كليرك، فلم يكن الرجل المناسب فى المكان المناسب إلا أن أحد القادة الثلاثة الذين عينهم ستانلى كمساعدين؛ كان دينيس ويتلى الذى كان آخر لقاء لنا معه عندما كان يكتب رسالة للدفاعات البريطانية ضد الغزو النازى عام ١٩٤٠، لقد بدأ فى كتابة القصص الخيالية بعد أن خسر تجارته للخمور إثر الأزمة الاقتصادية عام ١٩٣٤؛ وأصبح حديث الملايين بسبب روايته "نجاة الشيطان" - (Devil Rides Out) تلك الرواية التى يمزج فيها بين كتاب جون بوشانسك المثير الذى يتناول السياسة المعاصرة وبين السحر الأسود والشائعات، أما الآن فعلى ويتلى أن يجتاز دورة تدريبية لمدة ثلاثة أسابيع فى أوكسبريدج فى ديسمبر ١٩٤١ ليتأهل لأن يصبح ضابطًا طياراً بسلاح الجو الملكى البريطانى. ثم بعدها وضع الشريط الحريرى الأحمر على معطفه الأزرق وحمل عصًا مكسوة بالجلد يحملها الضباط، وأما كتابه الممتع "خبراء الخداع" - (The Deception Planner) المؤلف الخامس والسبعين له والذى نشر بعد وفاته عام ١٩٨٠؛ فهو يصف فيه كيف بدأ أسلوب الخداع الجديد "الواهن"، إلى أن بلغ من السرية مبلغًا كبيرا "حيث كانوا معزولين تمامًا ولم يسمح لهم بالحديث إلى أعضاء هيئة التخطيط المشتركة الآخرين: "وعلى الرغم من أننا كنا نمكث لأسابيع طوال دون أن نعد لشىء على الإطلاق".

ومع أن أسلوب الخداع الجديد، كان يحظى بالدعم من أعلى المستويات، إلا أنه لم يكن فعالاً حتى شارك فيه ويفل من الشرق الأقصى فبعث بتلغراف إلى تشرشل فى ٢١ مايو ١٩٤٢ يخبره فيه بأنه إذا لم يكن المقصود من الخداع أن " يظل فى دائرة محدودة"، فلا بد أن يتم التخطيط له وتنفيذه فى صميم لب الاستراتيجية، إن المنهج المتبع حاليًا هو منهج دفاعى بحت، واقترح ويفل خطة "سياسة الخداع الخيالى الحاد" ليتم تنفيذها بين لندن وواشنطن العاصمة وجميع القادة المعنيين. وفى ذلك اليوم نفسه وافق قادة الأركان على تعيين المقدم جون بيفان بديلاً عن ستانلى.

لماذا أكد ويفل من جديد على اهتمامه بأسلوب الخداع فى مايو ١٩٤٢؟ بعد أن هاجم اليابانيون الأمريكيين فى بيرل هاربور وبعد تأسدهم على الإمبراطورية البريطانية والهولندية فى الشرق الأقصى؛ تبين لويفل القائد العام لقوات الحلفاء أنه يحتاج إلى دودلى كليرك آخر كى يساعده، وفى أوائل يناير ١٩٤٢ أرسل لطلب بيتر فليمينج الذى سافر إلى الهند مرورًا بالقاهرة؛ حيث مر خلال صفوف الفرقة العسكرية "إيه" وتحدث إلى كليرك، وفى أواخر مارس جلس فليمينج مع ويفل فى نيودلهى لتأسيس (خداع) استخبارات هيئة الأركان، فكتب فليمينج إلى دينيس واتلى: "إنها حلبة عرض بها حصان واحد وأنا هو ذاك الحصان"، فكان أول ظهور لهذا الجواد على العشاء فى دلهى ذات ليلة فى أواخر أبريل ١٩٤٢؛ عندما أخبر ويفل كلاً من فليمينج وبرنارد فيرجسون عن أساليب ألنبى الخداعية بفلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى خاصة عن خدعة حقيبة الظهر التى تخص ريتشارد ماينرتزيهاجين.

مكث فليمينج وويفل حتى الواحدة صباحًا يخططان لخدعة من فى بورما والتى صارت نمطًا بعد ذلك يعرف بالكود "إرور"، وكان وضع بورما العسكرى حرجًا؛ فجيش الإمبراطورية اليابانية ذو العزم الأكيد يتقدم من الجنوب وكان الجنرالات هارولد ألكسندر وبل سليم يحاولان الانسحاب بقوات بريطانيا والهند والصين بنجاح شمال رانغون إلى ماندالاى ثم بعدها إلى الشمال الشرقى نحو الجبهة الهندية؛ أما العملية المسماة "إرور" فكان من المخطط لها أن تقنع الاستخبارات اليابانية بأن القائد العام

البريطانى السير ويفل؛ قد تعرض لحادث أثناء آخر زيارة له للجبهة تاركًا وراءه حقيبة أوراق تحتوى على أسرار مهمة.

ملأ بيتر فليمينج تلك الحقيبة بعناية، وأقنع ويفل أن يمده ببعض الخطابات الشخصية وكذا صور ابنته العزيزة باميلا، وكان من بين الأوراق "مذكرات ويفل إلى ألكسندر" التى تشير إلى وجود جيشين فى بورما، ودعم جوى متزايد، وسلاح سرى جديد، وبالفعل بدا الحلفاء أقوى بكثير من تقدير اليابانيين بسبب تلك الوثائق، كما زور فليمينج خطابًا على أنه مرسل من قبل جون برايت أستلى الذى كان يدير "مركز الاستخبارات الجنرال اسماى السرى" إلى كبار القادة فى وزارة دفاع تشرشل بلندن، واستعار أحد معاطف ويفل ذات الشارات العديدة.

استقل فليمينج الطائرة إلى بورما أوائل أبريل ١٩٤٢؛ بصحبة قائد الكتائب مساعد ويفل النقيب ساندى ريد سكوت، وبعدما فاز ريد سكوت وأصبح قائدًا للتشريفات فى ديسمبر ١٩٤٠، ثم فقد إحدى عينيه إثر هجوم جوى على بارديا على طريق طبرق، وفى شويبو فى السهول الوسطى فى بورما بين شيندوين وأنهار إيراوادى تقابل فليمينج وريد سكوت بالجنرال هارولد ألكسندر. اقترح رئيس الأركان أن ثمة مكان مناسب لتلك الخدعة على نحو ستين ميلاً جنوبًا؛ هو جسر أفا الممتد على نهر إيراوادى فى ساجانج تمامًا مع اتجاه المجرى من ماندالاى؛ حيث يوجد آخر القوات ببورما الذى سينسحب شمالاً، ومن حظ فليمينج السعيد فهو الآن يتوجه لمقابلة مايكل كالفيرت الذى كان قد أمده بوحدات الدعم فى كينت عام ١٩٤٠ وهو الآن يقود إحدى الكتائب.

ركب الجميع سيارة فورد جديدة خضراء اللون نوع مركورى فى ٨، ذات المقعدين، واتجهوا جنوبًا نحو جسر أفا ومقر القيادة الفرعية فى ساجانج، حيث كان اللاجئون الهنود والجنود الصينيون المنسحبون يسلكون الطريق الأخرى؛ حيث بدوا بحالة رثة وبائسة فى عين ريد سكوت.

كان الجنرال بل سليم قائد القوات ببورما (المشير فيما بعد)؛ يقود عملية الانسحاب محاولاً رؤية فرق المدرعات بالجيشين السابع والخامس الصينيين عبر إيراوادى شمالاً قبل أن ينسف الجسر الحديدى بحلول منتصف الليل، وفى نحو الساعة ٧:٣٠ مساءً على مسافة ٤٠٠ قدم جنوب مقدمة الجسر، قام فليمينج وكالفيرت بوضع بعض علامات التحذير ثم قاما بإبعاد طاقم عرباتهم الفارغة عن الطريق. وكتب فليمينج: "لم يكن الأمر دراماتيكيًا".. تخبطت السيارة أسفل الجسر دون أن تنقلب، ومرت بممر عربات وغارت عجلات السيارة فى الأرض ثم سربوا الهواء من إحدى الأطر وثقبوا الآخر وطرقوا الهيكل قليلاً ورموا زجاج النوافذ بالحجارة فتكسرت وتكسرت الكاشفات الأمامية وأخذوا مفاتيح التشغيل، وفى حقيبة السيارة وضعوا حقيبة الأوراق ومعها ملابس الخدمة التى تخص ويفل ذات الشارات وقلادة القائد العام الموضوعة ناحية الصدر مع بطانيتين وثلاث قصص من مكتبة نادى شويبو كليب، لكن السيارة كانت تبدو من فوق الطريق بحال جيدة من الممكن أن تلفت أنظار العدو، وبحلول الثامنة كان هؤلاء الرجال الدواهى فى طريقهم للعودة شمال الجسر بعربات الجيب.

رأى سليم آخر دبابات ستيوارت المنسحبة، تزن الواحدة منها ١٣ طنًا، تعبر إيراوادى على طريق ممهد لحمل مركبات لا يزيد وزنها على ستة أطنان، وتوقع المهندسون البريطانيون أن تكون هذه هى الساعات الأخيرة فى عمر جسر أفا، وكتب سليم فى نهاية فصله المسمى "كارثة" فى كتابه المسمى "من الهزيمة إلى النصر" (Defeat into Victory): وهوى الجسر فى ضربة مدوية فى تمام الساعة ٢٣:٥٩ يوم ٣٠ إبريل وسقط مركز الجسر كما قدر له فى النهر فى منظر بائس وإشارة إلى أننا لن نستطيع العودة إلى بورما".

وكما هى الحال فى العديد من عمليات الخداع، لم يعرف أحد على وجه التحديد النتائج التى حققتها عملية "إرور"، فلم تهاجم اليابان الهند، لكن بيتر فليمينج رأى أن قسم الاستخبارات فى الجيش اليابانى لم يكن سلاحًا قويًا، فقد كان متبلدًا ولم يكن

بمقدروه عمل الاستنتاج الصحيح من الحقائق الجلية، ولذلك لقى استخفافًا أو تجاهلاً من قبل من كانوا فى العمليات اليابانية، فظن فليمينج أن حقيبة الأوراق ما كان لها أن تحدث نحو هذا الهجوم المضلل، وأرسل برقية إلى قسم المراقبة فى لندن يخبرهم بـ "ما نريده "ليس هو السمكة، بل إننا نريد "الحوت الأرجوانى" فصارت كلمة "الحوت الأرجوانى" اسماً حركيًا للعميل المزدوج الصينى شيانج كاى شيك فى شنكينج الذى كان يمرر (أو بمعنى أوضح حتى يبيع) لليابانيين الوثائق الكاذبة رفيع المستوى التى كان يلفقها فليمينج.

عندما تولى "جونى" بيفان فى يونيو ١٩٤٢؛ كتب توجيهاته المحفزة حول قسم المراقبة فى لندن. كان قسم المراقبة فى لندن مخولاً بكتابة التقرير مباشرة لهيئة الأركان وكان عليه التخطيط لعمليات الخداع الاستراتيجى ودعم تنفيذها وعمل جميع الجهود المطلوبة لتضليل العدو عند تحقيق أى مكسب عسكرى.

كان بيفان فى السابق سمسارًا فى البورصة فى إيتون وله علاقات اجتماعية أذهلت تشرشل خلال الحرب العالمية الأولى، كما كان كل من بيفان وويتلى يتمتعان بحس اجتماعى، وكانا من رواد المحافل حيث ساعدهما ذلك فى مصاحبة كبار الشخصيات. أما بون فيفور "ويتلى" فقد كان يحب الخمر الذى كان يحصل عليه من رفاقه تجار الخمور وكان يعشق الأكل، حيث يعتبر القرب من الناس من قواعد عملهما لذلك فقد كان فى وقت الحرب توجد على طاولته فى وجبة الغداء زجاجتان أو ثلاث من النبيذ فى قاعدة رولز ثم يتبع ذلك بزجاجة من الأفسنتين (الذى كان يعرف شانيل رقم ٥) ثم خمر أبيض أو أحمر مع أسماك السلمون المدخنة أو قدور الجمبرى أو الحمام أو أقفاص الأرانب الوحشية والسلمون مع عيش وليزى محمص بالجبن، ثم ينام قليلاً وقت القيلولة فى غرف النوم الخاصة بأعضاء البرلمان، أما بيفان فكان حاد الطبع هائج الأعصاب مندفعًا، لذا كان الرجلان يكملان بعضهما بعض.

وكان من بين من انضموا إلى قسم مراقبة لندن الرائد رونالد وينجيت ابن ريجينالد وينجيت سردار السودان أيام توماس إدوارد لورنس، كان وينجيت فى السابق خادمًا

مدنيًا عانى من النظام الطبقى البيزنطى عبر البيروقراطية البريطانية، ولما استوعب تمامًا ما سماه "عمل البروتوكــولات" وبلغ ما لم يبلغه أحـد، فمع أن بيفان كان يثور فى بعض الأحيـان، إلا أن وينجيت كـان دومًا هــادئًا سـمحًا، حــيث وصـفه ويتلى بداهية الأفـاعى.

كان بيفـان هو من نقــل قسم مراقبة لندن إلى السرداب المحصن تحت الأرض رقم ١٠ شارع داوننـج ستريت أنيكس، فقد كانوا فى الطابق الأعلى يعملون على حذر، لكنهم الآن يباشرون عملهم بانهماك، حيث قارن ويتلى غرف مجلس الحرب بالطابق السفلى لسفينة حربية، فالدعامات الحديدية تحمل سقفًا خرسانيًا مقاومًا للقنابل يبلغ سمكه ٥ أقدام، إضافة إلى الأنابيب والأسلاك الممتدة خلال ممرات بيضـاء تربط ما يزيد على مئة غرفة بمراحيض صحية ومخزون هواء يحرسه أفراد من البحرية الملكية، فهذا هو المكان الذى تؤخذ فيه القرارات الاستراتيجية وتوضع فيه الخطط، لقد تم تنفيذ عمليات الخداع فى صميم عمليات الحرب بالدقة المطلوبة؛ ففى هذا المكان فقط كانت تعرف الحقائق الكاملة من تلك الأكاذيب المصنعة، حيث عنى رئيس الوزراء بشكل كبير بعمل قسم مراقبة لندن، كما سيكون سيفتون ديلمر قائد الحرب النفسية فى الدعاية السوداء من الزوار المترددين على هذا القسم، وبداية من صيف ١٩٤٢ حتى النصر، بدأت أغلب سبل الخداع البريطانية تتزامن وتتكامل لتظل دول المحور تضرب الودع متى وأين سيكون الهجوم التالى.

عندما غادر دودلى كليرك لندن متجهًا نحو البرتغال يوم ١٢ أكتوبر ١٩٤١؛ بعد لقائه مع هيئة الأركان، كان لديه ما يدعوه للشعور بالفخر والنجاح؛ فقد أصغى الجميع إليه بكل الاحترام وعرضت عليه أرقى المناصب فرفضـها، والآن هو فى طريقه إلى لشبونة ليتابع وصول الأخبار المغلوطة إلى غرف الاستخبارات الألمانية؛ حيث أثار أن أوشينلك لن يكون بمقدوره أن يهاجم شمال إفريقيا حتى بداية عام ١٩٤١.

كان كليرك يمهد الوضـع للقصة التى سترسل للعميل تشيز عبر جهاز اللا سلكى أواخر أكتوبر؛ لتسخر من فاعلية حملة أوشينلك "كروسيدر" التى تم إيقافها؛ لأنه كان على ثلاثة من الفيالق البريطانية الذهاب إلى القوقاز لدعم الروس، حيث كان أحد

الفيالق مدرعًا والآخران مشاة للاشتباك مع الجيش الألماني الضخم، وأذيع عن ويفل أنه غادر الهند ليقود الفيالق الثلاثة، وهنا يبدو أنه كان لكل شيء معنى حيث قمعت بريطانيا الثورة بالعراق وتعاملت مع الوضع في سوريا، وفي نهاية أغسطس تحركت إلى بلاد فارس لتحمي حقول النفط بإيران، لذا فمن المنطقي أن تكون نقطة التركيز الأولية للجيش على القوقاز، وأما مهمة كليرك فتتمثل في إقناع دول المحور أن الحلفاء ما كانوا ليفعلوا أكثر من هذا وليس بمقدورهم أن يذهبوا إلى شمال إفريقيا.

ولكن عندما ذهب قائد الفرقة العسكرية "إيه" إلى مدريد، كي يبث تلك الشائعات المنطقية على ألسن المصادر الإسبانية، لاقى إخفاقًا كبيرًا. فالأنشطة السرية التي عملت من أجله أصبحت بمنأى عنه على نحو صادم، وفقد كليرك كل شي تقريبًا، وبقيت هذه الحادثة لغزًا إلى يومنا هذا حيث حدثت في وقت محدد وبشكل غير معقول لكن ظلال ما حدث باتت واضحة.

في منتصف أكتوبر ١٩٤١؛ ألقي القبض على دودلي كليرك بمدريد وهو يرتدي ملابس امـــرأة: حـــيث احتجزته الشرطة الإسبانية لكن أين بالتحديد وما الملابسات؟ لا يعلم أحد ذلك حتى الآن، لكن مركز تشرشل للمحفوظات بكامبردج كان يحتوي على نسخ للصور الأربع التي أُخذت لكليرك إلا أنها لا تشبه صور الشرطة على الإطلاق، حيث كان موجودًا في صورتين جالسًا وفي الأخريين واقفًا بجانب كرسي مائدة أمام ورقة معلقة على حائط غرفة ذات أرضية خشبية رقيقة.

تجسد الصور مظهرين مختلفين لقائد الفرقة العسكرية "إيه" بالشرق الأوسط، كان كليرك في أحد المظهرين أشقر الشعر في منتصف العمر يرتدي سترةً وقميصًا ضيقًا أملس شفافًا، ورابطة عنق فراشية ذات مربعات، بينما بدا في المنظر الآخر امرأة مكتحلة، تضع ملون شفاة، وترتدي ملابس خروج أنيقة نحيلة مزهرة بها ثلاث مجدولات لؤلؤية مرصعة بأحجار قاتمة وترتدي حذاءً ذا كعب عالٍ وبيدها حقيبة أنيقة ووشاح رقيق مجسم، بينما تتمثل الملاحظة الغريبة في الذراعين الكبيرين جدًا اللذين يغطيهما قفاز حريري لامع حتى المرفقين.

سجل جاى ليدل فى يومياته فى يوم ٢١ أكتوبر - وهو من المخابرات العسكرية القسم الخامس، ومدير التجسس المضاد والذى كان آخر لقاء له بكليرك عندما كان يسير بسيارته فى أعالى لندن قبل شهر من هذا الحـدث - الصعوبات التى واجهها كليرك ما يلى:

سجنت السلطات الإسبانية كليرك عندما كان فى طريقه إلى سويسرا، وإنى أخاف بعد بقائه فى لشبونة منتحلاً شخصية صحفى أن يفرط فى ثقته كعميل سرى، ومن الأفضل لهؤلاء أن يلزموا أنفسهم بمهامهم.

كيف خرج كليرك من حمى الشرطة؟ حسبما يقول ليدل، كان هناك رجل فى مدريد فى ذاك الوقت، تواصل معه كليرك فى لشبونة مسبقًا واعتقد الرجل أن كليرك عميل ألمانى، فأنقذ كليرك بإخباره السلطات الإسبانية بأن كليرك عميل ألمانى مهم، وأن السلطات الألمانية على استعداد للتدخل لإطلاق سراحه، وطلب إطلاق سراحه على وجه السرعة:

إن أقل ما يقال فى ملابسات هذا الإفراج أنها استثنائية، فقد كان كليرك فى ذلك الوقت يلبس صدرية وما إلى ذلك كأى امرأة، ولا يعلم أحد لم كان متنكرًا بهذا الشكل، لقد بدا أنه أجاد اللعب بأوراقه... دودلى كليرك الآن فى طريقه إلى الوطن. ولا أحد يفهم لم كان عليه الذهاب إلى إسبانيا، وقبل أن يتم السماح له بالعودة إلى الشرق الأوسط سيتعين عليه أن يقدم تقريرًا مقنعًا عن نفسه.

يعلق ليدل: "ربما أن (كليرك) ممن يرى نفسه عميلاً سريًا غير عادى".

وربما عاد افتخار كليرك فى مقابلة لندن أوائل أكتوبر بالوبال على رئيس التجسس المضاد بالاستخبارات العسكرية القسم الخامس، لكن كليرك أيضًا قد تجاوز الحد، فالرجل الذى هو على رأس الفرقة العسكرية "إيه" والذى علم الكثير من أسرار دول المحور وكذا الحلفاء (بما فيها ألترا) والذى عرض عليه منصب ضابط مراقبة الخداع حول العالم فى مجلس الحرب، سمح لنفسه بأن يلقى القبض عليه مرتديًا زى

امرأة مثل أى عميل قليل الحيلة، وإنه لمن السهل أن نتنبأ بالذى حمل كليرك على هذا التصرف الخطير من وجهة نظره؛ حيث إنه لم يقدم تعليقًا عن الحادثة أبدًا، ولا بد لنا أن نذكر ذلك السروال المبهر والقبعة ذات المربعات اللتين ارتداهما كليرك عندما كان متقمصًا شخصية صحفى عند وصوله أول مرة لمصر، إن حبه للمخاطر منذ صباه وماضيه كمتعهد وممثل مسرحي يمكن أن يفسر حبه للتنكر ولعب الأدوار فى بعض الأحيان بدلاً من الجلوس وكتابة الرسائل.

هل هناك جانب جنسى بهذه اللعبة التمثيلية؟ لم يتزوج كليرك أبدًا، ولكن لا دليل على شذوذه، ففى مطلع عام ١٩١٧ كما رأينا عندما كان دودلى لا يزال مراهقًا، أقر بأنه كان يجد متعة لا حدود لها حين كان يبدو فى ملابس امرأة على الدراجات البخارية.

فالقصة الاستكشافية "السهم الذهبى" (Golden Arrow) – (هودر وستوجتون ١٩٥٥) التى كتبها كليرك بعد الحرب؛ يظهر فيها الإصرار والتحمس غير المعتاد لملابس النساء وكان الكاتب غالبًا ما يصف هذه المشاهد بصورة شعرية، وعلى غير ما كان عليه كليرك، كان بطل القصة هو جيلس ويفورد عقيد متقاعد أدار وحدة مكافحة التخريب والآن يمارس عملاً أمنيًا مستقلاً، كان جيلس يحب النساء لكنهن كثيرًا ما كن يسبب له ازعاجًا:

مع كل هذا الجمال الطبيعى الذى تحلت به (بولا) فقد بدت حزينة وغير قادرة على شراء فستان أنيق لائق فاخر... لقد وهبها الله عيونًا خضراء وشعرًا منسابًا وساقًا طويلة نحيلة وقوامًا ممشوقًا كأجمل ما ترى عارضة الأزياء، وبينما كانت تتمايل متبخترة وهى تدخل بهو الفندق نفذ شعاع بصره إلى القبعة الغريبة الصغيرة التى يشبه لونها لون الخردل.

وهكذا لم ينس كليرك الروائى أبدًا زينة المرأة؛ إذ تعلم من عمليات الخداع أن أقل خطأ أو أبسط التفاصيل قد تجلب الانتباه وتميط اللثام عن حقيقتها، لكن القصة تنتهى بأنشودة شكر لهدية من معجب ثرى:

حملقت بولا للأسفل نحو دثار له فرو عسلى اللون ملفوف فى كيسه الورقى كحجر من الأحجار الكريمة... وفى مواجهة مرآة البهو لفت جسدها الذى يشبه جسد حيوان المنك بلفافات حريرية...

ربما أخذته نشوة ارتداء ملابس النساء، بل ربما استمتع أحيانًا بارتدائها أو وجد ذلك خير سبيل لإسدال الأستار على هويته، وكل الاحتمالات الثلاثة صحيحة، كان كليرك صغيراً (طبقًا لجواز سفره) نحيلاً مرتديًا قفازين فى مظهر أنثوى مقنع إلى حد ما فى تلك الصورة، وربما يكون الأمر أبسط من ذلك، حيث أرادوا أن يجعلوه أضحوكة.

وربما يكون الألمان فعلاً قد أطلقوا سراح كليرك من سجنه كما قال ليدل، لكن الملحق البحرى البريطانى الذى كانت له علاقات طيبة مع السلطات الإسبانية قد ساعد فى ذلك؛ ولا ريب فقد عمل هيلجارث مع كل من السير صمويل هور السفير البريطانى بمدريد وجون غودفرى مدير الاستخبارات البحرية بلندن؛ كما عمل على التصدى لمكائد الألمان والإيطاليين فى إسبانيا مع إبقاء جميع السبل الدبلوماسية لدى إسبانيا المحايدة رسميًا، وبالتأكيد أرسل هيلجارث صور كليرك بعد أن حصل عليها من الشرطة الإسبانية إلى لندن، حيث انتشرت تلك الصور وتداولتها الأيدى حتى وصلت إلى تشرشل (والذى حمل على عاتقه مسألة مغامرة كليرك)، فقد أثارت ضجة كبيرة وقد قرأنا بين سطور المذكرات بعض ما يدهش.

عزيزى طومسون:

هذه بعض صور السير دودلى رانجل كليرك وهو مقبوض عليه وبعد أن سمحوا له بتغيير ملابسه، احتفظت بها لرئيس الوزراء وأظن أنك ترغب فى رؤيتها أيضاً.

المخلص لكم:

آلان هيلجارث

ومن المحتمل أن يكون آلان هيلجارث قد أوصل كليرك بأمان إلى الأراضى التابعة للإمبراطورية البريطانية فى جبل طارق؛ حيث تم استدعاء كليرك من هناك إلى لندن كى

يوضح ما حدث معه، لكن القافلة التالية التى كانت ستبحر من جبل طارق تأخرت؛ حيث أغرقت غواصات العدو لتوها حاملة نفط بريطانية وسفينة شحن غرب جبل طارق بالأطلنطى، وقامت البحرية الملكية بإرسال مجموعة سفن حربية لتجرى اكتساحًا مضادًا لقوارب اليو، وقد علمت القيادة البحرية عبر خطوط الاتصالات اللا سلكية الألمانية أن مجموعة تتكون من ستة قوارب طراز يو يرمز لها ببريسلو انتشرت قرب مضيق جبل طارق، فأغرقت البحرية البريطانية واحدًا منها وانسحبت البقية ولكن هذا الانسحاب كان مؤقتًا، ففى الغرب كانت تختبئ أربع غواصات إيطالية، يبدو أنها لم تنسحب بعد.

غادرت القافلة جى إتش - ٧٥ التى تضم ثمانى عشرة سفينة تجارية؛ ميناء جبل طارق إلى بريطانيا فى تمام الرابعة مساءً يوم ٢٢ أكتوبر، وكان دودلى كليرك مع "أرسطو" البحار الجديد على متن السفينة "هول" التى كانت تقل عميدًا بحريًا وحمولة من الفلين إضافة إلى مواد خام من المعادن النفيسة، وصحبت هذه القافلة ثلاث مدمرات بريطانية وتسع سفن حربية من طراز ٣٧ إسكورت جروب أبحرت قبل الموعد بساعة ونصف الساعة لتقتنص قوارب اليو، ولكن العملاء الألمان فى سبتة والجزيرة الخضراء أرسلوا على الفور يبلغون قائد قوارب اليو بإبحار الحملة، وفى خلال نصف ساعة علمت قوارب اليو بالأمر أيضًا.

وعند دخول السفن المحيط الأطلنطى؛ أنذرت المدمرات البريطانية الثلاث بوجود غواصات معادية من خلال رصد موجات السونار المنبعثة من الغواصات؛ ومن خلال نظام "هوف دوف" المتواجد بالأدميرالية، فنظام المكتشف عالى التردد المثبت على غواصات العدو والذى يعمل عبر ذبذبات الراديو القصيرة عالية التردد يتعذر وضعه سوى على سطح الغواصات.

وعندما رصدت محطات تنصت الحلفاء فى بريطانيا وكندا والكاريبى؛ ترددًا عاليًا لغواصات ألمانية قاموا برسم خطوط على الخريطة، وعند تقاطع هذه "الخطوط" مع بعضها بعض صار لديهم تحديد تقريبى للموقع، وفى الليلة الثانية وبعد أن أنهى

طرادان حربيان من طراز ٣٧ إسكورت جروب تعقب موجات السونار، حدث انفجار فى مؤخرة القافلة؛ حيث أصيبت المدمرة إتش إم إس كوساك بطوربيد فى مؤخرة الجانب الأيسر من قبل القارب يو ٥٦٣ على بعد ٢٥٠ ميلاً غرب جبل طارق، واشتعل هيكل السفينة بشكل عنيف كما تفجرت ذخائرها قصيرة المدى بسبب الحرارة، وبقى رجال السفينة فى سترات النجاة على أضواء سفينتهم المحترقة، والتقطت السفينة إتش إم إس كارناشن تسعة وأربعين ناجيًا.

وبعد مضى ست ساعات من الليل وقبل بزوغ فجر ٢٤ أكتوبر؛ قام قائد قارب اليو ٥٦٤ رينهارد سوهرن والبالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا بإطلاق خمسة طوربيدات على القافلة ثم فر هاربا فأصابت الطوربيدات ثلاث سفن شحن بريطانية، هى كارسبرك وألهاما وأرسطو التى كانت تحمل دودلى كليرك، فغاصت كارسبرك، التى كانت تقل ٦٠٠٠ طن من الحديد الخام، فى الماء كما يغوص الحجر، بينما أخذت ألهاما نحو عشر دقائق قبل أن تغرق فى البحر؛ فقامت السفن المرافقة بإطلاق قذائف ستار ووهج شديد البياض يسمونه "رقائق الثلج" فى السماء، وتوفى ستة رجال على متن أرسطو إثر الانفجار؛ ولكن الطاقم المؤلف من خمسة وأربعين فردًا والمسافرين تمكنوا وخلال خمس دقائق قبل غرق السفينة من النزول فى قوارب النجاة والسباحة، وبينما كان يواجه الغرق تذكر كليرك القول بأن الذى يولد ببرقع الجنين لا يغرق، وكان كليرك مولوداً ببرقع جنين على رأسه.

التقطت سفينة سويدية أغلب الناجين من السفينة أرسطو، إلا أن كليرك كان من بين السبعة الذين أنقذتهم المدمرة البريطانية إتش إم إس لامبيرتون. حالف الحظ كليرك بأكثر من سبيل، فقد قل وقود السفينة لامبيرتون أثناء مطاردة قوارب اليو واضطرت إلى السير عائدة إلى جبل طارق وعلى متنها هذا المسافر، ومع حلول نهاية أكتوبر أعيد كليرك إلى روك، حيث جعلت هذه الفترة السلطات فى لندن تهدأ بشأن ما حدث فى إسبانيا، وربما يكون كبار القادة فى لندن قد علموا بحجم الخطر الذى أحدق بهم عندما تعرض كليرك للغرق؛ إذ إنه ما زال يمتلك الكثير من الخطط التى لم تُنفذ بعد،

أو حجم الخطر الأكبر الذى كان سيحدث لو تم أسره على يد الألمان، وعندئذ ظهرت أهمية كليرك فى الجهد الحربى.

وتقرر رسالة قادمة من السير جون دل إلى تشرشل فى ٣١ أكتوبر، أن كليرك بعث ببرقية إلى لندن قبل ليلة من وقوع الحادث يخبرهم عن استهداف الطوربيدات لهم ويسأل: هل ما زال مطلوبًا للحضور إلى المملكة المتحدة أم يرجع إلى مصر؛ حيث يباشر استئناف مهامه؟ وهنا يكون علينا أن نتذكر أن دل كانت له علاقة قديمة مع كليرك ذكرناها سابقا، ففى الأسابيع الأولى من تعيين دل رئيسًا لهيئة الأركان الإمبراطورية أبدى كليرك براعة بوصفه مساعداً عسكريًا له، أما الآن فقد لعب دل دوراً أساسيًا فى عودة كليرك لمزاولة عمله، ففى تلك الرسالة التى أرسلها إلى تشرشل أوضح دل أن حضور كليرك قد تأخر "قرابة أسبوع" بمحض "الصدفة" بسبب قوارب أليو، كما ذكر أنه "مطلوب بالشرق الأوسط" من قبل أوشينلك الذى كان "فى أفضل موقع يمكنه من إصدار أوامر تأديبية مع الإحاطة بجميع الحقائق".

اقترح دل على تشرشل التعامل مع كليرك فى جبل طارق، حيث سيستجوبه المشير لورد جورت حاكم جبل طارق، وإذا اعتبر جورت قصة كليرك "مسئولة" ووجدها "مقبولة شكلاً ومضمونًا".. يرى دل أن على جورت "أن يرسل كليرك على أقرب طائرة حربية إلى الشرق الأوسط؛ إذ إنه مطلوب بشدة هناك"، ووافق تشرشل على ما جاء به دل فى الأول من نوفمبر.

وليس من المفاجئ أن يكون خبير عمليات الخداع قد حاول حثيثًا أن يقنع اللورد جورت بأنه كان على استعداد للعودة لأداء واجبه. وبالنسبة إلى التقرير المطول الذى كتبه جورت فمن المحال أن نجده، لكن وصف دل للتقرير تم تسجيله فى رسالة صغيرة إلى تشرشل فى ١٨ نوفمبر، حيث ذكر دل أنه خشى أن ينزعج تشرشل عند قراءة تقرير مطول كهذا، أو ربما اعتقد دل أن فى هذا التقرير ما قد يدين كليرك، فأخبر تشرشل "بأنه لم تبد على كليرك أى علامات تدل على عدم رجاحة عقله، لكن ما قام به هو نوع من إساءة التقدير من أجل غرض محدد كان يرمى إليه، إن انتقاء دل الجزئى من تقرير

جورت الوافى يثير بعض الأسئلة تبدأ بما يلى: "هل بدا كليرك فى جميع الأمور متزن عقليًا، وما الجوانب التى رأى جورت أن كليرك فقد صوابه فيها؟"، ويتابع دل الاقتباس من تقرير جورت قائلاً: "يمكننا أن نتوقع منصفين أن تلك المغامرة وملابساتها سوف تساعد فى إكساب كليرك المزيد من الحكمة بسبب ما تعرض له من صدمة قوية"، فأعاد جورت كليرك إلى الشرق الأوسط، وهنا يقول دل: "لنا أن نفوض أمره إلى الجنرال أوشينلك ليكون له الحق فى أن يتخذ معه إجراءً تأديبيًا أو يعيده إلى عمله الخاص".

ولكن حب الاستطلاع لدى تشرشل بدا واضحًا؛ إذ أرسل إلى دل رسالة تحتوى على عبارة "غرض معين" وسؤال مكتوب يدويًا والرسالة مذيلة بـ "رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية"، وكان محتوى الرسالة: "ما هدف كليرك من هذه المغامرة؟"، فأجاب دل: "لقد عمل السير دودلى كليرك على التواصل مع عناصر ألمانية أساسية ليحصل على مصادر يبث من خلالها معلومات مضللة التى من الممكن أن توفر "تغطية" للعمليات البريطانية (فى الشرق الأوسط)"، وعلى ما يبدو، أقنع هذا الرد تشرشل، فأُعيد كليرك إلى مصر وليس هناك ثمة دليل على تعرضه لأى إجراء تأديبى.

مع نهاية عام ١٩٤١ وبداية عام ١٩٤٢؛ اتسعت مخاطر الحرب العالمية بعيدًا لتتعدى المحيط الأطلنطى وصحارى شمال إفريقيا وسهول أوروبا الغربية، ففى مايو ١٩٤١ أطلقت ألمانيا النازية حملة باربا روسا لمهاجمة الاتحاد السوفيتى بما يقرب من ١٥٠ فيلقًا، ومع حلول ديسمبر كانت القوات الألمانية على بعد أربعين ميلاً من موسكو، وفى ٧ ديسمبر شنت اليابان هجومًا جويًا مدمرًا على البحرية الأمريكية بميناء بيرل هاربور وجميع القواعد الأمريكية المحاذية للمحيط الهادئ؛ قبل أن تواصل مهاجمة الإمبراطورية البريطانية والهولندية فى الشرق الأقصى مجتاحة هونج كونج وسنغافور؛ ما أجبر البريطانيين على الانسحاب من بورنيو وبورما والملايا، ما جعلها أحلك آونة فى زمن ذلك الصراع الدامى.

انخرط العملاقان الكبيران فى الحرب، حيث دخلت الولايات المتحدة ساحة الحرب العـالمية وأصبحت تقـاتل جنبًا إلى جنب مع الاتحـاد السوفيتى ضد عدو مشترك، وفى نهاية اللعبة وعلى الرغم من أن العقول البريطانية لعبت دورها، لكن الدماء الروسية والأموال الأمريكية أسقطت المحور المكون من ألمانيا وإيطاليا واليابان.

(٢٣)

مفـــترق الطـــرق

في ديسـمبـر من عـام ١٩٤١، وهو الشـهـر الذى خـاضت فيـه الولايات المتـحـدة الأمريكيـة الحرب ضد دول المحور، صـدر كتاب يتـألف من سبع قصص قصـيرة فى بينوس أيرس. وكـانت الجملة الأولى التى تأسر الانتبـاه فى القصـة الافتتـاحيـة "أدين باكتشـاف أوكبار إلى نظرى فى المرآة وقراءتى فى موسوعة المعارف" والتى بدت وكأنها شفرة غامضة، كان مؤلف هذا الكتاب هو الشاعر جورج لويس بورخيس كاتب المقالات وأمـين مكتبة، وكـان عمره آنذاك ٤٢ عامًا. كره جورج النازيين فى الأرجنتين وكـانت كتاباته دائمًا ما تؤازر دول التـحـالف أثناء الحرب العـالمية الثانية، كان كتابه يحمل عنوان القصـة السابعة "حديقة مفترق الطرق" – (Garden of Forking Paths The) التى كانت تدور أحداثها حول أسرار الوقت؛ ولكنها أيضًا كانت رواية بوليسية تتضمن أساليب التجسس فى الحرب العـالميـة الأولى، حيث كان على الجـاسوس الصينى بإنجلترا يو تشـون أن يبلغ رؤسـاءه فى ألمـانيا المستبدة باسم مكان مـا فى فرنسـا، فقام بقتل عـالم يحـمل نفس اسم المدينة "ألبـرت" التى تقع على نهـر السـوم وبذلك تقـوم الجـرائد بنقل رسالته إلى برلين. أُعيد نشر قصة "حديقة مفترق الطرق" – (Garden of Forking Paths The) فى ديسمبر عام ١٩٤٤؛ مع تسع قصص إضـافية فى كتاب كبير يسمى "قصص خيالية" (Fictions). وأثناء الحـرب العـالميـة الأولى تطور التـمـويه جنبًـا إلى جنب مع المذهب التكعيبى فى الرسم، بينما تطورت قصص الخداع إلى سلاسل غير متناهية فى الأدب القصصى الذى كتبه بورخيس.

ومع بلوغ الحرب ذروتها لم يبق شىء على حقيقته، وتعرض أسرى الحرب البريطانيين إلى وحشية فى التعامل؛ حيث كان النظام داخل المعتقلات رتيبًا وصعبًا جدًا ولم تكن حياة ١٤٠٠٠٠ من أسرى الحرب فى أوروبا سوى حياة قاسية مملة ومجحفة، وقد حاولت نسبة ضئيلة من الأسرى الفرار، مع أن الهرب كان هو الجريمة الكبرى، لا سيما بالنسبة للضباط الذين كانوا يلقون معاملة حسنة فى معسكراتهم على عكس الرتب الأخرى، ممن كانوا يعاملون كالعبيد. وشعر هؤلاء الضباط بأنه كان من واجبهم أن يضعوا آسريهم فى حرج من خلال محاولة الهروب، لذلك كانت هذه المعسكرات تحبط من آن لآخر محاولات تخريبية داخل السجون. وتناولت الروايات الكلاسيكية التى ظهرت بعد فترة من الحرب قصص الأسرى، مثل قصة "الحصان الخشبى" – (The Wooden Horse) من تأليف إريك ويليام عام ١٩٤٩ وقصة "الهروب الكبير" – (The Great Escape) من تأليف بول بريكهيلز (عام ١٩٥١)، وتركزت حول محاولات المعتقلين البريطانيين المضنية خداع حراس السجن "البلهاء" من خلال الادعاء بأن الأمور تسير على طبيعتها، فالحارس المستهتر يدعى أنه على تأهب دائم، لكن النافذة المغلقة تعد إشارة اطمئنان له، أما خلف هذا الجدار فهناك مخبأ، وتحت المرحاض يوجد جهاز لا سلكى يتلقى رسائل مشفرة من هيئة الإذاعة البريطانية، بينما يستمر "العملاء السريون" فى مراقبة "الناشطين" أو "الجواسيس"؛ فيما يستمر العمل الفنى والآلى فى جهود يدوية مضنية لتزوير بطاقات الهوية وجوازات السفر الألمانية ذات الأختام والدمغات البارزة حيث تبدو مثل الأوراق الرسمية، إضافة إلى صناعة الملابس المدنية الزائفة من البطاطين أو من أزياء السجن الموحدة وسط غفلة من حراس السجن، فيما صنعت بوصلات صغيرة من أسطوانات الحاكى الفونوغرافى المنصهرة وإبر بسرعة ٧٨ دورة فى الدقيقة، كما تم عمل سكك حديد فى باطن الأرض من هياكل السرير ومواد الديكور، حيث يعلم كل من شاهد فيلم "الهروب الكبير" – (The Great Escape) لجون ستورغس أن ستة وسبعين ضابطًا من القوات الجوية تمكنوا من الهروب من معسكر ستالاجت لوفت ٣ فى مارس ١٩٤٤. وصل ثلاثة منهم فقط إلى إنجلترا بينما أعيد أسر الباقين، ورمت الشرطة السرية النازية خمسين منهم بالرصاص بناءً على أوامر أدولف هتلر.

وصفت الكتب التى صدرت والأفلام التى أنتجت فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين سجناء الحرب؛ بأنهم ابتكروا وسرقوا وسلبوا كل شىء بأنفسهم، وفى هذا الصدد حالت الرقابة على المطبوعات دون أن يبوح الكاتب بالحقيقة كاملة. كان السجناء يتلقون طروداً من الجمعيات الخيرية التطوعية بالخارج (لم تكن تلك الباقات هى صناديق الصليب الأحمر التى يجب احترامها وفقاً لميثاق جنيف) بل كانت تحتوى بعض هذه الطرود الخيرية على بطاطين وأوشحة وملابس داخلية وكسوة وما إلى ذلك، بينما احتوى بعض آخر على كتب وألعاب ألغاز، وأوراق، وأقلام رصاص، وأوراق لعب، وأجهزة رياضية، وأدوات موسيقية، وغيرها من أدوات التسلية للسجناء المحتجزين الذين يعانون الملل فى ستالاجر. وقد تحتوى الطرود المرخص لها من اتحاد الرياضيين أو صندوق ويلز، على بعض الألعاب مثل لعبة القمار وصندوق مونوبولى مع عملات ورقية للعب.. بدت هذه الألعاب وكأنها سليمة تماماً، لكنها احتوت على العديد من الخرائط المفيدة عن مكانك فى ألمانيا مطبوعة على مربعات حريرية، كانت هى بطاقات الهروب الخاصة بلعبة مونوبولى، وقد قام بإعدادها كلايتون هاتون، الضابط التقنى الحاذق بالاستخبارات العسكرية، القسم التاسع، الجهاز السرى البريطانى، والذى كانت له خبرة فى عمليات الهروب والمراوغة فضلاً عن تمكن دودلى كليرك الذى كان يدير قسم الشرق الأوسط فى هذا المجال أيضاً.

يكشف هاتون فى سيرته الذاتية الرائعة "السر الرسمى" – (Official Secret) كيف تم تصميم حقائب المؤن المضغوطة لضباط الطيران الذين كانوا تحت الاعتقال من قبل العدو، فقد أخفيت البوصلات فى أزرار السروال الأمامية ومناشير الزخرفة داخل أقلام الرصاص ومناشير جيلى المرنة فى نعال الأحذية ذات الكعوب الوهمية، كما يروى هاتون أيضاً إرسال مساعدات الهروب (من مقراض الأسلاك، والبطاريات، والشفرات، وحتى الأجهزة اللا سلكية البلورية) إلى معسكرات أسرى الحرب، مدسوسة داخل مواد غير ضارة مثل مضارب لعبة الكريكيت والقنانى الخشبية وطابية الشطرنج، كما أن الخرائط كاملة كانت مرسومة على اثنين وخمسين بطاقة لعب فى حقيبة مغلقة.

لم يسمح أبداً للكتب والأفلام التى تناولت قصص أسرى الحرب والتى صدرت فى الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر؛ بكشف حقيقة أنه كان لبعض ضباط لجنة الهروب فى أى معسكر اتصالات سرية منتظمة بلندن، لذا كان يذكر أن الطلبات والمعلومات المشفرة كانت ترسل فى خطابات مرسلة من الزوجات والخليلات وأفراد العائلة لتخبر السجناء عن طرود خاصة يتم البحث فيها دون بقية الطرود، وكان يتم تثبيت النقود الألمانية بالخيط فى أغلفة الكتب وفى التبغ وشراب الكاكاو والقهوة التى كانت ترسل فى طرود الطعام المصرح بها، حيث أمكن استخدامها فى رشوة الحراس ولتستخدم فى نفقات الهاربين، وبعد اكتشاف هذه الطريقة، بدأ الألمان فى تمزيق أغلفة الكتب، ومن ثم قام هاتون بتدبر حيلة جديدة وهى ضغط النقود فى أسطوانات التسجيل ذات السرعة ٧٨ دورة فى الدقيقة؛ بوضعها فى المنتصف وتحت الملصق حول الفتحة، وبين طرود الملابس التى كان يرسلها هاتون وضعت بطاطين صوفية اختيرت بعناية بمساعدة اتحاد الصوف؛ حتى يتسنى تحويلها إلى سترات عند عمل زى جديد لأفراد سلاح الجو الملكى والقوات البحرية مجرد من الشارات البريطانية ليطابق زى قوات الطيران الألمانى، كما كانت هناك علب من المناديل الورقية مربوطة بشرائط سوداء وبيضاء حتى تتوافق مع ميدالية الصليب الحديدى المتدلية، كانت البراعة التى أظهرها البريطانيون فى محاولة مساعدة رجالهم المحتجزين خلف القضبان أمراً جديراً بالاحترام، وإذا كانت لم تفلح فى هروب المعتقلين، فقد استنفدت طاقة الألمان وساعدت فى رفع الروح المعنوية لأسرى الحرب البريطانيين.

لم تكن الاستخبارات العسكرية، القسم التاسع هى الخدمة السرية الوحيدة التى تستطيع القيام بعمليات الإخفاء، فقد كانت لدى الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة وحدة كاملة تضم عدداً كبيرا من منتجى الأفلام والحرفيين ومتعهدى السينما من الذين تم تجنيدهم خصيصاً من أجل إخفاء أى شىء فى أى شىء. كان المقر الرئيسى للقسم الخامس عشر يقع فى فندق ثاتشيد بارن فى ريف بارنت الذى لا يبعد كثيراً عن استوديوهات إلسترى السينمائية، وكان يتولى إداراته رجل لطيف ضخم الجثة يدعى جيه إلدر ويلز وهو الذى اشترك مع بول روبنسون فى "أغنية الحرية" – (Song of Freedom)

وشارك فى فترات تأسيس شركات هامر السينمائية، كما أنتج فيلمين تدريبيين لمدرسة التمويه بالجيش، وهو المكان الذى قام فيه ببناء نماذج لطائرات ودبابات وهمية قبل أن يلتحق بالجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة فى نهاية ١٩٤١؛ ويبدأ أول ورشة له فى يناير ١٩٤٠، فيما أضحى يستعان بقسم التمويه الخاص بمنتجى الأفلام والحرفيين ومتعهدى السينما فى إخفاء الذخيرة والمؤن والأسلحة والأجهزة اللا سلكية وأى شىء آخر، حيث تمكنوا عمليًا من إخفاء الميكروفيلم والرسائل فى أى مكان، حتى إنهم تمكنوا من صناعة سترات وخوذات للقناصين تشبه أوراق الشجر، أو صنع الأحذية اليابانية طويلة الرقبة أو الأحذية الرياضية التى تترك أثرًا يشبه أثر القدم العارية ليستخدمها الجنود فى الشرق الأقصى.

وقام الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة بمساعدة رجاله فى التنكر فى زى حقيقى للاجئين؛ تم إعداده بعناية وتم فحصه من قبل خياطين أجانب، وكانت هذه الملابس قد أُعدت على يد حائكات فى منطقة صناعة الملابس فى لندن جنوب شارع أكسفورد، حيث تم الحصول على الحلى المناسبة والأوشحة وأزرار الأوشحة والأزرار والعرى وحتى نقش كلمة "لايتننج" على الزمام المنزلق. أما بالنسبة لأوراق الهوية الأجنبية الأصلية فقد تطلب إعدادها قسم تزوير كان يضم بين أعضائه الخمسين، حرفيين كثر يعملون لأجل غير محدود ممن كانت أوراق اعتمادهم معروفة لدى شرطة لندن وقد نجحوا فى استخراج أكثر من ٢٧٥٠٠٠ وثيقة مزورة تبدو كالسليمة تمامًا، بينما أمد قسم التجميل عملاءه فى نايتسبريدج بالشعر المستعار ووسائد لثوية وسدادات الأنف وصبغات للشعر والجلد ونظارات وأطقم أسنان خاصة، كما أجريت لهم عمليات تجميل.

جهزت إدارة العمليات الخاصة عملاءها بأسلحة فتاكة، شملت بنادق يمكن إخفاؤها فى أنابيب أو داخل مراقم الحبر، كما أخفيت السكاكين بلصقها فى صدر السترة وكانت هناك أيضا حقائب متفجرة ومواد حارقة، كما صمموا مجموعة من القنابل والشراك الوهمية ومضخات هوائية للإطارات تشبه فى مجملها الأغراض اليومية التى يستعملها الشخص مثل مضخات هواء الدراجات والكتب وعلب السجائر وأنابيب معجون الأسنان.

تم تمويه القنابل فى شكل قطع فحم، حيث كان الفحم وقوداً شائعًا فى القاطرات والغلايات ومحطات الطاقة؛ حيث قام مجصص الأفلام والى بول بشطر قطعة فحم مزيفة إلى نصفين ثم وضعهما حول المادة المتفجرة، واحتوت النماذج على جص سائل مسكوب على عبوة معدنية متفجرة؛ ما أسهم فى عدم وجود أى مظهر للمتفجرات على الإطلاق، كما أنتج القسم الخامس عشر نحو ٣٠ طنًا من "الفحم" المتفجر ما بين عام ١٩٤١ و١٩٤٥، فضلاً عن ٤٣,٧٠٠ "لفافة" متفجرة وحارقة لعملاء الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة.

يتمثل عمل القسم الخامس عشر فى تصنيع الأجهزة والآلات للفرق السرية والتى فحصت فحصاً دقيقًا من قبل الملك جورج السادس فى صالة عرض الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة بمتحف التاريخ الطبيعى فى مدينة لندن؛ احتذاءً منه بأبيه الذى قام بتفقد أداء تمويه ويلنكسون وسولومون فى الأكاديمية الملكية وفى هايد بارك خلال الحرب العالمية الأولى.

أضاف بورخيس قائلاً: كل ما تخيله أصبح حقيقة، لكن بورخيس أحب مزج الحقيقة بالخيال ليضع الكتب التى قام بتأليفها إلى جانب الأخرى الأصلية على أرفف المكتبة، أو باعتبارها نصوصاً خيالية لكاتب مشهور، جامعًا الحقيقة بالخيال كما فعل المخادعون أمثال: دودلى كليرك وسيفتون ديلمر خلال الحرب، وفى قصته القصيرة "تولون وأوكباروأوربيس تيرتيوس" (Tlon Uqbar Orbis Tertius)؛ يذكر بورخيس أن مجموعة من الرجال ابتكروا عالمًا مثاليًا خياليًا ما لبث أن أصبح واقعيًا، فيما بدأت بعض الأشياء التى أطلق بورخيس عليها "هرونير" تتجسد فى عالم المادة؛ حيث كان بعضها يمثل صوراً أفضل من الأصول الحقيقية المفقودة، وبعض آخر لم يكن له غرار سابق أصلاً، لكن الأفضل والأغرب هو ما أطلق عليه "أور": كانت مجرد اقتراح حداه الأمل.

بدا اللقاء الختامى الذى جمع بين خوان بويول والاستخبارات البريطانية؛ وكأنه طفو من الخيال إلى أرض الواقع حيث كان الموقف غريبًا، فعلى الرغم من أن بويول كان

يعيش فى لشبونة، فإنه ادعى أنه يعيش فى لندن للقيام بعمل لصالح مراقب الاستخبارات العسكرية الألمانية فى المدينة الإسبانية مدريد، حيث قام بعمل تمثيلية دقيقة يقول فيها: إنه دفع رشوة لطيار بالقوات الجوية الألمانية ليقوم بنقل رسائله السرية (المكتوبة بحبر سرى بين أسطر الخطابات العادية) من لندن إلى بنك فى البرتغال وهو المكان الذى يمكن أن يتسلمها فيه الألمان (فى حقيقة الأمر، كان بويول هو من قام بكتابة الرسائل وتسليمها بنفسه فى لشبونة)، ومن ثم قام بإرسال زوجته أرسيلى غونزاليس الممثلة إلى مدريد لتتأكد إذا ما كانت الاستخبارات العسكرية الألمانية صدقته بالفعل أم لا، وهناك قامت بتمثيل دور الزوجة الغيورة، قائلة: إنها تعلم أن بويول على علاقة مع امرأة أخرى فى لندن، ما أجبر الألمان على أن يؤكدوا لها عدم صحة ذلك وأنه كان يقوم بأداء عمل لصالحهم فى لندن، وعليها ألا تقلق، ولم تكن الاستخبارات العسكرية الألمانية تعلم أنه عميل سرى رفيع المستوى.

وحتى ذلك الحين، كان بويول مصدر قلق كبير للبريطانيين، وبداية من أكتوبر ١٩٤١ قاموا بمراقبة وتحليل رسائله عند النقطة التى كانت تقوم الاستخبارات العسكرية الألمانية منها ببث رسائله من مدريد إلى برلين. كان هناك عميل يدعى "أرابل"، وعلى ما يبدو نجح هذا العميل فى تجنيد عملاء مساعدين فى مدن جلاسجو وليفربول ومقاطعات غربى إنجلترا، وكان على وشك أن يحصل على وظيفة فى هيئة الإذاعة البريطانية وكانت هناك رسالة احتوت على بعض المعلومات الحقيقية حول توجه إرسالية إلى مالطة، الأمر الذى أزعج الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس، فهذا الجاسوس الطليق التابع للاستخبارات العسكرية الألمانية والذى لم يعتقل ولم يجند يمكن أن يمثل تهديداً للتسعة عشر عميلاً الذين كان يتولى تار روبرتسون الإشراف عليهم إضافة إلى البنية الفوقية للجنة الخيانة، فمن هو العميل "أرابل"؟ أدركت الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس أن هناك شيئًا مثيرًا للدهشة بشأن هذا العميل، فلم يكن أرابل قادراً على تمييز العملات الإنجليزية؛ الجنيه والشلن والبنس، كما أنه لم يكن يعرف أى شىء عن تنظيم الكتائب وقال بطريقة مبتذلة: إن أهل مدينة جلاسجو يمكن أن يفعلوا أى شىء نظير كأس من الجعة، كما أن معظم معلوماته

كانت غير حقيقية، فهل كان يمكنهم التأكد أن هذا الرجل لم يعش فى إسبانيا والبرتغال؟ الكثير من العملاء الألمان فى لشبونة ومدريد يكذبون للحصول على مزيد من الأموال، فهل يمكن أن يكون أرابل واحداً من الروائيين الخياليين؟

تلقى بويول ذات مرة رسالة من الاستخبارات العسكرية الألمانية يطلبون فيها مزيداً من التفاصيل عن تحركات الجيش، إلا أن بويول كان يتحدث الإنجليزية بالكاد، ولم يكن يعرف أى شىء عن الاستعداد العسكرى البريطانى ولم يكن لديه أى مصادر بريطانية تساعده فى اختلاق قصة يقبلها الألمان، وكاد بويول يستسلم عندما كان هو أو زوجته فى آخر عملية لهما فى السفارة الأمريكية فى لشبونة، وكان قد مر شهران على انضمام الولايات المتحدة الأمريكية للحرب وكان ملحق البحرية الأمريكية إدوارد روسو على قدر كاف من الذكاء الذى مكنه من أن يدرك أن بويول قد ألقى بعض الطعم، فقام روسو فى النهاية بالاتصال ببريطانيا؛ حيث تمكنوا فى فبراير ١٩٤٢ من إدراك أن خوان بويول غارسيا وأرابل وجهان لعملة واحدة وأنهما أكثر العملاء المزدوجين قيمة، ولكن لصالح من سيعمل؟ وهنا استدعته الاستخبارات البريطانية، القسم السادس فى لشبونة، ثم استدعاه القسم الخامس فى لندن... وفى النهاية نجح القسم الخامس فى تجنيده لصالحه.

سافر بويول على متن سفينة بريطانية من ميناء إسترويل إلى جبل طارق، ثم سافر جواً من هناك إلى إنجلترا. كان بويول أصلع الرأس ذا لحية كبيرة يسيطر عليه الخوف، وعندما وصل إلى مدينة بليموث فى ٢٤ من أبريل كان فى انتظاره ضابطان من الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس عند سلم الطائرة، كان أحدهما إنجليزيًا يدعى سيريال ميلز لكنه قدم نفسه على أنه السير جراى، أما الآخر فكان الأنيق النحيف ذو البشرة قاتمة اللون والشعر المرسل؛ إنه توماس هاريس الذى كان يتحدث القتشالية (لغة إسبانية) بطلاقة؛ حيث كان أحد والديه إسبانياً، كان هذا الانتظار يشبه القبضة المحكمة، حيث وضع هاريس ذراعه حول كتفى بويول مرحبًا به فى بادرة منه إلى توفير الحماية والرغبة فى الصداقة، وهذا ما أحبه بويول، ما جعلهما يتبادلان الثقة فى آن واحد.

توماس "تومي" هاريس الثرى والمثقف هو نجل ليونيل هاريس الرسام وتاجر اللوحات الفنية اليهودى، وهو من هامبستيد والمعروف باسم سولومون جوزيف سولومون. اتبع توماس نهج والده فى تجارة اللوحات، وأصبح صديقًا لأنتونى بلانت كما نشر قصة كلاسيكية عن رسومات الفنان الإسبانى جويا، لكن هاريس وبويول سرعان ما أصبحا من الشخصيات الكوميدية الرئيسية خلال الحرب العالمية الثانية، وشريكين فى إبداع الروايات الخيالية على شاكلة بورخيس بوى كاسيرز.

يذكر أن أدولف بوى كاسيرز صديق بورخيس الحميم ظهر فى أولى صفحات قصته القصيرة "تولون وأوكباروأوربيس تيرتيوس"؛ بصفته الرجل الذى اقتبس مقولته (المبتكرة) "المرايا والنكاح شيئان بغيضان لأنهما يزيدان عدد البشر". تقابل بوى وبورخيس للمرة الأولى عام ١٩٣٢ من خلال صحيفة الرواد الأرجنتينية، حيث كان بوى متأثرًا لدرجة كبيرة بالكثير من مقالات بورخيس مثل "التسليم بالواقع" – (The postulation of Reality) عام ١٩٣١ و"الفن الروائى والسحر" – "Narrative Art and Magic" عام ١٩٣٢ التى تتناول على وجه التحديد كيفية كسب الكُتاب لثقة القراء ولقبول الحقائق الوهمية التى يبتدعونها من خلال مهارة توظيف التفاصيل والمشاعر العامة، وفى ديسمبر ١٩٤١، قرر بوى وبورخيس معًا كتابة قصص بوليسية ساخرة.

وفى الوقت ذاته بدأ بويول وهاريس التعاون بطريقة مماثلة فى لندن من خلال العمل فى مكتب يقع بشارع جيرمين ستريت فى منزل آمن يتبع الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس، يتكون من خمس غرف نوم على طريق كرسبنى روود، فى هندون (بجوار مقر لأغلبية يهودية)، حيث قاموا بكتابة ما يمثل فى الواقع رواية أدبية أو مسرحية إذاعية للاستخبارات العسكرية الألمانية، ظهر فيها ما يقرب من عشرين عميلاً فرعيًا، وقام بويول وهاريس بتشويه الحقائق والأرقام والمعلومات المفيدة، وتركزت الرواية حول الشخصية المحورية التى كانت تعرف باسم أرابل لدى الألمان، وكان معروفًا لدى الإنجليز فى البداية باسم بوفريل، ولكن بويول كان ممثلاً بارعًا وسرعان ما غير الإنجليز اسمه من بوفريل إلى اسم النجم السينمائى جاربو. اجتهد بويول فى

دوره القيادى كأبرز عميل سرى ألمانى فى بريطانيا، كما يشارك كل من بويول وهاريس، فى كتابة شخصية مغنية الأوبرا النشيطة والدءوبة التى تبحث عن "موهبتها"، لكنها سرعان ما تحزن ما لم تعامل بكياسة ومجاملة، تتمتع بغزارة الأفكار التى لا تتناهى فى أسلوب إسبانى رنان ومنمق يستحق إبداع بورخيس بوى صاحب الاسم المستعار إتش بستوس دوميك.

بينما صارت أنركيتا شقيقة هاريس فرانكفورت - فيما بعد - صاحبة تأثير كبير على فيلاسكيز وجويا، حيث عملت فى الحرب العالمية الثانية فى وزارة الإعلام وقامت بتقديم مجموعة تفاصيل إلى هاريس وبويول، اللذين استخدما تلك التفاصيل فى تجنيد مصدر غير معتمد للاستخبارات يشار إليه بجيه (٣) الذى تم ترشيحه ليكون مسئولاً كبيراً فى القسم الإسبانى لوزارة الإعلام مع أرابل/جاربو.

وتمكن ذلك المصدر من الإفصاح عن نفسه ببراعة خلال تظاهره على أنه جمهورى منفى يكتب دعاية لتوزيعها فى إسبانيا، كان من الممكن أن يصبح جيه (٣) مصدراً رئيسياً يتم الحصول من خلاله على الاتصالات الحكومية والوثائق السرية التى تخص جاربو، إلا أن كل ذلك لم يكن حقيقياً على الإطلاق، وكما قيل فى العصر الإسبانى الذهبى "ما الحياة إلا حلم".

(٢٤)

القـــــدر

تأتى نقطة التحول فى السرد التاريخى الهائل الذى كتبه ونستون تشرشل حول أحداث الحرب العالمية الثانية، فى الجزء الرابع الذى يستحق أن يطلق عليه "حتمية القدر" – (The Hinge of Fate)، والذى يوضح أن حملة شمال إفريقيا عام ١٩٤٢ كانت خطوة حاسمة على طريق تحقيق النصر، حيث شهد عام ١٩٤٢ بداية كئيبة تضمنت وقوع كوارث حربية للحلفاء فى كل مكان، ولكنه انتهى بنبرة أكثر تفاؤلا." ليست هذه هى النهاية"، كان هذا ما ذكره تشرشل فى ١٠ نوفمبر ١٩٤٢، "إنها ليست بداية النهاية، بل هى نهاية البداية"، كان عام ١٩٤٢ هو العام الذى شرع فيه جنود التمويه والمخادعون ومروجو الدعاية السوداء والعملاء المزدوجون الإنجليز فى عملهم.

يشير ستيفن سايكس فى سيرته الذاتية "مخادعون للأبد: مذكرات ضابط غى عمليات التمويه" (Deceivers Ever: Memoirs of a Camouflage) – وكان ستيفن قد احتفظ بيوميات لما كان "يقوم به" فى الصحـراء الغربية ويوم بداية الغـزو الأوروبى، إلى أن الأمور بدأت تتغير عام ١٩٤٢، لكن هذا لا يوضح أهمية هذا الرجل الذى جاء ليضع الأمور فى نصابها الصحيح.

حضر ضابط الأركان العقيد كليرك باكرًا فى فبراير، وكان رجلاً كبيراً شديد الأناقة يرتدى معطفًا مبهراً مصنوعًا من شعر الجمال الإنجليزى، يحيطه جو من الغموض. فقابلته فى ٩ فبراير؛ لإجراء مناقشات حول برقيات فوج الدبابات الملكى

السابع والثلاثين اللا سلكى، إضافة إلى تفاصيل ألوان الخيام البدوية. استخدم العقيد كليرك قوته الخداعية التى يبثها عبر الرسائل اللا سلكية والعملاء... وكان يبدو أن فوج الدبابات الملكى السابع والثلاثين سيتحول إلى خيام بدوية فيما يمثل إشارة أخرى إلى أن الجانب الخداعى لتمويه الصحراء قد أُخذ مأخذ الجد.

يشير سايكس إلى خطة الخداع الخاصة بالفرقة العسكرية "إيه" والتى أُطلق عليها "باشون"، وكانت تهدف إلى وقف تقدم رومل نحو مصر فى بداية عام ١٩٤٢ بجعله يعتقد أنه يمضى نحو الوقوع فى شرك فى جبهة غزالة. كان إخفاء الدبابات فى خيم بدوية خدعة إنجليزية قديمة يعلمها رومل جيداً حتى إنه فعل مثلها، وبناء على ذلك نصب فيكتور جونز ١٥٠ خيمة (خالية) فى ١٥ فبراير فى عمق الصحراء خلف ميسرة الجيش البريطانى وأحاطهم بمسارات مزيفة لدبابات وأناس يتحركون والكثير من المحطات اللا سلكية الوهمية.

وفى مارس قدم الكاتب جولايان تريفليان إلى مصر ليكتب تقريراً حول التقنيات الحديثة للتمويه فى الشرق الأوسط ليتم إرساله إلى السلطات فى المملكة المتحدة، وهناك قابل تريفليان العقيد جوفرى باركاس قائد التمويه فى مقر القيادة العامة، الذى أخبره عن تعقد عملية التمويه فى الصحراء قائلاً:

لا يمكنك إخفاء أى شىء فى الصحراء، فكل ما تستطيع أن تفعله هو التنكر، حيث يبدو الشىء على غير حقيقته، وهكذا تظهر الدبابات كشاحنات خلال الليل، تصبح الشاحنات دبابات، ونترك العدو تائهًا بين تخميناته حول قوتنا الحقيقية وأهدافها، وكل هذا يتطلب فريق عمل كبير، إلا أنه كان بإمكان باركاس أن يطلب المال لتعزيز الفكرة لأقصى درجة منذ أول تقدم يحرزه ويفل.

توجه تريفليان غربًا فى شاحنة مع سائق فظ يدعى جوك هاريس؛ حيث مرا بطائرات محترقة وشاحنات ألمانية وإيطالية مقلوبة، وفى طريقهما إلى طبرق ومقر قيادة الجيش الثامن، حيث كانت توجد خيم ومركبات مبعثرة فى وادى ضحل، زار تريفليان فرقة مدرعة فى أرض غير مأهولة بالسكان وتجول بالبوصلة عبر أراضٍ ليست بها

علامات إرشادية، وتحرك فوق ممرات ضيقة غير متناهية من الأحجار والشوك. لم تكن هذه هى الصحراء التى ترد فى أفلام الفيالق الأجنبية، والتى بها كثبانًا رملية متحركة وبعير يسير بخطوات متئدة، لكنها "سهول قاسية ذات أحجار كبيرة". وبعد أن تجاوز نايتسبريدج الطريق المهجورة المتفرعة التى تتميز بوجود حاويات بنزين، سارعوا إلى بعض الدبابات التى ظهرت نتيجة عمليات التمويه وكأنها شاحنات وكذلك بعض الشاحنات القديمة التى صارت بالتمويه دبابات، كما تنقلوا فوق الصخور وهم يرتدون قبعات مثل قبعات عجائز كوكنى القدامى.

قاد الجندى المغامر ديفيد سمايلى سربًا مكونًا من ثمانى عشرة دبابة إنجليزية وهمية تشبه تلك الدبابات التى استخدمت فى الحملة كروسيدر، وكان النهار حارًا والليل باردًا، كما تميز العمل الجماعى مع الدبابات الحقيقية بالمتعة، وذات مرة تسبب خطأ فى قراءة الخريطة، من قبل قسم القيادة العامة، فى إرسالهم قرب حصن إيطالى، وهناك رصدتهم طائرة استطلاع ألمانية نوع "شافتيڤالان"، واستدعت على الفور قاذفات ستوكا لمهاجمتهم، ولكنه كان من حسن حظ سمايلى العجيب أن فجرت الطائرات الألمانية خطأ الدبابات الإيطالية التى انطلقت من روتوندا سيجنال لاستطلاع ما يجرى هناك. فى هذا الوقت كانت وحدة سمايلى وفوج الدبابات الملكى ١٠١ مزودين ببعض دبابات جرانت الأمريكية الوهمية، كان ذلك الأمر سريًا للغاية حتى إن تلك الدبابات كانت متدثرة فى خيش قبل مغادرتها القاهرة، ولم يكشف الخيش عنها سوى ليلاً على مسافة ٥٠٠ ميل فى الصحراء، أى أنهم ظهروا فجأة فى الصباح كعيش الغراب.

وفى الثانى من أبريل: تكلم تريفليان مع سايكس "أكثر ضباط التمويه الذين قابلتهم هنا ذكاء وإحساسًا حتى الآن"، ثم سار على طول طريق وعر "فى واحد من روائع دروس التمويه التى تدرس فى الصحراء":

تبدو نهاية خط السكة الحديد المزيف رائعةً فى ضوء القمر، حيث لا يوجد رجل حقيقى هناك، فكل الرجال الموجودين عبارة عن دمى، كما تفرغ الشاحنات الوهمية حمولتها من الدبابات المزيفة، بينما تنفث المحركات الوهمية الدخان فى عيون الأعداء.

وكان تريفليان موجوداً مع ضابط تمويه آخر في اليوم التالي؛ عندما أغارت طائرة للعدو عليهم قرب مركبتهم المعطلة، ففتتت قذائف مدفع الطائرة الصخور المتواجدة بالقرب منه ما جعله ينبطح أرضًا، ثم عاد الرجلان وهما يرتعدان ليجدا خبراء التمويه يقفون في رعب أمام حطام شاحنة تحترق؛ حيث تم قصف كل شيء عدا نهاية خط السكة الحديدى المزيف، يقول تريفليان: "قام الألمان لاحقًا بإسقاط قنبلة خشبية على نهاية خط السكة الحديد المزيف".

فى ٢١ يناير سقطت طبرق، وبعد ذلك بأسبوع تم تدمير فيلقين بريطانيين في مرسى مطروح، وجرى انسحاب غير منظم شرق دلتا النيل، وتركت البحرية الملكية ميناء الإسكندرية مسببة الرعب للطبقة الراقية في المدينة، وتم ترحيل النساء الأثرياء من القاهرة إلى فلسطين؛ إضافة إلى كل من كانت لديه الرغبة فى النجاة من الاحتلال الألمانى، وفى القاهرة تم إحراق الكثير من الأوراق فى الأول من يونيو ١٩٤٢ فيما صار يعرف فى بـ "أربعاء الرماد"؛ حيث صار من الممكن أن تشترى الفول السودانى فى ورقة مكتوب عليها "سرى للغاية"؛ ربما تكون قد تطايرت دون أن تحترق ومن ثم سقطت فى مكان ما فى أرجاء القاهرة.

تقلد أوشينلك قيادة الجيش الثامن بكل شجاعة عندما انفلت زمام الأمور من اليد، وبسبب تقسيمه الجيش إلى مجموعات حربية وتوجهه نحو الغرب، توقف تقدم رومل فى المعركة الأولى فى العلمين فى يناير ١٩٤٢، وكان يطلق على خطة خداع دودلى كليرك فى معركة العلمين الأولى عملية الحارس (سنتنيل)، والتى استوحاها كالعادة من جعبته المليئة بأفكار القوات الوهمية.

بدأت الفرقة العسكرية "إيه" بعمليات تمويه وخداع لتكسب القوات البريطانية بعض الوقت، وكانت خطة "سنتنيل" تعتمد على إقناع الاستخبارات الألمانية بأن هناك جيشاً يعسكر على التلال الرملية أمامهم، ومن خلال تطاير التراب جراء بعض الأنشطة الزائفة، بدا للألمان أن هناك على الأقل اثنين من الفرق العسكرية وجنرالاً شبه مدرع، وفى مواجهة مثل هذه القوات وبطول خطوط الإمداد لم يستطع رومل التقدم للأمام، ولم يستطع أوشينلك أن يربح نصراً من خلال الخداع، لكنه أحرز نجاحاً.

يجب أن يكون الأمن البريطانى أكثر إحكامًا الآن، حيث استطاع الإنجليز الاستيلاء على محطة روميل للمراقبة اللا سلكية المسماة السلحفاء (تورتوس) فى تل العيسى فى الشهر نفسه، واكتشفوا أن وحدة استخبارات الإشارة التى تتبع روميل (كتيبة الإشارة رقم ٦٢١) علمت بخطط الإنجليز والأوامر الخاصة بقوات الحلفاء جراء إهمال حدث أثناء بث البرقيات اللا سلكية، كما استطاع الألمان أيضًا فك شفرة التواصل بين القوات الأمريكية، وعثر مع جنديين بسلاح الإشارة الألمانى على نسخ من ريبيكا باللغة الإنجليزية، وهى من قصص دافين دو موريير. الأكثر مبيعًا، على الرغم من أنهم لا يستطيعون نطق كلمة واحدة بالإنجليزية، كانت تلك الكتب تستخدم لتشفير وفك تشفير الرسائل التى كانت تُرسل من اثنين من الجواسيس الألمان اللذين كانا يعملان فى القاهرة مع ضابط الجيش المصرى أنور السادات، وبالسفر عبر الصحراء من مركز قيادة روميل فى مايو مع المستكشف لازلو ألماسى - الذى ذكره ميشيل أونداتجى فى روايته "العميل الانجليزى" - (The English Patient)؛ نجد أن الجواسيس الذين يحملون الاسم الحركى "كوندور" يعيشون فى مركب سكنى قرب كوبرى الزمالك بالقاهرة ومعهم جهاز إرسال لا سلكى مخبأ داخل برقية لا سلكية كبيرة، حيث كانوا ينفقون كل يوم خمس جنيهات إسترلينية مزورة بمعرفة المخابرات العسكرية الألمانية فى فندقى شيبرد وجروبى ونادى تروف كليب ونادى الكيت كات.

نجح الأمن الميدانى متمثلاً فى سانسوم فى القبض على العملاء عند مداهمة مركبهم السكنى فى الساعة ٢ من صباح ٢٥ يوليو، بينما أخفق العملاء فى إلقاء النسخة التى كانت معهم من ريبيكا مع الرسائل التى تم فك شفرتها فى نهر النيل، لكن الإنجليز استغلوا هذا الأمر لصالحهم، حيث استخدموا فيما بعد جهاز اللا سلكى الذى كان بحوزة الجواسيس فى إرسال رسائل مزيفة إلى روميل كما لو كانت من العملاء كوندور، معربين عن مخاوف البريطانيين من الإغارة على تلال علم الحلفا التى تعانى من ضعف فى الدفاعات (التى كانت فى الحقيقة محصنة تحصينًا شديدًا)، وأقرنت الرسالة المزيفة بحيلة مثل حيلة حقيبة الظهر القديمة؛ حيث تركت سيارة إنجليزية ملطخة بالدماء وشبه محطمة على حافة حقل ألغام حتى يجدها الألمان، والتقطت استخبارات العدو خريطة تظهر وجود مركبات مدرعة.

وفى الثامن من أغسطس؛ قرر تشرشل - فى عجلة من أمره - اتخاذه قرار مثير للجدال؛ فقد صرف أوشينلك من الخدمة مع أن بعضًا كان يرى أن أوشينلك هو من أنقذ الشرق الأوسط بأكمله من الوقوع تحت سيطرة روما عبر مناوراته الخارجية فى معركة العلمين الأولى، لكن عرقلة أوشينلك لتقدم الألمان لم تكن كافية من وجهة نظر تشرشل، فقام بتعيين الجنرال هارولد ألكسندر الذى نجح فى إنقاذ مؤخرة الجيش فى ميناء دونكيرك، قائدًا عامًا بالشرق الأوسط، وفى ١٣ أغسطس ١٩٤٢ تولى الجنرال المغرور برنارد مونتغمرى قيادة الجيش الثامن.

كان الجنرال مونتغمرى المثير للجدال؛ خير دليل على أن هذا الجيش، جيش الكومنولث الحقيقى الأول، كان يطور من قدراته ويحاول سد العجز خاصة فيما يتعلق بالزى الرسمى. وتجسد أسلوب "فأر الصحراء" فى الصور الكاريكاتورية المسماة "النوعين" - (The Two Types) لجون جونز التى ظهرت فى صحف الجيش البريطانى العديدة فى نهاية الحرب.

خرج مونتى للمرة الأولى مرتديًا قبعة ضابط عادية مزينة بشريط أحمر، لكنه سرعان ما رأى أن ضباط "فأر الصحراء" الآخرين يرتدون أحذية سويدية ذات رقبة، وأوشحة حريرية، وسترات مصنوعة من جلد الأغنام هى أكثر راحة فى حر وبرد الصحراء الغربية من الزى الرسمى، فاستبدل قبعته بأخرى من قبعات الأنزاك المبطنة، وفى نهاية الأمر استقر على قلنسوة قائد الدبابات السوداء المزدوجة التى كان يرتديها مع قميص صوف وسروال قصير، كان المظهر فى القاهرة خداعيًا للغاية، حيث كان منظر الضباط الذين يرتدون ملابس غير رسمية فى القاهرة يوحى بكونهم رجال خدمة خاصة متنكرين فى زى مهلهل ليثق الناس بهم، بينما يبدو المقاتلون الحقيقيون فى الصحراء أو الخدمة الخاصة فى زى يشبه زى العاملين فى فندق شيبرد أو نادى محمد على.

عرف مونتغمرى؛ دودلى كليرك مسبقًا، فقد علمه مونتغمرى بعض أساليب قتال كتائب المشاة عندما كان كليرك أحد المرشحين لإعادة تهيئة اختبارات كلية الأركان فى ١٩٣١، كان مونتغمرى أستاذًا جيدًا مما بسط الأمور أمام كليرك الذى حصل على

درجة جيدة فى الاختبار، وجاء بعد اثنى عشر عامًا ليخبر كليرك بأن الفرقة العسكرية "إيه" فى حاجة إلى تجهيز خطط جديدة لمعركة العلمين الثانية التى كان من المخطط البدء فيها فى ٢٣ أكتوبر، ليلة اكتمال القمر.

حمل كليرك على عاتقه مهمة الأعمال التمهيدية للخداع التى ساعدت بدورها فى الفوز بتلك المعركة، حيث استقبل كليرك زائرًا قدم لتوه من قسم المراقبة فى لندن هو رجل متقد الذكاء يدعى المقدم ديفيد سترينجواين، والذى أفشى إلى كليرك سرًا كبيرًا، ففى الأول من نوفمبر كان الأمريكيون يخططون للهبوط فى الجانب الآخر من شمال إفريقيا على شواطئ الجزائر والمغرب، وهذه هى العملية التى يطلق عليها "تورش"، فهناك حاجة إلى الكثير من استراتيجيات الخداع لتضليل الأعداء، ومن ثم كان على كليرك السفر إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ثم إلى لندن للمساعدة فى وضع تلك الاستراتيجيات.

كان من الضرورى أن يتولى خبيرا التمويه جوفرى باركاس وتونى أريتون مقاليد الأمور، إلا أنه فى السادس عشر من سبتمبر وبعد يومين من لقاء كليرك ومونتغمرى، ذهب الاثنان للقاء رئيس الأركان العميد فريدى دى جوينجان، حيث استمعا إلى خطة الهجوم التى كانت أشبه بخطة هجوم الحرب العالمية الأولى، وستتم المواجهة فيها وجها لوجه دون فتح جبهات، ومن المخطط أن تكون المعركة مرحلة فاصلة؛ حيث سيتم عمل ثغرة فى مقدمة جيش العدو تدخل منها القوات، كان مونتغمرى فى أشد الحاجة إلى خبراء تمويه وهذا ما حمله على القول: "سنمنح خبراء التمويه كل ما يحتاجون إليه إضافة إلى الأولوية فى العلميات"، وفى الشمال كان مونتغمرى فى حاجة إلى تغطية للهجوم الحقيقى؛ وفى الجنوب كانت هناك ضرورة ملحة لعمل عرض عسكرى كبير ليعتقد الأعداء أن الهجوم سيشن من هذه المنطقة؛ ما يدفع رومل إلى إبقاء ما يقرب من نصف قواته المدرعة عالقة فى الجنوب، لكن ذلك تأجل حتى شهر نوفمبر بسبب وجود مشكلات فى دبابات شيرمان الأمريكية.

كانت العملية بيرترام، التى هى بمثابة خطة خداع شاملة لمعركة العلمين الثانية، مكونة من سبع عمليات فرعية تتشابك جميعًا لتكون شكلاً معقدًا يشبه لعبة الورقات الثلاث، وكان خبراء التمويه مدركين أن عليهم عدم إبقاء الآلات التى يستخدمونها كما هى؛ بمعنى أنه يمكن تغيير كل من المضمون والشكل الخارجى خصوصًا إذا تم ذلك التغيير فى جنح الظلام، حيث أخفيت سفن حقيقية فى خلجان مظللة بالشباك بطبرق فى البداية، ثم أخفيت بعد ذلك سفن مزيفة وشبه مخبأة، وجرى تمويه مستودعات المؤن لتبدو فى صورة شاحنات والشاحنات تبدو فى صورة دبابات وأخفيت الدبابات فى مستودع مؤن ظاهر. وكانت الخدعة التى أطلق عليها "كانيبال" وسيلة تبدو من الجو كأنها شاحنة وسط مجموعة متناثرة من الشاحنات، إلا أنه كان يوجد تحت الأعمدة والستائر (التى تبدو من الجو كشاحنات) إما مدفع هاوتزر عيار ٢٥ وإما عربة مدرعة تقوم بجر ذلك المدفع، كما كان هناك ما يقرب من ٤٠٠ من مثل تلك المدافع ببطاريات مرتبطة بشكل متطور مع أجهزة لا سلكية.

كان كل من أريتون وفنان التخطيط برين روب يتوليان مسئولية ما سماه تشرشل "مجموعة إجراءات وتدابير الخداع المبتكرة"، ففى الشمال كان لدى فيالق الجيش الملكى ما يقارب ٦٠٠٠ طن من المؤن والإمدادات مخبئة بالقرب من الجبهة، حيث وضع ما يزيد على نصفها قرب خط سكك حديد العلمين، حيث وجد كل من أريتون وروب مئات الأجزاء من الخنادق المحفورة والمبطنة من الداخل، فقاما بوضع ألفى طن من الوقود داخل تلك الخنادق وكدسا فوقها صفائح البترول الخاصة بقسم الحرب فى ثلاث طبقات؛ حتى لا يتم اكتشافها من الجو مع ترك تهوية جيدة للحاويات المعروفة بالرشح، ووضعت مخزونات الأغذية ليلاً فى شاحنات تحمل الواحدة منها ٣ أطنان وغطيت بشباك تمويه عادية ثبتت أوتادها جيداً لتستوعب المزيد من المخزون بشكل ملائم، بينما خبئت إمدادات أخرى فى خيام جنود عادية، ومن الجو كان كل ذلك يبدو كما لو كان تجمعًا عاديًا لعربات صغيرة منتشرة فى الصحراء.

كان تثبيت ما يقرب من ٧٢٢ من الأغطية الواقية من الشمس أو أغطية الشاحنات الوهمية؛ هو مهمة لإحدى العملية الفرعية المسماة "مارتيلو" التى كان من المقرر لها أن تسهم فى إخفاء التحرك الحقيقى للدبابات نحو الجبهة. فى البداية كانت هناك مئات الشاحنات الحقيقية التى تقف فى المنطقة غالبًا بشكل يكفى بأن تجعل استطلاعات العدو تعتاد حضورها، ثم نقلت الشاحنات ليلاً من المكان وتم وضع أغطية واقية من الشمس محلها، ثم جرى ترقيم تلك الأغطية وتعليمها بعلامات مميزة وكأنها دبابات على وشك الإقلاع؛ ثم أزيلت تلك العلامات ليلاً قبيل فجر اليوم التالى، وبعد ذلك أتى البريطانيون بدبابات من منطقة فى المؤخرة تحمل ميورايفيلد كاسم حركى، وعندما غادرت الدبابات ذلك المكان حلت محلها دبابات وهمية.

شكل كل ذلك جزءًا من إخفاء الهجوم الحقيقى فى الشمال، إلا أنه كان على أريتون وروب أن يشاركا أيضًا فى التمويه الذى كان يجرى فى الجنوب مدعومًا بالمواد والتجهيزات التى يقدمها باركاس ونائبه الرائد آر جيه سوذرن، وأسرع مركز التمويه بحلوان فى تقديم إمدادات تتكون من نحو ٤٠٠ دبابة وهمية نوع جرانت و١٠٠ مدفع وهمى وما يزيد على ٢٠٠٠ شاحنة وهمية، كما استطاع خبير التمويه الذى يدعى جون باكر تصميم نموذج لشاحنة من جريد النخيل ولصق عليها الخيش ثم قام فريق من شرق إفريقيا بطلائها، كما أسهمت جزيرتى موريشيوس وسيشل خلال الأيام الأخيرة بأول مجموعة تمويه بريطانية من فلسطين.

كانت العملية "دايموند" بمثابة خداع فرعى آخر بدأ قبل أسابيع من المعركة؛ واشتمل على إتمام خط مياه حقيقى مدفون فى خندق يمتد من منطقة العميد بمطروح وصولاً إلى مجمع مارتيلو، وكان يرافقه خط مزيف بطول عشرين ميلاً من أنابيب البترول اللامعة الفارغة يتجه إلى الجنوب مشكلاً فخًا لعيون العدو نحو المستودعات المزيفة التى تحمل "بريان" كاسم حركى، حيث طرحت ما يقرب من ٧٠٠ قطعة مشمع لتغطى أغراضًا وهمية تشبه ما يقارب ٩٠٠٠ طن من الذخيرة الحربية والغذاء والنفط والعتاد الحربى.

وبداية من ١٥ أكتوبر، جرى وضع ثلاث مجموعات من المدفعية الوهمية فى الجنوب تحت اسم حركى هو ميوناسيب، إلا أنه كان يوجد بذلك الموقع بعض مظاهر الحياة، وكان التمويه فيه ليس على كفاءة عالية بما يكفى لإخفاء زيف الموقع أمام العدو الذى أبدى شكوكه نحو ذلك الموقع، إلا أنه بعد أن بدأت معركة العلمين أضيئت النماذج المزيفة أثناء الليل لتبدو كمدافع حقيقية، وظلت الأطقم مختبئة حتى جرى شن هجوم بالدبابات على قطاعهم ما سمح لهم بالقصف المفاجئ.

بعد ذلك كله، قام ضابط استخبارات ألمانى أو إيطالى بعمل مسح ميدانى للمنطقة الواقعة جنوب العلمين وبدراسة تقارير الطيارين صباح ٢٢ أكتوبر ١٩٤٢ التى أظهرت تغييرات ليست بالكبيرة، حيث كانت الدبابات الإنجليزية الكبيرة لا تزال فى المؤخرة وكانت تحتاج فترة يومين حتى يتسنى لها الوصول إلى الموقع، كما لفتت المستودعات الكبيرة وخط الأنابيب وتحليلات التقارير اللا سلكية إلى وجود نشاط زائد فى الجنوب ينذر بقرب هجوم إلا أنه ليس أكيداً حتى الآن.

وفى المرحلة الأولى من معركة العلمين الثانية، حققت خطة الخداع المسماة بيرترام الخاصة بالفرقة العسكرية "أ" للقوات البريطانية ما سماه الجنرال ألكسندر "عامل الفوز فى المعركة" إنه عامل المباغتة. بدأ الهجوم بقصف مدفعى شارك فيه ما يقرب من ٩٠٠ مدفع؛ ما أدى إلى فتح ثغرتين بحقول ألغام العدو ما سمح لكتائب المشاة والدبابات الإنجليزية بالتقدم، واستمرت المرحلتان الثانية والثالثة اثنى عشر يوما، وفى النهاية حسمت المعركة فى ظل قتال شرس على كل الجبهات.

حققت القوة الساحقة النصر فى الرابع من نوفمبر، كان رومل يقاتل بنحو ٥٣٠ دبابة وكان ما يقرب من ٣٠٠ من هذه الدبابات إيطالية، بينما كان مونتغمرى يقاتل بما يقرب من ١٢٠٠ دبابة تضم نحو ٤٧٠ دبابة من طراز شيرمان وجرانت أمدته بها الولايات المتحدة الأمريكية، لكن رومل لم يكن لديه وقود كافٍ، ومن خلال فك رموز أنجيما استطاع الإنجليز معرفة كم تبقى بالضبط مع رومل من وقود وناقلات النفط التى ستمده بالوقود، وهنا أمعن البريطانيون النظر فى إغراق هذه السفن التى ستبحر

منفردة، وفى سبتمبر ١٩٤٢، جرى إغراق قرابة ٣٣٪ من ناقلات الوقود العسكرية التى تتبع قوات دول المحور قبل أن تصل إلى شواطئ ليبيا؛ ووصلت نسبة تلك السفن الغارقة إلى ٤٤٪ بحلول شهر أكتوبر، إلا أن تشرشل زعم فى رواية "حتمية القدر" – (The Hinge of Fate) أن الألمان قد فقدوا قرابة ٦٦٪ من وقودهم، وفى أعقاب هذه الهزيمة النكراء انسحب الألمان والإيطاليون من مصر متجهين نحو الغرب سالكين الطريق الساحلى.

يرى مؤرخو العصر الحديث أن معركة العلمين لم تمثل محور الحرب الحقيقى ضد هتلر، حيث كانت خسائرها محدودة على عكس ما كان عليه الوضع فى ستالينغراد التى فقد فيها الروس قرابة ٥٠٠٠٠٠ رجل، بينما كان هناك ٢٥٠٠٠٠ ما بين قتيل وأسير ألمانى فى الفترة بين أغسطس ١٩٤٢ ويناير ١٩٤٣، ومع ذلك يجب أن تعتبر "موقعة مصر" نصرًا تاريخيًا لبريطانيا وفق ما أخبر به تشرشل مجلس العموم فى ١١ نوفمبر ١٩٤٢، حيث أمر تشرشل بدق أجراس الكنائس يوم الأحد فى جميع أنحاء البلاد، كما ألقى تشرشل "كلمة حول المباغتة وبراعة التخطيط":

استطعنا تنفيذ مفاجأة تكتيكية كاملة فى الصحراء بمساعدة نظام تمويهى رائع أثار شكوك العدو حتى إنه أيقن أن هناك هجومًا على وشك الحدوث ولكن أين ومتى وكيف، كان كل هذه أمورًا مجهولةً بالنسبة إليه، وكانت الفيالق العشرة، التى استطلعها العدو من الجو تتدرب على بعد ٥٠ ميلاً فى المؤخرة، تتحرك ليلاً فى هدوء تاركة نماذج وهمية لدباباتها فى موقعها حين تقدمت نحو الجبهة، وهنا استنبط العدو أن هناك هجومًا على وشك الحدوث لكنه لم يعلم كيف أو متى أو أين، وفوق كل ذلك لم تكن لدى العدو فكرة عن حجم ذلك الهجوم.

لن يستطيع كتاب "موقعة مصر" – (The Battle of Egypt) الصادر عن وزارة الإعلام عام ١٩٤٣؛ أن يوفى ذلك التمويه قدره أو يصف أقل القليل منه، كما لم يمكن استعراضه فى فيلم "انتصار الصحراء" – (Desert Victory) الذى يدور حول معركة العلمين والذى أخرجه روى بولتينج فى أفلام عن الجيش البريطانى ووحدات تصوير سلاح الجو

الملكى، فمثل ما يحدث فى كل الأفلام كان فيلم "انتصار الصحراء" عبارة عن مشاهد مستعارة، حيث يهطل وابل من نيران المدفعية على وجـوه شاحبة فى استوديوهات بنود استوديوز.

أخبر المصور بيتر هوبكنسون مؤرخ الأفلام كيفن برونلو بأن اللقطة الشهيرة التى تجسد تقدم الأستراليين وسط دخان كثيف؛ كان موقعها الحقيقى خلف المطعم التابع للفرقة العسكرية التاسعة فى صحراء مصر، حيث ارتدى الجنود البريطانيون الزى الألمانى ليمثلوا دور جثث ترقد بالقرب من دبابات بانزر. لكن تشرشل أعترف فى خطابه الذى ألقاه فى ١١ نوفمبر قائلا: "يجب أن أقول بصراحة إننى وجدت الأمر سائغًا جداً أن أخدع العدو حتى ولو كنت سأضلل شعبى بعض الوقت فى سبيل ذلك".

وبعد فترة وجيزة من انتهاء معركة العلمين الثانية، كانت هناك مفاجأة أكبر صدمت قوات دول المحور؛ إنها العملية التى أطلق عليها "تورش"؛ حيث أنزل الحلفاء قواتهم فى المستعمرات التى كانت تتبع فرنسا الخائنة فى الشمال الإفريقى، فبعد أن أطلع سترينجوايز القائد كليرك على تلك العملية "تورش"، سافر كليرك جواً إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم إلى إنجلترا فى أكتوبر لتنسيق ما سيقوم به الأمريكيون وقسم المراقبة فى لندن لتشتيت انتباه العدو، ففى هذه المرة كانت هناك ثمانى خطط خداعية متزامنة، حيث قام كل من قسم المراقبة فى لندن والفرقة العسكرية "إيه" بنشر معلومات مزيفة مفادها أن هناك أهدافًا للحلفاء تقع فى أماكن بعيدة، مثل: داكار غرب إفريقيا ومالطا شرق جزيرة صقلية، ولذا عندما بدأت العملية "تورش" كانت هناك ست غواصات ألمانية وإيطالية تختبئ جنوب داكار، إضافة إلى أربعين أخرى بين جبل طارق، وجزر الأزور، ودولة الرأس الأخضر "كاب فيردى"، فضلاً عن الغواصات التى توجهت مباشرة إلى الدار البيضاء حتى يتسنى لها إنزال هزيمة ساحقة بالغزاة الأمريكيين، إلا أن طائرات الاستطلاع الألمانى فوك – فولف لم تجد قوافل القوات الأمريكية، كما انتظرت المئات من قاذفات القنابل والمقاتلات التابعة لدول المحور على مسافة بعيدة جداً من الشرق، وفى صقلية أو جنوب إيطاليا تنتظر قوات دول الحلفاء

لتفجر أسطولهم الحربى الذى سيذهب حسب اعتقادهم لتحرير جزيرة مالطا، ونتيجة لذلك لم تتعرض القوافل الأمريكية الثلاث لأى هجوم جوى.

كانت الدائرة بى التى كانت تشرف على العملاء المزدوجين والتى تتبع الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس تربطها علاقات وطيدة بمتخصصى عمليات الخداع، حيث أبلغ جاربو من لندن أنه لسوء الحظ توفى عميله المختلق "تو" ويليام ماكسيميليان جيربرس، بعد صراع طويل مع المرض، والذى كان من المفترض تجنيده قرب ليفربول وهو عذر كاف لعدم وجود أى تقارير من جيربرس حول قوافل العملية "تورش" التى كانت تتجمع فى نهر ميرسى فى ليفربول، ونشر خبر الوفاة فى جريدة ليفربول ديلى بوست فى ٢٤ نوفمبر.

وفى أكتوبر عام ١٩٤٢؛ استضاف جون بيفان مؤتمراً عن الخداع فى لندن حضره ممثلون من العاصمة واشنطن ومقاطعة كولومبيا، وبيتر فليمينج من الهند، كما حضر دودلى كليرك – أسطورة وقته – من القاهرة، حيث كتب دينيس ويتلى يقول: "سمعنا كثيراً عن" المخادع العظيم" دودلى كليرك حتى إننا نتطلع لرؤيته شخصياً، كان كليرك رجلاً نحيفاً أنيقاً أشقر الشعر أزرق العينين، وكان يتميز بضحكه الهادئ بل لا تكاد ترى جسده يهتز أثناء الضحك". وفى الفترة بين ٨ أكتوبر و١ نوفمبر ١٩٤٢ وصل كليرك إلى لندن فى صحبة آلان بروك رئيس هيئة الأركان الإمبريالية، والجنرال اسماى من الأدميرالية، وقسمى الاستخبارات العسكرية الخامس والتاسع، والجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة، والخدمات السرية، كما استقبل تشرشل بيفان، وكليرك وفليمينج فى ١٤ أكتوبر فى غرفته الخاصة.

وفى ٨ نوفمبر ١٩٤٢، بدأت قوات الحلفاء تحت القيادة الأمريكية ثلاث عمليات إنزال منفصلة فى المغرب والجزائر، وتولى الجنرال جورج إس باتون الابن الوحدة العسكرية الغربية المكونة من ١٠٠ سفينة ليبحر بها عبر المحيط الأطلنطى مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية ليستقر قرب الدار البيضاء، بينما أبحرت وحدات الوسط ووحدات الشرق العسكرية التى ضمت قوات أمريكية وبريطانية من المملكة المتحدة

لتحتشد عند مضيق جبل طارق وفى ميناءى هران والجزائر، وانطلقت حملات دعاية واسعة لدول الحلفاء لتصاحب علميات الإنزال؛ كانت تلك الحملات عبارة عن بث إذاعى متكرر باللغة الفرنسية للرئيس روزفلت؛ إضافة إلى ٢٢ مليون منشور مطبوع لخطابه تم إسقاطها بالطائرات، وبدأ خطاب الرئيس بقوله "أصدقائى"؛ وتحدث فيه روزفلت عن صداقته لفرنسا قائلاً:

يبذل الأمريكيون، بمساعدة الأمم المتحدة، أقصى ما بوسعهم لبناء مستقبل مشرق جنبًا إلى جنب مع استعادة مبادئ الحرية والديمقراطية...... سنأتى جميعًا ونقف فى صفوفكم فقط لنسحق أعداءكم وندمرهم.

استخدمت محطة البث الإذاعى "أسبدسترا" للمرة الأولى لبث خطاب روزفلت من منطقة ساوث داونز إلى جبال الأطلس؛ حيث كان الإرسال قويًا للغاية حتى إنه عندما سمعها المغاربة اعتقدوا أنها آتية من الرباط، تم بث رسالة أخرى لجنرال أيزنهاور موجهة إلى القوات المسلحة وشعوب شمال إفريقيا وطُبع نصها فى منشورات، وقام قادة فرنسا الأحرار الجنرال هنرى "أونوريه جيرو"، والجنرال ديجول ببث خطاب يطالبون فيه القادة والجنود والبحارة والطيارين والمسئولين وسكان المستعمرات بأن يتأهبوا للحرب من أجل الحرية: "ساعدوا حلفاءنا، التحقوا بهم دون تراخ، فرنسا المحاربة تناديكم، على الرغم من عويل الخائنين الذين يريدون أن تصدقوا أن حلفاءنا يريدون أن يستولوا على إمبراطوريتنا، إلى الأمام! جاءت اللحظة العظيمة!".

وفى الوقت نفسه جرت عمليات الإنزال الأمريكية "تورش" دون سابق تدريب وبشكل غير منظم، وتبع ذلك ثلاثة أيام من القتال الدامى، ولكنهم كانوا على وشك تكبد خسارة كبيرة لولا أعمال الخداع التى قام بها البريطانيون فى ثلاث قارات.

فى يناير ١٩٤٣، التقى تشرشل وروزفلت فى مؤتمر بالدار البيضاء بالمغرب، وفى فيلات فخمة فى منطقة أنفا تحيطها الورود وأشجار الفاكهة وتكتنفها أشعة الشمس، اجتمع رئيس الوزراء البريطانى والرئيس الأمريكى برؤساء أركان البلدين،

بريطانيا وأمريكا، وتناقشوا حول كيفية وضع نهاية ناجحة لتلك الحرب، وفى ظل قيادة رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية السير آلان بروك، عرف الوفد البريطانى تمامًا ما يريدونه، وطلبوا فى النهاية من الأمريكيين الموافقة عليه؛ وكان ذلك يتمثل فى: أولاً - إخلاء شمال إفريقيا من قوات دول المحور، ثم النزول إلى جزيرة صقلية، ودخول الأراضى الإيطالية حتى يتثنى إخراج الإيطاليين من الحرب تمامًا، إضافة إلى قيام الغواصات المتواجدة تحت الماء بتفجير المنطقة الصناعية الرئيسية فى ألمانيا، كما تم وضع خطط تقضى بأن يعقب ذلك غزو شمال غرب أوروبا لتأكيد هزيمة الألمان بشكل تام؛ وكان من المثير للدهشة أن يعلن الرئيس الأمريكى روزفلت فى مؤتمر صحفى أنه لن يقبل إلا استسلامًا غير مشروط.

وبالنسبة إلى شمال إفريقيا، وافقت القمة البريطانية - الأمريكية على أن يكون الجيش البريطانى الثامن تحت قيادة الجنرال الأمريكى دوايت ديفيد أيزنهاور بمجرد عبور ذلك الجيش للحدود التونسية قادمًا من ليبيا، على أن يكون الجنرال البريطانى ألكسندر نائب أيزنهاور ذى صلاحيات لإعطاء أوامر للعمليات لكل قوات التحالف فى تونس، بما فيها قوات الجيش البريطانى الأول، والفيلق الأمريكى الثانى، وكذلك الفرنسيين الأحرار، وعرفت جميع القوات المشتركة المنضمة تحت قيادة الجنرال ألكسندر بمجموعة الجيش الثامن عشر.

قال تشرشل: "لن يكون شن حملة بالاشتراك مع قوات الحلفاء بالأمر اليسير... فهناك شيء واحد ينبغى ألا تفعله مطلقًا، هو أن تضلل حلفاءك، فعليك ألا تقطع على نفسك وعودا لا تستطيع الوفاء بها، إننى أتمنى أن نكون جميعًا على هذا المستوى". الإنجليز والأمريكان شعبان منفصلان، وإن كانت تجمعهما لغة مشتركة، فهما غرباء عن بعضهم بعض، أما الألمان والإيطاليون فهما شريكان طبيعيان، وهنا أطلق الإنجليز على الأمريكيين "أصدقاؤنا الإيطاليون" إلا أن كثيرًا من الأمريكيين من مختلف الطبقات كرهوا البحارة البريطانيين فهم الذين ناصروا أعداءهم القدامى، بينما رأى آخرون

على الرغم من ذلك أن العلاقة مع الأمريكيين كانت أكثر إيجابية؛ وعندما أرسل تشرشل هارولد ماكميلان، رئيس الوزراء المحافظ فيما بعد، مبعوثًا شخصيًا إلى مقرات قيادة قوات الحلفاء في الجزائر ليوصل رسالة إلى ريتشارد كروسمان الذى كان يدير الحرب النفسية، والذى سيكون فيما بعد وزير العمال، مفادها أن البريطانيون أصبحوا الآن إغريقيين فى نظر الأمريكان الرومان: "علينا أن ندير مقر قيادة قوات الحلفاء، مثلما أدار الرقيق الإغريقيون عمليات الإمبراطور كلوديوس".

التقى الجيش البريطانى الثامن المتقدم جهة الغرب مع الجيش البريطانى الأول، والفيالق الأمريكية الثانية المتقدمة شرقًا حيث جمعهم الجنرال هارولد ألكسندر معًا، وكان لديه فريق خططى صغير من الفرقة العسكرية "إيه" فى مقرات قيادته ونجح فى أن يفاجئ العدو بهجوم خاطف على طريقة الألمان؛ حيث وجه ضربة محددة قاسية صوب جبهاتهم للاستيلاء على تونس. اندهش الجنود من المفاجأة حيث كانوا يجلسون على طاولات يتناولون القهوة أو مشروبات غير كحولية، بينما يخرج جنود آخرون من صالونات. كان ديفيد سترينجوايز فى المقدمة يقود فرقة صغيرة مكونة من ضباط استخبارات، وجنود ينتمون إلى الوحدة ٣٠ من وحدات القوات الخاصة الأسترالية – الأمريكية التى تدعى الفرقة العسكرية "إس" تتجه نحو تونس العاصمة وبنزرت بالشمال التونسى؛ للحصول على استخبارات دول المحور قبل تدميرها، وهذا ما أهله للحصول على وسام الخدمة المميزة.

وصل صحفيون مثل ألكسندر كليفورد وآلان مورهيد وجوفرى كيتنج؛ إلى تونس فى ٧ مايو مباشرة فور وصول فرقة الهوصار الحادية عشرة، وحرس دربيشير الوطنى حيث شاهدوا ما يشبه الجنون، فقد كان الناس يلقون الزهور فى شارع، بينما يلقون قنابل يدوية فى شارع آخر؛ كما يوجد قنص هنا وهناك إضافة إلى وجود هتاف فرحًا لتحرير مئات الأسرى من الجنود البريطانيين، وواصل ألكسندر الضغط والهجوم على شبه الجزيرة الواقعة شرق تونس التى تعتبر آخر منطقة توجد بها مقاومة حتى

انهارت فجأة، وألقى الآلاف الألمان والإيطاليون أسلحتهم مستسلمين، ولم تكن هناك طائرات للقادة ولا قوارب للجنود، وهنا خرجت دول المحور من ميناء دونكيرك الإفريقى، وكانت الساعة ١٩:٥٢ يوم ١٢ مايو ١٩٤٣؛ بمثابة ساعة النهاية، ففى اليوم التالى أرسل الجنرال ألكسندر إشارته الشهيرة إلى ونستون تشرشل: "سيدى، من واجبى أن أخبرك بأن حملة تونس قد انتهت، حيث قضينا على مقاومة العدو ونحن الآن أسياد شواطئ شمال إفريقيا".

(٢٥)

الخـــداع

كان الشـمـال الإفريقى بالنسبة إلى تشـرشل بمثابة نقطة الانطلاق وليس متكئًا للراحة، ولذا كان على جيشى الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة العـودة فى هذا التوقـيت إلى أوروبا ليجـهزا على كل من إيطاليـا وألمـانيا، ولكن من أين ينبـغى أن تنطلق الهجمات الأولى؟ وقع اختيار تشرشل وروزفلت خلال مؤتمرهما الذى عقد فى الدار البيضـاء فى يناير ١٩٤٣ على جزيرة صقلية، كان ذلك الاختيار منطقيًا لكونها جزيرة كبيرة تقع قبالة إيطاليا ولكونها أقرب نقطة انطلاق من منتصف البحر الأبيض المتوسط إلى إيطاليـا، ولكن تشـرشل أراد أن يلقى الرعب فى قلوب قـوات دول المحـور كى تستعد تلك البلدان إلى ما سماه آلان مورهيد "الطريق الواضح"، والذى يتمثل شرقًا فى "الطريق الجذاب": المرور عبر اليونان ودول البلقان، بينما تتمثل غربًا فى "الطريق السريع": المرور عبر جزيرة سردينيا وكورسيكا اللتين تواجهان فرنسا وشمال إيطاليا، واستـغرق مـخططو الخـداع ستـة أشـهر لتضليل دول المحور؛ حـيث أطلق على الغزو (الحقيقى) لجزيرة صقلية الاسم الحركى هاسكى"؛ بينما أطلق الاسم الحركى "باركلى" على خطة الخداع الخـاصـة بالبـحـر الأبيض المتوسط التى من شـأنها أن تضـاعف جهود التضليل لتصل لذروتها على مسرح الأحـداث فى البحر الأبيـض المتوسـط، فمـا الذى أراده الحلفـاء من دول المحور؟ بالطبـع إنه تعـزيز القـوات فى كل مكان عـدا صقلية.

جرت أحداث قصة الخداع كما يلي: أُذيع أن الجيش البريطاني الثاني عشر المتواجد في مصر - الذي كان إحدى وحدات كليرك "الوهمية" والذي ليس له وجود على الإطلاق - يستعد لمهاجمة جزيرة كريت واليونان في شهر مايو، فضلاً عن محاولة إقناع تركيا للدخول في الحرب إلى جانب قوات التحالف، ومن ثم تتحرك قوات التحالف الرئيسية داخل الأراضي البلغارية والرومانية لمهاجمة الألمان في روسيا من الخلف، وخلال ذلك، يتمكن الجيش البريطاني الثامن من النزول إلى جنوبي فرنسا في مطلع يونيو، وينضم إلى القوات الفرنسية المتجهة نحو وادي الرون، وفي الوقت ذاته يقوم الجيش الأمريكي السابع تحت قيادة الجنرال باتون بمهاجمة كورسيكا وسردينيا، إلا أنه تم تأجيل تنفيذ كل هذه الهجمات الخيالية في بادئ الأمر إلى يونيو ثم إلى يوليو بعد ذلك.

يذكر أن جون بيفان من قسم المراقبة في لندن ودودلي كليرك من الفرقة العسكرية "إيه"؛ قد التقيا في الجزائر في ١٥ مارس لتنسيق الأوضاع الخاصة بالعملية "باركلي"، حيث قامت الفرقة العسكرية "إيه" بجمع حشد هائل من الدمى لمحاكاة الجيش الثاني عشر في مدينة برقة شرق ليبيا، حتى تكون سهلة الرصد لطائرات الاستطلاع الألمانية التي تحلق جنوب جزيرة كريت، علاوة على وجود طائرات وهمية مرابطة في مطاراتها، وهو ما يمثل قسم الطائرات الشراعية الوهمية، والأحد عشر أسطولاً من الطائرات الوهمية في سبعة مطارات تحميها طائرة حقيقية "كانت تنطلق" فور ظهور الطائرات الألمانية، كما كانت توجد قاذفات حقيقية مضادة للطائرات تمطر السماء بوابل من نيران مدفعيتها التي لا تتوقف، إضافة إلى "الفرقة المدرعة الثامنة" المدعمة بدبابات ومعسكرات ومناطق تدريب وأبراج إشارة لا سلكية وهمية على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط.

نقلت الفرقة العسكرية "إيه" نبأ مدوياً يتعلق باليونان إلى المجلس، مفاده: تجري القوات اليونانية مناورات بر مائية كبيرة، وفي الوقت ذاته جرى استدعاء الضباط الإنجليز الذين يتحدثون اليونانية وتم توزيع خرائط ومنشورات عن اليونان؛

جدير بالملاحظة أن بورصة القاهرة قد شهدت إقبالاً ضخماً على شراء العملة اليونانية الدراخما، حيث وصلت خمسون خزانة حديدية من لندن مصنفة تحت عبارة "سبائك يونانية نفيسة"؛ وتم نقلها إلى بنك القاهرة وسط حراسة مسلحة.

كانت التضاريس اليونانية - في حقيقة الأمر - غير صالحة للعمل فيها، وفي مطلع عام ١٩٤٣، وعلى صعيد آخر تمكن دودلي كليرك بصعوبة من الحصول على قائمة بجميع عملائهم السريين العاملين غرب البحر الأبيض المتوسط الذين تجندهم المنظمات السرية الست (الفرقة العسكرية "إيه" و الاستخبارات العسكرية، القسم التاسع بالشرق الأوسط والاستخبارات العسكرية، القسمين الخامس والسادس والجهاز التنفيذي للعمليات الخاصة، خدمة الاستخبارات اليونانية)، وهنا اكتشف دودلي أن أربعين بالمئة من العملاء في اليونان كانوا يعملون ليس لأقل من ثلاث أجهزة سرية مختلفة من قوات التحالف ما يبدد الوقت والمال والمعلومات والأمن، إلا أنه من أجل المساعدة في العملية "باركلي" قام فريق يتكون من ستة رجال من الجهاز التنفيذي للعمليات الخاصة (لم يكن بينهم يونانيون) بتفجير جسر للسكك الحديد في أسوباس ما استثار مقاومة اليونانيين، ثم قامت غواصة بإنزال فريق على الجزيرة اليونانية زاكينثوس؛ حيث تركوا وراءهم دليلاً لفرق الاستطلاع ليتأكدوا من وصولهم هنا؛ وفي جزيرة كريت، كان ضباط الجهاز التنفيذي للعمليات الخاصة كما وصفهم الكاتب البريطاني باتريك لي فيرمور فيما بعد أنهم "مشغولون "بإعداد أدلة لمساعدة قوات خدمة القوارب الخاصة عبر الجبال؛ لتفجير بعض الطائرات والمعدات الألمانية وإغراق السفن بوضع ألغام بحرية في ميناء هراكليون، ثم ساورهم القلق لدرجة أنهم قاموا بتحريك الفرقة الاحتياطية الألمانية بانزر عبر أوروبا من فرنسا إلى جزيرة بيلوبونيز.

وفي لندن، كان جون بيفان يمد وزارة الخارجية بالشائعات والأقاويل لنشرها، كما أتت لجنة الخداع المضاد بواحدة من أكثر الخدع شهرة في الحرب؛ حيث جاءت القصة على نمط الأحداث اليومية؛ تم تحطيم الطائرة كاتالينا في البحر قبالة

لا باروسا جنوبى مدينة قادس فى أكتوبر ١٩٤٢؛ عندما كانت تقل ضابطًا من الفرنسيين الأحرار وهو الملازم جلامورجان إلى جبل طارق للتشاور مع الجيش الأمريكى بشأن العملية "تورش"، وقد جرفت المياه جثتين إلى الشواطئ الإسبانية الواقعة تحت سيطرة فرانكو تحملان بطاقتى هوية، وخطابات، وتقرير يضم أسماء العديد من العملاء السريين فى شمال إفريقيا، ويُعتقد أن عميل الاستخبارات العسكرية الألمانية فى قادس قد تمكن من رؤية وتصوير الأوراق قبل حصول البريطانيين عليها فى جبل طارق.

ألهم ذلك الحدث، الملازم طيار تشارلز كولموندلى من سلاح الجو الملكى البريطانى (والملحق بالاستخبارات العسكرية، القسم الخامس) أن يقترح خلال اجتماع لجنة الخداع المضاد الذى عقد فى الشهر نفسه إسقاط جثة تحمل خطابات مهمة أو وثائق سرية واضحة عمداً فى البحر من طائرة قرب أراضى العدو، وطلب كولموندلى إيوين من مونتاجيو الذى يعمل بالاستخبارات البحرية، مساعدته، وبالفعل اتفقا وأسرعا فى تنفيذ ذلك الاقتراح.

كانت المهمة الأولى لهذه العملية تكمن فى العثور على جثة متوفى، لذا ذهبا لطلب المساعدة من الطبيب السير برنارد سالسبورى، والمحقق فى أسباب الوفيات السير بنتلى بورتشيز واللذين أرشداهما إلى جثة لشاب فى الرابعة والثلاثين من عمره "وهو ما يبدو مناسبا"؛ كان قد توفى فى يناير ١٩٤٣ إثر "التهاب رئوى"، وتم حفظ جثته فى الثلج، وادعى مونتاجيو أنه حصل على إذن من أقارب المتوفى شريطة ألا يتم الكشف عن هويته الحقيقية، وفى المقابل تلقت الأسرة وعداً بدفن جثة فقيدهم فى مدفن مناسب لاحقا تحت اسم مستعار، وفى الوقت ذاته أكد السير برنارد أنه لن يتمكن الأطباء الإسبانيون من اكتشاف أن الرجل قد توفى لسبب آخر غير تحطم طائرته فى البحر.

وتم وضع الجثة وسط قوالب ثلج جاف فى صندوق فولاذى يزن ٤٠٠ رطل ولصقت عليه عبارة "أجهزة بصرية"؛ وألبست الجثة زيًا عسكريًا لرائد فى مشاة البحرية الملكية، مع معطف واقٍ من المطر تعلوه سترة نجاة، وربطت حقيبة جلدية سوداء

فى حزام المعطف، وفى السياق ذاته أشار آلان هيلجارث الضابط الملتحق بمشاة البحرية بمدينة مدريد أن مدينة ولبة التى تقع غرب مدينة أشبيلية على الساحل الإسبانى الذى تجرى مياهه باتجاه البرتغال هى المكان الأمثل لعملية إسقاط الجثة، فيما ذهب مونتاجيو لزيارة بل جيويل قبطان غواصة البحرية الملكية سراف الذى اعتاد القيام بمثل هذه العمليات الخاصة، والذى وافق بدوره على إلقاء الجثة فى البحر، شمال غربى مصب نهر ريو تينتو أواخر شهر أبريل.

كان ينبغى أن يتم إعداد الوثائق التى تحملها الجثة بعناية، لذا حملت الجثة بطاقة هوية البحرية الملكية الخاصة، وإذن بدخول مقرات قيادات العمليات المشتركة يحمل اسم النقيب ويليام مارتن، إضافة إلى ثلاثة خطابات بتوقيعات معتمدة، كان الأول منها خطاب توضيح يقدمه "مارتن" إلى العميد البحرى السير أندرو كاننجهام، القائد العام للقوات بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، وكان الخطاب صادراً من لورد لويس مونتباتن، قائد العمليات المشتركة، وكان فحوى ذلك الخطاب يدور حول توضيح أن النقيب مارتن لديه خبرة كبيرة فى الزوارق البخارية وسفن المرسى وأنه أكثر دراية بسير الأحداث المحتمل وقوعها فى ديبى، يعد ذلك اعترافاً من مونتباتن بالإخفاق فى هجوم التحالف على ديبى فى أغسطس عام ١٩٤٢؛ كفخ ينصبه للألمان: "يرجى أن تعيده إلينا مرة أخرى فور الانتهاء من الهجوم"، واختتم مونتباتن خطابه قائلاً: "ربما يستطيع إحضار بعض أسماك السردين معه"، حيث تعد هذه إشارة منه إلى جزيرة سردينيا حتى يفهم الألمان ذلك، كما طلب الخطاب فى فحواه من العميد البحرى كاننجهام أن يقرأ الخطاب الثانى.

وكان لا بد أن يكون هذا الخطاب مكتوباً بحرفية ودقة بالغتين، ما يجعل ضباط استخبارات العدو فى حالة تأهب قصوى، إذن ما المتوقع فيما يكتبه نائب رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية، الجنرال أرشيبالد نى إلى الجنرال هارولد ألكسندر قائد الجيش البريطانى النشط تحت قيادة الجنرال أيزنهاور فى تونس عن الخطط المستقبلية لمنطقة البحر المتوسط؟

وبالنظر إلى خطاب الجنرال نى نجده خطاباً مهمًا يتضمن خداعًا على الطريقة البيزنطية المزدوجة، حيث استخدم الاسم الحركى "هاسكى" وهو الاسم الحركى للهجوم الحقيقى على جزيرة صقلية كاسم للهجوم الوهمى على اليونان، كما أشار أيضًا إلى العملية "بريمستون" وهى الهجوم الوهمى على جزيرة سردينيا، والأفضل من ذلك أنه أشار إلى الهجوم على جزيرة صقلية وكأنه مجرد خداع للهجمات المتوقعة على اليونان وسردينيا! ففى هذا الجو الذى يشبه عالم بورخيس الروائى الخيالى، جرى استعراض الهجوم الحقيقى على أنه خطة تمويه لهجوم وهمى، ويضم ذلك الخطاب أيضًا فى طياته شرحًا للسبب الذى دفع إلى تسليمه يدًا بيد بدلاً من إرساله بالإشارة اللا سلكية؛ إذ إن هذه الإشارة يمكن أن تقرأها القوات الأمريكية فى مقرات قيادة الحلفاء؛ فهناك قرائن تدل على وجود خلاف بريطانى - أمريكى حول منح أنواط للجرحى. ويذكر أن هذا الخطاب مر بصياغات عدة بالتنسيق مع دودلى كليرك، فيما لعبت الصدفة دوراً كبيراً أيضًا، فبمرور الأيام؛ أضافت هزيمة الجنرال ألكسندر للألمان فى تونس خلال شهر مايو الكثير إلى مكانته ما رجح الاحتمال لدى الاستخبارات الألمانية أنه سيتقدم نحو أوروبا وفق ما أشارت الخطابات.

يمكن لحامل الرسالة أن يضع هذين الخطابين فى جيبه، وكى يتسنى تبرير حمل "النقيب مارتن" للحقيبة؛ قام مونتاجيو وكولوندلى أيضًا بوضع نسختين من الكتاب الذى ستصدره وزارة الإعلام قريبًا والذى يعلق عليه هيلارى سانت جورج سوندرز والمسمى بـ "العلميات المشتركة ١٩٤٠-١٩٤٢" - (Combined Operations 1940-1942)، إضافة إلى خطاب من مونتباتن إلى الجنرال أيزنهاور يطلب منه كتابة مقدمة للنسخة الأمريكية من هذا الكتاب، فهذا الكتاب (الحقيقى) يثير تهديداً يختص بأهداف غزو الحلفاء؛ حيث يقرر تنامى أعداد القوات الخاصة وقوات الخدمات الخاصة وميلاد العمليات المشتركة، وغاراتهم، وإنزالهم انطلاقًا من جزر لوفوتن إلى جزيرة مدغشقر. (حيث كان يمكن لكل ضباط استخبارات ألمانيا المهرة معرفة أنه كان للمقدم دودلى رانجل كليرك دور فى كل ذلك كما جاء فى الصفحة رقم ١١).

والآن فرغ مونتاجيو وكولوندلى من إعداد هوية بل مارتن - بعناية - مع رسائل وهمية من والده فى ويلز وخطيبته بام فى ويلتشاير ومن مدير بنك لويدز، إضافة إلى فواتير من الخياط جيفز والنادى البحرى والعسكرى، وتذكرة بتاريخ ٦/١٠ من مسرح الأمير ويلز - الذى كان يعرض مسرحية تسمى "عزف مقطوعة موسيقية جديدة" (Strike a New Note)، إلى جانب تذكرتى حافلة وصورة لبام وهى تجفف جسدها على الشاطئ ومجموعة مفاتيح وساعة يد وحافظة نقود جلدية بها ثمانية جنيهات إسترلينية وكتيب طوابع بريدية قديم وحافظة سجائر وعلبة من ثقاب الكبريت، فدائمًا ما تكون التفاصيل مؤثرة وفق ما يشير بورخيس. كان النقيب مارتن يرتدى قلادة فضية حول عنقه ويحمل ميدالية القديس كريستوفر فى حافظته، كما تم إرفاق قرصى تحديد الهوية البريطانية مصنوعين من الورق المقوى إلى عروة سرواله - كان الأعلى منهما أخضر اللون ذا ثمانية أضلاع وبه ثقبى تثبيت، أما الأسفل فكان قرصًا مستديرًا أحمر اللون تم تقطيعه كعلامة على الوفاة - مطبوع على مقدمته اسم الجندى ورتبته ورقمه وديانته، وكان كاثوليكيًا رومانيًا، أما على الوجه الخلفى فقد تمت طباعة فصيلة دمه.

بعد الحصول على التصريح من تشرشل وأيزنهاور، غادرت غواصة سراى الملك المسماة هولى لوش ميناء اسكتلندا فى ١٩ أبريل ووصلت إلى ولبة صباح فى ٣٠ أبريل، وعندما قاموا بفتح الصندوق المعدنى كانت الجثة التى بداخله مدثرة فى بطانية ومشدودة بأشرطة، حيث بدا من رائحة الجثة أن قوالب الثلج لم تفلح فى أداء الدور المنوط بها، وبدأت الجثة فى التحلل، وكان وجهه المتجه نحو الأسفل شاحبًا، لكن الحقيبة التى ختمت بالتاج الرسمى كانت بمأمن من ذلك كما أن سترة النجاة لم تكن تحتاج إلى مزيد من الهواء، وتلا النقيب جيويل بعض ترانيم الجنازة فيما خفض باقى الضباط الأربعة رءوسهم، وقاموا بوضع الجثة فى الماء فى تمام الساعة ٤,٣٠؛ حيث راقبوها وهى تنجرف نحو الشاطئ؛ كانت قوارب الصيد الإسبانية على بعد من الغواصة فقامت بإنزال زورق مطاطى صغير اصطحب الصندوق المعدنى مسافة نصف ميل جنوب مكان إلقاء الجثة؛ ثم قلبوه رأسًا على عقب وبعدها أصابوه بأعيرة نارية حتى غرق؛ وحينئذ أومأ جيويل قائلاً: "انتهت عملية الخداع".

يذكر أنه تمت استعادة الجثة على النحو الأمثل، حيث تم استدعاء نائب القنصل البريطاني فى ولبة فرانسيس هيزلدن إلى المشرحة، واتبع الإسبان الإجراءات الرسمية للفحص وتحديد الهوية؛ فقام الطبيب المسئول بالميناء بعمل تشريح سريع للجثة وأعلن أن الغرق هو سبب الوفاة، ومن المعروف أن درجة الحرارة فى جزيرة الأندلس قبالة الشاطئ الإفريقى وقت الظهيرة فى أواخر أبريل تكون أشد من درجة الحرارة منتصف الصيف فى إنجلترا، لذا فإن فرانسيس هيزلدن كان سعيداً بخروجه من غرفة المشرحة الصغيرة، وتم وضع الجثة فى الكفن وقام نائب القنصل بنقلها، بينما تساءل ضابط البحرية الإسبانى الموجود آنذاك عن كيفية التصرف فى الحقيبة السوداء والأغراض الأخرى، فتظاهر نائب القنصل بالتمسك الشديد بالبروتوكول وأبدى احترامه للحيادية الإسبانية، مقترحًا أن يتم إيداعها لدى قائد البحرية فى ولبة حتى يتم إرسالها رسميًا صباح اليوم التالى، وعندما عاد إليهم نائب القنصل البريطانى أخبره ضباط البحرية بأنه تم نقل الحقيبة إلى الميرانتازجو بقادس، حيث المقر المحلى لقيادة البحرية.

فقام هيزلدن بإرسال برقية واضحة وعاجلة إلى آلان هيلجارث، الملحق البحرى فى مدريد من لندن حول الحقيبة ووثائقها، وفى الصدد نفسه أصر السفير البريطانى فى مدريد السير صمويل هور على استرجاع تلك الحقيبة؛ فأرسلت الحقيبة السوداء ومحتوياتها من قادس إلى أشبيلية ثم إلى مدريد من خلال الإجراءات الروتينية؛ للحكومة الإسبانية وبالطبع تحت أعين الجواسيس الألمان، حتى تسلمها هيلجارث أخيرًا فى ١٣ مايو دون أن تفتح.

وفى ذلك الوقت؛ قامت القنصلية البريطانية بدفن النقيب مارتن فى المقبرة الكاثوليكية الرومانية بولبة فى الثانى من مايو، بينما وضعت بام والأسرة إكليلاً من الزهور على قبره وفيما بعد تم وضع لوح من الرخام منقوشاً عليه:

ويليام مارتن.

ولد فى ٢٩ مارس ١٩٠٧

توفى فى ٢٤ أبريل ١٩٤٣

الابن المحبوب لجون جلايندر مارتن

والراحلة أنطونيا مارتن

من كارديف، ويلز

ما أصدق الموت وأجمله فداءً للوطن

ارقد فى سلام

وفيما بعد جرى تعديل ذلك اللوح إلى:

جلايندر ميشيل

شغل منصب النقيب ويليام مارتن

يعد جلايندر ميشيل أحد المدنيين القلائل المدونين فى لوحة الشرف فى موقع رابطة شهداء حرب الكومنولث الإلكترونى، وجاء فى بياناته الإضافية:

خدم السير ميشيل بلاده فى الحرب العالمية الثانية بالرتبة السابق ذكرها وتحت اسم النقيب ويليام مارتن من مشاة البحرية الملكية، توفى فى ٢٤ أبريل، تم تسجيل هذه البيانات على لوح الرخام الذى يوضع على المقبرة، ويعرف التاريخ هذا الرجل بأنه "الرجل الذى لم يولد".

وفى ذات اليوم الذى دفنت فيه الجثة، وضع الحلفاء خطة حقيقية لغزو جزيرة صقلية، وحتى ذلك اليوم كان هناك العديد من الخطط المحكمة لعملية الإنزال، لكن الجنرال مونتغمرى اختلى برئيس أركان آيزنهاور السير بيدل سميث فى غرفة الغسيل بمقرات قيادة لقوات الحلفاء بالجزائر، ورسم خريطة لجزيرة صقلية على مرآة متشبعة ببخار الماء فوق حوض ملىء بالماء الساخن، حيث قال مونتى فى هذا الصدد: لن يفيد أى من الخطط الأخرى؛ فى غضون شهرين أقوم بالهبوط إلى جانب الجيش الثامن، بالجنوب الشرقى من الجزيرة، بينما كان على القوات الأمريكية أن تنزل هنا، مشيراً إلى نقطة فى الجنوب الغربى منها، وانقضت أشهر من التشاحن بين الرجلين اللذين اتسمت لقاءاتهما فى غرفة الغسيل تلك بالجزائر بالتوتر والعدوانية، حيث اتفق الرجلان أخيراً.

مـا الذى طرأ على خطة التـضليل؟ نعرف أن المعلومـات الخـاطئـة المدرجـة داخل الحقيبة، كانت تقترح وقوع عميلة تسمى "هاسكى" تستهدف اليونان، وتم إرسـال ذلك فى برقـية لا سلكية وصلت إلى برلين فى ٩ مـايو ١٩٤٣، حيث وصلت إلى الأدمـيرال دونتـز والجنرال كـيتل وأدولف هتلر نفسـه كمـا ناقـشـهـا الأدمـيـرال كناريز رئيس الاستـخبارات العسكرية الألمـانية مع غوبلز وزير الدعاية، وهنا يبدو أن عملية "اللحم المفروم" - (MINCEMEAT) قد أدت دورها بنجاح فيما يسمى بعملية خداع "باركلى" الكبيرة، وكانت عملية "باركلى" تمثل نجاحًا منقطع النظير، حيث قام هتلر بإرسال فرقة المدرعات الألمـانية الأولى بانزر من فرنسا إلى كالاماتا فى اليونان خلال شـهر مـايو، وأصـدر أوامره فى شـهــر يوليو إلى الجــنرال رومل بالتوجـه إلى سالونيكـا للدفاع عن اليونان، وليس صقلية، كما تلقـت زوارق الطوربيــدات الألمـانية أوامرها بالتوجه من صـقليـــة إلى جزر إيجيه؛ وتم زرع ثلاثة حقول ألغام جــديدة ونصب المدفعيـــة على الشـاطئ.

وقع كل مـا قام به هتلر دون جدوى، ففى ١٠ يوليو نزلت الجيـوش الإنجليـزية - الأمـريكية والجيش الثامن الذى يقوده مونتى والسابع الذى يقوده باتون إلى جـزيرة صقلية وتمكنت من الاستيلاء عليها فى غضون ثمانية وثلاثين يومًا، وليس تسعين يومًا كما كان متوقعًا، وفر موسولينى؛ واستسلمت إيطاليا فى سبتمبر.

وفى يونيـو عـام ١٩٤٣، كلف خـوان بويول (جـاربو) بتـولى أمـور الاسـتـخـبـارات العسكرية الألمـانية من الشفرة عالية الإتقان، وجرت الأمور وفق مـا كان مـخططًا لها، حتى اندلعت الأزمة غير المتوقعة التى هددت ذلك العمل والتى أطلق عليها فى القسم الخامس من الاستخبارات العسكرية البريطانية "الحماسة المثالية الزائدة". كانت الأزمة تكمن فيما أطلقت عليه الشرطة البريطانية مصطلح "الوطنية"، حيث لحقت أرسيلى غونزاليس زوجة بويول ورضيـعـهـا به فى إنجلترا صيف عـام ١٩٤٢، لكنهـا شـعـرت بضجر شديد بعد مرور عام لافتقادها والدتها، وفى هذا الشـأن وصف توماس هاريس الكاتب والضـابط المسئول عن قضية جاربو زوجة بويول بأنها "تعانى من فرط العاطفة

والعصبية" وأنها أيضا "امرأة هستيرية، ومشاغبة، وأنانية والتى كانت على الرغم من ذلك ذكية، وماكرة، ولعل السبب فى تدخلها فى عمل زوجها أنه كان خطيرًا ومثيرًا"، ففى ٢٠ يونيو كتب جاى ليدل من الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس فى مذكرته: "كانت السير جاربو شديدة الحنين إلى الوطن وشديدة الغيرة على زوجها جاربو الذى كان مستغرقًا فى عمله ما جعله يهمل وجودها بعض الشىء"؛ ويكمن الأمر حقيقة فى أن السيدة جاربو كانت فاقدة الأمل فى العودة إلى الوطن.

ما حدث كان مجرد شجار ملتهب بين رجل وزوجته عشية يوم الحادى والعشرين، حيث لم يرغب بويول فى الخروج لتناول العشاء فى النادى الإسبانى برفقة بعض الإسبانيين، معتقدًا أن علاقتهم بالسفارة الإسبانية قد تشكل خطرًا، وحينئذ غضبت زوجة بويول، واتصلت بالسير هاريس مهددة إياه بأن "تبوح بكل شىء"، وأن تكشف كل الحقائق للسفارة الإسبانية ما لم تحصل على أوراقها لمغادرة البلاد، وهنا يعلق ليدل قائلاً: "أعتقد أنه ما دامت كانت شبكة جاربو وهمية، فإننا لن نستخدمها فى غرض آخر".

وجاء أحد ردود فعل ليدل فى فكرة جهنمية تكمن فى تحذير السفارة الإسبانية من أن امرأة تشبه فى مظهرها زوجة السير بويول، تعتزم اغتيال السفير، وهو الأمر الذى كان يستلزم استدعاء الشرطة، ولكن هذا بدا مملاً، لكن بويول/جاربو فكر فى الوقت ذاته فى حل أكثر ذكاء، وحينها تلقى الدعم والمساندة من هاريس ورفاقه.

ففى صباح اليوم التالى الموافق للثانى والعشرين من الشهر نفسه، وبعد أن خرج زوجها للعمل تلقت زوجة بويول اتصالاً هاتفيًا، وأُبلغت أنه سيصلها قرار بشأن أوراقها فى السابعة مساءً، وفى تمام الساعة السادسة توجه ضابطان من إدارة التحقيقات الجنائية إلى منزلها بخطاب من السير بويول يقول فيه: إنه ألقى القبض عليه وتم إيداعه سجن الشرطة؛ فهل من الممكن أن تحضرى حقيبة أغراضه وملابس نومه؟ فانتابتها حالة من الخوف الشديد واتصلت بالسير هاريس وهى تبكى وتناشده إطلاق سراح زوجها، فقد كان دومًا مخلصًا فى عمله معهم وكان على أتم استعداد ليضحى بنفسه من أجل القضية، فلم تم اعتقاله؟ فأوضح لها هاريس أن "الخدمات السرية البريطانية"

وافقت على طلبها بالعودة إلى إسبانيا بشكل نهائى، لكن عليه أن يطلب من زوجها كتابة خطاب يقطع فيه صلته بالألمان من أجل حماية المصالح البريطانية من زوجته التى هددت بـ "إفشاء الأسرار" إلى الإسبان، وذكر هاريس أن بويول قال إنه يفضل أن يدخل السجن بدلاً من التوقيع على هذا الخطاب، وأن زوجها ثارت ثائرته عند سماع "إفشاء الأسرار"، وكان لا بد من إلقاء القبض عليه لأسباب تأديبية. ذكرت زوجة بويول أنه كان يتصرف وفق ما تمنته، وأنه أحب عمله السرى لكنه كان فقط يحاول حمايتها.

شهدت تلك الليلة أحداثًا غريبةً، فقد تم إرسال الرجل الذى قام بتشغيل الجهاز اللا سلكى المرتبط بمدينة مدريد إلى منزل بويول، فوجد الزوجة ملقاة فى المطبخ وصمامات الغاز مفتوحة، وهنا اعتقد هاريس أن هذه خدعة، لكن الأمر لم يكن كذلك، ولعبت الصدفة دورها، لذا قضت هيلدا زوجة هاريس الليلة معها فى المنزل للاعتناء بها، وفى اليوم التالى وبناءً على طلبها أجريت مقابلة رسمية مع زوجة السير بويول، وبطريقة عصبية انتحبت بكاء وتوسلت إلى هاريس قائلة إن ما حدث كان خطأها، وإذا ما تم العفو عن زوجها، فلن تتدخل فى شئونه مرة ثانية، وأنها لن تطلب العودة إلى إسبانيا مجددًا.

وفى الرابعة مساءً أقلتها سيارة واقتادتها إلى جسر كيو؛ ثم نقلت فى حافلة سوداء تابعة للشرطة من طراز ماريا إلى قصر يرجع إلى عهد الملكة فيكتوريا بالقرب من هام كومن، حيث أصبح سجن لاشمر هاوس، الذى كان فى السابق مستشفى للضباط الذين يعانون من "اضطرابات عصبية" فى الحرب العالمية الأولى، والذى لم يخل من المرضى، والآن هو معسكر محاط بالأسلاك الشائكة يحمل الرقم "٠٢٠"، حيث يجرى اعتقال الجواسيس الألمان والتحقيق معهم. كان العقيد روبن ستيفنز المكنى بصاحب "العين المعدنية"، لأنه كان يلبس نظارة معدنية بعدسة واحدة، هو قائد السجن وكبير المحققين فيه، وأخذت زوجة السير بويول إلى الداخل وتم نزع عصابة عينيها، فيما أحضروا زوجها بلحيته مرتديًا زى المعسكر "٠٢٠"، وكان أول سؤال طرحه على زوجته للإجابة عنه، بعد أخذ القسم منها، هو: هل ذهبتى إلى السفارة الإسبانية،

فأقسمت أنها ما قالت ذلك إلا تهديداً كى يعيرها مزيداً من اهتمامه، وأخبرته بأنها وقعت على اعتراف بتحملها المسئولية الكاملة، فأخبرها بويول بأنه خضع لمحاكمة هذا الصباح، ولكنه أمل أن يقنع القضاة أنها لم تكن تعتزم الذهاب إلى السفارة الإسبانية على الإطلاق؛ ثم غادرت الزوجة معسكر "٠٢٠" وقد هدأ روعها كثيراً إلا أنها لم تتوقف عن النحيب، وفى اليوم التالى أخبر رئيس الخدمة الأمنية زوجة السير بويول بأنه سيسمح لزوجها بمواصلة عمله؛ ولكنه حذرها من تكرار مثل هذا السلوك، وعادت إلى البيت مطمئنة البال ولم تثر أى مشكلة منذ ذلك الحين.

عندما عاد خوان بويول إلى المنزل فى ذلك اليوم ٢٤ يونيو عشية عيد القديس والذى صادف مولد يوحنا المعمدان، أعطى زوجته نسخة من البيان الذى من المفترض أن يكون قد أدلى به. ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن جاربو ألف تحفة فنية صغيرة فى الدفاع عن الفقراء والنساء العزل والفخر المفرط للإسبانيين الذين وُصموا بالخيانة، تفيد خاتمتها:

أنا أعلم أنى أناشد فيكم حكم الفرسان وكلى ثقة فى قراركم؛ ولحسن الطالع فإن هذه الدولة بريئة من التصنع والخداع وتحكمها ضوابط شرعية تصب فى مصلحة شعبها ومن يتعاملون معه.

ويكشف الذكاء ثلاثى الأبعاد لهذا الخداع المرتجل السريع مدى ما توصل إليه بويول من تميز فى عمله، حتى إن كان هو ذلك الشخص الذى يقوم بخداع زوجته، ففى سيرته الذاتية الصادرة عام ١٩٨٥ المسماة "جاربو" – (Garbo) التى كتبها مشاركة مع نايجل ويست، أخفى بويول حقيقة زواجه تماماً.

يرجع الفضل فى الاحتفاء بعملية "اللحم المفروم" – (MINCEMEAT) أو "الرجل الذى لم يولد" – (The Man Who Never Was) إلى ونستون تشرشل، رئيس الوزراء الذى أعطى الإذن بالاحتفال بها ودعا إلى حفل عشاء بعد وقوعها لإخبار الحضور بما جرى خلالها. كان دوف كوبر صديق تشرشل والدبلوماسى السابق ووزير الإعلام الذى أضحى همزة الوصل بينه وبين الفرنسيين الأحرار ثم أصبح سفيراً لبريطانيا فى باريس فيما بعد، من بين من سمعوا تلك القصة.

ذكر كوبر قصـــة الجثـة المضللة فى روايتـه الأولى والوحيدة "عمليـة الحسرة" - (Operation Heartbreak) التى نشـرتهـا دار نشـر روبرت هارت، دافـوس فى نوفـمـبـر ١٩٥٠، إنها قصة تروى بطولة نادرة لشاب جدير بالاحترام أحب كتيبته، وكان يتوق إلى خدمة بلاده فى الحرب العالمية الثانية، لكن سوء الحظ لازمه حيث توفى إثر إصابته بالتهـاب رئوى، إلا أن الأقـدار سـارت حتى جعلت جثـتـه تسـتـخـدم فى عـمليـة تمويه عسكرية لتنقذ آلاف الأرواح، وقد نجحت القصـة فى حينها محققة مبيعات تقدر بنحو ٣٠٠٠٠ نسخة بحلول عيد رأس السنة الميلادية؛ وبلغت حقوق الفيلم الأمريكى ما يقرب من ٤٠٠٠٠ دولار، حيث كتب كوبر فى يومياته: "ومما لاشك فيه أنه كانت هناك مقاومة من فروع مـعينة من الخـدمة السـرية، إلا أنها كانت واهنة واستطعت التغلب عليهم"، وأخبر كوبر الخدمات السرية أنه حصل على القصة من تشرشل نفسه وأنه سيذكر ذلك إذا ما تعرض للتحقيق بتهمة العبث بأمن البلاد، واعتقد دينيس ويتلى أن هذا الكتاب كان سيزج بصاحبه فى غياهب السجن لو لم يكن صديقًا شخصيًا لتشرشل.

وقبل مرور ثلاث سنوات وتحديداً فى يناير ١٩٥٣، بدأ صحفى يمينى يدعى إيان كولفن - وكان على صلة بضبـاط استـخبـارات ألمـان سابقين - فى عمل تحـقيقات بمدريد وجبل طارق وجنوبى إسبانيا حول جثة الضابط البريطانى التى انجرفت قبالة الشـاطئ وقت الحرب قبل عشر سنوات وكانت تحمل أوراقًا مهمة، وبعد ما سمعه من أقاويل كانت تروج فى المجالس اقتنع بأن رواية دوف كوبر استندت إلى الحقيقة، وهذا بالفعل ما اكتشفه من خلال الاسم الموجود على المقبرة فى مدفن ولبة، فلم يكن ويليام مارتن يبعد مئات الأميال عن ويلى مارينجتن الشخصية الخيالية فى قصة دوف كوبر، وأعد كولفن لنشر كتاب يتقصى عملية التضليل البريطانية تحت اسم "الرسول المجهول" - (The Unknown Courier)، ولكن لجنة الاسـتـخبارات المشتركة (وبمعارضـة شديدة حسبما ذكر الأستاذ الجامعى آر فى جونز)، قررت أن تسحب قصة كولفن وأن تعهد إلى إيوان مونتاجيو، مسئول الاستخبارات البحرية السابق والذى يعمل الآن بالقانون، بكتـابة قصة رسـمية مـعتمـدة عن دوره فى عملية التضليل، وكان ذلك بمثابة عملية

مضادة لما سماه مونتيجو بوضوح "الأخطار المحتملة والمساوئ التى يمكن أن تنتج جراء نشر هذه القصص من قبل أشخاص لا يعلمون عنها سوى القليل"، وفى نهاية الأمر أصبحت عملية "اللحم المفروم" – (MICEMEAT) الصغيرة هى أشهر عمليات التضليل البريطانية فى الحرب.

ويقول مونتاجيو معلقًا أنه كتب رواية "الرجل الذى لم يولد" (The Man Who Never Was) فى عطلة أسبوعية واحدة، وأن جاك جاربو الصحفى بجريدة صنداى إكسبرس قام بمساعدته، حيث نشرت تلك الرواية فى حلقات قبل خروجها إلى الوجود وساعدت فى تحقيق الكتاب لنجاح منقطع النظير عام ١٩٥٣، فيما سرد البرنامج الإذاعى الفكاهى "ذا جونز" والذى كانت له شعبية كبيرة تلك الرواية، يذكر أن عام ١٩٥٣ كان بمثابة عام من التتويج لهذا البطولات، الأمر الذى أضفى رونقًا على الأمور القديمة لتعود إلى الحياة من جديد، وتم الكشف عن عملية تجميع الرفات القديم وهى العملية التى عرفت باسم إنسان بلتداون وكانت مجرد تزييف، حيث انخدعت بها الصفوة المثقفة من العلماء، وعندما قام رونالد نعوم بتحويل رواية (الرجل الذى لم يولد) إلى فيلم فاز بجوائز الأكاديمية البريطانية للسينما والتلفاز "بافتا" عام ١٩٥٦، حيث لعب كليفتون ويب دور مونتاجيو، فيما لعب مونتاجيو نفسه دور أحد أفراد لجنة الخداع المضاد، وأضاف كاتب السيناريو نايجل بيلشن شخصيتين شريرتين أيرلنديتين لعمل حبكة الرواية؛ هما (ستيفن بويد وسيريل كوزاك) كانت مهمتهما تتمثل فى التخابر لصالح الألمان، وقام بيتر سيلرز الممثل الساخر بتقليد صوت تشرشل المتذمر، وبحلول ذلك الأوان كان قد تعقد امتزاج الحقيقة بالخيال وبالحقيقة المصبوغة بصبغة خيالية.

(٢٦)

القـــــرين

فى العمل الشـهير "بورخـيس وأنا" - (Borges and Myself) يعلق جورج لويس بورخيس قائلاً: إنه كان يحب كتابات روبرت لويس ستيفنسون ويستمتع بها، كما لو كانت من أعماله، ولكن بأسلوب أقرب إلى الاستعراض على طريقة الممثلين، وفى عمل آخر يشير بورخيس إلى رواية ستيفنسون المسماة "حالة الدكتور جيكل والسير هايد الغريبة" - (The Strange Case of Dr Jekyll and Mr Hyde)؛ بالنسبة إلى الاختلاف بين الرواية نفسها وبين الأفلام التى جسدتها لاحقًا، فبينما كانت الأفلام تركز على المشاهد الدرامية التى يتحول فيها الرجل إلى رجلين، تدور فكرة الرواية فى الواقع حول كيفية تحول شخصين مختلفين إلى شخص واحد (متقلب) يهمس قائلا: "أقول" هو "ولا يمكننى أن أقول أنا".

أحب دودلى كليرك السينما تمامًا مثل بورخيس؛ حيث كان العاملون فى مجال الخداع يتقنون الأداء الجيد والمقنع، وكان دودلى كليرك بدوره يعمل حتى الساعات المتأخرة من الليل ويقضى ساعات كثيرة فى دور العرض بالقاهرة يشاهد الأفلام ذاتها المرة تلى الأخرى ويجتمع مع مساعديه فى القاعات الصاخبة؛ ويطلب منهم فى بعض الأحيان كتابة خطابات، فى أحيان أخرى كان يطلب منهم مشاهدة العروض، حيث يبدو أن الأفلام ساعدته فى التفكير وتخيل حيل خداعية جديدة.

وفى يناير عام ١٩٤٤، شاهد كليرك فيلم "خمس مقابر بالقاهرة" - (Five Graves to Cairo) والذى يعتبر ميلودراما رومانسية عن حرب الصحراء الأخيرة بشمال إفريقيا،

حيث خرج عريف بريطانى يدعى جون برامبل من الصحراء الغربية يبحث عن مأوى فى أحد الفنادق، وعندما وجد أن الألمان قد سيطروا على الفندق حولوه إلى ثكنة لجنرال روميل، تنكر برامبل فى زى نادل بالفندق أصيب للتو فى غارة جوية، ثم يتحول ليكون جاسوسًا ألمانيًا سريًا. تدور حبكة الرواية حول برامبل الذى يكتشف أن "القبور" الخمسة التى تقع على طول المسافة بين القاهرة وطبرق هى فى الواقع مستودعات مؤن وذخيرة لقوات دول المحور، وهذا ما سمح للعريف بالتصدى لخطط الألمان لغزو مصر.

كان كليرك مبهورًا بحزمة الريش التى توحى بالحزن الموجودة على الخوذة التى كان يرتديها الممثل الذى يؤدى دور إرفين روميل "الكونت إيريك فون ستروهايم نوردينفال"... هكذا كان هذا الممثل يلقب نفسه، فهو نجل عائلة نمساوية نبيلة. وكان أبوه صانع قبعات يهودى فى فيينا، ثم أعاد اكتشاف نفسه عندما هاجر إلى أمريكا عام ١٩٠٩. عمل "ستروهايم" على نشر اسمه ضمن الضباط الألمان فى أفلام الدعاية الخاصة بالحرب العالمية الأولى مثل فيلم "الجنود الألمان فى الجوار" – (The Hun Within) حتى أصبح مخرج أفلام ذائع الصيت. أخرج أفلامًا مثل، "الأزواج المكفوفين والجشع والأرملة اللعوب" – (Blind Husbands Greed The Merry Widow) ثم أصبح ممثلاً متخصصًا فى أداء أدوار البروسيين المتغطرسين؛ حيث مثَّل فيلم جين رينيه "الخديعة الكبرى" – (La Grande Illusion).

استنبط كليرك فكرة رائعة عند مشاهدته إيريك فون ستروهايم يمثل دور روميل تقوم على أن الرجل الواحد يمكن أن يتحول فى الحقيقة إلى رجلين فى مكانين مختلفين فى التوقيت نفسه، ماذا لو استطاع ممثل تجسيد برنارد مونتغمرى خصم روميل؟ وقبل شهر، أى فى شهر ديسمبر ١٩٤٣، كان الجنرال أيزنهاور مع مجموعة من فرق العرض لتعيين قائد أعلى لشن هجوم مقترح لتحرير أوروبا الغربية وتدمير ألمانيا النازية، بينما تولى مونتغمرى فى هدوء منصب قائد المجموعة الحادية والعشرين من الجيش البريطانى وجميع القوات البرية فى أثناء غزو نورماندى البر مائى الذى أشير إليه بالاسم

الحركى "نبتون"، ثم عاد مونتى إلى المملكة المتحدة أوائل عام ١٩٤٤، لكنه لم يكن ذاك الرجل الذى يمكنه العيش بسلام فى لباس مدنى، فأقام بجناح فى فندق كلاريدجز وعندما اكتشف الحضور وجوده بزيه الكامل فى مقصورة مسرح بالاديوم فى لندن وقفوا جميعًا للترحيب به مدة خمس دقائق، يشير دينيس ويتلى إلى أن مثل هذا السلوك، وإن كان ينم عن غرور، لكنه جعل من مونتغمرى شخصية عامة.

ماذا لو أن شخصية مشهورة مثل مونتى ظهرت؛ وتباهت فى مناطق مثل جبل طارق والجزائر والقاهرة؟ فحسبما يشير دودلى كليرك، يمكن أن يصرف ذلك انتباه دول المحور بعيدًا عن القتال؛ حيث سيقوم الحلفاء بشن هجمات مركزة فى القريب العاجل ثم يعودون إلى منطقة البحر المتوسط.

بدأت عملية "كوبرهيد" فى ربيع عام ١٩٤٤؛ حيث كان الملازم ميريك كليفتون جيمس ممثلاً محترفًا انتشرت شهرته مع فريد كارنو، كما كان يؤدى أدواره بين حين وآخر مع مجموعة باى كوريس دراما، وفرقة المنوعات، لكنه كان يتمتع بموهبة لم يرغب فى استغلالها؛ حيث قام ذات مرة بإنقاذ أحد العروض الوطنية فى مدينة ليستر من خلال ارتداء قبعة سوداء ومعطف بريطانى ثم اعتلى خشبة المسرح، ومن خلال ارتداء هذا الزى كان من الصعب على أى أحد التمييز بين كليفتون جيمس وبين الجنرال مونتغمرى قائد النصر فى موقعة العلمين، حيث ابتهج الجمهور بأسره وأخذوا يصفقون ويهتفون لمدة خمس دقائق. وفى شهر مارس عام ١٩٤٤؛ قامت جريدة نيوز كرونيكل بنشر صورة وخبر صغيرين حول هذا التشابه الملحوظ بين كليفتون ومونتغمرى، وعندما تم وضع فكرة دودلى كليرك موضع التنفيذ، تذكرها أحد الأشخاص داخل الاستخبارات العسكرية القسم الخامس، فتوجه جيمس إلى ليستر.. كان هذا هو السبب وراء تلقى الملازم الشاب فى فيالق الجيش الملكى مكالمة هاتفية غير متوقعة من النجم السينمائى البريطانى الشهير فى ذاك الوقت ديفيد نيفن طالبًا منه المشاركة فى بعض الأفلام الحربية.

نشرت رواية كليفتون جيمس "كنت قرين مونتى" – (I was Monty's Double) التى ساعده فيها جيرالد لانجستون داى فى يونيو ١٩٥٤ – أى بعد عشر سنوات من وقوع الأحداث التى نتحدث عنها وبعد عام واحد من نشر رواية "الرجل الذى لم يولد" – (The Man Who Never Was).

تعتبر تلك الرواية بمثابة دراسة لأداء شخص خجول، حيث قام رجل خجول لا يتمتع بأى سلطة مادية بتجسيد دور رجل قوى الشكيمة وصاحب شخصية آسرة. من خلال الأكاذيب التى اضطر كليفتون جيمس إلى أن يسردها لزوجته تحت مسمى السرية، نجد أن جيمس يرى الأشياء من منظور مسرحى، مثل حديثه عن رهبة المسرح والثقة الخادعة، ونراه يقول فى هذا الصدد: "يمكن فقط لأولئك الأشخاص الذين عملوا فى مجال الخداع أن يدركوا مدى صعوبة هذا الأمر"، كان عملاء المخابرات العسكرية، القسم الخامس الذين اتصفوا بالدهاء يمثلون هنا المنتج والمخرج المسرحى ومدير المسرح، وقد فوجئ جيمس بأن لديهم حساً بالدعابة والمرح وكانت لديهم مهارات التقليد، وفى أثناء مشاهدة كليفتون جيمس للقائد مونتغمرى شخصياً على الشاطئ فى أثناء بروفة استعراض يوم الغزو، أحس بحالة من الخيال حتى بدا مونتى وكأنه يمثل أيضاً:

رأيت على خشبة المسرح ممثلين ومطربين لم أشاهد أسوأ منهم فى حياتى على الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بشخصيات قوية، كما رأيت فنانين قديرين من أنهم لا يتمتعون بمثل تلك الشخصية، ولا يستطيعون إحراز أى تقدم؛ لكن هذا الرجل هو الشىء الوحيد الطبيعى... ففى أثناء الحرب يقوم باختيار طاقم الممثلين بعناية وتعيين أمهر المخرجين والمديرين والفنيين والمساعدين، ويتأكد من أن كل شخص يعرف دوره جيداً بداية من بطل العمل وانتهاءً بمن يقومون بأدوار ثانوية.

كانت الخدمة بالجيش تذكر جيمس بعمله المسرحى؛ عندما كان يتدرب فريق التمثيل على أداء أدوارهم لأسابيع فى "مكان ليس به أحد" قبيل الافتتاح، وعندما يشعر أفراد العرض بخيبة أمل، وبالتخبط، يظهر أحد المنتجين ويلقى كلمات قلائل هادئة تثير الثقة مرة أخرى، كان من أكثر الأشياء التى أحبها جيمس فى مونتى

هو الطريقة التى يستطيع من خلالها تحفيز الناس، حيث يقول جيمس فى هذا السياق: "كان مونتى يستخدم براعته فى العـروض والتقـديم للتأثير على الجنود. رأيته عندما كان أفراد الجيش الثامن يشمئزون من "القبعات النحاسية"، فقام مونتى بوضع قبعة سوداء فوق رأسه وتحدث إلى الفرقة وجمهور المشاهدين بطريقة لم يسبق أن تكلم بها جنرال فى ميدان المعركة من قبل".

وقبل أن يقوم بأداء دوره، كان جيمس كليفتون فى حاجة إلى دراسة إيماءات وأساليب مونتغمرى، مثل: الطريقة التى يضع بها يده على خده والتى يتناول بها طعامه "النباتى" وقيامه بزيارات مفاجئة إلى المدارس وحركاته الصبيانية وأجواء الاحترام الصارمة التى تحيط به، وفى النهاية، التقى جيمس مع الجنرال مونتغمرى شخصياً فى إحدى العطـلات بالقرب من دالوينى فى منطقـة الهضاب باسكتلندا على مـتن قطاره الخاص:

"عندما جلست أمامه بدا الأمر بالنسبة إلىَّ وكأننى أنظر إلى نفسى فى المرآة، حيث ذهلت من التشابه الكبير بيننا... فعلى خشبة المسرح، يمكننى تمثيل دور ذلك الرجل بعد استخدام بعض حيل مساحيق التجميل إلا أن الأمر مختلف هنا، فلن تكون هناك حاجة للحواجب المستعارة ولا الخدود المبطنة أو أى شىء من هذا القبيل، فكنت أشبه الجنرال مونتغمرى بطريقة لا تصدق، كما اكتشفت بعد ذلك أنه كان بيننا شبه كبير فى فترة الطفولة".

كان كل من جيمس ومونتغمرى مختلفين من حيث النشأة؛ حيث نشأ جيمس فى مدينة بيرث وكان والده رئيس محكمة غرب أستراليا، بينما نشأ مونتغمرى فى هوبارت وكان والده أسقفًا فى تسمانيا، وعلى الرغم من أن جيمس كان فى السادسة والأربعين من عمره ويصغر مونتغمرى بأحد عشر عاماً، فإنه بدا أكبر منه ولعل هذا يرجع إلى إفراطه فى تناول الخمور وشراهته فى التدخين (بينما كان مونتى ممتنعًا عن المسكرات ويمقت السجائر)، والآن يقوم الرجل الصغير بدراسة نبرة حديث الرجل الأكبر الحادة وحسمه فى الكلام وصوته الأجش. طمأن الجنرال مونتغمرى الممثل قائلاً: "لا تقلق، سيكون كل شىء على ما يرام".

قام سلاح الجو الملكى البريطانى بأخذ جيمس فى رحلة جوية أجريت من خلالها حركات لولبية؛ للتأكد أنه لن يصاب بدوار الجو، ليكون مثل مونتى تماماً، ثم أعاده قائد الجناح الأيمن دينيس ويتلى الذى عمل بقسم المراقبة فى لندن إلى سلاح الجو الملكى البريطانى فى نورثولت، حيث كانت هناك ملابس مهمات تصلح لأن تكون زياً مناسباً وبها خمسة صفوف من الأوسمة، كما تم شراء ساعة جيب ذهبية تعلق فى الصدر من وولورث، كما تمت تغطية إصبع جيمس الأوسط المفقود بإصبع صناعى وتم ربطه ببقية الأصابع استعداداً للبروفة النهائية مع رجل من المخابرات العسكرية، من القسم الخامس يُعرف بالعميد هايوود. قام جيمس بتقصير شاربه، وصبغ صدغيه بلون رمادى وارتدى سترة طيران مونتى، إضافة إلى قبعته السوداء ناحية اليمين ليتم تصويره حتى يطلع تشرشل على الصور، كما أعطى مناديل كاكية اللون وعليها الحروف الأولى من اسمه؛ كما أعطى إنجيلاً صغير الحجم مثل الإنجيل الذى يحمله مونتى معه دائماً. وكلما شعر بعجزه بسبب الخوف كان يتذكر أن عليه أن يتقن دور البطل حتى ينجح: "لقد استطعت بعد جهد مضنٍ أن أطرح شخصية جيمس جانباً وأصبح مونتى".

هبطت طائرة جيمس فى منطقة جبل طارق باكر يوم ٢٧ مايو، وتم رفع الأستار من على الطائرة، وبدت لجيمس الصخرة التى هبط عليها وكأنها مسرح درورى لين. أما بقية الممثلين، كبار المسئولين والجنود وسائقو السيارات الذين تقدموا تدريجياً لتحية القائد فهم هنا، كان فى الخلفية وبين العمال الإسبان الحقيقيين يوجد الأشرار وعملاء هتلر السريين، يشاهدون ويدونون كل صغيرة وكبيرة، مر جيمس خلال الاجتماع وألقى التحية على من التقى بهم، وإن خالطه شعور بعدم المصداقية، "وكان الأمر بمثابة حلم".

ثم استقلوا سياراتهم عبر شوارع جبل طارق، وكان الجنود يهرولون ويهللون قائلين: "القائد العظيم مونتى"، وقام حرس الشرف بأداء التحية العسكرية له فى مقر الحكومة، وكان حاكم جبل طارق فى ذلك الوقت هو الجنرال السير رالف إيستوود الذى

كان زميلاً لمونتغمرى فى أكاديمية ساندهيرست العسكرية، وقام "مونتى" بتحية حرس الشرف، وصافحهم ثم أخذ يتحدث فى غير تكلف مع إيستوود؛ وهما يسيران إلى قصر الحاكم حيث كان يمسك بذراعه. وفى مكتب الحاكم، خلع إيستوود قبعته وجلس على مكتبه وأخذ يحملق فى جيمس ثم ابتسم، وقفز من مكانه، وصافحه فى دفء ثانية وهو يقول متعجبًا: "لم أكن أتصور أن ذلك ممكن". وأضاف: "أنت إنسان رائع، لا أستطيع التغلب على مشاعرى، فأنت مونتى بالفعل، أنا أعرفه منذ سنوات".

جلس "مونتى" والحاكم فى حديقة أمام إفريز صخرى وأخذا يصفان انتصار نيلسون فى معركة ترافالغار؛ وفى أثناء ذلك دخل رجلا أعمال إسبانيان أمردان يرتديان بذلتين من بوابات الحديقة فى أثناء حديثهما مع السيدة إيستوود عن السجاد المغربى القديم الموجود فى المنزل، يقول جيمس كليفتون: إنه عرف أنهما "اثنان من أمهر عملاء هتلر، وتم تدريبهما بواسطة البوليس السرى النازى، وتظهر عليهما الشراسة الشديدة"، ثم أخذ جيمس يتكلم عن مجلس الحرب و"الخطة ٣٠٢" بصوت منخفض وعندما اقترب الرجلان وقدما نفسيهما، ظل ينظران إليه فى هيبة واحترام حتى دخلا مقر الحكومة؛ ومن هذا المكان أخذ "أحد العمال" مراقبته باستخدام تلسكوب. أما عن آخر أعماله فى منطقة جبل طارق، فقد أخذ جيمس يهذى بشأن "الخطة ٣٠٢" ويعطى أوامر وتعليمات بصوت مرتفع بالقرب من مطعم المطار؛ حيث كان للألمان اتصال ببعض من يعملون هنا.

وبمرور الوقت تلقى جيمس التحية العسكرية الأخيرة ثم غادر. كان جيمس جزءًا من الحدث حيث يقول: "عندما كنت أقوم بدور مونتى، شعرت فى حقيقة الأمر بالسكينة والثقة بالنفس، لكننى كنت فى فترات الاستراحة فى الكواليس بين المشاهد أشعر بإرهاق الأعصاب"، ساور الخوف جيمس من محاولة إسقاط الطائرة، أو التعرض للاغتيال، أو الخطف، ولم تكن هناك مجموعة من ممثلى المسرح لتدعم روحه المعنوية وراء الكواليس، ولم يلق استجابة مناسبة من الجمهور الجالس أمامه، إلا أن العميد هايوود أطلعه على المهمة التالية التى سيتم القيام بها فى الجزائر العاصمة، وقال له:

"إن أعداداً كبيرة من عمـلاء العدو يدبرون الدسائس لخداع الفرنسيين الأحرار وعملائنا الإيطاليين المخلصين".

من بين "الجواسيس" الذين يعملون فى مطار الجزائر، كان أحد مصادر الفرقة العسكرية "إيه" وعلى دراية بالعمل اللا سلكى، حيث كان البوليس السرى النازى فى باريس قد جنده وهبط بمظلة فى الجزائر عام ١٩٤٣، ثم قام بتسليم نفسه على الفور للقوات البريطانية وتمت "إعادة تأهيله"، فقام ذلك العميل المزدوج بتقديم تقرير وافٍ عن وصول الجنرال مونتغمرى إلى المراقبين فى المخابرات الحربية الألمانية الذين كانوا قد اتخذوا وضع الدفاع فى ديجون التى فرحت باستقبال الضباط البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين لمونتغمرى، ومضت رحلته فى ظل صفارات الدراجات البخارية بسرعة عالية ليعبر مسافة اثنى عشر ميلاً باتجاه مقرات قيادة قوات الحلفاء، وتساءل اثنان من الجواسيس الإيطاليين كانا قد اندسا وسط حشد من الناس عما يحدث وقال أحد الرجال الفرنسيين الذى أرسل إلى هناك خصيصاً لتعقبهما: "يأتى مونتى إلى شمال إفريقيا ليكون جيشاً جراراً جديداً ليوجه ضربة تحت الحزام للألمان فى الجنوب".

وطبقًا لرواية كليفتون جيمس، فقد أمضى أسبوعين فى هذا الحلم واستقل طائرته إلى العديد من المطارات؛ حيث قام بالعديد من الأعمال بين الزيارات والاستقبالات الرسمية، واستعراض حرس الشرف والقوات المصطفة بالشوارع ابتهاجاً بقدوم القائد، ومحادثات صورية حول الاستراتيجيات العليا إضافة إلى تواجد جموع من المشاهدين المدنيين الذى كان بينهم عملاء يتبعون العدو.

"واعتقد الجميع أننى كنت الجنرال مونتغمرى... حتى أنا فعندما كنت وحيداً، كنت أجد نفسى أقوم بهذا الدور"، ولم يستطع جيمس الفرار من تلك المهمة، فعندما كان نائماً كان يحلم بمونتى، حتى إنه وجد من الصعوبة أن يفقد هذه الشهرة بعد ذلك:

ثم توجهت إلى مقر القيادة حيث يوجد الجنرال ويلسون، على أننى مونتى حيث كنت فى أوج العظمة والمجد، لكن الأمل ضاع إلى الأبد فى اللحظة التى خرجت فيها من الباب.

وقمت فى الطابق العلوى بارتداء زى ملازم يعمل فى الفيالق المأجورة.

عندما تكون خليفة ولو لساعة، فإن المنصب الذى تتبوأه يضفى عليك رونقًا، إلا أنك عندما تترك هذه الرتبة الرفيعة وتعود إلى منزلك المتواضعة والانحسار الذى استطعت أن تجتازه بشق الأنفس، فإنك بالتأكيد ستكون فى حاجة إلى الاستعانة بكل ما لديك من الصبر والتحمل.

تم تهريب جيمس من الباب الخلفى للمطبخ إلى إحدى الحوارى؛ ليدخل فيللا صغيرة تم إغلاقها على الفور، وهنا انتهى عمله فى انتحال شخصية مونتغمرى إلى غير رجعة، حيث قال وهو يشعر بالتعب والإجهاد: "كل ما يمكننى الآن هو أن أتخيل مرارًا وتكرارًا هذه المشاهد التى مرت وكأننى مقيد بالسلاسل فى مقعدى داخل إحدى دور العرض"، ثم أحضر الرقيب وجبة مكونة من السجق والبيض وشرائح البطاطس إضافة إلى كوب من الشاى، ثم قابل جيمس العميد الحقيقى الذى خطط لهذا العمل البطولى: "إنه صاحب الصيت العميد دودلى كليرك الذى أسس فرق القوات الخاصة".

إنه الرجل صاحب فكرة تدريب فرقة من الشباب الأشداء ليقوموا بشن هجمات خلف جبهات العدو، رجال قادرون على تحدى الصعاب يستخدمون كل وسيلة "غير إنجليزية" تمكنهم من تحقيق بغيتهم، لكن هذه الخطة الجسور لم تلق قبولاً من خبراء وزارة الحربية البريطانية الذين أخبروه بأن الحرب "ليست مباراة كريكت". لكنه تمسك بالحصول على موافقة لتنفيذ فكرته، وثابر طوال مدة ليس بالقصيرة حتى نال هدفه، فعندما سمع تشرشل بهذا الموضوع، أصدر أوامره إلى دودلى كليرك بالمضى قدمًا.

يذكر جيمس أنه تُرك بمفرده فى تلك الفيللا طيلة ليلة؛ وصدرت إليه تعليمات بالاختفاء عن الأنظار، كما تحدث إلى الببغاوين الموجودين هناك بأسلوب مونتغمرى؛ حيث كانا يرددان الكلمات: "مونتى! مونتى! مونتى!". وفى الصباح، شاهد كليرك جيمس جالسًا فى شرفة الفيللا فطلب منه الانصراف، فلو تمكن أحدهم من رؤيته فسيتعرض عمله الجيد برمته للخطر.

هناك رواية لهذه العملية أسوأ من هذه. ففى عام ١٩٧٩، ادعى جوك هاسويل أن عملية الخداع قد تم "إيقافها فجأة وأن قرين مونتى اختفى"، حيث تناول كليفتون جيمس شرابًا مسكرًا، طبقًا للشائعة، وشاهده الناس "على تلك الحالة أثناء ارتدائه قبعته ذات الشارتين وزيه وأوسمته وأنواطه التى كان من المعروف أنها تخص مونتغمرى الذى لا يتناول الكحول!"؛ وطبقًا لهذه الرواية أعيد جيمس إلى إنجلترا وهدد بالمحاكمة العسكرية حال تفوهه بكلمة واحدة؛ كما ذكرت مثل هذه التفاصيل فى رواية "سنواتى الثلاث مع أيزنهاور" – (My Three Years with Eisenhower) عام ١٩٤٦ للضابط البحرى المساعد هارى سى بوتشر الذى كان تربطه صداقة بأيزنهاور لفترة طويلة، حيث يروى أن بينما قرين مونتى شوهد فى منطقة جبل طارق وهو يحتسى الخمر ويدخن السيجار.

ويذكر دينيس ويتلى هذه القصة فى روايته "أرباب الخداع" (The Deception Planners) عام ١٩٨٠؛ لكن نهايتها كانت حزينة حيث سافر جيمس إلى الجزائر على متن طائرة وهناك قابله دودلى واصطحبه إلى فندق صغير؛ حيث قام بتغيير ملابسه ذات الألوان الزاهية ليرتدى زيه الحربى المعتاد كملازم فى الجيش وأعطاه زجاجة من الويسكى وأخبره بألا يغادر غرفته حتى إشعار آخر.

سافر كليفتون جيمس فيما بعد إلى القاهرة على متن طائرة شحن أمريكية ومكث فى شقة ترينس كينيون الذى كان يعمل فى الفرقة العسكرية "إيه" والذى عامله بلطف شديد؛ حيث كان جيمس شديد التوتر فى ذلك الوقت، كما قامت على رعايته أيضًا سيدة تعمل فى الفرقة العسكرية "إيه" تسمى بيتى كرايشتون، وقد روت تلك السيدة لثاديوس هولت بعد سنوات أن كليفتون جيمس كان رجلاً لطيفًا، وكان دائمًا ما يصاب بالضغط؛ كان جيمس يعانى من ضغط وإجهاد فظيعين، ولم يكن من السهل عليه التخلص من ذلك، كما أصيب جيمس بآلام الأسنان، وبارتفاع درجة الحرارة بسبب الذباب، وانبعاث والروائح الكريهة الناتجة عن سوء الأحوال الجوية خلال شهر يونيو، ثم عاد إلى ليسيستر عبر جبل طارق بعد خمسة أسابيع من المغامرات، وما زال لا يخبر أحدًا بالحقيقة بشأن ما جرى له.

جعلت هذه التجارب من جيمس شخصًا مختلفًا، واكتسب الثقة والشعور بالقوة بدل ما كان يعرف به سابقًا من الجبن وضعف الثقة، وعلى الرغم من أنه استمر في العمل بقية فترة الحرب دون الحصول على الترقيات فى الفيالق المأجورة، وكان "يعامل بخسة" (على حد قول ويتلى)، ولا يتلقى أى تقدير رسمى عن الخدمات التى كان يقوم بها، فإن جيمس نال مكافأته فى نهاية الأمر، فسمح له بتعيين من يقوم بكتابة قصته فى كتاب بعنوان "كنت قرين مونتى" - (I Was Monty's Double) التى تحولت إلى فيلم من إخراج جون جيرمين عام ١٩٥٨. وفى هذا الفيلم لعب جيمس كلا الدورين، دور مونتى ودور قرينه، واحتوى السيناريو الذى كتبه بريان فوربس على قصص خيالية مليئة بالمواقف المثيرة التى كان من بينها اختطاف أفراد القوات الخاصة الألمانية المحمولين على غواصة قرين الجنرال مونتغمرى، لكن جون ميلز الذى كان يقوم بدور ميجور هارفى أحبط هذه المحاولة فى عمل بطولى منه، لكن فى الجانب الآخر سار الفيلم وفق ما جاء فى كتاب جيمس مانحًا إياه قوة كبيرة، وقد أشار هارى بيرسون فى كتابه "ولد غير شرعى" - (Achtung Schweinehund !) الصادر عام (٢٠٠٧) إلى أن قيامه هو بأداء شخصيته وشخصية الرجل الذى كان يتقمص دوره فى الواقع، جعل من إم إى كليفتون جيمس أحد أهم الممثلين فى فترة ما بعد الحداثة.

(٢٧)

أوفرلورد وفورتيتيود

عندما اقترح العبقرى جوفرى بايك بناء حاملات طائرات من الجبال الجليدية حيث لا تغرق فى الماء؛ وافق تشرشل على تلك الفكرة وطلب منه المضى قدمًا فى تنفيذها، فليس هناك من فكرة كان من شأنها أن تسهم فى تحقيق انتصار للحلفاء فى هذه الحرب إلا وقبلها تشرشل مهما كانت غرابتها. ابتكر فريق علماء بايك نوعًا جديدًا من الجليد عن طريق إضافة لباب القطن الطبى بنسبة ٤٪ إلى ماء مجمد؛ حيث ينتج عن ذلك مادة شديدة الصلابة تذوب ببطء شديد، أطلق عليها "بايكريت" تقديرًا لما قام به بايك.

عرضت مادة البايكريت فى مؤتمر عقد بمدينة كيبيك فى شهر أغسطس ١٩٤٣، حيث ناقشت قيادة الحلفاء خطة التحرير النهائى لأوروبا إضافة إلى عملية "أوفرلورد"، وعبر رئيس الوزراء ونستون تشرشل المحيط الأطلنطى فى طريقه إلى المؤتمر على متن واحدة من أضخم السفن فى العالم، إنها السفينة "كوين مارى" التى تزن ٨٦٠٠٠ طن، لكن بايك كان يقترح بناء حاملة طائرات أكبر يبلغ طولها ٦٠٠ متر ذاتية التبريد، مصنوعة من مادة البايكريت ويطلق عليها هاباكوك، وكانت تزن أكثر من مليونى طن وبإمكانها حمل ٢٠٠ طائرة لتقلع من على متنها، كما يمكن أن تستخدم فى غزو اليابان!، عكف بايك على تصميم النموذج الأصلى لحاملة الطائرات هذه فى بحيرة فى أونتاريو.

أظهر الأميرال لويس مونتباتن رئيس العمليات المشتركة براعة فى توضيح مدى صلابة مادة البايكريت بحضور الأمريكيين، حيث أحضر قالبين أحدهما من الجليد والآخر من مادة البايكريت وطلب من أرنولد، وهو جنرال قوى البنيان يعمل بسلاح الجو الأمريكى، لتحطيم كلا القالبين باستخدام معول، فحطم أرنولد القالب الثلجى بضربة قوية، ثم جاء دور قطعة البايكريت، لكن القائد الأمريكى صرخ من شدة الألم الذى شعر به عند اصطدام رأس المعول بقالب البايكريت دون أن يحدث للقالب شىء، فقام مونتباتن بسحب مسدسه وأجهز على ما تبقى من القالب الجليدى، لكن قالب البايكريت ظل صامداً مرة أخرى وارتدت الرصاصة دون إحداث أى ضرر وكانت على وشك إصابة ضابط كبير بسلاح الجو الملكى، الأمر الذى لم يستطع معه تشرشل منع نفسه من الضحك، لكن ذلك العرض جاء بمثابة دعاية للنصر، لكن مادة البايكريت لم تستخدم مطلقًا.

قدم تشرشل إلى مدينة كيبك ليقدم عرضاً قوياً، وقد كان يرافقه اثنان من أشرس المقاتلين البريطانيين أملاً فى إبهار الأمريكيين كما أبهرهم عرض البايكريت. هذان المقاتلان هما الطيار الوسيم، برتبة قائد جناح، جاى جيبسون والحاصل على وسام صليب النصر، ووسام الخدمة المميزة والشهير بغارة دامباسترز، والثانى هو العميد أورد وينجيت الذى اشتهر بحزمه فى قيادة حرب العصابات الوطنية فى الحبشة؛ وهو الآن قائد لفرقة المشاة الهندية فى أدغال بورما.

كان العنصر الرئيسى فى جدول أعمال المؤتمر؛ هو الهجوم الوشيك على ما كان يسميه الألمان حصن أوروبا، فما هو أفضل مكان لدخول أوروبا انطلاقًا من المملكة المتحدة؟ كانت هناك خيارات عدة، لكن الفريق الأمريكى - البريطانى الذى يقوده الجنرال فريدريك مورجان استدعى رئيس الأركان والقائد الأعلى لقوات الحلفاء والمسئول عن التخطيط لعملية أوفرلورد، والذى قرر بدوره أن أنسب مكان لغزو أوروبا هو نورماندى، لكن شواطئ نورماندى البالغ طولها خمسين ميلاً لا تبدو مناسبة حتى الآن لعملية الغزو الكبير. فتيارات المياه الجارفة وأمواج المد العاتية (التى يصل ارتفاعها إلى ٢١ قدمًا أو ٦,٤ متر) تجعل إنزال المعدات الثقيلة على الشواطئ الرملية

أمرا غير ممكن، إن الأمر يستلزم وجود ميناء عميق مجهز بأرصفة ورافعات لإنزال الدبابات التى يبلغ وزنها ٥٠ طنًا، إضافةً إلى المدفعية الثقيلة، ومنصات التخزين الكبيرة والضرورية للقيام بعملية الغزو، وهنا أطلقت حملة على ميناء ديبى فى ١٩ أغسطس ١٩٤٢ كمحاولة للاستيلاء على أحد موانئ أوروبا.

فكر تشرشل فى حل جرىء وخيالى فى الوقت نفسه؛ يتمثل فى إنشاء موانئ عملاقة طافية. شغل هذا الحل تفكير تشرشل بداية من يوليو ١٩١٧، عندما تخيل طريقة الاستيلاء على جزيرتى فريزيا انطلاقًا من جزيرة إسمنتية متحركة، وفى شهر مايو ١٩٤٢ كتب تشرشل مذكرة إلى مونتباتن: "لا بد أن تطفو أرصفتنا الممتدة على الشاطئ مع حركة المد، وتنخفض مع حركة الجذر، كما يجب حل مشكلة المرساة، لذا أريد الحل الأمثل، ولا أريد أن يجادلنى أحد فى هذا الأمر، فالصعوبات ستجادل عن نفسها". فى ٦ أغسطس ١٩٤٣ أجرى الأستاذ الجامعى وأحد فيزيائيى مونتباتن جيه دى برنال تجربة علمية بأحد الأحواض على متن السفينة "كوين مارى"؛ حيث وضع أسطولاً يتكون من عشرين قاربًا ورقيًا بأحد جوانب حوض نصف ممتلئ بالماء، وعلى الجانب الآخر قام أحد ملازمى البحرية بإحداث أمواج باستخدام لوفة ما تسبب فى غمر القوارب الورقية بالماء وغرقها جميعًا، وهنا قام برنال بوضع عدة قوارب مصنوعة من ورق الجرائد المقوى فى الحوض ولكنه أحاطها بسترة نجاة منفوخة، ثم قام الملازم بإثارة أمواج كبيرة لكن القوارب لم تغرق هذه المرة، فقال برنال: "أيها السادة هذا ما كان سيحدث لو كان لدينا ميناء اصطناعى".

بعد أسبوعين، اعتمد مؤتمر كيبيك فكرة بناء ميناءين اصطناعيين، أحدهما بريطانى والآخر أمريكى، وأطلق عليهما اسم "مالبيرى"، وتم الاتفاق على ضرورة تشييدهما وتشغيلهما بشكل كامل بعد أسبوعين من يوم الغزو، واعتمد مؤتمر كيبيك التفاصيل الأساسية لخطة أوفرلورد أيضًا، وصدرت أوامر إلى فريق العمل بالتخطيط تفصيلياً للقيام بهجوم مباغت بثلاث فرق وثلاثة ألوية محمولة جوًا، وتم تشكيل قسم تحت مسمى العمليات (ب) لإعداد "خطة تمويه وخداع مفصلة"؛ ولكن لم يكن يعمل به سوى ضابط واحد.

وخلال مؤتمر الحلفاء الثانى الذى عقد فى طهران فى الفترة من ٢٨ نوفمبر حتى ١ ديسمبر ١٩٤٣، اتفق كل من جوزيف ستالين، وفرانكلين روزفلت، وونستون تشرشل على تنفيذ "خططهم بشأن تدمير القوات الألمانية"، حيث وعد الحلفاء الأمريكيون والبريطانيون بترك منطقة البلقان وشأنها، ولكنهما اتفقا على تخفيف الضغط عن روسيا بفتح "جبهة ثانية". فى شهر مايو عام ١٩٤٤ تم غزو شمال فرنسا فى عملية "أوفرلورد" ثم جنوب فرنسا فى عملية "أنفيل" (التى تأخر موعدها)، ووافق ستالين على أن يتزامن هجومه الكبير على الجبهة الشرقية مع هجوم الحلفاء فى الغرب، واتفق الجميع على ضرورة وجود خطة خداع.

فى هذا الوقت صارت نظرية كليرك/ ويفل بأن العمليات الرئيسية لا بد أن تساندها خطة تغطية من المسلمات، ومن ثم آمن السوفيتيون بضرورة الخداع العسكرى الذى سموه ماسكيروفونا. أرسل أحد خبراء الخداع الأمريكيين فيما بعد إلى موسكو للتنسيق بشأن خطط خداع أوفرلورد مع الروسيين؛ حيث كان يتحدث مع أحد خبراء الخداع الروس عندما أثير موضوع الإعلام، فقال خبير الخداع الأمريكى: إنه فى ظل الديمقراطية يتعذر عليك استخدام الصحافة فى تضليل شعبك، فهز الروسى كتفيه وقال باستهجان: "إننا نقوم بهذا طوال الوقت". وأثناء وجودهما فى طهران؛ تحدث تشرشل مع ستالين قائلاً: "إن الحقيقة فى وقت الحرب شىء ثمين جداً، فلا بد أن تحاط بحراس من الأكاذيب"، فأجابه ستالين قائلاً: "هذا ما نسميه التحايل العسكرى".

وفى السادس من ديسمبر، تم استدعاء جون بيفان من قسم المراقبة فى لندن لعمل خطة خداع استراتيجية لتغطية العملية أوفرلورد، وقد أُطلق عليها اسم جديد هو "بوديجارد" فى إشارة إلى الملحوظة التى أبداها رئيس الوزراء، واستهدفت تلك الخطة دفع الألمان إلى نشر جيوشهم فى أماكن خاطئة، فى البلقان وفى شمال إيطاليا، وفى النرويج، والدنمارك وأى مكان آخر عدا شمال فرنسا، وفيما بعد كان التحدى الذى يواجه هذه العمليات هو خداع الألمان بخصوص الوقت والمكان ومدى قوة الغزو القادم، حيث سيتضمن هذا الجزء من خطة الخداع سلسلة غير منتهية من التشعبيات يمكن التحكم فيها.

تولى دوايت أيزنهاور فى يناير عام ١٩٤٤ مسئولية تنفيذ خطة أوفرلورد؛ عندما أصبح رئيس الأركان والقائد الأعلى بمراكز القيادة العليا لقوات حملة الحلفاء، حيث اصطحب أيزنهاور معه السير والتر بيدل سميث، وأصبح فريدريك مورجان نائبه ثم توسعت العمليات (ب) أو ما يطلق عليه قسم الخداع فى المراكز العليا لقوات الحلفاء، ووصل العقيد نويل وايلد، نائب دودلى كليرك فى الفرقة العسكرية "إيه"، من تونس ليتولى تنفيذ الخطة ويصبح عضواً عن مراكز القيادة العليا لقوات حملة الحلفاء فى لجنة الخداع المشتركة، وتعاون الرائد روجر هيسكث من استخبارات مراكز القيادة العليا بقوات حملة الحلفاء مع تار روبرتسون وضباط آخرين فى الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس المسئول عن العملاء المزدوجين. وكان هيسكث وايلد على علاقة بجون بيفان وغيرهم من الأعضاء داخل قسم المراقبة فى لندن، فكان قسم الخداع بمثابة نادٍ صغير يجمع كباراً وصفهم المؤرخ الحكومى مايكل هاوارد بـ "مجموعة رجال كانت تربطهم علاقة حميمة".

تأكد البريطانيون من سيطرتهم على مقاليد أمور عمليات العبور والإنزال كجزء من العملية أوفرلورد، يوم الغزو الحقيقى، والتى أطلق عليها "نبتون" كاسم حركى، ووضعت قوات الحلفاء الجوية والبحرية تحت قيادة بريطانية، كما كان الجنرال مونتغمرى هو القائد المؤقت لقوات الحلفاء البرية فى خطة نبتون، حيث كون مع رئيس أركانه فريدى دى جوينجان فريق الخداع الخاص بهم وسموه جى (أر) على غرار الفرقة العسكرية (إيه) التى كونها كليرك، فكثيراً ما ساعدت الجيش الثامن فى الصحراء، وكان ديفيد سترينجوايز القائد بمقر قيادة الفرقة العسكرية (إيه) والذى قاد الحملة المباغتة فى تونس للاستيلاء على مواد الاستخبارات الألمانية، ولعله أفضل تلاميذ كليرك ذكاءً وبراعةً، هو من تولى تلك المسئولية.

كان أول شيء يقوم به مونتى بعد توليه القيادة هو تمزيق خطة نبتون التى أعدها رئيس الأركان والقائد الأعلى لقوات الحلفاء، حيث اعتقد أنه ينبغى مضاعفة مساحة جبهة هجوم نورماندى لتصل إلى خمسين ميلاً؛ وأن يسبقها هجوم جوى بثلاث فرق محمولة جواً، وليس ثلاث سرايا، كما كان يفضل أن تشارك خمس فرق فى خمسة

شواطئ منفصلة فى أول موجة من موجات الإنزال البحرى، وليس ثلاثة، مع تعزيزها بفرقتين من الخلف، حيث قال إنه إذا لم يسمحوا بهذا فعليهم البحث عن قائد آخر، واتفق أيزنهاور مع هذا الرأى، إلا أن حصول ما يريده مونتى كان يعنى زيادة ضخمة فى أعداد السفن والمعدات بما فى ذلك ألف سفينة مرسى؛ تضاف إلى ثلاثة آلاف سفينة جرى إعدادها لهذا الغرض.

أيقن المشير إرفين روميل الذى كلفه هتلر بالدفاع عن شواطئ فرنسا أواخر عام ١٩٤٣، أن أفضل فرصة لديه تكمن فى التصدى لأى هجوم للحلفاء قبل تجاوزه الشواطئ، وأن اليوم الأول سيكون "أطول يوم" فى تلك المعركة. ومن خلال خبرته بشئون الحرب فى الصحراء، اعتمد على زرع الألغام المضادة للدبابات والأفراد، إضافة إلى صنع "حدائق شيطانية" من العوائق على امتداد الشواطئ، حيث أراد تحصين الشريط الساحلى بالكامل عن طريق زرع ألغام ووضع أسلاك، وجعله "منطقة موت" بعمق خمسة أو ستة أميال، كما كان روميل يحلم بالدفاع عن الحائط الذى أقامه فى مواجهة الأطلنطى من خلال زرع ٢٠٠ مليون لغم أرضى على امتداد الساحل الفرنسى بالكامل لكنه لم يتمكن من ذلك، إلا أن يوميات حرب المجموعة الألمانية "ب" تشير إلى أنه بعد العشرين من مايو ١٩٤٤ تم زرع ٤١٩٣١٦٧ لغماً على شاطئ القنال كان من بينها ٢٦٧٢٠٠٠ لغم بناء على طلب من روميل، والغالبية منها تم زرعها بعد نهاية شهر مارس". خطط روميل أيضاً لتثبيت أوتاد خشبية فى جميع ميادين الإنزال الجوية المحتملة التى كان ارتفاع الواحد يبلغ عشرة أقدام، وكان الغرض منها تمزيق أى طائرة شراعية إلى أجزاء مهلهلة، وكان يفترض ربط العديد من الأوتاد بأسلاك مع قذائف مدفعية يؤدى انفجارها إلى زيادة فى أعداد الضحايا.

كانت الاستطلاعات التى تقوم بها استخبارات الحلفاء من أجل عمليات يوم الغزو تتم على نطاقين رأسى وأفقى وفى العمق، كما التقطت آلاف الصور التفصيلية جواً من زوايا مختلفة، وكانت هناك استطلاعات تنفذ على ارتفاع منخفض بامتداد الشاطئ لتصوير نظم الحواجز التى كان يقوم الألمان ببنائها، وعُرفت باسم مهمات "النرد"

وكانت بمثابة مجازفة بالحياة، حيث جرى التقاط صور من مسافات قريبة جداً؛ يمكن من خلالها مشاهدة المهندسين وهم يهرعون إلى السواتر ويمكن إحصاء آثار أقدامهم على الرمال، وكان يجرى فى بعض الأحيان التحقق من الأشياء التى التقطت لها صور من الجو بمعرفة غواصين من البحر، وأسفرت غارات القوات الخاصة عن استرداد بعض الأسرى والعودة بنماذج من أسلاك العدو الشائكة والعوائق المعدنية؛ تمت الاستعانة بعلماء الجيولوجيا بل وتجنيد بعض منهم، بالإضافة إلى تجنيد علماء المحيطات، وبعد مناشدة أُطلقت عبر إذاعة بى بى سى عام ١٩٤٢، أرسل الشعب البريطانى العظيم ما يربو على عشرة ملايين صورة من صورهم التى التقطوها للشواطئ الفرنسية فى فترة ما قبل الحرب خلال عطلاتهم، ثم جرى تصنيف وترتيب وتجميع تلك الصور الموضحة لأدق تفاصيل شاطئ نورماندى.

ومن خلال خدمة الاستخبارات الفرنسية التابعة لجنرال ديجول، والمعروفة باسم المكتب الثانى عشر الذى يديره "العقيد باسى" أو أندريه ديوافرين، جرت تعبئة المقاومة الفرنسية لإرسال تقارير حول كل التفاصيل المتعلقة بمنشآت الدفاعات الألمانية. وفى غضون وقت قصير كان لشبكة "سنتورى" التى تبث إرسالها من مدينة "كا" ما يقرب من ١٥٠٠ عميل يراقبون مواقع المدفعية الألمانية وحقول الألغام، ومواقع المؤن، والخنادق المضادة للدبابات والمحفورة بعمق خمسة عشر قدماً، واستطاع نقاش ينتمى للمقاومة سرقة مخطط الدفاعات من مكتب منظمة تودت التى قامت ببناء تلك الدفاعات.

اتفق الحلفاء على عبور القناة بجيشين منفصلين أحدهما بريطانى والآخر أمريكى يقاتلان جنبًا إلى جنب، وكان على البريطانيين (ومعهم الكنديون) الاتجاه نحو اليسار إلى كل من شواطئ سورد، وجونو، وجولد تسبقهم قوات مظلات الفرقة البريطانية السادسة المحمولة جواً؛ وفى ذات الوقت كان على الجيش الأمريكى الأول التوجه يمينًا إلى شواطئ أوماها ويوتا؛ تسبقهم قوتا مظلات الفرقة الأمريكية رقمى ١٠١ و٨٢ المحمولتين جواً.

تطلبت تلك الجهود تنظيماً وإمداداً محكمين، فكان على الحلفاء تسيير وتنظيم قوات يزيد عددها على مليوني رجل؛ إلى جانب ١١٠٠٠طائرة و٧٠٠٠ سفينة في إنجلترا. كما أن الإنتاج الصناعي الهائل الذي تم تدشينه من أجل تلبية احتياجات ذلك العدد كان لا بد أن يتبع نظام توزيع متقناً. كان العمل الهندسي خلف مناطق الإنزال مبهراً حيث تم توظيف الآلاف من عمال البناء للعمل ليلاً ونهاراً، وأنشأ قسم حرب النفط بلوتو خطوطاً لنقل البترول تحت سطح البحر جاهزة لضخ ملايين الجالونات من البنزين إلى القوات الغازية، كما كان مشروع تشرشل للموانئ العائمة "مالبيرى" أمراً ضرورياً لنقل أكبر عدد ممكن من القوات والمعدات والإمدادات إلى الشاطئ الشمالي الغربي لفرنسا، فكان من الضروري تشييد ميناءين على شاطئ نورماندى.

وجرى نقل ما يزيد على مئة صندوق صلب زنة ٦٠٠٠ طن؛ يطلق عليه اسم "فونيكسيز" (يبلغ ارتفاع كل منها ٦٠ قدماً وعرضه ٦٠ قدماً وطوله ٢٠٠ قدم) عبر القنال من منطقتي سلسي بل، ودانجينيس باستخدام أسطول يتكون من ١٣٢ سفينة ليتم ملء تلك الصناديق بالرمال من شاطئ "ليفياثان"؛ ثم توضع في الماء لتغوص مكونة حاجز أمواج في خليج السين، وخارج تلك الطرق الاصطناعية كانت تطفو "قنوات نحاسية" تم سحبها من بول وثاوثها مبتون للتخفيف من حدة الأمواج، وفي الداخل، في المياه الضحلة، كان يوجد خط من نبات عنب الثعلب يربط بين أربع وعشرين من السفن الحربية التجارية خارج الخدمة، بالإضافة للسفن الحربية وإحدى السفن الحربية المدرعة القديمة، ليتم إغراقها في المكان المطلوب. وفي المياه الساكنة في حدود ميلين مربعين من ميناء مولبرى تم إغراق رءوس دعامات لوبنيتز العملاقة وسباد ما سمح بتكوين جسور طويلة أو طرق عائمة للوصول إلى الشاطئ فيما عرف بـ "الحيتان"؛ حيث تطفو وتغوص مع حركة المد والجزر، وقد زادت الأسماء الحركية حيث أطلق على العوامات المائية اسم "رينوز" كما أطلق على المركبات البر مائية اسم "داكس".

أسهم خيال تشرشل المتقد في ظهور المزيد من الوسائل المثيرة الأخرى، مثل: الجارفات المدرعة التي تستخدم لشق الطرق، والجارفات الزراعية، ودبابات تشرشل

المزودة بمدافع ثقيلة لنسف الحصون، ودبابات من طراز "كروكودايل" التى تحمل النفط؛ وتتطاير منها ألسنة اللهب التى تطلقها لمسافة تزيد على مئة ياردة والآلات الضخمة المستخدمة فى سحق الأوتاد الخشبية أو الأسلاك الشائكة أو فى فتح ثغرات فى حقول الألغام؛ تم صنع هذه المعدات بتشجيع مباشر من تشرشل ورعاية الجنرال البارع السير بيرسى هوبارت من الفرقة المدرعة التاسعة والسبعين.

أطلق على خطة الخداع المعدة من أجل العملية نبتون، الهجوم عبر القنال، خطة فورتيتيود، وكان هدفها دفع العدو "للقيام بإعدادات وترتيبات خاطئة فى شمال غرب أوروبا"، كما استهدفت خطة فورتيتيود نورث إشعال قلق هتلر بخصوص اسكندنافيا والخطر الذى سيحدق بألمانيا إذا هاجم الحلفاء النرويج والدنمارك، وفى الوقت ذاته تم نقل إشارة لا سلكية زائفة، وتم نشر معلومات كاذبة عن طريق أحد العملاء المزدوجين تقول: إن الجيش البريطانى الرابع (الوهمى) فى اسكتلندا، مدعومًا بحراس أمريكيين قادمين من أيسلندا، يخطط لمهاجمة ستافانجر ونارفيك والتقدم نحو أوسلو، كما بذل المخادعون البريطانيون قصارى جهدهم داخل أراضى السويد المحايدة، حيث طلب القائد العام للقوات الجوية السويدية تقديم معونات "إنسانية" فى حالة غزو الحلفاء للنرويج، وعندما تم اختراق مكتبه من قبل رئيس الشرطة السويدية المؤيد للنظام النازى أرسلت هذه المعلومات إلى برلين على الفور، وعندما قرأ هتلر تلك المعلومات أمر بإرسال فرقتين أخريين تعزيزًا للفرق العشرة المتواجدة بالفعل فى النرويج، وفى ضوء ذلك جرى سحب أكثر من ٣٠٠٠٠ جندى من فرنسا ليتم إرسالهم إلى هناك.

كانت العملية المسماة "فورتيتيود ساوث" التى وضعها ديفيد سترينجوايز؛ تهدف فى المقام الأول إلى إقناع الألمان بوجود جيش قوى أخر فى بريطانيا إضافة إلى جيش عمليات مونتغمرى الحادى والعشرين، وهو جيش عمليات الولايات المتحدة الأول الذى تمركز جنوب شرق إنجلترا، فى موقع قبالة كاليه، على الطريق السريعة المؤدية إلى ألمانيا ويمر بمدينتى أنتويرب وبروكسل، كان جيش عمليات الولايات المتحدة الأول بالطبع جيشًا وهميًا أشيع من خلال خطة الخداع كويكسيلفر، فكانت له علامة مميزة

وهى عبارة عن الرقم الرومانى "I" على خلفية سوداء تميل إلى اللون الأزرق داخل شكل خماسى ملون باللونين الأحمر والأبيض، وقد كان من المفترض أن يتكون ذلك الجيش من الجيشين الأول الكندى والثالث الأمريكى.

أهم ما يميز هذه القصة أنها تمت، على ما يبدو، بتدبير من الجنرال الأمريكى الجسور المغرور جورج إس باتون الذى كان يعمل بمقرات القيادة فى وينتورث بالقرب من أسكوت، كتب باتون ذات مرة بشأن كيفية التخلص من الخوف للأبد: "ينبغى على المرء أن يكون ممثلاً". اعتقد هتلر أن باتون الذى وقع فى مأزق بسبب صفعه أحد الجنود الذى أصابته قذيفة فى صقلية، كان أفضل الأمريكيين بسبب شراسته، وسيكون قائداً لصحوة الحلفاء.

واعتباراً من ٢٤ أبريل ١٩٤٤؛ بدأت فرق جيش عمليات الولايات المتحدة الأول الإحدى عشرة تظهر على الساحة عبر بث إشارات لا سلكية زائفة لخداع خدمة التنصت اللا سلكى الألمانية، واستمر مخادعو العمليات اللا سلكية فى تدريبات عسكرية حقيقية حيث قاموا بتسجيل جميع الإشارات اللا سلكية وتعلموا مصطلحات فنية دقيقة واستجوبوا الناس حول الأنشطة التى يقومون بها قبل كتابة تقاريرهم التى سمح لجنود الحلفاء فى كينت بقراءتها، لكن تلك التقارير لم تكن مصقولة حيث لا ينصت الناس عادة بل يطلبون التكرار، وبالنسبة لشفرة موريس فقد تم تزويد مخادعى العمليات اللا سلكية بخبراء لا سلكيين أمريكيين من كتيبة الإشارة رقم ٣١٠٢؛ كانوا قد عملوا فى صقلية وشمال إفريقيا، والذين من المحتمل أن يتعرف المتنصتون الألمان عليهم من خلال أسلوبهم أو طريقتهم فى إرسال الإشارات، إضافة إلى ذلك كانت هناك أعمال تمويه ظاهرية مثل: تثبيت ما يشبه سفن راسية عرفت باسم "بيج بوبز" على شواطئ جريت يارموث ولويستوفت، وفى منطقة أنهار إيست أنجليا، ديبين وأورويل، من أجل أن تلتقط طائرات الاستطلاع الألمانية صوراً لها، كانت الواحدة من هذه السفن الزائفة تزن قرابة ستة أطنان، وشيدت من أنابيب سقالات وخيش موضوع فوق عبوات زيت سعة ٥٥ جالون ملتحمة معًا، كما دهنت بألوان تعطى انطباعًا بأنها قديمة، وقام على

الخدمة فيها أطقم يقومون بنشر الغسيل والرايات وإطلاق إشارات الدخان والتجول فى قوارب صغيرة الحجم، لجذب انتباه الألمان نحو الشرق؛ حيث يجب أن تبقى منطقة كاليه فى أذهانهم هدف الغزو الأول ليقوموا بوضع الجيش الخامس عشر هناك لصد أى غزو محتمل، ولإبقاء الجيش السابع فى نورماندى والذى لن يستطيع حمايتها.

تظاهرت القوات بالقيام بتحركات كبيرة فى كل من دوفر فولكستون مستخدمين الأضواء ليلاً، حيث تمركزت (تمركزًا ظاهريًا) الفيالق الكندية الثانية والفيالق الأمريكية الثامنة، كما أشرف المهندس المعمارى باسيل سبنس على بناء ميناء نفطى زائف وخزانات وأرصفة بحرية، عاينها رسميًا الملك جورج السادس والجنرال مونتغمرى وشخصيات بارزة أخرى، وكتبت الصحافة عن ذلك فى حينه وجرى تنسيق الزيارات الملكية منذ أوائل مارس ١٩٤٤ مع مخططى الخداع.

أسفرت تلك المحاولات عن حصول الألمان مؤخرًا على خطة استخبارات فى إيطاليا، وهو ما اعتبروه دليلاً على وجود جيش بريطانى فى ١٥ مايو عام ١٩٤٤؛ مما انعكس على اعتقادهم أن جميع قوات الحلفاء كانت متمركزة شرق المملكة المتحدة، وأظهرت الخريطة أن (معظم الوحدات الوهمية) قد بنيت بعناية على مدار الخمسة عشر شهرًا الماضية؛ خلال مجموعة من التفاصيل التى أرسلت إلى المخابرات العسكرية الألمانية من خلال جواسيسهم الثقات فى إنجلترا الذين كانوا بالطبع عملاء مزدوجين تحت مراقبة المخابرات العسكرية البريطانية، القسم الخامس، كان أهم ثلاثة عملاء هم البولندى رومان جاربى - تشيرنيافيسكى واسمه الحركى بروتس وكان يقوم بإرسال تقاريره إلى باريس، والثانى: ألمانى يدعى فولف ديتريش شميدت واسمه الحركى تيت وكان يقوم بإرسال تقاريره إلى هامبورج، والثالث: هو جاسوسنا الإسبانى خوان بويول غارسيا واسمه الحركى جاربو؛ وهو يقوم الآن بإرسال تقاريره مباشرة عن طريق رسائل لا سلكية مشفرة إلى الاستخبارات العسكرية الألمانية فى مدريد.

وحيث إن كل شىء مطلوب فى الحرب، اكتسبت حرب المعنويات أهمية كبيرة، فقامت إذاعة سولداتنسندر كاليه التى تتبع سيفتون ديلمر ببث دعايتها السوداء بوضوح،

وفى بداية عام ١٩٤٤؛ كانت الدعاية السوداء الخاصة بالجهاز المسئول عن المنازعات السياسية، والدعاية البيضاء التى تبثها إذاعة بى بى سى تتناغمان معًا وتبثان برامجهما فى شتى المجالات، وكانت الدعاية السوداء تنشر هالة من الأكاذيب حول الحقائق التى تنشرها الدعاية البيضاء. كان ديلمر يعمل بالقرب من الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية وإذاعة بى بى سى والاستخبارات البحرية وقسم المراقبة فى لندن، وكان لديه مكتب فى بوش هاوس، حيث التقى أفراد المقاومة من الرجال والنساء من بولندا والدنمارك والنرويج وفرنسا وهولندا، فساعد بمنحهم إخطارات وملصقات وتصاريح وأوراق هوية مزورة، كما لعبت إذاعة سولداتنسندر كاليه دورها فى عملية أوفرلورد، حيث ساعدت فى تثبيط معنويات القوات الألمانية التى ترتكز عند الجدار المقام على امتداد ساحل المحيط الأطلنطى، كما شجعت الإذاعة تلك القوات على التراخى عندما ادعت أنه "سيتم نقل الوحدات التى تتمتع بمهارة وكفاءة عالية إلى الجبهة الشرقية"، وأحدثت أخبار ديلمر أثرها؛ حيث أضعفت ثقة الجنود الألمان عبر ادعائها أن السبب فى نجاح الروس هو تزويدهم بأسلحة أمريكية تفعل المعجزات (وهو محض خيال) مثل "قذائف الفسفور" الجديدة التى يمكنها تدمير الخرسانة المسلحة وتفتيت الدروع.

وفى شهر مايو عام ١٩٤٤؛ وقبل شهر من يوم الغزو، أصدر ديلمر جريدة يومية تخاطب القوات الألمانية سماها ناخريشتن فير دى تروفين أو "جريدة أخبار القوات"، وكانت مشروعًا أمريكيًا بريطانيًا مشتركًا، وقد زودته مراكز القيادة العليا لقوات حملة الحلفاء بمجموعة من المحررين وكتاب الأخبار من أجل إدارة الجريدة التى أصدرت ٣٤٥ عددًا باستخدام المواد الإذاعية التى أعيدت كتابتها، وكانت القاذفات الأمريكية تسقط مليونى نسخة يومية عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا؛ تتضمن مقالات حول الصعوبات التى ستواجه الألمان أثناء القتال فى الجو دون التزود بالوقود أو شرح استحالة التدخل السياسى فى قرارات قادة الجيش، وفيما بعد قال ديلمر، الذى عمل صحفيًا طوال حياته: كان ذلك بمثابة مشروع حرب ومن بين أكثر الأعمال التى يفتخر بها فى حياته.

وفى الوقت ذاته، كان عميل الاستخبارات العسكرية الألمانية خوان بويول، الذى عرف بأرابل، يؤدى دوره بثبات، حيث أصبح اعتباراً من ذلك الوقت الجاسوس الرئيسى فى شبكة (وهمية) موسعة يطلق عليها ألاريك، فلم يقم خوان فقط بإخبار قادته فى الاستخبارات العسكرية الألمانية، زيفًا، بأن لديه أربعة مصادر مهمة تزوده بالمعلومات، بل قام أيضًا بادعاء أنه جند سبعة عملاء فرعيين فى آن واحد كانوا يحصلون على المعلومات العسكرية من خمسة عشر مصدراً، فعلى سبيل المثال كان العميل الثالث فى جلاسجو، طالبًا من فنزويلا يدعى كارلوس – تم "تجنيده" أثناء وجود بويول فى العاصمة البرتغالية لشبونة – وكان يعرف ضابط صف سكيراً فى سلاح الجو الملكى وضابط مشاة بريطانى وبحاراً يونانيًا انشق عن الحزب الشيوعى لكنه أراد مساعدة الروس فى فتح جبهة ثانية، أما العميل الرابع فكان أحد مواطنى جبل طارق وكان يعمل نادلاً بمعاهد القوات البحرية والجيش والقوات الجوية التى يقع مقرها فى كنت، حيث حصل على كثير من المعلومات حول مستودعات الأسلحة، وأنفاق السكك الحديد الواقعة فى كهوف "شيسلهورست الخيالية" من خلال أحد الحراس الذين كانوا يعملون هناك، إضافة إلى تفاصيل عديدة حصل عليها حول جيش عمليات الولايات المتحدة الأول (بما فى ذلك الشائعات حول الخلافات بين قادة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة) من خلال ضابط صف أمريكى يعمل فى لندن، وبالنسبة إلى العميل السابع، كان عميلاً نشطًا عمل فى السابق بحاراً فى سوانزى مع بعض العملاء الفرعيين فى إكستير وهارويتش وتعرف على كل من رين فى سيلان، إضافة إلى جندى فى الفرقة التاسعة المدرعة ورجل هندى متعصب إلى جانب قائد و"مجموعة من الزملاء" فى حركة آرى العالمية، وهم مجموعة من وطنيى ويلز المتعصبين.

تم توزيع هؤلاء العملاء الوهميين والعملاء الفرعيين داخل البلاد، وكان بويول يقوم بإرسال "المعلومات" التى يحصلون عليها عبر رسائل لا سلكية، حيث أرسل بويول فى الفترة بين الأول من يناير حتى السادس من يونيو ١٩٤٤؛ قرابة ٥٠٠ رسالة لا سلكية من لندن إلى مدريد تنفيذاً لخطط التمويه التى أرادتها مراكز القيادة العليا بقوات حملة الحلفاء، وأرسلت التقارير التى أعدها أرابل من مدريد إلى القيادة العليا للقوات

المسلحة الألمانية وإلى إدارة الاستخبارات الألمانية التى تتعامل مع جيوش الحلفاء فى الغرب، حيث جعلتهم المعلومات المزيفة يحصون عدد الفرق فى الجيش البريطانى بنحو سبع وسبعين فرقة، وهى نسبة تجاوزت الحقيقة بخمسين فى المئة، لم تكن الشبكة العنكبوتية الرائعة كلها من ابتكار بويول وتوماس هاريس فقط، بل قام ديفيد سترينجوايز وقسم المراقبة فى لندن إضافة إلى رئيس الفرقة العسكرية (إيه) العبقرى دودلى كليرك بإسداء النصح لهما.

ارتفع دور بويول "جاربو" وزادت أهميته، حيث سمح لأرابل باختراق المعلومات الخاصة بإنزال القوات على شاطئ نورماندى من أجل الحصول على مصداقية أكبر لدى وزارة الدفاع الألمانية، لذلك ادعى أن عميله الوهمى الرابع تمكن، قبل يوم الغزو مباشرة، من اختراق أحد معسكرات الجيش شديدة التحصين فى هيلتنجبورى مع اثنين من الأمريكيين المنشقين، وأمدوا أرابل بأخبار مفادها أن أفراد فرقة المشاة الكندية الثالثة الذين وُزعت عليهم أطعمة تكفى أربعًا وعشرين ساعة وكذلك أكياس "لاستخدامها حال التقيؤ" قد غادروا المعسكر، وتم إرسال هذه المعلومات بعد ثمانى دقائق من نزول هؤلاء الكنديين على شاطئ جونو قبل الثامنة من صباح ٦ يونيو ١٩٤٤، لقد فات الأوان بالنسبة إلى الألمان للقيام بأى استعدادات ضد عمليات الإنزال، لكن بويول احتفظ بمكانته باعتباره الرجل الأول فى الاستخبارات العسكرية الألمانية داخل بريطانيا.

ومع إدراك الألمان المتأخر للأحداث، لم يستطيعوا فعل أى شىء وانتظروا وقوع الأحداث فى وقتها، فلم تكن هناك رؤية واضحة المعالم للمستقبل قبل يوم الغزو وكانت كل الاحتمالات واردة، فكل شىء معرض للخطر، وعلم أيزنهاور أن الأمر كان مقامرة من الممكن أن يخسرها؛ فأعد رسالة كئيبة ليلقيها فى حال فشل عمليات الإنزال.

كان ونستون تشرشل يشعر بمسئولياته وتقدم عمره، فقد شغل منصب رئيس الوزراء مدة أربعة أعوام وأدار بفاعلية دولة كانت تقاتل من أجل الحياة فى أكبر صراع عرفه العالم، واسترجع ذاكرة الماضى من "مذبحة" الحرب العالمية الأولى حيث نجا

منفرداً في حين لقيت آلاف مؤلفة حتفها، كان تشرشل كذلك قلقاً بشأن عمليات الإنزال في يوم الغزو، حيث أخبر أحد زائريه الأمريكيين قائلاً: "لست قلقا بسبب عدم قدرتي على تحمل الخسائر، ولكن بسبب عدم علمي بماهية وحجم الخسائر المتوقعة"، كما كانت عملية الإنزال البر مائي في جاليبولي التي دمرت حياته السياسية قبل ثلاثين عاماً تقريباً عالقة في ذهنه، ولم تسر الأمور كما يرام عند الإنزال على شاطئ نارفيك في ديبي وشاطئ أنزيو في إيطاليا؛ حيث استغرق الأمر أربعة أشهر كي يستطيع الجنود البالغ تعدادهم ١٢٥٠٠٠ رجل اختراق رأس جسر ساحلي، ولكن ماذا سيحدث في نورماندي؟ قرر تشرشل ذو العقلية العسكرية الفذة، وهو يومها دون السبعين من عمره بستة أشهر، أن يراقب عمليات الإنزال يوم الغزو من على متن سفينة حربية، كما أعرب الملك جورج السادس عن اعتزامه القيام بالشيء نفسه مما أثار الذعر، فماذا لو قتل الملك ورئيس الوزراء؟ وأخيراً تم إقناع الرجلين بالتراجع عما كانا ينويان القيام به، وفي ليلة الاثنين ٥ يونيو تناول تشرشل العشاء مع زوجته؛ ثم قضى بعض الوقت في غرفة العمليات وأخذ يمعن النظر في الترتيبات، وقبل الذهاب إلى الفراش قال لزوجته كليمنتين: "هل تدركين أنك عندما تستيقظين في الصباح ربما يكون ٢٠٠٠٠ جندي قد قضوا حتفهم؟

قبل هذا التوقيت بثلاثين عاماً، تم منع اللورد كتشنر فيليب جيبس وصحفيين آخرين من الذهاب إلى الجبهة، إلا أنه بحلول عام ١٩٤٤؛ كان جنرالات الإعلام الأذكياء أمثال مونتغمري يرحبون بالمؤسسات الإخبارية مثل بي بي سي، وفي يوم الغزو بلغ عدد زملاء ريتشارد ديمبلبي من المراسلين الصحفيين ثمانية عشر مراسلا صحفيا؛ حيث قفز جاي بيام مع المظليين، وذهب تشيستر ويلموت على متن طائرة شراعية، وركب ريتشارد نورث أحد زوارق الإنزال، كما اعتلى ستانلي ماكستد إحدى كاسحات الألغام وغيرهم من مراسلي بي بي سي الذين كانوا برفقة الوحدات المختلفة وداخل مقرات القيادة العليا لقوات حملة الحلفاء مستخدمين مسجلاتهم متناهية الصغر ليحصوا ويشهدوا بأم أعينهم وقائع وقصص ميدان الحرب، وجرى بث برنامج وور ريبورت بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة مساءً في الفترة من ٦ يونيو ١٩٤٤

حتى ٥ مايو ١٩٤٥؛ كنوع جديد من التحقيقات الصحفية الإذاعية، حيث انضم المراسل الحربى إلى المقاتلين فى الميدان نيابة عن المواطنين فى منازلهم لنقل المعلومات المتعلقة بالجبهات الأمامية إلى المواطنين.

حققت إذاعة سيفتون ديلمر سبقًا صحفيًا عالميًا بنشرها تقريرًا عن عمليات الإنزال فى الساعة ٤:٥٠ من صباح يوم الغزو والذى يكاد يكون نسخة حرفية من أخبار تم نشرها عبر خدمة أخبار غوبلز ولكن مع معلومات مضللة، أحس ديلمر بالفخر فى تلك الليلة عندما كان يطالع عددًا من جريدة أخبار القوات التى قدمت تقريرًا يشير إلى حدوث تصدعات فى الجدار الذى أقيم على ساحل الأطلنطى فى عدة أماكن، وأن الهجمات تحدث عند مصب نهر السين وميناء كاليه، حيث قام مخططو الخداع بتنسيق هذا الإدعاء لنشر حالة من الارتباك.

وخلال عملية تيتانك التى تمت فى الظلام قبيل فجر يوم الغزو، تم إنزال أعداد قليلة من قوات الخدمة الجوية الخاصة من قاعدة فيرفورد فى جلوسيسترشير فى أربعة مواقع خلف جبهات الألمان، ترافقهم أعداد كبيرة من المظليين الوهميين، حيث أطلق على هؤلاء الذين تم إسقاطهم من الطائرات "النماذج" وكانت مصنوعة من مطاط "روبرتس" المحكم القابل للنفخ والذى تم استعماله للمرة الأولى، وتم إسقاط تلك النماذج بالمظلات إلى جانب ألعاب نارية متنوعة؛ لها أصوات وروائح تحاكى تلك التى تنتج عن معارك حقيقية، وأطلقت قوات الخدمة الجوية الخاصة القنابل الصوتية والضوئية محدثين ضوضاء صاخبة ومثيرين الهلع، ثم تسللوا منضمين إلى المقاومة الفرنسية أو ليعاودوا أدراجهم إلى الجبهات البريطانية، وحيث إن أفضل طريقة للتصدى لأفراد المظلات هى ملاحقتهم فور هبوطهم على الأرض؛ قام آلاف من القوات الألمانية بتمشيط الغابات والحقول ومن ثم لم يكونوا على استعداد لمواجهة القوات التى تهبط على الشواطئ.

كان للخداع الإلكترونى والكهرومغناطيسى أيضًا دور فى الحرب. أخذ الدكتور آر فى جونز رئيس وحدة الأبحاث العلمية بالاستخبارات البريطانية يراقب من كثب

جميع التطورات فى أجهزة الرادار الألمانية، كانت الغارة التى قام أفراد من القوات الخاصة بها فى فبراير ١٩٤٢؛ بمثابة انقضاض علمى مدروس على إحدى محطات الرادار فى نورماندى بناء على طلبه، حيث كان يقوم جونز فى ذلك الوقت بتنظيم عملية تشويش كبيرة على أنظمة الرادارات الألمانية، وبعد أن قام سلاح الجو الملكى البريطانى والقوات الجوية الأمريكية بتدمير ٨٥٪ من سلسلة الرادارات الألمانية، جرى خداع ما تبقى منها خلال عمليتين سميت إحداهما تاكسبول والأخرى جليمر، وبتحرك أسطول الغزو الضخم من خلف جزيرة وايت، تم تقسيمه، حيث توجهت معظم السفن جنوبًا نحو شاطئ نورماندى، لكن أسطول التمويه الصغير اتجه شرقًا، وفى الأعلى حلق سرب من قاذفات لانكستر ٦١٧ بقيادة ليونارد تشيشاير ذهابًا وإيابًا فى شكل شبكات متحركة بطول ثمانية أميال وعرض ميلين؛ وأخذت تقذف بشكل مستمر رقائق من القصدير العاكس للضوء من أجل تضليل الرادار حول حجم الأسطول الكبير المتجه نحو الجنوب الشرقى بسرعة ٨ عقدات نحو فيكامب عند مصب نهر السين.

كان تساقط الجليد المتلألئ على "النوافذ"؛ عاملاً مساعدًا فى هذا الشأن حيث استخدم عدد قليل من أجهزة "مونشاين"، وهو جهاز ينتج صورًا متعددة أمام الرادار، ما يعطى انطباعًا لأجهزة الرادار المحمولة جوًا بوجود هجوم كبير من قبل قوة عسكرية، وفى الوقت نفسه قامت قاذفات قنابل طراز ستيرلنج من السرب ٢١٨ بعمل صور لأشباح قرب بولونى.

لم يطأ ونستون تشرشل ظهر أى من سفن الأسطول الحربى الكبير الذى أبحر نحو فرنسا، وإن كان نورمان ويلنكسون قد قام بهذا الأمر، كان ويلنكسون الرسام الذى شاهد عمليات الإنزال التى حدثت فى خليج سلاف باى فى جاليبولى عام ١٩١٥ على متن المدمرة الخاصة إتش إم إس جيرفز؛ يرتدى بذلته القديمة التى كانت معه فى الحرب العالمية الأولى حيث أدهشه وجود آلاف السفن من كل الأنواع التى كان يتخيلها، وكان فى الطليعة ما يقرب من ٣٥٠ كاسحة ألغام بريطانية، كندية، أمريكية تعمل على تطهير عشر قنوات اتصال بحرية، ثم تعقبها سفن القصف ومنها جيرفز.

كان ويلنكسون الفنان المحترف الوحيد المتواجد مع الأسطول يوم الغزو، وكان مشغولاً في عمله حيث أطلق ما يقرب من ٨٠٠ مدفع بحرى نيرانه فى الساعة ٦:٢٧ صباحاً نحو شاطئ نورماندى على بعد أكثر من ستة أميال.

ونحو شاطئ أوماها، قامت سفن الصواريخ التابعة لقوات الحلفاء بإطلاق نحو ٩٠٠٠ صاروخ، كما قامت أكثر من ٣٠٠ من قاذفات القنابل طراز بى - ٢٤ باجتياز الضباب بسهولة لإسقاط ١٣٠٠٠ قنبلة، وقد أخفقت جميعها فى إصابة الدفاعات الألمانية، كما أرسلت دبابات شيرمان البر مائية فى وقت مبكر جداً حيث غرقت ٢٧ دبابة من أصل ٢٩ فى أمواج البحر ومعها أطقمها؛ وهو الأمر الذى أودى بقرابة ٢٣ من أصل ٣٢ مدفع هوتزر مثبتة بالمركبات البر مائية "داكس". وتصدى "عدد من المقاتلين الشرسين" بنيران أسلحتهم لطلائع القوات الأمريكية التى نزلت على الشاطئ، ووصل المصور الفوتوغرافى روبرت كابا إلى قطاع إيزى رد من شاطئ أوماها؛ لكنه عاود أدراجه بأقصى سرعة ممكنة، وفى تلك الأثناء تحطم معمل التصوير الخاص به تماماً، ولم يتبق منه سوى إحدى عشرة صورة عالية الجودة تظهر بها مجموعة من الرجال وهم يزحفون تحت وابل من الرصاص؛ يُطلق عليهم خلف حواجز أقامها الألمان على الشاطئ، أما الحرس الأمريكى الذين خاطروا بأرواحهم من أجل تسلق أعلى قمة ساحل دو هوك؛ فقد وجدوا أن المدافع الكبيرة استبدلت بنماذج خشبية.

وعندما نزل الصحفى الأمريكى إرنى بايل إلى الشاطئ فى اليوم التالى للغزو الذى أطلق عليه (دى+١)؛ وجد أن حطام المعدات "ضخم ومروع" وأن الأشلاء البشرية مثيرة للمشاعر: "فقوارب النجاة فارغة فى المياه وكذا حقائب الظهر الخاصة بالجنود وحصصهم التموينية وبعض حبات البرتقال"، وأطل بايل على الشاطئ المليء بالأشلاء المتناثرة و"الأسطول العظيم الذى لم ير مثله من قبل من فوق جرف عال، فلا يمكنك أن تصدق ببساطة بوجود مجموعة السفن العملاقة هذه الراسية فى انتظار التفريغ"، وفوق كل ذلك يقف الأسرى الألمان وقد بدت على وجوههم "علامات الذعر وتقبلهم لمصيرهم المحتوم".

حقق الغزو مفاجأة كبيرة، ومع نهاية "أطول يوم" تم إنزال ما يقرب من ١٥٦٠٠٠ جندى فى فرنسا عن طريق البحر إضافة إلى إنــزال ٢٣٠٠٠ جندى جواً؛ على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم المخطط لها، كما تقابلت القوات المحمولة جواً والمحمولة بحراً فى ١٠ يونيو ولم يحدث ربط بين رءوس الكبارى الساحلية إلا فى ١١ يونيو، حيث اتسم القتال بالفوضى عدة أيام، ولم يستطع مونتغمرى الاستيلاء على مدينة "كا" سوى بعد ستة أسابيع من القتال، ولم يستطع الأمريكيون الانطلاق نحو الجنوب الغربى على مدار شهرين، وفى تلك الأيام الأولى من الهجوم لم تستطع القوات تجاوز رأس كـــوبرى نورماندى؛ حـــيث كـــانت مقـــاومة الجيش الألمانى شـــرسة كما استخدمت آجام الحقول الصغيرة، والشجيرات الكثيفة لتعيق تقدم الدبابات وقـوات المشـاة.

نزل ضابط التمويه النقيب باسل سبنس على شاطئ سورد، وفى اليوم الثالث للغزو (دى + ٢) وصل مونتغمرى إلى الشاطئ؛ حيث شاهد دبابات بريطانية تدمر كنيستين جميلتين فى نورماندى فى كل من أويسترهام وهيرمانفيل عبر قصف أبراج أجراس الكنيستين لقتل القناصة الألمان المتواجدين فوقهما، وأثناء وجودهم فى مخبأهم تلك الليلة سأله أحد أصدقائه عن طموحه وقتئذ، أجاب بلسان المهندس المعمارى الذى سيقوم بإعادة بناء مدينة كوفنترى فيما بعد: "أن أبنى كاتدرائية".

كان ستيفن سايكس خبير تمويه ملتحق بمجموعة الشاطئ رقم ٥؛ ليساعد فى عمليات إخفاء المخازن ضد عمليات التفجير والقصف التى تشنها القوات الألمانية، كما كان يقوم بتقديم أقنعة واقية من الغاز إلى السفن المرابطة على الشاطئ؛ وعندما قام بفحص بعض تلك السفن، وجد أعداداً هائلة من الجثث لا تزال متكدسة بالهيئة التى لاقت مصرعها عليها جميعاً، وفى اليوم الثلاثين للغزو (دى + ٣٠) ذهب ستيفن سايكس لمساعدة أفراد الفرقة السادسة المحمولة جواً الذين عادوا إلى القيام بدور قناصة ثابتين، وهناك قام سايكس بصنع دمى لجنود يرتدون ثياباً مموهة تشبه زى القوات

المحمولة جوًا، وأغطية للرأس كالتى كان يرتديها هيسكث بريتشارد فى الحرب العالمية الأولى، وقد أدت الألغام والقنابل الموقوتة والقناصة الألمان إلى بطء تقدم القناصة من قوات الحلفاء.

هبت على القنال واحدة من أسوأ العواصف التى عرفها القرن العشرين فى ١٩ يونيو واستمرت عدة أيام؛ مما تسبب فى تحطيم ميناء مالبيرى الأمريكى، وفى تأخير إنزال الإمدادات الحيوية، حيث كشفت العاصفة عن هشاشة وضعف القوات الموجودة على الشاطئ؛ كان قطع حبال النجاة سهلاً وكانت الأسلاك تتهالك، وفى حالة قيام الألمان بالانقضاض بكامل قواتهم، خلال تلك المراحل المبكرة، فإن مصير هجوم يوم الغزو سيعتريه الإخفاق، فتم تعليق حملة "جريت كروسيد" التى يقوم بها أيزنهاور، وكان من الممكن أن يتغير مجرى الأحداث فى أى اتجاه، فعلى سبيل المثال عندما قام تشرشل بزيارة رأس الكوبرى الساحلى بشاطئ نورماندى فى ١٢ يونيو ١٩٤٤ (انظر الشكل ٢٦ الوارد فى صفحة ٣١٧)، ذهب إلى مقر قيادة مونتغمرى فى كراولى، وفى أثناء وقوف كبار الضباط خارج المقر مع رئيس الوزراء تنهد المشير الجنوب إفريقى سماوت ثم قال: "هناك قوات ألمانية تقترب منا الآن... أستطيع أن أدرك ذلك". بعد مضى يومين خرج جنديان من أفراد المظلات الألمانية مدججين بالسلاح من بين الشجيرات فى الجوار، حيث كانا مختبئين طوال ذلك الوقت، ولو أنها استخدما أسلحتهما أو ألقوا القنابل اليدوية التى كانت بحوزتهما على تشرشل لتغير كل شىء.

بلغت الأمور ذروتها بشأن كل من الأكاذيب التى تمت إشاعتها، والجواسيس، والخدع، والحيل، والإغراءات التى شكلت الخداع العسكرى البريطانى فى القرن العشرين، جاء ذلك عندما غير الخداع مجرى التاريخ، ودخلت المرحلة الثانية من خطة الخداع فورتيتيود ساوث إلى مسرح الأحداث فى تلك الأيام العصيبة التى تلت غزو نورماندى، وظهرت عبقرية ديفيد سترينجوايز أحد تلاميذ دودلى كليرك؛ حيث لم يتوقف خداع جيش عمليات الولايات المتحدة الأول، بل استمر فى التطور.

تألفت المجموعة "ب" من الجيش الألماني فى فرنسا من قوتين؛ الجيش السابع فى نورماندى، والخامس عشر فى شرق كاليه، وعندما نزلت قوات حملة الحلفاء فى نورماندى كان عليها التعامل مع الجيش الألماني السابع، وقال أيزنهاور لأفراد التمويه فى شهور ما قبل الغزو: "كل ما أطلبه منكم هو حمايتي من الجيش الخامس عشر خلال أول يومين". كان يطلب الحماية عدة ساعات فقط، ففى كل يوم يمكث الألمان بعيداً، كان يقل عدد القتلى والمصابين فى صفوف الحلفاء، وتم اتخاذ تدابير من أجل وصول المزيد من القوات والعتاد إلى الشاطئ؛ ليصل العدد فى نهاية الأمر إلى قوة عسكرية تتألف مما يقترب من مليونى رجل.

وبعد مرور يومين على يوم الغزو، ادعى بويول عقد مؤتمر صورى للعملاء الوهميين شمل ثلاثة من العملاء الفرعيين السبعة: دونى وديك ودوريك، وبعد منتصف الليل أرسل إلى رؤسائه فى الاستخبارات العسكرية الألمانية فى مدريد رسالة مشفرة مدتها ساعتين؛ احتوت على ملخص النتائج التى توصل إليها من خلال المناورة الكاملة الخاصة بخطة فورتيتيود ساوث، حيث ادعى بويول أنه يخمن أن غزو نورماندى كان هجوماً من شقين تمثل عمليات الإنزال فيه مجرد هجوم مخادع ومناورة صممت لسحب تعزيزات الألمان نحو الغرب، وحذر بويول من أنه إذا ما تحرك الجيش الخامس عشر بقيادة رومل من كاليه نحو الغرب لتعزيز الجيش السابع فى نورماندى فقد يقعان فى الشرك الذى نصب لهما، وسيقوم جيش عمليات الولايات المتحدة الأول، المكون من عشرين أو خمس وعشرين فرقة والذى لم يدخل المعركة بعد، بالعبور من جنوب شرق إنجلترا لتوجيه الضربة الثانية خلف كاليه. كانت هناك إيحاءات بأن هذا الهجوم الثانى (الخيالى الثانى) والذى أطلق عليه "مارس" كاسم حركى من شأنه أن يعمل على قطع أواصر القوات الألمانية فى نورماندى فاتحاً المجال أمام قوات الحلفاء والجنرال باتون بالاندفاع نحو عقر أراضى ألمانيا.

انتقلت الرسالة الإسبانية التى كتبها أرابل العميل الثقة عبر أيادٍ عدة، وترجمت إلى الألمانية خلال فترة زمنية تقترب من ثمانى عشرة ساعة، وهو الوقت الذى استغرقته

كى تنتقل من لندن إلى برلين عبر مدريد والوصول عبر المبرقة الكاتبة فى مقر القيادة العامة لأدولف هتلر فى مدينة بيرختيسجادن، حيث قرأها العقيد كروماخر القائد الأعلى للاستخبارات الحربية الألمانية، وقام بتسليمها إلى الجنرال جودل الذى رأى أنه من المهم تسليمها إلى أدولف هتلر شخصياً، حيث احتوت الرسالة على جمل "للمناورة"... مثل "هجوم حاسم فى مكان آخر"... "من المحتمل أن تجرى الأحداث فى منطقة كاليه"... "تقدير القواعد الجوية"، وكانت جميعها تفيد بإلغاء الهجوم المعاكس فى نورماندى وانسحاب القوات.

واعتقد سيفتون ديلمر أن خداع جيش عمليات الولايات المتحدة الأول؛ كان مفصلاً بشكل بارع لمواءمة طبيعة هتلر النفسية وشهوته "المتواصلة بتصوير نفسه على أنه بطل درامى، فتصور نفسه أنه القائد البطل الذى يواجه كثيراً من الأعداء مثل فريدريك الأكبر ملك بروسيا الجسور فى نهاية حرب السنوات السبع". وكما تم إنقاذ فريدريك الثانى فى القرن الثامن عشر فى اللحظة الحاسمة بانضمامه إلى ملك بروسيا القيصر بيتر الذى قام بسحب قواته من برلين، لذا فقد ظهر الجاسوس بوبول على أنه مبعوث العناية الإلهية حاملاً رسالة إنقاذ، فلم يكن هتلر ليقع أبداً فى فخ نصبه له أيزنهاور بتحريك قواته غرباً نحو نورماندى! كان البطل العظيم على أهبة الاستعداد وفى انتظار الأمر لسحق قوات الجنرال المتعجرف باتون فى كاليه؛ وحينها ينتصر هتلر فى الحرب.

ولهذا، فقد احتفظت إحدى وعشرون فرقة ألمانية، فرقتين مدرعتين وتسع عشرة فرقة مشاة وقوات مظلات متميزة، بمواقعها فى منطقة كاليه، ليس لمدة يومين كما طلب أيزنهاور أو أسبوعين بل لمدة قاربت الشهرين، حتى نهاية شهر يوليو، وهو الوقت الذى قام فيه الحلفاء بإعداد أنفسهم والتمركز شمال غرب فرنسا؛ حيث خسر الألمان رهانهم فى ذلك المكان، وعندما قامت القوات الألمانية فى نهاية الأمر بالتحرك غرباً، سمى أيزنهاور هذا الإجراء بأنه "محاولة متأخرة وغير مجدية من أجل تعزيز جبهة نورماندى المتصدعة".

وفى ختام التقرير الذى أعده القائد الأعلى لعمليات هيئة الأركان المشتركة بقوات حملة الحلفاء فى أوروبا، كتب دوايت أيزنهاور: "إنه تم تضليل العدو بشكل تام عن طريق عمليات الخداع، وظلت بعض القوات فى كاليه، ولو اندفعت هذه القوات نحو نهر السين عند أول عملية إنزال، فربما أدى هذا إلى تحويل كفة الميزان ضدنا"، وفى هذا الصدد كتب ونستون تشرشل: "كان الهدف من إجراءات الخداع التى قمنا بها قبل يوم الغزو وبعده هو تشويش فكر العدو، وكان نجاحها رائعًا فقد أدت إلى تحقيق نتائج بعيدة المدى فى المعركة"، وكتب برنارد مونتغمرى أيضًا فى كتابه "الفصيلة العسكرية ٢١: من نورماندى إلى بحر البلطيق" – (21 Army Group: Normandy to the Baltic): "استمرت إجراءات الخداع وفق ما خطط له بعد يوم الغزو؛ حيث أظهرت الأحداث أنها لعبت دورًا حيويًا فى نجاحاتنا فى نورماندى".

(٢٨)

الانتقـــام

حذر تشرشل قائلاً: "ربما نكون نحن البريطانيون هدفًا لهجمات جديدة يشنها العدو"، وبالفعل ظهرت فى الأفق بعد أسبوع من يوم الغزو "طائرة دون طيار"، وتم إطلاق الدفعة الأولى من قنابل "V-1" الصاروخية التى بلغ تعدادها ثمانية آلاف قنبلة نحو لندن فى ١٣ يونيو ١٩٤٤ حيث أعادت إلى الأذهان أحداث الهجمات الخاطفة وعملية إخلاء لندن من الأطفال. كانت القنابل الموجهة عبارة عن طائرة آلية بطول ٢١ قدمًا، وذات أجنحة قصيرة وذيل؛ وبلغت سرعتها ٣٦٠ ميلاً فى الساعة، وينبعث من مؤخرتها مادة ملتهبة برتقالية اللون، وعندما يتوقف المحرك تسقط على الأرض دون صوت، ويزن الطراز الأول (V-1S) طنين وتحمل الواحدة منه خمسة عشر كيلو جرامًا من المتفجرات، وفى غضون ثلاثة أشهر دمرت تلك القنابل قرابة ٢٣ ألف منزل وألحقت الأضرار بما يزيد على ١٠٠٠٠٠ منزل آخر، بالإضافة إلى مقتل ٦٠٠٠ شخص وما يزيد على ١٨٠٠٠ جريح.

تم إطلاق الكلمة الألمانية (Vergeltungswaffen)؛ التى تعنى "الانتقام" على النوع الأول من القنابل الصاروخية (V-1)، ثم على النوع الثانى(V-2) الذى بلغ حجمه ضعف حجم النوع الأول وسرعته ستة أضعاف سرعة الأول، وكان يحمل قرابة طن من المتفجرات، فى رد فعل على قصف قوات الحلفاء المدمر للمدن الألمانية والذى قتل فيه ما يقرب من نصف مليون مدنى. أظهر استخدام الألمان لأسلحة (V) صعوبة هزيمتهم

واستسلامهم، الأمر الذى أقلق تشرشل ودفعه فى يوليو ١٩٤٤ إلى التفكير بسرعة فى استخدام الغازات السامة فى حوض نهر الرور.

تلقى خوان بويول فى ديسمبر ١٩٤٣؛ تحذيراً من قبل قائده فى الاستخبارات العسكرية الألمانية بسرعة الخروج من لندن والتوجه إلى قرية تابلو فى بكنغهامشير، وعندما بدأ تساقط قنابل (V-1S) الصاروخية؛ أراد الألمان معرفة أماكن سقوطها بالتحديد كى تتمكن قاذفات الصواريخ من إصابة أهدافها المحددة، فأجاب بويول "أرابل" إن مصادره فى وزارة الإعلام أخبرته بأن القنابل الصاروخية (V-1S) تسقط فى جميع الأماكن من هارويتش حتى بورتسموث، إلا أن الألمان احتسبوا ذلك من قبيل الخداع؛ أى أن المقصود هو إيهام الألمان أن القنابل تتجاوز مداها، ومن ثم يقوم الألمان بتعديل الأهداف ما يجعل تلك القنابل تسقط قبل أن تصل إلى لندن.

وفى ٢٢ من يونيو؛ أعد بويول وهاريس خطاباً شخصياً مطولاً ودقيقاً إلى كارلوس، "كارل إيريك كولينتل" قائده فى الاستخبارات العسكرية الألمانية فى مدريد، حيث كان الأسلوب تطغى عليه الروح الوطنية التى تنفجر بصرامة وتحفظ فى الوقت نفسه، لذا يتساءل بويول: "هل القنابل الصاروخية (V-1S) كان لها هدف عسكرى؟" لا! فليس لها تأثير على الإطلاق؛ هل كان المقصود من ورائها الدعاية؟ نعم! من الممكن"، ثم يضيف أرابل معبراً عن مدى اشتياقه إلى تدمير هذه المدينة عديمة الفائدة التى تحيط به، لكن أرابل يقر أن العواقب كانت مخيبة للآمال سواء من الناحية العسكرية أو الدعائية، فالحياة تسير كما هى، والشوارع كما هى وسيستطيع الناس أن يروا بأم أعينهم مدى كذب الإدعاءات الألمانية فيما تعلق بإحراق لندن وتدمير ساعة بيج بن، ثم يسأل أرابل: هل هذا أفضل استخدام للموارد العسكرية؟ ويطلب تطوير القنبلة الصاروخية (V) أو تزويد سرعتها، ويسأل أيضاً: هل هذا حقاً هو "الصاروخ الحربى" الذى سبق الحديث عنه، ثم يقول فى نهاية خطابه:

أشعر بما هو أكثر من الكراهية وتمنى الموت لعدونا، فلدى رغبة شديدة فى تدمير كيانه كله، فلا تستطيع أن تفهم غطرسة هؤلاء الرعاع إلا إذا عشت بينهم، وفى النهاية يضيف قائلاً: مع خالص التحية.

وعندما بدأ الجيشان الكندى الأول الحقيقى والأمريكى الثالث بالتحرك نحو نورماندى فى يوليو ١٩٤٤، كاشفين بشكل مؤقت خدعة جيش عمليات الولايات المتحدة الأول الوهمى الذى كان لا يزال قائمًا فى كل من كينت وساسكس، قررت الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس وقف بويول أرابل فترة زمنية، وكان لهذا مقصد آخر، ففى الخامس من يوليو ١٩٤٤ أخبر العميل الوهمى الثالث مدريد بشأن قلقه من عدم حضور أرابل اجتماعهم الدورى، وقام فى اليوم التالى بإخبارهم باختفاء أرابل، وأن زوجته على وشك الذهاب إلى قسم الشرطة لمعرفة ما إذا كان قد قتل إثر قنبلة ما سيمثل كارثة فى حالة ما إذا كان قد ذهب إلى أحد الأماكن المحظورة، ثم سألهم ما الذى يجب عليه فعله؟

بلغت القصة ذروتها عندما تم اكتشاف أنه قد ألقى القبض على أرابل من قبل محقق شرطة بملابس مدنية أثناء قيامه بالسؤال عن بعض الأشياء بالقرب من موقع قنبلة (V-1) فى منطقة بيثنال غرين، أمرت مدريد شبكة الأرك أن تهدأ فترة من الوقت، وفى النهاية أرسل العميل الثالث رسالة بإطلاق سراح أرابل وأنقذه صديق له فى القسم الإسبانى بوزارة الإعلام، وأضاف بويول خدعة أخرى حين ادعى أنه قدم شكوى إلى الأمن الوطنى عن توقيفه غير المشروع، وبحصوله على خطاب اعتذار مصدق من شخصية بارزة، أرسل هذا الخطاب إلى مدريد. كل ذلك كان مجرد خداع وتضليل، وفى ٢٩ يوليو ١٩٤٤ فرحت مدريد عندما علم أن القائد الألمانى هتلر منح أرابل وسام الحرب العالمية الثانية.

ومع تضييق الحلفاء الخناق على ألمانيا عام ١٩٤٥، استخدم سيفتون ديلمر المحطة الإذاعية (أسبدسترا) كسلاح للحرب النفسية، حيث كان الألمان يقومون بقطع بث إذاعاتهم المحلية فى المناطق والمدن التى تقوم طائرات الحلفاء بشن هجوم عليها؛ حتى لا تستخدم تلك القاذفات الموجات فى توجيه قنابلها، وعند استشعار اقتراب وقوع هجوم كانت المحطة أسبدسترا تلتقط الموجات التى تبثها محطة محلية أخرى وتقوم ببثها على الفور إلى المناطق التى قطع عنها الإرسال، ومن ثم لا يمكن للمستمعين

ملاحظة أى تحول فى الإشارة، وهنا يقوم فريق ديلمر بإدخال بث "الدعاية السوداء" أو بيان إذاعى، فيظن المستمعون الألمان أنهم يستمعون إلى الإذاعة النازية، ما جعل (أسبدسترا) محطة قرصنة ضخمة تتحكم فى غيرها. استخدمت هذه الخدعة للمرة الأولى فى ٢٤ مارس ١٩٤٥؛ عندما عبرت قوات التحالف نهر الراين، حيث أصدر أحد مذيعى ديلمر، وهو أسير حرب يتمتع بأسلوب رسمى منمق اكتسبه فى أثناء عمله فى الإذاعة الألمانية، تعليمات بالجلاء عن الإذاعة الألمانية فى كولونيا، وفى الليلة التالية كان الدور على إذاعة فرانكفورت من أجل نشر الذعر، وبعدها تم إخبار برلين وهامبورغ رسمياً من قبل الحكومة الألمانية أن خدع الحلفاء تهزأ بالاتصالات الألمانية، وأن عليهم عدم تنفيذ التعليمات الصادرة عبر الهاتف قبل معاودة الاتصال للتأكد من صحتها أولاً.

قام ديلمر بسرعة بإعداد بعض الخطط؛ لإضعاف قدرة العدو على المقاومة. على الرغم من قيام ضباط جيش أرستقراطيين بمحاولة اغتيال هتلر فى يوليو ١٩٤٤، فإنه لم تكن هناك مقاومة منظمة ضد النازية داخل ألمانيا، لذا تم التفكير عام ١٩٤٥ فى إيجاد مقاومة وهمية عن طريق إرسال بعض العملاء الحقيقيين (من أسرى الحرب الألمان "المتحولين") وأجهزة لا سلكية وذخائر ومتفجرات ورسائل سرية لإزعاج البوليس السرى النازى وإهدار وقتهم فى اضطهاد الأبرياء.

نجا أربعة من العملاء السريين، وادعى اثنان منهم الانضمام إلى منظمة تخريب لم تكن موجودة بالفعل، (يقول ديفيد جارنت إن عملية بيرويج "تشبه فى قصتها العديد من المسرحيات التى ألفها بيرانديلو")، وذكر ليو ماركس أكثر أساليب الخداع سخرية فى كتابه "بين الحرير والسيانيد" – (Between Silk and Cyanide) الذى يروى فيه إسقاط العميل الألمانى المزدوج شيللر بمظلة؛ حتى يتم العثور على الجثة ولا تزال تظهر عليها الأدلة الجنائية، يقول ماركس: إن هذا الرواية من قصة اللحم المفروم أكدها الجنرال جيرالد تمبلر، لكن فريدريك بويس فى روايته "الخداع النهائى لجهاز تنفيذ العمليات الخاصة: عملية بيرويج" – (SOE's Ultimate Deception: Operation PERIWIG) الصادرة عام ٢٠٠٥؛ ساورته الشكوك بشأن حدوث هذه العملية، وفى النهاية اعتقد ديلمر أن

اختلاق وجود مقاومة من شأنه أن يسهم فى إرباك الأعداء، وأطلق على كتابه التالى "الكيد المرتد" – (Black Boomerang)؛ حيث ادعى الكثيرون بعد الحرب من المنتمين إلى ا ـازية أو المتعاونين المخلصين لها أنهم شاركوا فى المقاومة التى شارك هو فى ا ـتلاقها.

مع استمرار تصدع ألمانيا النازية، وتوغل قوات الحلفاء داخل ألمانيا، شعر سيفتون ديلمر بأن زمن الدعاية البريطانية السوداء (سولداتنسندر) قد انتهى، وقرر أن يرفع تقريرًا بما كان يفعله بقية الألمان؛ وأخلى السفينة فى تمام الساعة ٥,٥٩ صباح ١٤ أبريل ١٩٤٥، وخرجت المحطة الإذاعية من نطاق موجات الأثير، ولم تسمع مرة أخرى إلى الأبد. وصدرت فى اليوم ذاته آخر نسخة من جريدة "أخبار القوات" – (Nachrichten) فى لوتن، وفى صباح اليوم التالى للحفل التنكرى الذى أُقيم فى ميلتون احتفالاً بنهاية البث، قام ديلمر بعمل آخر، فحلق لحيته لترمز إلى ما يسمى بنهاية "الدعاية السوداء" حيث صدمه ما رآه فى المرآة؛ فقد كان يشبه محتالاً شاحب الوجه مترهل الشفاه وسأل نفسه قائلاً: "أنا هو، ما الذى أحدثته أربع سنوات من الدعاية السوداء فى دنس سيفتون ديملر؟"، وبعد أن حلق لحيته استدعى فريقه فى المطعم ليودعهم، وسمع صوت من الخلف ينادى: "لا لحية بعد اليوم، ولا حرب بعد اليوم".

لكن ديلمر كان له هدف من الدعوة إلى هذا الاجتماع حيث أخبرهم: "ينبغى عليكم أن تقاوموا رغبتكم فى التفاخر بالخداع الذى فعلتموه بالألمان"، وقال أيضًا: على الرغم من أن وحدتنا أسهمت فى هزيمة هتلر، فإنه ينبغى على فريق العمل الذى كان معى أن يتذكروا أن دورهم كان ثانويًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى عند مقارنته بأعمال القتال؛ كان ديلمر متواضعًا وكان يدعو إلى التواضع، ولم يكن ذلك لمجرد التواضع، بل له مقصد من ذلك، فقد ذكر ديلمر فريقه أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لم يستطع لورد نورثكليف "المتعطش إلى المجد" أن يكبح نفسه عن تباهيها بالنجاح الذى حققته دعايته، وهذا ما دعا الدعاية الألمانية إلى القول: "إن هزيمتهم لم تكن بسبب الجيوش فى الميدان، وإنما بسبب دعاية نورثكليف، وهذا بدوره عزز فكرة أن الألمان كانوا سيحققون النصر ما لم يتم خداعهم، فلم لا تكون هناك جولة ثانية؟".

انتهت روايات ديلمر فى أبريل ١٩٤٥ الذى اكتشف فيه جنود الحلفاء الحقائق النازية فى ألمانيا، حيث دخلوا معسكرات اعتقال بوخنفالد وبيرغن - بيلسن وداخاو، "لن يصدقنا أحد"... هكذا كان رد فعل أحد الجنود الأمريكيين الذى أصابه الذهول لرؤية الأفران والجثث. كان ريتشارد ديمبلبى أول مذيع بريطانى يدخل بيلسن حيث تعرض ٦٠٠٠٠ مدنى للموت بسبب الجوع وحمى التيفوس.

يقول ديمبلبى: رأيت العديد من المناظر المرعبة خلال السنوات الخمس الماضية، لكن لا شىء يضاهى ما شاهدته داخل معسكر اعتقال بيلسن، فالموتى والمحتضرون مطروحون على الأرض جنبًا إلى جنب... وكلما تعمقنا داخل المعسكر بعيدًا عن البوابة الرئيسية رأينا المزيد من الأشياء المرعبة داخل ذلك المكان... وفى ناحية من معسكر بيلسن يوجد تجويف بحجم ملعب التنس بعمق خمسين قدمًا تراكمت به جثث عارية بعضها فوق الأخرى... وعندما قام أطباء جيشنا بفحص بعض تلك الجثث وجدوا فتحات جانبية فى بعض الجثث يبدو أن من أحدثها كان على دراية طبية، وأثار الأطباء الشكوك حول تسبب تلك المجاعة فى السُعار ما دفع سجناء بيلسن إلى إخراج الأعضاء، الكبد والكليتين، من جثث زملائهم الذين قضوا نحبهم ليأكلوها.

لكن إذاعة بى بى سى رفضت بث هذا الخبر فى بداية الأمر؛ لاعتقادها عدم مصداقيته، إلا أن ديمبلبى اتصل بغرفة الأخبار محذرًا إياهم من توقفه عن العمل إن لم يذع ذلك الخبر.

طلب أدولف هتلر المتحصن فى مخبئه فى برلين المتهدمة ألا يحاكم باعتباره مجرم حرب، وبكى بعدما سمم كلبه الألزاسى البلوندى، وبعد تناوله الغداء يوم الثلاثين من أبريل، أزال القائد طقم أسنانه وأطلق النار على نفسه من مسدسه، وأعلنت ألمانيا النازية استسلامها غير المشروط فى ٧ مايو ١٩٧٤.

الخاتمة

بعد فترة طويلة من الحرب العالمية الثانية بدأت قصص الخداع تُنشر تدريجيًا، حيث نُشر الكتاب التاريخى الرسمى "الخداع الاستراتيجى فى الحرب العالمية الثانية" – (Strategic Deception in the Second World War) الذى كتبه الأستاذ الجامعى السير مايكل هاوارد عام ١٩٩٠، ونُشر بعد عشر سنوات كاملة من انتهاء كتابته، ويرجع سبب التأخير إلى رفض رئيسة الوزراء السيدة مارجريت تاتشر نشر المزيد عن الخدمات السرية، وذلك بعد اكتشاف أن السير أنتونى بلانت كان يسرب معلومات للروسيين، كما لم يتم نشر رواية "مجمل قضية جاربو ١٩٤١-١٩٤٥" (Summary of the Garbo Case 1941-1945) الخاصة بالاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس إلا فى عام ٢٠٠٠، ولم يخرج كتاب ثاديوس هولت "المخادعون" – (The Deceivers)، الذى وثق عملية خداع قوات التحالف العسكرى، إلى النور إلا فى عام ٢٠٠٤.

لماذا كان علينا الانتظار طويلاً حتى نحيط علمًا بهذا الجانب من الحرب العالمية الثانية؟ وهل السبب وراء ذلك هو أن الخداع أكثر الأمور سرية، أم أكثرها خزيًا؟ لقد أحاطت السرية الرسمية الشديدة بهذا الأمر، إلا أن الكتاب الصادر عام ١٩٧٢ الذى كشف عن استخدام عملاء مزدوجين خلال الحرب العالمية الثانية، كتاب جيه سى مسترمان المسمى "نظام التجسس المضاد" – (The Double-Cross System) (الذى نشرته دار نشر جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية)، أزال أى إشارة إلى ما عُرف بـ "المصادر الأكثر سرية"؛ وهى المعلومات المستقاة عن طريق فك شفرات الأعداء، والتى أطلق عليها الترا كاسم حركى، لكن هذا الكتاب لم يخرج إلى النور إلا بعد نشر كتاب إف دبليو وينتربوثام الضابط بسلاح الجو الملكى البريطانى المسمى "سر الترا" – (The Ultra Secret) فى عام ١٩٧٤. كما حظر نشر قصة نجاح بلتشلى بارك العظيمة

مدة ثلاثة عقود والتى تم فيها اختراق رموز آلة أنجيما الألمانية، والتزم تشرشل نفسه بتلك القواعد، ففى مؤلفه التاريخى المكون من ست مجلدات بعنوان "الحرب العالمية الثانية" - (The Second World War)؛ لم يستطع هذا الرجل الذى أدرك بالفعل أهمية استخبارات الإشارة أن يذكر كلمة واحدة عنها على الإطلاق.

كان هناك سببان وراء سياسة الكتمان التام الرسمية الأنجلو أمريكية بعد عام ١٩٤٥، يتمثل السبب الأول منهما فى عدم إظهار شىء عن مدى وقدرة استخبارات الإشارة الحديثة، حيث كانت الحرب الباردة ضد الشيوعية قد بدأت، ويتمثل السبب الثانى فى عدم إعطاء دول المحور المهزومة أى مسوغ للشكوى، كما فعلت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وادعت أنهم خسروا فقط بسبب غش المنتصرين؛ إلا أن كتبًا مثل كتاب "أسرار كرو هاوس" - (The Secrets of Crewe House) الذى ألفه السير كامبل ستيوارت، ويدور حول التباهى بمهارات الدعاية البريطانية، شجعت النازيين على إعادة كتابة التاريخ.

وعلى الرغم من سيادة تلك السياسة الرسمية، فقد خرجت بعض القصص للنور، وكانت الكتب دائمًا ما تصطدم بقوانين وعالم الأسرار الرسمية التى بدأ إقرارها منذ ١٩١٤، وفى السنوات الأولى التى تلت الحرب العالمية الثانية، ولم تخرج الأسرار على أنها تاريخ ولكن فى صورة قصص ومغامرات، فكما رأينا فى رواية دوف كوبر "عملية الحسرة" - (Operation Heartbreak)؛ ثم ما تلتها من قصص غير خيالية مثل "عملية اللحم المفروم" - (Mincemeat)، و"الرسول المجهول" - (The Unknown Courier)، و"الرجل الذى لم يولد" - (The Man Who Never Was) التى نُشر - فى عام ١٩٥٣، وربما سمحت لجنة الاستخبارات المشتركة بنشر هذه القصص عن انتصار الإنجليز فى عمليات الخداع للرد على قصة ألمانية نُشرت عن النجاح فى مجال الخداع، وكانت هذه القصة قد نشرت فى بداية عام ١٩٥٣، وقد وعد غلاف كتاب إتش جيه جيسكى المسمى "اتصال لندن بالقطب الشمالى" - (London Calling North Pole) بإفصاح كبير من قبل القائد السابق لخدمة التجسس الألمانى المضاد فى هولندا، حيث أفصح جيسكى

أن كل العملاء البريطانيين السريين الذين أرسلهم الجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة؛ قد ألقى القبض عليهم، وأخذت الاستخبارات العسكرية الألمانية أجهزتهم اللا سلكية فى عملية خداع استمرت ثمانية عشر شهرًا وسميت "نوردبول"، ولم تكن بريطانيا لتدع ألمانيا تفوز فى "المجالات اللا سلكية" - (Funkspiele)؛ لذا احتاجت الدعاية البريطانية إلى قصص تظهر الحرب السرية البريطانية فى شكل جيد.

تقاعد العميد دودلى كليرك من الجيش البريطانى عام ١٩٤٧؛ بعد أن دوَّن يوميات الفرقة العسكرية "إيه" خلال الفترة ١٩٤٠-١٩٤٥، لكنه ترأس استطلاعات الرأى العام فى مكتب المحافظين المركزى فى الفترة من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٢، كما عمل مديرًا فى شركة سيكيوريكور المحدودة، وبقى على اتصال بأصحابه القدامى من المخادعين بل وكان يساعدهم بالمال دون أن يسترده منهم، وبعد إصداره "المهمات السبع" (Seven Assignments) فى عام ١٩٤٨، كتب كليرك تاريخ كتيبة الهوصار الحادية عشرة ١٩٣٤-١٩٤٥ تحت عنوان "الحادية عشرة فى الحرب" - (The Eleventh at War) والقصة الأمنية المثيرة واللطيفة "السهم الذهبى" - (The Golden Arrow) التى نشرت عام ١٩٥٥، ولكنه لم يصل مطلقًا إلى شهرة أخيه كاتب الأفلام تى إى بى كليرك ذلك أنه لم يكن مسموحًا له بكتابة الحقائق التى يعلمها، أراد دودلى كليرك أن يكتب تحت عنوان الحرب السرية فى عام ١٩٥٣؛ لكن الأمر لم يتجاوز كونه مجرد اقتراح من ناشر وذلك بسبب قانون الأسرار الرسمية الذى التزم به حتى وفاته فى ١٩٧٧.

وفى الوقت ذاته كان السير ونستون تشرشل، الذى نال جائزة نوبل فى الآداب عن عام ١٩٥٣، يربح الملايين من كتاباته، حيث أخذ - على الأصح - وثائق حكومية أكثر مما كان ينبغى عندما رحل عن الحكومة، وكان مما قاله ذات مرة: "الطريق إلى السيطرة على التاريخ هو أن تكتبه بنفسك"، وبإعادة انتخابه رئيسًا للوزراء فى أكتوبر ١٩٥١ قبل شهر من حلول عيد ميلاده ٧٧، لم يسلم تشرشل من عمليات الخداع، فبعد أن أصيب الرجل العجوز بسكتة دماغية، رشيت الصحافة وأسكت الأطباء وتعاونت الطبقة السياسية على إخفاء عجز تشرشل عن الناس، فقد كان تشرشل رمزًا قوميًا،

وما كان ليفقد بريقه رغم ضعفه أو حدة طبعه، وفى النهاية استقال تشرشل من منصبه فى أبريل ١٩٥٥، كما تقاعد من البرلمان فى عام ١٩٦٤ بعد ستة عقود من عضويته به، وتوفى فى ٢٤ يناير ١٩٦٥ عن عمر يناهز ٩٠ عامًا، وتحركت جنازته الرسمية فى احتفال مهيب لتوارى الثرى بالإمبراطورية البريطانية، وصوت مشاهدو تلفاز بى بى سى عام ٢٠٠٢ لتشرشل باعتباره منقذ الدولة وأعظم بريطانى على الإطلاق.

عادة ما تستغرق علميات التنقيح عصرًا كاملاً، فلم ينشر كتاب ليتون ستراتشى المسمى "العظماء المنتصرون" - (Eminent Victorian)؛ فى الفترة الفيكتورية ولا فى الإدواردية ولكنه نشر فى الفترة الجورجية. فبعد عشرين عامًا من وفاته فى عام ١٩٣٥، تعرض تى إى لورنس إلى هجوم من جانب ريتشارد الدينجتون - وهو كاتب وناقد خبيث الحرب العالمية الأولى آماله - وقرر أن يهاجم أى طبقة تنتمى للمذهب الرومانسى، يصف ريتشارد الدينجتون فى كتابه المسمى "لورنس العرب" - (Lawrence of Arabia) تى إى لورنس بالمخادع وصانع الأوهام، لكن ذلك الكتاب افتقد المصداقية فى حق لورنس، وأحدث الكتاب، الذى سميت الطبعة الأولى منه فى باريس، "لورنس المخادع" - (La rence l'Imposteur) ضجة عندما نشر فى إنجلترا عام ١٩٥٥، وحاولت إحدى الجمعيات القوية برئاسة باسيل ليدل هارت حظر نشره فى البداية؛ ثم عمدت بعد ذلك إلى تشويه صورة ذلك الكتاب.

كان العقيد ريتشارد ماينرتزيهاجين هو الرجل الوحيد الذى قرأ كتاب ريتشارد الدينجتون بعناية (خاصة الفصل المتعلق بحياة لورنس الجنسية)، حصل ماينرتزيهاجين على وسام الخدمة المميزة وكان من أفراد عمليات الخداع فى الحرب العالمية الأولى، وكان وقورًا ذا لحية بيضاء فى العقد السابع من عمره، ومنذ ١٩٥٧ حتى ١٩٦٤ نشر ماينرتزيهاجين أربعة كتب تبدو مقتبسة من يومياته التى تتكون من ٦٧ مجلدا، والتى تتضمن: "يوميات كينيا" - (Kenya Diary) و"يوميات الجيش" - (Army Diary) و"يوميات الشرق الأوسط" - (Middle East Diary)، ومع تقدمه فى السن، وعدم الاهتمام به ألفَّ أسطورته المثيرة وجاءت مليئة بالعنف، اشتهر هذا الرجل بأنه رجل الطيور، وفى عام ١٩٥١ منحه اتحاد علماء الطيور البريطانى ميدالية جودمان سالفين،

كما تم منحه فى عام ١٩٥٧؛ وسام قائد الإمبراطورية البريطانية على خدماته فى عالم الطيور، وبعد ذلك بفترة وجيزة منحه اتحاد علماء الطيور الأمريكى الزمالة الفخرية، وتتضمن الإنجازات التى حققها فى حياته جمع أفضل مجموعة من الطيور فى العالم، فيها ٢٥٠٠٠ نوع من جلود الطيور و٥٠٠٠٠٠ نوع من القمل آكل الريش الذى ينتمى إلى العائلة الطفيلية (mallophaga)، والتى أهداها إلى (قسم تاريخ الطبيعة) بالمتحف البريطانى عام ١٩٥٤، ولا تزال موجودة حتى الآن.

ولكن ريتشارد ماينرتزيهاجين كان يصطاد دون إذن، فلما سعى لتكوين مجموعته؛ سرق نماذج من جامعى مجموعات آخرين ومن المجموعات العلمية الخاصة بالمؤسسات الكبيرة حول العالم، وتضمن كتابه الأخير فى علم الطيور الافتراس والقرصنة، فكان دراسة تفصيلية عن سلوكيات الغش والسرقة فى عالم الطيور، والتى كانت فى الحقيقة سيرة ذاتية مقنَعة.

فى عام ١٩٩٣؛ وبعد خمسة وعشرين عامًا من وفاة ماينرتزيهاجين، أشار آلان نوكس الذى يعمل فى متحف مقاطعة بكنغهامشير، إلى وجود تباين واضح بين عصافير أكانثز "Acanthis" بمجموعة ماينرتزيهاجين، وكان نوكس أول شخص لديه شجاعة كافية ليعلن، بشكل صريح، فى مقال علمى أن العقيد لم يكن أمينًا فى حصوله على نماذج مجموعته.

وكشف علماء آخرون أيضًا عن وجود خداع متعلقا بـ "اكتشافات" ماينرتزيهاجين، حيث أخبرنى آلان نوكس عندما كنا فى جامعة أبردين خلال أغسطس ٢٠٠٥ (بنبرة إنجليزية تنبأ عن غيظ) قائلاً: "لقد أفسد ماينرتزيهاجين معلومات مما ضلل الكثيرين لفترة طويلة".

لم تكن القضية متعلقة بالطيور فقط، حيث أرشدنى نوكس إلى مقال نقدى كتبه جيه آن لوكمان عام ١٩٩٥؛ تسلط الضوء على اثنى عشر موضعًا يمس تى إى لورنس فى "يوميات الشرق الأوسط ١٩١٧-١٩٥٦" – (Middle East Diary 1917-1956)، وهى من تأليف ماينرتزيهاجين، يبين المقال أن تلك المواضع أدخلت إلى النسخة المطبوعة بعد

عام ١٩٥٥، وعندما قــرأ المؤلف كتــاب الدينجتــون، وجد أن تلك المواضــع عبارة عن استخفاف بشجاعة لورنس، كما كانت بمثابة انتقام منه من قبل ماينرتزيهاجين رداً على وصف لورنس له فى كتابه "أعمدة الحكمة السبع" – (Seven Pillars of Wisdom) بالرجل الذى يسعد بالخداع... ويشبه فى تفكيره الألمان".

كانت سيرة ماينرتزيهاجين الذاتية الأولى التى هى بعنوان "الواجب، والشرف، والسلطة" – (Dutym, Honor, Empire) التى كتبها جون لورد، والثانية التى بعنوان "المحارب" – (Warrior) التى كتبها بيتر هاثاواى كابستيك سيرتين رائعتين تظهران عظمة صاحبهما، بينما استفاد ماينرتزيهاجين من سيرته الذاتية الثالثة التى كتبها مارك كوكر عام ١٩٨٩ رغم كونها محفوفة بالشكوك، أما سيرته الذاتية الرابعة فقد شوهت سمعته تماماً؛ فقــد وضعــت الروايــة التى كتبهــا براين جارفيلد بعنــوان "لغز ماينرتزيهاجين" والصادرة عام ٢٠٠٧ (Meinertzhagen Mystery)؛ تحت عنوان فرعى "لحظات فى حياة محتال كبير" – (The Life and Times of a Colossal Fraud)، حيث إنه مع مرور الوقت يجلب معه الثأر، فقد استعادت تلك الرواية سمعة لورنس وكشفت حقيقة ماينرتزيهاجين.

ما مدى سهولة التخلص من الخداع بعد انتهاء الحرب؟ ثبت خبير التمويه باسل سبنس على عهده وبنى كاتدرائيته فى كونفنترى، واهتم ديفيد سترينجوايز بالأوامر الدينية المقدسة، وأصبح كاهنًا فى كنيسة إنجلترا، وأراد العلمانى الفذ سيفتون ديملر أن يبدأ ثورة صحفية فى ألمانيا بإنشائه مؤسسة صحفية مجانية حية، لكن ألمانيا المحتلة كانت فى قبضة لجنة الحكم البريطانى الصارم، ثم عاد ديملر ساخطًا إلى عمله المؤقت فى شارع فليت ستريت باعتباره رئيسًا لمراسلى صحيفة ديلى إكسبرس، وفى النهاية استقال دودلى بعد مشاجرة بشأن النفقات، حيث ذُكر أنه قال: "لا أستطيع التفكير إلا إذا كنت وأنا فندق خمس نجوم"، ثم قال ديلمر للمسئول الذى أقاله: "أهكذا ينتهى الأمر؟ بعد ثلاثين عاما؟"، فرد عليه: "نعم هكذا ينتهى"، فقال ديلمر: "لو كنت أعلم أن هذا المنصب منصب مؤقت ما قبلته".

خرق ديلمر أمر الامتناع عن إفشاء أسرار الدعاية السوداء الصادر إلى فريق سولداتنسندر؛ عندما كتب الفصل الثانى من سيرته الذاتية "الكيد المرتد" – (Black Boomerang) عام ١٩٦٢، واصفًا فيه حياته فى إذاعة الدعاية "السوداء"، وبعد تسع سنوات عندما أراد أن يمعن فى المستقبل بكتابة قصص نابضة بالحيوية عن الخداع الاستراتيجى فى الحرب العالمية الثانية وعن جاربو ويوم الغزو، تورط ديلمر فى مشكلات بسبب استقائه معلومات من التاريخ السرى الذى يخص فورتيتيود الذى كتبه روجر هيسكث لصالح الاستخبارات العسكرية البريطانية، القسم الخامس، والذى أطلعه على تلك المعلومات سرًا، وفى النهاية تم عقد صفقة؛ حيث ساعد كل من روجر هيسكث وجون بيفان وبودلى كليرك فى تنقيح كتاب سيفتون ديملر "الجاسوس المزور" – (The Counterfeit Spy)، عند نشره عام ١٩٧٣ باعتباره قصة حقيقية؛ لكنه جرى تغير كثير من الأسماء؛ فقد تبدل الاسم الحركى جاربو إلى "كاتو"، وكاتالان خوان بويول ليصبح الباسكى "جورج أنطونيو".

فى العاشر من يناير عام ١٩٧٨؛ بث تلفاز بى بى سى برنامجه الشهير "مسرحية اليوم" – (Play for Today) الذى حاز جائزة الأكاديمية البريطانية للسينما والتلفاز "بافتا"، من بين هذه المسرحيات مسرحية "هزيمة هتلر" – (Licking Hitler)؛ وهى المسرحية الرابعة لديفيد هارى التى كتبها وأخرجها ورواها بنفسه، وكانت تدور أحداثها حول الأنشطة البريطانية السرية أثناء الحرب العالمية الثانية والتى كانت بمثابة بذور للفساد والخيانة اللذين أعقبا الحرب، حيث تبدأ المسرحية بفتاة ساذجة من الطبقة الدنيا واسمها "أنا سيتون" جاءت لتعمل فى بيت ريفى بريطانى؛ حيث كانت هناك وحدة للدعاية السوداء تجهز خطابًا قويًا حول ارتداد رودولف هس؛ ليتم بثه من محطة إذاعية "سوداء" تدعى أوتو أبند أينز، وكانت هناك شخصية سياسية مراوغة من الجهاز المسئول عن المنازعات السياسية تبدو مثل ريتشارد كروس مان، إضافة رجل براجماتى يشبه بشكل ما إيان فليمينج، وكان الرجل المقابل لسيفتون ديملر هنا هو أرشى ماكلين، وهو رجل فقير متقد الذكاء، اعتاد هذا الرجل شرب الكحول وكتابة الأكاذيب ليضلل الألمان، وهذا هو عمله نهارًا وفى الليل كان يمارس الجنس مع أنا. كتب فيلم

هار بمهارة، وجاء إخراجه وتمثيله بأسلوب رائع، لكن عابه فى رأيى الوثائق المزيفة التى أضيفت فى النهاية لتروى حياة أبطاله فى فترة ما بعد الحرب، فقد أظهر فشلهم بعد ذلك وعدم أمانتهم بسبب انخراطهم فى الخداع فى أثناء الحرب: "الكذب، إنه الداء اليومى المزمن، تلك العادة القومية المدمرة التى استمرت طوال ثلاثين عاماً".

لم يشاهد ديلمر مسرحية "هزيمة هتلر" – (Licking Hitler) جيداً، فقد كانت صحته معتلة، وكان طريح الفراش يعانى آثار سكتة دماغية؛ حيث تذكر برامج الدعاية السوداء من خلال أرشى ماكلين الذى بدا غريباً. وعلم ديلمر أن بى بى سى قد اختارت كتابه "الكيد المرتد" – (Black Boomerang)؛ على الرغم من أنها لم تدفع له أجره إزاء ذلك، والآن وحيث إن الدراما تنتشر وأن عمله قد استهين به، تساءل ديلمر ما إذا كانت "السيدة" بى بى سى تسعى من أجل العودة به إلى خزى الحرب القديم.

توفى ديلمر فى العام التالى، وقد أثار كتابه الأخير "الجاسوس المزور" – (The Counterfeit Spy)؛ قصة مثيرة وانتهى الكتاب بما يدعى أنه حدث لأشخاص حقيقيين، فقد قيل إن "جورج أنطونيو" قد ذهب إلى أستراليا وكندا؛ واستقر مؤخراً فى أنجولا القابعة تحت الاحتلال البرتغالى، ثم توفى متأثراً بمرض الملاريا عام ١٩٥٩، إلا أن هذا كان خداعاً مدروساً أيضاً.

طلب خوان بويول الحقيقى من توماس هاريس أن يسمح له بالاختفاء؛ كى يصبح بعيداً عن انتقام النازيين الحاقدين الجدد، وفى مايو ١٩٨٤ تتبعه فى فنزويلا مؤرخ الاستخبارات نايجل ويست وأقنعه بالعودة إلى أوروبا لحضور الذكرى الأربعين ليوم الغزو، وهناك قدم دوق إدنبرة الشكر له بقصر بكنغهام فى لندن، وأخيراً رفع الستار للبريطانيين عن أعمال بويول.

أفضل ما كان يتمناه دودلى كليرك للعمليات الخداع "أن يستخدم فى الحرب السرية من أجل الحفاظ بدلاً من التدمير... تلك الحرب التى كان من بين مكاسبها تجنب خسائر محتملة كبيرة". وقبل وفاته فى كاراكاس عام ١٩٨٨، أعلن بويول أنه فخور كل الفخر لمساعدته فى حماية عشرات الآلاف من جنود الحلفاء الذين دافعوا عن

رءوس الجسور الساحلية فى نورماندى: "حيث كان من الممكن أن يلقى الكثيرون حتفهم إذا فشلت خطتنا".

اسمح للكاتب بأن يضع بعض أوراقه فى نهاية الكتاب، فربما تكون أرائى بشأن التمويه والخداع والدعاية قد تغيرت عما كانت عليه عندما كُتب كتاب "عباقرة تشرشل" - (Churchill's Wizards)، فالخداع طبعًا ينتشر فى كل مكان، ونحن جميعًا نمارسه إلى حد ما، إن من يغضب من فكرة الكذب الأبيض الذى تتطلبه الكياسة هم صغار القوم: فالخداع موجود فى الطبيعة وفى الفن الراقى كذلك. لقد أحببت أداء الممثلين طوال حياتى، مع أننا نعلم كمشاهدين أنهم ليسوا حقيقيين، لكننا نغفل عدم تصديقنا طواعية، وبالمثل يختلف خداع الحرب عن خداع الحياة المدنية، فالحرب حالة استثنائية تغير القواعد الطبيعية، فجريمة مثل القتل ربما تصبح أمرًا واجبًا؛ التضليل أو الخداع فى الحياة العادية شىء خاطئ؛ لأنه يفسد الثقة التى هى الرابط الأساسى فى العلاقات الإنسانية، لكن خداع عدوك فى وقت الحرب شىء عادى؛ فإذا كانت الحرب قد أجازت الخداع، فذلك لأن الحيل تضاعف فرصك فى النصر عدة مرات.

فما من مرة أخبر فيها أحدًا بأننى أؤلف كتابًا عن الخداع العسكرى البريطانى، إلا وكان رده: "هذا شىء ممتع"، فنحن نستمتع بالخداع لأننا نعلم أننا جميعا نستخدمه عندما نضطر إليه ونشعر بشىء من التناقض بشأنه، فالمحارب/المخادع الأول فى الأدب الغربى، ملحمة أوديسا، مبتكر مناورة الحصان الخشبى فى طروى هو من فكر ودبر واحتال حتى يرجع ليحمى زوجته وطفله، إننا ندرك أن الإنسان فى صراعه للبقاء، فإن الغاية تبرر الوسيلة.

لكن فى الحياة العادية علينا أن نتحلى دائمًا بالأخلاق الكريمة، فليست كل غاية تبرر كل وسيلة، وقد تصادف أن تم نشر كتابى الأخير "برقية من جويرنيكا" - (Telegram from Guernica) بعد ثلاثة أسابيع من هجمات "الصدمة والرعب" على بغداد فى مارس ٢٠٠٣، التى ارتكزت الحرب فيها على أساس ادعاءات من الحكومة البريطانية أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وكان يعد لاستخدامها ضدنا؛

ومنذ ذلك الحين وخلال السنوات التى قضيتها فى تأليف كتاب "عباقرة تشرشل" بدت كلمة "خداع" كشىء معلق فى الهواء، لا يفارقنى، مثل الرائحة الكريهة.

هناك فرق بين خداع القرن الحادى والعشرين وبين خداع الحربين العالميتين، الأولى والثانية، الذى تقرأ عنه، فما توقعه سى آى مونتيجو فى روايته "التحرر من الوهم" - (Disenchantment) بات صحيحًا، لكن فى هذه المرة كان الخداع موجهًا إلى شعبنا الذى كان على شفا حرب غير شرعية، وليس ضد عدو مستبد، علاوة على أن ذلك الخداع لم يؤمن به الناس لفترة طويلة.

فعندما يقول قائد ما إن جمال عبد الناصر أو صدام حسين أو أى قائد آخر هو هتلر جديد، فهذا لا يصنع من ذلك القائد تشرشل آخر، فليست الحروب التى سيخوضها فى منزلة الحرب العالمية الثانية؛ فالشعارات لا تصنع حقائق، ولم تعد الولايات المتحدة هى "حليفتنا القديمة" كما صرح السياسيون البريطانيون عام ٢٠٠٨ بأن البرتغال هى حليفة لنا، ولم يعد التحالف الأنجلو أمريكى كما كان منذ ستة عقود مضت، لقد فقدنا سمو الأخلاق الذى عرفناه فى الحرب العالمية الثانية، وكانت حرب العراق التى أُنفق فيها قرابة ٣ ترليونات دولار بمثابة كارثة دعائية الـ "النخبة السياسية".

فلم يقل ونستون تشرشل أبدا أن "الكلام أفضل من الحرب"، بل إنه كان إذا سكر يقول: "...لا للحرب"، كان تشرشل أيضًا برلمانيًا عظيمًا فى مناقشاته، فقد أبلغ مجلس العموم الذى كان يحبه من خالص قلبه فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٤: "لا تخافوا أبدًا من الديمقراطية الإنجليزية، بل ثقوا بالشعب"، ذلك الشعب الذى أخرجه من منصبه بعدها بثمانية أشهر، وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء ونستون تشرشل كان يحور الحقيقة أحيانًا عندما كان يخاطب الأمة، فإن ما حققه هو وعباقرته بخداعهم لقوات دول المحور أمر مبرر تمامًا. سيحكم التاريخ على جيلنا.

الهـــوامـــش

نشر كتاب "فى الحرب" - (Vom Kriege) للكاتب كارل فون كلاوسفيتز للمرة الأولى عام (١٨٣٢)، ثم ترجمه ونقحه كل من الكاتبين مايكل هاوارد وبيتر باريت عام (١٩٧٦)؛ ونشر كتاب " ليفياثان" (Leviathan) للكاتب توماس هوبز عام (١٦٥١)؛ وهناك اقتباسات من يوميات آلان لاسلى المسماة "نهاية حقبة" the end) Of An Era 1986) التى نشرت عام (١٩٨٦)، ومن مذكرات ريموند سايتز التى هى تحت عنوان "هنا" (Over Here) والمنشورة عام (١٩٩٨)، وكتاب "تغيير المسارح: رؤية المسرح البريطانى فى القرن العشرين" (Changing Stages: a View of British Theatre in the 20th Century) - (٢٠٠٠) من تأليف ريتشارد أير، ورواية جوفرى هاوسهولد "مراقب فى الظلال" (Watcher In The Shadows (١٩٦٠)، وقصة جورج لويس بورخيس "تولون وأوكبارو وأوربيس تيرتيوس" (Tlön, Uqbar, Orbis Tertius (١٩٤١)، وكتاب "فنون القتال" (The Art of War) الذى ترجمه ليونيل جيلز عام ١٩١٠. أما الحديث النبوى الشريف فهو مقتبس من الموسوعة الإسلامية بالمكتبة البريطانية، وهو موجود فى صحيح البخارى المجلد الرابع الكتاب الثانى والخمسين أرقام ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩. كتاب ويليام ويدين روو (١٩٧١) والمأخوذ من كتاب "عالم نابوكوف المضلل" - (Deceptive World Nabokov's) ومن السيرته الذاتية لفلاديمير نابكوف المسماة "الحديث والذاكرة" - (Speak, Memory) (١٩٦٦)؛ وهو يحتوى على الكثير من الأوصاف التى تأتى فى صياغة شعرية وصف رائع للمحاكاة باتيسيان ويؤكد ملاحظات الكاتب فى روايته (Eugene Onegin) - (١٩٦٤): "الفن هو الخداع السحرى، فكل الطبيعة سحر وخداع". المؤرخان البريطانيان اللذان لاحظا التباين بين حجم بريطانيا وموقفها هما ليندا كول وديفيد كانادين، انظر كتابيهما على الترتيب "الأسرى: بريطانيا والإمبراطورية والعالم ١٦٠٠-١٨٥٢" - (Captives: Britain, Empire and the World 1600-1850 عام (٢٠٠٢) و"الأبهة: كيف كان ينظر البريطانيون إلى إمبراطوريتهم" (Ornamentalism: how the British saw their Empire) - (٢٠٠١). من بين الأعمال المتعلقة بتشرشل "تعتبر السيرة التى كتبها مارتن جلبرت مهمة ولا يمكن الاستغناء عنها: كتاب "تشرشل: حياة" - (Churchill: a life) وهو متوافر، وكتاب فيولت بونهام كارتر "ونستون تشرشل كما عرفته" - (Winston Churchill As I knew Him (١٩٦٥)، وهو كتاب يتسم بالحكمة، وكتاب و"هم يتحدثون عن أنفسهم: الخطابات الشخصية بين ونستون تشرشل وكليمنتين تشرشل" (Speaking for Themselves: the personal letters of Winston and Clementine Churchill) عام (١٩٩٨)، تحرير ابنتهما مارى سومس. وهو كتاب رائع. أما عن أحداث حفل شاى والتى رواها ونستون تشرشل والذى كانت فى مقر الحكومة البريطانية؛ فهى مأخوذة من كتاب "أزمة عالمية" (The World crisis)،

كما أخذ منه تاريخه الضخم خلال الحرب العالمية الأولى من ١٩١١ إلى ١٩٢٢، ونشر هذا الكتاب في خمسة مجلدات من عام ١٩٢٣ حتى ١٩٣٢؛ وفيه نشرت الوثائق الأكثر سرية مثل: "الأسطول الوهمي" والمذكور في الملحق E من المجلد الأول. هناك صورة للسفينة إس إس ميريون قبل وبعد تحويلها إلى سفينة حربية وهمية في صفحتي ١٦٨ و١٦٩ من كتاب "كتاب متحف الحرب الإمبراطوري، الحرب العالمية الأولى" (The Imperial war Museum Book of the First World War) الصادر عام (١٩٩١) للمؤلف مالكوم براون.

(١) حرب الأعصاب

كتب السير فيليب جيبس التى استعنت بها هى: "روح الحرب" - (The soul of the war) الصادر عام (١٩١٥)، و"حقائق الحرب" - (Realities of war) الصادر عام (١٩٢٠)، و"مغامرة الحياة" - (Life's Adventure) الصادر عام (١٩٥٧)، و"رسائل الحرب" - (The War Dispatches) الذى حرره وقدم له ابنه أنتونى عام (١٩٦٦). رفع جيبس تقارير الجبهة الغربية لقراء جريدتى ديلى كرونيكل وديلى تليجراف لفترة أطول من أى شخص أخر. يُعد كتاب جون بوشان المكون من أربعة وعشرين مجلدا والمسمى "تاريخ نيلسون الحربى" - (Nelson's History of the War) علامة بارزة فى التأريخ للأحداث المعاصرة، فقد ألفه بدافع الوطنية والدعاية ولم يكن أبداً من الحماقة بل من الفطنة فى العمل، أن يقوم بترتيب المعلومات الوثائقية، وتظهر الصبغة العاطفية التى تميز بها بوشان صاحب العقلية المتحفظة فى كتاب "مجد الملك، ١٩١٠-١٩٣٥" (King's Grace, 1910-1935) الذى اقتبست منه بعض اللمسات الشخصية، واقتبست ملاحظة البارون ماكس أيتكن من سيرة بيفربروك الذاتية الرائعة المسماة "حياة بيفربروك" - (Beaverbrook: a life) الصادرة عام (١٩٩٢) من تأليف كل من أن شيشلوم و ميشيل ديفى. جاءت تغطية أحداث بروكسل عن طريق ريتشارد هاردينج دافوس فى كتابه "كنز التقارير الرائعة" - (The treasury of Great Reporting)، تحرير كل من سيندر وموريس، (فى الطبعة الثانية الصادرة عام ١٩٦٢)، كما يغطى كتاب ريتشارد هاردينج دافوس "ملاحظات مراسل حرب" - (Notes of a war correspondent) الصادر عام (١٩١٠) أحداث خمسة حروب فى أربع قارات وبه مقال رائع حول المعدات المهمة التى ساعدت ويليام بوت فى الإسماعيلية.

يرتبط كتاب ونستون تشرشل "قصة تجسسى" - (My Spy Story) بمجموعة رواياته الصحفية (أفكار ومغامرات) - (Thoughts and Adventures) الصادرة عام (١٩٣٢) والتى تكشف النقاب عن طبيعة هذا الرجل، وقد أوردها فى كتاب "حياتى المبكرة" - (My Early life) الصادر عام ١٩٣٠.

أما تفاصيل قطع الاتصال السلكى؛ فقد أخذتها من كتاب "الخيط الأحمر الرفيع" - (The Thin Red Line) الصادر عام (١٩٩٤) الذى كتبه تشارلز جرافيس، وكتاب "نبلاء فى المجلس الملكى" - (Gentlemen on Imperial Board) من تأليف أر بروس سكوت، وسجل الاتصال السلكى واللا سلكى، ومجلس الكابلات عبر المحيط الهادى، جاء اقتباس جون كيجان من صفحة ١٦٢ من كتابه "الاستخبارات أثناء الحرب" - (Intelligence in war) الصادر عام ٢٠٠٢.

أخذت اقتباسات فيالق الطيران الملكى من المجلد الثانى من كتاب "الحرب الجوية: دور سلاح الجو الملكى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى: ١٩٢٢-١٩٣٧" - (War in the Air: being the story of the part played in the Great War by the Royal Air Force1922-1937)، تأليف كل من والتر ريليه وإتش إيه جونز. وقد قام متحف أسطول السلاح الجوى بنشر "ورنريفورد فى سى" - (Warneford, VC) عام ١٩٧٩ من تأليف مارى جبسون.

(٢) طبيعة التمويه

دراسة إيريك بارتريدج التى تدور حول أصل كلمة تمويه (camouflage) وردت تحت عنوان صناعة الكلمات فى الحرب من كتاب "مصطلحات الحرب ومصطلحات السلام" - (Words at War: Words at Peace) الصادر عام (١٩٤٨)، أما قصص جيرترود ستاين؛ فقد أخذت من سيرة أليس بى توكلاس الذاتية الصادرة (١٩٣٣) والتى استشهد بها روى أر بهرن فى كتابه "الألوان المزيفة: الفن والتصميم والتمويه الحديث" (False Colors: art, design and modern camouflage)، ويعد كتاب "التمويه: تاريخ التخفى والخداع فى الحرب"- (Camouflage: a history of concealment and deception in war) الصادر عام ١٩٧٩، وهو من تأليف جاى هارتكيب من الكتب القيمة والرائدة فى هذا المجال. لمزيد من الإيضاح انظر كتاب "مادة النموذج المدمر: موسوعة التمويه فى الطبيعة والحرب والثقافة" (DPM: Disruptive Pattern Material: an encyclopedia of camouflage in nature, warfare and culture) لعام (٢٠٠٤) من تأليف كل من هاردى بليشمان وأندى نيومان.

اقتبست الكثير من التفاصيل حول أول خبير تمويه بريطانى من كتاب أولجا سوميش فيليبس "سولومون جوزيف سولومون: مذكرات السلام والحرب"- (Soloman J. Soloman: a memoir of peace and war) الصادر عام (١٩٣٣)، (ومن مؤلفاتها أيضًا "الشاب دزرائيلى" (The Boy Disraeli)؛ وهى دراسة دقيقة لحياة أول رئيس وزراء بريطانى يهودى)، وقد حرر إدوارد بولتون "سجل الفنون المتحدة - (A Record Of The United Arts Rifles 1914-1919) عام (١٩٢٠).

لمعرفة المزيد حول تغير زى الجيش البريطانى؛ انظر كتاب "الجيش البريطانى فى الحملة الرابعة: ١٨٨٤-١٩٠٢" - (The British Army on Campaign 4: 1882-1902) تأليف كل من ميشيل بارثورب وبير تيرنر.

(٣) وجهة نظر هندسية متخصصة

ساعدنى فرانك لينش عبر الإنترنت فى الوصول إلى تعليق الدكتور جونسون فى مجلة أيدلر العدد ٣٠ فى ١١ نوفمبر ١٧٥٨، أما المصدر الثمين الذى اعتمدت عليه هذا الفصل فهو الكتاب الرائع "الدعاية البريطانية والدولة خلال الحرب العالمية الأولى"-(British Propaganda and the State in the First World War) الصادر عام (١٩٩٢) تأليف جارى إس مسينجر.

للمزيد من المعلومات حول عمليات الاستخبارات العسكرية خلف خطوط العدو فى الحرب العالمية الأولى انظر كتاب "أسرار رو إس تى روك"- (The Secret of Rue St Roch) الصادر عام (٢٠٠٤) من تأليف جانيت مورجان، وكتاب "تاريخ الخدمة السرية: صناعة مجتمع المخابرات البريطانى" – (Superb History Secret Service: the making of the British Intelligence community) من تأليف كريستوفر أندرو، والصادر عام (١٩٨٥).

وللمزيد من المعلومات حول السفينة لوسيتانيا يمكنك تصفح الموقع: www.lusitania.net، كما وجدت بين العديد من الكتب كتابًا رائعًا لديانا بريستون بعنوان "جريمة قتل متعمد: إغراق لوسيتانيا" – (Willful Murder: the sinking of the Lusitania) (2002) (٢٠٠٢). نشرت سيرة أوليفر بيرسى برنارد الذاتية الرائعة "كوك سبارو: تاريخ الأحداث الحقيقية"– (Cock Sparrow: a true chronicle) عام (١٩٣٦) قبل وفاته بثلاث سنوات، وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح برنارد مصمم ديكور فى ليونز كورنر هاوس وفى كمبرلاند وريجنت وفنادق ستراند بالاس هوتلز، كان برنارد أبًا لثلاثة أبناء، هم الشاعر والمترجم أوليفر برنارد (ولد عام ١٩٢٥)، والمصور ومحرر الصور بروس برنارد (ولد عام ١٩٢٨) وكاتب الأعمدة جوفرى برنارد صاحب العمود الأسطورى "Low Life" فى سبيكتاتور (ولد عام ١٩٣٢). تفوقت السيرة الرائعة التى كتبها ديفيد رامسى بعنوان "بلينكر هول: كبير الجواسيس"- (Blinker' Hall: Spymaster) وصدرت عام (٢٠٠٨) على السيرة التى كتبها الأميرال السير ويليام جيمس لنفس الشخص بعنوان "عيون البحرية: دراسة تصويرية للأميرال البحرى السير ريجينالد هول" – (The Eyes of the Navy: a biographical study of Admiral Sir Reginald Hall) عام (١٩٥٥). وكتبت المؤلفة مارجريت فيتزاهربت سيرة ذاتية الرائعة لجدها أوبرى هربرت "الرجل الذى كان جرينمينتال"- (The Man Who Was Greenmantle) والتى نشرت فى صورة كتاب جيب عام (١٩٨٥).

(٤) عمليات التخفى والقناصة

نجد فى سيرة جون كونيل والمسماة "ويفل: العالم والجندى" – (Wavell: scholar and soldier) الصادرة عام (١٩٦٤) مصدراً لمادة أرشيبالد ويفل حتى يونيو ١٩٤١، وقد أخذت تفاصيل هيسكث فيرنون هيسكث بريتشارد من كتاب "هيسكس بريتشارد دى إس أو، إم سى، القناص والمستكشف وعالم الطبيعة ولاعب الكريكيت والمؤلف والجندى وكاتب الذكريات" (Hesketh Prichard D.S,O., M.C., Hunter: explorer: naturalist: cricketer: author: soldier, a memoir) تأليف إريك باركـر (١٩٢٤)؛ وأنا مدين لأمين مكتبة نادى ماريليبون للكريكت فى لوردز لإتاحته تفاصيل عن حياة هيسكث كلاعب كريكت. ويقول إتش إم توملينسون فى كتابه "أيامنا الماضية" – (All Our Yesterdays) الذى نشرته دار نشر هينيمان عام ١٩٣٠: "تصفحت كتب أدرين جلبرت وبيتر بروكسميث وأندى دوجان التى تتحدث عن القنص، وكتاب مارتين بيجلار "خارج الحدود" – (Out of Nowhere) الذى يتحدث عن تاريخ القناص العسكرى والمنشور عام (٢٠٠٤)، كما اقتبست من أوبرى هربرت فى كتابه "مونس وأنزاك وكوت" (Mons, Anzac and Kut) (١٩١٩).

(٥) شراك مضيق الدردنيل

نشر كتاب جون يوليوس نورويتش "يوميات دوف كوبر ١٩١٥-١٩٥١" - (The Duff Cooper Diaries 1915-1951) عام (٢٠٠٥). تتحدث رواية إرنست رايموند "أخبر إنجلترا (Tell England)، وهى من أكثر الروايات مبيعًا عن تلاميذ المدارس العامة الذاهبون للحرب. يظهر اقتباس روجر كيز فى الصفحة رقم ٣٦٣ وهو مأخوذ من رواية آلان مورهيد "جاليبولى" - (Gallipoli).

نشرت رواية "جاليبولى" - (Gallipoli) عام ١٩١٦ للمؤلف جون ماسفيلد ثم "حملة مضيق الدردنيل" - (The Dardanelles Campaign) لمؤلفها هينرى دبليو نسفينسون بالنسخ اليونانية، تقديم السير إيان هاملتون عام (١٩١٨)، ثم ظهر بعد ذلك كتاب "مذكرات جاليبولى" - (Gallipoli Memories) لمؤلفها كومتون ماكنزى عام ١٩٢٩؛ أى بعد عقد كامل من سابقتها. من بين الذين حضروا مراسم دفن روبرت بروك فى سكايروز اثنان من الكتاب الموهوبين الذين لم يقدر لهم الحياة حتى يثبتوا مواهبهم، وهما الأسترالى إف إس كيلى (الذى قتل مثل جورج بوترماوث فى معركة السوم عام ١٩١٦) والذى كتب قصة "رثاء: تخليد ذكرى روبرت بروك" - (Elegy for Strings: 'In Memoriam Rupert Brook') فى مستشفى فى الإسكندرية فى يناير ١٩١٥، ثم فى الشهر ذاته قتل صديقه الموسيقار دبليو دنس براون فى بابى أكا. قد جاء وصف عملية إنزال كتيبة لانكشاير فى المجلد الأول من كتاب "تاريخ جنود لانكشاير ١٩١٤-١٩١٨" - (The History of the Lancashire Fusiliers1914-1918) وكتاب "أساس الجحيم: المدينة وأساطيرها وجاليبولى" (Hell's Foundation: a town, its myths and Gallipoli) عام ١٩٩٢ من تأليف جوفرى مورهاوس. وكتب ألبرت بارنت فيسى ١٨٩٤-١٩٨٢ كتابًا واحدًا نشر قبل موته بأحد عشر شهرًا تحت عنوان "حياة سعيدة" - (A Fortunate Life) الذى حقق مبيعات عالية ويستحق أن يكون من الأدب الأسترالى الأصيل سواء كان من فئة السيرة الذاتية أو الرواية.

اقتبس نايجل ستيل وبيتر هارت قصة البطل الأسترالى هنرى برانس من الصفحة ١٧٥ من كتاب "هزيمة جاليبولى" - (Defeat in Gallipoli) عام ١٩٩٤. وتعد رواية "المعركة السرية" - (The Secret Battle) الصادرة عام (١٩١٩) واحدة من أبرز الروايات التى تتناول الحرب العالمية الأولى لمؤلفها إيه بى هربرت والتى تقدم حوارًا لفيلم أنتونى أسكويتس غير الناجح "أخبر إنجلترا" - (Tell England) ١٩٣١؛ والمعروفة أيضا باسم "معركة جاليبولى" - (The Battle of Gallipoli).

أعيد طباعة رواية "الرسم للتسلية" - (Painting as a Pastime) فى ذكراها الخمسين لتكون بين قائمة المعروضات فى عرض سوثيبى من تنظيم ديفيد كومبس عام ١٩٩٨؛ وكانت بعنوان "حياة ونستون تشرشل الرسام". ونشرت سيرة نورمان ويلينكسون الذاتية "فرشاة تنبض بالحياة" - (A Brush with Life) عام (١٩٦٩)

وفى ٢٠٠٧ أعيد طباعة كتبات جون ماسفيلد التى تدور حول الحرب العالمية الأولى بما فيها "جاليبولى"- (Gallipoli) وأرائه حول كتاب نسفينسون وفى "جماهير جاكا" (Jacka's Mob) فى المقتطفات الأدبية الرائعة "الحرب العالمية الأولى لجون ماسفيلد" (John Masefield's Great War) من تحرير فيليب دبليو إرينجتون. لمعرفة المزيد حول نسفينسون انظر كتاب "الحرب والصحافة وتشكيل القرن العشرين"- (War, Journalism and the Shaping of the Twentieth Century) الصادر عام (٢٠٠٦) للكاتبة أنجيلا فى جون وانظر رواية "الغرفة رقم ٤٠: المخابرات البحرية البريطانية ١٩١٤-١٩١٨"- (Room 40:British Naval Intelligence 1914-1918) للكاتب باتريك بيسلى والتى نشرت فى عام ١٩٨٢.

(٦) أشجار الصفصاف الفولاذية

اقتبست تفاصيل مالكوم وينجيت إضافة إلى معلومات جمة حول التمويه الأولى من مكتبة سلاح المهندسين الملكى المتعة فى تشاثام. وتوجد مقارنة فيليب شيتود بين فرينش وهايج فى كتاب (The Little Field Marshal: a life of Sir John French) الصادر عام ١٩٨١ من تأليف ريتشارد هولمز. وكتاب "كيتشنر: حياة الرجل الأسطورة"- (Kitchener: the man behind the legend) من تأليف فيليب وارنر ونشر عام ١٩٨٥.

مراسلة سولومون جوزيف سولومون حول حصوله على لحاء شجرة من الملك جورج الخامس بالأرشيف الملكى فى وندسور كاسل.

تعلمت الكثير حول تطوير الخوذات الفولاذية من تيموثى بروس فى أرشيف الصراع الحديث فى لندن. وفى هذا الصدد يتحدث الكاتب جورج كوبارت فى رواية "مدفع رشاش إلى كمبريا: قصة الجندى الشاب فى جيش كيتشنر ١٩١٤-١٩١٨"- (With a Machine Gun to Cambrai: the tale of a young Tommy in Kitchener's army 1914-1918) التى نشرت عام ١٩٦٩.

اقتبست بعض تفاصيل شهود العيان على أيام تشرشل فى الخنادق من كتاب "ونستون تشرشل: حياته العسكرية ١٨٩٥ إلى ١٩٤٥"- (Winston Churchill: His Military life 1895-1945) الذى نشر عام ٢٠٠٥ للكاتب ميشيل باترسون، ولمعرفة المزيد عن الدبابات الأولى انظر كتاب ليدل هارت "الدبابات: تاريخ فيلق الدبابات الملكى"- (The Tanks: the history of the Royal Tank Regiment and its predecessors) عام ١٩٥٩، وكتاب باتريك رايت "الدبابة: نجاح آلة الحرب الوحشية" (Tank: the Progress of a monstrous war machine) - التى نشرت عام (٢٠٠٠)، وانظر كتاب ديفيد فليتشر وتونى بريان "الدبابة البريطانية ماركة ١، ١٩١٦"- (British Mark 1 Tank 1916) التى نشرت عام (٢٠٠٤)، وروائعة كريستى كامبل "فرقة قطاع الطرق: رجال الدبابات الأوائل" (Band of Brigands: the first men in tanks) التى نشرت عام ٢٠٠٧.

(٧) الدهاء وحرب العصابات

أخذت صور الحيوانات والشاحنات المستخدمة فى الحرب من معرض الحيوانات بالمتحف الحربى الملكى وكتاب "إحصائيات الجهود العسكرية للإمبراطورية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩٢٠"- (Statistics of the Military Efforts of the British Empire during the Great War 1914-1918)، والذى نشرته وزارة الحربية البريطانية عام ١٩٢٢. أما عن استخدام الخيول فى الحرب فلم تغفله الرواية البريطانية المعروفة لميشيل موربيرجو "جواد الحرب"- (War Horse)، (١٩٨٢) بالإضافة إلى الكتاب الرائع بعنوان "خيولنا فى مصر"- (Our Horses In Egypt) للمؤلف روزاليند بيلبن عام (٢٠٠٧).

حصلت على كتاب يشوع تيتلبورم "صعـود وهبوط المملكـة الهـاشمية فى الجـزيرة العـربية" - (The Rise and Fall of the Hashimite Kingdom of Arabia) هيرست، ٢٠٠١) والذى يعد دليلاً مهمًا لموضوع معقد، وكذلك كتاب "سلام ينهى كل سلام: سقوط الإمبراطورية العثمانية وبداية الشرق الأوسط الحديث"- (A Peace to End All Peace: the fall of the Ottoman Empire and the creation of the modern Middle East) الذى نشر عام ١٩٨٩ لمؤلفه ديفيد فرومكين وكتاب "هبوب الريح: بذور الشقاق فى الشرق الأوسط"- (Sowing the Wind: the seeds of conflict in the Middle East) الذى نُشر عام ٢٠٠٣ لمؤلفه جون كيى. وأما التفاصيل الخاصة بابن سعود، فقد اقتبست من كتاب "أمير شبه الجزيرة العربية" (Lord of Arabia)- (بينجوين، ١٩٣٨) تأليف إيتش سى أرمسترونج، وكتاب "المملكة"- (The Kingdom) المنشور عام (١٩٨١) لمؤلفه روبرت لاسى. كما يعد كتاب "استشراقات"- (Orientations) لمؤلفه السير رونالد ستورز والذى صدر عام (١٩٣٩) مثل نافذة على عالم الدبلوماسية الملكية المتلاشى، كما هى الحال فى السيرة الذاتية "بلاد الشرق الساطعة"- (Bright Levant) لمؤلفه لورنس جرافتى سميث عام ١٩٧٠.

تعتبر المؤلفات التى صدرت حول تى إى لورنس، ضخمة جداً وهى تزداد من حين لآخر لذا اعتمدت بصورة أساسية على السيرة الذاتية التى ألفها جيرمى ولسون، ورواية "لورنس العرب"- (Lawrence of Arabia)، إضافة إلى كتب مالكوم براون الثلاثة: "لمسة عبقرى" - (A Touch of Genius) من تأليف جوليا كيف عام (١٩٨٨)، و"لورنس العرب: الحياة والأسطورة"- (Lawrence of Arabia: the life, the legend) عام (٢٠٠٥) و"تى إى لورنس فى الحرب والسلام: مختارات أدبية من الكتابات العسكرية للورنس العرب"- (T.E. Lawrence in War and Peace: an anthology of the military writings of Lawrence of Arabia) عام (٢٠٠٥)، ويتضمن الكتاب"٢٧ مقالاً". قمت بجمع تفاصيل شيقة من "أخبار مجتمع تى إى لورنس"- (The Journal of the T,E. Lawrence Society). أمـا قصـة "المتعصبين الهـندوستانيين"

فهى من كتاب "إرهابيون باسم الرب: العقيدة الوهابية والجذور الخفية للجهاد الحديث" - :God's Terrorists) the Wahhabi cult and the hidden roots of modern Jihad) الذى نشــر عــام (٢٠٠٦) للكاتب تشارلز ألين، وكتاب "القيادة العربية: سيرة المقدم بك باشا قائد مجموعة العمليات" Arab Command: the) biography of Lieutenant-Colonel Peake Pasha CMG، CBE) عـام (١٩٤٢) لمؤلفـه الرائد سى إس جارفيز. أما الرقم ظهر ١١ مليون جنيه إسترلينى المذكور فى الهامش ١ فى صفحة ١٦٠؛ فهو مأخوذ من كتاب ستورز "استشراقات" - (Orientations) قام روبرت إروين مؤلف كتاب الدفاع عن المستشرقين "حب المعرفة" - (For Lust of Knowing) بمراجعة النص الكامل لإصدار أكسفورد (١٩٢٢) من كتاب "أعمدة الحكمـــة الســبع فى ملحق تايمــز الأدبى" - Seven Pillars of Wisdom in the Times Literary) Supplement) الذى صدر فى ٢ أبريل ٢٠٠٤. كما يشتمل كتاب "جمعية الاستشراق" - Oriental) Assembly) عام ١٩٣٩ تحرير إيه دبليو لورنس على "تطور التمرد" - (The Evolution Of Revolt)؛ كما يشتمل أيضًا على العديد من صور تى إى لورنس. انظر "أكسينوفون وفن القيادة" - Xenobhon and the) Art of Command) الصادر عام (٢٠٠٠) لمؤلفه جيفرى هاتشنسون لمعرفة المزيد حول الخطط اليونانية التى استخدموها فى الحرب للخروج من بلاد فارس.

(٨) وعد أرض الميعاد

تبدو مواقف ديفيد لويد جورج تجاه الشرق الأوسط جلية فى كتاب "التوراة والسيف: كيف جاء الإنجليز إلى فلسطين"- (Bible and Sword: How the British came to Palestine) لمؤلفته باربرا دبليو توشمان (١٩٥٦)، وكتاب "الرب والسلاح وإسـرائيل: بريطانيا والحرب العالمية الأولى واليهود فى المدينة المقدسة"- (God, Guns and Israel: Britain, the First World War and the Jews in the Holy City) الصادر عام ٢٠٠٤ لمؤلفته جيل هاميلتون.

توجد المجلدات الستة والسبعون التى تحكى يوميات ريتشارد ماينرتزيهاجين فى مكتبة رودس هاوس بأكسفورد، حيث يحتوى المجلد الثانى والأربعون على فهرس مصور لمجموعة الطيور الخاصة به فى قسم (التاريخ الطبيعى) والموجودة بالمتحف البريطانى الذى يقع فى منطقة ترينج.

أخذت صورة حصان طروادة من كتاب جون مارلو "تمرد فى فلسطين"- (Rebellion in Palestine) (١٩٤٦). وتم اقتباس الإشعار دى الخاص بوعد بلفور فى "الحملة الصليبية الأخيرة، الدعاية البريطانية وحملتها العسكرية على فلسطين بين عامى ١٩١٧-١٩١٨" من مقال إيتان بار يوسف، المنشور فى العدد رقم ١ من المجلد ٣٦ من جورنال كونتيمورارى هيستورى (يناير ٢٠٠١).

وفى مذكراته التى نشرها عام ١٩٥٩ بعنوان "بعيداً عن الأضواء"- (Not in the Limelight)، قام السير رونالد وينجيت الابن الأكبر للسردار السير ريجينالد وينجيت بتوجيه اللوم إلى "الحماس الأهوج" الذى أبداه توماس إدوارد لورنس، و"الرومانسية المفرطة" التى أظهرتها جيرترود بيل بسبب "استمرار الوضع السياسى غير المستقر فى العراق"، والذى ازداد سوءاً مؤخراً بسبب الأهمية المتزايدة للنفط. لقد قامت قوات برية بتعقب الملا محمد بن عبد الله حسن "الذى أسس ما يعرف بدولة أرض الصومال" وألحقت الهزيمة به وفق "مذكرات اللورد اسماى"- (Memoirs of Lord Ismay) عام ١٩٦٠، والذى كان يعمل ملازماً ضمن فيلق الهجانة فى سلاح الفرسان فى الصومال. شاهد اسماى جميع قنابل الطائرات وهى تخطئ أهدافها، ولكنه اعترف بقيام سلاح الجو الملكى البريطانى "بعملية مباغتة" رائعة سياسياً فى لندن والتى حافظت عليهم كقوات جوية مستقلة. ترتكز رواية "حارس تشرشل الخاص"- (Churchill's Bodyguard) التى ألفها توم هيكمان عام ٢٠٠٥ على مذكرات والتر اتش طومسون الذى يعمل فى شرطة العاصمة.

(٩) التمويه بالألوان اللامعة

نشر جيه لي طومسون كتابه "السياسة والصحافة والدعاية: لورد نورثكليف خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٩"- Politics, Press and Propaganda: Lord Northcliffe in the Great War 1914-1919) عام (١٩٩٩)، كما نشر سيرة ذاتية رائعة لنورثكليف بعنوان "نورثكليف: قطب الصحافة السياسية ١٨٦٥-١٩٢٢"- (Northcliffe: press baron in politics 1865-1922) عام (٢٠٠٠)، وظل كتاب باربرا توشمان "برقية التجار"- (The Zimmermann Telegram) الذي نشر في عام (١٩٥٩) دراسة تاريخية نموذجية. تم الاعتماد على هذا المصدر في معرفة عدد مشغلي اتصالات بي أو ٤٠ اللا سلكية والموظفين، وكذلك عدد الشبكات الألمانية التي كانوا يتعاملون معها فهي مأخوذة من صفحة ٢٧٨ من رواية "مخترقو الشفرة: قصة الكتابة السرية"- (The Codebreakers: the story of secret writing) لديفيد كان عام (١٩٦٨).

برز اسم نورمان يلينكسون بمعرض "التمويه" المتنقل لمؤسسة الفنون الاسكتلندية في عام ١٩٨٨، بالإضافة إلى معرض التمويه الذي نظمه جيمس تايلور بالمتحف الإمبراطوري الحربي في ٢٠٠٧، كما برز إدوارد وإدزورث في عرض الذي أقيم في صالة هايوارد عام ١٩٧٤ "الحركة الدوامية ومناصريها" الذي نظمه ريتشارد كورك، مؤلف رواية: "الحقيقة المرة: الفن الرائد والحرب العالمية الأولى"- (A Bitter Truth: avant-grade art and the Great War) التي نشرت عام (١٩٩٤).

نشرت رواية "الحرب المجهولة"- (La Guerre Inconnue)، وهي طبعة خاصة من رواية "مدفع الهاون"- (le Crapouillot) في أغسطس عام ١٩٣٠؛ لتبرز ملامح واسعة النطاق من عمليات التمويه التي جرت في باريس.

أما الفهرس المصور الخاص بالاستعراض الذي جرى في عام ١٩٩٨ والذي نظمته نيكول زاباتا - أوبي بمتحف برناي بفرنسا و"أندريه ماري بعنوان "الفن التكعيبي وعمليات التمويه ١٩١٤-١٩١٨"- (Cubisme et Camouflage 1914-1918)؛ فهو مفصل تمامًا، أما كتاب "الحرب التي يعرفها جنود المشاة بين عامي ١٩١٤-١٩١٩"- (The War the Infantry Knew 1914-1919)، فهو تأريخ لخدمة النقيب جيمس تشرشل دان بكتيبة رويال ولش فوسيلرز، وقد نشر للمرة الأولى عام ١٩٣٨.

(١٠) الكذب على لويد جورج

أخذت مقولة "الصور الباسمة..." من كتاب إس جيه تايلور بعنوان "المنشق الكبير: نورثكليف وروثيرمير وديلي ميل"- ('The Great Outsider: Northcliffe, Rothermere and the 'Daily Mail) الصادر عام (١٩٩٦)، وتم الاستشهاد بها في مقال كتبه دي جورج بويس في قاموس أكسفورد للسير الذاتية الوطنية الخاصة بألفريد هارمسورث، كما أُخذ اقتباس أرنولد بينيت من روايته المهمة "اللورد رينجو"- (Lord Raingo) التي تعتمد على أعمال الدعاية التي قام بها بيفربروك وقت الحرب.

أعيد نشر كتابات جورج برنارد شو حول الحرب العالمية الأولى "ما قلته أثناء الحرب"- (What I Really Said in the War) عام (٢٠٠٦)، وحررها كل من جيه إل وايزنتال ودانيال أوليري. وجاءت آراء شو حول مرافقته للحامية الموجودة في الجبهة في "مذكرات تشارلز إي مونتيجو"- (C.E. Montague: a memoir) التي نُشرت عام (١٩٢٩) والتي كتبها أوليفر إلتون، كما وردت مذكرات فيليب جيبيس في "مغامرة الحياة"- (Life's Adventure) التي كتبها شو ونُشرت عام (١٩٥٧).

اقتبست قصة ستيوارت منزيس من روية "الخادم السري" - (The Secret Servant) الصادرة عام (١٩٨٨) لكاتبها أنتوني كيف براون، ونشرت رواية النقيب فرديناند توهي "الفيالق السرية: قصة المخابرات على كل الجبهات"- (The Secret Corps: a tale of 'Intelligence' on all fronts) في شهر مايو عام (١٩٢٠).

ظهرت مذكرات مايترتزيهاجين، AIR 1/1155، في الباب الخامس من " الجيش البريطاني ومخابرات الإشارات في الحرب العالمية الأولى"- (The British Army and Signals Intelligence in the First World War) الصادر عام (١٩٩٢) تحرير جون فريس. تحكي روايات " أسرار كرو هاوس: قصة الحملة الشهيرة"- (Secrets of Crewe House: the story of a famous campaign) الصادرة عام (١٩٢٠) ورواية "الفرصة تأتي مرة واحدة"- (Opportunity KnocKS Once) للسيد كامبل ستيوارت الصادرة عام (١٩٥٢) قصص الدعاية البريطانية ضد القوى المركزية، أما رواية "الحلقة الداخلية: مذكرات إيفون كيركباتريك"- (The Inner Circle: the memoirs of Ivone Kirpatrick) فنشرت عام ١٩٥٩، أي بعد ثلاثة أعوام من تقاعده من منصب وزير الخارجية وقيامه بالترجمة لكل من هاليفاكس وتشامبرلين في لقاءاتهما مع هتلر، وقيامه باستجواب هس بعد رحلته العجيبة. ونشر كتاب "السلاح الخامس"- (The Fifth Arm) من تأليف ويكهام ستيد عام (١٩٤٠)، كما نشر كتاب جولايان إم ترافليان "مشاهد من حرب إيطاليا"- (Scenes from Italy's War) عام ١٩١٩، زر موقع "www.psywarrior.com" الخاص "بتزوير البريطانيين للأختام والأوراق المالية الخاصة بالقوى المركزية" التي ألفها الرقيب أول المتقاعد هربت إيه فريدمان.

(١١) تضليل المخادعين

نشرت رواية "التمويه الاستراتيجي"- (Strategic Camouflage) لسولومون جوزيف سولومون في مجلد من القطع المتوسط عام ١٩٢٠. يتحدث تشرشل عن أحداث يوم ٢١ مارس ١٩١٨ في الباب ١٧ من المجلد الثالث من "الأزمة العالمية"- (The World Crisis)، كما نُشر كتاب مارتن ميدلبروك "معركة القيصر"- (The Kaiser's Battle) عام (١٩٧٨)- ونشر كتاب "كل رجال القيصر: حياة وموت أفراد الجيش الألماني على الجبهة الغربية ١٩١٤-١٩١٨"- (All The Kaiser's Men: the life and death of the German army on the Western Front 1914-1918) للمؤلف إيان باسينجهام عام (٢٠٠٣) ونشر كتاب مارتن كيتشن "الاعتداءات الألمانية عام ١٩١٨"- (The German Offensives of 1918) في عام (٢٠٠٥). وظهر كتاب إتش إم توملينسون "إله الحرب الأحمق"- (Mars His Idiot) عام (١٩٣٥)، وهو كتاب يمقت للحرب وأهداه المؤلف "للجندي المجهول".

توجد مراسلات سولومون جوزيف سولومون المتعلقة بأفكار التمويه الخاصة به في مكتبة سلاح المهندسين الملكي في تشاتهام. ويمكن مشاهدة فيلم تشارلي شابلن "سلاح الكتف"- (Shoulder Arms) مجانًا عبر الإنترنت.

(١٢) عباقرة الحرب العالمية الثانية

تشتمل الوثائق الكثيرة للعميد دودلى كليرك الموجودة بالمقصورة ٩٩/٢/١-٣ فى متحف الحرب الإمبراطورى على وسام قائد الإمبراطورية البريطانية، رسائل ويوميات ومذكرات غير منشورة بعنوان "ربع قرن عشته"- (A Quarter of My Century).

أما كتاب "مقتطفات من الحرب"- (Pieces of War) الذى ألفه المقدم إيه سى سيموندس؛ فهو موجود أيضًا بمتحف الحرب الإمبراطورى ("كان ذلك الضابط يعمل قرصانًا فى وقت الحرب فقط"). وردت تعليقات ماكس هيستينجز فى استعراض جريدة صنداى تايمز لرواية "ويفيل: الضابط ورجل الدولة"- (wavell: soldier and statesman) التى كتبتها فيكتوريا سكوفيلد. ونشرت رواية برنارد فيرجسون "ويفيل: صورة جندى"- (Wavell: portrait of a soldier) عام (١٩٦١)؛ ويمكن العثور على المزيد من التفاصيل الخاصة بتدريبات وافيل فى الجزء الرابع من كتابه "الجندى الجيد"- (The Good Solider) الصادر عام (١٩٤٨).

نشر دنس سيفتون ديلمر مجلدين من المذكرات، بعنوان "طريق الشر"- (Trail Sinister) عام (١٩٦١) و"الكيد المرتد"- (Black Boomerang) عام (١٩٦٢) وقد قام بإهداء أوراقه هو الآخر إلى متحف الحرب الإمبراطورى. أما الملف الشخصى الذى يحمل رقم (KV/٢/٢٥٨٦) الذى يخص سيفتون ديلمر (ووالده) حسب ما صرحت به خدمة الأمن فمن الممكن تحميله مقابل رسوم بسيطة من الأرشيف الوطنى. طالع الموقع التالى: www.seftondelmer.co.uk.

وفى الفترة التى تلت سطوع وأفول نجم الإمبراطورية الألمانية كانت المجلدات الخمسة الأولى "أرشيفات كيسينج المعاصرة"- (Keesing's Contemporary Archives) مصدرًا قيمًا ويتم الرجوع إليه مرات ومرات.

كتبت فرجينيا كاولز عن أحداث مدريد ١٩٣٧ روايتها "البحث عن المتاعب"- (Looking for Trouble) التى صدرت عام (١٩٤١). وفى مدريد يعد سيفتون ديلمر الشخصية الشهيرة فى رواية "وحده إلى إسبانيا"- (Single to Spain) التى ألفها كيث سكوت واطسون وصدرت عام (١٩٣٧)؛ وقد أصبح سكوت فيما بعد أول صحفى بريطانى يكتب تقريرًا عن قصف جويرنيكا. أما عن أفضل دراسة للمراسلين الأجانب فى إسبانيا؛ فهى تلك التى أعدها بول بريستون بعنوان "المثاليون فى خط النار"- (Idealistas baho las balas) عام ٢٠٠٧، "نرى إسبانيا تحتضر"- (We Saw Spain Die) الصادرة عام ٢٠٠٨ التى أخذت منها مقتطفات كونستانسيا دى لا مورا.

(١٣) رفع الستار

تسرد سيرة حياة كلير هولينجورث "الجبهة الأمامية" - (Front Line) الصادرة عام (١٩٩٩) مغامراتها فى بولندا التى خاضتها عام ١٩٣٩. انظر أيضًا ملف استير آدلى الشخصى فى الجارديان بتاريخ ١٧ يناير ٢٠٠٤. أما حادثة محطة جلايفيتز الإذاعية؛ فقد وردت فى رواية "الرجل الذى بدأ الحرب" - (The Man Who Started The War) والصادرة عام (١٩٦٠) لمؤلفها جونتر بيس، وكذلك فى رواية "القوات الخاصة: القوات الألمانية الخاصة فى الحرب العالمية الثانية" - (Kommando: German Special Forces of World War Two) الصادرة عام (١٩٨٥) لمؤلفها جيمس لوكاس. كانت شهادة ألفريد ناوجوكس الخطية عن جلايفيتز وثيقة - PS 2751، بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٤٥، دليلاً فى محاكمات نورمبرغ. تم اقتباس آراء هيو تريفور - روبر فى تفسيره للنازية من مقال "الأميرال كناريز ملحق بكتاب "قضية فيلبى: التجسس والخيانة والخدمات السرية" - (The Philby Affair: espionage, treason, and Secret Services) عام (١٩٦٨). أخرج جرهارد كلاين فيلمًا مهمًا عن ألمانيا الشرقية يدور حول الخداع النازى تحت عنوان "قضية جليفتش" - (Der Fall Gleiwitz) عام ١٩٦١.

تظهر نصوص "الوثائق" الأربع فهى موجودة فى الصفحة ٦٨ من المجلد التاسع من كتاب التاريخى "الحرب العالمية الثانية" - (The Second Great War) تأليف السير جون هاميرتون. الصحفى الأمريكى المذكور هو جون غونزر وروى هذه القصة هارولد نيكلسون فى رسالة إلى زوجته فيتا ساكفيل - ويست فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩. نشرت مذكرات جوان برايت استيل "الدائرة الداخلية: انظروا على الحرب" - (The Inner Circle: a view of war at the top) للمرة الأولى عام ١٩٧١، وهو كتاب رائع ملىء بالحكمة وأساليب الذكاء. عملت جوان مع مؤسسى الحرب غير النظامية فى الحرب العالمية الثانية، وقامت بكتابة سجلين عسكريين، وكذلك تعاونت مع بيتر ويلكنسون فى تأليف "جوبنس والجهاز التنفيذى للعمليات الخاصة" - (Gubbins and SOE). نشر كتاب "المهمات السبع" - (Seven Assignments) للمرة الأولى فى يوليو ١٩٤٨، وحقق مبيعات جيدة بواقع ٥٠٠٠ نسخة.

(١٤) عـودة ونسـتون

الإحصاءات الخاصة بعدد التجار البحارة وردت فى صفحة ٣٨٣ من "تاريخ الملاحة البريطانية الجديد"- (A New History of British Shipping) تأليف روناك هوب. اقتبست قصة السفينة الوهمية سكابا فلو من كتاب "حارس تشرشل الخاص"- (Churchill's Bodyguard)، أما الحوار الذى أجرى مع جون لى كارى "أدب القصص الخيالى" فهو مأخوذ من دورية باريس ٣٩ لعام (١٩٩٧). بالنسبة لـ "المخابرات الخاصة جدا: قصة مركز مخابرات عمليات إمارة البحر ١٩٣٩-١٩٤٥"- (Very special Intelligence: the story of the Admiralty's Operational Intelligence Centre 1939-1945) لمؤلفها باتريك بيسلى عام ١٩٧٧، و"الأميرال الخاص جدا: حياة الأميرال جيه إيتش جودفيرى الفرقة الوطنية"- (Very Special Admiral: the life of Admiral J. H. Godfrey CB) عام ١٩٨٠ فهما يكملان "الغرفة ٣٩: المخابرات البحرية فى الخدمة ١٩٣٩-١٩٤٥"- (Room 39: Naval Intelligence in action 1939-1945) لدونالد ميكليكلان عـام (١٩٧٧) وهى كلها موجودة فى مركز تشرشل للمحفوظات. ولمعرفة المزيد عن المبتكر جيمس بوند، انظر كتاب "حياة إيان فلامينج وجيمس بوند"- (The Life of Ian Fleming and James Bond) عام (١٩٦٧) تأليف جوهان برسون، وانظر كتاب "١٧ف: حياة إيان فلامينج"- (17F: the life of Ian Fleming) عام (١٩٩٣) تأليف دونالد ماك كورميك، وانظر كتاب "إيان فلامينج"- (Ian Fleming) عام (١٩٩٥) تأليف أندريو لايست، وكتاب "من أجلك أنت وحدك: إيان فلامينج وجيمس بوند" (For Your Eyes Only: Ian Fleming and James Bond) عـام (٢٠٠٨) تأليف بن ماسينتاير، بالإضافة إلى المعرض المئوى فى متحف الحرب الإمبريالية؛ وللمزيد عن التاريخ الغامض لعالم اللا سلكى انظر "الاستخدام غير الأمثل للبث... عمليات الدعاية الحكومية والسرية البريطانية ضد ألمانيا أثناء وعقب أزمة ميونخ"- (An Improper Use of Broadcasting ...The British Government and Clandestine Radio Propaganda Operations against Germany during the Munich Crisis and after) تأليف نيكولاس بروناى وفيليب إم تايلور، وكذلك جورنال كونتيمورارى هيستورى مجلد ١٩ العدد ٣ يوليو ١٩٨٤ والكتاب الشائق المحتج به "تزييف الحقيقة: المناورات السياسية عبر الإذاعة بين الحروب"- (The Truth Betrayed: radio politics between the wars) عام ١٩٨٧ تأليف الراحل دبليو جيه ويست.

وقد اعتمدت على كتاب "الجهاز السرى"- (Secret Service) لكريستوفر أندريو، وسيرة كلاود دانسى "العقيد رقم زد: لحظات فى حياة قائد الجواسيس"- (Colonel z: the life and times of a master of spies) عام (١٩٨٤) لأنتونى ريد وديفيد فيشر، للحصول على معلومات عن جهاز المخابرات السرية. كتـاب

"دليل القائد" - (The Partisan Leader's Handbook) هو الحاشية رقم ٢ فى "رئيس العمليات الخاصة فى الدول المنخفضة" - (SOE in the Low Countries) عام (٢٠٠١) تأليف بروفيسور إم أر دى فوت صاحب كتاب "إس أ، إى: إدارة العمليات الخاصة ١٩٤٠-١٩٤٦" - (SOE: the Special Operations Executive 1940-1946) موجز التاريخ الكلاسيكى. أما بالنسبة للتفاصيل المتعلقة بالفرقة د وإليكترا هاوس والمخابرات الحربية "أر" فهى مأخوذة من "التاريخ السرى لإدارة العمليات الخاصة" - (The Secret History of SOE) عام (٢٠٠٠) تأليف ويليام ماكنزيى، و"إدارة العمليات الخاصة: أداة حرب جديدة" - (Special Operations Executive: a new instrument of war) عام (٢٠٠٦) تحرير مارك سيمان.

بالنسبة للمدرسة الحكومية للكود والشفرة، انظر "ثلاثين سنة من السرية: عمل إيه جى دينستون فى استخبارات سلاح الإشارة ١٩١٤-١٩٤٤" - (Thirty Secret Years: A.G. Denniston's Work in signals intelligence 1914-1944)، عام (٢٠٠٧) لروبين دنستون. ويوجد العديد من الكتب عن بليتشلى بارك، وقد رجعت إلى "معركة الحكماء: القصة الكاملة لفك الشفرات فى الحرب العالمية الثانية" - (Battle of Wits: the complete story of code-breaking in World War II) عام (٢٠٠٠) لستيفن بوديانيسكى، و"حدث هذا اليوم" - (Action This Day) عام (٢٠٠١)، تحرير مايكل سميث ورالف إرسكين، و"محطة إكس: فك الشفرات فى بليتشى بارك" - (Station X: the code breakers of Bletchley Park) عام (٢٠٠٣) لمايكل سميث، "التحول الضرورى" - (The Essential Turning)، تحرير بى جاك كوبلاند، والذى نشره فى مدينة أكسفورد فى (٢٠٠٤). للتعرف على مدى صدى حادث فينلو انظر مقدمة نيجل ويست "غزو ١٩٤٠: خطة غزو النازية لبريطانيا بقيادة رئيس أسطول الحماية جنرال والتر شلينبرغ" - (Invasion 1940: the Nazi invasion plan for Britain by SS General Walter Schellenberg) عام (٢٠٠٠)، تقديم جون إريكسون. وهذا المجلد الغريب الذى يشتمل على أسماء من ألقى القبض عليهم، يطرح أيضًا عنوانًا لخدع توم بولينس الرائعة فى الفترة ١٩١٨-١٩٤٠ "دليل الغزو" - (The Invasion Handbook) والذى صدر عام ٢٠٠٢. ينظر أيضًا "إعلان الغزو العسكرى لإنجلترا، ١٩٤٠" - (Militiirgeographische Angaben iiber England, 1940)، وقد قامت مكتبة بودليان بنشره فى ٢٠٠٧ باسم "خطط الغزو الألمانى لجزر بريطانيا ١٩٤٠" - (German Invasion Plans for British Isles 1940).

لقد تعلمت الكثير عن جهاز أمن الإذاعة وأمور أخرى من "الحرب اللا سلكية السرية: قصة اتصالات الاستخبارات الحربية القسم السادس ١٩٣٩-١٩٤٥" - (The Secret Wireless War: the story of MI6 Communications 1939-1945) عام (٢٠٠٦) لجوفرى بيدجيون. أما كتاب "نظام العمالة المزدوجة ١٩٣٩-١٩٤٥" - (The Double-Cross System 1939-1945) لجون ماسترمان؛ فقد نُشر للمرة الأولى عام ١٩٧٢ من قبل "ييل"، لكن إصدار بيمليكو فى ١٩٩٥ قدم له نيجيل ويست مقدمة مفيدة. تتحدد نجاحات الحرب العالمية الثانية فى العمل الذى أصدرته المخابرات الحربية البريطانية القسم الخامس فى التاريخ الرسمى "الجهاز السرى ١٩٠٨-١٩٤٥" - (The Security Service 1908-1945) الذى كتبه جون كورى، ونُشر عام (١٩٩٩)، وكذلك "معسكر ٠٢٠: المخابرات الحربية البريطانية القسم الخامس وجواسيس النازية" - (Camp 020: MI5 and the Nazi spies) عام (٢٠٠٠)، تحرير وتقديم أوليفر هور. ويعتبر دوسكو بوبوف

هو موضوع كتاب "الكود السرى ترايكل" - (Codename Tricycle) عام (٢٠٠٤) من تأليف لروسيل ميلر.
وبالنسبة لكتاب البروفسور ريجينالد فيكتور جونز "أكثر الحروب سرية: المخابرات العلمية البريطانية ١٩٣٩-١٩٤٥" - (Most Secret War: British Scientific Intelligence 1939-1945) نشر فى أمريكا عام ١٩٧٨ باسم "حرب العباقرة" - (The Wizard War) فقد وصفه إيه جيه بى تايلور بأنه "من أروع الكتب التى قرأتها عن الحرب العالمية الثانية". ومن أشهر الكتب كذلك كتاب "التفكير فى المخابرات" - (Reflections on Intelligence) عام (١٩٨٩).

(١٥) إخفاء الفضة

من أروع الدراسات وأوضحها حول أفراد التمويه فى الحرب العالمية الثانية؛ هى "التمويه والفن: تصميم الخداع فى الحرب العالمية الثانية" - (Camouflage and Art: design for deception in World War2) لهنرياتا جودين من الكلية الملكية للفنون عام (٢٠٠٧)، أما عمل الرسام جوليان تريفليان "أيام النيلة" - (Indigo Days) فقد نُشر فى ١٩٥٧ اقتبست التفاصيل الخاصة برولاند بنروز من كتاب "زيارة بيكاسو: مفكرات ورسائل رولاند بنروز" - (Visiting Picasso: the notebooks and letters of Roland Penrose) عام (٢٠٠٦) لإليزابيز كاولينج. نُشر كتاب "قصة التمويه "من أينترى إلى العلمين" - (The Camouflage Story "From Aintree to Alamein") للمخرج جوفرى باركيز فى ١٩٥٢. توجد دراسة كلاسيكية عن سباق التسليح المرئى فى كتاب "خداع العين الزجاجية: التمويه فى مقابل الاستطلاع الجوى فى الحرب العالمية الثانية" - (To Fool a Glass Eyes: camouflage versus photoreconnaissance in World War II) عام (١٩٩٨) من تأليف العقيد روى إم ستانلى الثانى من قوات الطيران الأمريكى. يُنظر أيضًا كتاب "عيون قوات الطيران الملكى: تاريخ التصوير الجوى" - (Eyes of the RAF: a history of photo-reconnaissance) عام (١٩٩٦) لروى كونيرس نيبسيت. تم جمع الصور الكاريكاتيرية التى رسمها دبليو هيث روبنسون فى الحرب العالمية الثانية فى كتاب "هيث روبنسون فى الحرب" (Heath Robinson at War) عام (١٩٤٢)، و"البطريق دبليو هيث روبنسون" - (The Penguin W. Heath Robinson) عام (١٩٦٦)، و"إبداعات" - (Inventions) عام (١٩٧٣)، و"الأفضل لدى هيث وربنسون" - (1982) (The Best of Heath Robinson)، و"الحلول المساعدة لدى هيث روبنسون" - (Heath Robinson's Helpful Solutions) عام (٢٠٠٧)، وهى موجودة فى كتالوج سيمون هينيدج فى متحف الكرتون بلندن برعاية أنيتا أوبرين.

(١٦) صفعة على الوجه

الاقتباس الذى نُقل عن ويفيل مأخوذ من مقدمة دودلى كلارك "المهمات السبع" - (Seven Assignments). هناك وصف واضح عن حملة النرويج لجنرال جيه إل مولتون كتبه بيرنل فى (١٩٦٦) "تاريخ الحرب العالمية الثانية" - (History of the Second World War)، وانظر كتاب راى ميرس "الأبطال الحقيقيون فى تليمارك" - (The Real Heroes of Telemark) عام (٢٠٠٣) تسجل إعجابها بالمقاومة النرويجية.

نُشرت يوميات جاى ليديل (مجلد ١: ١٩٣٩-١٩٤٢؛ مجلد ٢: ١٩٤٢-١٩٤٥) تحرير نيجل ويست فى روتيلدج فى (٢٠٠٥). نُشرت يوميات جون كوليفى، الذى كان سكرتير تشرشل الخاص - بعنوان "حواف السلطة" - (The Fringes of Power) والذى نشر فى (١٩٨٥). بعد زيارته لماجينوت لاين فى ديسمبر ١٩٣٩ كتب الجنرال سير ألان "سفينة حربية بنيت على اليابسة" - (The Battleship built on land) الملاحظات التى دونت فى كتاب "الهزيمة الغريبة: بيان عن حالة إثبات موجودة فى ١٩٤٠" - (Strange Defeat: A statement of evidence written in 1940) عام (١٩٤٩) أكدتها يوميات ماى فى ١٩٤٠ "أوراق روميل" - (The Rommel Papers) عام ١٩٥٣ من تحرير بى إيتش ليدل هارت.

وردت تجارب دودلى كلارك فى كتاب "المهمات السبع" - (Seven Assignments)؛ يُعد كتاب أفرى نيفى "لكل مخارجه" - (They Have Their Exits) عام ١٩٥٣ واحداً من أفضل ما دون عن الحرب العالمية الثانية، وما فيه سخرية، وجاء ذلك خلال زيارته لسجناء النازية فى محكمة نورنبيرج لجرائم الحرب. (قتل نيف على يد الجيش الجمهورى الأيرلندى فى ٣٠ مارس ١٩٧٩، فى ويستمنستر). تبرز مهمة دودلى كلارك فى أيرلندا فى كتاب "فى ثنايا الحرب: المعطف الإيرلندى وثمن الحياد ١٩٣٩-١٩٤٥" - (In Time of War: Ireland Ulster and the Price of neutrality 1939-1945) لروبرت فيسك، وكتاب دافيد مور "سيد الخداع" - (Master of Deception) عام ١٩٨٣ الذى أخرجه بعد كتاب "ممارسة الخداع" - (Practise to Deceive) عام ١٩٧٧. أُخذت تعليقات دانشيف بشأن ديل من المادة الخاصة به فى قاموس أكسفورد للسيرة الوطنية.

من أحدث الأعمال حول دانكيرك رائعة هوف سيباغ مونتيفيورى "دانكيرك: القتال حتى آخر رجل" - (Dunkirk: fight to the last man) عام (٢٠٠٦) وكتاب سين لونجدين "دانكيرك: الرجال الذين خلفوا" - (Dunkirk: the men they left behind) عام (٢٠٠٨) وكتاب الجنرال جوليان تومسون "دانكيرك: الانسحاب من أجل النصر" - (Dunkirk: retreat to victory) عام ٢٠٠٨. فى نهاية عام (١٩٤٠) نشرت محادثات بى بى سى العشرون لـ جيه بى بريستلى "المعروفة باسم "الملاحظات" - (Postscripts).

(١٧) خناجر الكوماندوز

جمعت أحاديث تشرشل خلال خمسة عشر عامًا في عشرة مجلدات من تحرير ابنه راندولف. وورد حديث دانكريك في صفحة رقم ٢١٥ من كتاب "إلى القتال" - (Into Battle) عام ١٩٤١. وقد تقاضى دودلى كلارك ٢٥ جنيهًا لحديث مدته خمس عشرة دقيقة وقد طبع الحديث في "المستمعون" - (The Listener)، وكان المخرج الذى أخرج الحوار هو المؤرخ رونالد لوين. تناول كتاب "القلنسوة الخضراء: قصة الفدائيون ١٩٤٠-١٩٤٥" - (The Green Beret: the story of the Commandos 1940-1945) لهيلارى سانت جورج سوندرز (١٩٤٩) دودلى كلارك في الفصل الثانى. وجاء وصف إرنست تشابيل عن أول غارة فى "الفدائيون: القصة السرية لقوة القتال النخبوية لبريطانيا" - (Commandos: the inside story of Britain's most elite fighting force) عام ٢٠٠٠ من تأليف جون باركر.

(١٨) المقاومة البريطانية

الوصف التقليدى لعمليات الاعتقال البريطانى فى أثناء الحرب العالمية الثانية "حلفاء الأعداء" تناوله الدكتور ماكس إف بيروتز الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء ووسام الاستحقاق ووسام رفاق الشرف وقد نشر ذلك فى نيو يوركر ١٩٨٥، وأعيدت طباعته فى كتاب "هل العلم ضرورى؟ مقالات عن العلم والعلماء" -Is Science) Necessary? Essays on Science and Scientists) عام (١٩٨٠). وللمزيد حول الطابور الخامس انظر "القميص الأسود: السير أوزوالد موزلى والفاشية البريطانية" -Blackshirt: Sir Oswald Mosley) and British Fascism) عام (٢٠٠٦) من تأليف استيفان دوريل.

يمكن أن يعتريك إحساس مخيف إذا عرفت المقصود من الغزو من خلال مطالعة كتاب "الاحتلال: محنة فرنسا ١٩٤٠-١٩٤٤" -(Occupation: the ordeal of France 1940-1944) عام (١٩٧٧) للراحل إيان أوسبى. وورد وصف وليام لورنس شيرر حول "كومبين" "وسبقه الصحفى الشامل لصالح إذاعة سى بى إس" فى الفصل السادس عشر من كتاب "سنوات الكابوس ١٩٣٠-١٩٤٠" -(The Nightmare Years 1930-1940)، والمجلد الثانى من كتاب "رحلة القرن العشرين" ٢٠- (th Century Journey) والذى نشر فى ١٩٨٤. وجاء حديث كيتل فى صفحة ١٠١٢ من المجلد الثالث من كتاب "الحرب الثانية الكبرى" -(The Second Great War). وجاء تعليق بريستلى من "الملاحظات" -(Postscript) الأخيرة فى مجلة صنداى فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٠.

كتب مصطلح "الوطنيون والثوريون" الذى وضعه جورج أورويل فى كتاب فيكتور جولانسيز "خيانة اليسار" -(Betrayal of the Left) عام (١٩٤١)، وهو إدانة للحزب الشيوعى، وكان أيضا آخر جزء فى كتاب غير روائى نشره جولانسز فى ١٩٨١: "مقتطفات من نادى كتاب اليسار" -The Left Book Club) Anthology) من تحرير باول ليتى. ويجب أن نقارن نسخة كتاب توم وينترينجهام حول معركة جمارا فى كتاب "الرائد الإنجليزى" -(English Captain) عام (١٩٣٩) بكتاب جاسون جورنى "الحرب الصليبية فى إسبانيا" -(Crusade in Spain) عام ١٩٧٤. وقد نشر "عامود الصور ١٩٣٨-١٩٥٠" -(Picture Post 1938-50) من تحرير وتقديم توم هوبكينسون فى (١٩٧٠). وقد جاء السرد كله فى كتاب استيفان كولين "اشتراكية الحرس الوطنى: رؤية جيش الشعب" -(Home Guard Socialism: a Vision of a People's Army) عام (٢٠٠٦) فى ٥٠ صفحة. وجاءت مذاكرات ماكسويل فى صفحتى ٥٧ – ٥٨ فى أكثر المجلدات كشفًا للحقائق المجلد الرابع- (Security and Counter-Intelligence) "الأمن والمخابرات المضادة" من كتاب "المخابرات البريطانية فى الحرب العالمية الثانية" -(British Intelligence in the Second World War) عام ١٩٩٠ من تأليف البروفيسور سير هارى هينسلى مع أنتونى سيمكينز، نائب المدير السابق فى المخابرات

الحربية البريطانية القسم الخامس، من خلال إتاحة الإطلاع على السجلات. جاءت صورة لى ميلر لشخص عار "مموه" فى صفحتى ١٨٢-١٨٣ فى "أدوات نموذج التخريب"- (DPM: Disruptive Pattern Material) وأنا ممتن لمحررها هاردى بليتشمان لإعارة نسخة من كتاب بينروز "دليل تمويه الحرس الوطنى"- (Home Guard Manual of Camouflage).

وكان الفيلم الروائى لكيفين براونلو وأندرو مولو "حدث هنا"- (It Happened Here) عام (١٩٦٦)، وكذلك التحقيق الذى أجراه دافيد لامبى عن الوحدات المساعدة من خلال "الخندق الأخير"- (The Last Ditch) عام (١٩٦٨)، قدما تأملات أخرى حول الغزو الألمانى. قدم نورمان لونجمات الفيلم التليفزيونى الأول لـ بى بى سى "لو سقطت بريطانيا"- (If Britain Had Fallen) فى ١٩٧٢، ثم "جيش أبى الحقيقى: قصة متطوعى الحرس الوطنى"- (The Real Dad's Army: the story of the Home Guard) فى ١٩٧٤، وقد نشر دوف هارت ديفيز فى العام نفسه "بيتر فلايمنج: سيرة"- (Peter Fleming: a biography)، وظهرت رؤية لين ديغتون الرائعة حول المملكة المتحدة المحتلة "بريطانيا العظمى تحت الاحتلال النازى"- (SS-GB) فى (١٩٧٨)، ممهداً الطريق لغيرها من الروايات: مثل رواية غوردون ستيفنز "وجميع رجال الملك"- (And All The King's Men) (1990)، ورواية روبرت هاريس "أرض الأب"- (Fatherland) عام (١٩٩٢) ورواية أوين شيرز "المقاومة"- (Resistance) عام (٢٠٠٧).

ظهرت رواية "الحرس الوطنى: التاريخ العسكرى والسياسى"- (The Home Guard: a military and political history) من تأليف إس بى مكانيزى عام (١٩٩٥)، ويمكنك أن تجد المزيد من التفاصيل عن المقاومة البريطانية فى الكتاب المثير "مع بريطانيا فى الخطر المميت: الجيش الأكثر سرية لبريطانيا فى الحرب العالمية الثانية"- (With Britain in Mortal Danger: Britain's most secret army in WWII) عام (٢٠٠٠) من تحرير جون ورويكر، وأنا أقدم خالص امتنانى لابنته جوليا كورنر، التى التقيتها مصادفة فى نادى القوات الخاصة، وذلك لإعطائى نسخة السيرة الذاتية لأندرو كروفتس "موهبة للمغامرة"- (A Talent for Adventure) (١٩٩١)، أما دليل مؤسسة الأفلام البريطانية عن فيلم " هل أمضيت اليوم على خير؟"- (Went the Day Well?) فقد كتبه بينلوب هوستون فى (١٩٩٢). نشرت مذكرات مايكل كوردا "الحياة الساحرة: العالم الخرافى لأخوة كوردا"- (Charmed Lives: the fabulous world of the Korda brothers) فى (١٩٨٠).

(١٩) نيران تملأ سماء إنجلترا

عندما نشر كتاب جون باكر وايت "الكذبة الكبرى" – (The Big Lie) عن طريق بان فى ١٩٥٨، وكان قد نشر قبل ذلك وللمرة الأولى فى ١٩٥٥، كان عنوان الغلاف "فن الحرب السياسية" – (The Art of 'Political Warfare') مع عنوان جانبى "كيف خدع الحلفاء القيادة النازية العليا" – (How the Allies Fooled the Nazi High Command)، أما أوراق الحرب الخاصة بدنس ويتلى فقد طبعت باسم "أغرب من الخيال" – (Stranger than Fiction) فى (١٩٥٩).

بالنسبة كتاب بيتر هايننج "أين هبط الصقر: لغز غزو ألمانيا لبريطانيا، ١٩٤٠" – (Where the Eagle Landed: the mystery of the German invasion of Britain, 1940)، (إهداء إلى دينيس ويتلى) أقل مصداقية من العمل الرائع لجيمس هاردى: "أجسام على الشاطئ: أسد البحر وشارع شينجل ولغز البحر المحترق ١٩٤٠" – (The Bodies on the Beach: Sealion، Shingle Street and the Burning Sea myth of 1940) عام (٢٠٠١).

نشرت "يوميات أيرونسايد ١٣٧–١٤٠" – (The Ironside Diaries 137-40) عام (١٩٦٢). وقد كان "ترينشيرد" – (Trenchard) عام ١٩٦٢ لأندرو بويل سبب فخر لجورنج. توجد أعمال أدبية رائعة عن الحرب الجوية فى ١٩٤٠ منها: كتاب لين ديفتون "المقاتل: القصة الحقيقية لمعركة بريطانيا" – (Fighter: the true story of the Battle of Britain) عام (١٩٧٧)، وكتاب "معركة بريطانيا" – (Battle of Britain) عام (١٩٨٠) التى تدل دلالة واضحة على قوة وحيوية هذه الحرب.

أما تفاصيل تفجير لندن قد اقتبست من كتاب "الغارة الجوية ١٩٤٠–١٩٤١" – (The Night Blitz 1940-41) عام (١٩٩٦) من تأليف جون راى، ومن إصدار ١٩٤٢ لمطبوعات مكتب لصاحبة الجلالة "خط المواجهة الأمامى ١٩٤٠–١٩٤١: القصة الرسمية عن الدفاع المدنى البريطانى" : -Front Line 1940-41 the official story of the Civil Defence of Britain).

(٢٠) الدعاية عبر الأثير

نشر كتاب "الدعاية فى الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥: المنظمات والسياسات والجمهور فى بريطانيا وألمانيا"- (Propaganda in War: 1939-1945: organizations, policies and publics in Britain and Germany) من تأليف مايكل بالفور فى ١٩٧٩، وهو عبارة عن سرد كلاسيكى.

يبرز سيفتون ديلمر بوضوح فى "التاريخ السرى للجهاز المسئول عن المنازعات السياسية: منفذ الحرب السياسية ١٩٣٩-١٩٤٥"- (The Secret History of PWE: the Political Warfare Executive 1939-1945) من تأليف ديفيد جارنت "حيث حرر فيه رسائل تى إى لورنس" فى ١٩٤٥ - ١٩٤٦؛ ولكن كان أول إصدار للكتاب عام (٢٠٠٢).

أطلق على مذكرات فال جيلجود "سنوات الجراد"- (Years of the Locust) والتى صدرت عام (١٩٤٧). يسلط كتاب "استيفان بوتر فى بى بى سى: سمات الحرب والسلام"- (Stephen Potter at the BBC: 'Features' in war and peace) لابنه جوليان بوتر الضوء على بى بى سى فى فترة الحرب (٢٠٠٤). ونجد أن كتاب "معنى الخيانة"- (The Meaning of Treason) عام (١٩٤٧) من تأليف ريبكا ويست، وكتاب "لورد هاو هاو: الصوت الإنجليزى للنازية"- (Lord Haw Haw: the English voice of Nazi Germany) عام (٢٠٠٣) من تأليف بيتر مارتلاند، وكتاب "النداء الألمانى: سيرة ويليام جويس ولورد هاو هاو"- (Germany Calling: a biography of William Joyce, Lord Haw-Haw) عام (٢٠٠٣) من تأليف مارى كينى، وكتاب "هاو هاو: مأساة ويليام ومارجاريت جويس"- (Haw-aw: the tragedy of William and Margaret Joyce) عام ٢٠٠٥ من تأليف نيجل فارندال: كل هذه الأعمال توضح جليًا كل شيء بخصوص "سام التعيس"- (Sinister Sam) أما كتاب " إنه ذاك الرجل مرة أخرى ١٩٣٩-١٩٤٨"- (ITMA 1939-1948) من تأليف فرانكيز ورسلى فقد نشر فى ١٩٤٨، وكذلك سيرة تومى هاندلى لتيد كافاناجا نشرت فى العام التالى.

كان برنامج مسرح ميركيرى على الهواء لأورسن ويلز يذيع كلاسكيات الأدب الإنجليزى لـ سى بى إس مثل: "دراكيولا"- (Dracula) و"جزيرة الكنز"- (Treasure Island)، وقد نشرت "إذاعات الغارة الليلية: كيف ساعد إدوارد أر مورو على دفع أمريكا للحرب"- (Broadcasts from the Blitz: how Edward R. Murrow helped lead America into war) من تأليف فيليب سيب فى (٢٠٠٦). ونشرت سيرة كيفين جاكسون الرائعة "همفرى جيننجز"- (Humphrey Jennings) عام (٢٠٠٤).

بعض مواد حملة "فى" (V) مأخوذة من"دليل بى بى سى ١٩٤٢"- (BBC Handbook 1942) المجلد الثالث من تاريخ أسا بريجز الرائع عن الإذاعة، وكتاب "حرب الكلمات ١٩٣٩-١٩٤٥"-

(The War of Words, 1939-1945)، وكذلك إسهامات سير جون لورنس فى "عين الحكيم: العاطفة الجمالية لجوناثان جريفين" - (Sage Eye: the aesthetic passion of Jonathan Griffin) عام ١٩٩٢ من تحرير أنتونى رودولف. وتوجد صورة لإشارة (V) فى بى بى سى، وكذلك السيرة الذاتية جيمس بليد "قرع الطبول" - (Drum Roll) عام ١٩٧٧، وكتاب أنتونى رودیز "الدعاية: فن الإقناع فى الحرب العالمية الثانية" - (Propaganda: the art of persuasion in WW2) عام ١٩٨٧ الذى يعرض صور لرمز V.

جمعت محاضرات وأحاديث وبرامج إذاعية لسير هوف جرين فى كتاب "واجهة الطابق الثالث" - (The Third Floor Front) عام (١٩٦٩). للتعرف على الإذاعة السوداء انظر "الكيد المرتد" - (Black Boomerang) من تأليف ديلمر، وكتاب "التاريخ السرى الجهاز المسؤول عن المنازعات السياسية" - (Secret History of PWE) من تأليف جارنيت، وكذلك "الخدعة السوداء: عمليات التخريب البريطانية ضد الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية" - (The Black Game: British subversive operations against the Germans during the Second World War) عام (١٩٨٢) لإيليك هوى، وكتاب "الدعاية السوداء فى الحرب العالمية الثانية" - (Black Propaganda in the Second World War) عام (٢٠٠٥) من تأليف ستانلى نيوكورت - نوبوريسكى.

فى عامى ١٩٩٨ و٢٠٠٢، حرر الراحل ديفيد سيرت مجلدين من الورق لصالح جمعية السجلات البحرية عن استخبارات الإشارة فى معركة الأطلسى ضد قوارب اليو.

(٢١) الفرقة العسكرية "إيه" بشمال أفريقيا

ورد خطاب الجنرال سير أرشيبالد ويفل الذى ألقاه فى فبراير ١٩٤٠؛ للقوات الأسترالية قيادة الشرق الأوسط فى كتاب "على وجه العموم"- (Generally Speaking) فى (١٩٤٦). ولمعرفة المزيد عن باجنولد انظر كتاب "جماعة الصحراء طويلة المدى"- (Long Range Desert Group) عام (١٩٤٥) من تأليف دبليو بى كيندى شاو، و"خداع باجنولد"- (Bagnold's Bluff)، بقلم ترافور جيه كونستابل فى جورنال فور هيستوريكال ريفيو المجلد الثامن العدد الثانى مارس/أبريل ١٩٩٩، وأيضًا كتاب "قطاع الطرق الملتحون: يوميات المجند فرانك جوبلين"- (Bearded Brigands: the diaries of trooper Frank Jopling) فى عام (٢٠٠٢)، تحرير بريندان أوكارول، وكتاب "غارة الصحراء: القوات الخاصة لدول المحور والحلفاء ١٩٤٠-١٩٤٣"- (Desert Raider: Axis and Allied Special Forces 1940-43) من تأليف أنديريا موليانرى (٢٠٠٧)، وكتاب ألكسندر كليفورد "ثلاثة ضد روميل"- (Three Against Rommel)، والذى نشر للمرة الأولى فى ١٩٤٣. وجاء اقتباس ديمبليبى من "الحدود خضراء"- (The Frontiers are Green) عام (١٩٤٣). وكان أول كتاب فى المؤلفات الثلاثة عن إفريقيا من تأليف ألان مورهيد "جبهة البحر الأبيض المتوسط: عام ويفل ١٩٤٠-١٩٤١"- (Mediterranean Front: the year of Wavel, 1940-41) والمذكرات - التى تحولت فيما بعد إلى فيلم - "التعليم المتأخر: حلقات على مر الحياة"- (A Late Education: episodes in a life) عام (١٩٧٠) والتى تدور حول صداقته مع الكسندر كليفورد.

ينتهى كتاب القائد الجنرال دودلى كلارك "المهمات السبع"- (Seven Assignment) حيث يبدأ كتاب "يوميات الحرب للقوة "إيه"- ("A" Force Narrative War Diary) (سى بى إيه ١/١٥٤ فى المحفوظات الوطنية". تم تسجيل اجتماع كلارك مع "ويلد بيل" دونوفان فى صفحة ٢٤ من كتاب "التحالف الإنجليزى الأمريكى: مذكرات الحرب العالمية الثانية من القائد الجنرال فيفيان ديكس"- (Establishing the Anglo-American Alliances: the Second World War Diaries of Vivian) عام (١٩٩٠) تحرير أليكس دانشيف.

أما الرحلة إلى باركز؛ فقد وردت فى كتاب "قصة التمويه مع روميل فى الصحراء"- (The Camouflage Story, With Rommel in the desert) عام (١٩٥١) لهاينز فيرنر شميدت، وكتاب "حرب روميل فى إفريقيا"- (Rommel's War in Africa) عام (١٩٨١) لولف هيكمان الذى قام بتوثيق التفاصيل.

أم بالنسبة لقوات الخدمة الجوية الخاصة، فهناك كتاب "رائد الأشباح: قصة ديفيد استرلينج والقوات الجوية الخاصة"- (The Phantom Major: the story of David Stirling and the S.A.S) عام ١٩٥٨ من تأليف فيرجنيا كاولس فى بحث رائع وقد نال تيم جونس الدرجة نفسها بكتابين عن تراث استرلينج: "جهاز الجو الخاص: الحروب السرية الأولى"- (SAS: the first secret wars) عام ٢٠٠٥ وكتاب "ساعة الصفر

لجهاز الجو الخاص: الأسباب السرية لجهاز الجو الخاص"- (SAS Zero Hour: the Secret origins of the Special Air Service) عام ١٩٩٨. ومن تأليف كين كونر عام ١٩٩٨ كان كتاب "قوة الأشباح: التاريخ السرى لجهاز الجو الخاص"- (Ghost Force: the secret of the SAS)، وكان قد أمضى كين كونر ثلاثة وعشرين عامًا فى فوج القوات الجوية ويعرف عن ماذا يتحدث. وكتاب "الأصول فى كلماتهم الخاصة: التاريخ السرى لنشأة جهاز الجو الخاص"- (The Originals in their Own Words: the secret history of the birth of the SAS) من تأليف جوردن استيفانز وقد نشر الكتاب فى ٢٠٠٦.

وكتاب السير مايكل هوارد "الخداع الإستراتيجى فى الحرب العالمية الثانية"- (Strategic Deception in the Second World) عام ١٩٩٠ والمجلد الخامس من التاريخ الرسمى للمخابرات البريطانية فى الحرب العالمية الثانية؛ حيث أفرد إنجازات دادلى كلارك فى القوات "الوطنية" وهذا ما قام به تاديوس هولت فى عمله الشامل "المخادعون: خداع قوات التحالف الحربية فى الحرب العالمية الثانية"- (The Deceivers: Allied military deception in the Second World War) عام ٢٠٠٤.

"أنا أتجسس على جواسيس"- (I Spied Spies) من تأليف الرائد إيه دبيلو سانسوم، إم بى إى قد نشرت فى ١٩٦٥. ورائعة جاسبر ماسكلينى المدهشة "السحر: السر الأعلى"- (Magic: top secret) عام ١٩٤٩؛ والكتاب الروائى "ساحر الحرب"- (The War Magician) من تأليف ديفيد فيشر١٩٨٣: الأحداث المجسدة فى الكتاب حقيقية. كل شيء تعهد جاسبر ماسكلينى أن يقوم به ينجزه فى واقع الأمر؛ يقول بذلك المعلق على الكتاب، لكن انظر موقع ريتشارد ستوكس: www.maskelynemagic.com، للمزيد من الرؤية الواقعية. وأيضًا زعم السحرة الأوائل أنهم هم من وضعوا اختراعات التمويه: انظر الفصل السابع من كتاب هوراس جولدين- (It's Fun to be Fooled) "إنه لمن المتعة أن تخدع" مثالاً على الحرب العالمية الأولى.

فى كتاب الكاتب الأسترالى تشيستر ويلموت "طبرق ١٩٤١: الأسر والحصار والإغاثة"- (Tobruk 1941: capture, siege, relief) يصف المؤلف السعادة فى المحن. وكتاب استيفان سايكس "مخادعون للأبد: مذكرات ضابط تمويه"- (Deceivers Ever: the memoirs of a camouflage officer) نشره فى ١٩٩٠. ولمزيد من المعرفة عن الحرب العالمية الثانية وبلاد الرافدين انظر "المغامرات الخمسة"- (Five Ventures) عام ١٩٥٤ من تأليف كريستوفر بوكلى و "العراق وسوريا ١٩٤١"- (Iraq and Syria 1941) من تأليف عام ١٩٧٤ من تأليف جوفيرى وارنر وكتاب "العراق ١٩٤١"- (Iraq 1941) عام ٢٠٠٥ من تأليف روبرت ليمان. ولقد أعارنى جورج استير نسخة من كتاب "الطريق الشاق: حلقات فى الحياة الطويلة"- (The Road Uphill: episodes in a long life) عام ١٩٩٧ من تأليف زوج أمه كينيون جونيس، مع رواية مكتوبة على الآلة الكاتبة غير مؤرخة من 'CHEESE' "تشيز" الذى أرسلته كيه جيه لدادلى كلارك بعد الحرب.

(٢٢) انتحال شخصية

إذا كانت إسبانيا دولة محايدة تجاه دول المحور، والبرتغال دولة محايدة تجاه دول التحالف؛ فانظر كتاب "التعاطف مع الشيطان: أوروبا المحايدة وألمانيا النازية فى الحرب العالمية الثانية"- (Sympathy for the Devil: neutral Europe and Nazi Germany in WW2) عام ٢٠٠١ من تأليف كريستان ليتز. وبالنظر لإخفاق واشنطن على حل لغز اليابان انظر الفصل الافتتاحى من كتاب "الحرب السرية ضد هيتلر"- (The Secret War against Hitler) عام ١٩٨٩ من تأليف ويليام كاسى من سى أى إيه.

وكتب جوان بوجول سيرته "جاربو"- (GARBO) بالاشتراك مع نيجل ويست فى ١٩٨٥. وجاء تجسيد ملامح حيل الشرق الأقصى فى سيرة بيتر فلامينج من تأليف دوف هارت - ديفيز وفى كتاب "ويفيل: القائد الأعلى"- (Wavell: supreme commander) عام ١٩٦٩ من تأليف جون كونيل وأكمله وحرره مايكل روبرت بالإضافة إلى كتاب "المخادعون"- (The Deceivers) من تأليف تاديوس هولت.

غرف مجلس وزراء الحرب هى جزء من متحف الحرب الإمبريالى، مفتوح للجماهير، ويشغل متحف تشرشل الآن الغرف التى كان يجلس بها مخططو الخداع.

الخطابات والصور التى بها نتائج القبض على كلارك فى مدريد جاء ذكرها فى مركز محفوظات تشرشل فى جامعة كامبريدج "قسم الآداب ٢٠/٢٥/٤٢-٢٥". فالملابس كما شاهدنا فيرجينيا وولف فى "أورلاندو" (Orlando) تفعل أكثر من الحفاظ على دفئنا: "إنهم يغيرون نظرتنا للعالم ويغيرون فى نظرة العالم لنا" انظر كتاب "ارتداء الملابس: ارتداء ملابس الجنس الآخر والتجرد منها - تاريخ الاستحواذ الهاجس"- (Dress-ing Up: transvestism and drag-the history of an obsession) عام ١٩٧٩ من تأليف بيتر أكرويد وكتاب "عبور المرحلة: خلافات حول اللبس الغير"- (Crossing the Stage: controversies on cross - dressing) عام ١٩٩٣ من تحرير ليسلى فيريز.

أنا ممتنة للدكتور باول أدامثوايت من أونتاريو لتزويدى برواية دافيد سيريت- "The Battle for Convoy HG-75, 22-29 Oct 1941" معركة حملة إيتش جى - ٧٥، ٢٢-٢٩ أكتوبر ١٩٤١" الذى ظهر فى كتاب "ملاحو الشمال" (The Northern Mariner) المجلد التاسع، رقم واحد.

(٢٣) مفترق الطرق

للحصول على الرواية الكاملة لأوراق اعتماد معاداة الفاشية لبورجيس انظر كتاب "بورجيس: قارئ"- (Borges: a reader) عام ١٩٨١ من تحرير إمير رودريجز مونيجال وألاستير ريد، وكتاب "بورجيس: حياة" (Borges: a life) عام ٢٠٠٤ من تأليف إدوين ويلاميسون. وكتاب "المخابرات الحربية البريطانية، القسم التاسع": الهروب والمراوغة ١٩٣٩-١٩٤٥"- (MI9: escape and evasion, 1939-1945) عام ١٩٧٩ من تأليف إم آر دى فووت و جيه إم لانجلى الرواية الكلاسيكية فى الهروب وقت الحرب. قصة كلايتون هوتين حول مساعدات الهروب، "السر الرسمى"- (Official Secret) والتى نشرت فى أمريكا فى ١٩٦١، واشتملت الصفحات الست والثلاثون الأخيرة حول قتاله مع أعضاء وزارة الطيران البريطانى فى حقبة الخمسينيات فى محاولة لمنع نشرها لأسباب "أمنية". انظر أيضًا كتاب "الحرب السرية لتشارلز فراسير - سميث"- (The Secret of War of Charles Fraser-smith) عام ١٩٨١ بسبب أنشطة غير عادية فى وزارة التموين.

انظر مجموعة تنفيذ العمليات الخاصة فى كتاب "العملاء السريون: دليل الأجهزة الخاصة" (Secret Agent's Handbook of special Devices) عام ٢٠٠٠ وكتاب "منهجية تنفيذ العمليات الخاصة: دروس الحرب غير الرحيمة"- (SOE Syllabus: lessons in ungentlemanly warfare) عام ٢٠٠١ بالإضافة إلى كتاب "تنفيذ العمليات الخاصة: الأسرار العلمية"- (SOE: the Scientific secrets) عام ٢٠٠٣ من تأليف فريديك بويس ودوجلاس إفيريت.

وقد نشر ملخص توماس هاريس فيما تعلق بقضية جاربو فى كتاب "جاربو: الجاسوس الذى أنقذ يوم الهبوط الحقيقى" - "مكتب السجلات العامة، ٢٠٠٠" من تحرير مارك سيمان.

(٢٤) القـــدر

بدأ هوف بى كوت ارتباطًا طويلاً بقارة إفريقيا فى مدرسة التمويه فى حلوان بمصر. ثم عمل فى وقت لاحق فى محيط تمساح النيل الذى أخذه آلاف الأميال عبر القارة. ويتكون الثانى من مئة وتسع من رسومات القلم الرائعة فى كتاب "أوغندا فى الأسود والأبيض" - (Uganda in Black and White) ١٩٥٩ إنها حرباء جاكسون الذى أعطى تعبيرات وجهها ومشيته المترددة؛ مما جعلها تشبه الإنسان الآلى. تجريد الجنود من ملابسهم فى الشرق الأوسط كانت فكرة سيسيل بيتون الذى وصل فى مارس ١٩٤٢ مع لجنة التصوير الفوتوغرافى من وزارة المعلومات ويمكن رؤية بعض صوره فى الشرق الأدنى "باتسفورد، ١٩٤٣".

ويغطى كتاب إريك أتكينسون "الجيش عند الفجر: الحرب فى شمال إفريقيا ١٩٤٢-١٩٤٣" - (An Army at Dawn: the war in North Africa, 1942-1943) عام ٢٠٠٢ تروتش. وقد كتب كارلو دى إيست سيرتان رائعتان عن أهم الجنرالات الأمريكيين فى كتاب "عبقرى الحرب" - (A Genius for War) عام ١٩٩٥ عن جورج إس باتون وكتاب "ايزنهاور: حياة جندى" - (Eisenhower: a soldier's life) عام ٢٠٠٢.

وحول كيفية تحطيم سير أرثر هاريز الدار البيضاء فيما يتعلق بتفجيرات ألمانيا انظر صفحتى ٢٠١-٢٠٢ فى كتاب "مفجر الحرب" - (The Bomber War) عام ٢٠٠١ من تأليف روبين نيلاندس. وجاء الاستشهاد على قياس ماكميلان اليونانى/الرومانى فى المجلد الأول من سيرة ألاستاير هورنى الرسمية فى "ماكميلان ١٨٩٤-١٩٥٦" - (Macmillan, 1894-1956)؛ ولا تزال برامج الكارتون تستخدمها عندما كان رئيس وزراء المملكة المتحدة الحكيم يتودد إلى جون إف كيندى رئيس الولايات المتحدة الشاب فى أوائل حقبة الستينيات. وجاء ذكر قصص الثلاثين هجومًا التى شنها فدائيو الوحدة أر إن فى مواضع مختلفة فى كتاب "الحصول عليها بالصدفة: الاستيلاء على كبار المخابرات السرية فى الحرب العالمية الثانية" - (Attain by Surprise: capturing top secret Intelligence in WWII) عام ٢٠٠٢ من تحرير ديفيد نوتينغ والكتاب الرائع "ثلوج القطب الشمالى وتعثر ألمانيا" - (Arctic Snow to Dust of Germany) عام ١٩٩١ من تأليف باتريك دازيل - جوب حيث يأخذ صورا لتشارلز ويلر الصغير الوسيم.

(٢٥) الخـــداع

جاءت التفاصيل عن باتريك ليج فيرمور من خاتمة طبعة جمعية فوليو ٢٠٠١ لـ "مرضى يلتقون تحت ضـوء القمر" - (Ill Met By Moonlight) الكلاسـيكيـة من تأليف ويليام اسـتانلى موس، حـيث يخبر كيف اختطف ضابطين من تنفيذ العمليات الخاصة الجنرال كريب فى جزيرة كريت فى ١٩٤٣.

"يعد تاريخ الخداع أكثر تعقيداً مما نتعقد أو نظن": من كتاب كلاوس جيرجن فى "المنظور الألمانى حول عمليات الخداع دول التحالف فى الحرب العالمية الثانية"، فى "الخداع الاستراتيجى والتشغيلى فى الحرب العالمية الثانية" (Strategic and Operational Deception in the Second World War) عام ١٩٨٧ من تحرير مايكل أى هاندل، حيث يحذر من مخاطر المبالغة فى نجاح التضليل.

وقد نشر وليام كيمبر كتاب "الراسل المجهول" - (The Unknown Courier) من تأليف إيان كولفين "مع ملاحظة عن موقف دول المحور فى البحر الأبيض المتوسط فى ربيع ١٩٤٣ كتبها المارشال كيسيلنجر" وكتاب إيوان مونتاجيو "الرجل الذى أبدا لم يكن" - (The Man Who Never Was): حيث كتب مقدمته صاحب وسام الاستحقاق الجنرال لـورد إسـماى، الأمين العـام لحـلف النـاتو ورئيس الأركان السابق فى حكومة تشرشل، "بوج" حصلت على طبعتى كتاب "تحسر العملية" و"الرجل الذى أبدا لم يكن" - (Operation Heartbreak) و (The Man Who Never Was) مع مقـدمـة من دوف كـوبر وجـون جوليوس نورويتش الذى نشره سبيلماونت فى ٢٠٠٣.

(٢٦) القـــرين

ظهر "بورجيس واى يو" – (Borges y yo) فى "الهاسدور" – (El Hacedor) فى ١٩٦٠ و"دريمتيجر" – (Dreamtigers) فى ١٩٦٤. واستعرض بورجيس فيلم فليمينج فيكتور فى ١٩٤١ "جيكيل وهايد" – (Jekyll & Hyde) فى مجلة سور، قائلاً: كان من الأفضل أن يختلف المثلان تماما لينفرد سبنسر تريسى ليبالغ فى تمثيل دوره المسرحى. وقد كتب بورجيس قصة الفشل الأخر من انتحال الشخصية– "The Implausible Imposter Tom Castro" المحتال الخارق توم كاسترو" فى ١٩٢٣. وكتب دنيس ويتلى عن مدينة– "the False Montgomery" – مونتوجمرى المزيفة" فى السابع عشر فى كتاب "مخططو الخداع: حربى السرية" – (The Deception Planners: my secret war) عام ١٩٨٠. وجاءت قصة السكر فى صفحة ١٤٠ من كتاب جوك هاسويل "المخابرات والخداع فى يوم الغزو" – The Intelligence and Deception of the D-Day Landings) عام ١٩٧٩، وقال: إن الألمان لم يعيروا اهتمامًا للكوبرهيد على الإطلاق، ولكن إصداراً جديداً فى معاملات وإنجازات جيمز تجدها فى الصفحة ٥٦٢ من كتاب (The Deceivers) – "المخادعون" من تأليف تاديوس هولت.

(٢٧) أوفرلورد وفورتيتيود

تجسد جوفيرى بويك فى كتاب "بايك: العبقرى المجهول"- (Pyke: the unknown genius) عام ١٩٥٩ من تأليف ديفيد لامب، وفصل "Science in War" العلم فى الحرب "من كتاب "هل العلم ضرورى؟"- (Is Science Necessary?) من تأليف ماكس بيروتز عام ١٩٨٩ وفصل " The Ozzard of Whizz - الطنين" مقال بول كولينز فى فورتين تايمز ١٩٧، يونيو ٢٠٠٥. وتسجل حادثة إطلاق النار الجليدية فى كتاب ألانبروك "مذكرات الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥"- (War Diaries, 1939-1945) فى التاسع عشر من أغسطس ١٩٤٣، وجاء تقرير روميل فى الصفحة ٤٥٣ فى كتاب "أوراق روميل"- (The Rommel Papers) عام ١٩٥٣.

وجاءت "حارس الأكاذيب"- (Bodyguard of Lies) عنوان كتاب ١٩٧٥ حول خداع الحرب العالمية الثانية لأنتونى كيف براون الذى على الرغم من أن الريادة ليست دائمًا دقيقة. وتوصف خطة تعديل كوزاك فى الفصل الثالث عشر من كتاب "نصر العملية"- (Operation Victory) عام ١٩٤٧ من تأليف للجنرال سير فرانسيس دى جوينجاند. ويوجد الشرح واضحًا وموجزًا من حيث التخطيط والتنفيذ فى كتاب "يوم الغزو"- (D-Day) عام ٢٠٠٤ من تأليف مارتين جيلبرت.

كان جزء من مساعدة روسيا للحرس هو الخداع فى شمال النرويج والهجوم البر مائى الوهمى من البحر الأسود من شاطئ جمهورية رومانيا. وكتب التاريخ الرسمى المصنف فى كتاب "الثبات: حملة تمويه يوم الغزو"- (Fortitude: the D-day deception campaign) والتى كتبها روجر هيسكث من ١٩٤٥-١٩٤٨ لكن على الرغم من هذا لم ينشر إلا مع حلول عام ٢٠٠٠.

وقد تم تحرير كتاب "استطلاع صور التحالف فى الحرب العالمية الثانية"- (Allied Photo Reconnaissance of World War II) عام ١٩٩٨ من تأليف كريس ستايرك والتى تعرض صور الاستطلاع الجوية لشواطئ نورماندى قبل وبعد يوم الغزو. وتوجد صورة رينيه دوشز وسرد لبعض أنشطته فى صفحة ٩٤ من كتاب "يوم الغزو: ٦ يونيو ١٩٤٤- هبوط النورماندى"- (D-Day: June 6, 1944-the Normandy Landings) عام ١٩٩٢ من تأليف ريتشارد كوليار.

وكتاب "بلوتو: خط أنابيب تحت المحيط"- (PLUTO: Pipe - Line Under the Ocean) الطبعة الثانية، ٢٠٠٤ من تأليف أدريان سيرال يطلعنا على القصة بكل تحديد. وتم عرض مزيد من الابتكار الهندسى فى كتاب "أسلحة تشرشل السرية: قصة تسالى هوبارت"- (Churchill's Secret Weapons: the story of Honart's Funnies) عام ١٩٩٨ من تأليف باتريك ديلافورس وفى كتاب جيرالد باويل "الحرب السرية ١٩٣٩-١٩٤٥"- (The Secret War, 1939-1945) عام ١٩٥٦ حول قسم الإمبريالى لتطوير الأسلحة المتنوعة.

الخداع الصوتى واللا سلكى حول يوم الغزو يتضح فى الفصلين السادس والسابع من كتاب "أحصنة طروادة: عمليات الخداع فى الحرب العالمية الثانية"- "Trojan Horses: deception operation in the Second World War" عام ١٩٨٩ من تأليف مارتن يانج وروبى استامب. وكتاب "مستشار الملك"- "King's Counsellor" عام ٢٠٠٦، المذكرات الحربية الخاصة بسير آلان لاسيليس من تحرير دوف هارت ديفيز يسجل زيارة قام بها اثنان تابعان للمخابرات الحربية فى يوم الجمعة الموافق ٣ مارس ١٩٤٤ ليشرح كيف استطاعت زيارات الملك أن تسهم فى خداع المخابرات الألمانية.

ولنقد رؤية كروسمان المؤيدة حول قوات الإشارة وعمل ديلمر انظر كتاب "سايكور: الحرب النفسية ضد ألمانيا ويوم الغزو إلى يوم النصر"- "Sykewar: psychological warfare against Germany, D-Day to Ve-Day" عام ١٩٤٩ من تأليف دانيال ليرنر.

تتضح تاكسابل وجليمر فى مقال "الخداع والتكنولوجيا ويوم الغزو"- "Deception، Technology and the D-Day invasion" من تأليف أر دبيلو برنز فى إنجينيرينج ساينز اند إديوكيشن جورنال، الإصدار الرابع، العدد الثانى، أبريل ١٩٩٥، وكتاب "الشاطئ البعيد"- "The Far Shore" عام ١٩٦٠ من تأليف عقيد بحرى إدوارد إيلسبيرج وأصدرت البحرية الأمريكية بيانًا واضحًا عما جرى من أخطاء. ولم يكن روبرت كابا هو الوحيد الذى فقد تصوره: فمعظم لقطات صور حركة هبوط الولايات المتحدة؛ قد فقدت عندما غرقت السفينة التى كان على متنها تلك الصور. وظهرت برقيات إيرين بايل ست مرات فى الأسبوع الواحد عبر الولايات المتحدة الأمريكية وقد جمعت فى ثلاثة كتب: "هنا حربكم: قصة جى أى جو"- "Here is Your War: the story of G.I. Joe" عام ١٩٤٣، وكتاب "الرجال الشجعان"- "Brave Men" عام ١٩٤٤؛ وهنا اقتباس من الفصل ٢٦، والكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه "الفصل الأخير"- "Last Chapter" عام ١٩٤٥، وجاءت القصة البذيئة من خلال الفصل ٣١ من كتاب "الحرب ومأمور السجن"- "The War and colonel Warden" عام ١٩٦٣ من تأليف جارلد باويل ومعتمدة على ذكريات القائد سى أر تومبسون.

هـذا وقـد أعيد تقـديم "ترجمة" رسالة جـاربو، كما تلقتهـا الطـابعة فى مركز عمليـات هيلـتر فى ٩ يونيـو ١٩٤٤، فى بـدايـة كـتـاب روجـر هـيـسكيث "الثـبـات: حـملة خـداع يوم الغـزو"- "Fortitude: the D-Day deception campaign".

(٢٨) الانتقــام

يوضح جزء ٣٣٧ فى المجلد الثامن من كتاب "الحرب الكبرى الثانية"– "The Second Great War" تفسيراً واضحاً للأسلحة الألمانية الانتقامية فى الحدث. وقد كتبت العديد من الكلمات عن تفجيرات ألمانيا والتى لقى فيها ٤٥٠٠٠ طيار من قوات التحالف حتفهم. ولتلقى الرأى الأدبى فى هــذا الشأن انظر كتاب "عبر التاريخ الطبيعى للدمار"– "On the Natural History of Destruction" عام ٢٠٠٣ من تأليف دبليو جى سيبالد ولتلقى الرأى الأخلاقى انظر كتاب "بين مدن الموتى" "Among the Dead Cities" عام ٢٠٠٦ من تأليف إيه سى جريلينج ولدراسات الحالة على مدينتين اثنتين انظر كتاب "الجحيم: تدمير هامبورج ١٩٤٣"– "Inferno: the destruction of Hamburg 1943" من تأليف كيث لوى وكتاب "دريسدن: الثلاثاء ١٣ فبراير ١٩٤٥"– "Dresden: Tuesday 13 February 1945" من تأليف فريدريك تايلور.

كتاب "غنائم النصر: يوم الغزو إلى يوم النصر – الحقيقة وراء البطولة"– "To the Bictor the Spoils: D-Day to VE-Day-the reality behind the heroism" عام ٢٠٠٤ من سين لونجدين تعد تفسيراً بحثيا ممتازاً؛ حيث كان يبدو الجندى المجند فى مجمــوعة الجيش ٢١ فى ألمانيا شرساً وقذراً ومتجهماً. وكان تفسير ريتشارد ديمبليبى من بيلسين قد طبع جزء منه فى كتاب "تقرير الحرب: يوم الغزو إلى يوم النصــر" "War Report: D - Day to Ve-Day" عـام ١٩٤٦ وطبع كله كاملاً فى ترجمة له قام به ولده جوناثان ديمبليبى فى ١٩٧٥.

المؤلف فى سطور

نيكولاس رانكين

- نيكولاس رانكين مذيع وكاتب بريطانى. ولد فى عام ١٩٥٠ بمدينة يوركشاير بإنجلترا، لكنه نشأ فى كينيا، وتلقى تعليمه فى مدرسة شروزبرى بأكسفورد، وعاش وعمل فى بوليفيا وكاتالونيا بإسبانيا.
- عمل مذيعًا بهيئة الإذاعة البريطانية لمدة ٢٠ عامًا. وحصل على جائزتين من الأمم المتحدة عن مؤلفه: البيئة وقضية النشوء والتطور وحركة الكواكب (ثمانية أجزاء).
- وهو يعمل حاليًا كاتبًا حرًا، ويعيش فى لندن مع زوجته الروائية ماجى جى وابنته الوحيدة روزا.

اختير لزمالة الجمعية الملكية للأدب عام ٢٠٠٩.

ومن أهم أعماله:

- Dead Man's Chest: Travels after Robert Louis Stevenson. London, Faber and Faber, 1987. ISBN 9780571138081.
- Telegram from Guernica: The Extraordinary Life of George Steer, War Correspondent. London, Faber and Faber, 2003. ISBN 9780571205639; Reviewed by Robert Macfarlane in The Observer April (2003), Reviewed by DJ Taylor in the Guardian April (2003).

- Churchill's Wizards: The British Genius for Deception 1914-1945. Faber and Faber. 2008. ISBN 9780571221950.; Reviewed by An-Reviewed by .drew Roberts in the Sunday Telegraph October (2008) Michael Bywater in the Daily Telegraph17 November (2008), Reviewed by M. R. D. Foot in The Spectator 308/9397 (4 October 2008): 44.
- Ian Fleming's Commandos: The Story of 30 Assault Unit in WWII. Londo Faber and Faber, 2011. ISBN 9780571250622; Reviewed by William Boyd in the Guardian22 October (2011).

المترجم فى سطور:

على أمين على

- مترجم مصرى حر.
- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- صاحب ترجمة كتاب "الأجندة الخفية للعولمة" تأليف دينيس سميث، وكتاب "أسرار مصر" للكاتب لويس سبينس، وأسهم فى ترجمة العديد من الكتب، ومنها كتاب "الاتيكيت فى الإسلام" للدكتورة ماجدة عامر، وكتاب "فتاوى من أجل فلسطين" للدكتور يوسف القرضاوى، وكتاب "الزكاة" الصادر عن مؤسسة الفلاح للترجمة والنشر.

التصحيح اللغوى: كريمان البدرى
الإشراف الفنى: حسن كامل